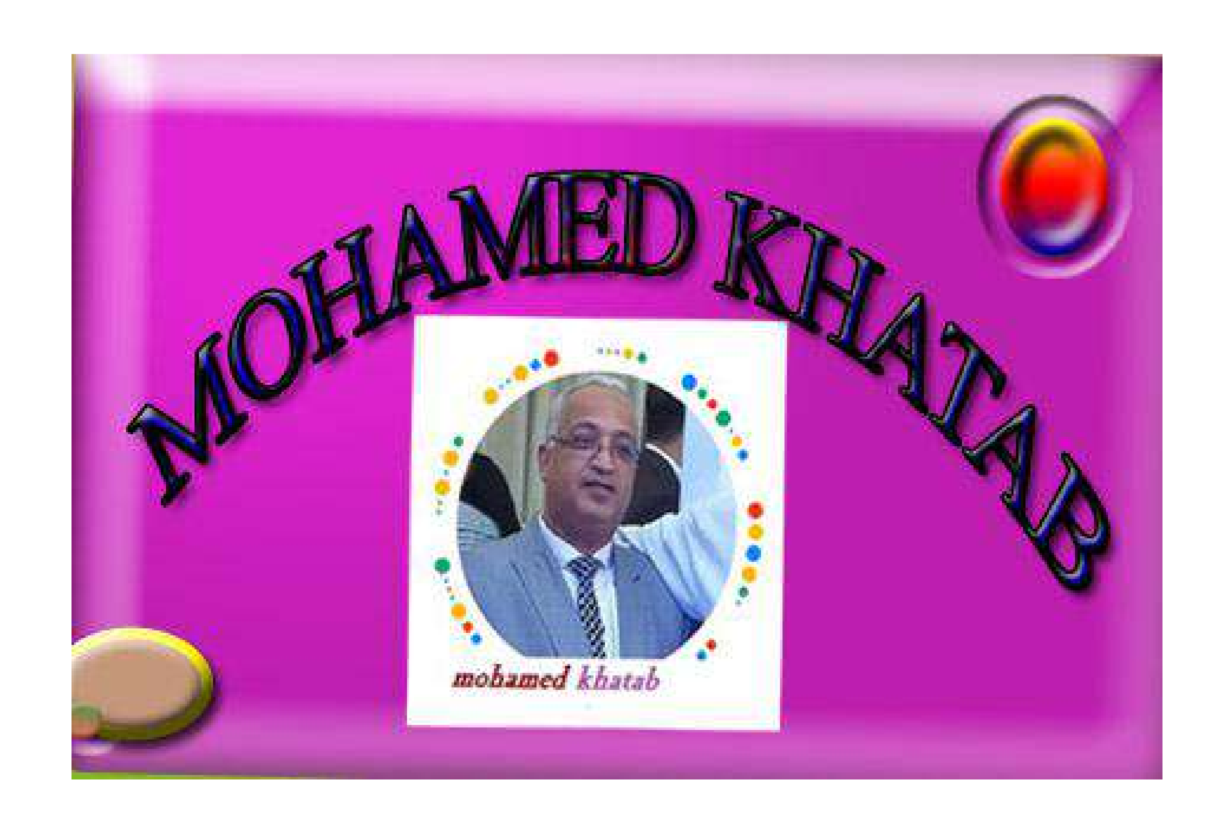
د. محمّد شحرور

الكتاب والقرآن

رؤيَة جَديدة





https://t.me/kotokhatab

د. محمّد شحرور

الكتاب والقرآن

رؤية جديدة



الكتاب والقرآن

رؤية جديدة

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- الإسلام والايمان: منظومة القيم
- الدين والسلطة: قراءة معاصرة للحاكمية
- السنّة الرسولية والسنّة النبوية
- القصص القرآني : مدخل إلى القصص وقصة آدم (المجلد الأول)
- القصص القرآني: من نوح إلى يوسف (المجلد الثاني)
- أمُّ الكتاب وتفصيلها: قراءة معاصرة في الحاكمية الإنسانية
- نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي: أسس تشريع الأحوال الشخصية

محمّد شحرور

الكتاب والقرآن

رؤية جديدة



الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١١

الطبعة الورقية الثالثة، ٢٠١٦

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٨

ISBN-978-614-03-0168-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢.
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

e-mail: info@daralsaqi.com
الموقع الإلكتروني للمؤلّف

www.shahrour.org

www.shahrour.info
يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com
تابعونا على

@DarAlSaqi



دار الساقي

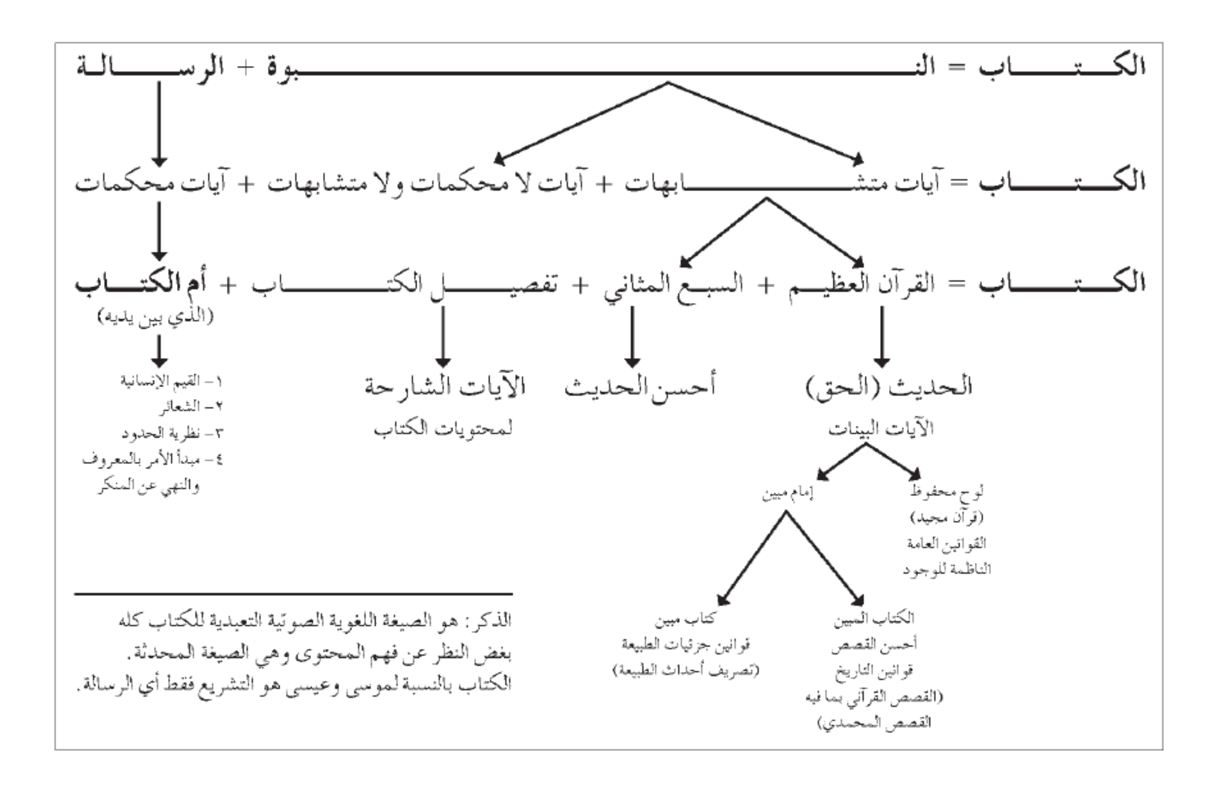


Dar Al Saqi



كلمة شكر

لا بد لي، بعد إنجاز هذه "الرؤية الجديدة" للكتاب والقرآن، بما فيها من إضافة وحذف وتنقيح، إلا أن أشكر الباحثة "آسية وعيل" على مشاركتها الفعالة المفيدة في إخراج هذه "الرؤية" إلى النور، فإليها يعود الفضل في إتمامها بفترة وجيزة.



الكتاب = النبوة + الرسالة
الكتاب = آيات متشابهات + آيات لا محكمات ولا متشابهات + آيات محكمات
الكتاب = القرآن العظيم + السبع المثاني + تفصيل الكتاب + أم الكتاب
(الذي بين يديه)
الحديث (الحق)
الآيات البينات
أحسن الحديث
الآيات الشارحة
لمحتويات الكتاب
١ – القيم الإنسانية
٢ – الشعائر
٣ – نظرية الحدود
٤ – مبدأ الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر
لوح محفوظ
(قرآن مجيد)
القوانين العامة
الناظمة للوجود
إمام مبين
الكتاب المبين
أحسن القصص
قوانين التاريخ
(القصص القرآني بما فيه
القصص المحمدي)
كتاب مبين
قوانين جزئيات الطبيعة
(تصريف أحداث الطبيعة)
الذكر: هو الصيغة اللغوية الصوتية التعبدية للكتاب كله
بغض النظر عن فهم المحتوى وهي الصيغة المحدثة.
الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط أي الرسالة.

مقدمة الطبعة الثانية

"رؤية جديدة"

مازلنا ندعو إلى قراءة معاصرة، وفي هذه الطبعة نحاول الصعود درجة في قراءتنا المعاصرة لنصل بها إلى رؤية جديدة إيجابية تدخل بنا إلى حيّز التدقيق لما قدمناه في كتابنا هذا آنفاً.

عشرون عاماً مضت على إصدار الطبعة الأولى من الكتاب الأول (الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة)، تم خلالها إعادة نشر هذه الطبعة مرات عديدة، كما تم نشر كتب أخرى بعده جاءت بمثابة تطبيق للمنهج الذي طرحه الكتاب الأول، قمنا فيها بدراسة المواضيع التالية:

١– دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع: الصادر عام ١٩٩٤، تم فيه شرح ظاهرة الاستبداد، مع تقديم قراءة معاصرة لموضوع الناسخ المنسوخ بعد نقد القراءة التراثية له.

٢– الإسلام والإيمان (منظومة القيم): الصادر عام ١٩٩٦، تم فيه شرح الفرق بين الإسلام والإيمان كتطبيق عملي لمنهج قراءتنا المعاصرة في إنكار الترادف، مع إضافة عدة مواضيع أخرى ذات الصلة بهذا الموضوع.

٣– نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي (فقه المرأة): الصادر عام ٢٠٠٠، تم فيه طرح نظرية جديدة عن المواريث، مع شرح مستفيض للمواضيع المتعلقة بفقه المرأة بما فيها: الحجاب، القوامة، والتعددية الزوجية، كتطبيقات عملية لمنهجنا المعاصر.

٤– تجفيف منابع الإرهاب: الصادر عام ٢٠٠٨، تم فيه شرح مفاهيم كل من الجهاد والقتال، الولاء والبراء، التي جاء شرحها بعد تقديم التعاريف والمنهج المتبع في الفصل الأول من الكتاب.

٥– القصص القرآني (الجزء الأول): الصادر عام ٢٠١٠، تم فيه تقديم طرح معاصر لقراءة التاريخ والقصص القرآني، مع عرض قصة آدم بشكل يتماشى مع المستوى المعرفي المتوصل إليه في مجال العلوم.

٦– القرآن والأخلاق والعقل النقدي: الصادر عام ٢٠٠٩ باللغة الإنجليزية، يتضمن مجموعة من المواضيع المنتقاة من كتبنا السالفة الذكر.

لقد جرى في هذه الطبعة الجديدة تعديل وتنقيح بعض المواد والمواضيع، كما جرى حذف وإضافة بعض آخر. أما التعديلات والتنقيحات فتناولت الأغلاط المطبعية، مع إعادة صياغة لجملة هنا

وعبارة هناك تخدم دقة المعنى المقصود ووضوحه. أما الإضافات فهي كالتالي:

١– تحديد مفهوم القصص المحمدي كجزء من القرآن على ضوء الفرق بين الخبر والنبأ، وبيان أنه للعبر لا للتشريع، لأن الأحكام التشريعية لا علاقة لها بالقصص المحمدي بل تؤخذ من الرسالة. وأضيف ذلك للباب الأول من الكتاب: الذكر.

٢– أضيف مفهوم الناسخ والمنسوخ، كما ورد في كتابنا الثاني المعنون: (دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع)، إلى الباب الثالث أم الكتاب وأزمة الفقه الإسلامي.

أما المواضيع التي تم حذفها من الكتاب فهي كالتالي:

١– حُذف موضوع السنة من الباب الثالث: أم الكتاب، على أن يتم إصداره في كتاب مستقل.

٢– حُذفت مواضيع فقه المراة: الوصية والميراث، الحجاب، القوامة، والتعددية الزوجية، لورودها مفصلة في كتابنا: (نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي: فقه المرآة).

٣– حُذف موضوع القصص القرآني من الباب الرابع، لأنه سيصدر تباعا في عدة أجزاء صدر أولها عام ٢٠١٠.

٤– حُذف موضوع: (أسرار اللسان العربي) للدكتور جعفر دك الباب الوارد كملحق في النسخة السابقة للكتاب، على أن ينشر على شكل كتيب منفصل مستقل.

كما يجدر بنا الإشارة إلى أنّه، اعتبارا من كون هذا الكتاب أول الكتب التي قمنا فيها بوضع منهجية للقراءة المعاصرة، فإن هذه المنهجية تتطور مع كل دراسة جديدة قمنا ونقوم بها في كتبنا التي تلت وتلي هذا الكتاب. ونتج عن ذلك أن بعض المفاهيم الواردة في هذا الكتاب قد تم تطويرها بعد أن قمنا بتعميق النظر فيها، وهذه المفاهيم متعلقة بمصطلحات هي: "الإسلام" و"الإيمان" ومن ثمّ "المسلمون" و"المؤمنون"، بحيث أصدرنا بعد كتابنا هذا، كتابنا "الإسلام والإيمان منظومة القيم" بيّنا فيه المفهوم الصحيح لكل من المصطلحات: الإسلام والإيمان والمسلمون والمؤمنون كما جاءت في الكتاب. وكذلك مفهوم مصطلح "الشهيد" الذي أوصلنا تطبيق قراءتنا المعاصرة على نصوص التنزيل إلى مفهوم مغاير تماما للمفهوم التراثي، وقد ناقشنا هذا الموضوع في نفس الكتاب أي "الإسلام والإيمان". لكننا أبقينا هذه المصطلحات كما هي في هذا الكتاب حتى يحافظ على الأفكار الأصلية التي جاءت فيه. وهذا الأمر إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ القراءة المعاصرة التي انتهجناها في بداية التسعينات تسير بنا بخطى ثابتة لمزيد فهم لنصوص التنزيل الحكيم وفق أرضية معرفية معاصرة تزيل التناقضات التي نجدها في القراءة التراثية وتحل الإشكاليات التي تتخبط فيها هذه الأخيرة.

أخيرا لا يسعني، وأنا أخط مقدمة هذه الطبعة، إلا أن أعبر عن عظيم غبطتي لأنه عندما صدرت الطبعة الأولى من الكتاب والقرآن كان كاتب سطوره يعيش وحدة فكرية منقطعة النظير، ولم يكن له فيها أنيس سوى أفكاره التي طرحها فيه. أما اليوم وبعد ربع قرن، فستصدر الطبعة المنقحة من الكتاب ومعي عشرات الآلاف من المؤيدين والمهتمين الناطقين بالعربية، في مختلف أصقاع الوطن العربي وفي دول العالم أجمع، وإن كان هذا دليلا فإني أعتبره كافيا على أن الزمن يسير باتجاه دعم هذه الأفكار التي أراها قادرة على النهوض بالفكر العربي من الوضع السكوني الذي يعرفه العرب نتيجة حالة الكينونة والسيرورة التي يعيشونها، كي يتمكنوا من خلق صيرورة لأنفسهم تمكنهم من المشاركة في مسيرة المعرفة الإنسانية، لأني مقتنع بأنه لا يمكن أن يكون هناك أي تغيير سياسي نحو الأمام في أي بلد عربي إن لم يسبقه تغيير ثقافي لدى الناس أنفسهم، فالتطور الثقافي يجب أن يتقدم على التطور السياسي ولو بخطوة واحدة حتى يكون هذا الأخير إيجابيا، وأي تغيير سياسي بدون تغيير ثقافي سابق في أي منطقة في الوطن العربي سيتولد عنه مستبد جديد عوضا عن القديم، لأن أزمة الشعوب العربية بشكل خاص أزمة ثقافية قبل أن تكون سياسية.

أرجو من الله أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

الدكتور المهندس محمد شحرور

تقديم المنهج اللغوي في الكتاب

بقلم الدكتور جعفر دكّ الباب

يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم كتاب الصديق الدكتور المهندس محمد شحرور وعنوانه "الكتاب والقرآن". لن أركز في تقديمي على الموضوعات الهامة التي بحثها المؤلف في الكتاب، لأنه سيعرضها بنفسه في المقدمة. ولن أطنب في ذكر الجوانب الإيجابية، في بنية الكتاب، التي مكنت المؤلف من الأخذ تدريجياً بيد القارئ للسير معه خطوة خطوة، من أجل الوصول إلى الأمور الجديدة، التي ينطبق عليها بحق وصف "قراءة معاصرة". ولن أعمد إلى الإشادة بحرص المؤلف الشديد على الدقة المتناهية في صياغة أفكاره، بالشكل الذي يمكن من إيصالها إلى القارئ كما أراد هو، لا كما قد يحاول كثيرون، لمآرب شتى، تسليط الضوء على جوانب منها فقط، والتعتيم على جوانب أخرى، وذلك بغية استغلالها في خدمة مقاصد يسعون إلى تحقيقها. ولكني أنوه بأن الصديق الدكتور المهندس محمد شحرور مؤمن إيماناً راسخاً بأن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لمحمد (ص)، لأنه خاتم الأنبياء والرسل. لذا فإن المؤلف يتمسك بيقين لا يتزعزع بمسلمة أن "القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان إلى يوم الدين"، ويرى أن الدليل على كون القرآن معجزاً، لأنه من عند الله، هو دليل علمي يجب أن تتضافر جهود أكابر العلماء، في شتى فروع المعرفة الإنسانية، من أجل تقديمه.

لقد توصل الدكتور شحرور في قراءته المعاصرة إلى نتائج جديدة مغايرة لما هو سائد الآن في التراث العربي الإسلامي. ولبيان كيف توصل الباحث إلى هذه النتائج، لا بد في البدء من عرض المنهج اللغوي الذي تبناه المؤلف، ثم الإشارة إلى أهم النتائج التي توصل إليها بفضل ذلك المنهج.

المنهج اللغوي الذي تبناه المؤلف: تبنى الدكتور شحرور المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية، الذي طرحته لدى دراستي الخصائص البينوية للعربية، في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة. لقد استنبطت أسس ذلك المنهج من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. فما هي الملامح العامة لهذا الاتجاه؟

الملامح العامة لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية: بلور ابن جني في "الخصائص" والإمام الجرجاني في "دلائل الإعجاز" اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في نظريتين

متتامتين.

بعض جوانب نظرية ابن جني التي بلورها في "الخصائص"

أ– انطلق ابن جني من منطلق وصف البنية اللغوية، لأن بحثه في "الخصائص" كان يدور بشكل رئيسي في نطاق بنية الكلمة المفردة. فعمد إلى دراسة الأصوات التي تتألف الكلمات منها، وسعى إلى اكتشاف القوانين التي تنظم العلاقة بين الأصوات في الكلمة. فبحث في الاشتقاق وأنواعه، ودرس التقليبات الممكنة للكلمة الواحدة، وبيّن أن الأمر المشترك الذي يجمع التقليبات هو وحدة المعنى. وأفضى ذلك به إلى القول بوجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول. ويعني هذا أن ابن جني لجأ إلى الوصف التطوري لبنية الكلمة الذي يأخذ بالاعتبار عامل الزمن.

ب– اهتم ابن جني باكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي. لذا يتبين – لدى البحث في نشأة اللغات– نظرية التوقيف أو الاصطلاح، بل جوزهما على حد سواء لأن ذلك لا يغير من حقيقة القوانين اللغوية. ولكن ابن جني أكّد بشكل حازم على أمرين:

١– لم تنشأ اللغة في وقت واحد، بل نشأت في أوقات متلاحقة.

٢– كانت اللغة باستمرار تحافظ على اتساق نظامها.

ج– بحث ابن جني في القوانين الصوتية العامة التي ترجع إلى الخصائص الفيزيولوجية للإنسان (وعبر عنها بحس المتكلم). كما وازن بين لغة العرب ولغة العجم.

بعض جوانب نظرية الإمام الجرجاني التي بلورها في كتابه "دلائل الإعجاز"

أ– انطلق عبد القاهر الجرجاني من منطلق وصف البنية اللغوية وبيان وظيفتها الإبلاغية لأنه بحث في نظم الكلم. فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة الإبلاغية لأنه بحث في نظم الكل. فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة الإبلاغية التي تؤديها في الكلام، انطلاقاً من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض. وكان يرى ان اللغة نظام لربط الكلمات. ولدى السعي لاكتشاف هذا النظام، لم يكن الجرجاني بحاجة إلى وصفه وصفاً تطورياً، بل عمد إلى وصفه وصفاً تزامنياً. وأدى ذلك به إلى القول باعتباطية الإشارة اللغوية.

ب– انصب اهتمام الجرجاني على اكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي وأكد ارتباط اللغة بالتفكير. ولدى البحث في نشأة اللغات، بين دور التفكير في نشأة اللغة. وجوّز الجرجاني–كما فعل ابن جني– القول بأن اللغة تواضع أو إلهام. ولكنه أكد أن مهمة الكلمات المفردة لم تقتصر منذ بداية وضعها على (التسمية) فقط، بل كانت مهمتها مرتبطة أيضاً بـ"الإبلاغ".

ج– بحث الجرجاني في القوانين اللسانية العامة وقرر ما يلي:

١– لا يمكن أن تكون الكلمة المفردة أدل على معناها الذي وضعت له من كلمة أخرى، سواء أكان ذلك في لغة واحدة أم في لغات مختلفة.

٢– الخبر معنى بين شيئين، وليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل.

إنني أرى أن نظريتي ابن جني والجرجاني متتامتان، بل يصح القول أنهما تؤلفان جانبين لنظرية لسانية واحدة تعبر–برأيي– عن اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. ويظهر التتام بين النظريتين جلياً في الأمرين التاليين:

أ– ضرورة الربط بين الدراسة التزامنية للنظام اللغوي (التي تقدمها نظرية الجرجاني) والدراسة التطورية له (التي تقدمها نظرية ابن جني).

ب– ضرورة الربط بين القول بأن اللغة لم تنشأ دفعة واحدة (الذي اعتمدته نظرية ابن جني) والقول بارتباط نشأة اللغة بالتفكير (الذي اعتمدته نظرية الجرجاني) ويعني ذلك أن اللغة قد نشأت وتطور نظامها واكتمل، بشكل مواز لنشأة التفكير الإنساني وتطور نظامه واكتماله.

وأرى أن الملامح العامة لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية يمكن تحديدها في المبادئ التالية:

١– الانطلاق من أن اللغة نظام.

٢– اللغة ظاهرة اجتماعية، وترتبط البنية اللغوية بوظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة.

٣– تلازم اللغة والتفكير.

وبما أن النظام اللغوي في حركة مستمرة، لذا يجب أن يستخدم في دراسته منهج تاريخي علمي. ويقوم المنهج التاريخي العلمي–الذي استنبطناه من التتام بين نظريتي ابن جني وعبد القاهر الجرجاني–على المبادئ التالية:

١– التلازم بين النطق والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني. وإدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه كان البداية الأولى في تكون التفكير الإنساني. وقد نطق الإنسان الأصوات بشكل واعٍ ليستخدمها وسيلة لنقل أغراضه للآخرين.

٢- لم ينشأ التفكير الإنساني مكتملاً طفرة واحدة، وانطلق خط السير العام لتطوره من إدراك المشخص المحسوس واكتمل بالانتقال إلى المجرد. كما أن النظام اللغوي لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة، بل نشأ واكتمل تدريجياً بشكل مواز لنشأة التفكير الإنساني واكتماله. ويتجلى اكتمال النظام اللغوي في اكتمال أصوات اللغة وتعبير مفرداتها عن المجردات واكتمال نظامها القواعدي "الصرفي والنحوي" أي صيغ تغير "تصرف" كلماتها المفردة وأنماط علاقاتها التركيبية. أما مرحلة ما قبل اكتمال النظام اللغوي فتتجلى في عدم اكتمال أصوات اللغة، وفي تعبير مفرداتها عن المحسوسات فقط، وفي عدم اكتمال صيغ تصرف الكلمات المفردة فيها، وأنماط علاقاتها التركيبية.

٣- إنكار الترادف الذي قد يظنه بعضهم سبباً لتميز لغة ما بثراء مفرداتها وسعة التعبير فيها. والنظر إلى ما يعد من الترادف في لغة ما على أنه يعكس مرحلة تاريخية قديمة كانت فيها ألفاظ تلك اللغة تعبر عن التفكير القائم على إدراك المشخص ولم تكن فيها التسميات الحسية قد استكملت بعد تركيزها في تجريدات.

٤- يؤلف النظام اللغوي كلاً واحداً، توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه، في علاقة تأثير متبادل فيما بينها. ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة لبقية المستويات، لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية الأعلى. ولا يمكن تفسير خصائص المستوى الصوتي بحقائق من المستويات الأعلى، في حين أن العكس ممكن.

٥- يجب علينا-لدى دراسة النظام اللغوي- أن نهتم بما هو عام ومطرد، دون أن نهمل الاستثناءات، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد. وبذا نتمكن من دراسة النظام اللغوي في وضعه الراهن (المتزامن) وفي تطوره في آن واحد. وخير دليل علمي، وأفضل الشواهد التاريخية، هو المادة اللغوية نفسها للغة حقيقية معروفة. وعليه فمن أجل دراسة تاريخ اللغات، يجب الاستناد إلى مادة لغوية تثبت الشواهد التاريخية أنها كانت موجودة فعلاً وليست مفترضة الوجود فقط.

وبالاستناد إلى المنهج التاريخي العلمي في الدراسات اللغوية نفهم الوظائف العامة للغات الإنسانية وخصائصها البنيوية، فنقرر ما يلي:

كانت اللغة الإنسانية منذ نشأتها الأولى أصواتاً نطقها الإنسان بشكل واع لاستخدامها وسيلة لإبلاغ الآخرين أغراضه وفهم أغراضهم، في عيشه المشترك معهم من ناحية، ولاستخدامها من ناحية أخرى وسيلة يصوغ بواسطتها أفكاره، ويعبر عن مشاعره. والصفات العامة للغات الإنسانية تحددها الأمور المشتركة بين الناس جميعاً والمتمثلة فيما يلي:

١– البنية التشريحية الواحدة لجهاز النطق الإنساني.
٢– الطرائق العامة الواحدة للتفكير الإنساني.
٣– النزوع الإنساني الواعي للحياة الاجتماعية.

وتتلخص هذه الأمور المشتركة في العبارة القديمة التي عرفت الإنسان بأنه كائن ناطق مفكر اجتماعي.

وبما أن اللسانيات العامة تبحث في القوانين المشتركة بين جميع اللغات الإنسانية فإنها تدرس الأصوات اللغوية وتبين كيف تستخدم تلك الأصوات أوعية للمعاني (أي للأفكار الإنسانية) ووسيلة للإبلاغ (أي للاتصال) في المجتمع الإنساني.

وعلى الرغم من وجود صفات عامة، تشترك فيها جميع اللغات الإنسانية، فإنه توجد صفات أخرى غير مشتركة، تتجلى في وجود بعض خصائص بنيوية تتمتع بها لغة أو مجموعة من اللغات. ويرجع ذلك برأينا إلى بداية العلاقة بين البنية اللغوية والتفكير الإنساني.

إننا نرى أنه كان هناك تلازم بين اللغة والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني، إضافة إلى أن اللغة الإنسانية كانت في نشأتها الأولى منطوقة. وعليه فإن الصيغة الأولى كانت لفظة تعبر عن فكرة وتؤدي غرضاً إبلاغياً.

ومن استعراض التاريخ الحضاري للإنسانية يظهر أن التفكير الإنساني لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة، وأن خط السير العام لتطور التفكير الإنساني انطلق من إدراك المشخص المحدد ''بحاستي السمع والبصر''. واكتمل بالإنتقال إلى المجرد العام، كما يظهر أن البنية اللغوية لم تنشأ مكتملة دفعة واحدة. وقد تطورت البنية اللغوية واكتملت تدريجياً بشكل مواز لتطور التفكير الإنساني واكتماله. ونرى أن اختلاف طرائق تطور البنى اللغوية واكتمالها قد أدى إلى اختلافات بنيوية بين اللغات، وترتب عنه تمتع لغة أو مجموعة من اللغات بخصائص بنيوية متميزة.

وبما أنّ الدكتور شحرور تبنى المنهج التاريخي العلمي، فقد ركز على التلازم بين اللغة والتفكير ووظيفة الاتصال منذ بداية نشأة الكلام الإنساني، وانطلق من أن اللغة الإنسانية كانت منطوقة في نشأتها الأولى، وأنكر ظاهرة الترادف في العربية. لذا اختار الباحث (معجم مقاييس اللغة) لابن فارس واعتمده مرجعاً هاماً يستند إليه في تحديد فروق معاني الألفاظ التي بحث فيها، لأن ابن فارس تلميذ ثعلب وقد أخذ برأي أستاذه حول التباين بين اسم الذات واسم الصفة، وعبارة ثعلب مشهورة ''ما يظن في الدراسة اللغوية من المترادفات هو من المتباينات''.

أهم النتائج التي توصل المؤلف إليها بفضل المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية

يعتبر الباب الأول ”الذكر“ الأرضية النظرية الجديدة التي استند الباحث فيها إلى إنكار ظاهرة الترادف في العربية، متابعاً في ذلك عدداً من كبار علماء العربية، ”ومنهم ثعلب وابن فارس وأبو علي الفارسي“. لذا رفض الباحث المقولة السائدة التي ترى أن لفظتي ”الكتاب“ و”القرآن“ مترادفتان، وأكد تباينهما وعدم ترادفهما. قال المؤلف هذا انطلاقاً من فهمه أسرار اللسان العربي، حيث أن القرآن عربي وأنزل بلسان عربي مبين. لقد وصل الباحث إلى ذلك انطلاقاً من فهم جديد قدمه لمعنى ”ترتيل القرآن“.

إن المعنى السائد للترتيل هو التأنق في تلاوته[1] وأشار الزمخشري في ”أساس البلاغة“ في مادة ”ر ت ل“ أن من المجاز: {وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا} إذا ترسل في تلاوته وأحسن تأليف حروفه، وهو يسترسل في كلامه ويترتل. ولكن الباحث استند إلى الأصل اللغوي في المادة ”ر ت ل“ رتل الشيء: نسقه ونظمه. وقال لا يمكن أن يكون المقصود في عبارة {وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا} الوارد في سورة المزمل {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} (الآيات ١–٥) تأنق في تلاوته، لأن ما جاء في الآية التالية {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} لا يرتبط من قريب أو بعيد بالتأنق في التلاوة، حيث أن ”وصف القول بالثقيل“ لا يقصد به الثقل في التلفظ والنطق، بل وعورة فهم معنى ما يشتمل عليه القرآن من علم. وإذا كان ذلك كذلك اتضح أن معنى {وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا} هو رتب أو نظم الموضوعات الواحدة الواردة في آيات مختلفة من القرآن، في نسق واحد كي يسهل فهمها.

1 – كما ورد في ”المعجم الوسيط“ الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة – إصدار المكتبة العلمية – طهران.

انطلاقاً من هذا الفهم الجديد لترتيل القرآن، قام الباحث بجمع ”ترتيل“ جميع الآيات التي وردت فيها لفظة ”القرآن“ وجميع الآيات التي وردت فيها لفظة ”الكتاب“، واستنطقها، فظهر حينئذ بجلاء الفرق بينهما.

قد يصاب القارئ بصدمة عند وصوله إلى النتيجة المعروضة في باب ”الذكر“ والتي تقول بعدم ترادف القرآن والكتاب، ووجود فرق بينهما، لأن هذه النتيجة تهدم التصور السائد في فهم الإسلام القائم على ترادف القرآن والكتاب.

بعد تقبّل النتيجة قد يصاب القارئ بحيرة، لأن قبول هذه النتيجة يستوجب بالضرورة تقديم تصور جديد في فهم الإسلام قائم على تباين القرآن والكتاب. وقد أدرك الدكتور شحرور ذلك، فلم يترك القارئ في حيرته بعد الصدمة، بل قدم له التصور الجديد الذي يقترحه في فهم الإسلام، بالاستناد إلى نتائج استخدام المنهج التاريخي العلمي في دراسة آيات الذكر الذي تعهد الله بحفظه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر ٩). ومعروف أن الذكر هو الصيغة الصوتية المنطوقة لما يشتمل عليه المصحف بين دفتيه.

في الباب الثاني "جدل الكون والإنسان" عمد الباحث إلى جمع "ترتيل" الآيات التي اشتملت على موضوعات خلق الكون، وخلق الإنسان، ونشأة الألسن، واستنطقها. فأكدت هذه الآيات أن القرآن يشتمل على قانون الجدل العام {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} (القصص ٨٨) من ناحية، ويشتمل من ناحية أخرى، على قانون الجدل الخاص بالإنسان، الذي أبانه الله عن الحيوان بنفخة الروح، التي مكنته من الارتقاء عن عالم الحيوان بالعقل، ليصبح خليفة الله في الأرض بواسطة العلم. كما أكدت تلك الآيات ارتباط اللغة والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني، وأن اللغة الإنسانية الأولى كانت منطوقة في نشأتها الأولى، وأن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم الخارجي المادي الذي يتعرف الإنسان عليه بواسطة القلم أي بمنهج تقليم "تمييز" سماته المختلفة.

وفي الباب الثالث "أم الكتاب والسنة والفقه" وصل المؤلف في الفصل الأول "أم الكتاب الرسالة" إلى فهم جديد للحدود الواردة في آيات الذكر الحكيم، وقدم رؤية جديدة للصراط المستقيم وللمعروف والمنكر. وفي الفصل الثاني "السنة" طرح المؤلف فهماً جديداً للسنة النبوية. وفي الفصل الثالث "الفقه الإسلامي" دعا الباحث إلى فقه جديد، ينطلق من مبدأ التلازم بين الاستقامة والحنيفية، وقدّم المؤلف هنا نموذجاً للفقه الجديد في دراسة موضوع المرأة في الإسلام.

وفي الباب الرابع "الشهوات الإنسانية والقصص في القرآن" قدم المؤلف في الفصل الثاني نموذجاً للترتيل والتأويل في القصص القرآني.

في ختام هذا التقديم للمنهج اللغوي، في كتاب الدكتور المهندس محمد شحرور، الموسوم "الكتاب والقرآن" أرجو أن أكون قد وفقت في تعريف قارئ الكتاب بأسس المنهج اللغوي الذي تبناه المؤلف، وآمل أن أكون قد نجحت في بيان أهم النتائج التي توصل المؤلف إليها، بفضل ذلك المنهج اللغوي وأسهمت بالتالي في تهيئة القارئ لفهم الأمور الجديدة التي طرحها الدكتور محمد شحرور في دراسته المعاصرة للكتاب والقرآن.

دمشق في ١٥ رجب ١٤١٠ه، ١٠ شباط ١٩٩٠م.

الدكتور جعفر دك الباب

مقدمة الطبعة الأولى للقراءة المعاصرة

لو رسم أحدنا صورةً لوجه إنسان بعين واحدة فقط، فإن أول ناظر إليها سيلاحظ الخطأ في الرسم، ولن يتردد بأن يقول: تنقصها عين. لكنه لو رسم الوجه من مرآة (أي رسم الوجه معكوساً) فقد يراها ملايين الناس لمدة طويلة من السنين دون أن يلاحظوا أنها معكوسة. ومثل هذا حصل لأهل الأرض على مدى مئات السنين عندما كانوا يعتقدون أن الشمس تدور حول الأرض، ولكنهم كانوا عاجزين عن تفسير بعض الظواهر انطلاقاً من مسلمتهم هذه، حتى جاء شخص واحد، بشر منهم ومثلهم قال: إن العكس هو الصحيح، والأرض هي التي تدور حول الشمس.

من هذه الحقيقة التاريخية التي حصلت فعلاً تبيّن لي بعد ربع قرن من البحث الدؤوب والتفكر الطويل والتأمل الواعي أننا، نحن المسلمين، مأسورون لمسلمات قد يكون بعضها معكوساً تماماً، وسأمثل لها في الصفحات القريبة الآتية.

بيد أنني أستميح القارئ الكريم عذراً، لأطلب إليه التريث في الحكم عليَّ قبل أن يمضي معي في رحلة هذا الكتاب، وألا يتسرع – بحكم بعض مسلماته الموروثة، التي سأثبت له بالبرهان أنها معكوسة – بنبذ كتابي قبل الصبر على صحبته، لأنه سيجد فيه احتراماً شديداً وإكباراً عظيماً لفكره وعقله، وإن فقد في كتابنا هذا الاحترام والإكبار نفسيهما لعواطفه. ومن هنا نستعين بالله تعالى ونقول:

لقد دخل العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري والعقد الأخير من القرن العشرين الميلادي، والأدبيات الإسلامية تطرح الإسلام عقيدة وسلوكاً دون أن تدخل في العمق الفلسفي للعقيدة الإسلامية. منطلقة في ذلك من أطروحات، اعتبرتها من مسلمات العقيدة الإسلامية، وهي لا تدري أن هذه المسلمات بحاجة إلى إعادة نظر. فدارت هذه الأدبيات في حلقة مفرغة، ولم تصل إلى حل المعضلات الأساسية للفكر الإسلامي (التقليدي)، مثل أطروحة القضاء والقدر، والحرية، ومشكلة المعرفة، ونظرية الدولة، والمجتمع، والاقتصاد والديمقراطية، وتفسير التاريخ، بحيث ينتج عن ذلك فكر إسلامي معاصر يحمل كل مقومات المعاصرة شكلاً ومضموناً، دون الخروج عن المقومات الأساسية للعقيدة الإسلامية في أبسط أشكالها، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

إنّ الفكر العربي المعاصر، ومن ضمنه الفكر الإسلامي، يعاني من المشاكل الأساسية التالية:

١– عدم التقيد بمنهج البحث العلمي الموضوعي في كثير من الأحيان، وعدم تطبيق الكتاب المسلمين لهذا المنهج على النص القدسي الديني المتمثل بآيات الكتاب الموحى إلى محمد (ص). حيث أول شرط من شروط البحث العلمي الموضوعي هو دراسة النص بلا عواطف جياشة، من شأنها أن توقع الدارس في الوهم، وخصوصاً إذا كان موضوع الدراسة نصاً دينياً أو نحو ذلك.

٢– إصدار حكم مسبق على مشكلة ما قبل البحث فيها. وخير مثال على ذلك ''المرأة في الإسلام'' إذ نرى الباحث الإسلامي مقتنعاً مسبقاً وقبل البحث أن وضع المرأة في الإسلام وضع سليم وأن الإسلام أنصفها، فيكتب كتاباً في ذلك ويقول إنه بحث علمي، وكل ما فعله أنه أوجد التبريرات لوجهة نظره المسبقة، ونرى الباحث المعادي للإسلام مقتنعاً مسبقاً أن الإسلام ظلم المرأة، ويقدم بحثاً عن ذلك ويقول إنه بحث علمي، وكلاهما وقع في الخطأ نفسه. إن أي مشكلة تتطلب بحثاً علمياً موضوعياً، وهذا يعني أن الباحث نفسه لا يعرف النتائج أصلاً وبالتالي فهو يجري بحثه العلمي ليعرفها أو ليتأكد منها، وهذا ما قمنا به فعلاً في الكتاب. فعندما بدأنا بحث الإسلام والمرأة قلنا إننا لا نعرف شيئاً إطلاقاً عن موقف الإسلام من المرأة، فجمعنا آيات الكتاب المتعلقة بالمرأة، ودرسناها لنعرف ما هو وضع المرأة في الإسلام، وخلصنا إلى نتائج لم نجدها في كتب التفسير، ولا في كتب الفقه، وتبين لنا أن المرأة لها وضعان: وضع في الكتاب، أي في النص المقدس، ووضع في الفقه الإسلامي الذي يحمل صفة التطور التاريخي (النسبية الزمانية والمكانية).

٣– عدم الاستفادة من الفلسفات الإنسانية، ورفض التفاعل الأصيل المبدع معها. إذ لا يمكن أن نضع كل ما أنتجه الفكر الإنساني، منذ اليونان إلى يومنا هذا، في هامش الخطأ أو الباطل. فإذا قلنا: إن كل ما طرحه الفكر الإنساني شيء والإسلام شيء آخر، أي كل ما خطر في بالك فالإسلام غير ذلك، ينتج لدينا سؤال لا يمكن الإجابة عليه هو (ماهو الإسلام)؟ فضمن هذا المنطق لم يتم تعريف الإسلام إلى اليوم. أمّا إذا قلنا: إن ما طرحه الفكر الإنساني فيه غث وسمين، وفيه باطل وحق، وفيه خطأ وصواب، فهذا يعني أننا، كمسلمين، قادرون على أن نتفاعل إيجابياً مع الفكر الإنساني كله دون خوف أو وجل. لكن حتى يتم هذا التفاعل الإيجابي يجب علينا عرباً ومسلمين أن نمتلك ميزاناً مرناً، نستطيع أن نتفاعل به مع الآخرين دون خوف، وهذا الميزان غير موجود عندنا في الوقت الحاضر، مما يقودنا إلى النقطة الرابعة.

٤– عدم وجود نظرية إسلامية في المعرفة الإنسانية، مصاغة صياغة حديثة معاصرة، ومستنبطة حصراً من القرآن الكريم، لتعطينا ما يسمى (إسلامية المعرفة) بحيث تهب منهجاً في التفكير العلمي لكل مسلم، وتمنحه ثقة بالنفس وجرأة على التعامل والتفاعل مع أي نتاج فكري أنتجه إنسان، بغض

النظر عن عقيدته. إن غياب هذه النظرية، المصاغة صياغة معاصرة، أدى بالمسلمين إلى التفكك الفكري، والتعصب المذهبي، واللجوء إلى مواقف فكرية أو سياسية تراثية، مضى عليها مئات السنين، تقوم على كيل الاتهامات بالكفر والإلحاد والزندقة والهرطقة والاعتزال والجبرية والقدرية لهؤلاء وأولئك، بهدف الخروج من مأزق فكري يقع فيه المسلم في مواجهة الفكر المعاصر، علماً بأنه ليس كل فكر أنتجه الإنسان هو عدو للإسلام بالضرورة. ولكن غياب المنهج المعرفي، الذي يمكن أن يواجه كل غث ويحتوي على كل سمين، هو الذي يؤدي بالضرورة إلى مواقف التشنج والسذاجة وضيق الأفق. لذا أفردنا في كتابنا هذا بحثاً خاصاً لمشكلة المعرفة الإنسانية "جدل الإنسان"، لأن مشكلة الفلسفة الكبرى هي تحديد العلاقة بين الوجود في الأعيان، وصور الموجودات في الأذهان.

ولدى الخوض في هذه المشكلة وجب علينا بالضرورة أن نقف على الأرضية العلمية للقرن العشرين، إذ ليس من العبث تسمية الفلسفة بأم العلوم قاطبة.

٥– يعيش المسلمون في العصر الحاضر أزمة فقهية حادة، وثمة صيحات صادقة تقول: إننا بحاجة إلى فقه جديد معاصر، وبحاجة إلى فهم معاصر للسنة النبوية. وقد تم تشخيص هذه المشكلة ولكن دون وضع حل لها. فإذا أردنا أن نخترق الفقه الإسلامي الموروث بمذاهبه الخمسة، وجب علينا إعطاء البديل، وهذا ما فعلناه في هذا الكتاب حيث طرحنا منهجاً جديداً في الفقه الإسلامي، وطبقناه على أحكام المرأة فنتجت لدينا أحكام لم تكن عند الفقهاء كلهم.

ولكننا لم نستطع القيام بهذا العمل إلا بعد صياغة نظرية أصيلة في المعرفة الإنسانية "جدل الإنسان"، منطلقة من القرآن الكريم، إذ إن المنطلق الفلسفي ينتج عنه بالضرورة الحل الفقهي.

هنا قد يسأل سائل: ماذا نفعل بكتب التراث من فقه وتفاسير، التي يطبع منها كل عام آلاف النسخ، وتدرس على أنها الإسلام؟ الجواب على هذا السؤال الصعب جداً هو أنني لم أستطع أن أقدم هذا الكتاب، وأصل إلى النتائج المطروحة للقارئ، إلا بعد أن تم حل هذه المعضلة مع التأكيد على أنني عربي مؤمن مسلم.

التراث والمعاصرة والأصالة

علينا أن نميز بين المصطلحات الثلاثة الواردة أعلاه، بوضع تعريف لكل منها:

١– التراث: هو النتاج المادي والفكري الذي تركه السلف، والذي يؤدي دوراً أساسياً في تكوين شخصية الخلف، وفي عقله الباطن (نمط التفكير) وسلوكه الظاهر. هكذا يفهم التراث على أنه من صنع الإنسان ونتاج النشاط الإنساني الواعي، في مراحل تاريخية متعاقبة.

٢– المعاصرة: هي تفاعل الإنسان المعاصر مع النتاج المادي والفكري، الذي هو أيضاً من نتاج الإنسان، فبهذا المعنى يكون التراث والمعاصرة مفهومين متداخلين، تفصل بينهما لحظة الآن المتحركة باستمرار. وعليه فالمقال المنشور في صحيفة منذ عشر سنوات يدخل في مفهوم التراث. وليس للناس خيار في الانتماء إلى تراثهم، ولكن لهم الخيار في انتقاء معاصرتهم من التراث ومن منجزات عصرهم، لأن الحدث الإنساني الواعي يدخل في عالم الممكنات قبل وقوعه (بحيث يمكن حدوثه أو عدم حدوثه)، أما بعد وقوعه فيصبح حقيقة لا رجعة فيها. فنحن العرب المسلمين لا خيار لنا في تراثنا، أي إننا لا نستطيع أن نضع تراثاً غير التراث الذي حصل فعلاً وورثناه، ولكننا نستطيع أن نختار بأنفسنا منه ما يلزم حاضرنا ومستقبلنا، فنصنع بهذا الاختيار تراثاً لأجيالنا المقبلة. إن التنزيل الحكيم قد نهانا عن أن نقف من التراث موقف الانصياع الأعمى والتقديس {.. مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون ٢٤) {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ} (الزخرف ٢٢) هذا الموقف يدعو إلى أن نحترم تراثنا لا أن نقدسه. إن الذين صنعوا التراث العربي الإسلامي هم من الناس ونحن من الناس أيضاً، ومعروف قول أبي حنيفة النعمان ’’هم رجال ونحن رجال‘‘، وقد آن لنا أن نصنع تراثاً لأجيالنا القادمة بملء إرادتنا وبدون حرج، وهذه هي عين المعاصرة.

٣– الأصالة: للأصالة عنصران متتامان، يفهم كل واحد منهما حسب الموضوع المطروح تحت عنوان الأصالة. فإذا قلنا: إن اللسان العربي لسان أصيل، فهذا يعني أنه لسان له جذور غارقة في القدم، وهذا هو العنصر الأول. وأنه ما زال حياً مثمراً إلى يومنا هذا، وهذا هو العنصر الثاني. وهذا المعنى أخذناه من قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..} (إبراهيم ٢٤–٢٥)، فجذر الشجرة وأغصانها هما العنصران المتتامان: الجذور تضرب في الأرض والأغصان تعطي الثمار. وفي هذا المجال نقول: لقد قام العالم مندليف ببحث أصيل في الكيمياء، حيث وضع جدول العناصر في الطبيعة، وقولنا (بحث أصيل) يعني أن فيه إبداعاً وابتكاراً لم يسبقه إليه أحد. ولكن هذا البحث لم يأت من فراغ، بل اعتمد على تراكمات سابقة في المعرفة الكيميائية (الجذور).

فإذا أردنا أن نكون أصيلين في المعرفة فعلينا أن نستفيد من كل تراكمات المعرفة التي أنتجها الإنسان، ومن ضمنها التراث في كل العلوم (الجذور) وهي العنصر الأول للأصالة، بحيث نحقق قفزة نوعية (الثمار) وهي العنصر الثاني للأصالة. وهذا ما نسميه بالحضارة الحية، فالحضارة الحية كالشجرة الحية، لها جذور وتعطي ثماراً ينتفع بها الناس، ليس في موسم واحد فقط بل في مواسم متتابعة.

إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، نرى فيها عنصر الجذور متوفراً، ولكن لا يوجد ثمار لأنها جفت ونضبت. فنحن الآن مستهلكون للسلع والأفكار، حتى إن أفكار التراث استهلكت ونضبت، ووصلنا في طرحنا لأفكار التراث إلى حد السذاجة في بعض الأحيان. وفي هذا المقام يجب علينا أن نميز بين مصطلحين يقع الالتباس بينهما وهما الأصالة والسلفية، فالأصالة لها مفهوم إيجابي حي، أما السلفية فهي عكس ذلك تماماً. السلفية كما نفهمها هي دعوة إلى اتباع خطى السلف بغض النظر عن مفهوم الزمان والمكان. أي أن هناك فترة تاريخية مزدهرة مرت على العرب استطاعوا فيها حل مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبناء دولة قوية منيعة استطاعت تحقيق العدالة بمفهومها النسبي التاريخي. وبالتالي فإن هؤلاء السلف هم النموذج، ويجب علينا أن نتبع خطاهم ونقلدهم ولا نخرج عن نمطهم. فالسلفي إنسان مقلد، أهمل الزمان والمكان واغتال التاريخ وأسقط العقل. فهو يعيش في القرن العشرين مقلداً القرن السابع، والتقليد مستحيل لأن ظروف القرن السابع تختلف عن ظروف القرن العشرين، فمهما حاولنا الرجوع إلى القرن السابع لا يمكننا أن نفهمه كما فهمه أهله الذين عاشوا فيه فعلاً، لأننا نرجع إليه من خلال نص تاريخي فقط. ولهذا السبب وقع السلفي في فراغ فكري وصل إلى حد السذاجة، فقد ترك القرن العشرين عمداً ليعجز في الوقت نفسه عن أن يعيش القرن السابع كما عاشه أهله، فوقع في شرك الغراب الذي أراد أن يقلد صوت البلبل فلم يستطع، ثم أراد أن يرجع غراباً فنسي، وبقي في حالة عدم تعيين فلا هو غراب ولا هو بلبل. وهذا هو حال السلفيين. فالسلفية هروب مقنع من مواجهة تحديات القرن العشرين، وهزيمة نكراء أمام هذه التحديات، وهي البحث عن الذات في فراغ وليس في أرض الواقع. هذا فيما يتعلق بالسلفية الإسلامية، ولكن هناك نوعاً آخر من السلفية نراه عند تيارات أخرى تطرح حلولاً نظرية تعمل في فراغ وفق نموذج متحجر طرح في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واعتبرته مقدساً فلا خروج منه، إنها تيارات سلفية أخرى لا تعيش زمانها ولا تتفاعل معه، وقد أثبتت الأحداث فشل هذا النموذج، وبالتالي لم يكتب لها النجاح ولم تستطع تقديم حلول لمشاكل مجتمعها المعاصرة والملحة.

من هذا المنطلق نصل إلى نقطة مهمة في البحث وهي: هل الكتاب الذي أوحي إلى محمد (ص) والذي يحتوي على رسالته ونبوته هو من التراث أم لا يدخل في التراث؟

للإجابة على هذا السؤال لابد أن نفترض أحد الفرضين التاليين:

١ـ أن ما يسمى بالكتاب الموجود بين دفتي المصحف هو من تأليف محمد (ص).

٢ـ أن ما يسمى بالكتاب الموجود بين دفتي المصحف هو وحي من الله سبحانه وتعالى بالنص والمحتوى، وأن الفصول فيه تسمى سوراً، وأن السور مؤلفة من مقاطع كل واحد منها يسمى آية.

فإذا أخذنا الاحتمال الأول، فهذا يعني أن الكتاب هو من التراث لأن محمداً (ص) من الناس، والناس هم الذين يصنعون التراث، ففي هذه الحالة يمكن أن يصنف محمد (ص) مع العظماء العباقرة لا مع الأنبياء والرسل، وهذا ما فعله بالضبط مايكل هارت أحد الكتاب الأمريكيين إذ صنف محمداً (ص) كأول عظيم في التاريخ، وانطلت هذه الخدعة على كثير من المسلمين أنفسهم. فإذا كان الكتاب من تأليف محمد (ص) فيجب أن يحتوي على الخاصية التالية:

إنّ أي إنسان عظيم هو من نتاج عصره لا يخرج عن ذلك أبداً، فإذا كان الكتاب من صنع محمد (ص) فهو بالتالي غير صالح لكل زمان ومكان، وإنما هو وليد الظروف الموضوعية، حقق قفزة نوعية، فصلح للقرن السابع في شبه جزيرة العرب، ولعدة قرون تلته، ولكنه غير صالح للقرن الواحد والعشرين لأن الإنسان مهما بلغ من العبقرية فإنه يحمل طابع النسبية الزماني والمكاني. وهذا ما يقوله أعداء الإسلام عن الكتاب، وقد ساعدهم على هذا القول لسان حال المسلمين السلفيين أنفسهم، إذ حجروا الإسلام وفق نمط واحد في قولهم إن الإسلام هو وفق نمط القرن الأول الهجري "صدر الإسلام" ويقولون في الوقت نفسه إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ومن هنا وقعوا في معضلة غير قابلة للحل.

أما إن كان هذا الكتاب موحى من الله سبحانه وتعالى إلى محمد (ص)، وهو في الوقت نفسه خاتم الكتب، وإن محمداً (ص) خاتم النبيين والرسل فيجب أن يحتوي على الخواص التالية:

أـ إن الله سبحانه وتعالى مطلق وكامل المعرفة ولا يتصف بطابع النسبية وبالتالي فإن كتابه يحمل الطابع المطلق في المحتوى.

بـ بما أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يعلم نفسه أو يهدي نفسه وإنما جاء هذا الكتاب هداية للناس وآخر الكتب فوجب أيضاً أن يحمل طابع النسبية في الفهم الإنساني له.

جـ بما أن نمط التفكير الإنساني لا يمكن أن يتم بدون لغة، فيجب أن يصاغ الكتاب بلغة إنسانية أولاً، وأن يكون لهذه الصياغة طابع خاص، يتضمن المطلق الإلهي في المحتوى والنسبية الإنسانية

في فهم هذا المحتوى، وهذا ما نعبر عنه بثبات النص ”الصيغة اللغوية“ وحركة المحتوى، ففي هذه الحالة يمكن أن نقول: إن هذا من عند الله سبحانه وتعالى لأن الإنسان عاجز عن تحقيق هذه الشروط.

فإذا كان التنزيل الحكيم يحتوي على هذه الخاصية، فعند ذلك تعطى آياته طابع النص المقدس الذي لا يمس ولا يحرف، وإنما يجري تأويله على مر العصور والدهور، وفي هذه الحالة فقط لا يعتبر التنزيل الحكيم تراثاً، وإنما التراث هو فهم الناس النسبي له في عصر من العصور، حتى ولو جاء هذا الفهم من عهد صدر الإسلام. أي أن ما حدث في القرن السابع في شبه جزيرة العرب هو تفاعل الناس في ذاك الزمان والمكان مع التنزيل الحكيم، وهذا التفاعل هو الاحتمال الأول للإسلام (الثمرة الأولى) وليس الوحيد وليس الأخير، وقد كان هذا التفاعل إنسانياً في محتواه (إسلامياً) قومياً في مظهره طبقاً للزمان والمكان والسقف المعرفي والاجتماعي للناس ذاك الوقت. وفي هذه الحالة يدخل هذا التفاعل ضمن التراث ما عدا العبادات والأخلاق والحدود ”الصراط المستقيم“ حيث إنها ليست تفاعلاً مع العصر، وقد عبر عن الأخلاق والحدود بمظاهر العصر. أما اللباس والطعام والشراب وأساليب الحكم ونمط الحياة فهي تفاعل مع الشروط الموضوعية، وقد قام النبي (ص) بهذا التفاعل الأول، وكان لنا الأسوة الحسنة.

لقد أجرينا مسحاً شاملاً للكتاب الموحى، فتبين لنا أنه يحوي على الخاصية المذكورة أعلاه، والتي لا يستطيع إنسان أن يقوم بها، ووجدنا هذه الخاصية في الآيات المتشابهات، وبالتالي وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من الآيات في الكتاب. ولم نستطع أن نقوم بهذا التصنيف إلا بعد أن تم تحديد الفرق بين النبوة والرسالة. فالنبوة هي مجموعة من المعلومات أوحيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبها سمي نبياً، أي أن كل الأخبار والمعلومات التي جاءت إلى النبي بالإضافة إلى المعلومات فأصبح بها رسولاً، فالنبوة علوم والرسالة أحكام. أي نظرية الوجود الكوني والإنساني وتفسير التاريخ هي من النبوة، وهي من الآيات المتشابهات، أما التشريع مع إرث وعبادات، ومعها الفرقان العام ”الأخلاق“ والمعاملات والأحوال الشخصية والمحرمات فهي الرسالة أي الآيات المحكمات. وهناك نوع ثالث من الآيات وهو الآيات الشارحة لمحتوى الكتاب، فهي لا محكمة ولا متشابهة، ولكنها من النبوة حيث تحتوي على معلومات، لذا فإن الكتاب من حيث الآيات ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١– الآيات المحكمات التي تمثل رسالة النبي (ص)، وقد أطلق التنزيل الحكيم عليها مصطلح ”أم الكتاب“، وهي قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ما عدا العبادات والأخلاق والحدود.

٢– الآيات المتشابهات التي تقبل التأويل وتخضع للمعرفة النسبية، وقد أطلق عليها التنزيل الحكيم مصطلح ''القرآن والسبع المثاني''.

٣– آيات لا محكمات ولا متشابهات أطلق عليها التنزيل الحكيم مصطلح ''تفصيل الكتاب''.

ونحن نرى أن التحدّي للناس جميعاً بالإعجاز إنما وقع في الآيات المتشابهات ''القرآن والسبع المثاني''، وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات ''تفصيل الكتاب'' حيث أن هذين البندين يشكلان نبوة محمد (ص).

لقد تبين لنا أن هناك فرقاً جوهرياً بين الكتاب والقرآن والفرقان والذكر. فالقرآن والسبع المثاني هما الآيات المتشابهات التي تخضع للتأويل على مر العصور والدهور، لأن التشابه هو ثبات النص وحركة المحتوى. وقد تم إنزال القرآن بشكل متشابه عن قصد، وكان النبي (ص) ممتنعاً عن التأويل عن قصد، أي أن القرآن يؤول ولا يفسر، وأن كل تفاسير القرآن تراث يحمل طابع الفهم المرحلي النسبي.

فإذا سأل سائل: هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا، هي ليست من القرآن ''النبوة'' ولكنها من أم الكتاب ''الرسالة''، ومن أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود. فإذا عاد يسأل: فهل هذا يعني أنها ليست من عند الله؟ جاءه الجواب في الآية ٧ من آل عمران، حيث يقول سبحانه عن المحكم ''أم الكتاب'' وعن المتشابه ''القرآن والسبع المثاني'' وعن اللامحكم واللامتشابه ''تفصيل الكتاب'': {كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} فما الفرق بينها إذاً، ما دام كل من عند الله؟

الفرق هو أن القرآن فرق بين الحق والباطل، أي أعطى قوانين الوجود، لذلك وصفه بأنه {.. هُدًى لِلنَّاسِ} (البقرة ١٨٥). وأم الكتاب تشريع، والتشريع يمكن تحويره، لذا قال عن الكتاب {.. هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} (البقرة ٢). فحتى نصدق أن أم الكتاب من عند الله جاء القرآن مصدقاً لها، فقال {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧). يبقى أن نشير إلى أن هذه الآية لا محكمة ولا متشابهة، بل هي من آيات تفصيل الكتاب لأنها شرحت محتوى الكتاب.

لقد أجرينا مسحاً شاملاً لكتاب الله تعالى، وحددنا فيه مفاهيم جديدة المصطلحات الأساسية فيه وهي: الكتاب، أم الكتاب، القرآن، السبع المثاني، الذكر، الفرقان، تفصيل الكتاب، الحديث وأحسن الحديث، العرش والكرسي، الألوهية والربوبية، والنبوة والرسالة، وقد قمنا بشرحها في الباب الأول من هذا الكتاب.

أما آيات أم الكتاب فقد قال عنها سبحانه {يَمْحُوا الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩). إنها آيات التشريع والشعائر والأخلاق والمحرمات، وتحمل طابع الخصوص في جزء منها، وطابع العموم في جزء آخر، وقد طبقها النبي (ص) حسب الظروف الموضوعية لشبه جزيرة العرب، حيث أن التشريع قابل للتطور، وقابل للإلغاء والاستبدال بين الرسالات المتعاقبة {يَمْحُوا الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} لذا فإن أم الكتاب هي مناط الاجتهاد والفقه وأول من اجتهد فيها هو النبي (ص)، وقد أوقف عمر بن الخطاب تطبيق الآية: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ..} (الأنفال ٤١).

يبقى السؤال الهام عن موقفنا من النبي (ص) أو من السنة النبوية.

هنا يجب علينا وضع النقاط على الحروف بالنسبة للنبي (ص)، فهناك موقفان أساسيان متمايزان منه؛ الموقف الأول نبياً مع ما نكن له من عظيم الحب والاحترام والتقدير. والموقف الثاني منه مشرّعاً.

أما الموقف الأول فإني لا أتصور إنساناً مسلماً وعربياً يمكن أن يقف موقفاً سلبياً من النبي (ص) لأن مثل هذا الموقف خيانة للدين من قبل المسلم وخيانة للقومية من قبل العربي. ولا أتصور إنساناً عربياً بغض النظر عن دينه يقف موقفاً سلبياً من النبي (ص) يقول عن نفسه: إنه وطني أو عربي.

أما موقفنا من النبي (ص) مشرعاً فهو موقف دقيق جداً. إذ كيف يمكن أن نقول: إن ما فعله النبي (ص) هو الاحتمال الأول لتطبيق الإسلام في القرن السابع، وفي شبه جزيرة العرب، وبالوقت نفسه نقرأ الآية {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..} (الأحزاب ٢١).

لقد بحثنا في السنة فوجدنا أنها "كل قولٍ أو فعلٍ أو إقرارٍ أو نهيٍ قام به النبي (ص)" لكن هذا التعريف من وضع من الفقهاء وليس من قول النبي نفسه، حيث كان النبي (ص) يشدد على تدوين التنزيل الحكيم ويأمر الناس في الوقت نفسه بعدم تدوين أقواله الشخصية. من هنا خلصنا إلى مفهوم معاصر للسنة النبوية، حيث كان دور النبي (ص) تحويل المطلق إلى نسبي والتحرك ضمن حدود الله، في القرن السابع، في شبه جزيرة العرب، ونجح في هذا نجاحاً باهراً. بهذا المفهوم يكون أول عظيم في التاريخ. هذه هي سنته التي وجب علينا التقيد بها على مر العصور، في تطبيق منهجه بتحويل المطلق إلى نسبي. أي أن باب الاجتهاد في الأحكام لا يقفل، وباب التأويل في القرآن لا يغلق، وكل اجتهاد من قبل الناس في الأحكام هو تحرك ضمن الحدود والوقوف عليها أحياناً، وكل تأويل للقرآن يدخل في التراث على مر الزمن.

بعد أن اكتمل المسح الشامل لكتاب الله تعالى، وتم تحديد مفهوم المصطلحات الأساسية فيه، أفردنا باباً أول في كتابنا هذا بعنوان "الذكر"، قسمناه إلى خمسة فصول، تحدثنا في أولها عن القرآن والسبع المثاني، وفي الثاني عن النبوة والرسالة، وفي الثالث عن الإنزال والتنزيل، وفي الرابع عن إعجاز القرآن وتأويله، وفي آخرها عن شجرة الذكر.

أما الباب الثاني فجاء تحت عنوان "جدل الكون والإنسان"، قسمناه إلى أربعة فصول.

الفصل الأول: تحدثنا فيه عن قوانين الوجود الكوني، أي عن قوانين الجدل المادي، وتبين أن قوانين الجدل المادي وتغير الصيرورة "التطور" هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن. ثم بحثنا في المتناقضات والأزواج والأضداد في الوجود، وخلصنا إلى قانون تسبيح الأشياء لله. وختمنا الفصل بشرح مفهوم البعث والساعة ونفخة الصور واليوم الآخر والجنة والنار.

الفصل الثاني: بحثنا في مشكلة المعرفة الإنسانية، وهي من المشاكل القرآنية "النبوة"، وشرحنا تحت عنوان جدل الإنسان جدل الإنسان مفهوم البشر والإنسان والحق والباطل والغيب والشهادة والقلم والعلق، ومفهوم الفؤاد والقلب والفكر والعقل والمشخص والمجرد. وخلصنا إلى أن الروح ليست سر الحياة، وإنما هي سر الأنسنة، أي هي التي حولت البشر إلى إنسان.

الفصل الثالث: شرحنا فيه نظرية المعرفة القرآنية وأنواعها ونسبيتها، وتحدثنا عن جدل الأضداد والدائم والباقي، وعن الوحي وعلم الله وقضائه.

الفصل الرابع: تم فيه تفصيل الكلام في الأعمار والأرزاق والأعمال.

الباب الثالث: جاء تحت عنوان "أم الكتاب والسنة النبوية والفقه الإسلامي" مقسوماً إلى ثلاثة فصول.

الفصل الأول: جرى فيه بحث مصطلح أم الكتاب وشرح مصطلح الصراط المستقيم، وخلصنا إلى بيان الفرق بين الاستقامة والحنيفية، ووضعنا في ضوء ذلك كله نظرية للحدود تجسد على الصعيد التطبيقي عالمية الرسالة المحمدية ورحمتها وصلاحيتها ومرونتها.

ثم انتقلنا بعد ذلك إلى بحث الفرقان العام، ومثاله الوصايا العشر في شريعة موسى، كمعيار أخلاقي فيه التقوى الاجتماعية ملزم لكل الناس، وكقاسم مشترك بين الأنبياء جميعاً من نوح إلى محمد (ص) مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى. حيث حددنا مفهوم الأخلاق والأعراف، أي العادات والتقاليد، وبيّنا أن الأخلاق عالمية والأعراف محلية.

كما بحثنا في الفرقان الخاص الذي جاء إلى محمد (ص)، ملزماً للمتقين من الناس تحديداً. وختمنا هذا الفصل ببحث المعروف والمنكر، وبالتعليمات الخاصة والمرحلية التي جاءت للنبي (ص) في

آيات تبدأ بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، مشيرين إلى أن الطاعة جاءت للرسول لا للنبي {وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (آل عمران ١٠٣)، وليس في كتاب الله تعالى آية واحدة فيها (وأطيعوا النبي).

الفصل الثاني (السنة): تم فيه بحث مفهوم السنة التقليدي. وباستخدام المنهج الجديد المقترح في فهم القرآن والكتاب ونظرية الحدود، تم تحديد مفهوم أصيل ومعاصر للسنة النبوية، وشرح قوله تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..} (الأحزاب ٢١)[2].

2 – لمزيد من التفصيل حول بحث السنة النبوية، يرجى الاطلاع على كتابنا **السنة الرسولية والسنة النبوية: رؤية جديدة**، الصادر عن دار الساقي، بيروت، لبنان ٢٠١٢.

الفصل الثالث: اشتمل على ثلاثة فروع:

الفرع الأول: أزمة الفقه الإسلامي. فعلى ضوء الفهم الجديد للرسالة والسنة، وفي هدي نظرية الحدود، تم تحديد أزمة الفقه الإسلامي المستعصية، وتم وضع أسس جديدة للفقه الإسلامي تجعل منه فقهاً متطوراً مرناً، منسجماً مع فطرة الناس، صالحاً لكل زمان ومكان.

الفرع الثاني: فلسفة القضاء الإسلامي والعقوبات.

الفرع الثالث: الإسلام والمرأة. تم في هذا الفرع تطبيق الأسس الجديدة للفقه الإسلامي المقترح، والمبني على نظرية الحدود، وعلى المفهوم المعاصر للسنة، فنتجت لدينا أحكام جديدة عن المرأة لم تكن في كتب الفقه السابقة[3].

3 – لمزيد من التفصيل حول فقه المرأة، انظر كتابنا الرابع الصادر عن دار الأهالي بدمشق بعنوان **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**.

الباب الرابع: وقد جاء تحت عنوان "في القرآن"، ويتألف من فصلين:

الفصل الأول: الشهوات الإنسانية. تم فيه تحديد الشهوات الإنسانية وتمييزها عن الغرائز البشرية، واستنتاج أسس النظام الاقتصادي الإسلامي العالمي الصالح لكل زمان ومكان، كما تم استنتاج نظرية الجمال في الإسلام، وتطور مفاهيم الجمال عند الإنسان حتى وقتنا الحاضر، وحددنا موقف الإسلام من سائر الفنون.

الفصل الثاني: عرضنا خلاله نموذجاً للترتيل في القصص القرآني، حيث تم ترتيل الآيات المتعلقة بنوح وهود، واستنتاج المراحل التاريخية للنبوات والرسالات. كما تم وضع شجرة الأنبياء والرسل فتبين أنه ورد في الكتاب "٢٤" نبياً، منهم "١٣" رسولاً فقط. وفي الخاتمة تم شرح الإسلام، وتعريف الدين الإسلامي تعريفاً عاماً شاملاً إنسانياً.

ما هو المنهج المتبع في هذا الكتاب؟

من حق القارئ أن يسأل ما هو المنهج المتبع في هذا الكتاب؟ وكيف تم التوصل إلى هذه النتائج التي لا توجد في كتب السلف؟

إنّ المنهج المتبع هو ما يلي:

١– العلاقة بين الوعي والوجود المادي هي المسألة الأساسية في الفلسفة، وقد انطلقنا في تحديد تلك العلاقة من أن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية. ويعني ذلك أن المعرفة الحقيقية "غير الوهمية" ليست مجرد صور ذهنية، بل تقابلها أشياء في الواقع، لأن وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها. من هنا فنحن نرفض قول الفلاسفة المثاليين: إن المعرفة الإنسانية ما هي إلا استعادة أفكار موجودة مسبقاً. وقد أكد القرآن الكريم هذا المنطلق بقوله {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل ٧٨).

٢– انطلاقاً من هذه الآية التي تقول: إن المعرفة تأتي من خارج الذات الإنسانية فإننا ندعو إلى فلسفة إسلامية معاصرة، تعتمد المعرفة العقلية التي تنطلق من المحسوسات عن طريق الحواس وعلى رأسها السمع والبصر، لتصل إلى المعرفة النظرية المجردة في ضوء المنجزات العلمية التي بلغتها الإنسانية في بداية القرن الخامس عشر الهجري، وندعو إلى رفض الاعتراف بالمعرفة الإشراقية الإلهامية الخاصة بأهل العرفان وحدهم أو من يسمون "بأهل الكشف" أو "أهل الله".

٣– الكون مادي والعقل الإنساني قادر على إدراكه ومعرفته، ولا توجد حدود يتوقف العقل عندها. وتتصف المعرفة الإنسانية بالتواصل، وترتبط بدرجة التطور التي بلغتها العلوم في عصر من العصور. وكل ما في الكون مادي. وما ندعوه الآن (فراغاً كونياً) هو فراغ مادي، أي أن الفراغ شكل من أشكال المادة. ولا يعترف العلم بوجود عالم غير مادي يعجز العقل عن إدراكه.

٤– بدأت المعرفة الإنسانية بالتفكير المشخص المحدد بحاستي السمع والبصر، وسمت بوصولها إلى التفكير المجرد العام. لذا كان عالم الشهادة يعني في البداية العالم المادي الذي تعرف عليه الإنسان بحواسه، ثم توسع ليشمل ما أدركه بعقله لا بحواسه، وعليه فإن عالم الشهادة وعالم الغيب ماديان. وتاريخ تقدم المعارف الإنسانية والعلوم هو توسع مستمر لما يدخل في عالم الشهادة، وتقلص مستمر لما كان في عالم الغيب، وبهذا المعنى يظهر أن عالم الغيب عالم مادي ولكنه غاب عن إدراكنا الآن، لأن درجة تطور العلوم لم تبلغ مرحلة تمكن من معرفته.

٥– لا يوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي هي أم العلوم، وتنحصر بفئة الراسخين في العلم مهمة تأويل القرآن طبقاً لما أدى إليه البرهان العلمي، وذلك وفق قانون التأويل في اللسان العربي الذي شرحناه بشكل مستفيض في الباب الأول من هذا الكتاب، وفي ضوء أحدث المنجزات العلمية.

٦– إننا نتبنى النظرية العلمية القائلة بأن ظهور الكون المادي كان نتيجة انفجار هائل أدى إلى تغير طبيعة المادة. ونرى أن انفجاراً هائلاً آخر، مماثلاً للانفجار الأول في حجمه، سيؤدي حتماً إلى هلاك هذا الكون وتغيير طبيعة المادة فيه ليحل محله كون ''عالم'' مادي آخر. ويعني ذلك أن الكون لم ينشأ من عدم، مع التأكيد أنه لا قديم إلا الله، بل من مادة ذات طبيعة أخرى. وأن هذا الكون سيزول ليحل محله كون آخر من مادة ذات طبيعة مغايرة، وهذا ما ندعوه ''بالحياة الآخرة''. وانطلاقاً مما سلف قمنا بقراءة جديدة للذكر الذي تعهد الله بحفظه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر ٩) {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل ٤٤) معتمدين على الأسس التالية:

١– مسح عام لخصائص اللسان العربي معتمدين على المنهج اللغوي لأبي علي الفارسي والمتمثل بالإمامين ابن جني وعبد القاهر الجرجاني، ومستندين إلى الشعر الجاهلي.

٢– الإطلاع على آخر ما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة من نتائج، وعلى رأسها أن كل الألسن الإنسانية لا تحوي خاصية الترادف، وأن الكلمة الواحدة ضمن التطور التاريخي إما أن تهلك أو تحمل معنى جديداً بالإضافة إلى المعنى الأول، وقد وجدنا هذه الخاصية واضحة كل الوضوح في اللسان العربي.

لقد استعرضنا معاجم اللغة فوجدنا أن أنسبها هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس ''تلميذ ثعلب'' الذي ينفي وجود الترادف في اللغة، فقد تم الاعتماد عليه بشكل أساسي دون إغفال بقية المعاجم.

٣– إذا كان الإسلام صالحاً لكل زمان ومكان، فيجب الانطلاق من فرضية أن التنزيل الحكيم تنزل علينا، وأنه جاء لجيلنا في النصف الثاني من القرن العشرين، وكأن النبي (ص) توفي حديثاً بعد أن بلغنا هذا التنزيل. لذا فإن القارئ يلاحظ بشكل واضح أننا في فهمنا للتنزيل الحكيم نقف على أرضية القرن العشرين دون إغفال التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع التنزيل الحكيم في التفاسير والمذاهب الفقهية، فكانت نظرتنا لهذه الأدبيات على أنها تفاعل تاريخي مع التنزيل، تدخل ضمن التراث العربي الإسلامي. فالفقه الإسلامي الموروث يعكس المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مرحلة تاريخية معينة، والتفاسير تعكس الأرضية المعرفية للمرحلة التاريخية التي

كتبت فيها، ولاتحمل طابع القدسية. بمعنى أنه إذا كان هناك تناقض في كتاب للتفسير فإننا لم نحاول ليّ وتخريج أقوال المفسر لنثبت أنه على صواب دائماً، وهذا ما نفهمه من مصطلح القدسية، فالقدسية عندنا هي لنص الكتاب المبين فقط.

٤– إن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يهدي نفسه أو يعلم نفسه، لذا فقد أرسل الهدى للناس وليس لنفسه، فكل ما جاء في التنزيل الحكيم قابل للفهم بالضرورة، على نحو يقتضيه العقل، وقد جاء بصيغة قابلة للفهم الإنساني هي اللسان العربي المبين على نحو تاريخي نسبي مرحلي. وبما أنه لا يوجد انفصام بين اللغة والفكر الإنساني، فإننا نرفض القول بوجود آيات في التنزيل الحكيم غير قابلة للفهم.

٥– لقد رفع الله سبحانه من مكانة عقل الإنسان في معرض خطابه له، لذا فإننا ننطلق مما يلي:

أ– لا يوجد تناقض بين الوحي والعقل.

ب– لا يوجد تناقض بين الوحي والحقيقة "صدق الخبر ومعقولية التشريع".

٦– بما أن الله سبحانه رفع من مكانة العقل الإنساني، فالأحرى بنا أن نرفع من هذه المكانة ونحترمها. وعليه، فقد حاولنا جاهدين في كتابنا احترام عقل القارئ أكثر من احترامنا لعواطفه كما ذكرنا في أول هذه المقدمة.

الهدف من هذا الكتاب ولمن هو موجه:

١– يجب أن يفهم هذا الكتاب على أنه قراءةٌ معاصرة للذكر، وليس تفسيراً أو كتاباً في الفقه. ويجب أن يفهم أن الهدف منه ليس البرهان على وجود الله أو عدم وجوده، فتلك مسألة متروكة للقارئ نفسه، لأن قضية الإيمان بالله أو الإلحاد مسلّمة يختارها كل إنسان بنفسه نتيجة معاناة فكرية أو قناعة وراثية، معتمدين على قوله تعالى {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..} (الكهف ٢٩).

٢– من خلال القراءة الجديدة للذكر تبين لنا أن الفكر الإسلامي يحمل الطابع العالمي الإنساني، ومن هنا كان هذا الكتاب موجهاً إلى كل إنسان عربياً كان أم غير عربي، مؤمناً كان أم ملحداً، وإلى كافة الاتجاهات العقائدية. لأننا نعتقد بأن كل إنسان سيجد شيئاً ما في هذا الكتاب يدخل ضمن قناعاته الخاصة، وقد يجد فيه شيئاً ما كان يبحث عنه.

٣– يلاحظ القارئ أننا تجاوزنا في كتابنا هذا كل أنواع التعصب المذهبي والطائفي، وكان رائدنا هو البحث عن الحقيقة بشكل موضوعي، وحاولنا جاهدين تجنب التأثر بالأدبيات التي كتبت عن الإسلام سلباً أو إيجاباً.

المراحل التي مر بها تأليف هذا الكتاب:

إن الأمانة العلمية – كأساس من أساسات الأخلاق الإسلامية – تلزمني بتعريف القارئ بالمراحل التي مر بها تأليف هذا الكتاب حتى ظهر إلى حيز الوجود.

١– **المرحلة الأولى** (من عام ١٩٧٠–١٩٨٠)

بدأت هذه المرحلة عندما كنت في الجامعة القومية الايرلندية في دبلن موفداً من قبل جامعة دمشق لتحضير شهادة الماجستير والدكتوراه في الهندسة المدنية، تم فيها وضع أسس أولية لمنهج فهم الذكر، وفهم الرسالة والنبوة والمصطلحات الأساسية للذكر. وكانت مرحلة غير مثمرة حافلة بالمراجعات، جرى فيها بحث منطلقات غير مترابطة وعاجزة عن فهم الذكر، بسبب التأثر بالمدارس التقليدية الموروثة الموجودة في الأدبيات الإسلامية القديمة والمعاصرة، والتأثر بالمنطلقات الموروثة اجتماعياً التي اعتبرتها من المسلمات. وقد تبين لي بعد عشر سنوات أن هناك شيئاً ما في هذه المسلمات يجعلها ليست كذلك، حيث أنها لم تمكننا من تقديم نظرة إسلامية أصيلة إلى القرن العشرين ومشاكله انطلاقاً من هذه المسلمات، إلا عن طريق المكابرة واللف والدوران والوقوع في الوهم، وبدا واضحاً لي بعد هذه السنوات من البحث أنني أسير في طريق مسدود، والسبب في ذلك أنني نظرت إلى الإسلام كعقيدة من خلال مدرسة موروثة معتزلية أو أشعرية، وإلى الفقه من خلال مدرسة مذهبية فقهية موروثة، انتهت بي إلى هذه النقطة الخطيرة والقاتلة للبحث العلمي الجاد، إذ لا يمكن لإنسان أن يحقق قفزة أساسية نوعية في المعرفة والبحث إلا إذا اخترق المدارس الموروثة وخرج عنها، وحرر نفسه من إطاراتها، حيث أن المدرسية نقطة قاتلة في البحث العلمي. وأعيد إلى الذهن هنا ما ذكرته في أول هذه المقدمة من مثال الرسام الذي رسم الوجه المعكوس في المرآة، وقصة الشمس التي تدور حول الأرض، لأضرب مثلاً لبعض المسلمات الإسلامية الموروثة المشكلة التي بحثها كثير من المفكرين دون الوصول إلى نتيجة، هي ثبات الأعمال والأعمار والأرزاق، وسيأتي الكلام عليها مفصلاً في حينه.يبقى أن نقول إن الذي حال بين المفكرين عبر مئات السنين وبين حل إشكالية هذه المسائل أنهم كانوا ينطلقون من مسلمات معكوسة.

٢– **المرحلة الثانية** (١٩٨٠–١٩٨٦)

في عام ١٩٨٠ التقيت مجدداً بزميلي وصديقي الدكتور جعفر دك الباب، بعد أن التقينا في الاتحاد السوفياتي في الفترة الواقعة بين ١٩٥٨ و١٩٦٤ وكان يدرس اللسانيات، وكنت أدرس الهندسة المدنية، ثم افترقنا بعد التخرج، وكانت لقاءاتنا عابرة، وفي المناسبات. ولكنه في عام ١٩٨٠ لاحظ من خلال أحاديثنا أنني مهتم بأمور اللغة والفلسفة وفهم القرآن، فأطلعني على أطروحته للدكتوراه

في اللسانيات التي قدمها في جامعة موسكو عام ١٩٧٣ حول نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية وموقعها في اللسانيات العامة، وشرح لي أنه يبحث منذ ذلك الوقت في أصالة اللسان العربي، وأن اللسان العربي أصل قائم بذاته ولا ينتمي إلى أسرة اللغات السامية. وقد تعرفت عن طريق الدكتور جعفر على آراء الفراء وأبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني، وآراء عبد القاهر الجرجاني. فأدركت حينها أن الألفاظ خدم المعاني، وأن اللسان العربي لسان لا يوجد فيه ترادف، وأن المترادفات ليست أكثر من خدعة، وأن البنية النحوية يرتبط بها خبر بلاغي بالضرورة، وأن النحو والبلاغة علمان متتامان لا ينفصلان عن بعضهما، وأن الفصل بينهما كالفصل بين علم التشريح وعلم الوظائف في الطب، وأدركت بعدها أن هناك أزمة حقيقية في تدريس مادة اللغة العربية في المدارس والجامعات.

انطلاقاً من هذا المنطلق اللغوي، بدأت بمراجعة آيات الذكر بشكل جدي. وانتهيت إلى المصطلحات الأساسية "الكتاب، القرآن، الفرقان، الذكر، أم الكتاب، اللوح المحفوظ، الإمام المبين، الحديث، أحسن الحديث". وتبين لي أن معنى "الترتيل" في اللسان العربي، هو التنسيق والصف على رتل، فأخذت الآيات التي فيها لفظة القرآن، والآيات التي فيها لفظة الكتاب، ورتلتها (صففتها على رتل) واستنطقتها، فتبين لي الفرق بينهما. وقد توصلت إلى هذه النتيجة الهامة في أيار ١٩٨٢، واهتديت بعدها إلى الفرق بين الإنزال والتنزيل والجعل.

ومن عام ١٩٨٤ بدأت أكتب رؤوس أقلام، وأفكاراً رئيسية استنتجتها من آيات المصحف، وكنت أجتمع مع الدكتور جعفر كل عام في دمشق في شهري الصيف ونناقش معاً الأفكار والآراء الجديدة التي اكتشفتها. وقد استمرت هذه الفترة حتى عام ١٩٨٦. وكانت حصيلتها أفكارا منفصلة متبلورة ولكنها بحاجة إلى صياغة وربط.

٣– **المرحلة الثالثة**: (١٩٨٦–١٩٩٠)

بدأت هذه المرحلة بالصياغة الجدية لهذا الكتاب وربط المواضيع بعضها ببعض. فمن صيف ١٩٨٦ وحتى نهاية عام ١٩٨٧ تمت الصياغة الأولى للباب الأول من هذا الكتاب والتي كانت أهم مشكلة فيه، وبعد ذلك تمت صياغة قوانين الجدل العام وجدل الإنسان "نظرية المعرفة" صياغة أولية حتى صيف ١٩٨٨، وبعد ذلك صغنا معاً أنا والدكتور جعفر قوانين الجدل العام الواردة في بداية الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب، وذلك للدقة المتناهية المطلوبة في صياغتها. وقد طلبت من الدكتور جعفر دك الباب أن يقدم للقارئ المنهج اللغوي في كتابي هذا، ورجوته أن يكتب كتاباً مختصراً يعرف فيه بأسرار اللسان العربي لنشره مع كتابي في مجلد واحد.

ولا يسعني في آخر هذه المقدمة إلا أن أقدم جزيل الشكر والاعتراف بالجميل للدكتور جعفر دك الباب الذي أعتبره بحق أستاذي في اللغة العربية الذي علمني أسرار اللسان العربي وحاورني في كل ما يتصل بموضوعات اللغة العربية واستجاب مشكوراً لطلبي بتأليف كتاب "أسرار اللسان العربي" وقدم المنهج اللغوي لكتابي.

دمشق في كانون الثاني ١٩٩٠

الدكتور المهندس محمد شحرور

الباب الأول

الذكر

تمهيد في المصطلحات

قال تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر ٩).

تصادفنا في المصحف إلى جانب لفظة "الذكر" الألفاظ التالية: "الكتاب" و"القرآن" و"الفرقان".

فهل تشير هذه الألفاظ كلها إلى معنى واحد، لأنها مترادفات، أم تشير إلى معان مختلفة؟

وإذا كانت تلك الألفاظ تشير إلى معان متغايرة، فما معنى كل منها؟

نبدأ أولاً بتحديد مصطلحي "الكتاب" و"القرآن"، ونحدد ثانياً مصطلح "الذكر"، ثم نبحث ثالثاً في مصطلح "الفرقان".

أولاً: الكتاب والقرآن

الكتاب من "ك ت ب"، وهو أصل صحيح في اللسان العربي يعني جمع أشياء بعضها مع بعض، لإخراج موضوع ذي معنى متكامل، بدلالة قوله تعالى {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا..} (الفرقان ٥)، أي جمعها. وعكس كتب من الناحية الصوتية "بتك" الذي جاء في قوله تعالى {.. فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ..} (النساء ١١٩). فالكتاب في المعنى عكس البتك، فنقول مكتب هندسي أي هو مكان تتجمع فيه عناصر إخراج مشروع هندسي من مهندس ورسام وخطاط وآلة سحب، فلا يمكن إخراج أي مشروع بدونها مجتمعة. ونقول في الجيش كتيبة دبابات أو كتيبة فرسان، وهي تجميع الجنود والضباط مع دباباتهم أو خيولهم في نسق معين. وعندما نسمي فلاناً كاتباً نقصد المواضيع وتأليف الجمل وجمع بعضها مع بعض، وربط الأحداث بعضها إلى بعض، ولا نقصد الخط بتاتاً، وإنما نقصد صياغة الجمل وربطها لإخراج موضوع مفيد. فإذا أخذنا أربع كلمات هي "جاء" و"الرجل" و"إلى" و"البيت" وجمعناها لنخرج منها معنى مفيداً، تصبح الجملة "جاء الرجل إلى البيت" حيث تأخذ معنى مفيداً يمكن الوقوف عليه. وعندما نقول أصدر رئيس الوزراء كتاباً نقصد به المعنى "الموضوع" لا الخط، حيث يجب علينا متابعة القول والإخبار بموضوع الكتاب، وإلا يصبح المعنى ناقصاً، كأن نقول: أصدر رئيس الوزراء كتاباً بشأن كذا وكذا. وإذا قلنا كلمة كتاب ولم نعطها إضافة لتوضيح الموضوع يصبح المعنى ناقصاً. وحين نقول كتاب الفيزياء للصف العاشر مثلاً، نعني أن هذا الكتاب يجمع مواضيع فيزيائية بعضها إلى بعض صالحة لطلاب الصف العاشر. كذلك عندما يقول تعالى {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (النساء ١٠٣) فهو يعني أن الصلاة من

المواضيع التعبدية التي يجب على المؤمن القيام بها، وأنها تتألف من مجموعة عناصر تبدأ بالنية وتنتهي بالتسليم مروراً بالوضوء والقيام والركوع والسجود والقعود. وبما أن التنزيل الحكيم الموحى إلى محمد (ص) يتألف من عدة مواضيع مختلفة، كل موضوع منها كتاب، قال: {رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ } (البينة ٢–٣) من هذه الكتب القيمة: كتاب الخلق، كتاب الساعة، كتاب الصلاة، كتاب الصوم، كتاب الحج، كتاب المعاملات. وعندما نقول كتاب البصر فهذا يعني أننا ندرس العناصر التي إذا ضم بعضها إلى بعض وفق تتالٍ معين ينتج عن ذلك عملية الإبصار، وهذه العناصر هي الأهداب والجفن والعين والعصب البصري ومركز الإبصار في الدماغ. وإذا أردنا أن ندرس كتاب العين فهذا يعني أننا ندرس البؤبؤ والشبكية وكل عناصر العين. وعندما ندرس كتاب الهضم فهذا يعني أننا ندرس الفم والأسنان، البلعوم، المريء، المعدة، الأمعاء الدقيقة، الأمعاء الغليظة، القولون، هذه العناصر التي تدخل في عملية هضم الطعام. وعندما جمع الزمخشري قاموسه ''أساس البلاغة'' جمع الأصول التي تبدأ بحرف الألف وسماها ''كتاب الألف'' وجمع الأصول التي تبدأ بحرف الباء وسماها ''كتاب الباء''.. وهكذا دواليك.

فأعمال الإنسان كلها كتب: ككتاب المشي، وكتاب النوم، وكتاب الزواج. وعباداته كتب: ككتاب الصلاة والحج والزكاة والصوم. وظواهر الطبيعة كلها كتب ككتاب خلق الكون وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الموت وكتاب الحياة، وكتاب النصر، وكتاب الهزيمة، وكتاب الزراعة، وكتاب الأنعام، وغيرها من كتب لا تعد ولا تحصى.

فكتاب الموت هو مجموعة العناصر التي إذا اجتمعت أدت إلى الموت لا محالة، وكتاب النصر هو مجموعة العناصر التي إذا اجتمعت حصل النصر، وكتاب خلق الكون هو مجموعة العناصر التي تركب منها خلق الكون. فلا يوجد شيء في أعمال الإنسان وفي ظواهر الطبيعة إلا من خلال الكتب، ولذا قال: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} (النبأ ٢٩). والإنسانية في نشاطها العلمي تبحث في هذه الكتب، وتدرسها لكي تتصرف من خلال عناصرها. فإذا أردنا أن تطول الأعمار فعلينا أن ندرس كتاب الموت وكتاب الحياة، وهذا ما يفعله علم الطب حين يدرس الظواهر التي تؤدي إلى الموت ''كتاب الموت''، والظواهر التي تؤدي إلى نشاط الأعضاء في الإنسان ''كتاب الحياة''. وعندما نقول كتاباً ونقف يبقى المعنى ناقصاً حتى نقول كتاب ماذا؟ وعندما قال تعالى: {.. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ..} (هود ١) لم يكن يعني كل آيات المصحف وإنما يعني ''مجموعة الآيات المحكمات''، وعندما قال {.. كِتَابًا مُتَشَابِهًا..} (الزمر ٢٣) لم يكن يعني كل المصحف وإنما يعني ''مجموعة آيات متشابهات''، وعندما قال: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا..} (آل

عمران ١٤٥) فإنه عنى كتاب الموت، أي مجموعة العناصر والشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت في حال توفرها واجتماعها. وعليه، فمن الخطأ الفاحش أن نظن عندما ترد كلمة كتاب في المصحف أنها تعني كل المصحف، لأن الآيات الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس تحتوي على عدة كتب، فمثلاً كتاب العبادات يحتوي على كتاب الصلاة وكتاب الصوم وكتاب الزكاة وكتاب الحج. وكتاب الصلاة يحتوي على كتاب الوضوء وكتاب الركوع وكتاب السجود.

أما عندما تأتي كلمة كتاب معرفة ب أل التعريف "الكتاب" فأصبح معرفاً عندما قال {ذَلِكَ الْكِتَابُ} في ثاني آية في سورة البقرة بعد {الم} {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} قالها معرفة ولم يقل: كتاب لا ريب فيه، لأنه لو قالها لوجب تعريف هذا الكتاب. فمجموعة المواضيع التي أوحيت إلى محمد صلى الله عليه وسلم هي مجموعة الكتب التي سميت "الكتاب"، ويؤيد ذلك أن سورة الفاتحة تسمى فاتحة الكتاب.

هذا الكتاب هو مجموعة المواضيع التي أوحيت إلى محمد صلى الله عليه وسلم من الله في النص والمحتوى، والتي تؤلف في مجموعها كل آيات المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس. هذا الكتاب يحتوي على مواضيع رئيسية هي:

١– {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} (البقرة ٣) (كتاب الغيب).

٢– {وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (البقرة ٣) (كتاب العبادات والسلوك) (سلوك).

أي أن هناك نوعين من الكتب: النوع الأول هو الذي يتعلق بسلوك الإنسان، ككتاب الصلاة الذي يتألف من الوضوء والقيام والركوع والسجود، وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتماً، بل له القدرة على اختيار الالتزام بها أو عدم التقيد بها. ويعني ذلك أن الإنسان هو الذي يقضي "يختار" موقفه منها. وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح "القضاء" والنوع الثاني قوانين الكون وحياة الإنسان ككتاب الموت وكتاب خلق الكون والتطور والساعة والبعث، وهذه الكتب مفروضة على الإنسان حتماً، وليست له القدرة على عدم الخضوع لها. وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح "القدر". ويتوجب على الإنسان أن يكتشف هذه القوانين ويتعلمها ليستفيد من معرفته لها.

وبما أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، وهو نبي، فهذا الكتاب يحتوي على رسالته ونبوته. فالرسالة هي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيد بها "عبادات، معاملات، أخلاق" "الحلال والحرام" وهي مناط التكليف.

والنبوة من "نبأ" هي مجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية "الحق والباطل".

وعليه فالكتاب يحوي كتابين رئيسيين:

١– الأول كتاب النبوة: ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي وعلى المعلومات الكونية والتاريخية، ويفرق بين الحق والباطل أي بين الحقيقة والوهم.

٢– الثاني كتاب الرسالة: ويشتمل على قواعد السلوك الإنساني الواعي، ويفرق بين الحلال والحرام، وافعل ولا تفعل.

هذا التقسيم للتنزيل الحكيم إلى كتب نجده واضحاً في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (آل عمران ٧).

١– الكتاب المحكم أي مجموعة الآيات المحكمات، التي أعطاها تعريفاً خاصاً بها هو أم الكتاب {مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}. فكما أن الكتاب مصطلح تم تعريفه بمجموعة الآيات المحكمات، فقد عرف الآيات المحكمات بأنها أم الكتاب، وهذا المصطلح جديد على العرب، فالعرب تعرف أم الرأس وأم القرى لكنها لا تعرف أم الكتاب. ولمصطلح "أم الكتاب" معنى واحد أينما ورد في الكتاب، أي لا يمكن أن يكون لهذا المصطلح معنى حقيقي وآخر مجازي، بل معناه الوحيد هو ما عرف به، وهو مجموعة الآيات المحكمات. والآيات المحكمات هن مجموعة الأحكام التي جاءت إلى النبي (ص)، والتي تحتوي على قواعد السلوك الإنساني "الحلال والحرام" أي العبادات والمعاملات والأخلاق والتي تشكل رسالته. مثال الآيات المحكمات قوله تعالى في سورة البقرة ٢٨٢، بدءاً من {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا} وانتهاء بـ {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. التي تحتوي على أحد عشر أمراً، واربعة نواهي.

٢– وإذا فرزنا مجموعة الآيات المحكمات على حدة، فما تبقى من آيات الكتاب بعد ذلك هو كتابان أيضاً، وهما: الكتاب المتشابه، وكتاب آخر لا محكم ولا متشابه. وهذا الكتاب الآخر يستنتج من قوله تعالى {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} حيث لم يقل "والآخر متشابهات" فهذا يعني أن الآيات غير المحكمات فيها متشابهات وفيها آيات من نوع ثالث لا محكم ولا متشابهٍ، وقد أعطى لهذه الآيات التي لا هي محكمة ولا متشابهة مصطلحاً خاصاً بها في سورة يونس، وهو "تفصيل الكتاب" وذلك

في قوله: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧). فهذه الآية تدلنا على وجود ثلاثة مواضيع هي:

١– القرآن.

٢– الذي بين يديه.

٣– تفصيل الكتاب.

وهذه الآية تؤكد أن تفصيل الكتاب موحى أيضاً من الله سبحانه. فالكتاب المتشابه، هو آيات الكتاب ما عدا آيات الأحكام "الرسالة" وما عدا آيات تفصيل الكتاب. أي هو مجموعة الآيات المتشابهات التي تحوي الحقائق والعلوم والقوانين الكونية التي أنبأ تعالى نبيه محمد (ص) بها، والتي كانت بمعظمها غائبة عن الوعي المعرفي الإنساني عند نزول الكتاب والتي تشكل نبوة محمد (ص) والتي فقرت بين الحق والباطل. ومثال الآيات المتشابهات قوله تعالى {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيم * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (يس ٣٨، ٣٩، ٤٠).

فإذا أخذنا الكتاب المتشابه، أي آيات المصحف ما عدا الأحكام وتفصيل الكتاب، نرى أنه يتألف من كتابين رئيسيين وردا في قوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (الحجر ٨٧):

١– الأول: سبعاً من المثاني.

٢– الثاني: القرآن العظيم.

وميزة آيات هذا الكتاب أنها إخبارية، فيها أخبار وأنباء، ولا يوجد فيها أوامر ونواهٍ. فمثلاً بعد سرد جزء من قصة نوح في سورة هود قال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود ٤٩) لاحظ قوله "أنباء" وقوله "غيب". وحين تحدث عن الذكر الحكيم قال تعالى {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} (ص٦٧–٦٨) وقال {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} (ص ٨٨).

أما مصطلح "الذي بين يديه" فيقصد به الرسالة وسنشرح ذلك فيما يلي:

بيّنّا أن الآيات المتشابهات هن آيات المصحف ما عدا آيات أم الكتاب "الرسالة" وآيات تفصيل الكتاب. ويعني ذلك أنه تبقى مجموعة الآيات المتشابهات، فما اسم هذه الآيات؟

١– قوله تعالى في أول سورة الحجر {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } (الحجر ١).

٢– وقوله تعالى في أول سورة الرعد {المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} (الرعد ١).

٣– وقوله تعالى {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} (البقرة ٢).

٤– وقوله تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ..} (البقرة ١٨٥).

٥– وقوله تعالى {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ} (الحجر ٨٧).

ونلاحظ في آية الحجر ١ والرعد ١ كيف عطف القرآن على الكتاب، وفي آية البقرة ١٨٥ كيف عطف بينات الهدى على القرآن، وفي آية الحجر ٨٧ كيف عطف القرآن على السبع المثاني، اللسان العربي لا يعطف إلا المتغايرات، أو الخاص على العام. في ضوء ذلك ينتج لدينا احتمالان:

أ– إما أن القرآن شيء والكتاب شيء آخر وعطفهما للتغاير، كأن نقول جاء أحمد وسعيد، حيث سعيد شخص وأحمد شخص آخر. وأمثلة ذلك كثيرة في التنزيل الحكيم منها قوله تعالى {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ..} (الأحزاب ٥٦)، وكلاهما من عند الله بدلالة قوله تعالى {.. وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا..} (آل عمران ٧).

ب– أو أن يكون القرآن جزءاً من الكتاب، وعطفهما من باب عطف الخاص على العام. وفي هذه الحالة يلزم وجوباً ألا ينفرد أحدهما بخصوصية ليست للآخر. لكننا نلاحظ أنه عندما ذكر الكتاب في آية البقرة ٢ قال: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}. وعندما ذكر القرآن في آية البقرة ١٨٥ قال: {هُدًى لِلنَّاسِ} وهذا غير ذاك، فالمتقون من الناس ولكن ليس كل الناس من المتقين. والمتقون هم الذين يخشون الله عن علم ومعرفة وإيمان بدلالة قوله تعالى {.. إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..} (فاطر ٢٨).

والمتقون هم الذين {.. يؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (البقرة ٣)، وهم الذين {.. عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ..} (البقرة ٥). أما الناس فهم عموم الخلق سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، أقاموا الصلاة أم لم يقيموها، أنفقوا من رزق الله أم لم ينفقوا. وهذا وحده يوجب التمييز بين هدى الكتاب وهدى القرآن، مثلما أن العطف وحده يمنع الترادف ويوجب التمييز بين الكتاب والقرآن.

نعود لنقف عند آية الرعد ١ التي تعطف الحق على الكتاب. فهل هو عطف بين متغايرين، أم هو عطف خاص على عام؟

الجواب القاطع على هذا السؤال جاء في قوله تعالى {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} (فاطر ٣١). ليبين أن الحق جزء من الكتاب وليس كل الكتاب، وأن الحق جاء معرفاً أي أن الحقيقة الموضوعية بأكملها مطلقة غير منقوصة موجودة

في الكتاب لكنها ليست كل الكتاب، حيث في الكتاب توجد آيات محكمات هي ”آيات الرسالة“ وهي ليست حقاً، وآيات متشابهات هي ”آيات النبوة“ وآيات تفصيل الكتاب.

ثمة وظيفة ثانية للحق في الآية هي تصديق الذي بين يديه. فما معنى تصديق الذي بين يديه؟؟

هذا السؤال هو من أخطر الأسئلة التي لا يمكن بدون فهمها فهم نبوة محمد (ص)، ولا يمكن فهم الإعجاز مطلقاً.

إن الله مطلق ومعلوماته مطلقة، وعند الله توجد الحقيقة الموضوعية بشكل مطلق، والله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى أن يعلم نفسه أو يهدي نفسه. وبما أن الناس في فهمهم للحقيقة يحملون طابع النسبية، أي أنهم لا يفهمون إلا حسب الأرضية المعرفية ”مستوى المعرفة“ الموجودة عندهم، فقد أخذ الله تعالى ذلك بالحسبان لدى إعطاء الناس ما يشاء من علمه.

لنضرب الآن مثالاً على ذلك: إذا رغب إنسان من كبار علماء الإلكترونيات عمره خمسون عاماً في أن يعطي المعلومات المتوفرة عنده لابنه الذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام، فهناك طريقتان لا ثالثة لهما للقيام بذلك:

الطريقة الأولى: أن يعطيه المعلومات بالتدريج حسب السن وحسب الخبرة المكتسبة، فيعطيه جزءاً بحيث يستطيع استيعابه، ثم يعطيه جزءاً آخر.. وهكذا دواليك حتى يعطيه المعلومات كاملة، ولكن هذه الطريقة تتطلب اتصالاً مباشراً دائماً بين الأب وابنه، أي أن الجسر الذي ينقل المعلومات بين الأب وابنه هو الاتصال المباشر والدائم بحيث تزيد المعلومات مع نمو الطفل.

الطريقة الثانية: أن يعطي الأب العالم مجموعة كاملة من المعلومات الموجودة عنده لابنه دفعة واحدة، بدون أن يكون هناك أي اتصال بعد ذلك. وهذا يتطلب بالضرورة أن يصوغ المعلومات بطريقة يفهمها الابن ذو السنوات الثلاث حسب أرضيته المعرفية. ثم عندما يكبر وتزيد معلوماته يقرأ هذه الصياغة مرة أخرى فيراها مطابقة لمعلوماته النامية.. وهكذا دواليك، أي مع نمو المعرفة عند هذا الإنسان يقرأ النص الثابت فيرى أنه مطابق لمعلوماته. ولكن هذه الطريقة تتطلب صياغة خاصة يجب أن يتوفر فيها شرطان: الأول ثبات النص والثاني حركة المحتوى وهذا ما يسمى بالتشابه وهو عين التشابه. ولله المثل الأعلى. فلننظر الآن في طريقة اتصال الله بالناس لإعطائهم المعلومات، نجد أنه اتصل بهم بالطريقتين: الاتصال الدائم المتدرج، والاتصال دفعة واحدة.

أما الاتصال الدائم المتدرج فقد حصل عبر النبوات قبل محمد (ص) كالتوراة والإنجيل. فبعد نزول التوراة كانت هناك رجعة من الله إلى الناس في الإنجيل. وبعد نزول الإنجيل كان هناك رجعة من الله إلى الناس في القرآن. ولكن بعد نزول الكتاب لم تكن هناك رجعة من الله إلى الناس، حيث لا

نبي ولا رسول بعد محمد (ص). هكذا يتأكد استعماله تعالى للطريقتين في نقل المعلومات. ففي الطريقة الأولى، أي في التوراة والإنجيل، تم نقل المعلومات بشكل يفهمه الناس حسب أرضيتهم المعرفية، فجاءا يحملان طابع المرحلية بالشرح. ولذا فعندما نقرأ التوراة الآن ونقارنها مع معلوماتنا الحالية نراها لا تنسجم مع أرضيتنا المعرفية، وأنها نزلت بصيغة مطابقة لمعارف الناس وقت نزولها. ولم ينتبه المفسرون المسلمون إلى هذه الناحية الخطيرة، فاعتمدوا قليلاً أو كثيراً على التوراة في تفسير القرآن وهنا كانت الطامة الكبرى! ففي عصر النهضة في أوروبا قال العلماء: إن العلم قضى على التفسير التوراتي لخلق الكون والإنسان وعمر الكون والإنسان، وحسناً فعلوا. ولهذا وصف التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس قبل القرآن {وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ} (آل عمران ٣–٤).

وينطبق الحال كذلك على الإنجيل. إذ أن التوراة والإنجيل لا يحملان صفة التشابه في الصيغة. ولهذا نراهما اليوم كتابين يدرسان فقط في الكنائس للعبادة دون أن يكون لهما علاقة بالحياة. وهذا ما أراد "مشايخنا" أن يفعلوه بالقرآن بتحويله إلى كتاب في اللاهوت. وأما الاتصال دفعة واحدة لا رجعة بعدها فهي الطريقة الإسلامية التي لا يمكن أن تكون إلا بثبات النص وحركة المحتوى، الذي يحتاج إلى التأويل باستمرار. ولهذا لا بد من أن يكون القرآن قابلاً للتأويل، وتأويله يجب أن يكون متحركاً وفق الأرضية العلمية لكل أمةٍ في عصرها، على الرغم من ثبات صيغته. وفي هذا يكمن إعجاز القرآن للناس جميعاً دون استثناء. إن إعجاز القرآن ليس فقط بجماله البلاغي كما يقول بعضهم، وليس معجزاً للعرب وحدهم، وإنما للناس جميعاً. وذلك لأن الناس كلٌ بلسانه "الإنكليزي بالإنكليزية والصيني بالصينية والعربي بالعربية" عاجزون عن أن يعطوا نصاً متشابهاً بحيث يبقى النص ثابتاً، ويطابق محتواه الأرضيات المعرفية المتغيرة والمتطورة للناس مع تطور الزمن إلى أن تقوم الساعة.

إنّ مثل هذا لا يمكن أن يفعله إلا من يعلم الحقيقة المطلقة وهذا لا يتوفر للناس لأن معرفتهم وعلمهم نسبيان. لذا لا يمكن تأويل القرآن كاملاً من قبل واحد فقط إلا الله. أما الراسخون في العلم فيؤولونه حسب أرضيتهم المعرفية في كل زمان، وكل واحد منهم حسب اختصاصه الضيق.

من هنا نفهم الحقيقة الكبيرة وهي أن النبي (ص) لم يؤول القرآن، وأن القرآن كان أمانةً تلقاها وأداها للناس دون تأويل، وإنما أعطاهم مفاتيح عامة للفهم.

أما مقولة: "إن النبي (ص) كان قادراً على تأويل القرآن" فنقول:

١– إما أن يكون هذا التأويل الأول صحيحاً بالنسبة لمعاصريه فقط، فيكون بذلك قد تسبب في تجميد التأويل، وتجميد حركة العلم والمعرفة، وإلزام الناس بكلامه، ثم تتقدم المعرفة الإنسانية مع الزمن وتظهر العلوم فتبدأ تأويلاته قاصرة، ويكون بذلك قد قصم ظهر الإسلام بنفسه.

٢– وإما أن يكون تأويله صحيحاً بالنسبة لجميع العصور والأزمان، ومتطابقاً مع كل ما سيستجد من اكتشافات واختراعات في مختلف مجالات العلوم. وبهذه الحالة:

أ– يصبح كامل المعرفة بالحقيقة المطلقة، وشريكاً لله في علمه المطلق.

ب– لن يوجد أحد من معاصريه قادر على فهم هذا التأويل.

ج– يفقد القرآن إعجازه.

في ضوء هذا يجب أن نفهم أن التنزيل الحكيم رسالة وأمانة. فأما الرسالة، أي أم الكتاب، فقد بلغها ووضع منهجاً تطبيقياً لها في السنة. وأما الأمانة فقد أداها كما أوحيت إليه وهي النبوة التي تشتمل على القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، ووضع منهجاً تطبيقياً لها في قوله (ص): بلغوا عني ولو آية فرُبَّ سامع أوعى من مبلغ. وبذا نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه: (أوتيت القرآن ومثله معه)، فعند ذكره القرآن ومثله معه فإنما عنى به شيئاً آخر متجانساً مع القرآن أي مثله وهو مجموعة من الحقائق العلمية تساوي القرآن في قيمتها العلمية لذا جاء القرآن معطوفاً عليها وهي "سبع من المثاني" حيث عطف القرآن العظيم عليها في قوله {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ} (الحجر ٨٧).

ثانياً: الذكر

ما هو الذكر؟

لنرجع إلى قوله تعالى:

١– {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر٩).

٢– {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} (الحجر٦).

٣– {ص وَالْقُرْآَنِ ذِي الذِّكْرِ} (ص ١).

فإذا نظرنا إلى لفظة الذكر في الآيات الثلاث وجدناها جاءت معرفة بـ"ال التعريف"، وإذا نظرنا أيضاً إلى القرآن والذكر في سورة ص لوجدناهما مربوطين بأداة "ذي" وهذه الأداة تستعمل للدلالة على صفة الشيء لا على الشيء نفسه، كقوله تعالى {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} (الفجر ١٠) ففرعون

شيء والأوتاد شيء آخر، والآية تعني فرعون صاحب الأوتاد كقوله {أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} (القلم ١٤) أي صاحب مال. فالقرآن هنا هو الموصوف والذكر هو الصفة، وقوله {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} يعني القرآن الموصوف بالذكر فما هي هذه الصفة الخاصة بالقرآن التي تسمى "الذكر"؟

القرآن هو مجموعة القوانين الموضوعية الناظمة للوجود ولظواهر الطبيعة والأحداث الإنسانية، وأساسه غير لغوي ثم جعل لغوياً لقوله {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} (الزخرف ٣). وانتقال القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربي تم بصيغة منطوقة لذا فهو يتلى بصيغة صوتية منطوقة مسموعة أو غير مسموعة. وهذه هي الصيغة التي أشهر بها القرآن لأنه تم إنزاله بها ليلة القدر، وبها يذكر بين الناس كما في قوله تعالى {.. اذكرني عند ربك..} (يوسف ٤٢).

والذكر هو الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي التي تم تحويل القرآن إليها وإنزاله وإشهاره بها ليلة القدر ماعدا القصص المحمدي. وبما أن هذه الصيغة عربية فقد قال للعرب: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (الأنبياء ١٠). أما بقية الكتاب وجزء القصص المحمدي من القرآن فقد تلازم الإنزال والتنزيل فيها بدون "جعل" وكان الإنزال عربياً مباشراً. صحيح أن الله سبحانه منزه عن الجنس، فهو ليس عربياً ولا تركياً ولافارسياً. ولكن النص الإلهي الموحى جاء ليبين أن الإنزال عربي.

هذه الصيغة التي بين أيدينا هي صيغة عربية ومحدثة غير قديمة وفق لسان إنساني يذكر بها القرآن بين الناس لذا قال: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} (الأنبياء ٢) لاحظ هنا دقة التعبير في الآية عندما قال عن الذكر إنه محدث ولم يقل القرآن. ولا ننسى أن الذكر ليس القرآن نفسه، بل هو صفة من صفاته {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} (ص ١). وهذا الفهم يحل المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم حول خلق القرآن. فإذا عرفنا أن الذكر ليس القرآن نفسه، وإنما هو إحدى خواصه وهو صيغته اللسانية حصراً يزول الالتباس. من هنا نجد في التنزيل الحكيم شرطاً لفهم آياته بقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (الأنبياء ٧) ومن هنا يجب أن نفهم أن أهل الذكر هم أهل اللسان العربي.

هذه الصيغة المحدثة هي التي أخذت طابع التعبد. فعندما يتلو الإنسان كتاب ربه "بصيغته اللسانية الصوتية"، بغض النظر عن فهم المضمون، تكون تلاوته عبادة يتساوى الناس فيها جميعاً عرباً وغير عرب. فإذا وقف في الصلاة مسلمان "عربي وغير عربي" وكلاهما تلا الذكر بغض النظر عن فهم المضمون فصلاتهما مقبولة، لذا قال {.. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} (طه ١٤) وعندما قال الشافعي: إن الصلاة لا تجوز إلا باللسان العربي فهذا صحيح لأن المطلوب في الصلاة التلاوة

الصوتية للكتاب لا فهم الكتاب. لذا قيل عن القرآن: إنه المتعبد بتلاوته، فالقرآن يتلى {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ..} (النمل ٩٢).

ومنه يظهر أن تحويل القرآن إلى صيغة صوتية لغوية عربية قد أخذ الطابع التعبدي، لذا قال عنه {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (القمر ١٧).

إذاً فصيغة القرآن اللغوية هي الصيغة التعبدية، ومثلها كذلك صيغة أم الكتاب بدلالة قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ..} (فاطر ٢٩) فيصبح الذكر بذلك هو الصيغة اللغوية الصوتية التعبدية للكتاب كله، ويغدو من الصحيح أن نقول عندما تتلى آيات الكتاب "تتلى آيات الذكر الحكيم". وبما أن النبي (ص) عربي، والذكر هو الصيغة اللغوية للكتاب كله فقد قال تعالى {.. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ..} (النحل ٤٤) ونلاحظ في هذه الآية إنزالاً للذكر وتنزيلاً له.

والإنزال هو بيان التنزيل، وهذا البيان هو "الصيغة اللغوية بلسان عربي مبين". وعليه، فإن انزال الذكر هو إنزال للكتاب كله بصيغة لغوية عربية حكماً بدلالة قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..} (الرعد ٣٧) وقرآناً بدلالة قوله تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..} (يوسف ٢) مجتمعين مع آيات تفصيل الكتاب التي هي بالضرورة عربية لأنها تشرح مفردات الكتاب من قرآن وأم كتاب وتشرح الإنزال والتنزيل.

يقول تعالى في يس ٦٩ {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على الذكر أي ذكر = عبادة، قرآن = علم "استقراء ومقارنة". وقد استعمل التنزيل للذكر في قوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر ٩) لتبيان أن الذكر جاء وحياً مادياً من خارج إدراك محمد (ص)، وأنه صيغ خارج وعيه، وأن التنزيل عملية مادية حصلت خارج إدراك محمد (ص)، ودخلت إدراكه بالإنزال. (لمزيد من التفصيل أنظر الفصل الثالث / الإنزال والتنزيل).

يبقى أن ننوه بأن فعل "ذكر" له معان أخرى، منها التذكر ضد النسيان كقوله تعالى {.. وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ..} (الكهف ٦٣) ومنه جاءت الذاكرة والمذاكرة.

ثالثا: الفرقان

قال تعالى:

١– {وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة ٥٣).

٢– {وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ..} (آل عمران ٣–٤).

٣– {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ..} (البقرة ١٨٥).

٤– {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ} (الأنبياء ٤٨).

٥– {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} (الفرقان ١).

٦– {.. وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ..} (الأنفال ٤١).

٧– {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا..} (الأنفال ٢٩).

تلك هي المواضع السبعة التي ورد فيها ذكر الفرقان في التنزيل الحكيم، معرفاً في ستة منها ونكرة في السابع. وأولها في آية البقرة ٥٣ التي تتحدث عن شيئين هما الكتاب والفرقان، جاءا إلى موسى كل على حده ففرقت الآية بينهما بالعطف. ثانيها في آل عمران ٣ و٤ التي تبين أن التوراة والإنجيل والفرقان أنزلت هدى للناس قبل أن يأتي الكتاب إلى محمد (ص). ثالثها في البقرة ١٨٥ التي توضح بكل جلاء أن الهدى للناس الذي جاء إلى موسى متمثلاً بالفرقان هو نفسه الذي أنزل هدى للناس في شهر رمضان على محمد (ص). فما هو الفرقان الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقاً عن الكتاب؟

لو تأملنا الآيات (١٥١–١٥٢–١٥٣) من سورة الأنعام وهي:

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..}

١– {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا..}

٢– {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..}

٣– {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ..}

٤– {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ..}

٥– {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الأنعام ١٥١).

٦– {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ..}

٧– {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..}

٨– {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى..}

٩– {وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الأنعام ١٥٢).

١٠– {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام ١٥٣).

أقول: لو تأملنا هذه الآيات لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنها الوصايا العشر التي أوتيها موسى بدلالة قوله تعالى في الأنعام ١٥٤: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}. هنا نلاحظ بشكل جلي كيف أن هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولة عن الكتاب، لأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تماماً في قوله تعالى عن عيسى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران ٤٨).

ونستنتج أن الفرقان هو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى وثبتت إلى عيسى عليهما السلام ثم جاءت إلى محمد (ص)، وأنها رأس الرسالات السماوية الثلاث وسنامها، والقاسم المشترك بينها وفيها التقوى الاجتماعية وهي ما يسمى بالقيم الإنسانية (الأخلاق)، وليست الشعائر "العبادات"، التي تحمل الطابع الإنساني العام.

ولقد جاءت آيات الأنعام الأربع إلى النبي (ص) في رمضان، وبما أنها آيات مدنية من أم الكتاب فإنها أنزلت ونزلت معاً. ونحن نعلم أن معركة بدر حصلت في رمضان، ولهذا أخبرنا سبحانه أن الفرقان أنزل على رسول الله (ص) يوم معركة بدر وسماه يوم الفرقان بقوله تعالى {.. وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ..} (الأنفال ٤١).

لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب قوله تعالى{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الفاتحة ٥) وحدد هذا الصراط في قوله {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ..} (الفاتحة ٦)، فمن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم وجاءهم الصراط المستقيم لأول مرة؟

إن الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة هم بنو إسرائيل الذين عاصروا موسى، وفضلهم الله على العالمين به في قوله تعالى {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة ٤٧) هنا يذكر بني إسرائيل بنعمته التي أنعم عليهم بها والتي فضلهم على العالمين بها، وهذه النعمة وهذا التفضيل هما الصراط المستقيم الذي أنزل لأول مرة في تاريخ الرسالات إلى موسى عليه السلام وذلك في قوله: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } (الصافات ١١٤–١١٨). وقد سميت الوصايا الصراط المستقيم لأنها لا تتغير أبداً، حيث أن القيم مبادئ إنسانية عامة وهي من ثوابت الدين الإسلامي ولا تحمل طابع

التغير مع الزمن والتطور والمرونة "الحنيفية" مثلها في ذلك مثل الشعائر. وفي الدين الإسلامي الوصايا (القيم الإنسانية) والحدود والشعائر هي الصراط المستقيم، أي التقوى الاجتماعية في الوصايا، والتقوى الفردية في الشعائر.

لنلاحظ التسلسل التالي:

– قال تعالى {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة ٥٣). وبعد شرح الوصايا العشر في سورة الأنعام قال {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} وأوضح أن الوصية العاشرة هي اتباع الصراط المستقيم {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...} (الأنعام ١٥٢).

– صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ====> يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

– وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ====> وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} (الأنبياء ٤٨).

ونفهم من هذا التسلسل أن الوصايا العشر هي الفرقان وهي الصراط المستقيم. وأن كل من اتبع هذا الصراط إلى يوم الدين هو من الذين أنعم الله عليهم وهو من المهتدين. وكل من تركه فقد ضل، وكل من عاداه فقد باء بغضب من الله كائناً من كان، سواء أكان من أتباع موسى أم من أتباع عيسى أم من أتباع محمد (ص)، فقاتل النفس بغير حق مغضوب عليه مهما كانت ملته، والمشرك ضال مهما كانت ملته، لذا أتبعها بقوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}. وقد سمى الوصايا الحكمة بالنسبة لعيسى (ع) في قوله تعالى {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران ٤٨). فالكتاب هو الرسالة، والحكمة هي الوصايا، والتوراة هو نبوة موسى، والإنجيل هو نبوة عيسى، ومجموعهم هو الكتاب المقدس. وللدلالة على أن الوصايا العشر هي الحكمة، فقد ذكر تسعاً منها في سورة الإسراء من الآية ٢٣ إلى الآية ٣٩ التي تقول {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ...}. فالوصايا العشر بالنسبة لعيسى وللنبي محمد (ص) هي جزء من الحكمة حيث ذكر وصايا غيرها في سورة الإسراء، كقوله تعالى {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا..} (الإسراء ٣٧) ودمجها تحت عنوان الحكمة، وقوله {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ..} (لقمان ١٢) وبما أن لقمان ليس نبياً ولا رسولاً فقد ذكر أن الحكمة، كوصايا وقيم إنسانية يمكن أن تأتي لأي شخص في كل زمان ومكان بدلالة قوله تعالى {وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا..} (البقرة ٢٦٩) أما بالنسبة لموسى فقد جاءته الوصايا العشر "الفرقان" وسميت باسمها ولم يقل عن موسى إنه أوتي الحكمة التي تعتبر الوصايا العشر الجزء الأساسي منها، وهي من الصراط المستقيم الذي يجب على كل إنسان ومجتمع إنساني أن يتبعها.

وبما أن الوصية الأولى في الفرقان هي التوحيد وأن الله بعث الرسل والأنبياء من أجل التوحيد، فعندما ذكر الأنبياء والرسل قال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ..} (الأنعام ٨٩) وبعد أن ذكر عدداً من الأنبياء والرسل قال {وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الأنعام ٨٧) ونلاحظ أن عبارة ''صراط مستقيم'' جاءت في الآية غير معرفةٍ لأن الصراط لم يأتِ بكامله إليهم جميعاً بل أتى جزء منه هو التوحيد على الأقل متمثلاً بعبارة {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا..} (الأنعام ١٥١) فشعيب مثلاً كانت نبوته التوحيد ورسالته الوفاء بالكيل والميزان.

والفرقان نوعان، فرقان عام جاء إلى موسى وعيسى ومحمد (ص). وفرقان خاص جاء إلى محمد (ص) وحده، وهو الذي ذكر في سورة الفرقان ''انظر فصل الفرقان''.

الفصل الأول

القرآن والسبع المثاني

١ ــ كلمات الله

ترتبط الكلمة في الأصل بالجانب الصوتي للسان، كقول المتنبي:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

والكلام في اللغة اسم جنس يقع على القليل والكثير، وقد عرفه بعضهم بأنه "المنتظم من الحروف المسموعة المميزة" (الزمخشري الكشاف ج١، ص٥).

فعندما نقيم حفلاً خطابياً نقول: إن الكلمة لفلان، وهذا يعني أنه حاضر ليلقيها بنفسه. أما إذا كان غائباً فنقول: يلقيها بالنيابة عنه فلان. وكل الألسن الإنسانية أصوات تتألف منها الكلمات والجمل. فإذا تكلم الصيني فإننا نحن العرب نسمع أصواتاً ولكن لا نفهم ما هو مدلول تلك الأصوات. وعندما يأخذ الكلام مدلولاً في الذهن يصبح قولاً.

الكلام يخرج من الفم وفيه تكمن الفصاحة. لذا قال موسى عن أخيه هارون {.. هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا..} (القصص ٣٤). وعندما أرسل الله موسى إلى فرعون نصحه بقوله: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا} (طه ٤٤). والقول هو الكلام الذي له دلالات في الذهن، لذا نقول "البلاغة في القول" و"الفصاحة في اللسان". أما البلاغة فنراها في قوله تعالى {.. وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} (النساء ٦٣) وهنا نفهم قول النبي (ص) إن صح (أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا) حديث عن عمر "رض" ذكره أبو يعلى في مسنده وقوله (أعطيت فواتح الكلام، وجوامعه وخواتمه) ذكره أبو يعلى في مسنده عن أبي موسى. أي أن الأصوات الإنسانية المجموعة في فواتح السور لا تعني البلاغة لا من قريب ولا من بعيد. ونرى الكلام والقول في آية واحدة في قوله تعالى: {.. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} (الكهف ٥) أي هذه الكلمة التي تخرج من الأفواه لها مدلول الكفر عندما نفهمها في الذهن لذا قال: {إِنْ يَقُولُونَ} ولم يقل: إن يتكلمون.

هنا يجب أن نفهم أن الألسن الإنسانية ذات شقين: الشق الأول هو الأصوات التي لها وجود مادي ”موضوعي“. والشق الثاني هو دلالات هذه الأصوات في الذهن. وهذه خاصية تميز بها الإنسان، وهي أن الألسن الإنسانية تتألف من دال ومدلول.

وبما أن اللسان أداة تؤدي وظيفتين هما الاتصال والتفكير، ففي أداة الاتصال يظهر بشكل جلي ارتباط الدال بالمدلول، وفي أداة التفكير يظهر المدلول. ولكن التدقيق يبين أن التفكير الإنساني لا يتم إلا ضمن إطار لساني غير ملفوظ. هذا كله متعلق بالإنسان. فهل ينطبق ذلك على كلمات الله؟

لو كان النص القرآني المتلو أو المكتوب الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله فهذا يعني أن الله له جنس وجنسه عربي، وأن كلام الله ككلام الإنسان يقوم على علاقة دال ومدلول. ولكن بما أن الله أحادي في الكيف {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} (الإخلاص ١)، وواحد في الكم {.. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ..} (الأنعام ١٩) وأن الله ليس عربياً ولا انكليزياً، لزم أن يكون كلامه هو المدلولات نفسها. فكلمة الشمس عند الله تعالى هي عين الشمس، وكلمة القمر هي عين القمر، وكلمة الأنف هي عين الأنف، أي أن الوجود المادي ”الموضوعي“ ونواميسه العامة هي عين كلمات الله، وكلماته هي عين الوجود ونواميسه العامة. ولهذا نقول: إن الله هو الحق وإن كلماته حق {.. قَوْلُهُ الْحَقُّ..} (الأنعام ٧٣) {وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ..} (يونس ٨٢) {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ..} (الحج ٦٢) فالوجود الموضوعي خارج الوعي هو الوجود الإلهي، والوجود الكوني الذي هو كلمات الله حق أيضاً {مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ..} (الأحقاف ٣). فالله حق والوجود كلماته هو حق أيضاً، لذا قال {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس ٨٢)، وقال: {.. إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (آل عمران ٤٧– مريم ٣٥). ونحن نعلم أن سمة ”المتكلم“ ليست من أسماء الله الحسنى، وإنما كلماته اشتقت من اسمه الحق. ومن أجل تعليم الإنسان صاغ الله الحقيقة المطلقة وهي الوجود ونواميسه العامة وأسماءه الحسنى صياغةً لسانية إنسانية. وبما أن فهم الإنسان للحقيقة هو فهم نسبي دائماً له علاقة بتطور الأرضية المعرفية للإنسان، فقد لزم أن تصاغ الحقيقة بلغة إنسانية مطواعة لهذا الفهم النسبي عن طريق التشابه في الصيغة الثابتة. واللسان العربي في بنيته ومفرداته يحمل خاصية التشابه هذه بوضوح، وهذا أحد وجوه أصالة هذا اللسان. ولهذا كان اللسان العربي هو الوعاء الذي حمل مطلق الحقيقة ونسبية الفهم الإنساني. ففي الصياغة القرآنية العربية تظهر قمة الجدل الداخلي بين الحقيقة المطلقة للوجود والفهم النسبي الإنساني لهذا الوجود في مرحلة ما، وفي هذا المعنى تكمن قمة إعجاز القرآن للناس جميعاً، على اختلاف عصورهم واختلاف مداركهم تبعاً لاختلاف أرضياتهم المعرفية.

وبما أن القرآن حوى الحقيقة الموضوعية لذا أطلق عليه سبحانه تسمية ''الحق'' في قوله تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأحقاف ٧).

٢ ــ محتويات القرآن

قلنا إن الكتاب المتشابه هو السبع المثاني والقرآن العظيم. فالتشابه في السبع المثاني جاء في قوله تعالى {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الزمر ٢٣).

نلاحظ هنا كيف جاءت كلمة ''كتاب'' منكرة ولذلك فهي لا تعني كل محتويات المصحف، وإنما وصف هذا الكتاب بصفتين هما التشابه والمثاني. ويعني ذلك أن مجموعة السبع المثاني هي كتاب متشابه ومثانٍ معاً.

أما بالنسبة للقرآن فيجب أن نميز بين القرآن معرفاً كقوله {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ..} (البقرة ١٨٥) وقوله {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ} (الحجر ٨٧) والقرآن نكرة كقوله {بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} (البروج ٢١ــ٢٢).

فعندما يأتي القرآن معرفاً فإنه يأخذ المعنى نفسه، أما إذا جاء منكراً فيمكن أن يعني جزءاً منه. فالقرآن الحكيم في قوله تعالى {يس * وَالْقُرْآَنِ الْحَكِيمِ} (يس١، ٢) هو القرآن العظيم نفسه في آية الحجر ٨٧ وهو الذي أنزل في رمضان طبقاً لآية البقرة ١٨٥. وليست عبارة (قرآن مجيد) هي بالضرورة (القرآن العظيم). ولكنها من جنسه وتعني جزءاً منه لا كله. وقد جاء الدليل على أن القرآن كله متشابه وأنه هو الحق في قوله تعالى {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} (يونس ٣٦) {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧) {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (يونس ٣٨) {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} (يونس ٣٩).

هنا نلاحظ أن سياق الآيات يتكلم عن القرآن وأنه احتوى على معلومات لم يحيطوا بها وأن تأويله لم يأت بعد. ونلاحظ أيضاً ما جاء في الآية ٧ من آل عمران أن التأويل هو للمتشابه فقط.

أما إذا نظرنا إلى محتويات القرآن فنرى أنه يتألف من موضوعين رئيسيين وهما:

١– الجزء الثابت {.. قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} (البروج ٢١–٢٢) وهذا الجزء هو القوانين العامة الناظمة للوجود كله ابتداء من خلق الكون "الانفجار الكوني الأول" وفيه قوانين التطور "الموت حق" وتغير الصيرورة "التسبيح" حتى الساعة ونفخة الصور والبعث والجنة والنار. وهذا الجزء لا يتغير من أجل أحد وهو ليس مناط الدعاء الإنساني، وإن دعا كل أهل الأرض والأنبياء لتغييره فلا يتغير، وهذا الجزء العام هو الذي تنطبق عليه عبارة {.. لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ..} (الكهف ٢٧).

فكلمات الله هي عين الموجودات والأشياء {قَوْلُهُ الْحَقُّ} (الأنعام ٧٣). وفي اللوح المحفوظ يوجد القانون العام الصارم لهذا الوجود، ولا تبديل لهذا القانون من أجل أحد. أما التشابه في هذا الجزء فهو منسوب إلى الفلسفة أم العلوم، أي معرفة الإنسان بالقوانين العامة الناظمة للوجود.

٢– الجزء المتغير من القرآن: وهذا الجزء هو المأخوذ من إمام مبين في قوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢).

فالإمام المبين يحتوي على شقين:

أ– أحداث وقوانين الطبيعة الجزئية، مثل تصريف الرياح واختلاف الألوان وهبة الذكور والإناث والزلازل والطوفان وكلها قابلة للتصريف، وغير مكتوبة سلفاً على أي إنسان وغير قديمة. فمثلاً القانون العام في اللوح المحفوظ يقول: "الموت حق"، ولكن الأحداث الجزئية في الطبيعة يمكن أن تسمح بوجود ظواهر تطيل الأعمار وظواهر تقصرها. فالتصريف هو بطول العمر وقصره، وليس بإلغاء الموت. فأحداث الطبيعة الجزئية أطلق عليها مصطلح آيات الله {وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ..} (الروم ٢٢) {تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ} (الجاثية ٦). فآيات الله تختص بظواهر الطبيعة وقد جاءت في الكتاب تحت مصطلح "كتاب مبين":

١– {.. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} (المائدة ١٥).

٢– {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (الأنعام ٥٩).

٣– {.. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (يونس ٦١).

٤– {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (هود ٦).

٥– {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (النمل ٧٥).

٦– {.. عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (سبأ ٣).

ويلاحظ المتأمل في هذه الآيات أنه حيثما ورد ذكر هذا المصطلح كان السياق يدور حول ظواهر الطبيعة وأحداثها، سواء في حركتها الكيميائية بين الرطب واليابس الأنعام ٥٩ أو في حركتها الميكانيكية وهي تسقط الأنعام ٥٩ أو في موقعها ومكانها من ظلمات الأرض الأنعام ٥٩ أو في حجمها ومقدارها يونس ٦١ أو في صيرورتها النهائية هود ٦.

هذا الجزء الذي ورد تحت عنوان "كتاب مبين" فيه التصريف والتغيير، وهو مناط التدخل الإلهي وفقاً للنواميس الكونية التي ارتضاها وقررها، فتارة يعمل لصالح زيد وأخرى لصالح عمرو، وهو مناط الدعاء. فنحن ندعو الله أن يرسل لنا مطراً، لأن المطر يأتي من تصريف الرياح أو أن يهب لنا ذكوراً وإناثاً. وكل هذه الأشياء ليس لها علاقة باللوح المحفوظ وإنما هي أحداث جزئية في ظواهر الطبيعة، وإلا فلا معنى لقوله (ص): الدعاء مخ العبادة وقوله أيضاً: لا يرد القضاء إلا الدعاء. وهي أيضاً مناط العلوم من طب وفلك وهندسة وفيزياء وكيمياء... ماعدا الفلسفة والتاريخ. ويقوم التشابه في آيات الكتاب المبين "آيات الله" على نسبة تقدم المعارف الإنسانية بأحداث الطبيعة وظواهرها وهو الذي ينطبق عليه قوله تعالى {.. إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (آل عمران ٤٧ – مريم ٣٥).

ب– أفعال الإنسان الواعية: وهو ما نسميه القصص. فقد أكد سبحانه أن القصص من القرآن في قوله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف ٣). وأشار إلى أن تسجيل أفعال الإنسان يتم بعد وقوعها في {إِمَامٍ مُبِينٍ} ليميزه عن {لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢)، وقد أورد منه أحداثاً متكاملة لتتبع تطور التاريخ الإنساني، وتطور المعارف في النبوات والتشريع في الرسالات، أي كيف تفاعل الإنسان مع القانون العام للوجود والقوانين الجزئية من جهة، وكيف تفاعل مع الرسالات من جهةٍ أخرى. وبما أنه أعطى هذا الخط في القصص فقد سماه "أحسن القصص".

أما أن القصص جزء من القرآن فقد ورد في قوله: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف ٣) فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهل القصص والقرآن معاً، وكان القصص ليس جزءاً من القرآن لجاءت الصيغة بصورة المثنى أي: وان كنت من قبلهما، وهذه الصيغة "من قبله" تصح في

حالة أن القرآن شيء والقصص شيء آخر في حالة واحدة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهل القرآن ولا يجهل القصص، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهل القصص أيضاً لقوله في سورة هود بعد قصة نوح: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود ٤٩). من هنا نتوصل إلى النتيجة الوحيدة وهي أن القصص جزء من القرآن. وهناك دليل آخر في قوله تعالى في أول سورة النمل: {طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ} فإذا تصفحنا سورة النمل وجدنا أن فيها قصصاً. أما العنوان العام الذي أعطاه الكتاب للقصص وهو عبارة "الكتاب المبين" فقد جاء في ثلاث سور فيها قصص:

١ – {الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (يوسف ١).

٢ – {تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (الشعراء ٢).

٣ – {تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (القصص ٢).

لنشرح الآن لماذا سمى القصص الكتاب المبين وسمى ظواهر الطبيعة كتاباً مبيناً:

١– السبب الأول: أن كليهما أوحي من الإمام المبين وليس من اللوح المحفوظ.

٢– والسبب الثاني أن القصص أعطت مواضيع متكاملة منتقاة لتتبع تطور التاريخ الإنساني، لذا سميت "أحسن القصص"، وعرفت بالكتاب المبين. أما أحداث الطبيعة وظواهرها فقد أورد فيها آيات متفرقة لذا سماها "كتاباً مبيناً".

ونشير إلى أن التشابه في القصص منسوب إلى تقدم المعارف الإنسانية حول تطور التاريخ الإنساني، فكلما زادت هذه المعارف تمكنا من تأويل آيات القصص. وإلى أن القصص القرآني المتسم بصفة التشابه يدخل في إطاره كل قصص الأنبياء والرسل بما في ذلك القصص المحمدي، كل حسب تفاعلاته مع محيطه وبيئته ذات الظروف الزمكانية والفكرية المعينة. فقد قدم لنا القرآن قصص الأنبياء قبل البعثة المحمدية كما كانت مؤرشفة لأنها كانت قد وقعت وصارت حتمية تاريخية، وقد ذكر لنا الله عز وجل أن هناك عملية أرشفة تاريخية للفعل الإنساني الواعي تتم بعد وقوعه مباشرة، ثم قدم لنا بيانا عن كيفية سير هذه العملية من خلال القصص المحمدي أثناء سجالات النبي (ص) مع قومه ومع غيرهم من أهل الملل الأخرى، حيث كانت تتم عملية الأرشفة بالتسلسل وفق الأحداث التي كانت تقع في تلك الحقبة التاريخية ووفق تفاعلات النبي (ص) معها في مختلف القضايا، فكان يتم أحيانا تأييد وجهات نظره في بعضها أو يتم تصحيح بعضها الآخر. وهذا بديهي منطقياً إذ لا يمكن أن يتم ذكر قصص الأنبياء والرسل في القرآن دون الإشارة إلى القصص المحمدي الذي يعد خاتمتهم، فلو حدث ذلك لصار العمل مبتوراً ومنقوصاً، وبالتالي فإن القصص في

القرآن يمتاز بصفة التكامل لتغطيته بصورة إجمالية غير تفصيلية لسيرورة التاريخ الإنساني بدءاً بآدم ووصولا إلى محمد (ص)، كدليل على أن القصص هو للعبرة والاعتبار لقوله تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ} (يوسف١١١) ويؤخذ من القرآن الكريم لأنه جاء بصيغة تحمل صفة التشابه وتدور في فلك ثبات النص وحركة المحتوى، فإلهية النص القصصي وثباته دليل على نزاهته من التحريف مما يمنحه الحق لأن يكون شهيداً على التاريخ، أما حركية محتواه فدليل على قدرته على التماشي مع كل المستويات الثقافية لكل العصور التي تلته كل وفق أرضيته المعرفية التي من خلالها يمكن لأهل كل عصر استخلاص العبر التي تناسب ظروفهم الزمانية والمكانية والفكرية. فنحن لا يمكننا اعتبار الثابت من السيرة المحمدية في التنزيل الحكيم إلا قصصاً يحمل صفة التشابه لما جاء فيه من تدخل إلهي كما وقع في معركة بدر، ولا يمكننا اعتباره آيات محكمات قابلة لاستخلاص الأحكام منها لانحصار أحداثه في ظروف معينة زماناً ومكاناً وفكرياً.

من هنا نستنتج أن القرآن العظيم ككتاب متشابه ينشأ من مصدرين رئيسيين:

أ– قانون عام {قُرْآَنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} هو كلمات الله القديمة لا تبديل لها وسمي مجيداً لأن له السيطرة الكاملة ولا يمكن الخروج عنه وهو مطلق.

ب– قانون جزئي خاص بأحداث الطبيعة الجزئية وظواهرها وأفعال الإنسان بعد وقوعها، وسماه إماماً مبيناً، هو مناط التصرف والدعاء والمعرفة، ولكنه لا يلغي القانون العام بل يعمل ضمنه، وهو كلام الله المحدث وينطبق عليه قوله تعالى {.. إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} وفيه إرادة الله الظرفية. وهذان المصدران يحملان طابع الوجود الموضوعي.

وإنما سمي القرآن قرآناً لأنه قرن القانون العام للوجود مع القانون الخاص ومع خط تطور سير التاريخ الإنساني، وقرن بين معلومات من اللوح المحفوظ مع معلومات من الإمام المبين.

من هنا نفهم أن القرآن هو الجانب الموضوعي في الكتاب "الحق" طبقاً لقوله تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} (سبأ ٤٣). ولقوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأحقاف ٧).

ومن هنا نرى أن الإعجاز جاء في القرآن فقط وليس في أم الكتاب إذ أن أم الكتاب ذاتية. ولا يمكن أن نرى في آيات الأحكام مصطلح (قال الله)، هذا مستحيل.. إنما نرى أن آيات الأحكام جاءت ضمن الصيغ التالية:

١– صيغة أمر: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ..} (النحل ٩٠).

٢– صيغة نهي: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} (التحريم ٢).

٣– صيغة فريضة وكتاب:

– {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ..} (التحريم ٢).

– {.. كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ..} (البقرة ١٨٣).

٤– صيغة وصايا: {يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ..} (النساء ١١).

أي أنه لا يمكن أن نرى آية واحدة من آيات الرسالة "الأحكام" فيها عبارة (قال الله)، لأنه لو جاءت بهذه الصيغة (قال الله صلوا) أو (قال الله صوموا)، مع الأخذ بالحسبان أن قول الله هو الحق {قَوْلُهُ الْحَقُّ} (الأنعام ٧٣). فهذا يعني أن الصلاة والصوم حقيقة موضوعية موجودة خارج الوعي. ولأصبحت الصلاة والصوم ناموساً لا يمكن مخالفته. ولرأينا أن الناس جميعاً دون استثناء صاموا وصلوا من دون أن يكون لهم أي خيار في ذلك، ولأصبحت الصلاة والصوم كعملية هضم الطعام ونبض القلب يلتزم بأدائهما الناس آلياً.

من هنا وللدقة وجب علينا ألا نطلق عبارة (قال الله) على الأحكام، ولكن نقول: أمرنا الله بالصلاة ونقول: أمرنا الله بالصوم، ونقول: أمرنا الله تعالى بصلاة الجمعة في الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ..} (الجمعة ٩). ولا نقول: قال الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ..} لأننا إن قلنا: قال الله صلوا، وكان هناك أناس لا يصلون، فهذا يعني أن قوله غير نافذ، ويناقض قانون {قَوْلُهُ الْحَقُّ}. أما عندما نقول عن كل آية وردت في الكتاب: (قال تعالى) فهذا مصطلح مجازي بحت يقصد به الصياغة اللغوية للكتاب كله الذي أنزل من عند الله، وهو من صياغة رب العالمين.

من هنا يجب أن نفهم أن كلمات الله نافذة لا مجال لتبديلها، ولا خيار لنا في تنفيذها أو عدم تنفيذها، لأن كلماته عين الوجود ونواميسه العامة وأحداثه الجزئية حين وقوعها. بدلالة قوله تعالى {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} (الكهف ٢٧) هنا قال عن كلماته إنها غير قابلة للتبديل، وإن الإنسان لا يستطيع أن يحيد عنها {وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}، ولو أن آية النساء ١١ {يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} من كلمات الله، ورأينا أناساً لا يلتزمون بها ويبدلونها، لكان ذلك يعني كذب ما جاء في الآية {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}.

هكذا نفهم قوله تعالى {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} (الكهف ١٠٩). فنحن نعلم أن كلمات الله هي عين الموجودات ونواميسها العامة والخاصة وعين الأحداث الجزئية حين وقوعها، ونعلم الآن مدى كبر هذا الكون حسب معلوماتنا، فلو أراد الله سبحانه وتعالى أن يصف لنا جميع الموجودات بعبارات ومفردات إنسانية مدوَّنة، للزم أن يكون البحر مداداً لهذه الكلمات ولا يكفي.

أما قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} (البقرة ٥٨) {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} (البقرة ٥٩).

فالآية ٥٨ تبدأ بعبارة {وَإِذْ قُلْنَا} والقائل هو الله، وقوله نافذ، لكنه ينطبق فقط على الفقرات {ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا} {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} أي أنهم دخلوا القرية وأكلوا ودخلوا الباب سجداً. ولكن جملة {قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} هي جملة أمر "ضد النهي" وليست قولاً. ولكي يبين أن هذا الأمر قابل للعصيان والطاعة وليس كلمة لا مبدل لها فقد أتبعها بالآية {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}.

ولو كانت جملة {قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} كلمةً من كلمات الله وليست أمراً لتناقضت مع قوله تعالى {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} إذ كيف يقول {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} ويقول أيضاً {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}، لذا فقد أفرد آية خاصة هي الآية ٥٩ من سورة البقرة لكي يؤكد عدم التناقض.

وقد أكد هذه الناحية أيضا في الآيتين ١٦١–١٦٢ من سورة الأعراف {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}.

أما لماذا تكرر الموضوع نفسه مرتين في البقرة والأعراف فهو بحاجة إلى بحث خاص.

وأما قوله تعالى {وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون} (النحل ٥١).

فنقارنه مع قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ..} (الحج ٦٢) أي أن وحدانية الله هي حقيقة موضوعية خارج الوعي الإنساني وأن التعددية غير ممكنة موضوعياً لأن كل تعددية هي باطل ووهم. فالأصنام مجرد حجارة خارج الوعي الإنساني وليست آلهة. لذا بدأت الآية بعبارة "قال الله".

لنناقش الآن الصيغة التالية:

{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} (الإخلاص ١) هذه الصيغة هي صيغة أمر، لو حذفنا منها فعل "قل" لأصبحت العبارة "هو الله أحد" وهي صيغة خبر. وصيغة {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} ليست قرآنية، ولو حذفنا "قل" لأصبحت الصيغة قرآنية خبرية تتحدث عن أكبر حقيقة موضوعية في الوجود هي وحدانية الله. لذا فإن وجود فعل "قل" أو غيابه له أهمية كبيرة في التنزيل الحكيم ويُعد أحد المؤشرات لتحديد نوع الآية.

إن آيات القرآن والسبع المثاني كلها من الآيات المتشابهات وهي تمثل النبوة مع آيات تفصيل الكتاب. فما هي مواضيع القرآن؟

لقد قلنا: إن القرآن جاء من "قرن" أي جمع الجزء الثابت من قوانين الكون الموجود في اللوح المحفوظ مع الجزء المتغير الموجود في (الإمام المبين) لذا فإنه يحتوي على موضوعين هما:

١– الجزء الثابت، وفيه القانون العام للوجود المادي الثنائي، الذي يتمثل في جدل هلاك شكل الشيء باستمرار وجدل تلاؤم الزوجين، ويعتبر التطور وتغير الصيرورة العمود الفقري لهذا الجزء. ويتمثل بالانفجار الكوني الأول وقوانين التطور حتى الساعة ونفخة الصور الأولى والثانية والبعث والحساب والجنة أي خط الوجود المادي كله مع خط تطوره الحتمي. هذا الجزء هو الذي له السيطرة التامة والمجد وهو الذي قال عنه تعالى {بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} (البروج ٢١–٢٢). هذا الجزء ليس مناط الدعاء من قبل الإنسان، ولا يمكن أن يتغير من أجل أحد وهو الذي يطلق عليه "كلام الله القديم" وهو جوهر الوجود المادي وعينه الذي قال عنه {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} وهو مناط الفلسفة أم العلوم.

٢– الجزء المتغير الذي أوحي من إمام مبين {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢). ويشتمل على:

أ– الجزء المتعلق بأحداث الطبيعة وظواهرها ويسمى آيات الله وقال عنه: "كتاب مبين". وهذا الجزء هو مناط المعرفة الإنسانية بالطبيعة، وهو مناط التصريف من الله والإنسان، وهو مناط الدعاء لأنه غير ثابت ولكنه لا يخرج عن القانون العام، وهو الجزء الذي قال عنه تعالى {سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (مريم ٣٥) {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس ٨٢) مثاله هبة الذكور والإناث وتصريف الرياح والمطر والصحة والمرض والرزق، وهو كلام الله المحدث أي إرادته الظرفية.

ب– أحداث التاريخ الإنساني بعد وقوعها، وهو الجزء الذي سمي "أحسن القصص" و"الكتاب المبين"، وفيه تمت أرشفة خط تطور التاريخ الإنساني بالنبوات والرسالات جميعاً بما فيها الرسالة

المحمدية. فالتاريخ الإنساني الواعي هو معرفة وتشريع، وما نتج عن ذلك من نتاج مادي وعلاقات حضارية إنسانية. وبما أن الإنسان يحتاج إلى تراكم معرفي حتى تحصل قفزة تشريعية، فإننا نرى أن عدد الأنبياء يزيد على عدد الرسل، فكل رسول نبي بالضرورة، ولكن ليس كل نبي رسولاً بالضرورة. وأضرب المثال التالي لتوضيح هذه النقطة:

عندما دخلت أول سيارة إلى دمشق لم يواكب دخولها إصدار قانون للسير، أي أن قانون السير في دمشق لم يصدر مع دخول أول سيارة إلى دمشق، لكنه صدر بعد أن تراكم عدد السيارات ومست الحاجة إلى تشريع جديد منظم للسير. فيجب أن نفهم النبوات والرسالات على هذا الوجه. فالنبوات قفزات معرفية، تولد عند تراكمها الحاجة إلى قفزات في التشريع "الرسالات"، ولهذا نرى أن عدد الأنبياء هو بالضرورة أكثر من عدد الرسل. هذه القفزات المعرفية كانت موجهة توجيهاً إلهياً بدليل الاحتياج إلى الرسل كي يتم مع كل تراكم لقفزات معرفية تأتي بها النبوات قفزة تشريعية تأتي بها الرسالات، وكانت آخر قفزة تشريعية هي التي جاء بها الرسول (ص) باعتباره آخر الأنبياء والرسل، فكان لزاماً أن يأتي بتشريع نهائي أبدي شمولي صالح لكل زمان ومكان، تتفاعل الإنسانية معه وفق مستوياتها المعرفية عبر كل الأزمنة والعصور لأنه خاتم النبوات والرسالات، وانتقلت بعده الإنسانية تدريجياً إلى مرحلة العلم والمعارف بدون أنبياء ورسل وتدخل إلهي مباشر حتى عصرنا الحالي عصر ما بعد الرسالات. لكن القفزة التشريعية التي جاء بها الرسول (ص) لم تسبقها قفزة معرفية، فقد نزل الوحي في مجتمع بعيد كل البعد عن السجالات الفكرية والعقائدية والعلمية التي كانت منتشرة عند أهل الكتاب، وانعدام هذه القفزة المعرفية هو الذي ولد اللبس الكبير لديهم خصوصاً في آيات القرآن، ولهذا لم يمارس الرسول تأويل القرآن لأن المستوى المعرفي لقومه آنذاك لم يكن يسمح بذلك، وبالتالي فلا يوجد ما يسمى بالتفسير النبوي للقرآن وكل ما قيل في ذلك فهو من باب المزايدة لا أكثر لأنه كان نبياً وليس مخبراً.

كما أن تطبيقاته لأحكام الرسالة جاءت ظرفية، ونحن نتصور أن فهم هذه القفزة التشريعية لا يمكن إلا بقفزة معرفية التي لا يمكن أن تكون إلا بواسطة أرضية علمية متينة تمكن من فهم التشريع الذي جاء به الرسول على إطلاقه وشموليته وتجريده، والمستوى المعرفي للإنسانية لم يصل إلى هذا المستوى إلا في عصرنا الحالي بفضل التطور العلمي والمعرفي الهائل الذي وصلت إليه الإنسانية والذي أحدث قفزة معرفية هائلة في الرصيد العلمي للإنسانية يتسنى لنا من خلالها فهم أفضل للقرآن، واستيعاب أشمل وأدق للقفزة التشريعية التي جاء بها خاتم الأنبياء والرسل في نظرية

الحدود، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بإعادة قراءة التنزيل الحكيم قراءة معاصرة وفق الأسس العلمية للأرضية المعرفية لعصرنا، وهذا ما نحاول القيام به في هذا الكتاب.

٣ ـ القرآن هو الآيات البينات وهو تصديق الذي بين يديه "تصديق الرسالة"

ـ ما هي البينة؟

البينة هي دليل مادي قابل للإبصار والمشاهدة، فإذا اتهمنا إنساناً بالسرقة فعلينا أن نقيم الحجة عليه بالبينة أي بالدليل المادي. فما هي حجة الله على الناس؟

حجة الله أنه بلغ الناس رسالة "الأحكام" ودعم هذه الرسالة بالبينات التي هي دلائل مادية.

بالنسبة لموسى أعطاه الله التوراة نبوةً له، وأعطى عيسى الإنجيل كذلك. ودعم التوراة ببينات من خارجها، ودعم الإنجيل ببينات من خارجه. أما موسى فأعطاه تسع آيات بينات {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} (الإسراء ١٠١ ـ ١٠٢).

لم يقل الله عن التوراة إنها آيات بينات إلا لأنها جاءت بصياغة تتناسب مع الأرضية المعرفية لذلك الوقت، أي تتناسب مع مراحل الوعي الإنساني منذ ثلاثة آلاف سنة. كما أن الله أعطى موسى بالإضافة إلى التوراة الكتاب والفرقان {وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة ٥٣). فالتوراة والفرقان والكتاب بحاجة إلى بينات مادية، سماها أولاً آيات وثانياً بينات، وعددها تسع، وكانت دليل موسى لتصديقه بأنه مرسل من الله. هذه الآيات هي: العصا واليد البيضاء والجراد والقمل والطوفان والضفادع والدم وشق البحر والرجز. وكلها كانت بينات مادية شوهدت بالعين وبالحواس ولهذا قال عنها بصائر.

وأما عيسى بن مريم فقد أعطاه الله بينات خارج الإنجيل، لذا قال {.. وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ..} (البقرة ٨٧). فبينات عيسى بن مريم كانت مادية أيضاً قابلة للإبصار وهي {.. أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (آل عمران ٤٩).

لقد سمى الله سبحانه آيات القرآن فقط بالآيات البينات صراحة دون أي لبس وذلك بقوله تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآَنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (يونس ١٥).

ونحن نعلم أن مجموعة هذه الآيات البينات هي الحقيقة "الحق" {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأحقاف ٧).

نستنتج أن القرآن هو مجموع الآيات البينات يونس ١٥ وأن الآيات البينات هي الحق الأحقاف ٧ ونلاحظ كيف عطف سبحانه الحق على الكتاب في قوله تعالى {المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ..} (الرعد ١). وكيف أن الحق ليس كل الكتاب في قوله تعالى {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} (فاطر ٣١).

وعندما جاءت الآيات البينات للرسل قبل محمد (ص) قال عنها أعداؤها إنها سحر كما في آية الإسراء ١٠١: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، وعندما جاءت الآيات البينات، التي هي القرآن، للنبي (ص) قال عنها الذين كفروا إنها سحر أيضاً في قوله تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأحقاف ٧).

ونتساءل هنا: لماذا يقولون عن الآيات البينات إنها سحر؟

يجيب بعضهم أنها سحرتهم بجمالها وأنها سحر لأنها جميلة لا تقلد.

لقد فهموا الإعجاز جمالاً، وليس لهذا علاقة بالجمال لا من قريب ولا من بعيد.

لقد قالوا عن آيات موسى إنها سحر لأنهم شاهدوها مشاهدة فؤادية (بالحواس) ولكن لم يفهموا كيف حصلت. فعندما شق موسى البحر بعصاه، شاهد هذه العملية الناس الذين معه دون أن يستوعبوا ما هي القوانين التي تمت حتى انشق البحر. فالسحر هو مشاهدة الظاهرة بالحواس دون فهم القوانين التي تحكم هذه الظاهرة. فإذا أحضرت ماء فيه بعض المواد الكيميائية ووضعت فيه ورقة بيضاء فتلونت وصارت حمراء، فإن الذي يجهل علوم الكيمياء يقول: إن هذا سحر. وهو فعلاً ما قاله العرب عندما سمعوا القرآن. أي أنهم سمعوا كلاماً عربياً دون فهم المحتويات والقوانين المبطنة في هذا الكلام. لذا قال النبي (ص): "أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرفٍ منها ظهر وبطن" (الجامع الصغير ج١ ص١٠٧). أما الأحكام "أم الكتاب" فلها ظاهر وليس لها أي باطن وهي قابلة للفهم، أي أن العرب لم يقولوا أبداً عن آية الإرث وآية الصلاة وآية الوضوء وآية الصوم وآية المحرمات من النساء إنها سحر، علماً بأنها ذات صياغة فنية رائعة. هذه الآيات وكل آيات أم

الكتاب ليس فيها أي سحر ولا يوجد فيها بطن وظهر. ولكن الآيات التي قالوا عنها إنها سحر هي كالآيات {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} (التكوير ١–٢–٣–٤) أو {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} (الرحمن ١٩–٢٠) أي عن آيات القرآن.

لقد علمنا أن موسى أوتي تسع آيات بينات. فما عدد الآيات البينات التي أعطيت لمحمد (ص)؟ لقد أعطي محمد (ص) آيات بيناتٍ كثيرةً، لأن كل آيات القرآن آيات بينات. وهنا تم دمج الآيات البينات مع النبوة، أي أن نبوة محمد (ص) هي القرآن، والآيات البينات هي القرآن أيضاً، في حين أن هذا لم يحصل مع الأنبياء من قبله، فنبوة موسى هي التوراة، والآيات البينات التي جاءته هي تسع آيات خارج التوراة. وكذلك عيسى بن مريم جاءته الآيات البينات مفصولةً عن الإنجيل. وهكذا يتبين لنا الفرق الكبير بين نبوة محمد (ص) وبين نبوة موسى وعيسى، وتظهر معه عظمة النبوة عند محمد (ص). ولعظم هذه النبوة جاء المقام الرفيع للنبي محمد (ص) بقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (الأحزاب ٥٦). ونلاحظ أنه قال ''يصلون على النبي'' ولم يقل ''يصلون على الرسول'' وذلك للعلو العظيم لمقام نبوته. ونحن نرى أن العرب، منذ أن بعث محمد (ص) إلى يومنا هذا، اهتموا برسالته وهجروا نبوته. في الوقت الذي اهتمت بنبوته كل معاهد الأبحاث العلمية والجامعات في العالم، لأن نبوته هي قوانين الحقيقة الموضوعية المادية والتاريخية، بالإضافة إلى وحدانية الله وهذا ما تهتم به المعاهد والجامعات، وبحث فيه كل فلاسفة العالم قاطبة ابتداء من أرسطو وأفلاطون، مروراً بكانت وانجلز وهيجيل وديكارت.

لقد سميت (الآيات البينات) بيناتٍ لأنها موجودة خارج الوعي الإنساني وقابلة لأن تبصر وتعقل. وعندما عرض موسى آياته البينات التسع على فرعون وصفها بأنها بصائر. فهل الآيات القرآنية بصائر كآيات موسى التسع قابلة للإبصار؟ أي أن تأويل الآية النهائي هو إبصارها. والإبصار هو التأويل الحقيقي النهائي بعينه، أي تحويل الآية من علم إخباري إلى علم نظري يدعمه العلم الحسي فيما بعد أو تحويل الآية مباشرة إلى علم حسي. هذه هي الناحية التي أغفلها المسلمون عند وضعهم لقواعد التأويل. فتأويل الآية هو مطابقتها مع الحقيقة الموضوعية وإبصارها، أي مطابقتها مع العقل واستنتاج قانون مجرد قابل للإبصار. لقد أدى إغفال هذه الناحية إلى دخول الفلسفة الصوفية في تأويل القرآن، فحولت العقيدة الإسلامية إلى التفكير الخرافي الوهمي. وما زلنا نعيش هذه المأساة إلى يومنا هذا، حيث ورثنا مسلمات عقائدية نظن أنها قرآنية وهي لا تمت إلى القرآن بصلة وليست أكثر من مجرد أوهام. لذا علينا إعادة النظر بالمسلمات التي نظن أنها إسلامية وهي ليست كذلك، مسلمات

توجه عقلنا الباطن وتصاغ عليها عقلياتنا الظاهرة. ولا يمكن أن تحل هذه المشكلة إلا إذا أعدنا النظر في الأطر العقائدية التي ورثناها قبل إعادة النظر في الأطر الفقهية التشريعية، لأن حل المشكلة العقائدية يؤدي بشكل آلي إلى حل الأزمة الفقهية. أي علينا إعادة النظر في أمور مهمة مثل مقولات ثبات الأعمار، ثبات الأرزاق، هل الأعمال مكتوبة أو غير مكتوبة؟ الحرية الإنسانية (القضاء والقدر)، نظرية المعرفة الإنسانية، والمعرفة الإلهية. إذ لا أمل لنا في الخروج من أزمة تخلفنا دون حل هذه الإشكاليات.

قلنا: إن الآيات البينات التي جاءت لموسى هي بصائر. فهل آيات القرآن، التي هي آيات بينات بصائر أيضاً؟

نعم هذا ما قاله تعالى بالضبط {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} (الأنعام ١٠٤) {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف ٢٠٣) ثم أتبعها بقوله {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الأعراف ٢٠٤)، لاحظ هنا قوله "إذا قرئ" ولم يقل "إذا تلي" أي ذكر القراءة ولم يذكر التلاوة وشتان في المعنى بين القراءة والتلاوة.

وكلك ورد هذا البرهان في قوله تعالى {سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النور ١) فقوله "وأنزلنا فيها آيات بيناتٍ" يعني أن سورة النور ليست كلها آياتٍ بيناتٍ وإنما جزء منها آيات بينات، أما باقي الآيات فهي آيات من نوع آخر من الآيات المحكمات أو تفصيل الكتاب.

فإذا تصفحنا سورة النور، نرى فيها أحكاماً وبياناً لأحكام حتى نصل إلى قوله تعالى {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..} (النور ٣٥) فنرى أن هذا الآية يختلف موضوعها عن الآيات السابقة التي تستمر حتى الآية رقم ٤٥ التي تقول {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. ثم نرى أن الآيات التي تلي هذه الآية إلى آخر السورة هي مواعظ وأحكام ما عدا الآية الأخيرة. لذا يجب علينا أن ننتبه دائماً إلى الآيات في بدايات السور، فقد يكمن فيها إشارة إلى محتويات السور ومواضيعها كقوله تعالى {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (الشعراء ٢) فإذا سألت علماءنا: ما هو الكتاب المبين؟ يقولون لك مباشرة هو القرآن، إذاً فلماذا عطف (كتاب مبين) على القرآن في أول سورة النمل {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ} (النمل ١)؟ إن الانتباه إلى هذه الآيات يعتبر من المفاتيح الأساسية في فهم محتويات سور الكتاب.

إلى هنا نكون قد توصلنا إلى أن القرآن هو الآيات البينات، وهو في الوقت نفسه نبوة محمد (ص) لأنه كله (أنباء عن حقائق)، وهو بصائر، وهو الحق، وهو الذي زعموا إنه سحر مبين، وهو الذي يشكل جزءاً كبيراً من آيات الكتاب، وكل آياته من المتشابهات، مضافاً إليه السبع المثاني التي تحمل مطلق الحقيقة في صياغتها ونسبية الفهم من الناس، أي المطلق في المحتوى والنسبية في الفهم. وهذه النسبية إما فلسفية أو علمية أو تاريخية أو مجردة.

بقي أن نقف عند قوله تعالى عن القرآن أنه تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب، فما هو الذي بين يديه وما هو التفصيل؟

لنرجع الآن إلى الآيات التي ورد فيها تصديق الذي بين يديه:

١- {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧).

٢- {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف ١١١).

ففي الآية ٣٧ من سورة يونس يقول عن القرآن {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى} ثم يقول عنه في يوسف ١١١ {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى}، وفي كلا الحالين قرآناً كان أم حديثاً فهو تصديق الذي بين يديه.

وفي الآية ٣٧ من سورة يونس يقول عن القرآن إنه تصديق الذي بين يديه ثم يتابع في الآية رقم ٣٩ قائلاً {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} لاحظ قوله: "ولما يأتهم تأويله" مشيراً في الآيتين السابقتين إلى القرآن المتشابه القابل للتأويل لا للتفسير.

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف ١١١)، لاحظ قوله: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ} (يونس ٣٧) {ومَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} (يوسف ١١١) وقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآَنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} (سبأ ٣١) ولاحظ قوله: {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} (يونس ٣٧) {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} (يوسف ١١١) ولاحظ قوله: {وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧).

لقد قلنا: إن نبوة موسى هي التوراة، ورسالته الكتاب والفرقان {وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة ٥٣). وإن نبوة عيسى الإنجيل، ورسالته الكتاب والحكمة، وهي تعديل لكتاب موسى.

وكانت نبوة موسى ورسالته ونبوة عيسى ورسالته بحاجة إلى تصديق، فجاء التصديق خارجاً عن النبوة وعن الرسالة تحت اسم الآيات البينات. وبالنسبة لمحمد (ص) كانت نبوته القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، ورسالته أم الكتاب "الأحكام". فلو كان الأمر على غرار موسى وعيسى لآتته الآيات البينات من خارج النبوة والرسالة، وهذا ما طلبه العرب من محمد (ص) تماماً في قوله تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} (الإسراء ٨٩). {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} (الإسراء ٩٠) {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا} (٩١) {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا} (٩٢) {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} (٩٣).

لاحظ في هذه الآيات أن الحديث عن القرآن، وأن القرآن لم يفهمه العرب على أنه آيات بينات بل طلبوا الآيات البينات المادية المباشرة من خارج القرآن، أو عوضاً عن القرآن.

فالقرآن هو الآيات البينات، وهو تصديق الذي بين يديه. والهاء في "بين يديه" إما أن تعود على القرآن أو تعود على الله سبحانه وتعالى. فما الذي كان بين يدي الله أو بين يدي القرآن حين نزوله وبحاجة إلى بينة؟ الشيء الوحيد الذي كان موجوداً حين نزول القرآن هو الأحكام "الرسالة". فالقرآن جاء مصدقاً لأم الكتاب التي سماها الله "كتاب الله". حتى أنه سبقها بفترة وجيزة، وجاء معظمه في مكة، والآن هما مع بعض في مجمل التنزيل. ولأن الأحكام ليست بينات في ذاتها وهي قابلة للتقليد، وإنما بحاجة إلى بينات موضوعية مبصرة من خارجها.

إني لأعجب تمام العجب كيف ظن الفقهاء والمفسرون أن الذي بين يديه هما التوراة والإنجيل فقصموا ظهر نبوة محمد (ص) حين أكدوا أنها ما جاءت إلا لتخبر الناس أن التوراة والإنجيل الموجودين في بداية القرن السابع الميلادي حين نزول القرآن هما صحيحان لا أكثر من ذلك ولا أقل. وإذا كان هذا هو الهدف من نبوة محمد (ص) فقط، فأعتقد أن أشد اليهود والنصارى تزمتاً وتعصباً سيؤيدون ذلك لأن كلاً من التوراة والإنجيل الحاليين هما نفس التوراة والإنجيل في القرن السابع، والأجدر بنا نحن المسلمين في هذه الحالة أن نعتنق اليهودية أو النصرانية، لأن الهدف من نبوة محمد (ص) هو تصديق العهد القديم والعهد الجديد المعروفين في القرن السابع.

إنّ مصطلح "الذي بين يديه" في اللسان العربي تعني دائماً الحاضر ولا تعني الماضي، وقد قالها سبحانه صراحة في قوله تعالى {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ..} (آل عمران ٣–٤). فكيف يمكن أن يكون التوراة والإنجيل هما اللذان بين يديه، مع أنه قال عنهما: "من قبل"؟ وكيف يكون "من قبل" و"بين يديه" دالين لمدلولٍ واحد؟ إذا كان الأمر كذلك، وحاشى لله، فليس لهاتين الآيتين معنى.

إن حجة المفسرين على أن "بين يديه" تعني التوراة والإنجيل هي الفهم الخاطئ لقوله تعالى على لسان عيسى بن مريم {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} (آل عمران ٥٠).

ويتضح الخطأ في الفهم بما يلي: إن نبوة عيسى عليه السلام في الإنجيل هي استمرارية لنبوة موسى في التوراة وليست ناسخةً لها، كما أن شريعة عيسى هي نفس شريعة موسى مع بعض التعديلات (ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم) وقد فهمهما أهل الكتاب هكذا. ولهذا فإننا نرى اليوم أن الكتاب المقدس عند النصارى يحتوي على أربعة مواضيع هي "الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل" التي وردت حرفياً في آية آل عمران ٤٨، أي: شريعة موسى معدلة + الوصايا + التوراة + الإنجيل، لذا فإن هذه المواضيع الأربعة مجتمعة تسمى (الكتاب المقدس).

ولو كان القرآن مصدقاً لما قبله بهذا المفهوم للزم بالضرورة أن يحتوي الكتاب عند المسلمين ما يلي:

كتاب موسى "الشريعة"+ التوراة + الإنجيل + القرآن + شريعة محمد "أم الكتاب" + الوصايا "الفرقان"، وليس الأمر كذلك، بل جاء الكتاب إلى محمد (ص) ناسخاً لما قبله لا مصدقاً بالمفهوم السابق، أي أن كل ما جاء قبل محمد (ص) من نبوات داخلٌ في قوله تعالى: {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ} لا الآن، وكل ما جاء في الرسالات هو حالات خاصة من أم الكتاب.

ولتوضيح الصورة بشكلها النهائي نقول: لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبلغ رسالته للناس ليبين لهم فيها الفرق بين الحرام والحلال، ويبين لهم فيها العبادات والأخلاق وقواعد السلوك الإنساني. هذه الأحكام بمجموعها تسمى "كتاب الله"، وهي بحاجة إلى توقيع وختم ممن أرسلها أي أن تكون مصدقة منه ليعلم الناس أنها من عنده. فوقع سبحانه وتعالى على هذه الرسالة بتوقيعه وكان توقيعه "القرآن والسبع المثاني" حيث جعل حقيقة الوجود تصديقاً لقواعد السلوك. فالرسالة هي كتاب الله "الأحكام"، والنبوة هي "القرآن" وفيه كلام الله الحق الذي هو القوانين المطلقة للوجود. فصدق القرآن كتاب قواعد السلوك الإنساني. ولله المثل الأعلى.

يشتمل كتاب الأحكام "الرسالة" على:

١– حدود الله "نظرية الحدود".

٢– الشعائر.

٣– القيم الإنسانية "الفرقان".

٤– مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وجاءت المصادقة على صحة الرسالة بواسطة "النبوة" التي تتألف من:

١– القرآن العظيم.

٢– وسبع من المثاني.

فرسالة محمد (ص) فرقت بين الحلال والحرام في السلوك الإنساني. ونبوته فرقت بين الحق والباطل "الحقيقة والوهم" في الوجود الموضوعي. وشتان بين الاثنين! إن الخطيئة القاتلة التي يرتكبها المسلمون اليوم هي أنهم لا يفرقون بين قواعد السلوك وحقيقة الوجود، أي ما بين الذاتي والموضوعي. فالرسالة فيها الذاتي، والقرآن فيه الموضوعي. ويجب أن نفرق بشكل واضح لا لبس فيه بين القانون الموضوعي والقيمة الأخلاقية، فلا نجعل القيمة الأخلاقية بديلاً للقانون الموضوعي. فكل الأخلاق الفاضلة في الدنيا لا تستطيع أن تصمد أمام حقيقة موضوعية واحدة، والحقيقة المادية لا تواجه بالتقوى والأخلاق. وما خيبات الأمل المتتالية التي نصاب بها، وما التشويش الفكري وضيق الأفق إلا نتيجة مباشرة لآفة عدم التفريق بين القانون الموضوعي والقيمة الأخلاقية.

٤ – القرآن هو الكتاب المبارك

البركة في اللسان العربي تعني التكاثر والتوالد، وتعني الثبات كأن نقول مبرك الناقة وبركة الماء "الماء الراكد". ووصف الكتاب بأنه "مبارك" يعني "ثابت النص". وبهذا المعنى جاءت عبارته سبحانه "تبارك الله" أي ثبت ولم يتغير. وبما أن القرآن حقيقة مطلقة تفهم فهماً نسبياً، فإن حركة المحتوى فيه دائمة التبديل والتغيير، فالعلماء يستنبطون من القرآن نظريات علمية على مر الزمن، والصحابة فهموه حسب أرضيتهم العلمية. وبما أن معلومات الإنسان صاعدة إلى الأعلى بشكل دائم فسترى الأجيال على مر السنين معلوماتٍ جديدةً في القرآن لم تكن الأجيال السابقة تعرفها. وهكذا فحسب نمو المعرفة الإنسانية تتولد المعلومات الجديدة والنظريات الجديدة، والنص القرآني يستوعبها كلها، ولهذا سمى القرآن كتاباً مباركاً. أما الأحكام فتحمل صفة الثبات في النص والمحتوى

والحركة ضمن حدودها. فآية الوضوء مثلاً فهمها الصحابة كما نفهمها نحن على حد سواء. ومنذ أن نزلت آية الوضوء إلى أن تقوم الساعة فإن الوضوء هو الوضوء ولا يمكن أن يتغير فهم هذه الآية، وكذلك آيات الإرث فقد فهمها الصحابة وطبقوها وقوفاً عليها كما نطبقها نحن الآن علماً بأنها آيات حدودية ويمكن التحرك ضمنها دون تجاوزها. وهكذا الحال بالنسبة للأجيال التي بعدنا. لذا قال عن القرآن {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الأنعام ١٥٥).

التقوى اتباع الحلال وترك الحرام، فهي في أم الكتاب لأنها سلوك إنساني وليست معرفة الوجود، وبما أن القرآن فرّق بين الحق والباطل والرسالة فرّقت بين الحلال والحرام، فإن القرآن ليس له علاقة بالتقوى. لذا قال كلمة "واتقوا" بعد كلمة "فاتبعوه".

هنا أريد أن أؤكد على نقطة في غاية الأهمية هي أن القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي، لذا فإنه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى ولا اللياقة ولا اللباقة، ولا تنطبق عليه عبارة "هكذا أجمع الفقهاء" و"هكذا قال الجمهور". إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيدين بأي شيء قاله السلف، بل مقيدون فقط بقواعد البحث العلمي والتفكير الموضوعي وبالأرضية العلمية في عصرنا، لأن القرآن حقيقة موضوعية خارج الوعي فهمناها أو لم نفهمها، قبلنا بها أو لم نقبل. والشيطان عند محاولتنا فهم القرآن يدخل فينا من خلال الأخلاق واللياقة واللباقة. فالقرآن حقيقة موضوعية مادية وتاريخية لا تخضع لإجماع الأكثرية حتى ولو كانوا كلهم تقاةً، بل يخضع لقواعد البحث العلمي حتى ولو كان الناس كلهم غير تقاة. وعلينا أن نكسر هذا الحاجز الوهمي المبني على عبارة "هذا ما قاله الجمهور" أو "هذا ما أجمع عليه الجمهور–جمهور الفقهاء". لذا قال عن الكتاب {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} (البقرة ٢) وعن القرآن {هُدًى لِلنَّاسِ} (البقرة ١٨٥).

٥ – مناسبات نزول وليس أسباب نزول

بما أن القرآن بجزأيه الثابت والمتغير، هو علم بالحقيقة الموضوعية الموجودة خارج الوعي الإنساني، وفيه قوانين الوجود وقوانين التاريخ، نستنتج بالضرورة أن له وجوداً مسبقاً عن الإنزال الذي حصل في ليلة القدر ما عدا القصص المحمدي الذي تلازم فيه الإنزال والتنزيل ولم يكن له وجود مسبق، ويعتبر هذا الجزء من القرآن استثنائياً عومل معاملة تختلف عن باقي القصص لخصوصيته.

لقد قال الله تعالى عن القرآن: {قُرْآَنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} (البروج ٢١–٢٢). فهو القوانين العامة الناظمة للوجود منذ الانفجار الكوني الأول وحتى البعث والجنة والنار والحساب، وهو بجزئه الثابت في اللوح المحفوظ، أما بالنسبة لأحداث الطبيعة الجزئية "ظواهر الطبيعة" المتغيرة وأحداث التاريخ بعد وقوعها فهي في الإمام المبين بقسميه كتاب مبين والكتاب المبين. لكنه لم يقل مثل ذلك أبداً عن أم الكتاب ولا عن الذكر ولا عن الفرقان. وهذا يقودنا إلى السؤال التالي: ما هو "اللوح المحفوظ" و"الكتاب المكنون" و"الإمام المبين"؟.

١– اللوح المحفوظ: هو لوحة التحكم في الكون الذي نشأ فعلاً، التي برمج القرآن المجيد في داخلها. ويمثل اللوح المحفوظ: (ACTION IN INFORMATION)، ومحتوياته ثابتة غير قابلة للتغيير.

٢– الكتاب المكنون: هو البرنامج الذي بموجبه تعمل قوانين الكون العامة كمعلومات (INFORMATION)، ومحتوياته أيضاً ثابتة غير قابلة للتغيير.

٣– الإمام المبين: فيه قوانين الطبيعة الجزئية (ظواهر الطبيعة المتغيرة) آيات الله. وفيه أرشفة الأحداث التاريخية بعد وقوعها: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢). من هذا الإمام المبين جاء القصص القرآني بما فيه القصص المحمدي بعد وقوعه، لذا سماه "الكتاب المبين". ففي سورة يوسف، الآية (١) جاء قوله تعالى {الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} وفي سورة القصص، الآية (١–٢) جاء قوله تعالى {طسم * تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} وفي سورة الشعراء، الآية (١–٢) جاء قوله تعالى {طسم * تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } فإذا تأملنا في محتويات هذه السور الثلاث نراها كلها قصص وأحداث تاريخية.

أما إذا نظرنا في سورة النمل فنراها تبدأ بقوله تعالى {طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ} ونرى أن فيها آيات كونية وقصصاً معاً وجاء فيها ذكر "كتاب مبين" بالآية رقم ٧٥ {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

فالقرآن عامة لا يمكن أن تكون له أسباب نزول (كما يسميها الفقهاء) لأن له وجوداً مسبقاً عن تلك التي سموها أسباباً، وقال عنه سبحانه بأنه قد جُعل عربياً وأنزل دفعة واحدة في رمضان {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ..} (البقرة ١٨٥)، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} (القدر ١)، فهو ليس بحاجة إلى أسباب لإنزاله بجل أقسامه بما فيها القرآن المجيد الذي في اللوح المحفوظ لأنه حقيقة موضوعية خارجة عن الوعي الإنساني ولأنه الجزء الثابت من القرآن غير القابل للتغيير، الذي يشمل القوانين العامة الناظمة للوجود كلية من بدايته وحتى نهايته. وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب

مبين، الجزء المتغير من القرآن المتعلق بالقوانين الجزئية للطبيعة، أحد أقسام الإمام المبين، فإن هذا القسم أيضاً ليس بحاجة لأسباب نزول لأنه قوانين جزئية ناظمة لظواهر الطبيعة هي مناط التصرف الإلهي، وكلا القسمين حتمي.أما بالنسبة للكتاب المبين الذي يشمل قوانين التاريخ، وتتم فيه أرشفة المسيرة التاريخية للإنسانية بعد وقوع أحداثها، ويتضمن القصص القرآني، فنحن نرى فيه ما نفضل تسميته بمناسبات نزول وليس أسباب نزول، لكن كل القصص القرآني، ماعدا القصص المحمدي، لم يكن بحاجة لمناسبات نزول لأنه كان موجوداً أصلاً قبلها، وتم إنزاله دفعة واحدة في ليلة القدر وقد جاءت هذه المناسبات من باب التوافق معه في التنزيل فقط بتوجيه إلهي لأن إنزاله كان قبل حدوث هذه المناسبات كقصة أهل الكهف.

أما القصص المحمدي الذي وردت فيه أيضاً مناسبات نزول فهو يختلف عن باقي القصص القرآني بكونه لم يكن له وجود مسبق عن مناسبات النزول، فهو لم يتم إنزاله في ليلة القدر، بل تلازم فيه الإنزال والتنزيل معا وتوافقا مع مناسبات نزوله، لأنه عبارة عن تفاعل الرسول (ص) مع الأحداث التي كانت سائدة في عصره دون الخروج عن القوانين العامة الناظمة للكون الموجودة في اللوح المحفوظ والقوانين الجزئية الناظمة للطبيعة الموجودة بكتاب مبين وقوانين التاريخ الإنساني الموجودة بالكتاب المبين. وهذا ينفي عنه ما لفق له من معجزات مادية خارجة عن المألوف ومناقضة لقوانين الطبيعة على يد من أرادوا إعلاء مقامه في زعمهم بأن ينسبوا له معجزات مادية مثل التي جاء بها كل من موسى وعيسى، ونجد ذلك بكثرة في كتب التفاسير والسيرة، مع أنه لم يأت بمعجزات مادية عينية على غرار غيره من الرسل.

إنّ كون القصص المحمدي له مناسبات نزول دليل على أن الإمام المبين جزء متغير من القرآن وأنه محل التصرف الإلهي والدعاء الإنساني قبل وقوعه، أما بعد وقوعه فينتقل من حالته الاحتمالية إلى حالته الحتمية. ونحن نسميها مناسبات على خلاف ما يذهب إليه الفكر السلفي من تسميتها أسباب، لأن تسميتها أسباب نزول توحي بأن الأحداث الواردة مخطط لها مسبقاً، وهذا سيؤدي بنا إلى القول بالجبرية وإلغاء الإرادة الإنسانية في أفعالها الواعية، وهذا خطأ لأن الأفعال الإنسانية الواعية مؤسسة على الحرية الإنسانية المطلقة، لذا فإن الأحداث التي استدعت نزول آيات القصص وبخاصة القصص المحمدي هي أحداث لا وجود لها في الإمام المبين ولا في اللوح المحفوظ قبل وقوعها، وإنما هي موجودة في علم الله الكلي المحيط بكل شيء، الذي دارت الأفعال الإنسانية في فلكه دون جبرية، وانتقلت بعد حدوثها إلى الإمام المبين فصارت قرآناً، ولم يتم إنزالها في ليلة القدر على خلاف باقي القصص القرآني، وسيأتي الحديث عن ذلك في مسألة الإنزال والتنزيل بمزيد

توضيح وشرح. وقد جاءت مناسبات النزول في شأنه بتدخل إلهي حتى يبين لنا عملياً على أرض الواقع أنه ليس هناك جبرية في الفعل الإنساني، وأن حياة الإنسان وأفعاله على المستوى الفردي والجماعاتي ليست مسرحية معدة مسبقاً بل هي نتيجة لقرارات إنسانية جاءت عن وعي بالظروف المحيطة ولا تتم أرشفتها إلا بعد وقوعها. مثال ذلك قوله تعالى {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} (عبس ١–٢–٣–٤)، فهل لنا أن نقول أن هذه الآيات كانت موجودة قبل وقوع الحدث؟ طبعا لا، وإنما تمت أرشفتها بعد حدوثها مباشرة ونزول الوحي بشأنها وإن كنا لا ننفي علم الله المطلق الكلي بها كاحتمالات لإحاطته بكل الاحتمالات، لكننا نرفض القول بأرشفتها المسبقة قبل حدوثها، وفي ذلك مصداقية للحرية الإنسانية التي وهبها الله للإنسان في أفعاله مع نفخة الروح فيه، وجعله بذلك مسؤولا عن أفعاله مسؤولية تامة.

كذلك بالنسبة لآيات أم الكتاب وتفصيل الكتاب، فقد وردت فيها هي الأخرى مناسبات نزول وليس أسباب نزول كما فهمها أصحاب القراءة التراثية ومن تبعهم، مناسبات جاءت بتوجيه إلهي، كان الهدف منها خصوصاً بالنسبة لآيات أم الكتاب، أن يبين لنا علاقة التشريع المباشرة واستجابته لما يحتاجه الإنسان في واقعه وتعاملاته في معاشه من جل النواحي. فقد جاءت الأحكام في أم الكتاب في صيغتها الإلهية الموحاة بصفة التجريد والشمول وفق نظرية الحدود، أما تطبيقها فيكون بالنظر للواقع الذي يحتاج إليها، بحيث هي التي تستجيب للواقع الإنساني وليس العكس كما يرى الفقهاء، وهذا ما جعلهم يحاولون فرض قراءة إنسانية تاريخية الظروف للأحكام التشريعية على المجتمعات المعاصرة، وهذا خطأ منهجي فادح، لأن المفروض ألا تطبق أحكام عصر على عصر لاختلاف الظروف الموضوعية لكل عصر، بل نرى بأن التشريع الإسلامي المتمثل بحدود الله والموجود بين دفتي المصحف فقط هو الذي يتماشى مع الواقع الإنساني ويستجيب لحاجات المجتمعات وإشكالاتها على مر العصور. لذا يتوجب على كل عصر أن يقرأه قراءة مناسبة لواقعه الموضوعي، ويستلهم ما يناسبه من أحكام على ضوء حدوده وفق نظرية الحدود التي جاءت بها الرسالة المحمدية في صيغتها النظرية المجردة والمحصورة بين الحدين الأدنى والأعلى.

٦ – مصطلح (الحديث) للقرآن فقط

عرفنا أن القرآن هو النبوة وهو الحقيقة، ولكن لماذا قال تعالى عنه: إنه "الحديث"؟:

– {.. مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ..} (يوسف ١١١).

- {فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ..} (القلم ٤٤)
- {أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ} (الواقعة ٨١)
- {.. فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} (النساء ٧٨)
- {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (المرسلات ٥٠)
- {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} (النازعات ١٥)
- {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} (البروج ١٧).

الحديث مشتق من ح د ث. والحدث واقعة ذات شقين: إما واقعة إنسانية {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} أو واقعة كونية {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف ١٨٥)، أي حدث إنساني أو حدث كوني. والقرآن قرن الأحداث الكونية الكلية والجزئية مع الأحداث الإنسانية ''القصص القرآني، أحسن القصص'' لذا سمي حديثاً وسمي قرآناً.

سمي حديثاً لأن فيه أحداث الكون والإنسان ''التاريخ'' والقوانين الناظمة للمادة والقوانين الناظمة للتاريخ الإنساني وربط بعضهما ببعض في قوله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ..} (يوسف ٣).

وسمي قرآناً لأن القرآن جاء من ''قرأ'' وعلى قول بعضهم من ''قرن'' وكلاهما يعني الجمع والمقارنة، كأن تقول قرأت الماء في البئر أي جمعته، وكقوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ..} (البقرة ٢٢٨) فالقرء هو جمع فترة الطهر مع فترة الحيض. والأساس في اللسان العربي هو فعل ''قرن''، فعند ابن فارس نرى أن فعل ''قرأ'' اشتق من فعل ''قرن''، ومن هنا جاء معنى القراءة عند العرب وهو العملية التعليمية، لأنها لا تكون إلا بالمقارنة والجمع أي مقارنة الأشياء وجمع بعضها ببعض،، لذلك لا تقول العرب قراءة إلا على العلم كقولهم ''قرأت العلم على فلان''. هنا يجب أن نميز بين القراءة والتلاوة، فالمذيع في التلفاز يتلو الأخبار ولا يقرؤها، والأستاذ في الجامعة يقرأ المحاضرة ولا يتلوها. فالتلاوة هي لفظ نص بحرفيته، دون شرح ولا تعليق وبشكل متتال ومنه جاءت التلاوة، فإذا أراد المذيع في الإذاعة أن يقرأ الأخبار عوضاً عن تلاوتها فهذا يعني أن يشرح الخبر ويعلق عليه ويقارنه بأخبار وأحداث أخرى وذلك بهدف تفهيم السامع. وإذا أراد الأستاذ في الجامعة أن يتلو المحاضرة عوضاً عن قراءتها فهذا يعني أن يفتح الكتاب ويتلو النص بالتتالي كما جاء في الكتاب دون أي تعليق وأي شرح وأي مقارنة. فالتلاوة يقابلها باللغة الإنكليزية (Citation) والقراءة يقابلها (Reading).

هنا يجب أن نفهم قوله تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الأعراف ٢٠٤) أي عندما يأتي شخص ويشرح القرآن فأنصتوا له، هذه الآية من القراءة وليست من التلاوة. وكذلك نفهم قوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل ٩٨) أي إذا أراد الإنسان أن يفهم القرآن فعليه الاستعاذة بالله من الشيطان، لأن الشيطان يدخل في الإنسان حين يريد فهم آيات القرآن "تأويلها".

أما التلاوة فهي لفظ الآيات بالتتالي وتختلف عن القراءة، لذا نقول عن القرآن إنه المتعبد بتلاوته. فالكتاب كله يتلى {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ..} (فاطر ٢٩) {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ..} (النمل ٩١–٩٢). {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ..} (البقرة ١٢١). هنا نلاحظ كيف ذكر التلاوة لكتاب الله وللقرآن وللكتاب كله.

٧ – القصص من القرآن وهي الكتاب المبين

قلنا إن القرآن هو الحديث، وإنه جاء من قرن قوانين أحداث الطبيعة مع أحداث التاريخ بعد وقوعها وبعد أن أخذت صفة الحتمية، أي قرن بين القوانين الناظمة لأحداث الطبيعة والقوانين الناظمة لأحداث التاريخ.

لنرجع الآن لأول قصة يوسف:

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف ١–٣). تبدأ الآية الأولى باسم إشارةٍ لآيات الكتاب المبين {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} ثم تأتي الآية الثانية لتذكر القرآن بعد الكتاب المبين. ثم تأتي الثالثة لتربط القصص بوحي القرآن {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ}، "بما" هنا جاءت بمعنى "بالذي". وليؤكد أن القصص من القرآن قال: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} فالهاء هنا تعود على القرآن. فالنبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي كان غافلاً عن قوانين الوجود وعن قوانين التاريخ وأحداثه معاً.

فإذا انتقلنا إلى آخر قصة يوسف نجد قوله تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ..} (يوسف ١١١). فالحديث هو القرآن لأنه قرن أحداث الكون مع أحداث التاريخ. وسورة يوسف كلها قصص، والقرآن هو التصديق.

لننظر الآن في الآيات التالية:

– أول سورة يوسف {الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

– أول سورة الشعراء {طسم * تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

– أول سورة القصص {طسم * تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}.

– أول سورة النمل {طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ}.

نرى أن محتويات السور الثلاث الأولى كلها قصص لذا قال {تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}. أما في سورة النمل ففيها قصص وكونيات معاً، أي فيها من القرآن مواضيع كاملة وفيها قصص، لذا عطف كتاباً مبيناً على القرآن، أي عطف خاص على عام.

أما القصص المحمدي فهو وإن كان من القصص القرآني وفق منهجنا القراءاتي، إلا أنه لم يكن موجوداً من قبل في الإمام المبين لأن أحداثه لم تكن قد وقعت من قبل، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الدقة الإلهية في ضبط مصطلحات التنزيل الحكيم عموماً، الذي كان يتتبع الأحداث المؤرشفة لاستخلاص العبرة منها، فلو كان القصص المحمدي بأحداثه موجوداً في الإمام المبين لأدى ذلك إلى القول بالجبرية، وبأن الفترة المحمدية كانت مسرحية معدة السيناريو قبلا ودخلت الأحداث التي تم ضبطها نصاً في مجال الجبرية ففقد بذلك الفعل الإنساني الواعي حريته. وقد انتبه المعتزلة إلى هذه المسألة الشائكة والحساسة وحاولوا حلها بالقول بخلق القرآن. وقد أوضح لنا سبحانه من خلال القصص المحمدي كيفية أرشفة الأحداث الإنسانية بعد وقوعها، إذ كانت عملية أرشفة الأحداث التي تقع في عصر الرسول تتم في الإمام المبين تباعاً بعد وقوعها ومن ثم تصبح قرآناً لأنها دخلت في حال الحتمية، ليصبح القصص المحمدي دليلاً لا يقبل الشك في الحرية الإنسانية في الأفعال الواعية، لذا لم يتم الإشارة إلى وجوده في الإمام المبين قبل حدوثه لأنه لم يكن موجودا أصلاً، وكانت عملية أرشفته تتم بشكل مستمر حتى انقطاع الوحي، لذا لم تكن أخبار الحقبة الزمنية المحمدية قصصاً عند أهل ذلك الزمان، بل كانت واقعاً معاشاً لا يمكن لأحد أن يسميه في ذلك الوقت تحديداً بالقصص، لأن القصص لغة هو تتبع أثر ما كان يجري من أحداث سابقة كي يعيشها أهل العصر ويتفاعلون معها. من هنا لم يكن القصص المحمدي أثراً بالنسبة لمعاصري أحداث تلك الحقبة الزمنية بل كانت واقع حال بالنسبة لهم، لكن بعد انقطاع الوحي وإتمام أرشفة الأحداث في الإمام المبين في جزئه الخاص بالقصص أي الكتاب المبين أصبحت الأحداث الواردة في الفترة المحمدية قصصاً بالنسبة لنا، وأصبح تتبع الأثر منها وارداً بل ومطلوباً لأنها أصبحت قرآناً لمن بعد ذلك العصر من العصور التي جاءت بعده، وصار بذلك القصص المحمدي محلاً

للعبرة، لا يمكن تأسيس تشريع بناء عليه لمحدودية زمكانيته وظرفيته الإنسانية تاريخياً، ولأن ذلك يتناقض مع صفة الإطلاق والشمولية والأبدية التي يتصف بها التنزيل الحكيم، ولأنه كان المثال الذي قدمه لنا الله عز وجل في كيفية أرشفة الأحداث الإنسانية بعد وقوعها كي تصبح قرآناً بعد أرشفتها، لذا تلازم فيه الإنزال والتنزيل على خلاف باقي أقسام القرآن التي سبق فيها الإنزال التنزيل، حيث جاء فيها الإنزال في ليلة القدر ثم تبعه التنزيل منجماً على مدار ثلاثة وعشرين عاماً. وسيأتي الحديث عنه مفصلاً في مسألة الإنزال والتنزيل.

ولبيان الفرق بين النبأ والخبر بشكل أكثر توضيحاً، سننقل هنا ما طرحناه بالتفصيل في كتابنا الأخير "القصص القرآني" وننقله كما جاء نظراً لأهميته في بيان الفرق بين القصص والرسالة.

٨ ـ النبأ والخبر[4]

4 – **القصص القرآني: قراءة معاصرة**، المجلد الأول ص ١٨٥، مدخل إلى القصص وقصة آدم، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

لقد قلنا إنّ القصص من القرآن، أي من كتاب علوم النبوة. ويتوافق هذا مع قولنا بأن آيات القرآن المتشابهات تحوي إشارات لنواميس الكون وقوانين الوجود، مع فارق بسيط هو أن هذه القوانين وتلك النواميس ذاتها جاءت من لوح محفوظ في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، بينما جاء القصص من إمام مبين بدلالة قوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢). ولقد سبق أن فصّلنا القول في اللوح المحفوظ والإمام المبين في كتابنا الأول فلا نكرر ما ذكرنا تفصيلا ونكتفي بالقول بأن القرآن قرن المعلومات الواردة من اللوح المحفوظ بالمعلومات الواردة من الإمام المبين. وكما أن القرآن الآتي من اللوح المحفوظ يحتوي على إشارات حول نواميس الكون وقوانين الوجود الناظمة للبراكين والزلازل وحركة الأفلاك والرياح التي تجري بأمر الله فتجمع الغيوم لنزول الأمطار، كذلك القصص القرآني يحتوي على رصد لاتجاهات الأحداث التاريخية الماضية، وسنن نشوء الدول وهلاك الأمم والحضارات. ونرى مثال ذلك في قوله تعالى:

– {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ} (الحجر ٤).

– {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (الإسراء ١٦).

علينا بادئ ذي بدء أن نفرق بين النبأ والخبر في الدلالة، فالقصص القرآني من الأنباء وليس من الأخبار بدلالة قوله تعالى:

– {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود ٤٩).

– {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} (الأنعام ٣٤).

– {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (التوبة ٧٠).

الخبر هو ما يحتمل الصدق والكذب والخطأ والصواب لأن له مخبر، والنبأ في رأينا يحتمل الحقيقة والوهم، لذا قال عن القرآن إنه حق ولم يقل إنه صواب {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ..} (فاطر ٣١)، و{نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} (آل عمران ٣).

قلنا إن علينا أن نفهم ونميز الفروقات في المعنى بين الخبر والنبأ، وأول هذه الفروقات، كما استنتجناه من التنزيل الحكيم مباشرة لا من القواميس، هو أن الرسول (ص) كان نبياً حاملاً للأنباء ولم يكن مخبراً حاملاً للأخبار. ثانيها أن الأنباء غيب، بدلالة قوله تعالى بعد أن يذكر ما وقع مع نوح وهود وصالح وشعيب من أحداث {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود ٤٩). ومن هنا جاء الأمر الإلهي إلى النبي الكريم يقول: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الحجر ٤٩). لأن الله غيب بالنسبة للنبي والنبي ليس بشهيد على غفران الله ورحمته وإنما هو شاهد، ويقول أيضاً: {وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} (الحجر ٥١)، لأن ما حدث مع ضيف إبراهيم غيب. ثالثها أن النبأ إما أن يكون حدثاً وقع في الماضي، ومثاله القصص القرآني عن نوح وهود وإبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى صلوات الله عليهم أجمعين، أو أن يكون حدثاً سيقع في المستقبل، ومثاله قوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} (الغاشية ١) والحديث في الآية يتضمن نبأ لأنه غيب مستقبلي، وقوله تعالى {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} (النبأ ١، ٢) وهنا وصف سبحانه اليوم الآخر بالنبأ لأنه أيضاً غيب مستقبلي. وقل مثل ذلك في الآيات التي تصف الساعة والصور والجنة والنار وتتحدث عن يأجوج ومأجوج. ولكن النبأ سواء أكان عن الماضي أم عن المستقبل يبقى غيبياً بالضرورة، والإنباء به هو من مقام النبوة وليس من مقام الرسالة أي أن القصص القرآني معلومات هدفها العظة والعبرة ولا علاقة لها بالتشريع. وحين نقرأ قوله تعالى عما وقع لمريم في طفولتها {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ..} (آل عمران

٤٤)، نجده لا يكتفي بهذا كما فعل بعد رواية ما وقع لنوح في هود ٤٩، بل يتابع قائلاً {.. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (آل عمران ٤٤)، وهذا نفي واضح للحضورية في النبأ. أما الخبر فلابد من أن يكون راويه حاضراً يشهد وقوعه بعينيه.

رابعها أن النبأ إجمالي مختصر بينما الخبر تفصيلي مطوَّل، وهذا واضح في القصص القرآني. فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين، ومع ذلك لم تتجاوز أنباؤه في صفحات التنزيل الحكيم عدد أصابع اليد الواحدة، وقل مثل ذلك في هود وصالح وموسى وعيسى. أي أن أنباء الرسالات والنبوات التي اقتضت عشرات القرون تزيد قليلاً عن نصف التنزيل الحكيم. ونحن نقول في حياتنا اليومية المعاصرة: وكالات الأنباء ونقول إدارة المخابرات. فانظر كيف أن وكالات الأنباء تغطي خبر زيارة رئيس جمهورية بلد ما لبلد آخر لمدة ثلاثة أيام في عدة سطور، أما إدارة المخابرات التي تعد تقريراً عن هذه الزيارة فتفعل ذلك في عشرات الصفحات ذاكرة كل التفاصيل بإسهاب.

في ضوء هذه الفروقات، التي تميز النبأ عن الخبر في كتاب الله تعالى، نستطيع أن نفهم قوله تعالى {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} (الزلزلة ٤، ٥) وقوله تعالى {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} (التحريم ٣).

أما عن آية الزلزلة فقد يسأل سائل: لماذا قال أخبارها ولم يقل أنباءها، مع أن الحدث غيبي سيقع في المستقبل؟ نقول: إن كلمة يومئذ تمنع ذلك. إضافة إلى أن الإنسان الذي قال مالها؟ حاضر يشهد الزلزلة بأم عينيه، والحضورية تجعل النبأ خبراً بالضرورة. وكذلك عندما شاهد موسى النار قال لأهله {.. إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ..} (القصص ٢٩)، أي ذهب موسى حضوراً لعند النار لذا قال خبر.

وأما عن آية التحريم ٣، فالحديث في الآية خبر لأن النبي كان حاضراً الحدث، ثم تحول هذا الحديث عند الزوجة إلى نبأ نبأت به لأنها لم تكن حاضرة. ولما لم يكن النبي حاضراً حين أفشت الزوجة حديثه فقد قال تعالى {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ}، ولما كانت الزوجة تعلم أنه لم يكن حاضراً لحظة إفشائها للحديث السري فقد جاء سؤالها {مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا}. أما كلمة الخبير التي ختم تعالى بها الآية، فتشير إلى أن الله حاضر في كل زمان ومكان بدلالة قوله تعالى {.. مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا..} (المجادلة ٧). وكذلك نفهم قوله تعالى {.. الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} (الفرقان ٥٩) هنا الخبرة تعني

الحضورية، وإنسان ذو خبرة أي أنه يمارس أموراً بنفسه لذا فهو بها خبير. أي على الإنسان الذي يريد أن يكون خبيراً في أمر ما أن يكون رحمانياً يمارس القوانين الموضوعية بنفسه.

نشير بعد هذا كله إلى أمر في غاية الأهمية، هو أن القصص القرآني في التنزيل الحكيم روى لنا أنباء من غيب الماضي عن ذي القرنين والعبد الصالح وفرعون وهامان وقارون ومن غيب المستقبل عن البعث والنفخ في الصور وتكوير الشمس وزلزلة الأرض. ومن هنا تم إطلاق لقب الكذاب على مسيلمة لأنه ادعى النبوة، ذلك أنه أورد أخباراً ولم يورد أنباء. أي أن كل ما قاله كان معلوماً لدى السامعين ولا يوجد فيه غيبيات، وكان سليماً من الناحية اللغوية وفيه كل شروط البلاغة، ولكن أين الغيب في أن الفيل ذنبه قصير وخرطومه طويل؟ إنه خبر صادق ولكن لا يوجد فيه أي نبوءة. وبما أن النبوة غيب ماض أو مستقبل فقد جاءت النبوة بصيغة متشابهة بالضرورة حتى يتم تأويلها في كل عصر حسب الأرضية المعرفية ونظم وأدوات المعرفة المتوفرة من حيث التأويل المرحلي المؤقت. أما التأويل النهائي لأي آية فهو عندما يتحول النبأ إلى خبر تتحدث به الناس وتعيشه لقوله تعالى {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (الأنعام ٦٧)، ومن هنا نفهم أنه لا يوجد أي إنسان على الإطلاق قادر على تأويل القرآن، حتى النبي (ص) نفسه، لذا فإن التفاسير المتوفرة هي فهم مؤقت تاريخي فيه من الوهم أكثر مما فيه من الحقيقة ويفتقر إلى منهجية علمية في التعامل مع التنزيل الحكيم.

لكن القصص القرآني روى لنا أيضاً أخباراً عن أحداث عاشها النبي (ص) وأصحابه حضورياً ورأوها بأعينهم، كغزوة بدر وأحد وحنين والخندق وتبوك نجدها في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم كالتوبة والتحريم والأنفال والأحزاب، إلا أن هذه الأخبار التي كانت أخباراً عند من عاش أحداثها في لحظة وقوعها تحولت إلى أنباء عندنا وعند غيرنا اليوم، وتلك الأنباء عن الماضي والمستقبل تبقى جميعها قصصاً قرآنياً القصد منه هو العظة والعبرة ولا علاقة له بحلال ولا بحرام، ولا بصالح ولا بطالح، كآية السيف وآية الجزية في سورة التوبة عند بعضهم. وقد ورد النبأ في سورة التوبة عندما خاطب النبي والصحابة يذكرهم بالأقوام التي سبقتهم في قوله تعالى {أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (التوبة ٧٠)، وكذلك ورد النبأ والخبر معاً في آية واحدة من سورة التوبة، فهناك أمور حدثت مع بعض الصحابة في عهد الرسول فنبأ الله بها الآخرين لأنها كانت غيباً لهم لذا قال تعالى:{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ} (التوبة ٩٤)، فهذه أنباء بالنسبة للرسول والصحابة الذين لم يعلموا أن الأعذار المقدمة صحيحة أم كاذبة، وهي أخبار بالنسبة للذين قدموا الاعتذار. وكذلك في سورة محمد قال تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} (الآية ٣١). في هذه السورة يدور الحديث حول أحداث حصلت مع الرسول (ص) والصحابة لذا قال "لنعلم المجاهدين والصابرين" وذكر أن هذه الأحداث عبارة عن أخبار لأنها حضورية. أي أن سورة التوبة وكل الآيات التي تتحدث عن غزوات بدر وأحد والخندق وتبوك وكل الغزوات الأخرى تحولت بالنسبة لنا إلى قصص محمدي تماماً كقصص موسى ويوسف. ولا يوجد فيها تشريعات وليست من الرسالة وتختلف تماماً عن قوله تعالى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..} (البقرة ٢٥٦)، وعن آيات المواريث في سورة النساء. حيث أن هذه الآيات هي من الأحكام "الرسالة" ليست أنباءً وليست أخباراً. وهنا يُحَلُّ التناقض بين هذه الآيات وآيات السيف والعنف بدون اللجوء إلى تخريجة الناسخ والمنسوخ القائمة على الأوهام. لذا نرى من الواجب فرز آيات الرسالة التي لا تعتبر أنباء لنا ولا أخباراً وقت نزولها على حدة، ونرى ضرورة تمييزها عن الأنباء القصصية.

٩ ــ السبع المثاني

علينا أن نوضح ما هي السبع المثاني الواردة في قوله:{وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ} (الحجر ٨٧).

١ــ لقد عطف سبحانه القرآن في الآية على السبع المثاني، وهذا يعني أن القرآن شيء والسبع المثاني شيء آخر، وأن السبع المثاني ليست جزءاً من القرآن وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات.

٢ــ لا يمكن أن يكون القرآن جزءاً من السبع المثاني، لأن السبع المثاني سبع آيات، والقرآن أكثر من ذلك.

٣ــ لابدّ من أن يكون هناك تجانس ما بينهما حتى يتم عطف أحدهما على الآخر، فإذا تم عطف القرآن على أم الكتاب، فوجه التجانس بينهما أنهما موحيان من الله ... وهكذا نرى عندما عطف "ثيباتٍ وأبكاراً" في آية التحريم ٥ فالثيب غير البكر ولكن كلاهما من النساء.

ونقول الآن: بما أن القرآن العظيم هو نبوة محمد (ص) والنبوة علوم، فهذا يعني أن السبع المثاني هي من النبوة وفيها علوم. و هكذا نفهم أن قول النبي (ص) إن صح "ألا إني أوتيت القرآن ومثله

معه" (هذا جزء من حديث أخرجه أبو داود، انظر مختصر تفسير ابن كثير ج١ ص١٢) ما هو إلا تعليق على هذه الآية. فإذا كانت السبع المثاني مثل القرآن، فهذا يعني أن المعلومات الواردة فيها لا تقل كمّاً ونوعاً عن المعلومات الواردة في القرآن، ولكن جاءت بطريقة تعبيرية مختلفة عن طريقة القرآن.

٤ـ لقد ميز سبحانه السبع المثاني عن القرآن بأن أطلق عليها مصطلح "أحسن الحديث" وذلك في قوله تعالى {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الزمر ٢٣). فقد أطلق على القرآن مصطلح الحديث، وأطلق على السبع المثاني مصطلح أحسن الحديث، لتمييزها، ويتجلى هذا التمييز بأن القرآن آيات متشابهات فقط، بينما أحسن الحديث يحمل بالإضافة إلى التشابه صفة المثاني {كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ}، فما هي المثاني؟

جاء في مقاييس اللغة ما يلي: "الثاء والنون والياء أصل واحد، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين". وجاء فيه، المثناةُ: طرف الزمام في الخشاش. وإنما يثنى الشيء من أطرافه فالمثاني هي الأطراف.. ومن هنا كان لكل سورة مثناة أي طرف فالمثاني إذاً أطراف السور وهي إذاً فواتحها.

يبدو لنا أنه من الأولى أن نسمي الفاتحة بالسبع المثاني، لأن الفاتحة هي سبع آيات في فاتحة واحدة هي فاتحة الكتاب. ولكن السبع المثاني هي سبع آيات، كل منها فاتحة. أي هي سبع آيات وهي في الوقت نفسه سبع فواتح. فيبقى احتمال واحد. بما أن الكتاب واحد، وبما أنه مؤلف من ١١٤ سورة، فيلزم أن تكون السبع المثاني هي سبع فواتح للسور، كل منها آية منفصلة في ذاتها. فإذا نظرنا إلى فواتح السور نرى فيها السبع المثاني وهي:

١ـ الم، ٢ـ المص، ٣ـ كهيعص، ٤ـ يس، ٥ـ طه، ٦ـ طسم، ٧ـ حم.

فإذا سأل سائل: ما هي إذاً: الر، المر، طس، ن، ق، ص؟

قلنا: هذه حروف كل منها جزء من آية، وليس آية منفصلة تامة في ذاتها. فالآية الأولى في سورة نون هي {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}. أما الآية الأولى في سورة البقرة فهي {الم}، وأما {عسق} فهي ليست فاتحة لسورة، لأنها الآية الثانية في سورة الشورى، والآية الأولى هي {حم} فإذا نظرنا إلى عدد الحروف "الأصوات" الموجودة في الآيات السبع المذكورة أعلاه نراها تتألف من أحد عشر حرفاً "صوتاً" هي:

١– الألف، ٢– اللام، ٣– الميم، ٤– الصاد، ٥– الكاف، ٦– الهاء، ٧–الياء، ٨–العين، ٩– السين، ١٠– الطاء، ١١– الحاء.

وإذا أخذنا بقية الحروف "الأصوات" الموجودة في آلر، آلمر، طس، عسق، ن، ق، ص، والتي لا تشكل آيات منفصلة في ذاتها كبداية وفيها آية واحدة ليست كبداية هي عسق، فنرى أن فيها ثلاثة حروف "أصوات" غير موجودة في آيات السبعة الفواتح وهي:

١– القاف، ٢– الراء، ٣– النون.

فمن هذه الأصول تتألف كلمة "القرآن" لأن كلمة القرآن مشتقة من "قرأ" ومعنى "ق ر أ" الجمع كما في المقاييس، وكذا معنى "ق ر ن"، وعليه فالقراءة والقرن جمع وفيها استقراء ومقارنة. وإذا أضفنا الحروف "الأصوات" الثلاثة الإضافية إلى السبعة الفواتح التي تشتمل على أحد عشر حرفاً، يصبح المجموع أربعة عشر حرفاً "صوتاً" مختلفاً أي "٧ × ٢" وهذه أيضاً سبع مثان.

فما هي جوامع الكلم التي ذكرها النبي (ص) في قوله إن صح "أعطيت جوامع الكلم" و"اختصر لي الكلام اختصاراً"؟ لقد طغى على الأذهان أن هذين التعبيرين يراد بهما البلاغة النبوية، ونقول:

إنّ الكلام في اللسان العربي يعني الأصوات، وكل كلام الناس قاطبة أصوات، ونشأة الألسن هي نشأة صوتية. والسبع المثاني ما هي إلا حروف أي أصوات هي جوامع الكلم وهي "اختصار الكلام". إذ لو عنت "جوامع الكلم" البلاغة النبوية كما يقول بعضهم، فإنا نستنتج بالضرورة أن القرآن من تأليف محمد (ص) رغم أنه إلى الآن لم يقلده أحد، فيصبح القرآن هو بلاغة محمد (ص) وعلينا أن نعلم أن النبي (ص) كان على بلاغته بشراً، وبلاغته فيهم بلاغة متميزة مع أنها مألوفة، وحين ندّعي أنه يفوق ببلاغته البشر، نفسح الطريق لمتهمٍ يظن أن القرآن من صنعه، {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ..} (الكهف ١١٠).

إن الذي أوقعنا في هذا الإشكال هو أننا لم نفرق بين الكلام والقول. فالبلاغة في القول لا في الكلام. فالكلام أصوات يصدرها الإنسان، والقول معنى هذه الأصوات في الذهن.

وعليه فإنّ أول ما نستنتجه من حروف "أصوات" السبع المثاني ما يلي:

١– أنها أعطت مقاطع صوتية يتألف منها أصل الكلام الإنساني وليس اللغة العربية فقط.

٢– أن عدد الأصوات الأحد عشر في الآيات السبع الفواتح تشكل الحد الأدنى لأي كلام إنساني، أي أنه لا يمكن أن توجد لغة إنسانية يقال عنها لغة، إلا إذا كانت أصواتها الأصلية من أحد عشر صوتاً على الأقل. ويؤيد هذا ما توصل إليه المحدثون من علماء اللغويات واللسانيات من أن العدد

(١١) يشكل الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم ويمثلون لها بلغة البروتوكاس Protokas التي هي لغة أهل سيشل.

٣– أن الأصوات تحمل الصيغة الكونية، فلو كانت هناك مخلوقات عاقلة في الكون فطريقة التواصل معها هي طريقة صوتية بالضرورة.

٤– لقد أكد الكتاب أنه توجد مخلوقات حية فيها العاقل وغير العاقل في هذا الكون، وليس في الأرض فقط، وأن العاقل منها سيجتمع بعضه مع بعض في المستقبل، وذلك في قوله تعالى {وَمِنْ أَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} (الشورى ٢٩). فقد وضع الدابة في السموات والأرض وهي من دبّ، يدبّ على الأرض أي هو كائن حي بما في ذلك الإنسان أو أي كائن عاقل، ووضع قانون التطور أنه أصل الخلق في الوجود كله في قوله {وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ} ووضع الاجتماع للعاقل فقط من الدواب في قوله {عَلَى جَمْعِهِمْ} ”الميم جمع للعاقل فقط“، وهذا الاجتماع ممكن في المستقبل {إِذَا يَشَاءُ}.

ويحق لي الآن أن أخمن دون أن أقطع، أنه إذا ما تيسر لنا اللقاء بعقلاء في كوكب آخر غير الأرض ثم أردنا أن نتفاهم معهم أو نبث إليهم فعلينا أن نستعمل هذه الأصوات الأحد عشر، لأنني أعتقد أنها القاسم المشترك للأصوات التي يمكن أن تصدر عن العقلاء.

الفصل الثاني

النبوة والرسالة

١ – القرآن (النبوة) هو الموضوعي (Objective) وأم الكتاب (الرسالة) هي الذاتي (Subjective)

لقد قلنا: إن القرآن فرّق بين الحق والباطل أي بين الحقيقة الموضوعية والوهم، وأم الكتاب فرقت بين الحلال والحرام في السلوك الإنساني.

إن الوجود الموضوعي وقوانينه موجودة خارج الوعي الإنساني، فالشمس موجودة عرفنا ذلك أم لم نعرف، قبلنا ذلك أم لم نقبل. ومن هنا نقول: إن وجود الشمس "حق" ونقول: إن الموت حق ولا نقول إن الموت حلال، لأن ظاهرة الموت موجودة عرفنا أن هناك موتاً أم لم نعرف، قبلنا بالموت أم لم نقبل. وكذلك قانون الجاذبية والساعة والبعث، فإذا عرف الناس أن هناك بعثاً بعد الموت وقبلوا به فإنهم سيبعثون، وإذا لم يعرفوا ولم يقبلوا فإنهم سيبعثون أيضاً، لأن البعث حقيقة موضوعية توجد خارج الوعي الإنساني. ولهذا نقول: إن البعث "حق" ولا نقول إن البعث "حلال".

والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني. وفهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية من كوسمولوجيا وفيزياء وكيمياء وأصل الأنواع وأصل الكون والبيولوجيا وسائر العلوم الطبيعية. أما "الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية" فليس لها علاقة بالقرآن لا من قريب ولا من بعيد، لذا يجب أن نفهم قول النبي (ص): "القرآن حجة لك أو عليك" (صحيح مسلم ج١ ص٢٠٣) لأن من آمن بالبعث – والبعث من مواضيع القرآن – يرى التأويل النهائي لآيات البعث حين يبعث لأنه يبصرها حقيقة مادية موضوعية. وعندما يبعث الناس يكون القرآن حجة لمن آمن بالبعث وحجة على من لم يؤمن بالبعث، لأن كل آيات الساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار هي من القرآن، وتأويلها النهائي هو إبصارها.

– {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} (الأنعام ٣٠).

– {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الأعراف ٤٣).

– {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا..} (الأعراف ٥٣)

وبما أن القرآن هو نبوة محمد (ص)، وهو الآيات البينات، وهو الحق الموجود خارج الوعي الإنساني، فقد قال عنه النبي (ص): ”العلماء ورثة الأنبياء“ أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داوود وأحمد. و”إن معاشر الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم“ كشف الخفاء ج٢ ص٨٣. و”من قال بالقرآن بغير علمٍ فليتبوأ مقعده في النار“ الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص١٦٧.

ليس صحيحاً أن ورثة الأنبياء هم علماء الشريعة والفقه وحدهم. إن الفلاسفة وعلماء الطبيعة وفلسفة التاريخ وأصل الأنواع والكونيات والإلكترونيات هم ورثة الأنبياء. لذا قال سبحانه {.. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ..} (آل عمران ٧) وقال: {بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ..} (العنكبوت ٤٩) وقال {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (فاطر ٢٧ – ٢٨).

نحن نعلم في اللسان العربي أن كلمة ”كذلك“ أداة وصل بين خبرين. فالخبر الأول هو الآية ٢٧ وأول الآية ٢٨ والخبر الثاني هو {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} فجاءت الأداة ”كذلك“ لتربط بين الخبرين. ونلاحظ في الخبر الأول علوم الأنواء والجيولوجيا وعلوم الأجناس والأنواع الحية، ثم علق عليها {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} كذلك قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آَيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} (الشعراء ١٩٧). علماء بني إسرائيل هنا ليسوا الحاخامية والأحبار فقط، ويجب أن نعلم أن النبوة مربوطة بالعلوم الموضوعية والتاريخية.

أما الرسالة فذاتية مربوطة بالعلوم الاجتماعية والتكاليف الشرعية.

فما معنى الذاتي (Subjective)؟

لنتأمل مثلاً وصية رب العالمين {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ..} (العنكبوت ٨، لقمان ١٤، الأحقاف ١٥). لا نرى أن لبر الوالدين وجوداً خارج الوعي الإنساني. أي أن الإنسان إذا بلغته وصية الله ببر

الوالدين يمكن أن يبرهما أو لا يبرهما، وإذا لم يرد الإنسان أن يبر والديه فيمكن أن لا يبرهما. وكذلك الصلاة، إن شاء الإنسان صلى وإن شاء لم يصلّ. أي أن كل أحكام أم الكتاب مرتبطة بالإنسان. فلو افترضنا أنه قامت حرب ذرية وفني الجنس البشري فإن هذا لا يؤثر على الشمس والقمر والمريخ، ولا يؤثر على نواميس الكون والوجود، ولكن في الوقت نفسه إذا فني الإنسان ولم يبق هناك جنس إنساني ذهبت معه الصلاة والصوم والحج والزكاة وبر الوالدين واجتناب شر الخمر والميسر وتحريم الربا والعدل والظلم وكل القيم الإنسانية الفردية والاجتماعية. هنا نفهم ما معنى الذاتي. ولهذا لم يطلق لفظة الحق على أم الكتاب لأنها قواعد سلوك إنساني وليست قوانين وجود موضوعي، بل أطلق عليها مصطلح الرسالة التي بها أصبح محمد (ص) رسولاً وبلغها للناس واجتهد في تطبيق أحكامها في زمانه، وهي ليست من كلمات الله ولا من نواميس الوجود، لأن كلمات الله حق "قوله الحق". ولا نرى في أحكام أم الكتاب مصطلح "قال الله" لأنها قابلة للأخذ بها أو تركها، لذا فهي مناط التكليف وفيها القضاء "أي الاختيار" الإنساني. أي أن الإنسان يقضي فيها بنعم أولاً، وله في الحالين ملء الخيار {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (البقرة ٢٥٦). أما القرآن فليس مناط التكليف ولا يوجد فيه أحكام وأوامر تكليفية فهو حق حتمي ساحق ماحق، لذا فهو مناط القدر في قانونه العام، ومناط المعرفة الإنسانية في القوانين الجزئية، ومناط المعرفة الإنسانية بالتاريخ. وموقف الإنسان من القرآن الإيمان أو عدم الإيمان به، ولذا قال تعالى {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..} (الكهف ٢٩). أما أن يغير في قوانينه أو يهرب منها فلا سبيل له إلى ذلك: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} (الكهف ٢٧) وللإنسان حرية التصرف في القوانين الجزئية للطبيعة دون الخروج على القانون العام، وهي مناط المعرفة الإنسانية والتصرف الإنساني. ونرى أن التقدم العلمي الهائل أعطى الإنسان حرية التصرف واستعمال هذه القوانين للدمار أو للرفاهية.

ولو قيل: إذا كانت أم الكتاب ليست حقاً وليست كلمات الله، فهل هي باطل "أي وهم"؟ نقول: إن الحق "القرآن" هو الموضوعي الذي جاء لتصديق أم الكتاب "الذاتي". لأن أم الكتاب ليس لها وجود قائم في ذاته ومنفصل عن الإنسان. فما هو المصطلح الذي أطلق عليها في التنزيل الحكيم؟

إن الظن بأن الروح هي سر الحياة هو الذي أبعد الناس عن المفهوم الحقيقي للروح كما جاء في آيات الكتاب. فإذا كانت الروح هي سر الحياة فهذا يعني أن البقر والأفاعي والسمك وكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات لها روح! وهذا غير صحيح لأن الله سبحانه وتعالى نفخ الروح في آدم ولم يقل: إنه نفخ الروح في بقية المخلوقات. إن أزمة سوء فهم معنى الروح هي التي أوقعت

المسلمين في شرك عدم البحث عن أصل الحياة وأصل الإنسان والأنواع على الأرض، ظناً منهم أن الروح سر الحياة، وهي من اختصاص رب العالمين. لذا لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصل الحياة، وذلك ناتج عن خطأ في فهم قوله تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء ٨٥). علماً بأن آيات خلق آدم كلها قرآن، وهي من المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل. وخير من أوَّل آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين. فهل عرف داروين القرآن؟ أقول: ليس من الضروري أن يعرفه، فقد كان يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان. والقرآن أورد حقيقة أصل الإنسان، فيجب أن يتطابقا إن كان داروين على حق. وأعتقد أن نظريته في أصل البشر في هيكلها العام صحيحة لأنها تنطبق على تأويل آيات الخلق.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو ما معنى قوله تعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}؟

لقد ظن كثيرون أن الروح شأن إلهي لا يخصهم ولا علاقة لهم به لأن معلوماتهم قليلة، فاستنتجوا أنه لا بحث في شأن الروح وأنها سر الحياة. هكذا كانت الأرضية المعرفية السائدة. وقد كان فهمهم هذا مقنعاً لهم ولمعاصريهم. أما بالنسبة لنا فهو غير ذلك.

لننته الآن من أن الروح ليست سر الحياة، وأن الموت والحياة من قوانين الوجود المادي الموضوعي خارج الوعي الإنساني وكلاهما من قوانين الخلق طبقاً لقوله تعالى:

- {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا..} (الملك ٢).
- {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} (الأعلى ١–٢).
- {.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص ٨٨).

لنأخذ الآن بعض آيات الموت والوفاة التي وردت في الكتاب:

- {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا..} (آل عمران ١٤٥).
- {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا..} (الزمر ٤٢).
- {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} (الفجر ٢٧–٢٨).
- {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ..} (الأنعام ٩٣).
- {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ..} (النحل ٢٨).
- {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..} (النحل ٨٩).
- {وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ..} (النساء ١٢٨)

وننتقل إلى قول النبي (ص):''والذي نفس محمدٍ بيدهِ''. ونتذكر قول مصعب بن عمير عندما هددته والدته بأن تقتل نفسها إذا لم يرجع عن دين محمد فقال: ''والله لو أن لك مئة نفسٍ فخرجت نفساً نفساً ما رجعت''.

إن مقولة الترادف في اللسان العربي جعلتنا نخلط بين النفس والروح، فالنفس تقابل بالإنجليزية (SOUL) والروح تقابل (SPIRIT). ومن الخطأ القول: الفاتحة إلى روح النبي، أو إلى روح المتوفى. والصحيح: الفاتحة إلى نفس النبي (ص) ونفس المتوفى.

والله سبحانه لم يذكر الروح في مجال الحياة والموت بتاتاً، ولكن التشابه في آيات خلق آدم، والأرضية المعرفية للسلف جعلتهم يقولون: إن الروح هي سر الحياة، وكان هذا ينسجم مع أرضيتهم المعرفية، وفي هذا يكمن إعجاز القرآن الأكبر وهو الجدل بين النسبي والمطلق أو ''الجدل بين المحتوى المتحرك والنص الثابت''. فالنفس هي التي تحيا وتموت ولا علاقة للروح في ذلك. ولا يمكن شرح مقولة الروح إلا بعد شرح نظرية المعرفة الإنسانية في القرآن، وسنفصل القول فيها في فصل جدل الإنسان.

ولكن لإعطاء فكرة للقارئ عن الروح التي حولت البشر إلى إنسان، أي التي نقلت الإنسان نقلة نوعية من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واع، نقول: إننا نرى أن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان. كما نرى أن آدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري، بمعنى أن التاريخ الإنساني الواعي يبدأ بآدم. أما قبل آدم فكان ثمةَ صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر. ثم اصطفى الله آدم وزوجه من ذلك الصنف {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ..} (آل عمران ٣٣). فآدم إذاً لا يدخل في النبوات ولا في الرسالات. ثم إن هناك معنى خاصاً للفظة آدم، فهي تحمل صفة التشابه (وسنفصل القول في ذلك لدى البحث في نشأة الكلام الإنساني). لقد نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان تطور وتقدم، ولم ينفخ الروح في القرود فبقيت كما هي.

أي لدينا الآن المعادلة: بشر + روح = إنسان.

إن كلية الطب تسمى كلية الطب البشري لأنها تدرس الإنسان من حيث كونه بشراً، شعر وجلد وعيون وجهاز هضمي وعصبي وقلب ودورة دم، أي تدرسه كائناً حياً فقط، وفي هذا يتشابه الإنسان وبقية المخلوقات كالقرود والبقر والإبل، فكلها كائنات حية لها جلد وجهاز هضمي وعصبي، ولا تعيش دون رطوبة وأوكسجين.

وهناك علوم إنسانية هي القانون والشريعة والسياسة والأخلاق والفنون والآداب والفلسفة والتاريخ، ثم هناك علوم طبيعية هي الفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها.

إن العلوم الإنسانية هي العلوم التي تنتفي بغياب الإنسان. فبدون الإنسان توجد الطبيعة والمجرات والشمس والبحار والتفاعلات الكيميائية، إنما بدونه لا يوجد فقه ولا قانون ولا فنون.

الروح إذاً هي التي حوّلت البشر إلى إنسان ولنا هنا أن نتساءل: ما الذي يميّز الإنسان عن الحيوان ؟؟

يتميز الإنسان عن الحيوان بأمرين هما: النتاج المباشر للروح: المعرفة والتشريع (الأمر والنهي). فالحرية كانت نتيجة مباشرة للمعرفة، والتشريع جاء رديفاً للمعرفة. وبنفخة الروح أصبح الإنسان خليفة لله في الأرض. ومن جراء نفخة الروح هذه أصبح للإنسان تاريخ واعٍ، وأصبح يلبس لباساً ويسكن بيوتاً، وصار عنده حرام وحلال ومسموح وممنوع، وبنفخة الروح طيّر الطائرات وأطلق الصواريخ وصنع السيارات والغواصات وشاد المصانع، كما أقام دولاً، ووضع تشريعات وقوانين وأنشأ مؤسسات علمية واجتماعية. كل هذا حصل من هذه النفخة التي قال عنها تعالى {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي..} (الحجر ٢٩، ص٧٢). فنفخة الروح هي النقلة النوعية التي أدت إلى انتقال البشر إلى إنسان.

لنستعرض الآن بعض آيات الروح كما وردت في التنزيل الحكيم:

- {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء ٨٥).
- {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا..} (الشورى ٥٢).
- {.. يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} (غافر١٥).
- {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ..} (النحل ٢).
- {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} (القدر ٤).

عندما سئل النبي (ص) عن الروح جاءت الإجابة التالية: هي من أوامر رب العالمين، فقد أمرنا رب العالمين بالصلاة والصوم والحج والزكاة وبر الوالدين والصدق وترك شهادة الزور وأوصانا بالإرث وبعدم قتل النفس وغيرها من أحكام أم الكتاب. هذه الأحكام لا توجد قائمة في ذاتها وإنما مرتبطة بشكل مباشر بالإنسان. فإذا ذهب الإنسان ذهبت معه، والأحكام مرتبطة بالإنسان العاقل، وقد قال السادة الفقهاء "العقل مناط التكليف" و"إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب". فالله أعطانا الروح من ذاته وليس من المادة الكونية المكونة للإنسان. ولذلك سمى الأحكام روحاً لأنها ليست حقيقة مجسمة وإنما هي سلوك واع.

لنضرب الآن مثالاً على ذلك: نقول: إن تعيين زيد بن عمرو رئيساً لجامعة دمشق هو من أمر السيد رئيس الجمهورية. أي لا بد، ليصبح زيد بن عمرو رئيساً لجامعة دمشق، من مرسوم (أمر)

تعيين يصدره السيد رئيس الجمهورية. فهل يرى هذا الأمر بالعين أو يلمس باليد؟ أي هل هو من المجسمات؟ قد يقول قائل: نعم هو من المجسمات لأن المرسوم يطبع على ورق ويوزع على دوائر الدولة ويرى بالعين. نقول: إن الذي يُرى بالعين ويُلمس باليد هو الورق والحبر، ولو كان الورق والحبر هو عين المرسوم، لأمكن إصدار المراسيم إلى الإنسان والبهائم معاً. ولكن مرسوم التعيين هو المعنى المتضمن في الكتابة، الذي يفهم الإنسان فقط أنه مرسوم بتعيين زيد رئيساً للجامعة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عندما يطّلع إنسان ما على نص المرسوم فإنه يعرف أن فلاناً أصبح رئيساً لجامعة دمشق، وهذا يعني أن معلوماته زادت معلومة، أي أنه كان لا يعرف أن فلاناً أصبح رئيساً لجامعة دمشق، فأصبح يعرف، فهل هذه الزيادة في المعرفة هي زيادة مجسمة؟

للروح هنا جانبان هما: "الأمر + المعرفة". وكلاهما لا يعد من المشخصات والمجسمات. وبما أن الأوامر والنواهي يجب أن يستوعبها الإنسان، فلا بد له من أرضية معرفية معينة يستطيع معها أن يستوعب الأمر. ولا يمكن أن تتم المعرفة الإنسانية دون قالب لغوي. فعندما عبر الله سبحانه وتعالى عن نفخة الروح في آدم قال: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..} (البقرة ٣١) إن في هذه الآية مفتاح فهم الروح، وتأويلها مهم جداً في تحول البشر إلى إنسان.

عندما ورد السؤال عن الروح جاء الجواب:

- {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي..} (الإسراء ٨٥) "أوامر".
- {.. وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء ٨٥) "معلومات".

لاحظ الربط بين الأوامر والمعلومات "الحقائق العلمية".

وكذلك جاءت بقية الآيات بالمعنى نفسه: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ..} (غافر ١٥) {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ..} (النحل ٢). ونلاحظ أن آية النحل هذه رقم ٢ سبقتها آية رقم ١ تقول: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ..} لتؤكد أن الروح في الآية ٢ هو الأمر في الآية ١. وقد سمي جبريل روحاً لأنه كان يقوم بمهمتين هما (نقل الأوامر والنواهي "أم الكتاب" ونقل الحقائق العلمية "القرآن")، كما نلاحظ أن الآية ٨٦ في سورة الإسراء شرحت تماماً معنى الآية ٨٥ بحيث أتبع الآية ٨٥ بقوله تعالى: {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا} (الإسراء ٨٦).

هنا نفهم بشكل لا لبس فيه أن الروح المذكورة في الآية ٨٥ هي مجموع ما أوحي إلى محمد (ص) وهل أوحي إليه غير التشريع والعلم؟! لقد فهمنا سؤال اليهود للنبي (ص) فهماً خاطئاً، فظننا

أنهم يسألونه عن سر الحياة، علماً بأنهم كانوا يسألونه عن الناموس الذي جاء إلى موسى وعيسى، حيث أن مفهوم الروح عندهم لا يعني سر الحياة. ولذلك اكتفى السائل بهذا الجواب.

إن مفتاح القضية في فهم خلق الإنسان يكمن ويتجلى في أن الروح ليست سر الحياة العضوية. وهكذا نرى أنه (ص) عندما سئل عن الروح أجاب إجابة شافية وافية، ولم يقل للناس إن الروح سر لا تعرفونه فاسكتوا ولا تسألوا. علينا أن نتجاوز عبارة "هكذا فهمها مفسرونا"، لأنه دون هذا التجاوز يستحيل تأويل آيات خلق الإنسان، وأي تأويل لآيات خلق الإنسان ينطلق من أن الروح هي سر الحياة هو تأويل خاطئ لا يمكن أن يتطابق مع الحقيقة الموضوعية (reality objective) وأصول البحث العلمي الموضوعي. ومن جراء هذا الفهم الخاطئ ابتعد العرب المسلمون مئات السنين عن البحث العلمي في خلق الإنسان وأصل الأنواع وتركوه لغيرهم.

وعلينا أخيراً أن نعلم أن الروح هي القاسم المشترك بين الله والإنسان، وأنها سر التقدم الإنساني والرقي، وأن الإنسان فقط له روح، فعندما نفخ الله الروح في آدم وهي من ذاته أسجد له الملائكة لأنه بهذه النفخة أعطاه الخلافة "حرية التصرف".

فالله يقضي والإنسان يقضي، والله يعلم والإنسان متعلم.

٢ – أم الكتاب هي رسالة محمد (ص) وهي من كتاب الله، وقد جاء القرآن تصديقا لها.

تحتوي رسالة محمد (ص) على عدة فروع هي:

١– الحدود (التشريعات) كالإرث

٢– الشعائر كالصلاة والزكاة

٣– القيم الإنسانية كَبرِّ الوالدين، وهي التي جاءت في الفرقان العام والخاص. بما فيها من محرمات عينية أبدية كتحريم قتل النفس، وبما فيها من منهيات ظرفية كمنع التجسس والغيبة.

٤– مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لا أريد هنا الخوض في تفصيلات أم الكتاب لأننا أفردنا لها فصلاً خاصاً بها في الباب الثالث، ولكن أقول أن هذه هي الرسالة التي أصبح بها محمد (ص) رسولاً، فوجبت طاعته على نوعين: طاعة متصلة قال فيها تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ..} (آل عمران ٣٢)، وطاعة منفصلة قال فيها تعالى {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا..} (المائدة ٩٢). والطاعة المتصلة للرسول

تكون في حياته وبعد مماته لأنها مرتبطة بطاعة الله، وتتمثل باتباع منهجه الحنيفي في تطبيق الرسالة. أما الطاعة المنفصلة للرسول فتتمثل في طاعته في حياته فقط لهذا تم فصلها عن طاعة الله وربطها من جهة أخرى بطاعة أولي الأمر، وقد أطاعه أتباعه من أهل زمانه في اجتهاداته العينية الظرفية التي اجتهدها في تطبيق الرسالة طاعة منفصلة أي في حياته فقط.

لقد كان تطبيق محمد (ص) لأحكام أم الكتاب في شبه جزيرة العرب في القرن السابع هو الاحتمال الأول لتطبيق الرسالة وفقاً للشروط الموضوعية زماناً ومكاناً، وقد فصلنا الحديث عن هذا الموضوع في كتابنا "السنة الرسولية والسنة النبوية: رؤية جديدة"، بحيث بيّنا فيه كيف جاءت طاعته بنوعيها المتصلة والمنفصلة.

لكنني أريد أن أبيّن أن الآيات التي تبدأ بعبارة "ياأيها النبي" تعتبر من القصص المحمدي وليست من الرسالة. لذا فهي لا تتضمن أحكاماً تشريعية بل تتضمن تعليمات إجرائية عامة لها علاقة بأعراف وتقاليد المجتمع آنذاك أو حالات خاصة للنبي أتيحت له من مقام النبوة.

قلنا إن لفظة "الآيات البينات" جاءت للقرآن، وشرحنا مفهوم البينات بأنها القوانين الكونية البينة أي الواضحة في ذاتها. أما الآيات المبيّنات أي المبيّنات لغيرها فهي لأم الكتاب، وجاءت في أمور تتعلق بأحكام ظرفية من أحكام أم الكتاب مثل الزنا. وقد وردت لفظة "مبينة" بصيغة المفرد مع الفاحشة فقط في قوله تعالى {.. إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ..} (النساء ١٩). وقوله {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ..} (الأحزاب ٣٠). وقوله {.. وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ..} (الطلاق ١). هنا نلاحظ أن الفاحشة العلنية بحاجة إلى ظروف وملابسات تبينها. وبما أن الزنا مرتبط بأمور ظرفية، فقد بيَّنَ هذه الأمور الظرفية والشروط اللازمة لإقامة حد رمي المحصنات والشهادة والملاعنة في الآيات (٤ – ٩) من سورة النور، ثم أتبع ذلك بقوله {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ..}. وعندما ذكر الفاحشة المبينة في الآية رقم ١ من سورة الطلاق ذكر بعدها آيات من أحكام الرسالة تتعلق بالعدة والعلاقات الأسرية (٢، ٤، ٦، ٧)، لذا قال في آخر سورة الطلاق {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ..} (الطلاق ١١).

٣ ـ تفصيل الكتاب

– {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧).

– {.. مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف ١١١).

– {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود ١).

– {أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} (الأنعام ١١٤).

هذه الآيات تتحدث عن التفصيل، ولكن يجب أن نميّز بين نوعين من التفصيل من خلال البدء بالبحث عن المعنى اللغوي للكلمة. فقد اشتق التفصيل من "ف ص ل" وهو أصل صحيح يدل على تمييز الشيء من الشيء وإبانته عنه "ابن فارس م٤ ص٥٠٥". وعلى هذا المعنى فللتفصيل يحمل وجهين:

١– الوجه الأول: التفصيل بمعنى الشرح: وقد سبق لي أن ذكرت الآيات التي تتحدث عن الكتاب بأن فيه محكماً ومتشابهاً والتي تذكر أن القرآن جعل عربياً وأنزل عربياً، وأن أم الكتاب عربية وأن القرآن لا يمسه إلا المطهرون، هذه الآيات تشرح محتويات الكتاب، لذا فهي لا محكمة ولا متشابهة أي ليست أحكاماً وليست قرآناً، وتسمى تفصيل الكتاب في قوله تعالى: {وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. كما جاء التفصيل بمعنى الشرح في قوله تعالى في آخر سورة يوسف {.. وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ..}.

٢– الوجه الثاني: الفصل المادي للأشياء زمانياً أو مكانياً، أي أن تأتي أحداث متتالية مفصولة زمنياً بعضها عن بعض كأن نقول: الفصل الدراسي الأول والفصل الدراسي الثاني، فهذا يعني أن هناك فاصلاً زمنياً فصل بينهما وأنهما جاءا بالتتالي. وبهذا المعنى جاء قوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} (الأعراف ١٣٣) ليذكر خمس آيات من البينات التسع التي جاءت إلى موسى، ثم ليبين أن هذه الآيات الخمس كانت آيات مفصلات أي مفصولاً بعضها عن بعض. إذ جاء الطوفان أولاً ثم تلاه الجراد وهكذا حتى الدم، وهناك أيضاً الفصل المكاني أي فصل آيات الكتاب بعضها عن بعض ووضعها في أماكن مختلفة من السور وعلى هذا الأساس نفهم قوله تعالى: {.. وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا..} (الأنعام ١١٤) أي أن الكتاب مفصل إلى ١١٤ سورة، كأن نقول ولله المثل الأعلى: إن كتاباً ما مؤلف من فصلين أو ثلاثة فصول. هذا ليبين أن فصل الآيات بعضها عن بعض توقيفي وأن عدد الآيات وترتيبها في كل سورة توقيفي من عند الله.

أما قوله تعالى {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود ١) فهذه الآية تتحدث عن الفصل المكاني للكتاب المحكم الذي يمثل مجموع الآيات المحكمات "أم الكتاب" لذا وضع الكتاب في صيغة النكرة ثم عرفه بإضافة {أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ} وهو هنا الكتاب المحكم وليس المصحف. هذا الكتاب المحكم نرى أن أحكامه متوزعة في كل المصحف، فنرى أحكاماً في سورة البقرة ثم نرى أحكاماً أخرى في سورة النساء والمائدة.. الخ وهذا ما لا نراه في الكتب الإنسانية، فعندما نقرأ أحكام الدستور لدولة ما، نرى أن هذه الأحكام تحمل صفة التتالي فنرى المادة الأولى تتلوها المادة الثانية وهكذا. ولكن في التنزيل الحكيم نرى حكماً ما تتلوه آية كونية ثم قصص ثم حكم آخر وهكذا. هذا الفصل في الآيات المحكمات بعضها عن بعض إنما هو من عند الله، بدليل أنه أتبعها بقوله {ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}.

فإذا سأل سائل: ماذا وضع بين آيات الكتاب المحكم؟ جاءت الإجابة على هذا السؤال في سورة فصلت في قوله: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (فصلت ٣).

لنرى الآن الربط:

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}. فصيغة "قرآناً عربياً" هي حال لفعل فصلت وليست وصفاً لكلمة "كتاب"، أي أن آيات الكتاب المحكم فُصل بعضها عن بعض ووضع بينها القرآن وفاعل الفصل هو الله سبحانه لقوله تعالى {مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}.

إن التيه الأكبر في كتب التفاسير هو أن أصحابها لم يربطوا بين قوله تعالى في الآية ٧ من آل عمران {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} نوع الآية: "تفصيل الكتاب، لا محكم ولا متشابه".

وقوله تعالى في الآية ١ من سورة هود {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} نوع الآية: تفصيل الكتاب و"الر" من أصوات السبع المثاني.

والآية ٣ من سورة فصلت {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} نوع الآية (تفصيل الكتاب).

وقوله تعالى في الآية ٢٣ من سورة الزمر: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ..} (نوع الآية: تفصيل الكتاب).

إن من الخطأ الظن بأن الكتاب المقصود بهذه الآيات المذكورة أعلاه هو نفسه، أي هو الموجود ما بين دفتي المصحف، فبدون هذا التفريق لا يمكن وضع منهج علمي لفهم الكتاب من أحكام وقرآن وتفصيل الكتاب.

نأتي الآن لنسأل السؤال التالي: ما هي الغايات التي فصل الكتاب من أجلها على هذا الشكل. أي لماذا تداخل المتشابه مع تفصيل الكتاب بين آيات المحكم، ولماذا تم تفصيل الكتاب إلى هذا العدد والمواقع من السور والآيات؟

الهدف الأول الذي نراه هو أن الآيات المحكمات قابلة للتزوير، وليس فيها أي إعجاز، وقد حصل ذلك فعلاً عند اليهود. إذ نرى عندهم أحكاماً جاء بها أحبارهم، واجتهادات أضيفت إلى الأحكام التي جاءت إلى موسى إضافة. وفي هذا قال تعالى {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ..} (البقرة ٧٩) وقد قلت: إن الكتاب بالنسبة لليهود والنصارى هو الأحكام فقط. أما الشكل الذي وضع به القرآن والتفصيل بين آيات الأحكام فإنه يمنع أي اجتهاد في الأحكام من الدخول داخل هذه الأحكام، لأن عدد الآيات وترتيبها في السورة الواحدة المؤلفة من محكم ومتشابه ولا محكم ولا متشابه مضبوطٌ تماماً وموقع كل آية مضبوطٌ تماماً، وهذا ما أكده سبحانه بقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ..} (المائدة ٤٨). فالكتاب الحق هو القرآن وهو النبوة مع تفصيل الكتاب، جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، وأم الكتاب هي من الكتاب حيث تشكل مع القرآن الكتاب. أي أن الوظيفة الثانية للقرآن بعد تصديق أم الكتاب "الذي بين يديه" هي الهيمنة على أم الكتاب. والهيمنة في اللسان العربي تعني الحفظ والرقابة فنقول: هيمن الطير على فراخه عندما يفرد جناحيه فوقهم ليحفظهم. ومنه جاء اسم الله "المهيمن" وهو الحافظ والرقيب.

الناحية الأخيرة التي نراها في تفصيل الكتاب هذا التداخل في المواضيع في السورة الواحدة، فنرى قصة موسى في أكثر من موضع، وكذلك آيات خلق الإنسان وخلق الكون التي نراها متداخلة مع غيرها ومتناثرة ضمن نسق لا ندري إلى الآن الآلية الرياضياتية لهذا النسق، ولكن الذي نقوله هو ما يلي:

إذا نظرنا إلى جسم الإنسان وهو أكمل المخلوقات المعروفة رأينا أن أعضاءه متداخل بعضها ببعض، فهناك الأجهزة والأعضاء المختلفة لهذه الأجهزة، ثم نرى أيضاً أن الأجهزة المختلفة متداخل بعضها ببعض، فلا نرى الجلد وحده والعظام وحدها والعضلات وحدها وكذلك الأعصاب والأوردة والشرايين، كل هذا متداخل بعضه ببعض، ولا نرى في الإنسان طبقة كاملة من العظام

تليها طبقة كاملة من الأوعية الدموية تليها طبقة كاملة من العضلات. ثم نجد ظاهرة التداخل هذه موجودة في الطبيعة، فالأحوال الجوية هي الحرارة والرطوبة والرياح ولكن هذه العناصر متداخل بعضها ببعض غير مفصولة مكاناً وزماناً. والذي صنع الإنسان والطبيعة هو الذي صاغ الإنزال وأمر بالتنزيل وفصّل الكتاب، ولابد من أن نرى التشابه العجيب لأن الناموس واحد. منذ ألف عام شاهد الإنسان الدم وقال عنه إنه سائل أحمر، والآن نرى في الدم كريات حمر وكريات بيض وصفائح وغيرها. وعندما نظر الأقدمون إلى القرآن شاهدوه كما شاهد الأقدمون الدم، والآن نحن نشاهده أكثر وضوحاً، ونعرف وظائف كل مركباته. والقرآن في صياغته، والكتاب في توزيع آياته وتفصيله معقد كتعقيد تركيب جسم الإنسان، وما زلنا إلى اليوم نكتشف الجديد وأمامنا الكثير الكثير لنبحث عنه ونعلمه.

النتيجة الأساسية التي يمكننا أن نستنتجها من تفصيل الكتاب أنه يمكن أن تكون هناك سورة فيها قرآن فقط، وهذا حاصل فعلا لوجود سور في الكتاب كلها قرآن، كما يمكن أن تكون هناك سورة فيها قرآن وأم كتاب معا، وهذا كذلك حاصل فعلا بوجود سور في الكتاب تم فيها الجمع بين القرآن وأم الكتاب معاً، لكن بالمقابل لا يمكن أن تكون هناك سورة فيها أم كتاب فقط، لأن الآيات المحكمات – كما ذكرنا – قابلة للتزوير وليس فيها أي إعجاز، لذا فقد تم فصلها بالآيات المتشابهات لتصديقها وهذه هي إحدى وظائف الآيات القرآنية المتشابهة. وهذا يدفعنا إلى توضيح مسألة في غاية الأهمية بالإجابة على السؤال التالي: طالما أنه لا يمكن أن تكون هناك سورة محكمة فلماذا قال تعالى {وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} (محمد ٢٠)؟ لقد ذهب المفسرون في تعريف هذه السورة بالاعتماد على ما رواه قتادة كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة (تفسير الطبري:ج٢٢/ ص١٧٥)، وذهب البيضاوي في تفسيره لها إلى القول بأن معنى سورة محكمة: مبينة لا تشابه فيها (أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٥ ص١٩٨)، وقال فيها القرطبي: فإذا أنزلت سورة محكمة لا نسخ فيها (تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٤٣)، وقال فيها الألوسي: والمراد بالمحكمة مبينة لا تشابه ولااحتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وفسرها الزمخشري بغير منسوخة الأحكام (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٩ ص١٤٤)، بينما ذهب الطاهر ابن عاشور في تفسيرها إلى القول: وصف السورة بالمحكمة باعتبار وصف آياتها بالإحكام، أي عدم التشابه وانتفاء الاحتمال كما دلت عليه مقابلة المحكمات بالمتشابهات في قوله تعالى {.. مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ..} (آل عمران ٧) (التحرير

والتنوير ج١٣ ص٤١٧)، وعمموا مفهوم السورة المحكمة على كل سورة ورد فيها الجهاد بناء على قول قتادة. لكن علينا أن نوضح هل المراد من وصفه تعالى لهذه السورة بالمحكمة يعني أنها من أم الكتاب تتضمن تشريعات تستنبط منها الأحكام كما ذهب إلى ذلك البيضاوي والألوسي والطاهر بن عاشور وغيرهم، ثم تعميم هذا الحكم على كل السور التي ذكر فيها القتال؟ أم يجب أن تفهم على غير هذا النحو؟ علماً أنهم لم يتفقوا جميعاً على أنها محكمة بالمفهوم المقابل للمتشابه بل منهم من رأى أنها محكمة بالمفهوم المقابل للنسخ، أي عدم ورود النسخ لأحكامها، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري والقرطبي.

ونحن وإن كنا نوافقهم على أن التنزيل الحكيم قد وصف هذه السورة بالمحكمة، لكننا نختلف معهم في دلالة مفردة "محكمة" الواردة في وصفها لفرق دقيق وحساس بين ما فهموه من معنى إحكام السورة وبين ما فهمناه نحن استنتاجاً من قراءتنا لآية محمد ٢٠. ونختلف معهم في تعميمهم بأن كل سورة ذكر فيها القتال هي محكمة بغض النظر عن الموضوع الذي تتضمنه. ونختلف معهم في أن الأحكام في الآية مقابل التشابه. فنحن نرى أن آية محمد ٢٠ تشير إلى سورة التوبة، وتحديداً إلى الآية ٨٦ منها. ونرى أنها تصور لنا جملة من النقاط بأسلوب موجز وواضح معاً تميز به التنزيل الحكيم. فالذين آمنوا يتمنون أن تنزل عليهم سورة تتصف بصفتين: الأولى أن تكون محكمة، والثانية أن يذكر فيها القتال. فإن سألنا سائل: كيف عرفت صفات السورة المطلوبة وهم لم يذكروها؟ نقول: لقد ذكرتها الآية بعد ذلك فأغنت عن ذكرها في البدء. ولكن لماذا تمنى الذين آمنوا أن تنزل عليهم سورة محكمة ويذكر فيها القتال؟ والجواب: لأن بينهم منافقين في قلوبهم مرض، اعتبروا أن الجهاد المأمور به في آية التوبة ٨٦ لا يشمل القتال. فتمنى الذين آمنوا أن تنزل سورة محكمة، أي متماسكة وواضحة وحاسمة، تذكر القتال وتأمر به صراحة ليتوقف الجدل. هذا ما تمنّاه الذين آمنوا، فماذا كان جوابه سبحانه؟ لقد كان جوابه: المشكلة مع أهل النفاق المتعللين بالعلل والمتسترين بالأعذار لا تنحلُّ بإنزال سورة محكمة ويذكر فيها القتال، لأن في قلوبهم مرض يمنعهم من الإيمان كما في البقرة ١٠، ويدفعهم إلى اتخاذ اليهود والنصارى أولياء كما في المائدة ٥٢ ويعرضهم للزهو بأعمالهم وعلى رأسها بث روح اليأس بين المؤمنين من جدوى القتال كما في الأنفال ٤٧، ٤٨. ونلاحظ في الجواب ثلاثة مفاتيح تعين المتأمل على فهم الآية. أولها إذا الظرفية في عبارة "فإذا أنزلت سورة" التي تشير إلى أنه جرى فعلاً إنزال سورة ذكر فيها القتال هي سورة التوبة، وتحديداً في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (الآية ١٢٣). ثانيها كلمة "محكمة" التي لا علاقة لها بالتقسيم الوارد في آل عمران ٧ الذي يقسم

آيات التنزيل الحكيم إلى محكم ومتشابه وتفصيل. تماماً مثل قوله تعالى {.. وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ..} (الأنعام ١٤١)، الذي لاعلاقة له أيضاً بالمتشابه الوارد في آل عمران ٧. لقد جاءت كلمة "محكمة" هنا بمعناها الأصلي في اللسان أي الأحكام المتماسك الواضح، بدليل – وننتقل هنا إلى المفتاح الثالث – الواو في عبارة "ويذكر فيها القتال" سواء أكانت واو العطف أم واو الحال، إذ لو جاءت كلمة "محكمة" بمعناها الاصطلاحي، أي من الآيات المحكمات التي تتضمن أحكاماً، لما بقيت حاجة لهذه الواو، لتصبح العبارة (وإذا نزلت سورة محكمة يذكر فيها القتال).

نخلص بعد هذا كله إلى ما قاله قتادة "كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة" واعتمده الطبري في تفسيره، الذي نراه مغلوطاً من جانب ومبتوراً من جانب آخر. أما المغلوط فهو قوله "كل سورة" والصحيح عندنا أن يقول "كل آية" لأن السور – كما سبق أن شرحنا – يتداخل فيها المحكم بالمتشابه بالتفصيل لتجسيد الإعجاز. وأما المبتور فهو تخصيص الإحكام بموضوع بعينه هو الجهاد، بينما هو عام في جميع التكاليف الأخرى المأمور بها كالصلاة والزكاة والصوم، والمنهي عنها كقتل النفس والحسد والنميمة والغيبة والتجسس.

فإذا نظرنا في آيات الجهاد والقتال، وتحديداً في آيتي محمد ٢٠ والتوبة ٨٦، نجد أنها موجهة لمن عاصر الرسول وهم المتلقي الأول لها، وأن الآيتين تبينان نوع الموضوع الذي تخوضان فيه ألا وهو موضوع القتال أو الجهاد وتكرار ذكره في محلين دليل على أن المقصد من ذلك هو تبيان الموضوع بشكل دقيق لا يقبل الشك. وسورة التوبة هي الوحيدة في التنزيل الحكيم التي تم فيها تحديد الموضوع بدقة دون سائر السور الأخرى، والخطاب كما توضحه الآيتان السابقتان موجه لأهل ذلك العصر تحديداً، تحمل بالنسبة لهم أمراً إلهياً بالقتال، فهي فعلا محكمة المعنى بالنسبة لهم لأنهم كانوا يعايشون ذلك الحدث، وقد بين الله فيها وضع المنافقين الذين تخلفوا عن القتال. ولكن هل الأمر سواء بالنسبة لمن تلقاها بعدهم من العصور المتلاحقة، طبعا لا!! لأن من تلقاها بعدهم صارت بالنسبة له من القصص المحمدي الذي تؤخذ منه العبرة فقط، ولم تعد تملك صفة الإحكام بل صارت تملك صفة التشابه، وهنا تظهر القدرة الإلهية في الوحي، بتنزيله بصيغة مطلقة تظهر أنه لا يمكن أن يكون إلا من الله. فعدم تحديد صنف هذه السورة أهو محكم أم متشابه فيه فتح لمجال حركية المحتوى وثبات النص، هذه الحركية الدائرة في فلك تطور المعرفة الإنسانية. فمتلقي هذه السورة، ممن كان على عهد البعثة المحمدية، لا يمكن أن يصنفها بأنها من المتشابه لأنها تقدم وصفاً لحال كان يعيشه في تلك الفترة، بل وفي لحظة تاريخية معينة من تلك الفترة، وبالتالي فإن هذا الحدث التاريخي الآني غير المتكرر بأي شكل من الأشكال لاستحالة توفر الشروط الموضوعية لتكراره تاريخياً هو واقع

حال يراه بعينيه ويتفاعل معه بوجدانه فهو ليس نبوءة بالنسبة له وليس قصصاً بل هو محكم، فيه تشريع تستنتج منه أفعال تطبق وفق ظروفها الموضوعية. أما بالنسبة لمتلقي هذه الآيات بعد انقضاء فترة أحداثها، وخصوصاً بعد عصور وعصور من إنزالها، فإنه لا يمكن أن يحكم عليها بأنها محكمة لأنها أصبحت أرشيفاً تاريخياً في الإمام المبين، وصارت بذلك من القرآن باندراجها في القصص المحمدي، لذا فهو سيتعامل معها تعامله مع المتشابه عموماً لاستخلاص العبرة منها فقط، ولا يعتبرها تشريعاً، وهنا تتجلى عظمة ودقة السياق الإلهي في التنزيل الحكيم وصلاحيته الأبدية، فواو العطف وحدها كانت كافية لتوضيح أن السورة محكمة، أي أحادية الموضوع بغض النظر عن نوعه، حيث ذكر دون أي تصنيف ليترك تصنيفه للمتلقي، لأن السورة بعد نزولها انتقلت إلى الإمام المبين وصارت حتمية تاريخية فريدة الشروط، وبالتالي صارت عند غير من عايشها قصصاً متشابهاً يحتمل حركية المحتوى في دلالته لاستخلاص العبرة. وقد كنا أشرنا إلى أن القصص المحمدي قد تلازم فيه الإنزال والتنزيل لخصوصيته عن بقية القصص وعن باقي أجزاء القرآن الأخرى لأنه كان في مرحلة الأرشفة، وبالتالي فإن أحداثه لم تكن سابقة الوقوع عن نزول الوحي كما هو حال باقي القصص القرآني بل كانت تحدث على طول مسيرة البعثة المحمدية مع التتبع الإلهي لها وأرشفتها في الإمام المبين. وبالتالي جميع آيات وسور القصص المحمدي تلازم فيها الإنزال والتنزيل كآل عمران ومحمد والأحزاب والفتح، بما في ذلك الآيات التي وردت خطاباً له (ص) بصيغة: "يا أيها النبي" تحمل تعليمات إما عامة لمجتمعه تراعى فيها أعراف وتقاليد المجتمع أو تعليمات خاصة به كنبي، وفي كلا الحالين هي ظرفية ولها علاقة بظروف مجتمعه وشروطه الموضوعية وعاداته وتقاليده وأموره المتعلقة بالحرب والقتال وتسيير المجتمع، وتعتبر بالنسبة لمن تلقاها في فترة نزولها من قبيل الأخبار التي عايشوها، أما بالنسبة لمن بعدهم فتصبح أنباء تدخل في نطاق المتشابه وتصنف في آيات النبوة أي من القرآن. وهذا يؤكد ما ذكرناه في البداية من أنه لا يمكن أن تكون هناك سورة محكمة كاملة دون اشتمالها على آيات متشابهات، فهذه السورة، كما هو الحال بالنسبة لباقي سور القصص المحمدي، تأرجحت آياتها بين المحكم والمتشابه، لأن القصص المحمدي في تلك الحقبة كان في فترة الأرشفة محكما "أخبارا" ثم انتقل إلى التشابه بعد انقطاع الوحي ووفاة الرسول فصار من قبيل الأنباء. ونرى أيضاً أن السبب في كون هذه السورة هي الوحيدة في التنزيل الحكيم التي لا تبدأ بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" راجع إلى كونها هي السورة الوحيدة من القصص المحمدي التي انتقلت بكاملها من نطاق المحكم إلى نطاق المتشابه كما بينا لوحدة موضوعها، فهي بذلك المثال الذي من خلاله أوضح لنا الله عز وجل في تنزيله كيفية انتقال

القصص المحمدي من محكم إلى متشابه ليبين لنا الخيارات الإنسانية وتمتع الإنسان بكل الحرية في أفعاله الواعية غير المكتوبة سلفاً والتي لا تتم أرشفتها في الإمام المبين إلا بعد حدوثها، ولذلك دخل القصص المحمدى نطاق المتشابه بعد حدوثه وأرشفته أي أصبح من القرآن "النبوة" حين صار واقعاً حتمياً. ولهذا عومل القصص المحمدي معاملة متميزة عن القصص القرآني حيث تلازم فيه الإنزال والتنزيل معاً، ولم يحصل له إنزال مسبق في ليلة القدر كما حصل لباقي القصص القرآني.

ولو سألني سائل: هل عدد آيات المتشابه "القرآن" أكثر أم عدد آيات المحكم "أم الكتاب"؟ لقلت: إن عدد آيات المتشابه أكثر بكثير من عدد آيات المحكم "أم الكتاب" لأن هناك أكثر من سورة واحدة في الكتاب كلها قرآن كما أن القصص القرآني بما في ذلك القصص المحمدي كله قرآن أي يدخل في إطار المتشابه.

بالرجوع إلى موضوع أم الكتاب فقد أنزلت عربية بدلالة قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..} (الرعد ٣٧)، وكذلك القرآن بدلالة قوله تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف ٢). فلو جعل القرآن فقط أعجمياً لأصبح في الكتاب لغتان: القرآن أعجمي وأم الكتاب وتفصيل الكتاب باللسان العربي. أي يصبح الكتاب بلغتين عربية وأعجمية وآيات متداخلة بلسانين، الرسالة وتفصيل الكتاب عربية حيث أن في الرسالة وتفصيل الكتاب مع القصص المحمدي تلازم فيها الإنزال والتنزيل ولايوجد فيها جعل، والقرآن أعجمي فوجب فصل بعضهما عن بعض. وفي هذا المجال بالضبط يقول تعالى {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ..} (فصلت ٤٤). لاحظ هنا عبارة "فصلت آياته" أي فصل بعضها عن بعض، والهاء في "آياته" تعود على مجمل التنزيل كله الذي سماه "الذكر" في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت ٤١، ٤٢). وهل يمكن أن يجعل القرآن أعجمياً؟ الجواب: نعم، لسببين: الأول، هو أن القرآن عدا القصص المحمدي لخصوصيته كما أوضحنا، بكل أقسامه الأخرى له وجود مسبق قبل أن يكون عربياً وإنما جعل عربياً دفعة واحدة في الإنزال. والثاني، أن مهمة النبي (ص) كانت نقل القرآن إلى الناس دون تأويل، وفي هذا كان عجب العرب بأن ينزل القرآن على محمد (ص) في شبه جزيرة العرب، والعرب قوم متخلفون عن جيرانهم من فرس وروم.

كان الروم والفرس متقدمين من الناحية العلمية والحضارية على العرب بدلالة قوله تعالى {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (الزخرف ٣١). لاحظ أن هذه الآية جاءت حول القرآن فقط، وليس حول أم الكتاب. والقريتان فيها هما الروم والفرس. فـ"القرية" مشتقة من

الأصل (ق ر و) ومنها جاء الاستقرار، والروم والفرس كانوا مؤهلين أكثر من العرب لاستقبال القرآن لهذا أتبعها بقوله {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ..} (الزخرف ٣٢). من هنا كثيراً ما كان يسبق إلى ظني أن المقصود بالقريتين إنما هو الفرس والروم، لا مكة والطائف كما زعم البعض.

وفعلاً، من الناحية الموضوعية، لو كان القرآن أعجمياً وبقية الكتاب عربياً لرأينا في السورة الواحدة آيات متداخلة آية عربية وأخرى أعجمية، ولانكشف التساؤل التالي: لماذا لم تفصل الآيات بعضها عن بعض العربية على حده والأعجمية على حده {ولَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}. وإنه لمن الوهم الكبير الظن بأن عبارة "أأعجمي وعربي" تعني أن القرآن أعجمي والنبي (ص) عربي لأنها لا تستقيم من الناحية اللغوية، إذ كيف يتم عطف القرآن على النبي؟ ولكن المعنى يستقيم تماماً عندما تعود جملة "أأعجمي وعربي" على الكتاب نفسه أي جزء منه أعجمي وجزء آخر عربي.

قد يسأل سائل: لماذا لم يقل: إن الكتاب كله – أي الذكر الموجود بين دفتي المصحف – أنزل عربياً دون هذه التفاصيل؟ أقول لسببين:

١– القرآن عامة بمعظم أجزائه عدا القصص المحمدي تلازم فيه الجعل والإنزال "جعل عربياً وأنزل عربياً" أي له وجود مسبق في لوح محفوظ وإمام مبين، أما أم الكتاب وتفصيل الكتاب فليس لهما وجود مسبق بل تلازم فيهما الإنزال والتنزيل ولايوجد فيهما جعل، مثل القصص المحمدي الذي تلازم فيه الإنزال والتنزيل دون جعل وعومل معاملة أم الكتاب، وقد أوضحنا سبب ذلك آنفاً فلا نعيد.

٢– هناك آيات في الكتاب غير عربية هي آيات السبع المثاني، فهي ليست بلسان عربي وإنما هي أصوات إنسانية، أي أن {الم * يس} ليست عربية ولا تركية ولا إنكليزية، بل هي ألفاظ مركبة من أصوات تتألف منها اللغات الإنسانية قاطبة. فمثلاً لفظة "يس" تتألف من صوتي الياء والسين وهما موجودان في كل ألسن أهل الأرض دون استثناء، وكذلك لفظة "الر" المؤلفة من أصوات الهمزة واللام والراء هي أصوات موجودة في كل لغات أهل الأرض فهذه الألفاظ ليست عربية ولا غير عربية، لأن اللفظة في لسان ما تتألف من أصوات "دال" ترتبط بمعنى في الذهن هو "المدلول" ولو كانت لفظة "الم" أو لفظة "يس" عربية لما مضى أربعة عشر قرناً على نزولها وما زلنا لا نفهمها، ونكتفي بالقول: الله أعلم بمرادها. وهناك مئات الآلاف بل الملايين أتقنوا اللسان العربي على مدار أربعة عشر قرناً. ولو كانت "الم" لفظة عربية لأدرك الإنسان العربي معناها في الذهن مباشرة لأنها كلمة تدخل ضمن مفردات لسانه، ولكن لا يوجد في اللسان العربي كلمة تلفظ "ألف لام ميم"

بل يوجد كلمة تلفظ "ألم" كقوله تعالى {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} (الانشراح ١). ولكن كلمة "ألم" في آية الإنشراح ١ تختلف تماماً عن آية "ألف لام ميم". وهكذا يظهر جلياً لماذا لم يقل: إن الكتاب كله أنزل عربياً.

يقول تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ..} (آل عمران ٧) هذه الآية صنفت الآيات في الكتاب إلى أكثر من نوعين. فلو قلنا: إن الكتاب فيه نوعان من الآيات محكم ومتشابه فقط لوجب أن تأتي عبارة {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} بصيغة التعريف أي "والأخر متشابهات" في هذه الحالة يفهم أن كل الآيات غير المحكمات هي متشابهات ولكن كونه وضع التشابه في حالة غير معرفة يفهم أن غير المحكم فيه متشابه ولكن ليس كله متشابهاً، فنستنتج بالضرورة أن هناك آيات في الكتاب لا محكمات ولا متشابهات، هذه الآيات هي تفصيل الكتاب حيث ورد في الكتاب آيات كثيرة تشرح محتويات الكتاب وأعتقد أن هذه المعضلة وقع فيها كثير ممن عملوا في علوم الكتاب.

وأوضح مثال على ذلك الآية رقم ٧ في سورة آل عمران والتي تقول: إن الكتاب فيه محكم وفيه متشابه في الآيات غير المحكمة. هذه الآية نفسها كيف تصنف: هل هي متشابهة؟ والجواب: لا، هي غير متشابهة لأنها هي التي أخبرتنا عن وجود المحكم والمتشابه. والاستنتاج المنطقي أنها آية من الكتاب تشرح محتوياته، هذا النوع من الآيات تم تصنيفها في الآية ٣٧ من سورة يونس في قوله: {.. وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي أن الآيات التي تشرح محتويات الكتاب وتصنيفاته هي تفصيل الكتاب وعددها في الكتاب ليس بالعدد القليل.

مثال آخر: الآية ٣٧ نفسها من سورة يونس، التي تقول إن هناك قرآناً وهناك تصديق الذي بين يديه وهناك تفصيل الكتاب، هي لا محكمة ولا متشابهة وتنتمي إلى زمرة الآيات التي تدخل تحت عنوان تفصيل الكتاب وكذلك آية الحجر ٨٧ {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ} ليست أحكاماً وليست قرآناً وليست من السبع المثاني لأنها تتكلم عن عطف القرآن على السبع المثاني وليست قصصاً فهي شارحة للمتشابه في الكتاب وهو القرآن والسبع المثاني فتدخل تحت بند تفصيل الكتاب. وقد أكد أن تفصيل الكتاب موحى من الله أيضاً وليس من النبي (ص) في قوله تعالى {.. وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ٣٧). هنا جاء تفصيل الكتاب بمعنى شرح محتويات الكتاب لا شرح أحكام الكتاب.

أما المعنى الثاني لتفصيل الكتاب فهو فصل آيات الكتاب بعضها عن بعض فصلاً مادياً. أي أن ترتيب الآيات وعددها في كل سورة هو أمر توقيفي من الله سبحانه وتعالى، فنرى أن سورة البقرة

فيها ٢٨٦ آية وآل عمران فيها ٢٠٠ آية وتسلسل الآيات في كل سورة لم يأتِ حسب نزولها بالضرورة بل تم ترتيبها وحياً. وقد جاء هذا المعنى المادي في الفصل لا في الشرح في قوله تعالى {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود ١)، وسيأتي شرح هذه الآية في حينه.

يبقى لدينا سؤال هام هو: هل آيات تفصيل الكتاب، مثل الآية رقم ٧ في آل عمران والآية رقم ٣٧ في سورة يونس، من النبوة أم من الرسالة؟ إنها قطعاً ليست من الرسالة، إذ ليس فيها أحكام ولا أوامر ولا نواه ولا مواعظ ولا وصايا، ويبقى أحد الاحتمالين:

الأول: أنها من النبوة لأن مواضيعها كلها إخبارية تعليمية، تدخل تحت بند النبوة وتشرح محتويات الكتاب ولكنها غير متشابهة.

الثاني: أنها ليست من النبوة ولا من الرسالة. وأنا أستبعد هذا الاحتمال حيث أن الكتاب الذي أوحي إلى محمد (ص) حوى النبوة والرسالة معاً. فمحمد (ص) نبي ورسول وله مقامان فقط: مقام النبوة ومقام الرسالة فلا يوجد أي مقام آخر إضافي نعطيه للنبي لكي يغطي تفصيل الكتاب، وبالتالي فآيات تفصيل الكتاب تدخل في النبوة ولكنها ليست متشابهة وليس لها علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين بل أوحيت مباشرة من الله تعالى.

٤ ـ أم الكتاب "الرسالة" كتاب الألوهية والقرآن والسبع المثاني "النبوة" كتاب الربوبية

ـ تعريف الألوهية والربوبية

يقرر سبحانه في التنزيل الحكيم أن الله إله ورب، فهو إله الناس في قوله تعالى {إِلَهِ النَّاسِ} (الناس٣) وهو رب العالمين في قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الفاتحة ١) وقوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ..} (محمد ١٩)، وهو رب المشرقين ورب المغربين كما في آية الرحمن ١٧ {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}. فما معنى مصطلح الرب ومصطلح الإله؟

ـ الربوبية

جاءت الرب في اللسان العربي من الملك والسيادة. فنقول: الأب رب الأسرة،أي مالكها وسيدها، وعلاقة الأب بالأسرة علاقة سيادة وملكية وسيطرة كقوله تعالى {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا

فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا..} (يوسف ٤١) وقوله {.. اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ..} (يوسف ٤٢). فإذا كان لزيد ثلاثة أبناء: الأول يطيعه، والثاني لا يطيعه ولا يعصيه، والثالث لا يعترف به أصلاً، فهل مواقف الأولاد الثلاثة تغيّر من حقيقة أن زيداً أبوهم؟ الربوبية حقيقة موضوعية خارج الوعي الإنساني تربط المخلوقات كلها بالخالق في علاقة سيطرة وملكية وسيادة صارمة لا تبديل فيها. فعندما ندرس قوانين الفيزياء والكيمياء والجاذبية فإننا ندرس قوانين الربوبية، لأنها قوانين صارمة تعمل خارج الوعي الإنساني، فالله هو رب الشجر والسموات والأرض، ورب الناس مؤمنهم وكافرهم شاءوا أم أبوا، عرفوا أم لم يعرفوا. لذا فعندما ادعى فرعون الربوبية وقال {.. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} (النازعات ٢٤) كان هذا الإدعاء إدعاء ملكية وسيادة بدليل قوله تعالى {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الزخرف ٥١) أي أن فرعون في ادعائه الربوبية، حسب أن مصر بأراضيها وأنهارها وسمائها ومزروعاتها وحيواناتها وسكانها هي ملكه الشخصي يتصرف بها كيف يشاء ومتى يشاء دون أن يعارضه أحد.

وعندما قال الله سبحانه وتعالى للملائكة {.. إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..} (البقرة ٣٠) فمن هو خليفة الله في الأرض غير الإنسان؟ فخلافة الإنسان لله في الأرض هي أنه أعطاه سلطة من سلطاته، وسلطان الله على المخلوقات هو من مقام الربوبية، أعطاه الله للإنسان فأصبح يملك الأرض والسماء ويتصرف بها وعلمه قوانين الربوبية في الأشياء فأصبح رباً لها، عرف الجاذبية وقوانين الدفع فصعد إلى القمر، ثم مع الزمن سيتصرف فيه بدلالة قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} (الحج ٦٥) وقوله تعالى {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} (لقمان ٢٠) وقوله {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الجاثية ١٣).

فالإنسان – مؤمناً كان أم كافراً – خليفة الله في الأرض من مقام الربوبية، جعله مالكاً لها ومسيطراً عليها ومتصرفاً بها ثم سيتصرف في السموات. فماذا أعطى الله للإنسان بالضبط لكي يصبح خليفة له؟ "أنظر مقالتي حول نفخة الروح من هذا الكتاب".

ـ الألوهية

بما أن الله أعطى الإنسان خلافته في الأرض من الربوبية، فقد طلب منه مقابل ذلك طاعة لأوامره ونواهيه. هذه الطاعة جاءت في الألوهية أي أن يعترف الإنسان بأن الله إلهه، وهذا الاعتراف يعبر عنه بطاعة أوامر الله.

فالربوبية – كما قلنا – علاقة صارمة بين الله وكل مخلوقاته وأعطيت للناس سواسية، أما الألوهية فهي اعتراف من العاقل فقط بالله وبتوحيده وبأوامره {.. أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (يوسف ٤٠). لاحظ هنا أن الخطاب موجه إلى العاقل فقط. ولكي يؤكد وحدانية الربوبية وأن الربوبية سيطرة وملكية وقهر قال: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (يوسف ٣٩) هنا نلاحظ كيف ذكر الوحدانية والقهر مع الربوبية. فالربوبية علاقة سيادة وملكية وعلاقة موضوعية صارمة لا خيار فيها. والألوهية علاقة طاعة اختيارية من العاقل فقط.

ونشير إلى أمر هام جداً هو أن الربوبية تسبق الألوهية، فقبل وجود العاقل لا يوجد ألوهية، وإنما وجدت مع العاقل لذا لا نرى في الكتاب صيغة "إلاه العالمين" أو "إلاه السموات والأرض" بل نرى صيغة "رب العالمين" "رب السموات والأرض".

ومن هنا جاء ادعاء فرعون الثاني، وهو إدعاء الألوهية الذي سبقه ادعاء الربوبية بقوله {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي..} (القصص ٣٨) هنا الخطاب للعاقل فقط في عبارة ياأيها الملأ. أما عبارة: ما علمت لكم من إله غيري، فجاءت طلباً للطاعة الكاملة من المخاطب العاقل، ولو سألته: لماذا الطاعة الكاملة؟ لأجاب من مقام الربوبية {.. مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} (غافر ٢٩) أي بما أنني أنا ربكم فإنكم سترون ما أرى، لأني أعرف مصالحكم أكثر مما تعرفونها أنتم أنفسكم. وعندما أعدم فرعون السحرة أعدمهم من مقام الربوبية لأنه مالكهم ولأنهم عصوه في مقام الألوهية {قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ..} (طه ٧١)، عصوه هم في الطاعة فأعدمهم بالملكية. لذا قال تعالى عن فرعون {فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} (النازعات ٢٥). فالأولى هنا هي ادعاء الربوبية والآخرة هي ادعاء الألوهية وهنا ذكر الآخرة قبل الأولى وهي الألوهية لأنها جاءت بعد قوله {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}.

فإذا تأملنا في التنزيل الحكيم نرى أن كل أوامر الله ونواهيه جاءت في أم الكتاب "الرسالة" وأن كل قوانين الربوبية الموضوعية الصارمة جاءت في القرآن "النبوة" ومن هنا طلب الله من الناس أن يقولوا "لا إله إلا الله" ولم يطلب منهم أن يقولوا "لارب إلا الله" لأن الله ربهم شاؤوا أم أبوا، ولأنهم لا يستطيعون أن يتحدوه في ربوبيته لهم. فالله رب الناس كافرهم ومؤمنهم ولهذا قال {كُلًّا نُمِدُّ

هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} (الإسراء ٢٠) فالله من مقام الربوبية يرزق المؤمن والكافر ويعطي المطر والغيث والشمس وكل قوانين الطبيعة للمؤمن والكافر على حد سواء. فإذا سأل سائل لماذا؟ فالجواب لأنه ربهم.

لاحظ قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (البقرة ١٢٦) فعندما دعا إبراهيم ربه أن يرزق من آمن بالله واليوم الآخر من أهل البيت الحرام كان رد الله عليه ''ومن كفر فأمتعه قليلاً'' وقليلاً هنا تعني في هذه الحياة الدنيا بدلالة قوله تعالى {.. فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} (التوبة ٣٨) وقوله {.. قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى..} (النساء ٧٧).

ثم نرى أيضاً أن الله لم يطلب من أحد الاعتراف بربوبيته، وكل الرسالات جاءت من أجل الألوهية لا من أجل الربوبية، ومن أجل أن يعترف العاقل بأن الله هو إلهه. فقد بدأ سبحانه آية آل عمران ١٨ بقوله {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ..} لاحظ الشهادة من الله والملائكة وأولو العلم. فإذا تصفحنا كل آيات الكتاب فلن نرى آية تقول: إن غير العاقل شهد لله بالألوهية، وأن خطاب الألوهية يعود دائماً للعاقل. ففي خطاب الرسل لأقوامهم كانت الألوهية هي العمود الفقري للخطاب:

- {.. قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ..} (البقرة ١٣٣).
- {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ..} (البقرة ١٦٣) لاحظ أن الخطاب للعاقل.
- {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ..} (المائدة ٧٣).
- {.. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} (الأنعام ١٩).
- {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ..} (الأنعام ١٠٢).

لاحظ هنا: ربكم ـــــــ خالق كل شيء.

لا إله إلا هو ـــــــ فاعبدوه.

فخالق كل شيء تعود على ربكم، واعبدوه تعود على لا إله إلا هو.

- {.. قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ..} (يونس ٩٠).
- {.. قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} (هود ٥٠).
- {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} (طه ١٤). لاحظ كيف أتبع العبادة بالألوهية.

- {وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ..} (النحل ٥١).
- {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} (الأنبياء ٢٩).
- {فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (المؤمنون ٣٢).
- {أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} (النمل ٦٠).
- {أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (النمل ٦١).
- {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..} (القصص ٨٨).

نلاحظ أنه عندما يذكر مقام الألوهية يذكره من باب أن قبول العاقل به، ومن باب أن يتخذ العاقل الله إلهاً.

- {.. وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} (الإسراء ٣٩).
- {.. فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا..} (الكهف ١٤).

لاحظ كيف ذكر الربوبية للسموات والأرض والألوهية لدعاء العاقل فقط.

- {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ..} (الفرقان ٦٨).
- {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} (الشعراء ٢٩).
- {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} (الشعراء ٢١٣).
- {.. قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ..} (الأعراف ١٣٨).

فإذا تصفحنا كل آيات الكتاب لا نرى صيغة "ولاتدع مع الله رباً آخر". ولا نجد صيغة "ألا تعبدوا إلا الرب".

وعندما دعا هود قومه قال {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (هود ٥٦).

لقد قال "الله ربي وربكم" فعلام الخلاف؟ كان الخلاف على الألوهية في قوله تعالى {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ} (هود ٥٠). قال "ما لكم من إله غيره". ولم يقل "ما لكم من رب غيره" لأن الأمر مفروغ منه بأن الله هو رب هود ورب قوم هود. فيجب علينا أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى هو رب محمد (ص) ورب أبي لهب، وأنه إله محمد (ص) ولكنه ليس بإله أبي لهب. إن أبا لهب لم يؤلهه ولم يعترف بألوهيته واتخذ آلهة غيره.

وبما أن مجال أوامر الله سبحانه وتعالى جاءت في أم الكتاب "الرسالة" فمن هنا نستنتج أن أم الكتاب هي كتاب الألوهية، وبما أن قوانين الكون الصارمة وظواهره جاءت في القرآن اعترف بها الناس أم لم يعترفوا فالقرآن هو كتاب الربوبية.

وبما أن أم الكتاب هي كتاب الألوهية وهو كتاب الله فقد قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} (فاطر ٢٩).

أما عن كتاب الربوبية فقال: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} (الكهف ٢٧).

إن ملاحظة الفرق الكبير بين نهاية الآية الأولى ونهاية الآية الثانية هامة جداً، فـ"يرجون تجارةً لن تبور" فيها رجاء، و"لن تجد من دونه ملتحداً" فيها حتمية.

وعندما ذكر موسى الآيات البينات التسع قال: {.. مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ..} (الإسراء ١٠٢). وهنا نلاحظ أيضاً أن الآيات البينات فيها الربوبية.

ونخلص إلى أن كتاب الرسالة "أم الكتاب" وكتاب النبوة والربوبية "القرآن" جمعا في المصحف مع آيات تفصيل الكتاب. وبما أن الحياة والموت والرزق والأجر من مقام الربوبية فقد قال: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء ١٠٩–١٢٧–١٤٥–١٦٤–١٨٠) {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (النمل ٢٦) أي رب الأمر والنهي.

– {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا} (النمل ٩١).

لاحظ عبارة: رب هذه البلدة.

– {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ..} (النبأ ٣٧).

– {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} (قريش ٣).

– {.. وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} (طه ٩٠).

وعندما جعل الله الإنسان خليفة في الأرض جعله من مقام الربوبية بدلالة قوله تعالى {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..} (البقرة ٣٠).

أما قوله عن النصارى بأنهم {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ..} (التوبة ٣١) فهو أن أحبار النصارى ورهبانهم مارسوا أمرين من اختصاص الربوبية لا يوجد فيهما طاعة وتشريع:

– الأمر الأول: أنهم في مرحلة من المراحل التاريخية صاروا يوزعون الجنة على الناس بصكوك وهذا من اختصاص الربوبية.

– الأمر الثاني: وهو قائم إلى اليوم في ظاهرة الاعتراف، فإذا اعترف المذنب فإن الراهب يحلله من الذنب وهذا من اختصاص الربوبية.

لذا فإننا نرى في الكتاب أن دعاء الإنسان إلى الله يأتي دائماً من مقام المملوك إلى المالك فيبدأ بربي، والمناداة تأتي دائماً من مقام الربوبية "ربي، ربنا" {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ..} (نوح ٢٨)

{.. رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً..} (البقرة ٢٠١) {.. يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة ٨٣). {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الأعراف ٢٣) {.. عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ..} (التحريم ٨). فتكفير السيئة والتحليل من الذنب هي من اختصاص الربوبية، هنا نفهم لماذا قال في آية التوبة ٣١ {أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} ولم يقل آلهة من دون الله.

وبما أن مقام الربوبية له وضع خاص لا يستطيع أي انسان أن يفعله فقد قال: {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا..} (آل عمران ٨٠) أي أن الملائكة والنبيين لا يغفرون لأحد ولا يوزعون الجنة أو النار على أحد.

إن توضيح الفرق بين مفهومي الألوهية والربوبية ينعكس بشكل مباشر على بنية الدولة. فالربوبية سلطة وتملك، والألوهية طاعة للقوانين والأحكام، والدولة ينعكس فيها هذان المصطلحان. فالدولة فيها السلطة والتملك وامتلاك مقادير الأمور وفيها الطاعة والولاء عن طريق القانون والأحكام، وقد انعكس هذان المفهومان على بنية الدولة من خلال التطور التاريخي للدول، وما القصص القرآني إلا تفاعل الإنسان مع قوانين الربوبية في المعرفة "النبوات" ومع أحكام الألوهية في الرسالات، ومن هنا يكتسب القصص هذه الأهمية.

٥ ـ العرب التبس عليهم التفريق بين الرسالة "أم الكتاب" والقصص المحمدي

ذكرنا أن الرسول محمد (ص) جاء بقفزة تشريعية لم تسبقها قفزات معرفية، حين جاء في مجتمع بدوي قبلي بعيد كل البعد عن الخضم الثقافي الذي كان سائدا عند أهل الكتاب وفي العالم من حولهم. وكانت هذه القفزة التشريعية متقدمة جداً عن الأرضية المعرفية للمجتمع الذي جاءت إليه، فلم يتمكن العرب من استيعاب هذه القفزة التشريعية، ولم يفهموا التنزيل الحكيم بشكل جلي، والتبس عليهم التفريق بين القرآن والرسالة، فالقرآن يحتاج لمستوى معرفي متقدم ولتفرغ ووضع حضاري معين وبحث علمي، لذا قال تعالى عن القرآن {وَقُرْآَنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ..} (الإسراء ١٠٦) قال "على الناس" ولم يقل على الذين اتقوا.

لهذا كلما زادت معاهد البحث العلمي وزاد عدد المتفرغين لها وزاد عدد الاختصاصات زاد فهم الناس للقرآن، مع أننا لا نؤيد الجمعيات الدينية والمراكز الثقافية التي تبحث بما يسمى بـ"الإعجاز

العلمي للقرآن" ذلك أن القرآن ليس دليلاً علمياً يوضع تحت منظار الدراسة لاستخلاص النظريات العلمية، بل هو دليل إيماني، وما تقدمه المعارف العلمية التي تتوصل إليها الإنسانية إنما تساعد على فهمه. هذه المعارف لم تكن متوفرة في عهد النبي (ص)، بدلالة أنه سبحانه أشار إليها بقوله {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآَنَ مَهْجُورًا} (الفرقان ٣٠). فقوم الرسول هم العرب، كل العرب، لاحظ قوله "إن قومي" ولو عنى المسلمين لقال "أمتي" لأن العرب قومه والمسلمين أمته. هذه الآية تنطبق على العرب بمن فيهم الصحابة والخلفاء الراشدين من أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب.

فإذا سألني سائل: ما دليلك على هذا؟ أقول:

١– بعد وفاة النبي (ص) حارب أبو بكر الصديق المرتدين من أجل الزكاة، وهي أمر تكليفي من أم الكتاب "الرسالة"، واستشهد في حرب الردة كثير من الصحابة، ومع ذلك كان أبو بكر الصديق واثقاً من قراره. في الوقت نفسه عندما سئل عن تفسير حرف من القرآن قال: "أي سماء تظلني وأي أرضٍ تُقِلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع؟ إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى" انظر تفسير الطبري ج١ ص٧٨. وتأمل قوله هذا، فهل تراه كان يقصد الزكاة أو الصلاة؟ وقرأ عمر بن الخطاب "رض" على المنبر قوله تعالى {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} (عبس ٣١) فقال: "ما الأب؟" ثم قال: إن هذا الكتاب فاعملوا عليه، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه" (فتح القدير للشوكاني ج٥ ص٣٧٦)، لاحظ أن تعليق عمر بن الخطاب كان على آية من القرآن وليس من الأحكام.

٢– لقد قال الذين كفروا من العرب عن القرآن فقط إنه سحر مبين {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأحقاف ٧). لماذا؟ وكيف فهم العرب مؤمنهم وكافرهم قوله تعالى {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} (الرحمن ١٩–٢٠)؟ أقول: لم يستوعبوها، فالكافر قال إنها سحر، والمؤمن آمن بها تسليماً.

٣– كان إيمان المؤمنين من العرب كالتالي {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ..} (يونس ٥٣) هكذا آمن العرب تسليماً بأنه حق كما جاء في هذه الآية.

٤– روى عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: "إنا لا نقول في القرآن شيئاً" رواه مالك في الموطأ. تُرى هل كان سعيد بن المسيب يقصد آيات الإرث أو المحارم أو الوضوء أو المداينة والتي كلها من المحكمات القابلة للفهم من كل الناس؟ لقد كان دقيقاً عندما قال: "إننا لا نقول في القرآن شيئاً".

هذا الموقف من العرب أيام النبي (ص) كان موقفاً علمياً من الناحية التاريخية، لأن القرآن كان كله غيباً وأنباء بالنسبة لهم، عدا القصص المحمدي الذي كان أخباراً بالنسبة لهم عاصروا أحداثها. كما أن النبي (ص) لم يؤول أية آيةً في زمانهم ولم تكن أرضيتهم العلمية تسمح لهم بالتأويل لذا قال تعالى عن الكافرين {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..} (يونس ٣٩). هذا الموقف التاريخي العلمي قدره الله لهم تقديراً كبيراً لأنهم سلموا بالقرآن تسليماً وآمنوا بأنه الحق، مع أنه كان غيباً بالنسبة لهم. هذا التقدير جاء في قوله تعالى {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} (الواقعة ١٠–١١–١٢–١٣–١٤) أي عند نزول القرآن آمن به من آمن تسليماً، وهؤلاء هم السابقون، وأعطاهم الله مكانة عالية بقوله {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}. أما قوله {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} فيعكس التطور العلمي والتاريخي لفهم القرآن. فالذين آمنوا بالقرآن تسليماً عند نزوله كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة إن لم يكونوا كلهم، لذا قال {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ}. ولكن بعد مرور الزمن وتقدم العلم فإن الناس الذين سيؤمنون تسليماً على طريقة الأولين سيكون عددهم أقل لأننا نعرف الآن معنى قوله تعالى {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} والناس كافرهم ومؤمنهم يؤمنون بها الآن تصديقاً لا تسليماً.

وعلينا ألاّ نفهم أن عبارة "وقليل من الآخرين" تعني أن المؤمنين من الآخرين سيكونون قلائل. هذا غير صحيح لأن الحقيقة الموضوعية تقول غير ذلك ولكن نسبة المؤمنين في الآخرين على طريقة الأولين ستكون قليلة.

أما بالنسبة للرسالة والتي جاءت كما قلنا كقفزة تشريعية سابقة لمستواهم المعرفي، فتطبيقهم لها كان تطبيقاً بدائياً بحكم أنه كان أول تطبيق للرسالة بعد نزولها مباشرة، فاهتموا وحرصوا على تطبيق الشعائر منها فقط في حدود مستواهم المعرفي، وأعطوها اهتماماً شديداً وبذلوا في ذلك كل وقتهم وجهدهم. كما أن عدم قدرتهم على فهم القرآن وفهم المستوى الحدودي للتشريع الذي جاء في الرسالة جعلهم غير قادرين على التفريق بين الرسالة والقصص الموجود في القرآن عامة بما فيه القصص المحمدي خاصة، فراحوا يستنبطون من آيات القصص الأحكام ويطبقونها على واقع حالهم، وهذا ناتج عن الالتباس الذي كان حاصلا لديهم في فهمهم للتنزيل الحكيم الناتج عن عدم قدرتهم المعرفية على فهم القرآن بأقسامه الموجودة في كل من اللوح والمحفوظ والإمام المبين بما في ذلك القصص، فأدى بهم هذا الالتباس إلى جعل كل آيات التنزيل الحكيم قابلة لاستصدار الأحكام سواء منها تلك المتعلقة بالجزء الرسالي منه أو المتعلقة بالجزء النبوي القرآني، وهذا خطأ معرفي لأن القصص عامة عبارة عن أرشفة لتجارب إنسانية خصت مراحل معينة من تاريخ الإنسانية جاء

فيها الأنبياء والرسل للدفع بالمعرفة الإنسانية بقفزات إلى الأمام صاحبتها قفزات تشريعية، والأمر نفسه بالنسبة للقصص المحمدي. لكن العرب وخاصة بعد وفاة الرسول مباشرة، لم يتمكنوا من استيعاب أن ما جاء في القرآن من قصص محمدي هو من المتشابه وليس المحكم وقابل لاستخلاص العبر منه فقط، لأنهم كانوا حديثي عهد بالرسول وعاصروا معه مرحلة الأرشفة لقصصه، وهذا ما جعلهم غير قادرين على استيعاب الفرق بين فترة حياته (ص) وفترة ما بعد وفاته التي انتقلت بعدها الإنسانية مباشرة إلى مرحلة تاريخية مغايرة، ثم تبعهم على ذلك من بعدهم واستمر الفقهاء يستمدون الأحكام من كل آيات التنزيل الحكيم ومن حياة الجيل الذي عاصر الرسالة، فالتبس عليهم الأمر كثيرا مما اضطرهم إلى اعتماد أسباب النزول كعلم من العلوم باستنباط علة النزول ومقارنتها بواقع حالهم لإسقاط ما ظنوه في الآيات من أحكام على كل ما يمكن مقاربته على واقعهم، مع ما في ذلك من خلط كبير، لأنه لا يمكن تحقق نفس الشروط في واقعة إنسانية ما، فكل لحظة تاريخية هي فريدة من نوعها إنسانياً بظروفها الزمكانية الخاصة، ويستحيل مقايسة الوقائع بعضها على بعض وبالتالي يستحيل إسقاط نفس الحكم عليها. ويكفي للتدليل على ذلك كما قلنا سابقا أنه لا يمكن أخذ الحكم من آيات تروي حدثاً وقع فيه التدخل الإلهي مباشرة، لأن شروط هذا الحدث مرهونة بإرادة إلهية معينة خصت ذلك الحدث بظروف خاصة كمعركة بدر مثلا، لذا لا يمكن استخلاص الأحكام من القصص المحمدي وإسقاطها على ما يأتي بعدها من أحداث تاريخية بل يكتفى منه بالعبرة لأنه محل اعتبار فقط وليس قياساً.

٦ ـ القدر في القرآن والقضاء في أم الكتاب

بما أن آيات القرآن هي آيات قوانين الوجود وظواهر الطبيعة وأحداث التاريخ التي حصلت فعلاً، والتي تظهر التطور التاريخي الحتمي في اتجاه التقدم من خلالها، لأن الحدث التاريخي الإنساني قضاء قبل وقوعه يدخل في عالم الممكنات، وقدر بعد وقوعه ينتقل إلى عالم الحتميات، لذا جاء القصص من القرآن. فقوانين الكون حتمية صارمة وأحداث الإنسان بعد وقوعها تأخذ صفة الحتمية، والقدر هو الوجود الحتمي للأشياء والأحداث خارج الوعي الإنساني، أما القضاء فهو حركة إنسانية واعية بين النفي والإثبات ضمن هذا الوجود. فإذا تصفحنا كل آيات أم الكتاب نراها أوامر ونواهي ووصايا ونصائح وتعليمات جاءت حصراً للسلوك الإنساني، والإنسان له الخيار في أن يقوم بها أو لا يقوم، وهي مناط القضاء الإنساني وتدخل ضمن الحرية الإنسانية. وبما أن أوامر أم الكتاب فيها

حركة بين نفي وإثبات، أي نعم ولا، فالله سبحانه في أوامره لم يأمرنا إلا بالخير ونهانا عن الشر، ولكن لنا ملء الخيار في أن نأتمر بأوامره وننتهي بنواهيه بعد أن نعيها ونعلم بها. ومن هنا وجب أن تكون صياغتها سهلة الفهم ليتمكن كل الناس من ممارستها خاصتهم وعامتهم. ومن هنا كانت لا تحتوي على خاصية التشابه، فلا يمكن للناس أن يصوموا إذا لم يعلموا بالصوم أولاً، وإذا علموا به فلهم أن يقبلوه أو لا يقبلوه. أي أن أم الكتاب حتى تنفذ لها شرطان: العلم بها وقبولها، لأنها تعاليم إلهية تدخل ضمن القضاء الإنساني وليست قوانين ربانية موضوعية.

أما القرآن ففيه قوانين الوجود الموضوعي، وقد قال عنه إنه الحق. فالموت حق لا يتأثر – كظاهرة – بعلم الإنسان به وقبوله له، والشمس حق لا تتأثر بعلم الإنسان بها وقبوله لها، تماماً كالأحداث التاريخية التي تدخل ضمن الحتمية بعد وقوعها شئنا أم أبينا، علمنا بها أم جهلنا. ولهذا نقول: إن آيات القرآن من القدر، فالقدر وجود موضوعي والقضاء سلوك إنساني واعٍ.

من هذا المنطلق نفهم قوله تعالى:

١– {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} (النساء ٧٨).

٢– {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} (النساء ٧٩).

تبدأ آية النساء ٧٨ بعبارة "أينما تكونوا يدرككم الموت" لأن الموت حق لاعلاقة له بالحلال والحرام، وتنتهي بعبارة "فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً" لأن القرآن هو الحديث بدلالة قوله تعالى {أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ} (الواقعة ٨١). وهذه الآية تتحدث عن الوجود لا عن السلوك، وتتكلم عن المقدرات وجوداً، فجبريل وإبليس والحياة والموت كلاهما وجود من الله لذا قال {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ}. أما الآية ٧٩ فتتحدث عن الاختيار الإنساني، فالله أوجد جبريل وإبليس وكلاهما حق، ولا أحقية بالوجود لأحدهما دون الآخر، لكنا أمرنا باتباع جبريل دون اتباع إبليس {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} وبما أن أم الكتاب هي الأوامر والنواهي من رب العالمين للسلوك الإنساني حصراً، وهي التي تشكل رسالة محمد (ص) فقد أتبعها تعالى بعبارة "وأرسلناك للناس رسولاً" فالآية الأولى آية قدر "وجود" تتحدث عن القرآن، والثانية آية قضاء "سلوك" تتحدث عن أم الكتاب "الرسالة".

– ماذا يحدث لو اعتبرنا آية من آيات أم الكتاب قرآناً أو اعتبرنا آية من آيات القرآن أو تفصيل الكتاب أحكاماً؟

لنأخذ الآن آية من آيات أم الكتاب في السلوك ''قضاء'' ونعتبرها قرآناً ''حق – وجود''، ولتكن قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} (الإسراء ٢٣).

هذه الآية هي من آيات أم الكتاب ''الرسالة'' فيها أمر ونهي للإنسان العاقل، فعبادة الله وحده أمر للعاقل عطف عليها بر الوالدين. فإن اعتبرناها من القرآن تحولت عبادة الله وحده وبر الوالدين إلى حقيقة موضوعية خارج الوعي ونافذة حتماً بغض النظر عن قبولنا لها أو عدم قبولنا، كالموت وشروق الشمس، ويصبح معنى الآية كالتالي:

إن عبادة الله موضوعياً نافذة بغض النظر عن وعي الإنسان لها أو عدم وعيه أو كيف يمارسها، فالذي يعبد القمر فقد عبد الله، والذي يعبد الشمس فقد عبد الله، لأنه من المستحيل أن يعبد غير الله ''لا مبدل لكلماته'' وينتج عن ذلك إسقاط العقوبات والإرادة الإنسانية وإسقاط الحرية وتساوي الجنة والنار ونصل إلى مفهوم وحدة وصحة العبادات على اختلاف مشاربها توحيدية أو وثنية وتصبح عبادة الله كعبادة الأصنام لا فرق بينهما، وعبادة الله كعبادة فرعون.

لقد أخطأ ابن عربي خطأ قاتلا حين اعتبر عبارة ''وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه'' مع باقي آية الإسراء ٢٣ قرآناً نافذاً وكلمة من كلمات الله، ووصل إلى مفهوم وحدة العبادات عبر القول بوحدة الوجود وأسقط الإرادة الإنسانية ''إسقاط التدبير'' وحول الإسلام إلى مهزأة، حيث قال معلقاً على هذه الآية ''فما عبد غير الله في كل معبود'' [الفصوص ''فص كلمة سبوحية في كلمة نوحية''] فقضى على الإسلام عقيدة وأحكاماً قضاء مبرماً. ومإسقاط التدبير والتواكل والفكر الخرافي الموجود عند العرب والمسلمين حالياً إلا من النتائج المباشرة لهذا الخلط.

لنلاحظ كيف عطف بر الوالدين على عبادة الله في عبارة ''وبالوالدين إحساناً'' فإذا حكمنا أن هذه الآية قرآن فهذا يعني أن الذي يضرب والديه أو يجوعهما أو يشتمهما، والذي يطيعهما ويتلطف معهما بالكلام ويبرهما، هما سواء وكلا عمليهما من بر الوالدين، وأن الإنسان مهما فعل مع والديه فقد بَرَّ بهما لأنه موضوعياً لا يستطيع إلا أن يكون براً بهما.

فإذا أخذنا آية من آيات تفصيل الكتاب واعتبرناها من آيات أم الكتاب كقوله تعالى مثلاً {إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} (الواقعة ٧٧–٧٨–٧٩) واعتبرنا آية {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} من الأحكام فهذا يعني أنها تخاطب الإنسان العاقل ولا تعني غيره، وأنها مناط

الاختيار، وأصبحت حكماً شرعياً يخص الحائض والنفساء والجنب وهذا هراء حاصل فعلاً عند كثير من الناس، لأنه في هذه الحالة تم تحويل ""لا"" النافية في عبارة ""لا يمسه إلا المطهرون"" إلى ""لا"" الناهية. وتم تحويل ""قرآن كريم"" إلى مصحف منسوخ بحبر على ورق أو على جلد غزال أو على شريط كاسيت إضافة إلى الخلط بين المطهرين والمتطهرين وهذا غير هذا. فالملائكة مطهرون أي طاهرون تكوينياً والبشر متطهرون. هذا ما يترتب على عدم التفريق والخلط بين كلمات الله في القرآن وأوامر الله في الكتاب. ففي حالة فهم آية قرآن أو تفصيل على أنها أحكام يصبح السلوك الإسلامي وأحكامه غير مفهومة إطلاقاً، وينعدم كل ترابط في السلوك الإسلامي، وفي حال فهم آية من أم الكتاب على أنها قرآن تصبح العقيدة الإسلامية نوعاً من السخرية والمتناقضات لها أول وليس لها آخر، وكلتا الحالتين حاصلتان فعلاً في حياتنا اليوم.

لنأخذ مثالاً آخر الآيتين التاليتين:

– {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل ٩٠) هذه من آيات أم الكتاب فيها موعظة للإنسان.

– {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (الإسراء ١٦) وهذه من آيات القرآن تشرح قانون هلاك المدن والدول.

ولما كانت آية النحل ٩٠ من أم الكتاب فقد قال في آخرها { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

ولما كانت آية الإسراء ١٦ من القرآن فقد قال في آخرها {فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} ""قوله الحق"" أي فيها قانون موضوعي وليس موعظة أو وصية.

لقد احتار المفسرون في الربط بين الآيتين، في حين أنهّ لا رابط بينهما لأن المواضيع مختلفة تماماً. ففي آية النحل أمر ونهي للإنسان ""موعظة"" ""قانون أخلاقي"" بحيث يمكن للإنسان أن يأخذ بهما أو لا يأخذ، ولا تحتاج الآية إلى تأويل.

أما الآية الثانية فهي قانون موضوعي يعمل خارج الوعي لا علاقة له بقبول الإنسان أو عدم قبوله وتحتاج إلى تأويل، ومن الخطأ الفاحش الظن بأن آية الإسراء موعظة يأمر الله فيها وينهى.

٧ ـ الكتاب عند موسى وعيسى

لقد سمَّى التنزيل الحكيم مجموعة الأحكام التي جاءت إلى موسى وعيسى بالكتاب وبكتاب الله وذلك في قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (البقرة ١٠١).

وفي قوله تعالى عن عيسى {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} (مريم ٣٠). فالكتاب فيه الرسالة وأضاف إليه النبوة. وفي قوله عن موسى {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة ٥٣) هنا أيضاً الكتاب عبارة عن التشريع وأضيف إليه الفرقان.

وقوله تعالى {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة ٧٩) لاحظ أنه قال الكتاب وهو يريد التشريع فقط الذي جاء في الرسالة، ولهذا حذر من تقليده لأن التشريع يقلد ولا يخضع للتحدي والإعجاز. وقوله عن المسيح {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران ٤٨). لاحظ كيف أضاف التوراة والإنجيل إلى الكتاب والحكمة. إن مجمل هذه البنود الأربعة تشكل الكتاب المقدس عند النصارى. فالكتاب هو التشريع، والحكمة هي الوصايا، والتوراة نبوة موسى، والإنجيل نبوة عيسى.

أي أن مصطلح الكتاب ذو معنيين:

– المعنى الأول للكتاب (بالنسبة لموسى وعيسى): مجموعة التشريعات التي جاءت لهما. والرسالة والكتاب عند اليهود والنصارى تختلف عن التوراة والإنجيل بدلالة قوله تعالى {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران ٤٨). {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ..} (البقرة ٨٧) لاحظ كيف ربط الكتاب والرسالة عند موسى.

– المعنى الثاني للكتاب بالنسبة لمحمد (ص): مجموعة الآيات الموحاة التي تحتوي على رسالته ونبوته معاً، حيث سمى التشريع عند النبي (ص) "بأم الكتاب" أي أن الكتاب والفرقان عند موسى والكتاب والحكمة عند عيسى، يقابلهما أم الكتاب عند محمد (ص).

وطبقاً لما أخبرنا به الله فإن الكتاب جاء إلى ثلاثة رسل هم موسى وعيسى ومحمد (ص). فلماذا جاء الكتاب لهؤلاء الرسل الثلاثة مع أن هناك رسلاً غيرهم مثل شعيب وصالح وهود ونوح ولا نقول عنهم إنهم جاءهم الكتاب؟

فالكتاب، كما عرفناه، هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى النبي (ص) من الله وحياً، ويحوي الرسالة والنبوة معاً. فإذا نظرنا إلى الرسالة وجدناها مجموعة كاملة من التشريعات والتعليمات "كود تشريعي وقيمي"، وإذا نظرنا إلى النبوة وجدنا فيها مجموعة كاملة من العلم والمعلومات، على هذا المعنى ندرس الكتاب الذي جاءه (ص).

علما أنه جاءت إلى موسى مجموعة كاملة من التشريعات ''الرسالة'' سميت الكتاب، إضافة إلى مجموعة كاملة من علوم النبوة ومعلوماتها سميت ''التوراة''. وجاء مثل ذلك إلى عيسى الرسالة في الكتاب والنبوة في الإنجيل، وجاءت تشريعات كاملة إلى محمد (ص) سميت ''أم الكتاب''. وبما أن القرآن هو نبوة محمد فقط، والإنجيل نبوة عيسى فقط والتوراة نبوة موسى، ففي الكل التجانس في النبوة لذا عطف بعضها على بعض في قوله تعالى {.. وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ..} (التوبة ١١١). لاحظ كيف ذكر لفظة ''حقاً'' قبل ذكر كتب النبوة الثلاثة.

فإذا نظرنا إلى رسل مثل نوح رأينا أنه لا يوجد عندهم كتاب ''كود كامل تشريعي وأخلاقي'' مع مجموعة كاملة من المعلومات، فرسالة نوح كانت التوحيد والاستغفار فقط ونبوته صناعة الفلك والتبشير بالبنيان، ورسالة إسماعيل كانت الصلاة والزكاة لأهله فقط بدلالة قوله تعالى {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} (مريم ٥٥). ورسالة شعيب كانت في قوله تعالى {.. فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا..} (الأعراف٨٥)، {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} (الأعراف ٥٦)، {وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (البقرة ٦٠). قد ظن البعض أن عبارة ''ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها'' ومثلها عبارة ''ولا تعثوا في الأرض مفسدين'' تعليمات أخلاقية وهذا غير صحيح. فالفساد عكسه الإصلاح، وقولنا فسد الطعام يعني أن الطعام غير صالح للأكل، وقولنا فسدت السيارة يعني أنها بحاجة إلى إصلاح. فالفساد في الأشياء والوظائف، أما الفسوق ففي السلوك الإنساني، ويعني حصراً الخروج عن تعليمات رب العالمين كقوله تعالى عن إبليس {.. فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ..} (الكهف ٥٠). وعندما كانت امرأة زكريا عاقراً قال {.. وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ..} (الأنبياء ٩٠)، فهل كانت زوجه فاجرة فأصبحت تقية؟! أم كانت عاقراً فأصبحت ولوداً؟ وعندما نقول فسد جهاز الشرطة فهذا يعني أنه غير قادر على القيام بوظيفته التي أنشئ من أجلها، وفسدت المعدة أنها غير قادرة على الهضم. ففي نبوة شعيب جاءتنا معلومات وتعليمات في غاية الأهمية وما زلنا إلى يومنا هذا نعاني من عدم فهمها منها:

١– بعد إصلاح الأرض من إقامة جسور وطرق وشوارع ومزارع وأبنية وحدائق علينا أن لا نفسدها. لذا قال: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ..} (المائدة ٣٣).

٢– {.. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (البقرة ٦٠) فالعثو هو الإقامة في مكان ما وإفساده من جراء هذه الإقامة، ومنه جاءت كلمة العث أو العت وهي الحشرة التي تعيش في الملابس الصوفية

وتفسدها من جراء عيشها داخلها.

القصص القرآني تطور تاريخي في أكثر من ظاهرة علمية من حيث تاريخ المعارف الإنسانية عن طريق النبوات وتاريخ التشريع الإنساني عن طريق الرسالات. وقد ظل هذا التطور سارياً حتى جاء الرسل الثلاثة "أهل الكتاب" فجاءتهم مجموعة كاملة "كود كامل" من المعلومات والتشريعات كان آخرها كتاب الإسلام، فنسخ جزءاً من التشريعات السابقة له وثبت جزءاً آخر. أما النبوات فهي تطور في المعلومات بدأت من قوله تعالى لنوح {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..} (هود ٣٧). وتراكمت هذه المعلومات النبوية حتى محمد (ص) حيث جاءته "الحقيقة المطلقة ذات الفهم الإنساني النسبي" في القرآن.

فإذا طرحنا البعد التاريخي من أذهاننا من حيث المعرفة والتشريع الإنساني يصبح قصص القرآن غير قابل للفهم. ففي هذا البعد التاريخي يكمن التشابه في القصص أي نسبية الفهم.

لقد فصلت – بالنسبة لموسى وعيسى – التشريعات عن النبوات، لا كما حدث مع النبي محمد (ص). فنبوة موسى هي التوراة وشريعته الكتاب والفرقان، وكذلك نبوة عيسى الإنجيل وشريعته الكتاب، أي نفس شريعة موسى مع بعض التعديلات بدلالة قوله تعالى {.. وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..} (آل عمران ٥٠). أما عند محمد (ص) فهو النبوة والرسالة معاً فرسالة محمد هي أم الكتاب عوضاً عن الكتاب عند موسى وعيسى، ونبوة محمد (ص) هي القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب وقد جاء جميع ذلك في الكتاب. فمفهوم الكتاب عند المسلمين يختلف عن مفهوم الكتاب عند موسى وعيسى فالكتاب عند المسلمين هو مجمل التنزيل وعند موسى وعيسى هو الأحكام فقط "الشريعة" التي يقابلها عند المؤمنين "أم الكتاب" وهي جزء من الكتاب "المصحف" وليس الكتاب كله.

٨ – النبي محمد (ص) كان أمياً وكان يقرأ ويكتب

نريد في هذا البحث أن نضع النقاط على الحروف حول معنى لفظة "الأمي" التي وردت في ستة مواقع من التنزيل الحكيم هي:

– {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران ٢٠).

– {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران ٧٥).

– {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (الأعراف ١٥٨).

– {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ..} (الأعراف ١٥٧).

– {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الجمعة ٢).

– {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (البقرة ٧٨).

أولاً: لنعرف ما معنى كلمة الأمي التي وردت في الآيات السابقة. لقد أطلق اليهود والنصارى على الناس الذين لا يدينون بدينهم أي ليسوا يهوداً ولا نصارى لفظ الأمي (وجاءت من كلمة غوييم العبرية "الأمم"). وهو ما نعبر عنه اليوم بالدهماء أو الغوغاء أو العامة، لأن هؤلاء الناس كانوا جاهلين ولا يعلمون ما هي الأحكام في كتاب اليهود والنصارى، والنبوات التي جاءت لهم. ومن هنا جاء لفظ الأمي التي تعني:

١– غير اليهودي والنصراني.

٢– الجاهل بكتب اليهود والنصارى.

وبما أن التوراة والإنجيل هما نبوتا موسى وعيسى لذا جاء التبشير بنبوة محمد في التوراة والإنجيل وليس في الكتاب لقوله {.. الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ..} (الأعراف ١٥٧). وهذا واضح في الآية ٢٠ من آل عمران {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ} فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى والباقي من الناس هم الأميون.

وهذا المعنى واضح أيضاً في الآية ٧٥ من آل عمران عندما ذكر أهل الكتاب اليهود والنصارى فمنهم أي اليهود {مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ} ومنهم أي النصارى {مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ}. فلماذا لا يؤدي اليهود الأمانات لغيرهم؟ لأنهم يعتبرون "الغوييم" خدماً لهم ودهماء، ولاتنطبق عليهم وصايا الرب بدليل عبارة {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}.

وفي سورة الأعراف الآية ١٥٧: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ}، أمي لأنه ليس منهم لأنه قال: {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ}.

وكذلك جاءت في الآية ١٥٨ حيث أتبعها بأنّ محمد (ص) هو رسول الله إلى الناس جميعاً اليهود والنصارى والأميين علماً بأنه لم يكن أصلاً يهودياً ولا نصرانياً بل من الفئة الثالثة وهي الأميون.

أما بمعنى الجهل بالكتاب فقد قال تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ..} (البقرة ٧٨) أي أن الذين لا يعلمون الكتاب ومحتوياته هم أميون بالكتاب ولذا أتبعها بقوله {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}.

فإذا قلنا: فلان أمي دون تعريف وجب أن نبين معنى أميته ومحلها. فإن كانت أمية بالخط أدخلناه مدرسة لمحو الأمية. أما إذا قلنا فلان أمي وعرفناه نكون قد استعملنا المعنى الوارد في قوله تعالى {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}. فكاتب هذا الكتاب أمي بعلم البحار مع أنه دكتور مهندس في الهندسة المدنية، أي أنه لا يعلم في علم البحار إلا اللمم، وعندما يتكلم عن علم البحار فمعلوماته ظنية غير يقينية ولهذا قال {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}.

من هنا نرى أن النبي (ص) كان أمياً بمعنى أنه غير يهودي وغير نصراني، وكان أمياً أيضاً بكتب اليهود والنصارى وكانت معلوماته عن كتبهم هي بقدر ما أوحي إليه بعد بعثته (ص).

أما إسقاط هذا المعنى على أن النبي (ص) كان أمياً أي لا يقرأ ولا يكتب فهذا خطأ، فكما قلت: إن الكتابة هي تجميع الأشياء بعضها إلى بعض لإخراج معنى مفيد "موضوع" فهل كان النبي (ص) عاجزاً عن تأليف جملة مفيدة أو كتابة رسالة؟ إنّ الكتاب الذي أرسله النبي (ص) إلى كسرى هو كتاب النبي (ص) لأنه هو الذي أملاه وصاغه. والقراءة تعني العملية التعليمية "تتبع المعلومات" ثم القدرة على استقراء نتائج منها ومقارنتها بعضها ببعض. فالاستقراء والمقارنة جاءا من القراءة، فهل كان النبي (ص) لا يقرأ؟

قد يقول البعض–وهذه هي الحجة التي يوردها كثير من الناس–إنه عندما جاء الوحي إلى محمد (ص) قال له: اقرأ، فأجاب النبي (ص): ما أنا بقارئ، واستنتجوا أنه لا يقرأ. وأقول: إذا أمر سعيد زيداً أن يذهب، فقال زيد "ما أنا بذاهب" فهل هذا يعني بالضرورة أن زيداً مشلول أو بلا أقدام. هل هذا يعني أن زيداً لا يستطيع الذهاب أو أنه لا يريد الذهاب. ثم هل يعني أن جبريل قدم للنبي (ص) مادة مخطوطة لكي يقرأها خطأً. فهنا خلطنا بين إرادة النبي (ص) للقراءة وبين عدم استطاعته، وظننا أن جبريل قدم له مادة مخطوطة على قرطاس ليقرأها، لأنه عندما قال له في المرة الثالثة: اقرأ فأجاب النبي (ص): ما أنا بقارئ. فقال جبريل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (العلق١). فسكت النبي (ص) بعد هذه الآيات ولم يقل ما أنا بقارئ.

قد يقول البعض: ألم يكن النبي (ص) أمياً بمفهومنا الخاطئ للقراءة والكتابة؟ أقول: نعم لقد كان النبي (ص) من أول حياته إلى وفاته أمياً بالخط أي كان لا يخط ولا يقرأ المخطوط وجاء هذا المعنى في قوله تعالى {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت ٤٨). {بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} (العنكبوت ٤٩).

لقد اتضحت أمية النبي (ص) في أمرين: أولهما أن النبي (ص) لم يتكلم في حياته قبل البعثة عن أي موضوع من مواضيع القرآن، ولو فعل ذلك لقال له العرب: لقد كنت تتحدث إلينا عن هذه المواضيع قبل أن تكون نبياً. أي أن النبي (ص) كان أمياً في مواضيع القرآن تماماً؛ ولفظة (كتاب) وردت نكرة، وتعني القرآن لأنه أتبعها بقوله {بَلْ هُوَ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} أما مواضيع أم الكتاب فلم يكن النبي (ص) أمياً بها كلها فمثلاً: الصدق والأمانة والوفاء بالكيل والميزان من مواضيع أم الكتاب، أو لم يكن النبي (ص) صادقاً وأميناً ويوفي الكيل والميزان قبل البعثة؟ والناحية الثانية التي تقولها الآية أن النبي (ص) كان أمياً بالخط، وأميته بالخط استمرت إلى أن توفى (ص).

إن السر الأكبر في أمية النبي (ص) من ناحية الخط وقراءة المخطوط هي أن أساس الكلام الإنساني هو الأصوات وليس الخطوط، أي أن اللغة بالنسبة للنبي (ص) كانت لساناً وأذناً "كلام وسمع". لأن أي قوم إذا غيروا أبجديتهم فلا يتأثرون أبداً في كلامهم بين بعضهم وفهمهم للغتهم بل يتأثرون بقراءة المخطوط. علماً بأن الكتاب جاء إلى النبي وحياً، أي جاءه بصيغة صوتية غير مخطوطة وسماه الكتاب.

فإذا سألني سائل: ما معنى قوله تعالى {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ..} (الأعراف ١٤٥)؟ الألواح هنا قرطاسية أي ما يخط عليه. فأقول: لو قال "وخططنا له" فالسؤال هنا: ماذا كتب؟ ويأتي الجواب مباشرة {مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ} (الأعراف ١٤٥) فهنا بعد فعل كتبنا ذكر الموضوع مباشرة.

وإذا سأل سائل: ما معنى فعل كتب في آية المداينة في سورة البقرة وهي آية حدودية. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ..} (البقرة ٢٨٢) هنا "فاكتبوه" بمعنى تسجيل العقود حسب الموضوع كأن نقول فريق أول وفريق ثانٍ وموضوع العقد هل هو مال أو بيت أو تنفيذ أعمال.. مع ذكر الأجل.. الخ حيث أن بنود العقد تشمل كل صغيرة وكبيرة لذا قال. "فاكتبوه" وهنا ليس بالضرورة أن يكون العقد خطياً، فيمكن أن يكون العقد شفهياً

أي أن هذه الآية تشمل العقود الخطية والاتفاقات الشفهية. لذا قال عن الشهادة {فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى} (البقرة ٢٨٢). فكيف نفهم هذا الشرط في حالة توثيق العقد لدى كاتب العدل كما نفعل الآن؟ إذ في حالة العقد الخطي ووجود الكاتب بالعدل لا داعي أصلاً لأن تضل إحداهما لتذكرها الأخرى لأن محتويات العقد الخطية الموثقة لدى كاتب العدل لا تحتاج بعد التوثيق مهما طال الزمن إلى أي مراجعة، وهذا الشرط صحيح للكتابة الشفهية للعقد "شروط العقد" لأن أساس التعامل بين الناس والدول هو الاتفاقات الشفهية أولاً ثم تنسخ أو لا تنسخ "توثق أولاً توثق".

من ناحية أخرى، عندما يتم عقد نكاح بين رجل وامرأة فكتابة عقد النكاح هو اكتمال شروط العقد "الكتاب" بالإيجاب والقبول والشهود وتحديد الصداق.. الخ. فإذا تمت هذه الشروط قلنا لقد تم كتاب فلان على فلانة. هذه الشروط لا تعني الخط مطلقاً. بعد ذلك يتم تسجيل عقد النكاح. ولكن سواء سجل هذا العقد أم لم يسجل فشروطه صحيحة ويبقى صحيحاً. فإذا فهمنا الكتابة بمعنى التوثيق والتسجيل حصراً، سقطت العقود الشفهية واعتبرت باطلة، وصار النكاح في كل عقد غير مسجل زنا، فإذا سجل العقد خطياً ففي هذه الحالة يصبح جماع الرجل والمرأة نكاحاً شرعياً. وإذا لم يسجل خطياً فيصبح زنا؟؟!! وأعتقد بأن كل زيجات النبي (ص) لم تكن خطية ومع ذلك فهي شرعية والكتابة فيها أي شروط عقد النكاح مستوفاة.

الفصل الثالث

الإنزال والتنزيل

١ – الفرق بين الإنزال والتنزيل

يعتبر شرح الفرق بين الإنزال والتنزيل أحد المفاتيح الرئيسية لفهم الكتاب بشقيه: النبوة والرسالة، إضافة لما له من علاقة كبيرة بمبادئ التأويل. فبدون فهم الفرق بين الإنزال والتنزيل لا يمكن فهم قوله تعالى عن إنزال القرآن {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..} (يوسف ٢) وقوله {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} (القدر ١) وقوله عن إنزال الحديد {.. وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ..} (الحديد ٢٥) وعن إنزال اللباس قوله تعالى {يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا..} (الأعراف ٢٦) وعن إنزال المن والسلوى قوله تعالى {.. وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى..} (البقرة ٥٧) وعن إنزال الماء قوله تعالى {.. وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا} (الفرقان ٤٨) وعن إنزال الذكر قوله تعالى {.. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ..} (النحل ٤٤) وعن إنزال الملائكة قوله تعالى {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ} (الأنعام ٨). فكيف يمكن فهم إنزال كل من القرآن والحديد واللباس والمن والسلوى والماء والذكر والملائكة بشكل غير متناقض؟

وكيف نوفق بين قوله عن تنزيل القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ تَنْزِيلًا} (الإنسان ٢٣)، وقوله عن تنزيل الكتاب {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الجاثية ٢) وقوله {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (فصلت ٢) وقوله {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الواقعة ٨٠) وقوله عن تنزيل المن والسلوى {.. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} (طه ٨٠)، وبين قوله عن تنزيل الماء {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا..} (ق ٩)، وقوله عن تنزيل الملائكة {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى..} (الأنعام ١١١). إذ كيف نوفق بين الإنزال والتنزيل في كل من القرآن والمن والسلوى والماء والملائكة؟ وكيف يمكن أن نفهمهما دون تناقض؟

فعن القرآن قال: "نزلنا وأنزلنا" وعن المن والسلوى قال أيضاً: "نزَّلنا، وأنزلنا" وعن الماء أيضا قال:"نزَّلنا، وأنزلنا"، فما هو الإنزال والتنزيل للقرآن؟ والإنزال والتنزيل للمن والسلوى؟ والإنزال والتنزيل للماء؟ والإنزال والتنزيل للملائكة؟ كيف نفهم الإنزال والتنزيل في هذه الحالات بشكل

ينسجم بعضها مع البعض وينسجم مع قوانين الحقيقة، بحيث يكون بينها رباط منطقي مع مطابقة موضوعية؟.

إن الهمزة: في اللسان العربي تعطي معنى التعدي. مثال على ذلك: بلغ وأبلغ. فلدينا مصطلحان هما البلاغ والإبلاغ. ولنأخذ الآيات التالية:

- {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ..} (المائدة ٩٩) ''بلاغ''.
- {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ..} (المائدة ٦٧) ''بلاغ''.
- {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ..} (الأعراف ٩٣) ''إبلاغ''.

فعملية البلاغ هي عملية نقل من شخص إلى آخر دون التأكد من أن الشخص المنقول إليه البلاغ وصله الخبر. فعندما نقول إن هناك بلاغاً من وزارة المالية إلى المواطنين في الإذاعة حول دفع الضرائب. فهذا البلاغ ينتقل إلى الناس ولكن لا يوجد أي تأكد من أن كل المواطنين المعنيين بهذا البلاغ قد وصلهم، فعندما يصل محتوى البلاغ إلى إدراك ووعي كل مواطن مقصود بهذا البلاغ يصبح إبلاغاً.

لذا عندما أمر الله سبحانه رسوله الكريم بتوصيل رسالته إلى الناس قال {بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} ولو قال ''أبلغ ما أنزل إليك من ربك'' لوجب على النبي أن يتأكد من أن كل إنسان معني بهذا البلاغ قد أدرك ووعى محتويات البلاغ. وبما أنه رسول الله إلى الناس جميعاً فيجب عليه في حالة الإبلاغ أن يطوف الدنيا ويتأكد من أن كل شخص وصله البلاغ. ولأن هذا متعذّر إن لم يكن محالاً فقد قال (ص) في حجة الوداع ''ألا هل بلغت اللهم فاشهد'' ولم يقل: ألا هل أبلغت. وبما أن هوداً وصالحاً وشعيباً أرسلوا إلى أقوامهم فقط، أي إلى عدد قليل من الناس هم قوم عاد وقوم ثمود وقوم مدين، فكانت عملية توصيل الرسالة عملية إبلاغ لا بلاغ تم بعدها إهلاك القوم. وإلا فكيف يُهلك الله أناساً لم يدركوا ما هو المطلوب منهم ولم يعلموا بأي رسالة؟ في حالة قوم صالح قال لهم {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي..} (الأعراف ٧٩). وفي حالة قوم شعيب قال {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ..} (الأعراف ٩٣). وبالنسبة لقوم هود قال {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ..} (هود ٥٧). وعن رصد الملائكة للرسل في توصيلهم للرسالات قال {لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ..} (الجن ٢٨). ولم يكن مطلوباً من النبي (ص) أكثر من البلاغ في قوله تعالى {بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ..} (المائدة ٦٧) وقوله {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} وقوله {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (النحل ٨٢) وقوله {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..} (الشورى ٤٨). فالبلاغ هو

مجرد عملية نشر الخبر أو الأمر، والإبلاغ هو عملية التأكد من أن الإنسان المقصود تبليغه قد وصله البلاغ وأصبح ضمن مدركاته. ولا يثبت لمعترضٍ أن يعترض علينا بقوله: إن الله سبحانه وتعالى قد قال على لسان هود {قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ..} (الأحقاف ٢٣) وهذا تبليغ وليس إبلاغاً لأن ماضي أبلّغكم: بلّغتكم لا أبلغتكم" فنجيب قائلين: لقد كان هذا في بداية الدعوة لا في نهايتها.

والآن لنأخذ التنزيل والإنزال:

فالتنزيل: عملية نقل موضوعي خارج الوعي الإنساني.

والإنزال: عملية نقل المادة المنقولة خارج الوعي الإنساني، من غير المدرك إلى المدرك، أي دخلت مجال المعرفة الإنسانية.

هذا في حالة وجود إنزال وتنزيل لشيء واحد مثل القرآن والماء والملائكة والمن والسلوى. أما في حالة وجود إنزال دون تنزيل كما في حالة الحديد واللباس، فإن الإنزال هو عملية الإدراك فقط "أي المعرفة فقط".

لنأخذ الآن أمثلة عادية على الإنزال والتنزيل، وأود أن أنوه بأن المكتشفات العلمية والتكنولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين، هي التي سمحت لنا بفهم الإنزال والتنزيل والجعل بهذه الدقة.

– المثال الأول:

مباراة حية في كرة القدم بين البرازيل والأرجنتين تجري في المكسيك، واللاعبون الأساسيون المؤلفون من أناس أحياء من لحم وعظم ودم يلعبون في المكسيك. وهناك في دمشق شخص يريد أن يشهد هذه المباراة حية. فحتى يشهد هذا الشخص في دمشق المباراة الحية في المكسيك وتدخل ضمن إدراكه يجب القيام بعمليات على الشكل التالي:

١– الوجود المادي للمباراة فعلاً قبل التكلم عن أي نقل أو إدراك.

٢– التقاط المباراة صوتاً وصورة أو صوتاً فقط أو صورة فقط.

٣– بث المباراة عن طريق الأمواج بواسطة الأقمار الصناعية إلى كل أنحاء الأرض بما فيها دمشق.

٤– وجود جهاز تلفزيون أو راديو لاقط، يأخذ هذه الأمواج ويحولها مرة ثانية إلى صوت وصورة أو إلى صوت فقط. فعند ذلك يدرك المشاهد في دمشق ما حدث في مباراة المكسيك.

هناك طريقة ثانية للنقل إذا لم يكن هناك بث، وذلك بأن تسجل المباراة على شريط فيديو صوتاً وصورة أو على شريط كاسيت صوتاً فقط، وينقلها شخص إلى دمشق. في هذه الحالة يجب أن يكون

في دمشق جهاز فيديو وتلفزيون أو جهاز تسجيل لكي يعيد المباراة حتى تصل إلى إدراك المشاهد في دمشق.

الآن لنناقش في هذا المثال أين الإنزال وأين التنزيل:

– عملية نقل المباراة الأصلية عن طريق الأمواج من المكسيك إلى دمشق هي التنزيل، لأن هذه العملية تمت خارج وعي المشاهد في دمشق، والنقل حصل مادياً خارج وعي المشاهد بواسطة الأمواج. أما عملية دخول الأمواج إلى جهاز التلفزيون ليحولها إلى صوت وصورة أي إلى حالة قابلة للإدراك من قبل المشاهد فهذا هو الإنزال.

– **المثال الثاني**:

عملية نقل واقع جبل قاسيون إلى إنسان يعيش في القاهرة عن طريق مخططات:

– العملية الأولى: عملية رفع قاسيون إلى مخطط طبوغرافي.

– العملية الثانية: عملية نقل هذا المخطط إلى القاهرة ليشاهده إنسان ما.

ففي العملية الأولى تم النقل المادي إلى المخطط بطريقة قابلة لإدراك الإنسان في القاهرة. هذا المخطط مؤلف من إحداثيات ومقياس ١٠٠/١ مثلاً ومن خطوط تسوية "كونتور" لتبيان التضاريس من تلال ووديان. فعملية نقل الجبل من الواقع إلى مخطط قابل للإدراك هو الإنزال، وعملية النقل المادي للمخططات من دمشق إلى القاهرة هي التنزيل.

إذاً فهناك حالتان:

– الحالة الأولى: أن يتم التنزيل قبل الإنزال كما في المباراة.

– الحالة الثانية: أن يتم الإنزال قبل التنزيل كما في المخطط.

ولكن في هاتين الحالتين يجب أن يكون هناك وجود مسبق للشيء قبل عملية الإنزال والتنزيل. فوجود اللاعبين والمباراة في المكسيك فعلاً قد سبق عملية التنزيل والإنزال ووجود الجبل فعلاً قد سبق عملية الإنزال والتنزيل.

لنناقش الآن حالة الإنزال والتنزيل في القرآن بجزأيه: الأول الثابت الموجود باللوح المحفوظ، والثاني المتغير الموجود بالإمام المبين بما فيه من قوانين جزئية لتصريف الطبيعة والكون وبما فيه من قصص قرآني ما عدا القصص المحمدي الذي سنناقش حالته لاحقا، هو وأم الكتاب وتفصيل الكتاب، لأن لها وضعاً خاصاً عوملت به.

وعليه، حتى تكون هناك حالة إنزال منفصلة عن التنزيل كما هو حال كل القرآن، عدا القصص المحمدي، يجب أن يكون للقرآن وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل. من هنا نفهم بأن ما يسميه الفقهاء

أسباب نزول ليس له أي معنى في القرآن لوجوده المسبق، وقد فصلنا الكلام في هذا الموضوع سابقا في مسألة مناسبات النزول لا أسباب النزول. فكل القرآن، عدا القصص المحمدي، كان موجوداً قبل ما أسموه أسباب النزول حيث تم إنزاله ليلة القدر دفعة واحدة، وهذا ما دفعنا إلى رفض ما أسموه هم بأسباب النزول وفضلنا تسميتها مناسبات النزول، كي تتوافق هذه المناسبات مع تنزيل القرآن وليس مع إنزاله الذي كان قبلا ودفعة واحدة في ليلة القدر. فتنزيل القرآن كله على النبي (ص)، عدا القصص المحمدي، كان سيتم سواء وجدت مناسبات نزول أم لم توجد لأنه حتمي وموضوعي وموجود خارج الوعي الإنساني، وسيتم تنزيله سواء سئل عنه النبي (ص) أم لم يسأل. لذا فإنه لا يعوّل تماماً على فهم القرآن من خلال مناسبات النزول وإن توافق حدوثها مع تنزيله، لذا قال تعالى عن الأشياء التي تخص مواضيع القرآن مثل الغيبيات {.. لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ..} (المائدة ١٠١) ولم يقل أبداً عن الأشياء التي تخص الأحكام أو تفصيل الكتاب لا تسألوا عنها.

هنا يطرح السؤال التالي نفسه بالضرورة:

إذا كان كل القرآن، عدا القصص المحمدي، موجوداً فعلاً قبل الإنزال والتنزيل، فما هو هذا الوجود وبأي صورة كان موجوداً؟ فإذا كان القرآن – وهو كلام الله – موجوداً بالصيغة اللسانية العربية التي نراه عليها الآن والتي نستوعبه من خلالها لكان الاستنتاج المباشر لذلك بأن الله عربي. وبما أن كلمات الله هي عين الموجودات ونواميسها العامة التي تحكم الوجود، فقد خزنت نواميسها العامة بشكل ما في لوح محفوظ وفي كتاب مكنون، ففي الكتاب المكنون يوجد البرنامج العام للكون، وفي اللوح المحفوظ يوجد هذا البرنامج وهو يعمل، وفي الإمام المبين توجد قوانين الطبيعة الجزئية التي يتم التصريف من خلالها وأحداث التاريخ بعد وقوعها.

فالقرآن في اللوح المحفوظ وفي الإمام المبين هو من علم الله، وعلم الله هو أعلى أنواع علوم التجريد حسب سقفنا المعرفي، وأعلى أنواع علوم التجريد هو الرياضيات لذا قال {.. وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} (الجن ٢٨) أي أن علم الله بالموجودات هو علم كمي بحت (digital) وهو أرقى أنواع العلوم، لأن الإحصاء هو التعقل، والعدد هو حال الإحصاء. فهذا القرآن موجود في لوح محفوظ وإمام مبين لكن بصيغة مطلقة غير قابلة للإدراك الإنساني وغير قابلة للتأويل، لأنها من علم الله التجريدي المطلق.

فعندما أراد الله أن يعطي القرآن للناس كانت المرحلة الأولى تحويله إلى صيغة قابلة للإدراك الإنساني النسبي، أي جرت عملية تغيير في الصيرورة. وهذا التغيير في الصيرورة عبر عنه في

اللسان العربي بفعل "جعل" إذ قال: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف ٣) أي كان له وجود مسبق قبل أن يكون عربياً فجعله عربياً "أي غيّر في صيرورته" وهذا معنى الجعل. فالجعل هو التغيير في الصيرورة من صيغة غير مدركة إلى صيغة أخرى قد تكون مدركة وقد تكون غير مدركة من الإنسان، وكي تكون صيغة مدركة فقد غير في صيرورة القرآن إلى صيغة لغوية منطوقة بلسان عربي لهذا قال: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف٢)، فالإنزال هو النقل من صيغة غير مدركة إلى صيغة مدركة للإنسان، وهذه الصيغة المدركة هي الصيغة اللغوية العربية المنطوقة، وهي التي تم إشهاره بها في ليلة القدر، وهي التي أطلق عليها التنزيل الحكيم تسمية الذكر، فالذكر هو نتيجة تلازم الجعل والإنزال بالصيغة اللغوية العربية المنطوقة للقرآن، مما يبين وجوده المسبق على الإنزال، فقد يكون هناك جعل دون إنزال وقد يكون هناك إنزال دون جعل، أما القرآن فقد تلازم فيه الاثنان أي الجعل والإنزال معاً.

وعليه فإن القرآن قد مر بمرحلتين اثنتين هما:

– الجعل: أي التغيير في الصيرورة.

– الإنزال: أي النقل من صيغة غير مدركة "غير مشهرة" إلى صيغة مدركة "مشهرة".

والآن علينا الإجابة على سؤال: لماذا وضع الجعل والإنزال على أنه عربي؟ أقول إن الجعل هو تغيير في الصيرورة فيمكن أن تغير صيرورة القرآن من شكل غير قابل للإدراك إلى شكل آخر غير قابل للإدراك، لذا قال {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا} والإنزال هو نقل من غير المدرك إلى المدرك لذا قال {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا}، وتم ذلك بإشهاره أي بجعله بصيغة لسانية عربية.

ففي القرآن تلازم الجعل والإنزال فجعل وأنزل عربياً. أي أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس عين القرآن الموجود في اللوح المحفوظ والإمام المبين، وصيغته ليست نفس الصيغة الموجودة فيهما، وإنما هو صيغة لغوية عربية بعد إشهاره بـ"الإنزال" تمت بعد التغيير في صيرورته بـ"الجعل"، ثم وصلت هذه الصيغة اللغوية إلى النبي (ص) بالتنزيل المادي عن طريق الوحي، ونقلها النبي (ص) آلياً إلى الناس بصيغة منطوقة سماها الله عز وجل في محكم تنزيله بالذكر في قوله تعالى {ص وَالْقُرْآَنِ ذِي الذِّكْرِ} (ص ١).

لقد تم جعل القرآن وإنزاله عربياً على دفعة واحدة. وهذا ما حصل في ليلة القدر حين قال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} (القدر ١)، أي أصبح قابلا لأن يدرك من قبل الإنسان. وبما أنه في ليلة القدر تم إشهار القرآن، فقد قال: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} (القدر ٣)، ولك أن تذهب بكلمة شهر إلى أنها من الشهرة والإشهار القانوني الملزم للبيع والشراء. ولا يلزمك أن تفهم "الألف" على أنها

عدد، بل جاءت من فعل ''ألف'' وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض بشكل منسجم، ومنه جاءت الألفة والايلاف والتأليف. أي أن إشهار القرآن خير من كل الإشهارات الأخرى مؤلفة كلها بعضها مع بعض. وقال أيضاً: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ} (الدخان ٣) وقال: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ..} (البقرة ١٨٥). لاحظ أن الآيات الثلاث فيها فعل أنزل، والإنزال تم دفعة واحدة وكان بصيغة لغوية عربية {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف ٢).

وننوه هنا إلى أننا لا نتفق مع رأي ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} (القدر ١) الذي جاء فيه ''أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة''، رواه الحاكم في المستدرك، وقال فيه ''حديث صحيح الإسناد على شرطهما (أي البخاري ومسلم) ولم يخرجاه'' باب التفسير ج٢ ص ٢٤٢. وإن كان البعض يرى أن رأي ابن عباس يدخل ضمن الحديث المرفوع إلى النبي والبعض الآخر يرى بأنه ليس حديثاً مرفوعاً وإنما هو أثر وارد عنه وفيه رأيه الخاص. وسواء كان هذا أم ذاك فإن هذا القول يمكن شرحه بأن إنزال القرآن جاء جملة واحدة في ليلة القدر، وتم إشهاره فيها بالصيغة اللغوية العربية المنطوقة، وأصبح قابلاً للإدراك بعد إشهاره بهذه الصيغة، فنحن نختلف معه في أن القرآن تم إنزاله جملة واحدة ليلة القدر، لأننا نرى أن القصص المحمدي، الذي هو جزء من القرآن، لم يتم إنزاله ليلة القدر لأن أحداثه لم تكن قد وقعت، ولهذا نحن نتساءل بالنظر إلى رأي ابن عباس: هل كان يقصد أن قوله تعالى مثلا {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} (عبس ١–٢) وقوله تعالى {بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} (التوبة ١) قد أنزلا ليلة القدر؟ إذا كان الأمر كذلك فستصبح الفترة المحمدية مجرد مسرحية ذات سيناريو معد مسبقاً.

لذا فنحن لا نعتمد ولا نعوّل على أحاديث الغيبيات، سواء كانت أثراً صحابياً أم حديثاً نبوياً مرفوعاً في فهم كتاب الله، ذلك لأن السقف المعرفي الذي جاءت في إطاره تم تجاوزه بكثير مقارنة بسقفنا المعرفي الحالي فلا يعول عليها في فهم الغيبيات، كما أن مفاتيح فهم التنزيل الحكيم موجودة بداخله وليست خارجه، ونجدها في تفصيل الكتاب.

– التنزيل: هو نقلة مادية حصلت خارج الوعي الإنساني كالنقل بالأمواج، ولكن حصلت عن طريق جبريل إلى النبي (ص). وهو الذي تم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً. ففي القرآن تلازم الجعل والإنزال وحصلا دفعة واحدة، وافترق التنزيل حيث جاء في ثلاثة وعشرين عاماً. لذا بعد الجعل والإنزال قال: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ} (عبس ١٣–١٦).

وبما أن القرآن له وجود مسبق وجاهز قبل التنزيل وحصول التنزيل منجماً يبرز السؤال التالي: لماذا لم يتم التنزيل "النقلة الموضوعية بعد الجعل والإنزال" دفعة واحدة؟ والجواب عليه نجده في قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} (الفرقان ٣٢) ولفهم سبب تنزيل القرآن على دفعات اقرأ الفصل حول الفؤاد وحول أنواع الوحي.

والآن لنطرح السؤال التالي: ماذا يصبح معنى الآية لو قال "إنا نزلناه قرآناً عربياً" عوضاً عن {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا}؟ أقول: لو قال تعالى هذا لأصبح اللسان العربي ذا وجود موضوعي خارج الوعي الإنساني، لو ذهب العرب جميعاً لبقي اللسان العربي مادياً دون عرب، ولأصبح وجود اللسان العربي منفصلاً مستقلاً عن وجود الإنسان، ولأصبح جبريل عربياً، ولوجدنا في الطبيعة أن هناك في البث الإذاعي والتلفزيوني يوجد أمواج قومية تركية وأخرى عربية وثالثة إنكليزية، ولوجدنا تياراً كهربائياً عربياً وآخر انكليزياً.

ونتساءل هنا: هل كان ممكناً أن يأتي القرآن والكتاب بطريقة أخرى غير الطريقة الصوتية "الذكر"؟ أقول: نعم، كان ممكناً أن يأتي منسوخاً بالخط. فالكتاب – كما قلت – هو الموضوع الذي يمكن أن ينقله الإنسان شفاهة "صوتاً" أو نسخاً "خطياً". فعندما نريد أن ننسخ كتاباً شفهياً نحتاج إلى أشياء نخط عليها مثل الأحجار وجلد الغزال وورق البردى، ثم الورق العادي ثم شريط التسجيل ثم شريط الفيديو، هذه الأشياء التي يتم تسجيل الكتب عليها ثم نسخها على عدة نسخ لها مصطلح في اللسان العربي هو "القرطاس" ذكره المتنبي في قوله:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولكي يبين لنا سبحانه أن التنزيل حصل بلغة منطوقة لا مخطوطة، وأن الكتاب جاء إلى النبي (ص) بطريقة منطوقة لا مخطوطة، قال {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأنعام ٧). فكل الكتاب جاء منطوقاً لا منسوخاً، ولو جاء منسوخاً لوجب أن ينسخ على قرطاس يمكن لمسه باليد، فالكتاب المنطوق لا يلمس باليد، والكتاب المنسوخ "في قرطاس" يلمس باليد. لذا قال {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} ولاحظ قوله (نزلنا) ولم يقل "أنزلنا".

السؤال الآن: هل جاء إلى أحد غير النبي (ص) من الأنبياء شيء منسوخ "في قرطاس"؟ الجواب: نعم، لقد جاءت الوصايا العشر إلى موسى منسوخة على ألواح، أي جاءت في قرطاس وذلك في قوله تعالى {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ

يَرْهَبُونَ} (الأعراف ١٥٤) لاحظ قوله ''الألواح'' بمعنى القرطاس وكيف أتبعها بعبارة: ''وفي نسختها''.

٢ ـ الإنزال والتنزيل للقرآن

قلنا إن إنزال كل القرآن عدا القصص المحمدي حصل دفعة واحدة ''أي صيغ عربياً دفعة واحدة'' والذي جاء إلينا هو هذه الصيغة اللسانية بطريقة صوتية سماها ''الذكر''، لا بطريقة خطية.

فلنضرب المثال التالي للشرح: إن رئيس الولايات المتحدة إنسان واحد يعرفه معظم أهل الأرض ولكن ليس عن طريق المشاهدة المباشرة، بل عن طريق التصوير. وهناك عدة احتمالات للتصوير: ''واقفاً، جالساً، ضاحكاً ...'' وعدة احتمالات لإخراج الصورة: ''أبيض وأسود، ملون'' تمثال من خشب أو من معدن، أو صورة على ورق نحاس أو ورق صحف. ومن كل احتمال من هذه الاحتمالات يمكن سحب ملايين النسخ التي تصل إلى يد كل الناس، فأي إنسان يمسك صورته يعلم أن هذا هو الرئيس الأمريكي. ولكن هل يعني أنه مس الأصل نفسه؟! فعندما جاء القرآن صوتياً وتلاه علينا النبي (ص) صوتياً أيضاً، وضع بعدها على قرطاس، والقرطاس هو كل ما يخط عليه أو يسجل عليه، ابتداء من ألواح الطين، وورق النخل، وورق البردي وجلد الغزال، ثم ورق وحبر ثم شريط كاسيت ثم شريط فيديو، فعندما نمس الآن نسخة من المصاحف فإننا لا نمس القرآن، وإنما نمس صورة عن القرآن منسوخة بواسطة الحبر على ورق، والذي يمس مادياً هو الحبر والورق، فإذا قرأنا قوله تعالى {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} (الواقعة ٧٩) نجد أن الآية آية خبر لا آية أمر ونهي، وأن ''لا'' هنا، نافية وليست ناهية، فإذا قلنا ''لا يأكل أحمد إلا خبزاً'' وشاهدناه يأكل لحماً فيصبح الخبر كاذباً. فإذا كان المطهرون في الآية هم الناس الأتقياء، وإذا كانت الهاء في عبارة ''لا يمسه'' تعود على نسخ المصاحف التي بين أيدينا، ثم شاهدنا الفجّار يمسونه، لأصبح الخبر كاذباً. إننا نرى الآن آلافاً من الناس بين جنب وحائض ونفساء يمسون المصاحف. فإذا كان المعني بالآية هو المصاحف، والمعني بـ''المطهرون'' هم المتطهرون المتوضئون صار الخبر كاذباً.

أما المعنى الصادق فهو ما يلي:

إذا كانت هناك صورة للرئيس الأمريكي طبعت منها ملايين النسخ في الصحف فإن هناك ملايين الناس يمسون صورته، منهم من يحبه ومنهم من يكرهه. ولكن هل من يحبه أو من يكرهه يمكنه أن

يصل إلى الرئيس الأصل الذي يعيش في البيت الأبيض؟ إن الذي يصل إلى الرئيس الأصل هم أهله ومستشاروه وموظفو البيت الأبيض، ومع ذلك فهناك عدة مليارات من الناس تعرفه بالصورة.

نأتي الآن لننظر في سوابق الآية ولواحقها:

{إِنَّهُ لَقُرْآَنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الواقعة ٧٧ـ٨٠) يصف تعالى القرآن مؤكداً أنه كريم، وأنه {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، والمكنون هو المخبأ المحفوظ، ثم يختم ذلك بقوله {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}. فالآيات هنا، بدءاً من الهاء في كلمة "إنه" وانتهاء بكلمة "العالمين" تتحدث عن القرآن الأصل الموجود في الكتاب المكنون، الذي أخذت صورة عنه مترجمة إلى العربية عن طريق "الجعل والإنزال"، ثم جاءت إلى النبي (ص) عن طريق جبريل "التنزيل" منطوقة لا مخطوطة. فهاهنا يكون "المطهرون" هم الملائكة المعنيون الموكل إليهم حفظ القرآن. فلا يصل إلى القرآن الأصل في الكتاب المكنون غيرهم أحد من البشر، لا تقي ولا شقي ولا متطهر ولا جنب.

لقد جاء الالتباس بين المطهرين تكوينياً والمتطهرين للصلاة في قوله تعالى {.. وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا..} (المائدة ٦) {.. فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } (البقرة ٢٢٢). ونفهم أن الذي لا يجوز على الجنب والحائض والنفساء هو الصلاة حصراً، أما مس المصحف وتلاوته خارج الصلاة، فالأمران سيان إن كان جنباً أو متطهراً، وإن كانت المرأة في فترة الحيض أو خارجها، وإن كان متوضئاً أو غير متوضئ، علماً بأن محتويات المصحف هي القرآن والسبع المثاني وأم الكتاب وتفصيل الكتاب.

لقد تلازم الجعل والإنزال لكل القرآن، باستثناء القصص المحمدي، في ليلة القدر دفعة واحدة، ثم جرى تنزيله منجماً على مدار ثلاث وعشرين سنة. أما القصص المحمدي فقد عومل معاملة استثنائية لخصوصيته، فالقصص المحمدي عبارة عن قص للأحداث التي جرت خلال البعثة المحمدية وتمت متابعتها وأرشفتها في الإمام المبين بعد وقوعها. ولما لم يكن لها وجود قبل حدوثها، لم يتم جعلها وإنزالها مع باقي القرآن في ليلة القدر لأنها لم تكن موجودة قبل ذلك، أي لم تكن مؤرشفة في الإمام المبين لعدم حدوثها أصلاً. وعليه، فإن الجعل لم يحصل في القصص المحمدي بل تلازم فيه الإنزال والتنزيل وجاء متتابعاً متسلسلاً حسب ورود الأحداث وتفاعلات الرسول ومحيطه معها، بحيث تمت أرشفتها وإنزالها وتنزيلها آيات قرآنية بصيغة لغوية عربية منطوقة بعد حدوثها. ولك أن تتخيل معي لو قلنا أن القصص المحمدي عومل كما عومل سائر القرآن، بأن جرى جعله وإنزاله دفعة واحدة ليلة

القدر ثم تنزيله منجماً فإن هذا القول سيدفعنا إلى استنتاج أن الأحداث التي جاءت في القصص المحمدي والمنزلة ليلة القدر كانت مؤرشفة قبل حدوثها، كآية {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} (عبس ١–٢)، التي تروي ما وقع للنبي مع ابن أم مكتوم، فلو أنها كانت موجودة في القرآن قبل إنزاله وتنزيله لتحولت بالتالي إلى حقيقة صارمة مخزنة قبل حدوث الحدث، وأصبحت حقيقة خارج الوعي الإنساني ليس لها علاقة بإدراك النبي أو عدم إدراكه. وفي هذه الحالة لم يعد للنبي (ص) أي خيار في أن يعبس أو لا يعبس. ولم يعد لعبد الله بن أم مكتوم أي خيار في أن يجيء أو لا يجيء.

في هذه الحال يصبح الرسول (ص) والقصص المحمدي كله – شئنا أم أبينا – أشبه بممثل في تمثيلية أخرجت ووضع لها سيناريو مسبق وقدمت للناس على أنها هداية لهم، ولأصبحت الحياة الإنسانية عبارة عن كوميديا إلهية، الناس فيها مجموعة من الصور المتحركة مبرمجة منذ الأزل في أفعالها وأقوالها، ولأصبحت هذه الحياة لهواً إلهياً، ولأصبح مفهوم خلافة الإنسان لله في الأرض ليس أكثر من خدعة بسبب الإلغاء التام للحرية الإنسانية في الأفعال الواعية، ولأصبح الإنسان مجرد آلة مبرمجة سلفاً لتطبيق ما تمت برمجتها عليه، ثم يحاسب بعد ذلك على أفعاله وقراراته. ألا يعتبر ذلك من باب التناقض الصارخ بين انعدام الحرية والإرادة الإنسانية في الأفعال الواعية وبين المحاسبة على ما لم يكن الإنسان حراً في اتخاذه من قرارات أو ممارسته من أفعال؟ علماً أن الله أخبرنا بغير ذلك، فالله سبحانه وتعالى لا يلهو معنا، ونحن عنده لسنا صوراً متحركة مبرمجة مسبقاً في اختياراتها وأقوالها، لذا قال {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء ١٧) "لاحظ كيف قدم جواب الشرط على الشرط لأهمية الجواب"، لكننا لا نلغي القول بعلم الله بها وبوجودها في علم الله المطلق الكلي الاحتمالات. ولمزيد توضيح الإطلاع على علم الله في الباب الثاني من الكتاب.

لهذا نرى أن القصص المحمدي، مع أنه جزء من القرآن وليس جزءاً من الرسالة، لم يتم جعله وإنزاله مع كل أقسام القرآن الأخرى، بل عومل معاملة خاصة بحيث كان يتم إنزاله وتنزيله متتابعاً وفق الأحداث التي كانت تتطلب إنزاله وتنزيله، وقد أسمينا هذه الأحداث بمناسبات النزول لتوافق حدوثها مع إنزاله وتنزيله. لقد عومل القصص المحمدي هذه المعاملة الخاصة لأن القرآن فيه ذكر لقصص الأنبياء والرسل منذ آدم، وطالما أن النبي محمد (ص) هو خاتم الأنبياء والمرسلين فقد كان لزاماً أن يتم ذكر قصصه في القرآن الكريم ليكتمل بذلك تتبع مختلف المراحل الإنسانية التي بعث فيها الأنبياء والمرسلون للإنسانية وجاؤوا فيها بقفزات معرفية تلتها قفزات تشريعية، كي تصبح مرحلة البعثة المحمدية آخر مرحلة تم فيها بعث نبي رسول جاء بآخر قفزة تشريعية للإنسانية متقدمة على السقف المعرفي للزمن الذي جاءت فيه، ذلك أن المستوى المعرفي للعرب زمن البعثة لم يكن

على مستوى كافٍ لتلقي هذه القفزة التشريعية. ثم بدأ بعد هذه المرحلة عصر ما بعد الرسالات. فكان لزاماً تتبع الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة وأرشفتها، ومن ثم تلازم الإنزال والتنزيل فيها عند صياغتها إلهياً، فجاءت سور القصص المحمدي وآياته بالنسبة لمن عاصروها وعايشوها بمثابة الأخبار التي أخذوا منها الأوامر الإلهية، فتعاملوا معها بعد إدراكهم ذلك بمثابة أوامر إلهية مباشرة تقدم لهم طرحاً خاصاً بواقعهم. أما بالنسبة لمن جاء بعدهم من العصور كعصرنا نحن فهي بمثابة الأنباء التي يعتمد عليها في استخلاص العبر فقط. ولا يجدر أن تعامل معاملة الرسالة بل الأصح التعامل معها معاملة النبوءة، لأنها تروي قصصا لحقبة تاريخية معينة ذات ظروف موضوعية خاصة. هذا الوضع الدقيق للقصص المحمدي هو الذي جعله يعامل معاملة خاصة من قبل الله عز وجل، فهو – كما قلنا – بالنسبة لمن عاصروه أخبار تستخلص منه الأوامر الإلهية التي جاءت فيه، لأنه واقع حال يعيشونه يومياً. أما بالنسبة لمن بعدهم وخصوصاً في العصور المتأخرة جداً عنهم، فهو بمثابة الأنباء واستخلاص العبر منه فقط، ليبين لنا الله عز وجل من خلاله كيفية تتبع الأحداث التاريخية الإنسانية بعد وقوعها وأرشفتها في الإمام المبين، وليصبح القصص المحمدي بالنسبة لنا قرآناً متشابهاً نستنتج منه العبر، ولا علاقة له بالرسالة أو بما يسمى أحكاماً شرعية إطلاقاً.

٣ – الإنزال والتنزيل لأم الكتاب وتفصيل الكتاب

قلنا إن الإنزال والجعل حصلا دفعة واحدة في كل القرآن، عدا القصص المحمدي، وافترق فيه التنزيل حيث جاء منجماً على ثلاث وعشرين سنة، بعد أن كان مخزناً في لوح محفوظ وإمام مبين، لأن له وجوداً مسبقاً قبل الإنزال والتنزيل لذا أضاف فعل "جعل" للقرآن ليبين وجوده المسبق.

بينما أم الكتاب التي تحتوي على الحدود والعبادات والمواعظ والوصايا والتعليمات، وتفصيل الكتاب فليستا من القرآن ولا علاقة لهما باللوح المحفوظ أو الإمام المبين وإنما هما من الكتاب. فلو كان صوم رمضان مخزناً في لوح محفوظ لأصبح من كلمات الله، ولو كان مخزناً في إمام مبين لأصبح من ظواهر الطبيعة، لأن كلمات الله قانون نافذ وظواهر الطبيعة حقيقة موضوعية صارمة، ولصام الناس في رمضان شاؤوا أم أبوا. وقل مثل ذلك في بقية مواضيع أم الكتاب.

يعتبر هذا الموضوع من أهم النقاط خطورة وتعقيداً في العقيدة الإسلامية إن لم يكن أهمها على الإطلاق. إذ أن سوء فهم هذا الموضوع، وعدم التفريق بين الرسالة والنبوة وبين الكتاب والقرآن جعل من المسلمين أناساً متحجرين ضيقي الأفق، وضاع العقل نهائياً وضاع مفهوم القضاء والقدر

والحرية الإنسانية ومفهوم الثواب والعقاب "المسؤولية". وأعتقد أن ما كُتب عن الحرية والمسؤولية الإنسانية والقضاء والقدر ونظرية الدولة والمجتمع في الأدبيات الإسلامية، في غياب هذا التفريق، لم يكن الفقه أكثر من عبث ولف ودوران. فلو كانت لأم الكتاب علاقة باللوح المحفوظ والإمام المبين ومخزنة فيه لأصبحت حتمية خارجة عن الوعي الإنساني، ولصار انقياد الإنسان إليها حتمياً جبرياً شاء أم أبى، مثل القوانين البيولوجية للمادة التي تحدد شكل الإنسان الفيزيولوجي رضي عن شكله أم رفضه، وبالتالي يصبح اتباع الإنسان لما في أم الكتاب من أحكام من باب القهر ولا حرية له في ذلك، ولشاهدت كل الناس يصومون وكل الناس يصلون، ويؤدون كل الشعائر ويمتنعون عن كل المحرمات، وبالتالي فلا يعود هناك ما يسمى بالمعصية لأن كل إنسان سيصبح مطيعاً طالما أن الأمر حتمي بالنسبة له شاء أم أبى، وتصبح آيات الحدود لا فائدة منها كآية السرقة مثلا في قوله تعالى {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (المائدة ٣٨)، لأن كل الناس ستصبح مطيعة لا يوجد بينهم سارقون، لأنهم نهوا عن السرقة في أم الكتاب التي فرضنا وجودها في اللوح المحفوظ وهذا لا يستقيم معرفياً. ولو أن أم الكتاب كانت موجودة فعلاً من قبل، وهي من القرآن، وتم جعلها وإنزالها مثله، لأصبحت آياتها تحمل التناقض في ذاتها، مما يتنافى مع علم الله المطلق الكامل الخالي من النقص والتناقض، مثال ذلك قوله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (آل عمران ٩٧)، فهذه الآية فيها أمر أوجبه الله على الناس هو الحج، ولو كانت من القرآن لرأيتهم يؤدون الحج خلقة شاءوا أم أبوا، ولقام إشكال في الآية يكمن في أنه كيف يطلب الله عز وجل من الناس التوجه للحج إذا كانوا أصلا مخلوقين لأدائه بالفطرة تكوينياً؟ وعليه، فإن أم الكتاب ليست في اللوح المحفوظ ولا الإمام المبين ولا علاقة لها بالقرآن لأن القرآن نبوءة وأم الكتاب رسالة، وجودها ليس سابقاً فيه جعل كما هو الشأن بالنسبة للقرآن بل تلازم فيها الإنزال والتنزيل، رسالة جاءت بالتشريع ليتم تطبيقه بأفعال إرادية واعية طوعية نابعة من قناعة إنسانية حرة، وهو تشريع يتناسب مع حياة الإنسان كل حسب ظروفه الزمكانية الخاصة بكل عصر، والإنسان ينقاد للتشريع بكل إرادته بواسطة الوعي الناتج عن نفخة الروح فيه، استجابة لمتطلبات احتياجاته لتحقيق حياة أفضل.

إن التباس الأمر لدى المسلمين في جعلهم أم الكتاب من القرآن والقصص المحمدي من أم الكتاب وخلطهم في مسألة الحرية والقضاء والقدر والجبر والاختيار، والتقرير الحتمي المسبق لعمر الإنسان ورزقه وعمله، وماهو الموجود مسبقاً قبل أن يدخل في المدركات وماهو غير الموجود، هو الذي جعلهم يعيشون التخلف في شتى مستويات الحياة ومجالاتها العلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية

والمدنية والاجتماعية، وليس كما يتصورون ويزعمون من أن ذلك راجع إلى تقاعسهم عن آداء الشعائر والعبادات.

إن غموض هذه النقاط بالذات هي التي تسببت لكثير من العرب والمسلمين في أن يبحثوا عن هوية أخرى غير الهوية العربية الإسلامية، وأن يرفضوا الإسلام جملة وتفصيلاً، علماً بأن السلف قد بحثوا هذه الأمور ووضعوها ضمن أطر مقبولة إلى حد ما منذ مئات السنين حسب أرضيتهم المعرفية، ولكن هذه الأطر غير مقبولة الآن طبقاً لمستجدات العصر ومعطياته، وهذا هو السبب الأساسي في دخول فلسفات غير إسلامية إلى عقر دار المسلمين.

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا عن أم الكتاب ما يلي:

١– تتألف أم الكتاب من مجموعة الآيات المحكمات التي تشمل آيات المحرمات والنواهي الظرفية، وآيات الحدود، وآيات الشعائر، وآيات القيم الإنسانية. وهي آيات لا تحمل في طياتها تشابهاً، فالتشابه موجود فقط في القرآن والسبع المثاني. أي أنها لا تحمل صيغة المطلق بتاتاً، وغير قابلة للتأويل لأنها آيات لا تبصر وليس لها وجود مادي مشخص قائم في ذاته، وتتعلق بالسلوك الإنساني لا بالوجود الموضوعي، وهي مناط القضاء الإنساني، ففيها الرفض وفيها الإيجاب. أي أنها فرقت بين الحلال والحرام وإفعل ولاتفعل في السلوك الإنساني الواعي ولم تفرق بين الحق والباطل "الحقيقة والوهم" في الوجود الموضوعي المطلق خارج الوعي الإنساني.

لذا فمن الخطأ الفاحش اعتبار أم الكتاب هي فاتحة الكتاب كما يعتقد البعض، لأن هذا يناقض بنية الكتاب التي تفترض لزوماً وجود أحكام، والفاتحة لا أحكام فيها. وإذا كانت الفاتحة هي أم الكتاب فهذا يعني بالضرورة أن كل السور من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الناس من المتشابهات وتفصيل الكتاب، وأن أحكام الصوم والصلاة والحج والزكاة وبر الوالدين والإرث هي من المتشابه القابل للتأويل، علماً بأنه لا يمكن تأويله طبقاً لقوله تعالى {.. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ..} (آل عمران ٧) ولوقعنا في تناقض مرعب، إذ كيف نأمر الأطفال وهم في سن العاشرة بالصلاة؟ وأي إنسان يفهم آية الإرث وآية الوضوء، وأي إنسان يفهم أحكام الصوم، ولأصبحت أم الكتاب عبارة عن أمور خاضعة للبحث العلمي الموضوعي، علينا لتأويلها أن ننشئ معهد أبحاث الصدق، ومعهد أبحاث بر الوالدين، ومعهد أبحاث الوضوء، ومعهد أبحاث الإرث، ومعهد أبحاث الصلاة، مع أن هذه الأمور تخضع للاجتهاد "الفقه".

٢– بما أن محتويات أم الكتاب ليس لها علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين وليست مطلقة {.. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً..} (المائدة ٤٨) فإنها تخضع للتبديل

والاجتهاد "والاختلاف بين أمة وأخرى في زمن وآخر"، وقد أوحيت مباشرة من الله سبحانه وتعالى، أي أن قوله تعالى {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ..} (الإسراء ٣٣)، يبيح قتل النفس بالحق، لكن هذا الحق يبقى محل اجتهاد بين الأمم حسب اختلاف العصور.

فمقام التشريع في الرسالات المتعاقبة كان في المسموح والممنوع، وهذا هو السر الأكبر في وجود الناسخ والمنسوخ بين الرسالات لوجود التطور في التشريع. ولذلك نحذر من الظن بوجود ناسخ ومنسوخ في التنزيل الحكيم عموماً وفي أم الكتاب خصوصاً. لقد وقع النسخ في أحكام الرسالات المتعاقبة التي جاء بها موسى وعيسى ومحمد (ص)، وهذا ما نفهمه من الأحكام المختلفة التي جاءت للرسل، لأن التشريعات التي جاؤوا بها كانت مرحلية ظرفية خاصة بمجتمعاتهم، عدا الرسول محمد (ص) الذي جاءت رسالته عالمية وخاتمة. فالله سبحانه أرسل تشريعات مختلفة لرسل وأقوام لم يقصها على نبيه الكريم لأن هذه التشريعات كانت مرحلية وألغيت، وهذا ما نراه أيضاً بالنسبة لموسى وعيسى. فالله سبحانه عندما حرم على الذين هادوا الحوايا وما اختلط بعظم قال {.. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (الأنعام ١٤٦) أي أنهم لو لم يبغوا لما حرم عليهم، ثم جاء عيسى رسولاً إلى بني إسرائيل ليقول لهم {.. وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..} (آل عمران ٥٠). أما ضمن الرسالة الواحدة فليس هناك ناسخ ومنسوخ في أحكامها، وإلا اعتبر ذلك ضرباً من العبث، وحاشا لله أن يكون عابثاً بل له العلم المطلق سبحانه العالم بالسلوك الإنساني وتغيراته. لذا جاء التشريع تدريجيا لملائمة تغيرات السلوكيات الإنسانية حسب مراحله التاريخية وحسب تطور معتقداته. ولقد جاء النسخ بين الرسالات فقط، أما النبوءات فلم يحدث فيها نسخ، بل حصل فيها تراكم معرفي تكاملي ساعد الإنسانية في مختلف مراحلها التاريخية على التطور المعرفي من خلال القفزات المعرفية التي كان يأتي بها الأنبياء.

وقد أوضح الله عملية النسخ بين الرسالات في قوله تعالى {يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩). هنا نلاحظ أمرين هامين اثنين، أولهما أن أم الكتاب هي التي يحدث فيها التغيير، أي فيها يمحو الله أو يثبت ما يشاء من أحكام بأن ينسخ ما أراد نسخه من الأحكام بعد تشريعها ويبقي على ما أراد، وفي ذلك حكمة إلهية تتمثل في أن الأحكام هي التي تستجيب للواقع ومتطلباته وليس العكس كما يرى الفقهاء، والله عز وجل يوضح لنا ذلك صراحة في تنزيله ليبين أن الأحكام يجب أن تكون مسايرة لحياة الناس ومتطلباتهم ومستجيبة لإشكالاتهم المعيشية، وأن على المشرع مراعاة ذلك، بدليل أنه هو نفسه سبحانه وتعالى قام بالنسخ بين الأحكام الواردة في الرسالات المتعاقبة ليبين لنا وجوب تماشي الأحكام التشريعية مع الظروف الموضوعية والوعي الإنساني لكل

مرحلة. لذا قدمها في آخر رسالة جاء بها الرسول محمد (ص) على شكل أحكام مجردة نظرية محصورة بين حدين أدنى وأعلى، ثم ترك باب التطبيق مفتوحاً على مصراعيه كل يطبقها حسب ظروفه الموضوعية وأرضيته المعرفية، ويقلدها في الأحكام الوضعية المدنية التي لا علاقة لها بالتشريع الإلهي كقانون السير وغيره. وبما أن رسالة خاتم الأنبياء والرسل جاءت خاتمة الرسالات فهي تمتاز بالكمال والشمول والأبدية، ولا يمكن أن تتضمن في ثناياها نسخاً بين أحكامها لأن ذلك يعتبر عيباً ونقصاً فيها، تنزه الله عن العيب والنقص في علمه.

أما الأمر الثاني الذي يمكننا فهمه من سياق الآية السابقة فهو أن أم الكتاب ليس لها علاقة بالقرآن إطلاقاً، بدليل عبارة {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} أي أنها من عند الله مباشرة. وعلينا أن نعلم أن هذه الآيات قابلة للتزوير وقابلة للتقليد ولا يوجد فيها أي إعجاز، بل جاءت قمة للصياغة الأدبية العربية، لهذا فهي بحاجة إلى حفظ ورقابة وتصديق، وتلك هي إحدى مهمات القرآن. فالقرآن مصدق لأم الكتاب {تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} وحافظ لها من التزوير والإضافات والنقصان، ولذا جاءت آيات أم الكتاب موزعة بين آيات القرآن.

إن من الخطأ القول بأن الله يخلق آيات أم الكتاب وينزلها، لأن خلق الله حق، وآيات أم الكتاب لا علاقة لها بالحق وإنما هي "سلوك" لذا فكلمة "خلق" وكلمة "جعل" وكلمة "سوّى" لا تنطبق عليها. ففي تفصيل الكتاب وأم الكتاب والقصص المحمدي حصل الإنزال والتنزيل دفعة واحدة. أي أن تفصيل الكتاب وأم الكتاب والقصص المحمدي لا علاقة لها بليلة القدر ولم يتم تخزينها عربية قبل التنزيل لأن الإنزال والتنزيل كانا آنيين ومتلازمين لها، مع فرق بينها هو أن تفصيل الكتاب لا من الرسالة ولا من النبوة بينما أم الكتاب جاءت بالرسالة حصراً، أما القصص المحمدي فهو جزء من القرآن ومن القصص القرآني أي من "النبوة".

لننتبه الآن إلى مسألة مهمة هي أنه لو كانت أم الكتاب من القرآن لتغير القرآن عند نسخ أحد الأحكام من رسالة لرسالة أخرى وهذا محال، ذلك لأن القرآن له وجود مسبق قبل جعله وإنزاله، ولأن الله لا يغير القرآن من أجل أحد ولا ينسخ شيئاً من القرآن من أجل أحد. فقوانين الموت مثلاً من القرآن "الموت حق" ولو طلب محمد (ص) من الله أن لا يموت ويخلد في هذه الدنيا لما استجاب له، إنما يمكن أن يسأله طول العمر فيحدث ذلك بالتصرف بالقوانين الجزئية للطبيعة في"الجزء المتغير" من القرآن، ويمكن أن يطلب المغفرة من الذنب، ويمكن أن يطلب الجنة، أما طلب الخلود فلا يتحقق لأن الموت كتاب موضوعي من كتب القرآن لا تتغير شروطه من أجل أحد.

عندما نفهم أن الله سبحانه سهَّل على عباده وطور في أحكامه بين الرسالات مع تطور التاريخ وتغير الشروط الموضوعية والأرضية المعرفية، وغير في أحكامه مع بني إسرائيل لأنهم بغوا، طبقاً لقوله تعالى {.. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (الأنعام ١٤٦). ثم غير هذا الحكم مع عيسى بقوله {.. وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..} (آل عمران ٥٠). نفهم معنى قوله تعالى {يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩). وهنا يكمن السر الأكبر في وجود النسخ بين أحكام الرسالات المتعاقبة من موسى إلى عيسى ثم إلى محمد (ص)، أما في الرسالة الواحدة فلا يوجد نسخ بين أحكامها. لذا يجب أن ننتبه إلى هذه النتيجة المهمة والتي توضح عدم علمية ما يذهب إليه الفقهاء من القول بالنسخ بين أحكام الرسالة المحمدية، وذلك راجع لتقصيرهم في فهم نظرية الحدود التي جاءت في التنزيل الحكيم وفي أم الكتاب تحديداً، وتأرجحت حدودها بين الحدين الأدنى والأعلى، مما قد يجعل غير المدرك لهذه النظرية يظن بوجود تناقض بين أحكام الرسالة المحمدية فيضطر إلى اللجوء للقول بالنسخ، وهذا ما حصل للفقهاء لعجزهم عن استيعاب نظرية الحدود التي جاءت في الرسالة المحمدية بصيغة التجريد محصورة بين حديها الأعلى والأدنى، على أن يرجع تطبيقها العملي إلى أهل كل عصر لينظروا فيها ويشرعوا ما يرونه مناسبا لظروفهم. وهذا ما حصل للرسول في اجتهاداته فقد كانت سنته هي التطبيق الأول لنظرية الحدود دون خروج عن أعلاها وأدناها، وهذا ما يعطي مصداقية أكثر للنزيل الحكيم وينفي عنه كل تهم النقص والتناقض. وكذلك كانت مهمته في تنظيم الحلال (تقييد المطلق وإطلاق المقيد) حيث المطلق هو الحلال وتقييد الحلال وإطلاقه لا يأخذ الطابع الشمولي الأبدي ولا قياس عليه حتى لو جاء من الرسول الأعظم فهو ما يقابل القانون المدني في المجتمع.

لننتقل الآن إلى آيات الإنزال والتنزيل في أم الكتاب:

– الإنزال: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..} (الرعد ٣٧).

– التنزيل: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الزمر ١) هنا ذكر التنزيل للكتاب حيث أن أم الكتاب هي جزء منه، وقد تلازم الإنزال والتنزيل في أم الكتاب وتفصيل الكتاب.

لنلخص الآن الجعل والتنزيل والإنزال:

١– الجعل: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف ٣) وهو للقرآن فقط بما فيه من قصص قرآني عدا القصص المحمدي الذي لم يخضع للجعل لعدم وجوده المسبق كسائر القصص المحمدي، فقد عومل معاملة استثنائية لخصوصيته كما رأينا.

٢– الإنزال:

أ– للقرآن بكل أقسامه بما فيها القصص المحمدي: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف ٢).

ب– لأم الكتاب: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا..} (الرعد ٣٧).

ج– للكتاب كله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} (الكهف ١). هنا ذكر الإنزال للكتاب كله لكي يشمل القرآن وأم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني.

٣– التنزيل:

أ– القرآن كله بكل أقسامه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ تَنْزِيلًا} (الإنسان ٢٣).

ب– أم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني معاً جاؤوا في تنزيل الكتاب {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الزمر ١) {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (غافر ٢) {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الجاثية ٢، الأحقاف ٢). أما بالنسبة للسبع المثاني، فقد ذكر الإنزال للكتاب بقوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ..} (الكهف ١). وذكر التنزيل على حده في قوله {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ..} (الزمر ٢٣). ففي كل القرآن عدا القصص المحمدي تلازم الإنزال والجعل وافترق التنزيل حيث حصل على مدى ثلاث وعشرين سنة، أما في القصص المحمدي فلم يحصل الجعل لعدم وجود مسبق له، وتلازم فيه الإنزال والتنزيل على مدار ثلاثة وعشرين سنة. وفي أم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني كذلك تلازم الإنزال والتنزيل دون جعل. أي أن أم الكتاب وتفصيل الكتاب والسبع المثاني أنزلت ونزلت أيضا على مدى ثلاث وعشرين سنة، ولم يكن لها جعل لعدم وجودها المسبق.

فتنزيل الكتاب كله كان على مدى ثلاث وعشرين سنة، لذا لم يخصص آية خاصة لتنزيل أم الكتاب، بل قال: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الزمر ١) لأن خصوصية فصل الإنزال عن التنزيل جاءت للقرآن وحده دون بقية مواضيع الكتاب ولذا خصها وذكها صراحة لأنها من خصوصياته.

إن ترتيب الكتاب بهذا الشكل وتداخل القرآن مع أم الكتاب واستعمال المصطلحات هو من قول رب العالمين مباشرة وليس له أي علاقة بتخزين موضوعي مسبق، أي ليس له علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين.

أما السبع المثاني فقد حصل التنزيل فيها بقوله تعالى {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ..} (الزمر ٢٣)، أما الإنزال فقد تجسد في مقاطع صوتية وأعداد مجردة، والأعداد المجردة هي علم رب العالمين المباشر {.. وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} (الجن ٢٨) وفيها مفاتيح الثوابت

الرياضية كأعداد مجردة ومفاتيح نشأة الكلام الإنساني كأصوات، وليس لها علاقة بلغة معينة عربية أو غير عربية، وقد سماها {أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} وهي أكثر الآيات تشابهاً في الكتاب لذا قال عنها {كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} ولا يوجد فيها جعل ولا يفهمها إلا كبار علماء اللغات والرياضيات على مرّ العصور، وإلى اليوم لم يتم تأويلها، وتلازم فيها الإنزال والتنزيل.

وإني لأعجب تمام العجب كيف كانت أم الكتاب عند المفسرين في سورة آل عمران هي مجموعة الآيات المحكمات فأصبحت في سورة الرعد "اللوح المحفوظ". علماً بأن "أم الكتاب" مصطلح، والمصطلح لا تشابه فيه، فهو عادة ما يعرف. وقد عرَّفه سبحانه بقوله تعالى {مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ..} (آل عمران ٧).

وأعجب كيف كان الكتاب عند المفسرين هو المحكم والمتشابه في سورة آل عمران {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ..} ثم أصبح هذا الكتاب في فاطر ٣١ هو اللوح المحفوظ. {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ..} علماً أنه جاء معرفاً في الحالتين، ولو جاء منكراً في الحالتين لقلنا إن هذا كتاب، وذاك كتاب آخر. ولو جاء معرفاً في حالة ومنكراً في أخرى لقلنا: هذا غير هذا. من ناحية أخرى، لقد جاء الكتاب معرفاً في آل عمران ٧ لكنه جاء منكراً في قوله تعالى {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ..} (هود ١)، وظن المفسرون أن الكتاب المعرف في آل عمران هو نفسه الكتاب المنكر في سورة هود. مع أن معنى الكتاب في آل عمران ٧ هو المحكم + المتشابه + اللامحكم واللامتشابه، أي الرسالة والنبوة، أم الكتاب والقرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، أما {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ} في سورة هود فهو الرسالة فقط أي الكتاب المحكم فقط، حيث جاء الكتاب منكرا فعرف بإضافة {أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ} فأصبح في هذه الحالة الكتاب المحكم.

ـ أم الكتاب وتفصيل الكتاب جاءا من العرش (أي من عند الله)

لنأخذ أولاً معنى العرش: فالعرش في اللسان العربي جاء من "ع ر ش" ولها أصلان صحيحان:

ـ الأول: عرش الرجل هو قوامُ أمره.

ـ الثاني: العرش هو ما يجلس عليه من يأمر وينهى. "لاحظ أن المعنى الثاني مرتبط بالأول".

فالأساس في العرش هو الأمر. فقولنا إن الملك حسيناً تولى عرش الأردن، هذا يعني أنه أصبح الآمر الناهي في الأردن. وهنا لا يقصد العرش الذي يجلس عليه. فإذا صنعنا عرشاً وكرسياً في

دمشق مثل العرش والكرسي الذي يجلس عليه الملك حسين، فهذا لا يعني أن الذي يجلس على هذا العرش والكرسي أصبح آمراً ناهياً في الأردن.

لقد جاءت لفظة العرش بمعنى الأمر والنهي في الآيات التالية:

١- {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ..} (هود ٧).

٢- {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ..} (الأعراف ٥٤).

٣- {.. وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} (الحاقة ١٧).

٤- {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه ٥).

٥- {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} (الإسراء ٤٢).

وجاءت بمعنى المكان الذي يجلس عليه الآمر الناهي في الآيات التالية:

- {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا..} (يوسف ١٠٠)

هنا استعمل العرش لأن يوسف كان آمراً ناهياً في مصر.

- {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} (النمل ٢٣).

- {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا..} (النمل ٣٨).

- {قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ..} (النمل ٤١).

- {فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ..} (النمل ٤٢).

وهنا في الآيات الأربع من سورة النمل ذكر عرش ملكة سبأ لأنها كانت تأمر وتنهى.

نعود الآن إلى الآيات الخمس الأولى. فنقول في الآية الأولى هود ٧:

بعد الانفجار الكوني الأول وقبل تشكل العناصر المادية المختلفة، كان الكون كله مؤلفاً من عنصر واحد هو الهيدروجين (مولد الماء) (ماء Hydro) و(توليد gen) في هذه المرحلة لم يكن ثمة مجرات ولاكواكب ولانجوم ولاحياة سوى الهيدروجين (مولد الماء). وفي هذه المرحلة كان أمر الله على مولد الماء، فقال {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود ٧). وهذا هو العرش الأول.

وفي الآية الثانية (الأعراف ٥٤):

بعد أن تكونت المجرات والسموات والأرض والنجوم والكواكب أصبح عرش الله "أمره" عليها فقال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} وهذا هو العرش الثاني بدلالة أنه أنهى الآية بقوله تعالى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} لاحظ كيف ذكر عناصر أخرى غير الهيدروجين من شمس وقمر ونجوم.

وفي الآية الثالثة (الحاقة ١٧):

بعد أن تقوم الساعة إيذاناً ببدء تغير صيرورة مادة كوننا هذا، وبتكون كون جديد بقوانين جديدة فيه نبعث ونحاسب، يمتد أمر الله "عرشه" على هذا الكون الجديد ولهذا قال {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} وهذا هو العرش الثالث. لاحظ قوله "يومئذ".

وفي الآية الرابعة (طه ٥):

العرش هنا اسم جنس لأمر الله من قبل ومن بعد، لأنه لم يعطه أية صفة إضافية كقوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} و{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} و{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}. لاحظ أن العرش بمعنى الأمر ليس له مفهوم مكاني.

وفي الآية الخامسة (الإسراء ٤٢):

إذا كان هناك عدة آلهة فلهم من يرأسهم ومن له الأمر والنهي عليهم لذا قال {إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } أي إلى صاحب الأمر والنهي فيهم، ليكونوا آمرين ناهين مهيمنين مسيطرين.

الاستواء لا يعني الجلوس، فأحد معانيه اللغوية الاستقرار والسيطرة والاستحكام كما في قوله تعالى {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} (الزخرف ١٢–١٣). فعندما يركب الإنسان دابةً غير مروضةٍ فإنه يستطيع الركوب عليها ولكنه لا يستحكمها بحيث يستقر عليها وتخضع له تماماً يوجهها كيف يشاء، فتأمل مفهوم الاستواء حين لا يقصد به الجلوس وإنما الاستحكام والسيطرة الكاملة، ولاحظ كيف وضع "إذا" قبل "استويتم" لأن الفترة الزمنية بين محاولة الإنسان تذليل الأنعام ونجاحه في تذليلها كانت فترة غير قصيرة.

أما الكرسي فيأتي فوق العرش من ناحية المرتبة والأولويات، لا من الناحية المكانية، لأن الذي يأمر وينهي عليه أن يعلم على ماذا يأمر وينهي. فالأمر والنهي لا يتم بدون المعرفة الكاملة على ما يأمر وينهي، وهذا هو الكرسي. والكرسي جاءت في اللسان العربي من "ك ر س" فنقول: كرست نفسي لهذا العمل، أي أعطيته كل وقتي ومعلوماتي. وقالت العرب: العلماء كراريس. ومنها جاءت الكراسة، والكراسة هي ما تدون عليها المعلومات وبهذا المعنى جاء قوله تعالى {.. وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ..} (البقرة ٢٥٥) لاحظ أن الكرسي هنا من الكراسة، لا من الكرسي الذي يجلس عليه الإنسان فعبارة {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} تعني وسع علمه كل الموجودات وذلك لكي يأمر وينهي، وقد قال قبلها {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} (البقرة ٢٥٥).

٤ – الإنزال والتنزيل للملائكة

قلنا إن الإنزال هو ما يدخل في المدركات، وإن التنزيل هو نقل موضوعي خارج الإدراك. فإذا قال الله سبحانه وتعالى "أنزل ملائكته" فهذا يعني أن الملائكة يمكن مشاهدتها من قبل الناس وتصبح من المدركات. وإذا قال الله سبحانه وتعالى "نزل ملائكته" فهذا يعني أن الملائكة تأتي موضوعياً ولكن الناس لا تشاهدها ولا تدركها.

فالإنزال بالمعنى الأول جاء عن قوم نوح، إذ كان نوح أول نبي ورسول من البشر أوحي إليه، وكان الله يرسل إلى الناس قبله ملائكة لتنذرهم، لأن البشرية قبل نوح كانت قريبة من المملكة الحيوانية ولاتفهم إلا المشخص المجسم "الإدراك الفؤادي" بدليل قوله تعالى {.. وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} (فاطر ٢٤). فلما جاء نوح وكان الناس قد اعتادوا أن يرسل الله ملائكة ولا يرسل بشراً، قال له قومه {.. وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون ٢٤)، أي أن قوم نوح لم يصدقوا أن الله عز وجل لا يرسل ملائكة {.. ومَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا..} (هود ٢٧) لذا قال لهم {.. وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ..} (هود ٣١). إنهم كذبوا نوحاً وكذبوا الرسل من الملائكة التي أتت قبله لذا قال {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٠٥) وقال {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } (الشعراء ١٢٣) وقال {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٤١).

هذه الظاهرة بقيت في أذهان الناس حتى بعثة محمد (ص) بدليل قوله تعالى {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (هود ١٢) وقوله تعالى {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ} (الأنعام ٨) أي أنهم أرادوا أن يروا الملائكة مشخصة مع محمد (ص)، وأرادوها أن تدخل ضمن إدراكهم.

أما التنزيل للملائكة فيعني نقلة مادية موضوعية خارج الوعي الإنساني كنقل الصوت والصورة عن طريق الأمواج، وكذلك الظواهر التي ترى بالعين أو تسمع بالأذن لكنها لا تدخل ضمن المدركات "المعقولات الإنسانية" كشق موسى للبحر وغيرها من الآيات البينات، وفي هذا المعنى قال تعالى {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} (الشعراء ٤). وهكذا جاء التنزيل للملائكة كنقلة الأمواج، وهو أن تنزل الملائكة تنزيلاً مادياً دون أن يراها أحد {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} (القدر ٤) أو أن تُرى وتسمع ولكن دون أن تدرك أو تعقل كقوله تعالى {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا

أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} (الأنعام ١١١) وكقوله {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا} (الإسراء ٩٥).

٥ – الإنزال والتنزيل للمن والسلوى

لقد جاء الإنزال والتنزيل في المن والسلوى. فجاء الإنزال في قوله تعالى:

– {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (البقرة ٥٧).

– {وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (الأعراف ١٦٠).

وجاء التنزيل في قوله تعالى {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ..} (طه ٨٠ – ٨١).

فعندما قال: {أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} دخل في مدركاتهم أن هذه للطعام لذا أتبعها دون أن يقطع الآية {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}.

وعندما قال {نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} حصلت نقلة خارج الوعي بأن جاءهم المن والسلوى دون أن يعلموا ماهي ولأي سبب، لذا قطع قوله وجعل عبارة {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} في آية أخرى تحت عنوان "التنزيل" ثم أدرك بنو إسرائيل ماهو المن والسلوى وأنه للأكل، فكان "الإنزال".

– الإنزال والتنزيل للماء

الماء في الإنزال بعبارة "أنزل الماء" ظاهرة قابلة للإدراك وهي كما في قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ..} (الزمر ٢١). يعني أنّ ظاهرة جريان المياه ينابيع في الأرض "المياه الجوفية" ظاهرة قابلة للإدراك الإنساني، فادرسوها ياأولي الألباب، هذا ما نسميه اليوم "الهيدرولوجيا".

وقوله {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا..} (الرعد ١٧) يخبرنا سبحانه عن ظاهرة لكي ندركها، أي نقلة من غير المدرك إلى المدرك، ويقول لنا: إن المياه التي تنزل من السماء هي نفس المياه التي تسيل في الأودية والتي تتخزن، والمساواة بينهما كمية.

وعندما يقول {.. وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ..} (لقمان ٣٤) فإنه يخبرنا عن نقلة موضوعية خارج الوعي الإنساني، تحصل موضوعياً خارج إدراكنا. أي أن قرار تنزيل الغيث وإرسال الرحمة للناس يحصل موضوعياً خارج الوعي الإنساني، وكذلك قوله تعالى {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} (ق ٩). أي أن عملية إخراج الحياة النباتية من الماء حصلت موضوعياً قبل أن تدرك من قبل الإنسان.

هذا على قراءة نافع وعاصم وابن عامر {ويُنَزِّلُ الْغَيْثَ} (الشورى ٢٨) وقد قرأ أبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي {ويُنَزِلُ الْغَيْثَ} (في الموضعين) وعلى هذه القراءة فيكون الإنزال مدركاً. وعلى القراءتين فالغيث ينزل موضوعياً خارج الإدراك وهو من المدركات.

– الظواهر التي حصل فيها الإنزال دون التنزيل

لقد جاء الإنزال دون التنزيل في قوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ..} (الحديد ٢٥) وفي قوله {يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا..} (الأعراف ٢٦).

وبما أن الإنزال مرتبط بالوعي الإنساني، فإذا كانت هناك ظاهرة في الطبيعة موجودة موضوعياً ولكن لا يدركها الإنسان وحصل إنزال لها فهذا يعني أنها أصبحت من المدركات. وهنا يكمن التعريف الأساسي لنظرية المعرفة الإنسانية في القرآن، حيث تتلخص في الإنزال. أي أن الوجود بالنسبة للإنسان يسبق الإدراك، والإنزال هو عملية إدراك الموجودات.

فالحديد موجود في الطبيعة ولكنه موجود بشكل فلزات وغير موجود بشكل حر، واستخراجه من الأمور الصعبة بخلاف الذهب والفضة، وأعتقد أن هناك سؤالاً مازال يحير علماء تاريخ العلوم إلى اليوم هو: كيف اكتشف الإنسان الحديد بهذا الوقت المبكر؟ لأن الحديد من المعادن التي عرفها الإنسان قديماً، وكانت معرفته للحديد نقلة نوعية كبيرة في حياة الإنسانية، وقد يسأل سائل: ما دخل الله في حياة الناس؟ أقول: لقد أعطى الله قفزات معرفية للناس في النبوات وأعطاهم قفزات تشريعية في الرسالات. فقوله {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ..} يعني أن الله عن طريق النبوات عرف الناس بالحديد ومنافعه، وأن استخراجه لم يكتشف بالصدفة، لذا أتبع سبحانه الخواص الموجودة في الحديد في نفس الآية بقوله {.. فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ..} (الحديد ٢٥) وهذا هو سر معرفة الإنسان للحديد في مرحلة مبكرة. وإني لا أدري لولا قوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ} هل كنا نركب السيارات ونشيد الأبنية العالية والمصانع في الوقت الحاضر؟ لاحظوا هنا كيف تدخل الله سبحانه وأعطى قفزة معرفية للناس.

ولاحظوا أيضاً أنه لم يقل وأنزلنا النحاس أو أنزلنا الذهب أو أنزلنا النار، لأن الإنسان اكتشف النحاس والذهب والنار دون نبوات. ولو قال: ونزلنا الحديد فهذا يعني أن الحديد كان خارج الأرض ونقله الله إلى الأرض، أي أن الحديد انتقل موضوعياً إلى الأرض من مكان ما كقوله {ويُنَزِّلُ الْغَيْثَ}.

أما قوله تعالى {.. قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا..} (الأعراف ٢٦) فيعني أن الإنسان عندما كان بشراً في المملكة الحيوانية كان عارياً لا يعرف اللباس، ثم عرف بعد ذلك الغطاء "السرابيل" غير مخيط ودون مخيط. فمن علم الإنسان ربط قطعة جلد بقطعة أخرى عن طريق المخيط؟ الجواب: إن الله أعطى قفزة للناس بأن علمهم هذه الظاهرة عن طريق النبوات.

أما الريش فجاءت من "ر ي ش" ويعني كثرة المال "النقد"، يقابلها باللغة الانكليزية Rich. فهنا نقول: من علم الإنسان ظاهرة التجريد الاقتصادي في تبادل السلع؟ لقد قام الاقتصاد في تبادل السلع على مبدأ المقايضة أولاً، فلكي تنتقل هذه العملية من المشخص إلى المجرد وجب أن يكون هناك وحدة قياس للسلعة وهذا ما يسمى بالنقد. وهي عملية تجريد بحتة لتبادل السلع. فهنا نقول مرة أخرى إن الله سبحانه علمهم إياها عن طريق النبوات وأعطى الناس دفعة إلى الأمام.

ـ حالة طلب فيها العرب الإنزال دون التنزيل، وحالة طلبوا فيها التنزيل دون الإنزال

لقد طلب العرب الإنزال دون التنزيل من النبي (ص) بقوله تعالى {.. لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ..} (هود ١٢) فالعرب لم يطلبوا من محمد (ص) أن ينزل كنز كما ينزل المطر من السماء، ولكن طلبوا أن يوحي الله إليه عن مكان كنز مخبأ في الأرض لا يعرف أحد مكانه فيدلهم عليه.

أما الحالة التي طلبوا فيها التنزيل دون الإنزال، ففي سورة الإسراء الآية ٩٣ {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} هنا طلب العرب من النبي (ص) أن يرقى إلى السماء ويأتيهم بكتاب بشكل مادي يرونه بأعينهم، أي أنهم طلبوا أن يأتي الكتاب من السماء منسوخاً على قرطاس ويلمس باليد مادياً كما في قوله تعالى {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأنعام ٧).

٦ ـ الإنزال والتنزيل لمائدة من السماء

ننظر في الآيات التالية:

– {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (المائدة ١١٢).

– {قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة ١١٣).

– {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ} (المائدة ١١٤).

– {قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} (المائدة ١١٥).

فنلاحظ ما يلي:

١– طلب الحواريون من عيسى تنزيل مائدةٍ من السماء، أي طلبوا مائدة مادية ليأكلوا منها مادياً تنزل عليهم موضوعياً كسقوط التفاحة من الشجرة إلى الأرض أو كسقوط الغيث، وكان هذا طلباً كبيراً، لذا قال: {اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وكان هذا الطلب هو "تنزيلا".

٢– كان طلب الحواريين لوجود شك عندهم في صدق المسيح بدليل قولهم {وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا}.

٣– لقد طلب المسيح من الله سبحانه إنزالاً بشأن المائدة، أي طلب وحياً بشأنها، لأن المسيح كان لا يشك مطلقاً بصدق الله معه، وهو شخصياً ليس بحاجة إلى أي بينة مادية من عند الله.

٤– لقد استجاب الله لطلب الحواريين بقوله {إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ} "تنزيل" فجاءتهم مائدة مادية من السماء دون أي وحي بشأنها لذا قال لهم: {فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}، هذا على قراءة نافع وابن عامر وعاصم (إِنِّي مُنَزِّلُهَا). وقرأ أبو عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي (إني مُنْزِلها) "إنزال" فيكون المعنى على هذه القراءة أن الله استجاب لطلب عيسى عليه السلام فكان الإنزال بأن أوحى إليه وحياً بشأنها لولا أن تواتر الأخبار يفيد بأنها تنزلت بصورة مادية "العشاء الرباني". وهذا يرجح قراءة نافع وابن عامر وعاصم.

ويحسن هنا أن أختم هذا الفصل بالوقوف على شرح قوله تعالى {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الحشر ٢١).

فأقول: بما أن محتويات القرآن كلها علوم الحقيقة الموضوعية المادية والتاريخية، فلو أنزل هذا القرآن على جبل "أي دخل في مدركات الجبل" لأصبح الجبل عالماً، وبالتالي خاشعاً متصدعاً من خشية الله، والخشية هي الخوف عن إدراك طبقاً لقوله تعالى {.. إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..}

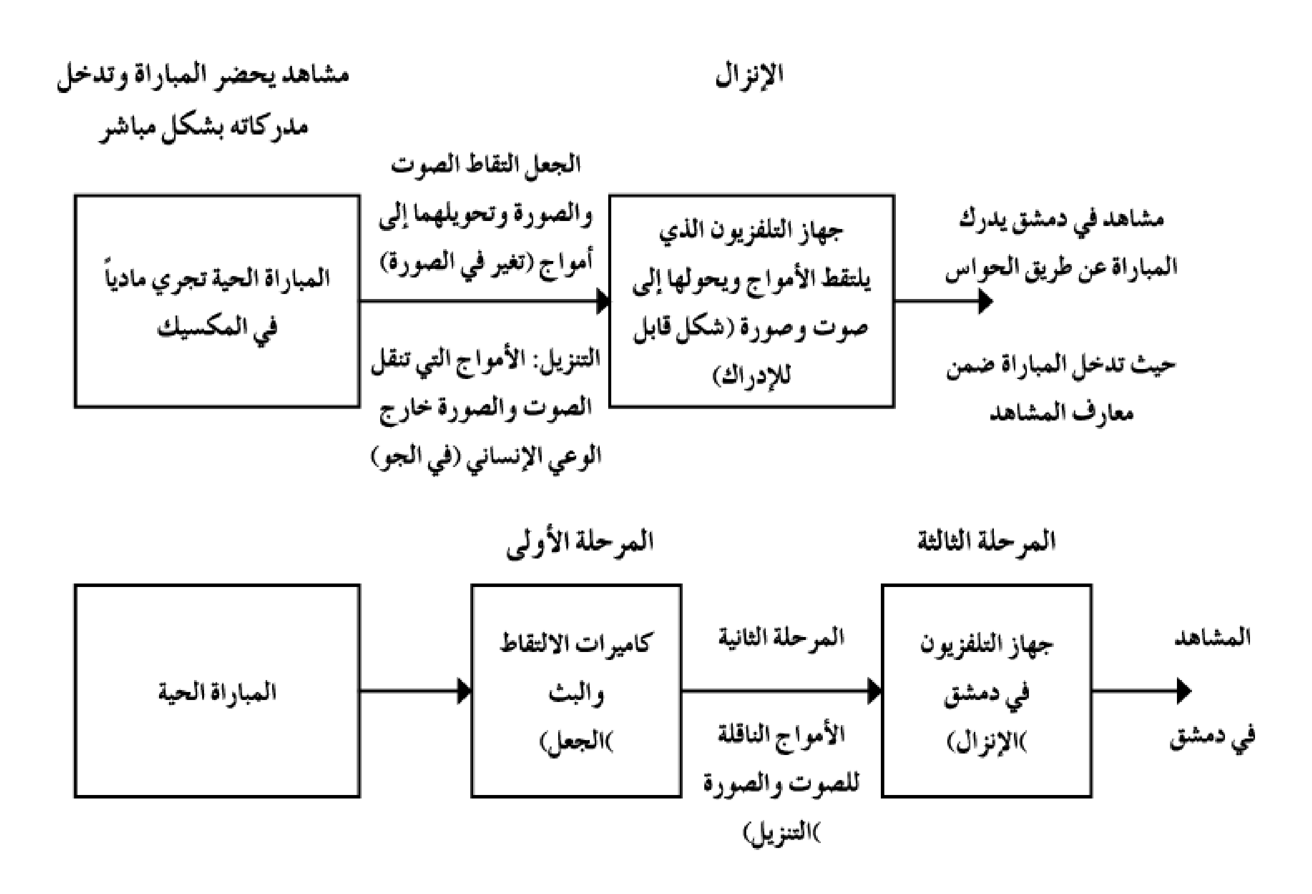
(فاطر ٢٨). ولو قال "لو نزلنا هذا القرآن على جبل" فهذا يعني أنه وضع القرآن مادياً على الجبل كتاباً منسوخاً في قرطاس، ولانطبق على الجبل قوله تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا..} (الجمعة ٥)، فعندما يحمل الحمار أسفاراً "كتباً في قرطاس" فيها معلومات لا يفهمها يبقى حماراً، أما إذا فهمها ودخلت ضمن مدركاته فلن يبقى حماراً. وكذلك الجبل إذا جاءه القرآن واستوعبه أصبح عالماً "الإنزال" وإذا جاءه مادياً ولم يستوعبه يبقى جبلاً كما هو "تنزيل فقط" ولذا قال {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ}.

بعد هذا التفصيل نتوقع أن يرد السؤال التالي: هل فهم السلف الإنزال والتنزيل بهذا الفهم؟ وإن لم يكونوا فهموه كذلك فهل ذلك ضائرهم؟

وأجيب: لو فهموه هكذا لكان الأمر عجباً ولكانت النتائج أعجب، لقد غاب عنهم هذا الفهم لأن أرضيتهم العلمية لم تكن تعينهم عليه. إلا أننا لا ننكر أن بعضهم حام حوله دون أن يقع عليه، فقد حكى سيبويه أن أبا عمرو كان يفرق بين أنزلت ونزلت، ولم يذكر لسان العرب الفرق في "ن ز ل". وعلى كل حالٍ فالقرآن صالح لكل زمان ومكان ويفهمه كل قوم وفقاً لأرضيتهم المعرفية، وإنما أعاننا على هذا الفهم معارف النصف الثاني من القرن العشرين، وأما هم فلا ضير عليهم بشرط أن نكون مقتنعين فعلاً وقولاً بأنه معجزٌ.

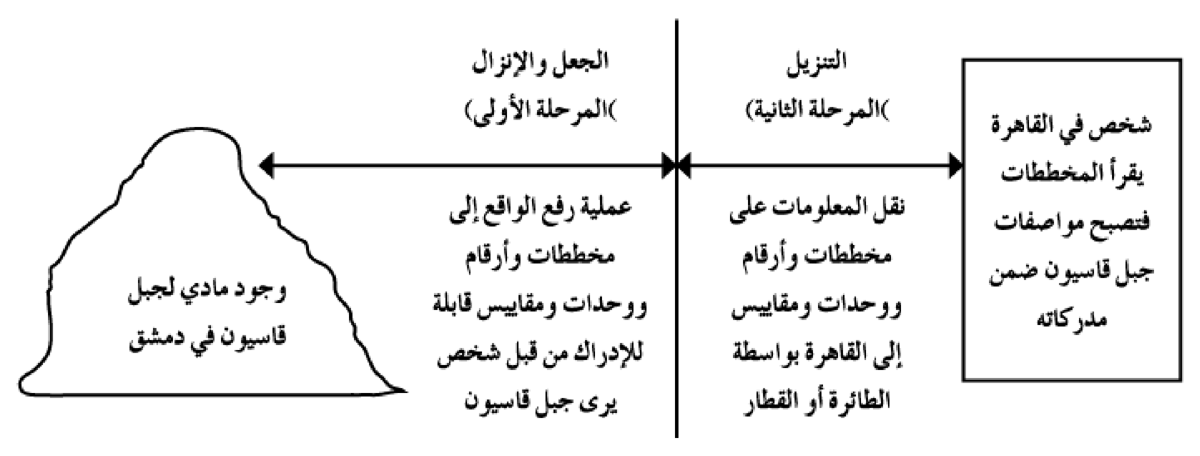
مخطط عملية الإنزال والتنزيل

الحالة الأولى



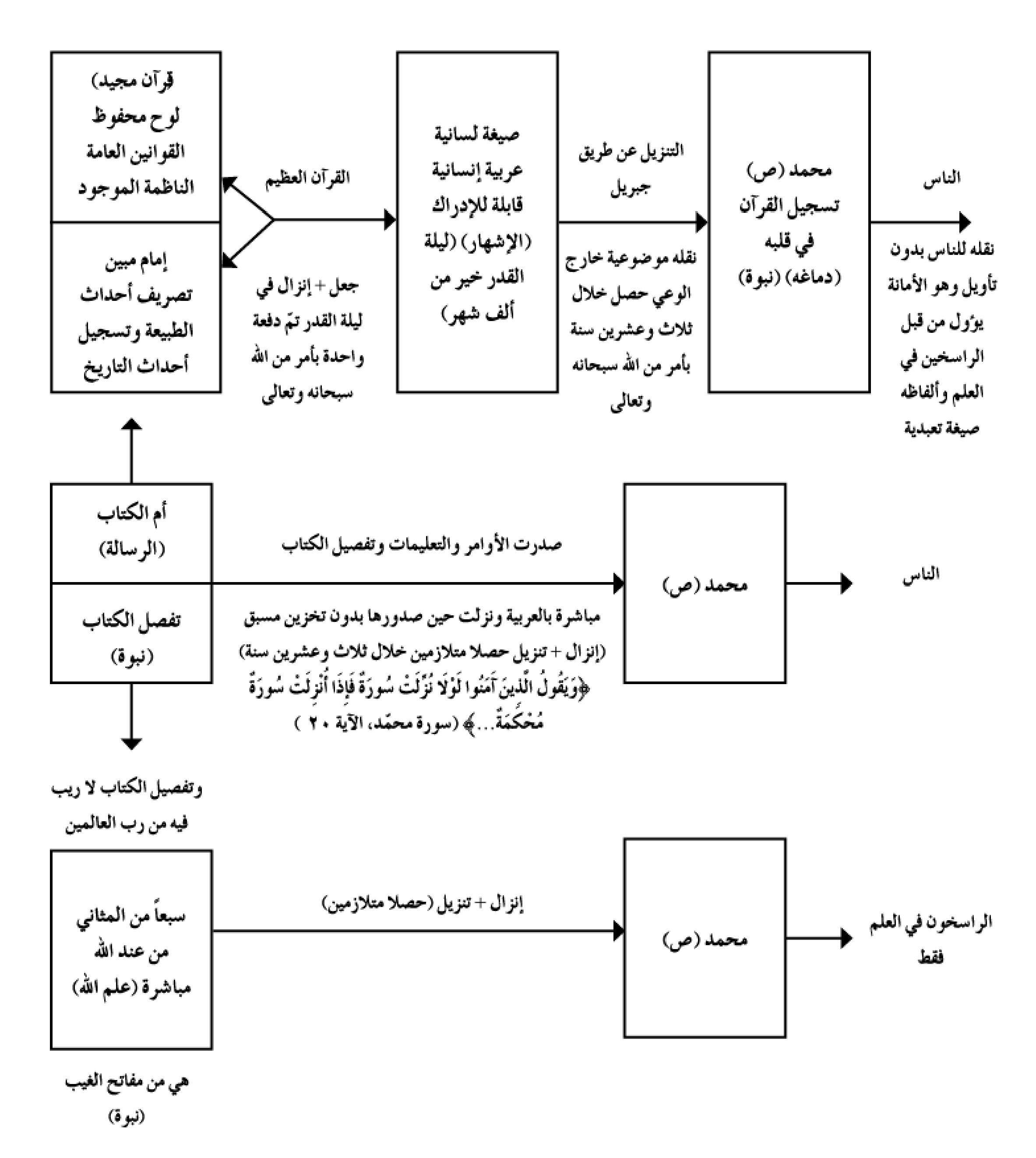
في هذه الحالة لدينا الترتيب التالي وجود مادي للمباراة – جعل – تنزيل – إنزال

الحالة الثانية



الإنزال والتنزيل للكتاب الموحى إلى مُحمَّد (ص)

الذكر المحدث



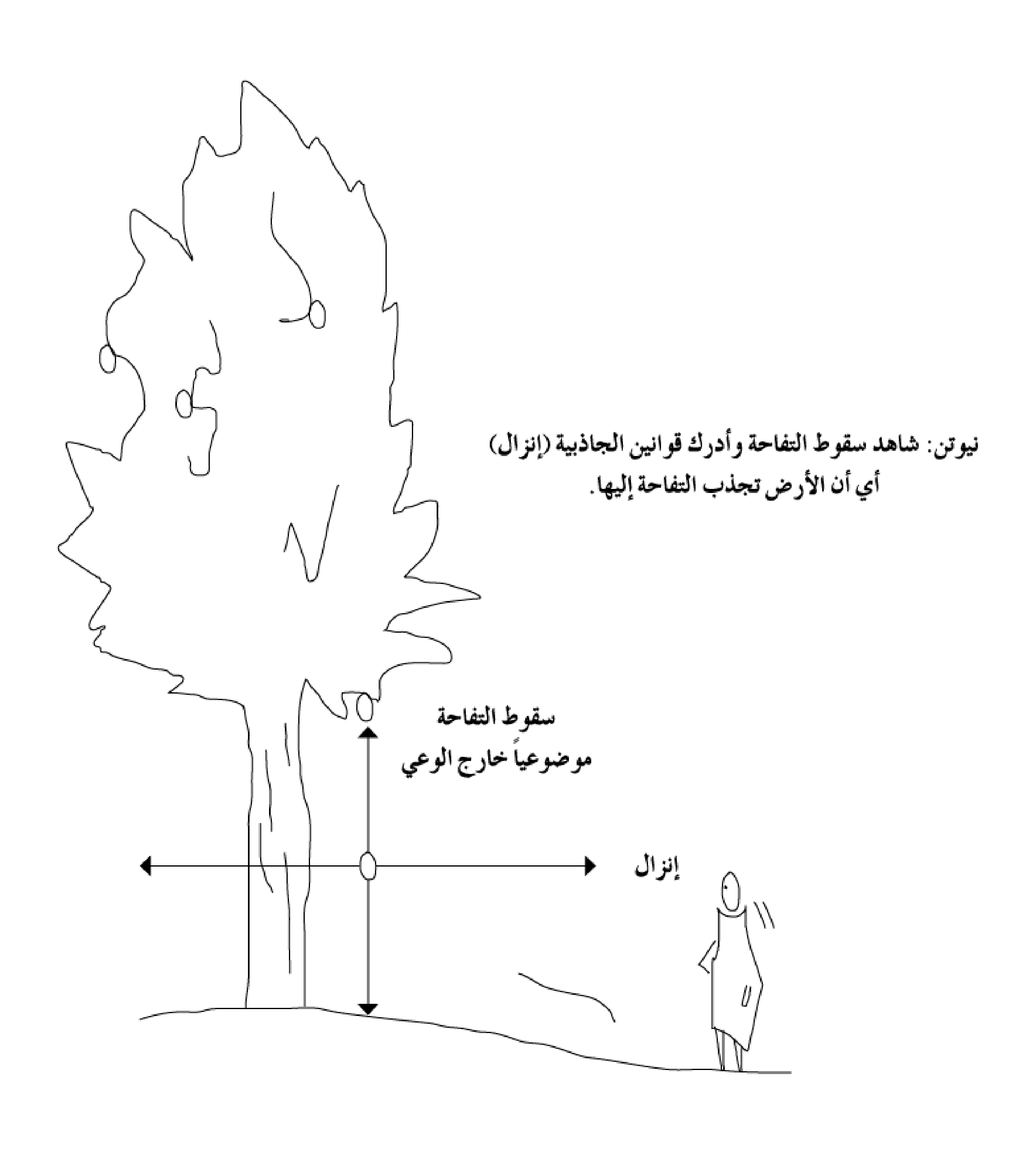
وبما أن الذكر هو الصيغة الصوتية للكتاب كله وهي الصيغة التعبدية فقد أجمل الإنزال والتنزيل فيه بقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤).

وأجمل التنزيل بقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩).

وبما أن الكتاب هو مجموعة المواضيع الموجودة بين دفتي المصحف وهي الذكر من حيث اللفظ فقط فقد أجمل الإنزال فيه بقوله ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (الكهف ١).

وأجمل التنزيل فيه بقوله ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر ٢).

مثال على الإنزال دون التنزيل في تفاحة نيوتن



الفصل الرابع

إعجاز القرآن وتأويله

١ـ التحذير من كتابه الكتاب بأيديهم ونسبته إلى الله، والتحدي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن

القول في إعجاز القرآن يبدأ من موازنة آيتين هما:

– {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة ٧٩).

– {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} (الإسراء ٨٨).

في الآية الأولى يحذر الله الناس أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولوا هذا من عند الله. وفي الآية الثانية يتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

وهنا نحتاج لأن نناقش الأمور التالية:

١ـ إذا كان المقصود بالكتابة الخط، والخط يكون باليد {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ}، فهذا يعني أن المقصود في هذه الآية هم كتبة الوحي فقد خطوا الكتاب وقالوا هذا من عند الله وبالتالي فالويل كل الويل لكتبة الوحي.

٢ـ أما إذا كان المقصود بالكتابة إضافة أحكام إلى الكتاب.

وحصل مثل هذا الأمر فعلاً عند اليهود حيث أضافوا اجتهادات أحبارهم إلى الكتاب، وقد شرحنا أن الكتاب عند موسى وعيسى هو التشريع فقط "الرسالة" فهذا أمر ممكن الوقوع وغير مستحيل، لذا تم التحذير منه فعلاً.

٣ـ إذا كان الكتاب هو المصحف كما يعتقد البعض فكيف يحذرهم مرة من كتابته، ويتحداهم مرة أخرى أن يكتبوا مثله؟ "هذا تناقض كبير جداً". ولكن إذا كان التحذير لشيء والتحدي لشيء آخر استقامت الأمور في نصابها، فالتحذير للتشريع "الرسالة" والتحدي للقرآن "النبوة". والله سبحانه وتعالى يحذر الناس من أمر لا يعجزون عنه، ويتحداهم بأمر يعجزون عنه. هكذا فقط يجب أن نفهم التحذير من أمر غير معجز والتحدي بأمر معجز.

لنبحث الآن في التحذير والتحدي، كل على حده:

أ– **التحذير:** لقد جاء التحذير من كتابة الكتاب ونسبة الكتاب إلى الله. فحتى توضع الأمور في نصابها نفهم هذا التحذير كالتالي:

١– إن الأحكام من الكتاب وليست من القرآن، وهي الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى ولا يوجد فيها أي إعجاز، فلا يجوز للإنسان أن يسن تشريعاً مثل قانون السير أو قانون الجامعات أو قانون الجمارك ثم ينسب هذا التشريع إلى الله، وهذا يؤكد أنه لا يحق لأحد أن يصدر أحكاماً ويعطيها صفة الألوهية، وإنما هي فقط اجتهاد متطور حسب الظروف الموضوعية التاريخية، له الصفة الحنيفية غير الثابتة، هدفه اليسر لا العسر. وقد جاء هذا التحذير لأن اليهود مارسوا ذلك في كتابهم، لذا قال {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}.

٢– لا يجوز أن تدمج اجتهادات النبي (ص) واجتهادات الفقهاء في الكتاب وجعلها جزءاً منه.

٣– لا يجوز تغيير آيات الكتاب من حيث الترتيب والعدد، فمثلاً جاءت الوصايا في سورة الأنعام تحت رقم ١٥١–١٥٢–١٥٣، فلا يجوز وضعها في سورة أخرى أو في مكان آخر من نفس السورة.

٤– لا يجوز وضع تأويل آيات القرآن، والفقه في آيات الأحكام بديلاً عن النص بالإلزام، لأن التأويل يحمل دائماً مفهوم النسبية في المعرفة، والفقه يحمل مفهوم الضرورة المرحلية الحنيفية.

ونسأل الآن: هل هناك تحذيرات أخرى حذر رب العالمين الناس من القيام بها وهي ضمن إمكانياتهم؟ الجواب: نعم، هناك تحذيران خطيران جداً هما:

– **التحذير الأول:** عندما يؤول القرآن وهو الآيات المتشابهات يمكن أن يستنتج من هذا التأويل نظريات فلسفية وحقائق علمية موضوعية تفيد الناس كلهم جميعاً وليس المؤمنين فقط، فتتحقق منها فوائد علمية وعملية. وهذا التأويل يحصل بعد نزول القرآن لا حين نزوله، أي بعد النبي لا في عهده. ولقد حذرنا الله تحذيراً شديداً من كتمان هذه الحقائق والنظريات وما ينتج عنها من فوائد علمية وعملية في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} (البقرة ١٥٩) لاحظ قوله "البينات" ويقصد بها الآيات البينات لذا قال "في الكتاب" حيث توجد فيه آيات أخرى غير الآيات البينات وهي آيات الرسالة. هذه الظاهرة حصلت في تاريخنا عند المتصوفة في مراتب المعرفة في قولهم القطب الفلاني والعالم الرباني قدس الله سره.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: أية أسرار هذه؟ وللجواب احتمالان: الأول، أن يكون عندهم فعلاً أسرار كتموها وبذلك يدخلون تحت بند يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. والاحتمال الثاني، وهو الأرجح، أنه لا يوجد أي أسرار لديهم، وأن ما عندهم ليس أكثر من وهم وخرافة لا يحملان أي قدسية. ثم ماذا قدم هؤلاء العلماء الربانيون للناس، وبأي شيء أفادوهم؟ الجواب: لا شيء سوى الوهم. أما العلماء الربانيون الحقيقيون فقد قدموا للناس البنج والمحرك البخاري والعمليات الجراحية والأدوية ووسائل الاتصال والمراكب البحرية والحاسبات الإلكترونية. وكل ما تنعم به الإنسانية من نعم من نتاج هؤلاء العلماء الربانين، الذين نشروا معارفهم للناس واستفاد كل الناس منها عملياً وعلمياً ولم يكتموها عن أحد لذلك لا ينطبق عليهم قوله تعالى {يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}. وهؤلاء العلماء الربانيون الحقيقيون هم من الخاصة، لكنهم لم يقولوا إن هذه المعلومات للخاصة فقط، بل أسسوا الجامعات ونشروها بين الناس، فأصبحت متوفرة لمن أرادها، ويكفي أن يكون عند العامة رغبة في التعلم ليتعلموها لأنها منشورة في الكتب والصحف والجامعات، والحصول عليها يحتاج إلى أن يفتح الإنسان عينيه وعقله لا أن يغمضهما ويقول "الله، الله، الله" لتشرق عليه الأنوار الربانية.

– **التحذير الثاني:** جاء في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة ١٧٤). فإذا كان التحذير الأول جاء حول كتمان الآيات البينات عن الذين يدركونها لقوله "ما أنزلنا" والإنزال هو من المدركات، فإن التحذير الثاني هو لبقية آيات الأحكام والمواعظ والوصايا. أي أن الذين يستنبطون من هذه الآيات أحكاماً يجب عليهم أن يظهروها للناس ولا يكتموها. هذه الآية تبين للمسلمين وجوب وجود منابر فقهية حرة عندهم، وعدم التقيد بفقه مذهب من المذاهب بعينه. والفقه ظاهرة متطورة مستمرة أول من بدأها هو النبي (ص)، وفقهه واجتهاده هو ما نسميه بالسنة النبوية. والتقيد بمذهب من المذاهب الفقهية ما هو إلا استبدال للنص الأصلي، يصبح معه المذهب الفقهي فيما بعد أساساً يختفي النص وراءه ويتحول الفقه إلى شرح المذهب بدلاً من شرح النص. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءت الآية لتحذير الفقهاء من فتاوي التبرير، حين يفتون لتبرير سلوك ما لشخص ما، ويظهرون أن هذا السلوك هو عين الإسلام مع علمهم أن الإسلام خلاف ذلك، وما أكثرهم في تاريخنا. ونلاحظ أن هذا التبرير يكون لشخص يتصف بالغنى أو بالسلطة أو بكليهما. ويبقى الضعيف الفقير هو المهضوم حقه، فهل من باب الصدفة أن يكون النص التشريعي و القانون مع القوي والغني؟؟

ب – التحدي بأن يأتوا بمثله "الإعجاز"

بعد أن أنهينا التحذير نأتي إلى التحدي. ففي الكتاب أكثر من آية تتحدث عن التحدي وهذه الآيات هي:

– {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (يونس ٣٨).

– {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة ٢٣).

– {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (هود ١٣).

– {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} (الإسراء ٨٨).

٢ – السحر والمعجزات

بما أن الإنسان ظهر في هذا الكون بعد وجود الكون والشمس والقمر والكواكب والنجوم وقوانين الطبيعة، التي تدخل كلها في عالم الحقيقة المحسوس، فالحق في القرآن يقسم إلى قسمين: القسم الأول هو الله بدلالة قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ..} (لقمان ٣٠). والقسم الثاني هو "الموجودات، العالم المادي الموضوعي" وهو عين كلام الله بدلالة قوله تعالى {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ..} (الأحقاف ٣). فالله والعالم الموضوعي كلاهما حق موجود خارج الوعي الإنساني، ووجودهما سابق لوجود الإنسان، والمعرفة الإنسانية هي معرفة الله من خلال كلماته "الموجودات". إن معرفة هذا الوجود الحقيقي لله ومعرفة الموجودات التي تؤدي إلى معرفة وجود الله خارج الوعي الإنساني هي التي أخذت طابع التطور. فكلما تقدمت المعارف الإنسانية زادت معرفة الناس بالموجودات، وبالتالي زادت معرفتهم بالله. والقفزات المعرفية التي جاءت من الله للإنسان في النبوات إنما جاءت لهذا الغرض، وهذا قدر من الله قدره على الإنسان سلفاً هو الخروج والابتعاد عن المملكة الحيوانية. فالإنسان عندما وجد على الأرض كان بهيمياً ثم تأنسن. وفي بداية الأنسنة كان بدائياً، نظر إلى عالم المحسوس الشمس والقمر والأنهار والبرق والرعد وبقية ظواهر الطبيعة التي لها علاقة مباشرة معه، لكنه عجز عن أن يعقل هذه

الظواهر بحيث تدخل في عالم معقولاته، ولم يستطع أن يضع لها تفسيراً معقولاً. وأثناء هذه المحاولة اختلط عليه الأمر ووقع بالرجس الوثني واتخذها آلهة، وبهذا بدأت عبادة ظواهر الطبيعة التي أشارت إليها قصة نوح حين كان قوم نوح يعبدون ظواهر الطبيعة التي قال فيها تعالى {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} (نوح ١٥–١٦) (انظر الفصل الثالث من الباب الرابع من هذا الكتاب). وهذا هو السبب الأساسي في ظهور الأسطورة والخرافة عند كل الشعوب قاطبة كمحاولة خاطئة لتطابق المحسوس مع المعقول أو عقلنة المحسوس. ومع تقدم الزمن وتطور المعارف، أدرك الإنسان أن هناك صفات مختلفة في الطبيعة، مثل الحرارة والبرودة والمطر والفيضان والجفاف، وصفات مختلفة عند الإنسان مثل الخير والشر والبخل والكرم، لكنه لم يستطع أن يدرك أن الصانع واحد، ولم يدرك وحدة الناموس الكوني، فأراد أن يعقلها وذلك بأن ردها إلى آلهة مختلفة الصفات "السمات". فهناك إله المطر وإله الجفاف وإله المحاصيل وإله الخير للنفع وإله الشر للضرر والسوء، وكانت هذه المرحلة واضحة في قوم هود بقوله تعالى {.. أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ..} (الأعراف ٧١). والأسماء من السمات وقوله {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ} (هود ٥٤) فقولهم بعض آلهتنا بسوء تعني بالضرورة أن هناك إلهاً للخير وآخر للشر أي ظهر التميز "الأسماء" (فسبب ظهور الخرافة هو عدم القدرة على مطابقة المحسوس بالمعقول) وعلى هذا الخطأ لم يؤاخذ الله عباده، بل أرسل إليهم رسلاً منذرين لتصحيح هذا الخطأ بدلالة قوله تعالى {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ} (الشعراء ٢٠٨) وقوله {.. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء ١٥). وكانت هذه الإنذارات تأتي حسب مستويات الإدراك لأهل هذه القرى.

متى يقول الإنسان عن شيء إنه سحر؟ لنضرب المثال التالي:

إذا أخذ شخص صندوقاً خشبياً ووضع بداخله رجلاً بحيث يساوي طول الرجل طول الصندوق ثم نشر الصندوق نصفين ورأينا بعدها أن الرجل داخل الصندوق لم يمسه أذى فنقول عن هذا الإنسان إنه ساحر. قلنا عنه إنه ساحر لأننا لم نستطع أن ندرك "نعقل" كيف نجا الرجل داخل الصندوق. ولكن العملية بالنسبة للرجل الذي قام بعملية النشر أو بالنسبة للرجل الذي كان بداخل الصندوق لا تعتبر سحراً لأنهما يعرفان كيف تمت عملية نشر الصندوق دون إلحاق الأذى بالرجل الذي كان بداخله.

فكل شيء يراه الإنسان في عالم المحسوسات ولايدخل ضمن معقولاته يصفه بأنه سحر. ومن هنا قال العرب عن القرآن إنه سحر لأنهم سمعوه مادياً ولم يستطيعوا أن يعقلوه حسب معارف وقتهم

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الأحقاف ٧). وهذا ما قاله فرعون وقومه عندما جاءهم موسى بتسع آيات بينات، شاهدها الناس حسياً، أي شاهدوا العصا واليد وشق البحر والجراد والقمل والضفادع والطوفان والدم والرجز، شاهدوها ضمن عالم المحسوس لكنهم لم يدركوا كيف حدثت، ولم تدخل ضمن معقولاتهم، لذا قالوا عن موسى إنه ساحر. ولكن سحرة فرعون أنفسهم يدركون معنى السحر في ذلك الوقت، ولما رأوا سحر موسى أدركوا أنه أعلى من معقولاتهم عن السحر فآمنوا، وكان إيمانهم واقعياً تماماً بقولهم {آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} (طه ٧٠).

وهكذا يمكننا أن نعرّف معجزات الأنبياء بما يلي: المعجزة عند كل الأنبياء قبل محمد (ص) هي تقدم في عالم المحسوس "ظاهرة طبيعية" عن عالم المعقول السائد وقت المعجزة كشق البحر، لكنها ليست بحال من الأحوال خروجاً عن قوانين الطبيعة أو خرقاً لها لقوله تعالى {.. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ..} (الرعد ٣٨) ودائماً يدخل الإذن ضمن قوانين الطبيعة الصارمة. أي هي عبارة عن قفزة زمنية إلى الأمام في تطويع قوانين الطبيعة. ولرب سائل يسأل: ألا يعد إحياء المسيح للموتى خرقاً لقانون الطبيعة؟ أقول: ليس بخرق، لأنه يوم القيامة سيبعث الناس جميعاً وهم في عداد الأموات، فما عملية إحياء المسيح للميت إلا قفزة زمنية ترينا إمكانية إحياء الموتى مادياً الذي سيحصل يوم البعث. وكذلك نار إبراهيم عليه السلام فهذا يعني أن النار تحوي صفتين متضادتين في آن واحد هما الحرارة والبرودة، فالصفة الأولى لنا والصفة الثانية جاءت لإبراهيم.

٣ ـ القرآن الكريم معجزة محمد (ص) الخالدة

لقد جاءت كل معجزات الأنبياء قبل محمد (ص) مادية بحيث أن عالم المحسوس "الظاهرة الطبيعية للمعجزة" سبق عالم المعقول إما بفترة زمنية قصيرة، أو بفترة زمنية طويلة الأمد. وذلك لأن الإنسان في مراحل تطوره كان عالم المحسوس المباشر عنده أهم من عالم المعقولات أي أن المحسوسات سبقت المجردات المعقولات. وهذا هو التطور الطبيعي التاريخي للمعرفة الإنسانية، لأن المعرفة الإنسانية تبدأ بالإدراك الفؤادي المشخص بحاستي السمع والبصر، ثم تنتقل إلى المجردات. أما بالنسبة للنبي (ص) فقد كانت معجزة نبوته هي القرآن نفسه أي أن القرآن هو التصديق، وهو النبوة معاً، ولم تأته النبوة والآيات البينات منفصلاً بعضها عن بعض، كما كانت بالنسبة لكل الأنبياء.

لقد شكل القرآن معظم التنزيل الحكيم، وبما أن محمد (ص) خاتم الأنبياء فيجب أن تبقى معجزته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر إعجاز القرآن بشكل أوضح، فكانت معجزته معاكسة تماماً لمعجزات بقية الأنبياء، وتجلى ذلك في ثلاثة وجوه:

أ- نبوة محمد (ص) التي هي القرآن والسبع المثاني سبق فيها الطرح المعقول على المدرك من المحسوسات بصياغة متشابهة. فكلما تقدم الزمن تدخل طروحات القرآن ضمن المحسوسات المدركة، وهذا ما يسمى بالتأويل المباشر "أي مطابقة المدرك من المحسوس مع النص": {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت ٥٣) {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (الأنعام ٦٧) {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..} (يونس ٣٩) وهذا هو السبب الثاني في أنه سمي قرآناً من الاستقراء حيث أن السبب الأول هو المقارنة وهو قرن أحداث الطبيعة بأحداث التاريخ.

فقد قال تعالى {.. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ..} (الأنبياء ٣٠)، وعرفنا الآن أنّ في الكون كله لا يمكن أن يوجد مظهر من مظاهر الحياة دون وجود الماء "الرطوبة" وقال {.. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (الأنبياء ٣٣) والفلك في اللسان العربي هو الاستدارة كقولنا "فلك ثديا الفتاة" أي استدارا، فكل شيء في هذا الكون من أصغر الجزيئات إلى أكبرها يتحرك ضمن أفلاك، أي في حركة منحنية غير مستقيمة. هذا ماعرفناه الآن ووصفه القرآن قبل أربعة عشر قرناً في عالم المعقولات والآن أصبح في عالم المحسوسات والمعقولات معاً. وقال أيضاً {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الذاريات ٤٩) وقال {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} (يس ٣٦)، بحيث قال منذ أربعة عشر قرناً ووضع في عالم المعقولات أن هذا الكون قائم كله على الأزواج "قانون الزوجية" في كل شيء مطلقاً، في الذي نعرفه والذي لا نعرفه، وقد حذرنا من أن ننسى هذه الحقيقة {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ثم وضع لنا في عالم المعقولات قوانين جدل المتناقضات والأزواج والأَضداد. ولهذا سميت آيات النبوة قرآناً من الاستقراء، فمن القرآن نستقرئ النظريات العلمية المادية والتاريخية بالإضافة إلى أنه قرن الحقيقة الموضوعية المادية مع الحقيقة التاريخية. والآن أريد أن أوجه سؤالاً: هل هذا الكلام هو من أساطير الأولين أو من أساطير الآخرين ؟؟!

قد يقول قائل: إن السادة المفسرين وعلماء المسلمين لم يشرحوه هكذا وأقول: هنا يظهر الوجه الثاني من إعجاز القرآن.

ب– لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود بحيث تفهم فهماً نسبياً حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يحاول فهم القرآن فيه. فقد حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبي لهذه الحقيقة في آن واحد، وهذا لا يمكن لأيّ إنسان كان أن يفعله. فالمطلق عبر عنه مادياً في الصيغة اللغوية المحدثة "الذكر". فإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية للعصر الذي عاش فيه ابن كثير فماعلينا إلا أن نقرأ تفسيره، وإذا أردنا أن نعرف الأرضية المعرفية لعصر الصحابة فما علينا إلا أن نتتبع تفسيراتهم وعلى رأسهم ابن عباس. فتفسير ابن كثير وغيره يحمل المعرفة النسبية لفهم القرآن لا المعرفة المطلقة، وهذا هو سر الإعجاز الأكبر في القرآن وهو "التشابه" أي دورانه في فلك ثبات النص وحركية المحتوى وفق السقف المعرفي لكل عصر، ذلك لأنّ التأويل النهائي لأي نبأ هو عندما يتحول إلى خبر.

ج– أما الوجه الثالث من أوجه الإعجاز فهو أننا نعلم الآن أن هناك نوعين من الصياغة اللغوية هما الصياغة العلمية الموضوعية كصياغة إسحاق نيوتن وآلبرت انشتاين وابن الهيثم لنظرياتهم، وهناك الصياغة الأدبية الخطابية والشعرية الغنية بالصور الفنية كصياغة شكسبير وبوشكين والمتنبي. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يمكن صياغة نظريات نيوتن وانشتاين وابن سينا وابن الهيثم صياغة كصياغة المتنبي وبوشكين وشكسبير دون أن تؤثر هذه الصياغة على الدقة العلمية ودون أن تكون على حسابها؟ إلى يومنا هذا لم نر هذا النوع من الصياغة وهذا هو الوجه الثالث من الإعجاز. إنّ كل ما كتب عن إعجاز القرآن عند السلف إنما يتعلق بالجزء الأدبي من الوجه الثالث للإعجاز. ولو كان الإعجاز أدبياً فقط، وسلمنا بأنه لا يمكن تقليد القرآن من الناحية الأدبية الفنية، فهذا يعني أن الإعجاز واقع على العرب فقط دون غيرهم لأن الصياغة القرآنية جاءت بلسان العرب. والقرآن نفسه يقول: إنه لو كان المقصود بالإعجاز الصياغة فقط دون المضمون لأمكن للناس صياغة بعض القطع الأدبية التي تشبه القرآن من ناحية الصنعة فقط، وهذا ما جاء في قوله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (هود ١٣) في هذه الآية جاء النوع الأول من التحدي وهو أن يكون الموضوع غير قرآني والصياغة قرآنية، وهذا ما سماه بالافتراء. ففي هذه الحالة طلب عشر سور ووضع الإعجاز فيها فيمكن أن نستنتج بالضرورة أن المفتري يمكنه أن يأتي بأقل من عشر سور. فهل هذا الإعجاز واقع على العرب وحدهم أو عليهم وعلى غيرهم؟ الجواب: على العرب وعلى غيرهم من الأقوام لأن المطلوب هو الافتراء من الناس، كلٌ في لغته، العربي بالعربية والفارسي بالفارسية والإنكليزي بالإنكليزية. فالمطلوب بالضبط هو أن يؤخذ موضوع غير قرآني مفترى. مثال على ذلك قصة حب

بين رجل وامرأة أو قانون علمي موضوعي كقانون الجاذبية، وتصاغ هذه القصة أو القانون بشكل قرآني أي أنها يجب أن تحتوي على الشروط التالية:

١– أن تحوي القوانين المطلقة للحب بشكل يفهمها كل قارئ حسب وعيه ومداركه، أي أن تحتوي على علاقة جدلية بين المطلق والنسبي.

٢– أن تكون فيها المعقولات عن الحب تسبق المحسوسات "أي الإخبار عن الحب سبق معلومات الناس عنه".

٣– أن تصاغ صياغة فنية رفيعة.

هذه الشروط الثلاثة، وبشكل خاص الشرطان الأول والثاني، هي التي تسمح بالتأويل. هذه الخاصية نراها جزئياً عند عمالقة الأدب في العالم وليس العلم من أمثال دوستويوفسكي وشكسبير والمتنبي، حيث تعاد على مر الأيام قراءة هؤلاء الأدباء في ضوء معطيات العصر.

وقد يقول قائل: إنه أمكن لهؤلاء تقليد القرآن بشكل افتراء. أقول: هذا غير صحيح للأسباب التالية:

لقد طلب في حالة الافتراء عشر سور، فإذا فرضنا أن السورة مؤلفة من ثلاث آيات فقط، حيث أن أصغر سورة في القرآن مؤلفة من ثلاث آيات فقط، كل آية تحمل قصداً ومعنى، فهذا يعني أن المطلوب ثلاثون موضوعاً مفترى، وأن تصاغ صياغة قرآنية على شكل آيات تحتوي الشروط المذكورة أعلاه. فمثلاً أحد المواضيع يمكن أن يكون في تاريخ مدينة دمشق، يصاغ بشكل مطلق لمدينة دمشق، بحيث إذا قرأه إنسان يراه مطابقاً لمستوى معلوماته التاريخية عن دمشق، وإذا قرأه إنسان بعد خمسين عاماً يراه مطابقاً لمستوى معلوماته الجديد عن مدينة دمشق، وإذا قرأه إنسان بعد مئة عام يراه مطابقاً وهكذا.. "هذا مثال عن القصص والتشابه فيه" هذا ينتج عنه بالضرورة المعقول قبل المحسوس وهو الذي نسميه بالغيبيات. هذا هو النوع الأول من الإعجاز الذي طلب فيه عشر سور مفتريات تتألف كل منها من ثلاث آيات على الأقل. فإذا سألني سائل ما هي مقومات الآية القرآنية؟ أقول:

قبل أن نبدأ بمقومات الآية نضع تعريفاً لها:

الآية كما جاءت في التنزيل الحكيم لها معنيان منفصلان:

– **المعنى الأول:** هي النص اللغوي الموجود بين مواقع النجوم "الفواصل" فنقول: إن سورة البقرة فيها ٢٨٦ آية. وهذه الآيات تتلى بدلالة قوله تعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ..} (يونس١٥) وقوله {وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآَنَ..} (النمل ٩٢) وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ..} (فاطر ٢٩) وقوله {تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (يوسف ١). لقد سميت العبارات بين مواقع النجوم آيات في

التنزيل الحكيم كله ولم تُسمَّ جملاً، لأن الجملة في العربية هي مجموعة كلمات تعطي معنى مفيداً يمكن الوقوف عليه. أما الآية فتحددها مواقع النجوم أي الفواصل بين الآيات في التنزيل الحكيم كله، ويجب الانتباه إليها عند التأويل في القرآن أو الاجتهاد في أم الكتاب.

– **المعنى الثاني:** هي الظاهرة المادية في الطبيعة، حيث أن ظواهر الطبيعة تسمى آيات الله. وبهذا المعنى جاءت في قوله تعالى {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ..} (الإسراء ١٠١) وقوله تعالى {.. هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آَيَةً..} (الأعراف ٧٣) وقوله {وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..} (يوسف ١٠٥) وقوله {.. وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آَيَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء ٩١) وقوله {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ..} (الروم ٢٠).

– المعنى الثالث: هي الاثنان معاً، أي الآيات التي تتلى والظواهر المادية كما في قوله تعالى {تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ..} (الجاثية ٦) حيث تحدثت الآيات قبلها عن الليل والنهار وتصريف الرياح وخلق الإنسان. أما مقومات الآية القرآنية المراد تقليدها فهي:

١– ثبات الصيغة اللغوية.

٢– حركة المحتوى بشكل يتناسب مع معقولات القارئ العالم وهذا ما يسمى بالتشابه.

٣– أن يكون الموضوع غير تشريعي، حيث أن القرآن لا يحتوي على مواضيع تشريعية.

هذا فيما يتعلق بالسور العشر المفتريات. أما فيما يتعلق بالسورة الواحدة فجاء التحدي على شكلين: الشكل الأول في قوله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (يونس ٣٨). المطلوب هنا هو سورة واحدة فيها كل الشروط المذكورة أعلاه وبأية لغة كانت، بحيث يكون الموضوع قرآنياً، يتحدث عن القوانين المطلقة للطبيعة والتاريخ، والصياغة قرآنية أي صياغة قوانين جدل الطبيعة وجدل التاريخ صياغة جدلية بحيث تفهم هذه الصياغة حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي تقرأ فيه.

والشكل الثاني في قوله تعالى {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة ٢٣) هذا الشكل من التحدي يختلف عن الشكل الأول، فهناك قال {بِسُورَةٍ مِثْلِهِ} أما هنا فقال {بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه}. هنا يبين حقيقة التنزيل بعبارة {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا}. وقد شرحت سابقاً معنى التنزيل بأنه نقلة خارج الوعي، والتنزيل يشمل كل القرآن – ما عدا القصص المحمدي– ويأتي بعد الإنزال. أي أن الصيغة القرآنية صيغت عربية خارج وعي محمد (ص)، وهذا هو الإنزال. ثم جاء القرآن من خارج وعي محمد (ص) مصاغاً جاهزاً إلى وعيه عن طريق الوحي على مدى ثلاث وعشرين سنة، وهذا هو

التنزيل. والآية جاءت للذي يشك في التنزيل. وبما أن التنزيل شمل الكتاب ومن ضمنه القرآن ويتألف من أكثر من سورة لذا قال {سُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}. فالذي يعتقد أن القرآن كان من محمد (ص) محتوى وصياغة، فما عليه إلا أن يأتي بشخص آخر غير محمد (ص)، لأن الضمير في (وادعوا) يعود على عبدنا أي على محمد (ص) وهناك آلاف في شبه الجزيرة العربية يشبه محمد (ص) مع التقيد بالشروط المذكورة سابقاً. فكل شيء من صنع الإنسان يمكن أن يتجاوز. وهنا لم يطلب التجاوز وإنما طلب المماثلة التي هي أقل من التجاوز.

أما التحدي الأكبر فهو اجتماع الإنس والجن قاطبة لغاية واحدة وهي الإتيان بمثل هذا القرآن. أي لو جند الإنس والجن علماءهم وأدباءهم ومعاهد أبحاثهم لهذه الغاية فقط فإنهم مع ذلك لا يستطيعون تحقيقها. ولهذا فمن الخطأ القول كما قال بعضهم: إن الله تحدى العرب بالقرآن، فعندما عجزوا تحداهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة. والخطأ في ذلك أن كل آية من آيات التحدي تمثل نوعاً من التحدي مختلفاً عن الآخر. والتحدي في كل أنواعه لم يكن للعرب وحدهم وإنما كان للناس جميعاً كل في لسانه، وليس من الضروري على غير العربي أن يتعلم العربية لكي يشمله الإعجاز. لذا فقد قال في آيات التحدي الثلاث {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} لأنه تحدي جزئي، أما في آية الإنس والجن فلم يقل عبارة {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ} لأنه لا يوجد من يدعوه.

٤ ــ قواعد التأويل

{.. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (آل عمران ٧).

قلنا إن أم الكتاب هي الكتاب المحكم وهي رسالة محمد (ص)، وإن القرآن والسبع المثاني هما المتشابه وهما نبوة محمد (ص) مع تفصيل الكتاب. وبما أن النبوة فيها قوانين الحق والباطل التي تنطبق على كل إنسان، شاء أم أبى، وجاءت بصيغة متشابهة "تغير المحتوى وثبات النص ونسبية الفهم". فقد قال {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} حيث أن القرآن {هُدًى لِلنَّاسِ} والكتاب {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}. فمثلاً إذا قلنا لأكبر ملحد في العالم: إن هذا الكون مبني على جدل داخلي يقوم على صراع تناقضي في اتجاه واحد بين عنصرين مكونين لكل شيء مادي "مخلق وغير مخلق" "صنوان وغير صنوان"، وعلى جدل خارجي هو جدل تلاؤم الزوجين {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الذاريات ٤٩). فسيكون جوابه: هذا صحيح. فإذا قلنا: هذا القانون

الجدلي العام الكوني من القرآن، فسيقول: لا مانع. وإذا قلنا: جاء هذا القانون من عند الله تصديقاً لأحكام أم الكتاب من صوم وصلاة وعبادات وأحكام جاءت من عند الله أيضاً. فعندئذٍ سيقول: كلا، أنا أقبل بهذا القانون، ولكن لا أقبل بالصوم. وهنا بيت القصيد في قوله {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} فأحد معاني الزيغ في اللسان العربي هو النقصان، فإذا أعطينا زيداً مئة تفاحة وزاغ في العد فهذا يعني أنه عدها أقل من مائة، وإذا عدها أكثر من مائة فإنه طغى في العد، وقد وضع الله سبحانه الزيغ والطغيان من المتضادات في قوله تعالى {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} (النجم ١٧).

فبذلك يصبح المعنى: إن الذين يقبلون القرآن ويتبعونه لأنه قوانين موضوعية، ولايقبلون اتباع أم الكتاب هم ذوو عقول ناقصة لرفضهم أم الكتاب. لماذا؟ لأن الذي يؤول القرآن ويستنتج منه النظريات والقوانين العلمية والتاريخية ويطبقها كأساس للتقدم العلمي والتكنولوجي يفتن الناس، وكلنا يعلم مدى افتتان الناس بالصعود إلى القمر وبالكمبيوتر والتلفاز، إذ أن الذين استطاعوا الصعود إلى القمر واختراع الكمبيوتر وصناعته تمكنوا من فتنة الناس وهذا ما حصل فعلاً.

أما قوله {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} فبما أن القرآن حقيقة مطلقة فتأويله الكامل لا يكون إلا من قبل واحد فقط، وهذا الواحد هو الله المطلق. ولهذا قلت: إن النبي (ص) لا يعلم التأويل الكامل للقرآن بكل تفاصيله، لأنه يصبح شريكاً لله في مطلق المعرفة. أما معرفة التأويل المتدرج المرحلي فهو من قبل الراسخين في العلم كلهم مجتمعين لا فرادى. وهنا يجب أن نفهم أن الراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضاء وكبار علماء التاريخ مجتمعين. ولم نشترط لهذا الاجتماع حضور الفقهاء، لأنهم ليسوا معنيين – في رأينا– بهذه الآية، لأنهم أهل أم الكتاب. والراسخون في العلم مجتمعين يؤولون حسب أرضيتهم المعرفية ويستنتجون النظريات الفلسفية والعلمية، ويتقدم التأويل والعلم في كل عصر حتى قيام الساعة، فعند ذلك يتم تأويل كل الآيات التي تتعلق بهذا الكون وهذه الحياة" حيث تصبح هذه الآيات بصائر". لذا فالراسخون في العلم مجتمعين لا فرادى، وكل حسب اختصاصه يؤولون القرآن بالشكل التالي:

– الحالة الأولى: تحويل بعض الآيات إلى بصائر حية "أي مطابقة مباشرة مع الحقيقة الموضوعية" وهذا أقوى أنواع التأويل، أي التأويل الحسي.

– الحالة الثانية: استنتاج واستقراء لنظريات فلسفية وعلمية بالتأويل وذلك حسب أرضيتهم المعرفية المتوفرة.

من هذا المنطلق نفهم الحالة الأولى التي جاءت في قوله تعالى {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (الأنعام ٦٧)، والحالة الثانية {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ..} (فصلت ٥٣). فكل نبأ جاء في القرآن ''ومن هنا جاءت كلمة النبوة'' له زمن سيستقر فيه وينتهي إليه، أي يصبح تأويله ''مبصراً'' نهائياً أما قوله ''سنريهم'' فالرؤيا من اختصاص الفؤاد، وهو الإدراك المشخص بالحواس. هؤلاء الراسخون في العلم هم بالضرورة من المؤمنين لأنهم يقولون {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} (أم الكتاب والقرآن وتفصيل الكتاب).

فمن هم الراسخون في العلم؟ لقد وضع التنزيل الحكيم تعريفاً لهم بقوله {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ..} (العنكبوت ٤٩). ونلاحظ التشابه الكبير بعبارة ''في صدور الذين أوتوا العلم'' فالصدر هنا ليس جوف الصدر ولا جوف الرأس ''الجمجمة''، وإنما هو كما يقول الشاعر:

ونحن أناس لا توسط بيننا *** لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وهو ما نقول عنه الآن ''الصدارة'' كقولنا: إن إسحاق نيوتن يحتل مركز الصدارة بين علماء الرياضيات، وإن أينشتاين يحتل مركز الصدارة بين علماء الفيزياء. فالراسخون في العلم هم من الناس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، من أمثال البيروني، الحسن بن الهيثم، ابن رشد، إسحاق نيوتن، أينشتاين، تشارلز داروين، كانت، هيجيل.

وهنا أيضاً نفهم قوله تعالى في سورة الناس {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} بأن الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الوسواس الخناس الذي يوسوس في الناس الذين يحتلون مكان الصدارة من مجتمعهم أو من العالم بأسره.

إنّ النتيجة المباشرة لما قلنا، هي أن كل التفاسير الموجودة بين أيدينا ليست أكثر من تفاسير تاريخية مرحلية للقرآن، أي لها قيمة تاريخية لأنها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون.

قلنا: إن آيات القرآن والسبع المثاني متشابهات، وإن خاصية التشابه هي الفهم النسبي للحقيقة المطلقة التي عبر عنها بصيغة ثابتة ''النص الثابت''. فما هي الشروط التي يجب اتباعها لكي يتم التأويل الآن أو في المستقبل؟

التأويل مشتق من ''أول'' وهذا الفعل من أفعال الأضداد في اللسان العربي فنقول: أولُ الأمر أي عكس آخره. هذا هو المعنى الأول، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ..} (الحديد ٣). أما المعنى المضاد أي بمعنى آخر الأمر فنقول: إن السرقة تؤول بصاحبها إلى السجن. هنا جاءت

بمعنى تنتهي به. فالتأويل هو ما تنتهي إليه الآية" أي ما تؤول إليه" من قانون عقلي نظري أو حقيقة موضوعية مباشرة.

فلدينا آيات جاءت بصيغة نظرية، وعندما نؤولها نستنتج منها قانوناً ينطبق مع العقل والحقيقة أي علينا أن نفهم القاعدتين التاليتين:

أ– الوحي لا يناقض العقل

(Revelation does not contradict with reason).

ب– الوحي لا يناقض الحقيقة

(Revelation does not contradict reality).

من هنا ننطلق، بحيث أنّ كل ما أوحي إلى محمد (ص) هو من عالم الحقيقة ومن عالم المعقولات، ولا يوجد شيء في الوجود المادي غير قابل لأن يعقل ولكن هناك عجزاً وقصوراً في العقل، وبالتالي لا يوجد آية من آيات التنزيل الحكيم غير قابلة أن تعقل الآن أو في المستقبل. فبدلاً من أن نكيل الاتهامات للقرآن بأنه غير قابل لأن يعقل من الناس، علينا أن نتهم أنفسنا بالقصور عن فهم آياته.

وفي معنى التأويل جاءت الآيات التالية:

– {.. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ..} (آل عمران ٧) أي الراسخون في العلم يعلمون ما هي النظريات والحقائق العلمية التي يمكن استنتاجها من الآية القرآنية، كل حسب اختصاصه وحسب الأرضية المعرفية لعصره، حيث يمكن استنتاج نظريات علمية جديدة تعتبر قفزات هائلة في المعرفة الإنسانية مثل نظرية النشوء والارتقاء لداروين لأنها تعد نموذجاً حياً ممتازاً للتأويل.

– {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ..} (يونس ٣٩) لاحظ كيف استعجلوا بتكذيب القرآن ولم يؤول بعد.

– {.. وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا..} (يوسف ١٠٠).

هذه الآية من سورة يوسف أعطتنا معنيين هامين جداً: المعنى الأول هو معنى التأويل والمعنى الثاني معنى الحق.

ففي المعنى الأول: لقد رأى يوسف في المنام ما رآه، ثم تتالت الأحداث حتى وصل أهله إلى مصر وهو وزير، عندها تحول المنام من مجرد رؤيا في وعي يوسف إلى حقيقة موضوعية مادية خارج وعيه. هذا التحول هو التأويل. وفي المعنى الثاني {جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} أي غير صيرورتها من

مجرد رؤيا إلى حقيقة ملموسة خارج وعي يوسف، لذا استعمل كلمة ''حقاً''. فيصبح معنى الآية: قال يا أبت هذا ما انتهت إليه ''آلت'' رؤياي التي كانت مجرد أفكار في وعيي إلى حقيقة ملموسة خارج وعيي. وهذا أيضاً ما قاله يوسف لصاحبيه في السجن {قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ..} (يوسف ٣٧) التأويل هنا: ما يأتيهم من رؤيا فيها طعام إلا أخبرهم بما تنتهي ''تؤول'' إليه من حقيقة موضوعية.

وبما أن القرآن بتأويله الكامل الكلي لا يكون إلا يوم القيامة لأن كل آياته تصبح مبصرة، بما فيها آيات الساعة والصور والبعث والحساب والثواب والعقاب، فقد قال تعالى {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ..} (الأعراف ٥٣).

وفي قصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف نبأه العبد الصالح بما تؤول ''تنتهي'' إليه الأحداث التي قام بها، ولم يستطع موسى الصبر عليها لذا قال له {.. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} (الكهف ٧٨) وبعد الانتهاء من التأويل قال {.. ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} (الكهف ٨٢).

أما قوله تعالى في سورة الإسراء {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (الآية ٣٥)، فهنا جاء التأويل بمعنى النهاية تماماً. أي أن إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس سيؤولان ''سينتهيان'' بكم إلى الأحسن.

ضوابط التأويل أو قواعده

١– القاعدة الأولى

– التقيد باللسان العربي على الأسس التالية:

أ– اللسان العربي لا يحتوي على خاصية الترادف، بل بالعكس اللفظة الواحدة يمكن أن يكون لها أكثر من معنى مثل فعل ''أمر''.

ب– الألفاظ خدم المعاني، والمعاني هي المالكة سياستها ''الجرجاني''.

ج– الأساس عند العرب هو المعاني، فإذا حصنوها تساهلوا في العبارة عنها ''ابن جني''.

د– لا يفهم أي نص لغوي إلا على نحو يقتضيه العقل والمطابقة الموضوعية أو العقل فقط ''الاستقراء'' فيما يتعلق بالأمور التي ما تزال من الغيبيات.

هـ- الأخذ بعين الاعتبار أصالة اللسان العربي من حيث أفعال الأضداد في المعاني مثل فعل ''عبد'' و''خفي''. وأفعال الأضداد في المعاني والأصوات مثل ''علق – قلع'' ''كتب –بتك'' ''ضاف – فاض'' أي ضرورة معرفة فقه اللغة.

٢– القاعدة الثانية

فهم الفرق بين الإنزال والتنزيل، حيث يعتبر هذا الفرق من أسس نظرية المعرفة الإنسانية، وفهم العلاقة بين الوجود الموضوعي ''التنزيل'' والوعي الإنساني لهذا الوجود ''الإنزال''.

٣– القاعدة الثالثة

– الترتيل: {وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا} (المزمل ٤):

بما أن مواضيع القرآن متفرقة في السور. فمثلاً موضوع آدم موجود في سورة البقرة والأعراف وطه وسور أخرى. وكذلك قصة نوح موجودة في سورة نوح وهود والأعراف والمؤمنون. وكذلك قصة موسى موجودة في كثير من السور فكيف نفهم هذا الموضوع إذا لم يتم ترتيله؟

والترتيل هنا هو أخذ الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد وترتيلها بعضها وراء بعض. والرتل في اللسان العربي هو الصف على نسق معين. ولا يقصد بالترتيل التلاوة ولا التنغيم، كما ذكرنا.

والله سبحانه أنزل القرآن على النبي (ص) على أرتال بدليل قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} (الفرقان ٣٢) أي جاء القرآن إلى النبي (ص) على أرتال ولم يأته دفعة واحدة. ونحن الآن نستعملها فنقول رتلاً أحادياً أو ثنائياً. ونقول رتل دبابات ''انظر مثالاً عن الترتيل في ترتيل قصتي نوح وهود''.

وهناك موضوع واحد مرتل في القرآن هو قصة يوسف التي جاءت كلها دفعة واحدة في سورة واحدة.

إن قواعد التنزيل هي من قواعد البحث العلمي الحديث، ومن دونها لا يمكن لأي بحث علمي أن يعطي أي نتائج إيجابية. فإذا أخذنا دراسة حول موضوع معين يتعلق بالمياه الجوفية مثلاً، فأول شيء نفعله هو جمع المقالات المختلفة التي نشرت في هذا الموضوع، ومن هذا الجمع يتم إخراج موضوع يحتوي على المعلومات الواردة في كل المقالات المختلفة، وكذلك في مواضيع القرآن علينا إجراء عملية الترتيل. فموضوع خلق الكون أو خلق الإنسان لم يأت في مكان واحد دفعة واحدة كقصة يوسف. فوجب علينا ترتيلها أولاً. إن قاعدة الترتيل لم تتبع إطلاقاً في التفاسير التاريخية المتوفرة بين أيدينا. وأهم مسألة تتجلى فيها أهمية قاعدة الترتيل هي ترجمة الكتاب إلى لغات غير عربية، فالترجمة الحرفية للآيات كما هي موجودة في الكتاب يعتبر ضرباً من ضروب مضيعة

الوقت حيث تشوه المعنى. ولكن يمكن ترجمة الكتاب مرتلاً حسب المواضيع الواردة فيه مع شرح هذه المواضيع من قبل أخصائيين وكل موضوع على حدة. فمثلاً يمكن أن نترجم نظرية خلق الكون في القرآن أي نورد آيات الخلق كلها مرتلة ثم نشرح نظرية الخلق. هذه العملية تتطلب جهداً كبيراً جداً من قبل معاهد أبحاث وفريق كبير من العلماء.

إن وظيفة الترتيل تنحصر في فهم القرآن فقط، أما في فهم أم الكتاب فلاحاجة للترتيل، وإنما تلزم المقارنة فقط مثل مقارنة محارم الزينة مع محارم النكاح. فآية المداينة واحدة وآية الوضوء واحدة وكذلك الصوم جاء متتالياً، وآية الإرث، وآية اجتناب الخمر والميسر وكذلك الوصايا الواردة في سورة الأنعام.

٤ـ القاعدة الرابعة

عدم الوقوع في التعضية لقوله تعالى: {كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} (الحجر ٩٠ـ٩١)، فالتعضية جاءت من "عضن" وقد شرحها النبي (ص) بقوله "لاتعضية لوارث" "الزمخشري فعل عضن".

والتعضية هي قسمة ما لا ينقسم. فإذا ورث ذكران من أبيهما سيفاً وحصاناً وسيارة فالتعضية هي قطع السيف إلى قطعتين وكذلك الحصان والسيارة، وفي هذه الحالة يفقد السيف والحصان والسيارة أية قيمة لها.

والتعضية في القرآن تعني أن الآية القرآنية قد تحمل فكرة متكاملة وحدها أو فقرة من موضوع كامل. وبعد الترتيل مثل آيات آدم وخلق الكون، ونظرية المعرفة الإنسانية فإن جمع كل مواضيعها مع بعضها يخرج الموضوع الكلي كاملاً.

مثال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} (يس ٨٠).

٥ـ القاعدة الخامسة

فهم أسرار مواقع النجوم الواردة في قوله تعالى {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} (الواقعة ٧٥ـ٧٧). القرآن ـ كما قلنا ـ قوانين لأحداث موضوعية. والموضوع الواحد جاء في عدة آيات "أي قسم إلى عدة آيات" فمثلاً {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} (الفجر ١ـ٥). لنأخذ الآيات الأربع

الأولى من سورة الفجر، لنجد أنه كان من الممكن أن تصاغ في آيتين عوضاً عن الأربع كما يلي: (والفجر وليال عشر * والشفع والوتر والليل إذا يسر).

فإذا أخذنا قاعدة عدم التعضية وهي أن الآية قد تحمل فكرة متكاملة فكانت الفكرة في آية {وَالْفَجْرِ} ثم { وَلَيَالٍ عَشْرٍ} فتصبح "والفجر وليال عشر" لذا قال بعد ذلك {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} أي أن هذا التقسيم للآيات مهم جداً لكل ذي حجر.

إن الانتباه لمواقع النجوم في الكتاب كله، وهي الفواصل بين الآيات وليس مواقع النجوم في السماء، من مفاتيح تأويل القرآن وفهم آيات الكتاب كله، حيث أن مواقع النجوم جاءت بين آيات الكتاب كله وبالتالي فكل آية من آيات الكتاب تحمل فكرة متكاملة. فإذا نظرنا إلى آيات الكتاب والفواصل بينها رأينا أموراً عجيبة، ويزول العجب إذا فهمنا مبدأ الفكرة المتكاملة.

مثال: {.. قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} (هود ٥٤) {مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} (هود ٥٥). لاحظ أنّ الفاصلة جاءت بعد قوله تعالى "مما تشركون" وأتت الآية بعدها بقوله "من دونه" أي لاحظ موقع الفصل "التنجيم" بين الآية ٥٤ والآية ٥٥ من هود.

مثال آخر في حالة المن والسلوى إذ قال تعالى عند تنزيلهما في سورة طه: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} (طه ٨٠) {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..} (طه ٨١).

أما عند الإنزال في نفس موضوع المن والسلوى فقال: {.. وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..} (الأعراف ١٦٠). لاحظ عندما قال {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} كيف انتهت الآية "تنجيم" ثم جاءت الآية {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}. أما عندما قال {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} تلتها عبارة {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} متصلة دون انقطاع.

مثال ثالث في سورة المؤمنون {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} (الآية ١٨). {فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (الآية ١٩). {وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآَكِلِينَ} (الآية ٢٠).

– الآية ١٨: أصل الماء الموجود في الأرض هو من السماء "أي من خارج الأرض" نزل على الأرض واستقر فيها {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ}، وكان يمكن، كما حصل في كواكب أخرى، أن يوجد فيها الماء ثم يذهب إلى الجو مرة أخرى لذا قال {وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}.

– الآية ١٩: الماء أساس الحياة على الأرض وفي كل مكان، وأينما وجدت الحياة فهذا يعني وجود الماء "الرطوبة"، فأنشأ بهذا الماء جنات من نخيل وأعناب وما ذكره في هذه الآية هو ما يصلح

للطعام الآدمي لذا قال {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}.

– الآية ٢٠: معطوفة على الآية ١٩ ولكنها مفصولة عنها "منجمة". ذكر في هذه الآية شجرة واحدة فقط، ولاندري ما هي ولكننا نقول إنها مهمة جداً لأنها في آية وحدها، ومن المرجح أيضاً أنها لا تصلح للطعام الآدمي لذا قال {وَصِبْغٍ لِلْآَكِلِينَ} ولو كانت هذه الشجرة كما يقول بعضهم هي الزيتون لوضعها في الآية ١٩ حيث أن الزيتون طعام للآدمي.

هنا نرى أهمية مواقع النجوم وعدم التعضية، لذا قال عن تقسيم القرآن إلى آيات مفصولٍ بعضها عن بعض–وهذا هو عين التنجيم–{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} (الواقعة ٧٥–٧٦). لاحظ مواقع النجوم في هاتين الآيتين، ففعل "أقسم" في الآية الأولى بمعنى الحلف، ولفظ "القسم" في الآية الثانية بمعنى التقسيم، لذا تم الفصل بين الآيتين.

مثال رابع قوله تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق ١–٥) هنا تبرز أهمية مواقع النجوم في فهم الآيات. كان من الممكن أن يقول "اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق" وأن يقول أيضاً "الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم" لنأخذ الآيتين لنرى الفرق في المعنى فيما إذا كانتا آيتين أو أية واحدة. ففي قوله {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} يكون القلم هو وسيلة التعليم لكل شيء، الملائكة والإنسان والحيوان والجماد. أي كل شيء أراد الله أن يعلمه فوسيلة التعليم هي القلم. هذا معنى الآية {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}. هنا التعليم مطلق لأي شيء.

ثم تأتي الآية التي بعدها {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} فإذا سألنا: بماذا علم الله الإنسان؟ نقول: بالقلم. أي عندما قال {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..} (البقرة ٣١) نقول كيف علم الله آدم الأسماء كلها؟ فالجواب بكل تأكيد: بالقلم.

لو جاءت الآيتان بدون تنجيم أي على شكل: "الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم" أو على شكل "علم الإنسان ما لم يعلم بالقلم"، لأصبح المعنى أن القلم هو وسيلة التعليم للإنسان فقط وأن بقية المخلوقات تتعلم بوسيلة أخرى غير القلم، وهذا غير صحيح. لأن الله يقول إن القلم هو وسيلة التعليم المطلقة. فما هو القلم؟ هذا ما سنبحثه في فصل "جدل الإنسان".

مثال خامس: يقول تعالى {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر ٦). هذه الآية تحمل فكرة متكاملة هي فكرة تاريخ خلق البشر ومراحل تطوره حتى أصبح على الشكل الذي نراه عليه الآن. وهذا الموضوع لا يمكن فهمه

وإخراج نظرية نشوء الإنسان على الأرض إلا من خلال الترتيل أولاً، ثم فهم كل آية على حدة لأنها تحوي "حلقة كاملة في نظرية الخلق".

فلنأخذ هذه الآية على سبيل المثال لنفهم منها حلقة من حلقات وجود البشر على الأرض. تبدأ الآية بعبارة {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي أن أساس الخلق أحادي دون قانون الزوجية، فعندما وجدت الحياة على الأرض جاءت على شكل خلية واحدة تكاثرت عن طريق الانقسام الذاتي لا عن طريق التلاقح الزوجي. وبعد ذلك تطورت وحيدة الخلية هذه لتصبح كثيرة الخلايا مع اختلافها بالنوع لذا قال {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ..} (الإنسان ٢). وقد مرت الحياة، حتى نضج البشر، بثلاث مراحل من الخلق "التصميم". المرحلة الأولى: المرحلة البحرية. المرحلة الثانية: المرحلة البحرية البرية. المرحلة الثالثة: المرحلة البرية. وفي المراحل الثلاث يوجد ظلمة: الظلمة البحرية، الظلمة البحرية البرية، الظلمة البرية "الرحم". فحتى وصل الإنسان إلى الشكل الذي نراه عليه الآن مرت الحياة العضوية على الأرض بهذه المراحل الثلاث، فكان الإنسان وليد المرحلة البرية. وفي هذه المرحلة كان التكاثر زوجياً. أي عن طريق اللقاح بين الذكر والأنثى. أي كان الفصل موجوداً بين الذكورة والأنوثة لذا قال: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} والجعل هو التغير في الصيرورة، و"ثم" هي للتعاقب مع التراخي. لذا فإننا نرى أنّ الجنين في بطن أمه يمر بهذه المراحل الثلاث.

وبما أن الفواصل الزمنية بين هذه المراحل استغرقت ملايين السنين قال {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} أي تصميماً من بعد تصميم، ولم يقل خلقاً بعد خلق. والآن يظهر السؤال التالي: متى ظهر البشر على سلم التطور في المرحلة البرية؟ فيأتي الجواب مباشرة {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} لاحظ قوله "وأنزل" ولم يقل "نزل" أي أن البشر ظهر نوعاً مميزاً بين الأنواع مع ظهور الإبل والبقر والغنم والماعز، فتزامن ظهور البشر مع ظهور الأنعام. فإذا أردنا أن نبحث عن بداية ظهور البشر نوعاً مميزاً على سلم التطور والنشوء، فعلينا أن نبحث في مرحلة ظهور الأنعام على نفس السلم، حيث كانت غذاء له منذ كان في مرحلته الحيوانية.

إنّ من الوهم الظّن، ونحن نقرأ عبارة {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}، أنّ الظلمات الثلاث هي غشاء الخلاص وغشاء الرحم وغشاء البطن، لأن الجنين عندما يكون في بطن أمه تغلفه ثلاثة أغشية وظلمة واحدة، وليس ثلاثة أغشية وثلاث ظلمات، لأن وجود غشاء واحد يؤدي إلى الظلمة، فإذا وجد خارج هذا الغشاء عدد لامتناه من الأغشية فتبقى الظلمة واحدة. وإذا وجد إنسان في غرفة محكمة الإغلاق مظلمة تماماً سواء أكانت داخل غرفة أكبر منها أم لم تكن، فالظلمة واحدة لا تعد

بعدد الأغشية. ثم تأتي نهاية الآية لتقول لنا إن هذا من آيات الربوبية بعبارة {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ} ولإثبات الألوهية للعاقل بعبارة {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}.

لقد أوردت هذه الأمثلة لشرح قواعد المنهج الذي يجب أن يتبع في تأويل القرآن من ترتيل، وإنزال وتنزيل، وتعضية، ومواقع نجوم. ولبيان أن الآية قد تحوي فكرة متكاملة وأن كل الكتاب آيات.

٦– القاعدة السادسة

– قاعدة تقاطع المعلومات (Examination Cross) التي تقتضي انتفاء أي تناقض بين آيات الكتاب كله في التعليمات وفي التشريعات. فمن هذه القاعدة تم فهم الإنزال والتنزيل حيث تمت مقارنة ومقاطعة المعلومات الواردة في آيات الإنزال والتنزيل، وتم فهم معناهما وفهم الفرق بينهما بحيث انطبق على الآيات كلها. فإذا أردنا أن نفهم آية النور ٣١ وهي آية الزينة، فعلينا أن نقاطع المعلومات الواردة فيها مع المعلومات الواردة في آيات المحارم في سورة النساء، وعند ذلك نفهم معنى الزينة بشكل ينطبق مع العقل والواقع، وبشكل لا يناقض بعض الآيات بعضها الآخر.

بعد أن شرحنا قواعد التأويل، نتساءل كيف يمكن أن نطبقها بشكل عملي ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين الميلادي وفي بداية القرن الخامس عشر الهجري؟

نطبق هذه القواعد طبقاً للمنهج التالي:

١– علينا أن نعتبر أن النبي (ص) توفي حديثاً، وجاءنا الكتاب بالترتيب الذي هو عليه الآن، حيث أن ترتيب الآيات في الكتاب توقيفي. وأن القرآن جاء لنا ولمن بعدنا. هذا إن كنا نعتقد حقيقة لا تشدقاً ونفاقاً أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وأن القرآن حوى الحقيقة المطلقة والفهم النسبي بآن واحد، وأن الرسالة صالحة لكل زمان ومكان لسبب آخر غير التشابه.

٢– نستنتج نظرية في المعرفة الإنسانية مباشرة، ونقوم بصياغتها. علما أنّ صياغة هذه النظرية يعتبر من أهم الأمور إلحاحاً بالنسبة للعرب والمسلمين، وهذا من اختصاص الفلاسفة.

٣– فهم الآيات القرآنية المراد تأويلها من قبل العلماء، كل حسب اختصاصه، بحيث تصبح ضمن المعقولات أولاً، حيث أن القرآن كله قابل لأن يدخل ضمن المعقولات بدلالة قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف ٣).

٤– مطابقة ما توصّل إليه العلم الموضوعي من انجازات علمية، كل حسب اختصاصه، وهذا ما نسميه المدرك من عالم المحسوسات، مع الفهم العقلاني للآيات المراد تأويلها. أي مطابقة المحسوس بالمعقول مطابقة كاملة مثل كروية الأرض ودورانها وحركة الموجودات وقوانين الجدل. أو مطابقة

جزئية مثل آيات خلق البشر، التي تم تأويلها في هيكلها العام من قبل العالم الكبير تشارلز داروين. لكن هذه النظرية غير كاملة لاشتمالها على حلقة مفقودة. ففي هذه الحالة يتم التأويل بتصحيح النظرية إذا كانت فيها أخطاء وإتمامها إذا كانت فيها نواقص.

٥- بالنسبة للآيات ذات المواضيع التي لم تدخل حيز العلم الحسي نهائياً، يمكن تأويلها بوضع نظرية تبقى في عالم المعقول مرحلياً، بحيث تنتقل مع الزمن إلى عالم المحسوس. مثال ذلك قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} (الفرقان ٤٥ - ٤٦).

إذا أردنا أن نعقل هاتين الآيتين نستنتج منهما ما يلي:

أ- أنّ الظل له وجود قائم في ذاته ولا علاقة للنور بإيجاده.

ب- أنّ نور الشمس هو الذي دلنا على الظل، أي أن النور لا يتسبب في إيجاد الظل وإنما يدل عليه دلالة لأن الظل له وجود دون نور.

إنّي أعتقد -ولست من علماء الفيزياء- أنّ علوم الفيزياء حتى يومنا هذا تعتقد أن الظل هو المعلول وأن النور علته، في حين يقول القرآن إن للظل وجوداً ذاتياً منفصلاً عن النور، ثم جاء النور بعد ذلك ليدلنا عليه فقط. هذه نظرية في الفيزياء، ولاأدري هل علوم الفيزياء الحديثة تقرُّ هذا أو لا تقرّه؟! فإن كانت لا تقرّه فيمكن أن يأتي يوم تنقلب فيه بعض الموازين في علم الفيزياء أو كلها، والله أعلم.

٦- تؤول آيات الساعة والصور والبعث واليوم الآخر والجنة والنار بحيث تدخل ضمن عالم المعقولات، ويتم تأويلها ضمن نظرية كونية شاملة بحيث تدخل كلها ضمن المعقولات، فبداية الكون يمكن أن تدخل ضمن المعقولات والمحسوسات معاً، أما نهايته فتدخل ضمن نظرية شاملة مع بدايته ضمن المعقولات بحيث تدخل حين قيام هذه الأحداث ضمن المحسوسات. فالتأويل الحسي للساعة هو حدوثها فعلاً. ولكن يمكن أن تؤول تأويلاً عقلياً قبل حدوثها. وعندما تدخل هذه المصطلحات ضمن المحسوسات يتحقق قوله تعالى {.. يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ..} (الأعراف ٥٣).

٧- علينا ألاّ ننسى أنّ التأويلات التي نؤولها في عهدنا قابلة للتطور أو النقض على مر السنين لأن تأويلات عصرنا تقوم على أساس نسبية معرفتنا للحقيقة. وهذا هو أهم بند علينا أن لا ننساه وعلينا أن نؤكد عليه للأجيال القادمة لكي لا تتحجر ولا تتزمت، ولكي تكون روح المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة هي المهيمنة على أجيالنا المقبلة.

٨- علينا أن نسحب القرآن- قبل أن يفوت الأوان- من أيدي الوعاظ المعروفين برجال الدين، الذين يجب أن يكون موقفهم من القرآن كموقف العامة تماماً: التسليم، لأن معلوماتهم بالنسبة للقرآن لا تزيد عن معلومات العامة بتاتاً. وإن كان لهؤلاء دور فدورهم وعظي بحت.

٥ - نموذج من التأويل- تأويل سورة القدر

على ضوء ما تقدم سنطرح تأويلاً لسورة القدر:

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}.

لقد قلنا إن الإنزال هو دخول الشيء في عالم المدركات، بعد أن يكون له وجود مسبق غير مدرك، فتغير في صيرورته فأصبح مدركاً، وفي هذه الحالة ينطبق عليه فعل الإنزال والجعل معاً. وهذا ما حصل للقرآن دفعة واحدة في ليلة القدر، حين غير في صيرورته بشكل أصبح قابلاً للإدراك، وفي هذا نقول: إن الإنزال والجعل تلازما في القرآن حيث أن القرآن مخزن في لوح محفوظ وإمام مبين. وهذه الصيغة القابلة للإدراك الإنساني صيغة لسانية عربية هي الذكر في لفظها الصوتي، وهي القرآن في محتواها المعرفي ولذا قال عن الذكر إنه "محدث".

لماذا أطلق على الإنزال والجعل قوله {فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ويفهم منها أنها تحمل طابعاً زمنياً معيناً؟ لنأخذ أولاً مفهوم "القدر" حيث جاءت في اللسان العربي من "ق د ر" وهي تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، يقال "قدره كذا" أي نهايته "ابن فارس م٥ ص٦٢". وبما أن محمداً (ص) هو خاتم الأنبياء، والقرآن هو خاتم النبوات، فقد وصل اللسان العربي، في عهد النبي (ص)، إلى مرحلة اللسان العربي المبين ووصل إنزال القرآن إلى مبلغه وغايته.

لنأخذ ثانياً مفهوم "ليلة" فهل هي الليل؟ إذا كانت ليلة القدر تعني الليل، فالسؤال: أي ليل هو؟ هل هو ليل مكة أم ليل لوس أنجلوس وكلاهما على الكرة الأرضية؟ حيث يوجد في الكرة الأرضية بشكل مستمر ليل ونهار معاً وعلى هذا لا يستقيم المعنى. إما إذا فهمنا الليل على أنه الظلام كما في قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ..} (الأنعام ١) وقوله {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ} فهذا يعني أن اللوح المحفوظ والإمام المبين لا يخضعان لمفهوم الليل والنهار وأن الظلام في الوجود سبق النور، حيث مرت المادة بعد الانفجار الكوني الأول بعدة

مراحل للتطور حتى أصبحت شفافة للضوء وظهر النور. هذا الإنزال حصل في وقت يقابله عندنا في الأرض شهر رمضان. ولكن رمضان من أية سنة؟ لا ندري. لذا عندما شرحها النبي (ص) في قوله ان صح "العشر الأخير من رمضان" حددها ضمن برهة زمنية ولم يحددها في ليلة بعينها، وهذا كلام دقيق من الناحية العلمية ينطبق على كل الكرة الأرضية. فليلة القدر مصطلح يعني صدور أمر رب العالمين بإشهار القرآن بلسان عربي مبين، أي تم إنزال القرآن وجعله عربياً، وبهذا انتقل إلى صيغة قابلة للإدراك الإنساني، أي أنه لم يعد سراً بل تم اشهاره. لذا قال {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} والشهر هنا لا يعني الشهر الزمني كأن نقول ألف شهر يساوي ٨٣ سنة وثلث، بل هو من الشهرة والإشهار وبهذا يتطابق المعنى مع مفهوم الإنزال والجعل، أما كلمة ألف فتعني أن إشهار القرآن خير من ألف إشهار آخر، وهذا ينسجم مع قوله في سورة الدخان إنه في ليلة القدر تصدر أوامر كثيرة وليس فقط أمر إشهار القرآن {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} (الدخان ٣–٥) هنا نلاحظ تسلسل الآيات الثلاث: الإنزال للقرآن وهو النبوة وقد أكد بشكل قاطع أنه في ليلة القدر صدر أمر رب العالمين بالإشهار بقوله {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا} وبما أن الرسالة بحاجة لنبوة، فقد صدر أمر النبوة من أجل الرسالة. وأكد أن أوامر أخرى كثيرة تصدر في ليلة القدر بقوله تعالى {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}. هكذا نفهم أن عبارة "ألف شهر" تعني أن أمر إشهار القرآن خير من ألف أمر آخر صدر في ليلة القدر، أو نفهم أن كلمة "ألف" تعني تأليف الأشياء بعضها مع بعض ومنها الأليف والألفة والتأليف. فتصبح عبارة "ألف شهر" تعني أنه إذا جمعت كل الأوامر الأخرى الصادرة من رب العالمين و"تألفت" بعضها مع بعض فإن أمر إشهار القرآن خير منها جميعاً، وأنا أميل إلى هذا المعنى. وبما أنه صدرت وتصدر أوامر أخرى في ليلة القدر فقد قال {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} قارن هذا القول مع قوله {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}. لنلاحظ أنه، فيما يتعلق بالأوامر الأخرى، استعمل مصطلح التنزيل لا الإنزال. فالإنزال جاء للقرآن وقد حصل مرة واحدة. أما التنزيل بالنسبة للأمور الحكيمة الأخرى فلم ينته حتى يومنا هذا. وبما أن التنزيل نقلة موضوعية خارج المدركات الإنسانية، فالأوامر الحكيمة التي تصدر تنفذ دون أن يعلم الناس بها ودون أن تشهر، أي لا يحصل فيها إنزال يبلغ الله سبحانه زيداً من الناس أنه صدر بحقه كذا وكذا.

لقد جعل الله سبحانه ليلة القدر بمثابة موسم لإصدار الأوامر كالعفو وغيره، لذا يتوجه الناس بالعبادة والتضرع إلى الله في هذه الليلة. وهذه الحالة موجودة عند الناس إلى الآن، ولله المثل الأعلى، كأن نقول يصدر الرئيس مراسيم بالعفو عن المجرمين بمناسبة يوم الدستور أو العيد

الوطني للدولة. ولكن هذه الأوامر تصدر عن رب العالمين كما قلنا بدون إشهار "إنزال" بل تنزيل فقط لذا قال {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}. أما قول القائل: إنه في ليلة القدر تحصل ظواهر غير طبيعية تتعلق بشروق الشمس أو الأشجار أو مشاهدة ظواهر غريبة، فهذا وهم كالخرافة الشائعة التي تقول إن فلاناً شاهد ليلة القدر. علينا أن نعلم أن كل الأوامر الصادرة في ليلة القدر بحق أي إنسان هي أوامر غير قابلة للإشهار ولا يتبلغها أحد. كل ما نعلمه أن ليلة القدر هي موسم من رب العالمين.

والآن نطرح السؤال التالي: هل حصلت ليلة القدر مرة واحدة فيها أُشهر القرآن وجعل عربياً؟ أم أنها موسم مستمر يتجدد كل سنة في شهر رمضان؟ الجواب نجده في قوله تعالى {سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} أي أن هذا الموسم موسم سلمه الله لنا، فهو سلام يتجدد كل عام ما دام هذا الكون قائماً، وسينتهي هذا الموسم بالنفخة الأولى في الصور وقيام الساعة حين يحصل الانفجار الكوني الثاني ليتشكل على أنقاضه كون جديد فيه البعث والحساب والجنة والنار ولذا قال {حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}. أما فهم مطلع الفجر على أنه فجر الشمس "الصبح" فهو فهم ساذج.

٦ ــ استنتاجات في الإعجاز القرآني

ما هي الاستنتاجات التي يمكن أن نستنتجها من مبحث الإعجاز؟

إن الاستنتاج الأساسي الذي يمكن أن نستنتجه من مبحث إعجاز القرآن هو الجواب على السؤال التالي: هل القرآن الكريم يدخل ضمن التراث العربي الإسلامي أم لا يدخل؟ للجواب على هذا السؤال يترتب علينا تعريف التراث.

التراث: لقد سبق تعريف التراث في مقدمة الكتاب بأنه النتاج المادي والفكري الذي ترثه مجموعة من الناس عن سلفها ويلعب دوراً أساسياً في تكوين شخصيتها وهويتها، أي في تكوين عقلها الباطن وسلوكها الظاهر. هذا الفهم للتراث يفترض أن الجزء الأساسي من السلف الذي كون هذا النتاج هو في عداد الأموات.

من هذا المنطلق ننظر إلى القرآن. فالذي أنزل القرآن هو الله، والله سبحانه مطلق حي باق والناس نسبيون فانون. لذا فالقرآن ليس تراثاً. وقد صيغ القرآن بصيغة متشابهة لهذا السبب بحيث حوى الحقيقة المطلقة من الله والفهم النسبي لهذه الحقيقة من قبل الناس بآن واحد.

وبما أن القرآن ليس تراثاً وجب علينا أن نفهم أن صياغته متشابهة، وأنه جاء من حي إلى أحياء. فالله حي والعرب في القرن السابع الميلادي أحياء تفاعلوا معه حسب أرضيتهم المعرفية. والله حي ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري أحياء، فما علينا إلا أن نتفاعل معه طبقاً لأرضيتنا لمعرفية، ففي هذه الحالة فقط لا يكون القرآن تراثاً لأننا نفهمه على أساس أنه تنزل علينا.

فإذا كان القرآن ليس تراثاً فما هو التراث العربي الإسلامي؟ الجواب: التراث العربي الإسلامي هو تفاعل الناس مع القرآن ابتداء من النبي (ص) والصحابة وصدر الإسلام مروراً بكل أنواع التفاسير على مر القرون. هذا النتاج الفكري والحضاري الهائل الناتج من هذا التفاعل هو التراث العربي الإسلامي. فإذا تفاعلنا نحن في القرن الخامس عشر الهجري مع القرآن فما أن يأتي القرن السادس عشر الهجري حتى يصبح تفاعلنا تراثاً بالنسبة للناس بعدنا. هكذا فقط يمكن التعامل مع القرآن إذا أردنا أن ننظر إليه ككتاب حي صادر من حي إلى أحياء أي من شاهد إلى شاهد وليس من غائب إلى شاهد. وخاصية التشابه تسمح لنا بذلك.

فماذا قدم السادة العلماء للناس؟ لقد تصدر العلماء المجالس والإذاعة والتلفزيون على أنهم علماء المسلمين وجلهم ناقل وليس بمجتهد، أي أنهم قدموا لنا ما فهمه السلف من القرآن على أنه تفسير للقرآن. والواقع أنهم بذلك لم يقدموا ما يؤكد أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، بل قدموا تفاعل هؤلاء الناس مع القرآن، وبالتالي قدموا الأرضية المعرفية التاريخية لأولئك الناس إلينا في أوائل القرن الواحد والعشرين، أي قدموا لنا تراثاً إسلامياً ميتاً. وكل الشواهد التي نراها في القرن الواحد والعشرين تؤكد أن الإسلام دين خارج الحياة جاء للناس جميعاً ليكون عبئاً عليهم. والمشكلة أنهم نقلوه عن أموات وأهملوا أن صاحبه حي باق. وبعض رجال الدين، بموت النبي (ص) والصحابة، حولوا القرآن إلى تراث شاؤوا أم أبوا، ولم يعلموا أن كل ما فعله النبي (ص) والصحابة هو الاحتمال الأول لتفاعل العرب مع القرآن مع العرب في القرن السابع الميلادي "الثمرة الأولى". وبذلك أصبح الإسلام دين نقل، مات فيه العقل والنظرة النقدية إلى النصوص، وعند مشايخنا فهم القرآن هو عن.. عن، وقال مجاهد وعكرمة وابن عباس وابن كثير والزمخشري، علماً بأن أقوال هؤلاء ليس لها قيمة علمية كبيرة بالنسبة لنا، ولكن لها قيمة تراثية أكاديمية بحتة. والقيمة الحقيقية هي للنص القرآني الحي المتشابه. وهكذا يمكن لنا أن نقدم التبرير العلمي لإصرار النبي (ص) على تدوين الوحي، وإصراره بنفس الوقت على عدم تدوين أقواله الشخصية، لأن الله هو الحي المطلق ومحمد (ص) نبي ولكنه إنسان. هكذا فقط، يمكن أن نقول بكل جرأة علمية: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.

الفصل الخامس

شجرة الذكر

الآن بعد أن عرفنا الكتاب والقرآن والسبع المثاني والذكر والفرقان والصراط المستقيم لنعط التعاريف الكاملة لكل منها:

١– الكتاب: هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى محمد (ص) وحياً، وهو مجموع الآيات الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس وفيه النبوة والرسالة، وهو الرسالة فقط بالنسبة لموسى وعيسى.

الكتاب = الرسالة + النبوة.

٢– أم الكتاب: هي مجموعة الآيات التي تشكل رسالة محمد (ص) وفيها الحدود والشعائر والقيم الإنسانية "الفرقان: الصراط المستقيم والحكمة"، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الكتاب المحكم {مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} وهي التي أوحيت من الله مباشرة وليس لها وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل.

٣– النبوة: وفيها القرآن (بما فيه من قوانين الوجود العامة والجزئية والقصص القرآني) والسبع المثاني وتفصيل الكتاب: والنبوة تقسم حسب الآيات التالية:

أ– الآيات المتشابهات: وهي القرآن والسبع المثاني.

ب– آيات لا محكمات ولا متشابهات: تفصيل الكتاب.

أ– الآيات المتشابهات

١– **القرآن "الحديث":** هو مجموعة القوانين المخزنة في اللوح المحفوظ والإمام المبين، أما في اللوح المحفوظ فهي القوانين العامة الناظمة للوجود والمتحكمة فيه من بداية الخلق إلى نهاية الثواب والعقاب في الجنة والنار. وأما في الإمام المبين فهي القوانين الجزئية لتصرف ظواهر الطبيعة وأفعال الإنسان وأحداث التاريخ بعد وقوعها بما فيها القصص القرآني، التي لها وجود مسبق قبل إنزالها وتنزيلها، وهي التي جعلت عربية ما عدا القصص المحمدي الذي لم يكن له وجود مسبق، وبالتالي لم يحصل فيه جعل ولاإنزال بل تلازم فيه الإنزال والتنزيل وعومل معاملة استثنائية لأنه

كان في مرحلة الأرشفة. وعليه فإن التشابه في كل القرآن بجزأيه الثابت والمتغير يدور في فلك حركية المحتوى مع ثبات النص، ويفهم فهماً نسبياً حسب الأرضية المعرفية لكل عصر.

٢ـ السبع المثاني ''أحسن الحديث'': وهي سبع آيات فواتح للسور ''متشابه مثان'' مثل ''ألم''، وأربعة عشر حرفاً ''صوتاً''، وهي متشابهة وتفهم فهماً نسبياً حسب تطور المعارف للعصر وهي أحسن الحديث.

ب- آيات لا محكمات ولا متشابهات: وهي الآيات التي تشرح محتويات الكتاب من قرآن وأم الكتاب والفرقان:

ومنه:

- الكتاب = آيات محكمات + آيات متشابهات + آيات لا محكمات ولا متشابهات.

= أم الكتاب + القرآن + السبع المثاني + تفصيل الكتاب.

= أم الكتاب + ''الحديث + أحسن الحديث'' + تفصيل الكتاب.

- الذكر: هو الصيغة اللغوية الإنسانية للكتاب الذي جاء بلسان عربي مبين، وهو الصيغة التعبدية بغض النظر عن فهم المضمون، وهو الذي تكفل الله بحفظه، وهو محدث كله.

- الفرقان: هو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى وعيسى ومحمد وهي الآيات (١٥١-١٥٢-١٥٣) من سورة الأنعام، وهو جزء من أم الكتاب، وهو القيم الإنسانية المشتركة بين الديانات السماوية وجاء إلى موسى منسوخاً على الألواح مفروقاً عن الكتاب.

لنأخذ الآن الآيات الخمس الأولى من سورة الزخرف:

- الآية الأولى: {حم} من السبع المثاني.

- الآية الثانية: {وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} القصص.

- الآية الثالثة: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} القرآن.

ونشير هنا إلى أن الهاء في ''جعلناه'' ليست عائدة على الكتاب المبين في الآية السابقة بل هي عين القرآن العربي الذي {أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}. لاحظ أنها جاءت بعد الفاصل.

- الآية الرابعة: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} القرآن في أم الكتاب عند الله علي حكيم.

- الآية الخامسة: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} الذكر هو الصيغة اللغوية العربية التعبدية للكتاب.

لاحظ هذه الآيات الخمس كيف شملت مركبات الكتاب.

لنأخذ الآن الآية الرابعة التي تصف القرآن بأنه علي حكيم: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}، ونتذكر أن هذا الوصف ورد في مكان واحد آخر من الكتاب كله وذلك في قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الشورى ٥١).

يتحدث سبحانه هنا عن كيفية الوحي لكلام الله بعبارة (يكلمه الله) ولاتشمل هذه الآية الرسالة لقوله تعالى {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} (الأعراف ١٤٤) وهنا "علي حكيم" تعود على الموحى به وهو القرآن. فإذا سأل سائل: وكيف تم وحي الرسالة وبقية أجزاء الكتاب؟ هل بنفس الطريقة أو بطريقة أخرى؟ أجابته الآية التي تليها {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى ٥٢) أي بنفس الطريقة للوحي التي ذكرت في الآية ٥١ أوحى إلى محمد (ص) الرسالة والنبوة، فأما الرسالة فهي في أم الكتاب "روح من أمرنا" وأما النبوة فهي في القرآن. و"الكتاب" يتضمن أم الكتاب والقرآن معا أي الرسالة والنبوة.

ـ أمثلة على آيات الذكر

أـ آيات أم الكتاب "الرسالة":

آية المداينة "البقرة ٢٨٢" آيات المحارم "النساء ٢٢ـ٢٣ آية منع تعدد الزوجات "النساء ٣" آية الزينة "النور ٣١" آيات الإرث "النساء ١١ـ١٢ـ١٧٦".

بـ آيات القرآن:

آية البرهان على البعث بقانون التطور "الحج ٥" آية قانون جدل هلاك شكل الشيء باستمرار في الطبيعة "الأنعام ٩٥" شرح التطور "الأنعام ٩٩". آية الأزواج "الذاريات ٤٩" آية بداية الخلق "الفجر ١ـ٤" آيات الصور، الساعة، البعث، وصف الجنة والنار والحساب، أسماء الله الحسنى "آيات جدل الطبيعة" "آيات الله" والتي تبدأ بقوله "ومن آياته" "سورة يوسف" وكل القصص القرآني بما في ذلك القصص المحمدي.

جـ آيات السبع المثاني:

الم. المص. الر. المر.

دـ آيات تفصل الكتاب:

"الزخرف ٢_٥" "آل عمران ٧" "يوسف ٢_٣" "يونس ٣٧" "الرعد ٣٧_٣٩" "الإسراء ٨٥".

ملاحظة: راجع شجرة الذكر في آخر الكتاب.

الباب الثاني

جدل الكون والإنسان

تمهيد

أصل الجدل في اللسان العربي ''ج د ل'' وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام ''ابن فارس– مقاييس اللغة–'' والاسترسال من ''ر س ل'' وتعني الانبعاث والامتداد، جاء القوم أرسالاً أي يتبع بعضهم بعضاً.

ويقوم الجدل على الثنائية، والثنائية على أنواع:

١– ثنائية تلازمية في الشيء المادي الواحد، تؤدي إلى جدل داخلي يقوم على صراع تناقضي في اتجاه واحد بين عنصرين مكونين لكل شيء مادي. وهذا هو جدل هلاك شكل الشيء باستمرار.

٢– ثنائية تقابلية بين شيئين ماديين يتواجدان معاً في علاقة ما، تؤدي إلى جدل خارجي بينهما يقوم على صراع غير تناقضي في اتجاهين، أي على تأثير وتأثر متبادل بين هذين الشيئين يفضي إلى تلاؤمهما. وهذا هو جدل تلاؤم الزوجين.

٣– ثنائية تعاقبية بين ظاهرتين لا تلتقيان أبداً، إذ ينفي وجود الواحدة وجود الأخرى بالضرورة، تؤدي إلى جدل الأضداد في ظواهر الطبيعة غير الحية بنتيجة الحركة الميكانيكية للجمادات ''مثال ذلك تعاقب الليل والنهار''. كما تؤدي إلى جدل الأضداد في عالم الأحياء بنتيجة الحركة العضوية للكائنات الحية ''مثال ذلك تعاقب بسط اليد وقبضها وتعاقب الشهيق والزفير في التنفس''. ويقوم جدل الأضداد على صراع تناقضي على التعاقب. وهذا هو جدل تعاقب الضدين.

٤– ثنائية تلازمية بين نقيضين غير ماديين يتواجدان معاً في الدماغ الإنساني الذي يقوم على صراع بينهما في اتجاهين. وقد ينتهي جدل النقيضين في الدماغ بإصدار حكم في كل صراع على حدة يؤيد أحدهما ويلغي الآخر. ويكون الحكم صادقاً أي حقيقياً إذا كان مطابقاً للواقع المادي الموضوعي خارج الذات الإنسانية، ويكون الحكم كاذباً أي وهمياً إذا كان غير مطابق للواقع الموضوعي. ويتجلى بهذا جدل الفكر الإنساني.

وقد لا ينتهي جدل النقيضين في الدماغ عن طريق إصدار حكم، فيتم حينئذ تغليب عاطفي ''غير عقلي'' لأحدها على الآخر ''ويظهر ذلك مثلاً في التغلب العاطفي للحب على الكراهية أو بالعكس''. ويتجلى بهذا جدل النفس الإنسانية.

وسنبدأ بالحديث عن الجدل المادي الداخلي ''جدل هلاك شكل الشيء باستمرار''، ثم عن الجدل المادي الخارجي ''جدل تلاؤم الزوجين''. وننتقل بعد ذلك إلى عرض رأينا في الصور والحساب

والجنة والنار. وفي الختام نتطرق إلى جدل النقيضين في الدماغ الإنساني الذي سنطلق عليه تسمية جدل الإنسان، والذي يتجلى في صيغتين: جدل الفكر الإنساني وجدل النفس الإنسانية.

الفصل الأول

قوانين جدل الكون

أولاً: الثنائية التلازمية "الجدل الداخلي في الشيء الواحد" "جدل هلاك الشيء"

يؤدي صراع العنصرين المتناقضين داخلياً، الموجودين في كل شيء إلى تغير شكل كل شيء باستمرار، ويتجلى في هلاك شكل ذلك الشيء وظهور شكل آخر. وفي هذا الصراع يكمن السر في التطور والتغير المستمرين في هذا الكون ما دام قائماً. هذا هو ما يسمى بالحركة الجدلية الداخلية التي أطلق عليها في بعض الترجمات مصطلح النفي ونفي النفي. وقد أطلق عليها القرآن مصطلح التسبيح كما في قوله تعالى {.. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..} (الإسراء ٤٤) وقوله {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..} (الحشر ١ والصف ١) وقوله {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..} (الجمعة ١ والتغابن ١). والتسبيح جاءت من "س ب ح" وهو الحركة المستمرة "كالعوم في الماء" كقوله تعالى عن حركة كل شيء {.. كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (الأنبياء ٣٣). هذا الصراع يؤدي إلى التغير في الأشياء، وينتج عنه أن الموت حق وأن الله حي باق. هكذا نفهم معنى قوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص ٨٨) وسيبقى هذا القانون سائداً حتى يهلك هذا الكون المادي (عند النفخة الأولى في الصور=الساعة)، لينشأ على أنقاضه كون آخر جديد مؤلف من مادة ذات خصائص جديدة (عند النفخة الثانية في الصور التي تؤدي إلى البعث). وفي ضوء ذلك تتضح مقولة "البعث حق".

إن قولنا "سبحان الله" في صلاتنا هو إقرار العاقل بهذا القانون، فقد ورد التسبيح في القرآن في حالتين: حالة تسبيح الوجود، وحالة تسبيح العاقل" أي حالة الإقرار العاقل بقانون التطور" وقد وردت الحالتان في القصص عن يونس {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (الصافات ١٣٩ـ١٤٤) هنا وضح بأن قانون تسبيح الوجود عام ينطبق على

يونس والحوت كانطباقه على بقية الأشياء. ولو لم ينطبق عليه هذا القانون لانتفت ظاهرة الموت بالنسبة له وبقي إلى يوم يبعثون. وفي تسبيح العاقل عن يونس قال تعالى {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} (الأنبياء ٨٧).

وفي كل آيات الكتاب وردت "سبحانك" بهذا المفهوم أي عندما يقارن الله مع غيره من الأشياء كقوله تعالى {قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ..} (يونس ٦٨) {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ..} (النحل ٥٧) {.. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} (الأنعام ١٠٠) {مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ..} (مريم ٣٥) {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} (الإسراء ٤٣) {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (الزمر ٤).

أما القول بأن "سبحان الله" هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب فهو قول قد مضى زمانه. إذ أنّ النقائص والعيوب تحمل معنى معرفياً ومعنى اجتماعياً إنسانياً وتخضع لمفهوم النسبية حيث تتغير هذه المفاهيم من مكان لآخر ومن زمان لآخر. إن التسبيح الحقيقي للأشياء كلها لله تعالى يرجع إلى كون الله مصدر الحركة الجدلية الداخلية في الأشياء كلها منذ خلق الله هذا الكون المادي، وهو منزه عن هذه الحركة في ذاته لأنه واحد "أحد صمد" "ليس كمثله شيء" ولأن هذه الحركة تؤدي إلى هلاك الأشياء "الموت".

لقد عبر القرآن بشكل مباشر عن قانون صراع المتناقضات الداخلي في قوله تعالى {إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (الأنعام ٩٥).

وفعل "فلق" في اللسان العربي أصل صحيح يدل على فرجة وبينونة في الشيء، وعلى تعظيم شيء، والفلق هو الخلق كله كأنه شيء فلق عنه شيء آخر حتى أبرز وأظهر. وفي الآية جاءت "فالق" بمعنى شيء أبرز وأظهر منه شيء آخر.

ومعنى الفلق قريب من معنى الخلق، لأنهما يشتركان في حرفين ويفترقان في حرف واحد. و"الحب" جاءت في اللسان العربي من "ح ب ب" وله ثلاثة أصول صحيحة أحدها اللزوم والثبات، والثاني الحبة في الشيء ذي الحب، والثالث وصف. والمقصود في الآية هو المعنى الثاني كحبة الشعير والقمح. أما فعل "خرج" فلها في اللسان العربي أصلان: الأول النفاذ عن الشيء والثاني اختلاف لونين، فالإخراج كأن ينفذ شيء هو الحي عن شيء آخر هو الميت.

إن هذه العملية تتكرر كل يوم آلاف المرات. فإذا وضعنا حبة قمح في التربة المناسبة لها فإنها تجتاز تحولاً فتنتش وتكف الحبة في ذاتها عن الوجود فينتفي وجودها أي تهلك، وتظهر مكانها نبتة

تنشأ عنها، ثم تستمر العملية الحياتية من نمو ونضوج كي تنتج من جديد حبوب القمح. وبمجرد نضوج الحبوب الجديدة تموت النبتة أي تهلك بدورها.. وهكذا نحصل من جديد على حبة القمح الأصلية أضعافاً مضاعفة. فإذا قال قائل: إننا نأخذ حب القمح ونصنع منه خبزاً وبذلك لا يعمل قانون صراع المتناقضات الداخلي... أقول: هذا صحيح، إننا نناقش هذا القانون من دون تدخل الإنسان. وقد استثنت الآية الكريمة قضاء الإنسان أي تدخله حين وضع إخراج الحي من الميت في صيغة فعل مضارع {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} ووضع إخراج الميت من الحي في صيغة اسم فاعل حيث قال: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} وهنا استثنى قضاء الإنسان حيث أن إخراج الحي من الميت هو قانون موضوعي "من الله"، أما إخراج الميت من الحي فالله أخرج الميت إخراجاً، وهنا أعطى مجالاً لتدخل الإنسان، فالإنسان يتدخل بأن يهلك حبة القمح بالطحن أو لا يهلكها، ولولا أن الله أخرج الموت إخراجاً لما كان هناك قضاء "تدخل" إنساني في القتل. ولو أنه قال "ويخرج الميت من الحي" وقتل إنسان إنساناً آخر لقلنا: إن الله قتله ولسقطت نظرية العقوبات كاملة. فنقول الله يحيي ويميت، ولا نقول يحيي ويقتل. والإنسان يقضي "يتدخل" بالقتل أو لا يقضي، ولولا الموت لما كان هناك قتل. ولم يذكر الكتاب القتل من قبل الله تعالى إلا مرة واحدة حين مد يد المساعدة المادية المباشرة إلى النبي (ص) في غزوة بدر فيقوله {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى..} (الأنفال ١٧). أما في البعث فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الروم ١٩). وذلك للتبيان بأنّ قضاء الإنسان "أي تدخله" يسقط نهائياً في البعث واليوم الآخر. أما استعماله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}. في سورة يونس وآل عمران فهو خاص بجدل الأضداد في الظواهر وهي ظواهر متكافئة، أي لا تعمل باتجاه واحد. وسنفصل القول في ذلك فيما بعد. أما قانون صراع المتناقضات الداخلي فيعمل في اتجاه واجد وهو من قوانين القدر "أي القوانين الموضوعية" لذا ختم الآية بقوله {ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}. والإفك هو الارتداد، أي أن الإنسان لا يستطيع رد هذا القانون، قد يتدخل في إسراع أو إبطاء عمل هذا القانون لكنه لا يلغيه. فالطب والعناية الصحية يطيلان الأعمار ولايلغيان الموت، والقتل يقصر الأعمار لذا قال تعالى عن النبي (ص) {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ..} (آل عمران ١٤٤). فالموت حق ولكن الأعمار تطول وتقصر وسنتوسع في شرح ذلك لاحقاً.

لقد عبر القرآن عن قانون صراع المتناقضات الداخلي في الشيء نفسه بصيغة (مخلق وغير مخلق) و(صنوان وغير صنوان) و(متشابه وغير متشابه) و(معروشات وغير معروشات) في

الآيات التالية:

– {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} (الحج ٥).

جاءت هذه الآية لتثبت للناس البعث وتنزع الشكوك بشأن بلوغه الحتمي فبدأت بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ} فإذا قال قائل: ''أنا في ريب من البعث'' فما علينا إلا أن نورد له بقية الآية. ولكن ما علاقة بقية الآية بالبعث؟ إذا نظرنا إليها وجدنا أنها تحتوي على قانون أساسي هو قانون التطور ''تغير شكل المادة باستمرار'' باتجاه واحد، أي بدأ خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ''خلية''، وبعد اللقاح تجتمع الخلية المنوية مع البويضة ''علق شيء بشيء آخر'' فتنتج العلقة، وبعد ذلك يبدأ النمو والتكاثر الخلوي وتشكل الأعضاء المختلفة وتشعبها في المضغة، وأصل المماضغة في اللسان العربي هو من: ''ماضغت فلاناً مماضغة: جاددته القتال والخصومة'' ''الزمخشري – أساس البلاغة'' أي بعد العلقة تبدأ المماضغة وهي تجدد مستمر للقتال ''الصراع'' والخصومة بين العنصرين المكونين للمضغة نفسها وهما العنصر المُخلَّق والعنصر غير المُخلَّق. وهنا وصف المُخلَّقة وغير المُخلَّقة يعود على المضغة نفسها أي لوكان هناك مضغة مخلقة ومضغة ثانية غير مخلقة لقال ''مضغة مخلقة وأخرى غير مخلقة'' كقوله {مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} (آل عمران ٧) ولكن المخلق وغير المخلق يدخل ضمن تركيب المضغة نفسها، وهذا يؤدي إلى صراع المتناقضات الداخلي في الشيء نفسه، أي أن هذا الصراع يؤدي إلى نمو المضغة وتطورها وتحولها إلى جنين كامل. هذا القانون هو القانون الأساسي للحركة الجدلية للحياة العضوية للإنسان والكائنات الحية. ففي النمو الخلوي صراع بين المخلق وغير المخلق، والمخلق تعني المصمم، حيث أن الخلق يعني التقدير لا الإيجاد كقولنا: خلق الخياط القميص من القماش أي قدره قبل القطع والتفصيل، وعندما تخلق بيتاً تضع له مخططاً تميز فيه الممرات من غرف النوم ومن المطبخ، أي أن الصراع هو بين المصمم المتميز وغير المتميز أي بين التكاثر المقدر''المنتظم'' وغير المقدر ''الفوضوي''. فكلما كانت الخلايا التي يتألف منها التصميم متميزة ضمن نظام مقدر فهي مخلقة، وهذا ما يسمى (Differentiated Cell)، وكلما بعدت عن التميز كانت غير مخلقة (Undifferentiated Cell). وهنا يكمن سر النمو العضوي للكائنات الحية في الصراع بين المخلق وغير المخلق في الخلية الواحدة. فعندما ينتصر المخلق تكون الحياة العضوية

والنمو سليمين. وكلّما بعدنا عن المخلق بعد النمو عن أن يكون سليماً، أي أن الحركة الجدلية بين العنصرين المتناقضين داخلياً في الشيء نفسه هي التي أدت إلى التطور الذي تجلى في تغير الشكل باستمرار ''هلاك شكل وظهور شكل آخر في الجمادات وفي الكائنات الحية''، ومن هنا نفهم أن الكائنات الحية قد ظهر بعضها من بعض، وخضعت لقانون التطور والارتقاء. وعليه نفهم أن البعث هو الطفرة النهائية والارتقاء النهائي لهذا الكون، حيث يتوقف حينئذ في الكون الآخر عمل قانون صراع المتناقضات في الشيء نفسه، وينتفي بالتالي الهلاك المستمر بشكل المادة، لذا لا موت ولا ولادة في الكون الآخر بل الخلود.

إن من الخطأ الفادح الظّن أنّ الله خلق الأفاعي وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق القطط وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق الأسماك وحدها ونفخ فيها الروح. ونؤكد هنا أننا نفهم الروح على أنها ليست سر الحياة، وإنما هي سر الأنسنة التي نقصد بها تحول البشر ''الذي هو من الفصيلة الحيوانية'' إلى إنسان، وسنفصل القول في ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب. لذا فالحياة العضوية والكائنات الحية في وجودها خضعت لقانون النشوء والارتقاء الذي هو قانون التطور، نتيجة الصراع الداخلي للمتناقضات في الشيء نفسه فبدأت الحياة من نطفة واحدة ''خلية'' وتطورت بعملية جدلية أدت باستمرار إلى تغير الشكل حتى ظهر البشر غير العاقل، ثم الإنسان العاقل. وهذا ما وضحه تعالى في قوله {.. وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ..} (الشورى ٢٩). وقوله {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (الجاثية ٤). ''وبث'' في اللسان العربي تعني تفريق الشيء وإظهاره، كقولنا: بثت الدولة العيون أي فرقتها، وقولنا البث الإذاعي والتلفزيوني، أي أن أساس الحياة العضوية النباتية والحيوانية واحد، وتم الانتشار والتغير في الأنواع عن طريق البث الذي جاء نتيجة لقانون التطور والارتقاء.

وقد جاء فعل ''بث'' بصيغة الماضي والحاضر للدلالة على استمرارية هذا القانون وعدم توقفه في هذا الكون، إذ لا يتوقف هذا القانون عن العمل إلا بانفجار الكون أي هلاكه. وقد أشار القرآن إلى ذلك بعبارة'' النفخة الأولى في الصور'' ليحل محله كون آخر ''النفخة الثانية في الصور'' يتغير فيه جوهر المادة، حيث يتوقف فيها قانون صراع المتناقضات الداخلي ليحل محله قانون جديد للمادة، يتجلى فيه أن المادة تتألف من عنصرين مترابطين أحدهما بالآخر في علاقة حركية غير متناقضة، لا ولادة ولا موت ولا تطور، بل حركة مستمرة من نمط آخر. هنا يظهر جلياً أن البعث وقانون التطور مرتبطان ارتباطاً لا انفصام له. لذا فإن فهم القوانين الناظمة للمادة وتطورها في هذا الكون بسبب تناقضاتها الداخلية منذ بداية نشأته هو الدليل العقلي ''العلمي'' القاطع على حتمية البعث. هكذا

يمكن برأينا تأويل هذه الآية الكريمة حيث بدأت {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ} ومن أجل تقديم الدليل العلمي كان الجواب إيراد قانون التطور بسبب الهلاك المستمر لشكل المادة.

– {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الرعد ٤).

في هذه الآية يبين إحدى مراحل التطور "البث"، واستعمل أيضاً صيغة المتناقضات الداخلية في الزرع "النخيل" بعبارة {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} ولم يقل: "صنوان وآخر غير صنوان" أي أن وصف صنوان وغير صنوان يعود على ذات الشيء الواحد. وصنوان في اللسان العربي جاءت من "ص ن و" وهي تدل على تقارب شيئين قرابة أو مسافة. وعليه نفهم أن النخيل الذي ذكره صراحة هو أساس لطفرة نتجت عنه كقوله عن المضغة {مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ} أي هي أساس التكاثر الخلوي المخلق وغير المخلق. فهناك صراع عنصرين متناقضين داخلياً في النخيل في أن تبقى متقاربة "صنوان" أو أن تتحرك باتجاه التطور كي تتحول إلى غير متقاربة "غير صنوان" وهنا يكمن سر حركة التطور في الطبيعة بسبب حركة العناصر المتناقضة داخلياً.

– {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأنعام ١٤١).

جاءت هذه الآية لتبين أن الحركة الجدلية التي يكمن فيها سر التطور هي القانون الناظم لاختلاف الأنواع في النباتات، ويؤدي ذلك إلى الاختلاف في المأكل، لذا قال {وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ} وحين ذكر الزيتون والرمان بصيغة متناقضة بقوله {مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} بيَّن أن الزيتون والرمان تولدا نتيجة لطفرة نباتية، أي أنه كان هناك نبات حصل فيه صراع عنصرين متناقضين داخلياً أدى إلى طفرة نتج عنها الزيتون والرمان، وكل واحد منهما (متشابه وغير متشابه).

أما قوله تعالى {جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} فهنا ذكر إحدى مراحل التطور النباتي بشكل عام. بدأت الحياة النباتية بالنباتات الزاحفة "معروشات"، وتطورت إلى نباتات قائمة "غير معروشات"، فكان تطور النبات من نباتات زاحفة إلى نباتات غير زاحفة "قائمة بذاتها" نتيجة لصراع عنصرين متناقضين داخلياً، حيث أن صيغة "هو وغير هو" هي صيغة التناقض.

وهكذا يمكن أن نرى أنّ المتناقضات الداخلية المذكورة في الآيات السابقة هي السر الكامن وراء التطور في الكائنات الحية النباتية "والحيوانية" منذ بداية الحياة على الأرض. وهكذا أيضاً نفهم قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} (نوح ١٣–١٤).

والآن يمكن أن نلخص القانون الأول للمادة وحركتها في هذا الكون كما يلي:

إن قانون صراع المتناقضات الداخلي "الثنائية في الشيء الواحد" يقوم على علاقة تجاذب وتنابذ "تناقض بين عنصرين مكونين لأي شيء مادي موجودين معاً في ذات الشيء" يؤديان إلى حركة ضمن الشيء نفسه ينجم عنها تغير شكل الشيء باستمرار.

وهذا القانون يعمل في داخل جميع الأشياء المادية بلا استثناء. ويعبر التجاذب والتنابذ عن تناقض مستمر يؤدي إلى حركة ضمن الشيء ينجم عنها تغير مستمر لشكل الشيء "أي هلاك شكل وولادة شكل جديد.." وهكذا دواليك. والصياغة المثلى لهذا القانون وردت في قوله تعالى {.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ..} (القصص ٨٨).

ثانياً: الجدل الخارجي بين شيئين "جدل تلاؤم الزوجين" "التكيف"

ورد مصطلح "الزوج" في آيات عديدة منها قوله تعالى {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} (النجم ٤٥). فالزوج هو زوج المرأة، والمرأة زوج بعلها. والزوج في اللسان العربي أصل يدل على مقارنة شيء لشيء آخر وارتباطه معه بعلاقة ما. فالمرأة زوج عندما تكون على عصمة رجل "أي في علاقة مع رجل"، وكانت قبل الزواج عازباً، وإذا مات عنها زوجها فهي أرمل، وإذا طلقت فهي مطلقة، ولايقال عنها زوج إلا إذا كان معها رجل "زوج آخر". "هذا بالمفهوم الاجتماعي". وعندما هاجر النبي (ص) مع أبي بكر قال تعالى {.. ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ..} (التوبة ٤٠) هنا قال "اثنين" ولم يقل زوجين لأنهما من الذكور.

وعندما قال في سورة الأنعام {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (الأنعام ١٤٣). {وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ..} (الآية ١٤٤). هنا عندما قال "ثمانية أزواج" تبين أنها تتألف من أربعة ذكور وأربع إناث، ولو كانت كلها ذكوراً أو كلها إناثاً لما قال "ثمانية أزواج"، والزوج في اللسان العربي لفظة ليس لها مؤنث، فالذكر زوج الأنثى، والأنثى زوج الذكر. أما عملية القران الشرعي بين الذكر والأنثى فقد أطلق عليها الكتاب مصطلح "النكاح" فنقول عقد نكاح ولا نقول عقد زواج، فالأساس في معنى الزوجية الطبيعي هو أن الذكر زوج الأنثى في الوجود لا في العقود، وأي أنثى هي زوج لأي ذكر بالخلق. وفي هذا قال تعالى {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ

الذُّكُورَ} (الشورى ٤٩) {أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} (الشورى ٥٠).

اشتملت الآيتان على أربع حالات يهب الله فيها أولاداً أو لا يهب وهي:

١– حالة الإناث فقط.

٢– حالة الذكور فقط.

٣– حالة الذكور والإناث.

٤– حالة العقم.

والحالة التي تعنينا هنا هي الحالة الثالثة. فقد استعمل هنا مصطلح "الزوج" بصيغة "يزوجهم" للدلالة على اشتراك الجنسين معاً في الهبة "الذكر" و"الأنثى"، وهما في هذه الحالة أخ وأخت ولكنهما في الطبيعة من حيث الذكورة والأنوثة زوجان.

ثم جاء المعنى الثاني للزوج بالمفهوم الاجتماعي أي حتى تصبح الأنثى زوج الذكر اجتماعياً يجب أن يكون هناك عقد نكاح، لذا ظهر مفهوم الحلال والحرام في نكاح المحرمات الواردة في الآيات ٢٢ و٢٣ من سورة النساء، وفي الزنا حيث أن هذه المفاهيم اجتماعية إنسانية "القيم" وليست مفاهيم طبيعية وجودية.

ويتضح من ذلك لماذا لم يسأل أحد من العرب النبي (ص) عن وضع المرأة في الجنة حين سمعوا قوله تعالى {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} (الدخان ٥٤٠) {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} (الطور ٢٠) {.. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة ٢٥) {.. وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران ١٥) {.. لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} (النساء ٥٧) {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ} (يس ٥٦) {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} (الزخرف ٧٠). هذه الآيات التي ذكر فيها الجنة والأزواج كلها قرآن، وتتحدث عن الجنة للذكور والإناث حيث استعملت ميم الجماعة، وهي في اللسان العربي تستعمل للشمول "صيغة جمع" وكذلك عندما يكون المراد أن تشمل اللفظة الذكور والإناث معاً تأتي صيغة عامة كقوله تعالى {اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا} وقوله {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} وقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا} هنا الهبوط للذكور والإناث، والمؤمنون للذكور والإناث، والذين آمنوا للذكور والإناث.

وعندما يريد أن يفرق بين الذكور والإناث تأتي دائماً صيغة خطاب صريحة (إن المؤمنين والمؤمنات)، فقوله {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} يعني أن أهل الجنة من الذكور والإناث معاً لهم أزواج من حور عين، أي أن الحور العين هم من الذكور والإناث، فالذكر له من الحور العين أنثى،

والأنثى لها من الحور العين ذكر. وقوله {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ} هو أيضاً للذكور والإناث معاً، و(أزواجكم) للذكور والإناث. ومن هنا يتبين أن حال المرأة في الجنة كحال الرجل تماماً، وعندما يذكر الجنة يستعمل دائماً لفظة "أزواج" ولا يستعمل نساء أو امرأة أو لفظة رجل أو رجال.

إن تحديد جنس الزوج ذكراً أم أنثى يحدده سياق الآية. فمثلاً عندما يذكر الذكر ويذكر معه الزوج فهنا تعني الأنثى كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ..} (الأحزاب ٢٨) وقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ..} (الأحزاب ٥٠). وقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ..} (التحريم ١). هنا المخاطب هو النبي (ص) فتأتي الأزواج إناثاً.

وفي قوله تعالى {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ..} (النساء ١٢) يقصد بالأزواج الإناث لقوله {إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ} فاستعمل نون النسوة في "لهن" ولو كان يقصد الذكور والإناث لقال "إن لم يكن لهم ولد". وكذلك قوله {.. إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ..} (التغابن ١٤). هنا أزواجكم يقصد بها الذكور والإناث.

ولكي يبين سبحانه أن قانون الزوجية "وهو اقتران شيء بشيء آخر وبالتالي ارتباطه معه بعلاقة ما" معمم على الوجود المادي كله قال {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الذاريات ٤٩) وقال {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} (يس ٣٦). وهنا استعمل لفظة سبحان لتنزيه الله أن ينطبق عليه قانون الزوجية.

فقانون الزوجية هو القانون الثاني الأساسي الذي تخضع له جميع الأشياء في الكون المادي. وقد عبر القرآن الكريم عن العلاقة الثنائية بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض ومتقابلين في أمرٍ ما بمصطلح "الأزواج". وهذه العلاقة تشمل كل الموجودات في الكون فهي علاقة خارجية بالنسبة للشيء "الزوج" وللشيء المقابل له "الزوج الآخر". ويؤكد هذا القانون أن الأشياء في الكون المادي لا يمكن أن تكون منعزلة بعضها عن بعض، لذا فهي بالضرورة علاقة تقابلية مع الأشياء الأخرى في مستويات لا حصر لها. وليست الزوجية علاقة بين عنصرين ضمن الشيء نفسه، بل هي علاقة خارجية بين شيئين متقابلين "زوجين" معلومين أو لا يزالان مجهولين، يمكن أن نصفها بأنها علاقة تأثير وتأثر متبادل بين شيئين "علاقة جدلية بينهما". لهذا لا يصح أن نقول بوجود علاقة خارجية جدلية بين شيئين إلا بعد أن تتحدد العلاقة التقابلية "الزوجية" بينهما والمستوى التقابلي لهذه العلاقة.

وتكون العلاقة التقابلية الزوجية على مستويات مختلفة، بحيث يكون الشيء في علاقة جدلية تقابلية مع شيء آخر في مستوى ما، ويكون الشيء نفسه في علاقة تقابلية جدلية أخرى مع شيء ثالث في مستوى آخر.. وهكذا دواليك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزوجين يوجدان معاً في علاقة ثنائية تقابلية وبذا يتميزان عن الضدين. فالضدان لا يوجدان "لا يلتقيان" معاً بل تقوم بينهما علاقة تعاقبية، ولا يكون ذلك في الأشياء المادية بل في الظواهر فقط.

وهكذا يظهر جلياً أن العلاقة التقابلية بين زوجين هي علاقة خارجية بين شيئين تقوم على التأثير والتأثر المتبادل بينهما. وينبني على هذا القانون قانون التكيف في الطبيعة.

وبذا نكون قد أزلنا اللبس العالق في الأذهان نتيجة الترجمات الفاسدة التي توهم بأن التناقض يمكن أن يكون بين الزوجين "الشيئين المتقابلين" أو بأن الزوجين هما ضدان.

ونلخص القانون الثاني، قانون الزوجية أو قانون الثنائية التقابلية في الأشياء، بما يلي:

يقوم على علاقة تأثير وتأثر متبادل بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض "زوجين" تؤدي إلى التكيف والتلاؤم المستمر بين هذين الشيئين.

هذا القانون الثاني يعمل في جميع الأشياء من خلال علاقة خارجية ثنائية تقابلية غير تناقضية بين شيئين متميزين بعضهما عن بعض عن طريق التأثير والتأثر المتبادل بينهما. وتكون هذه العلاقة في مستويات عديدة. والصياغة المثلى لهذا القانون وردت في قوله تعالى {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الذاريات ٤٩).

ثالثاً: أقوال في الصور والحساب والجنة والنار

إننا نتبنى النظرية العلمية القائلة بأن ظهور الكون المادي كان نتيجة انفجار هائل أدى إلى تغير طبيعة المادة. ونرى أن انفجاراً هائلاً آخر مماثلاً للانفجار الأول في حجمه سيؤدي حتماً إلى تغير طبيعة المادة وهلاك هذا الكون المادي ليحل محله كون "عالم" مادي آخر. ويعني ذلك أنّ هذا الكون لم ينشأ "يخلق" من عدم بل من مادة ذات طبيعة أخرى، كما أنّ الكون سيزول ليحل محله كون آخر من مادة ذات طبيعة متغايرة.

أ ـ الصُّور

قلنا إن قانون صراع المتناقضات الداخلي في الشيء نفسه، يؤدي إلى تغير الصيرورة بشكل مستمر وهلاك شيء وظهور شيء آخر. وهذا القانون حتمي لا ردّ له ويسير باتجاه واحد، فهو لذلك قدر الموجودات كلها الذي يعبر عنه بالتسبيح. فالخلق الأول بدأ بانفجار كوني هائل قال فيه تعالى

{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} (الفجر ١–٣) فالفجر هو الانفجار الكوني الأول، والليالي العشر هي مراحل التطور العشر التي مرت بها المادة حتى أصبحت شفافة للضوء، لذا أتبعها بقوله {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} حيث أن أول عنصر تكون في هذا الوجود هو الهيدروجين، وفيه الشفع في النواة والوتر في المدار، وقد أكد هذا في قوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} (الأنعام ١).

ويجب أن نميز في خلق الوجود بين ثلاثة أفعال مختلفة هي: الخلق والإبداع والفطر وردت في الآيات التالية.

- {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} (الأنعام ١).
- {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (البقرة ١١٧).
- {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (فاطر ١).
- {قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (الرعد ١٦).

فالخلق هو التصميم ولكن يمكن أن يكون التصميم لشيء له سابقة، أي يمكن لمهندس أن يصمم بيتاً سبقه إليه أحد وله سابقة. ولِكي يبين سبحانه أن خلق السموات والأرض ليس له سابق وأنه لأول مرة قال {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ولكي يبين أن تصميم السموات والأرض وإبداعهما غير قديمين وأنهما كانتا معاً ثم انفصلتا عن بعضهما قال {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقد أكد أن هذا الفصل حصل بانفجار.

لقد سبق أن ذكرنا أن العرش هو الأمر، ويعني ذلك أن أمر الله كان على أول عنصر تَكوَّن في هذا الوجود وهو الهيدروجين "مولد الماء" لذا قال {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ..} (هود ٧) أي كان أمره على العنصر المكون للوجود وهو الهيدروجين.

هذا الوجود منذ الانفجار الكوني بدأ ينطبق عليه قانون التسبيح "صراع المتناقضات الداخلي في الشيء نفسه" أي أن الذي لا يسبح من الأشياء لا وجود له. وصارت الأشياء تتغير من كينونة إلى صيرورة "كان فصار"، وستبقى كذلك إلى أن يحدث تغير مفاجئ في صيرورة المادة الكونية. وهكذا نفهم قوله تعالى {.. كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ..} (الأنبياء ١٠٤). فبداية تكون هذا الكون كان بطفرة "الانفجار الأول" التي هي التغير الأول في الصيرورة المادية "أي من مادة ذات طبيعة غير معروفة"، وهذه التغيرات سارية المفعول حتى تحدث طفرة مفاجئة ثانية "تغير مفاجئ في الصيرورة الكونية" طفرة ثانية. وقد أورد القرآن القانون الأول للجدل المادي للبرهان على البعث.

لقد عبَّر القرآن عن الطفرة المفاجئة بقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ..} (الزمر ٦٨)، و"ن ف خ" في اللسان العربي أصل صحيح يدل على انتفاخ وعلو، يقال انتفخ النهار أي علا، ومنه "نفخ في النار" وذلك لكي يسرع في إشعالها وتعلو. ولفظ "الصور" جاءت من "صير" وهو أصل صحيح وتعني المآل والمرجع ومن ذلك صار يصير صيراً وصيرورةً، ويقال أنا على صير من أمر أي إشراف على قضائه، وذلك الذي يصار إليه.

فالنفخ في الصور تعني التسارع في تغير الصيرورة "المآل" وهذا ما يسمى بالطفرة. ويوجد نوعان من التسارع في تغير الصيرورة، عبر عنهما بالنفخة الأولى للصور والنفخة الثانية. والنفخة الأولى لها مصطلح خاص هو الساعة. وسميت الساعة لأن هلاك هذا الكون قائم فيها، وهي حتمية تقتضيها بنية هذا الكون المادي الثنائي. وقد جاءت الساعة من "سوع" وهو استمرار الشيء "١" ومضيه "٢"، "١ و٢" وهذان هما العنصران المتناقضان داخلياً في الوجود المادي للكون، أي أن يستمر على ما هو عليه أو ينتهي، وانتهاؤه يكون عند النفخة الأولى في الصور. فقولنا جاءنا بعد سوعٍ من الليل وسواعٍ أي بعد هدء منه، وذلك أنه شيء يمضي ويستمر. فالساعة تدل على مضي واستمرار معاً، فالمستمر هو الوجود المادي، والمضي هو انتهاء عمل قوانين المادة السائدة في هذا الكون ليحل محلها عمل قوانين جديدة في كون مادي آخر. وبمعنى الهدوء والمضي جاء قوله تعالى {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ..} (الروم ٥٥) ومنه نستنتج أن عذاب القبر بالمفهوم السائد لا وجود له. ففي المعنى الأول للساعة يقول تعالى {يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ..} وهو الانفجار والمضي بعد الهدوء. وفي المعنى الثاني الهدوء والاستمرار لفترة زمنية يقول {يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} وهكذا نفهم الآيات:

– {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} (الزمر ٦٨).

– {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} (الحج ١).

– {إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} (غافر ٥٩).

– {.. أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (الشورى ١٨).

– {.. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} (الجاثية ٢٧).

– {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الأعراف ١٨٧).

ففي آية الأعراف ١٨٧ جاءت الساعة بمعنى المضي في عبارة {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} وجاءت بمعنى أن الساعة موجودة في طبيعة المادة الكونية "العنصران المتناقضان والمتصارعان هما المضي والاستمرار". {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. ولبيان أنها تسارع مفاجئ في تغير الصيرورة جاء قوله {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} ولبيان أن توقيتها لا يعلمه إلا الله جاء قوله {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ} وقوله {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} وقوله {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..} (لقمان ٣٤) وقوله {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ..} (فصلت ٤٧) وقوله {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا..} (طه ١٥) هنا أخفيها بمعنى أظهرها لأن فعل "خفي" في اللسان العربي من أفعال الأضداد.

ويجب أن نلاحظ أمراً هاماً جداً، هو أن قيام الساعة لا يعني انتهاء حياة الشمس بشكل طبيعي أي انطفاءها، لأن انطفاءها ظاهرة فلكية طبيعية "لا تحصل بغتة". فإذا كان الحال كذلك فهذا يعني أن الحياة ستنتهي على الأرض قبل انطفاء الشمس بمدة طويلة، ولكن وصف القرآن للساعة يدل على أنه ستكون هناك حياة على الأرض كما في قوله {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} وقوله {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ..} (الحج ٢) والإنسان عند قيام الساعة يكون قد وصل إلى وضع من التطور والتقدم العلمي بحيث يظن أنه أصبح رباً متصرفاً في ظواهر الوجود وذلك في قوله تعالى {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (يونس ٢٤).

هنا نلاحظ مرة أخرى كيف ربط قانون التطور وتغير الصيرورة بقيام الساعة، وأن علامة الساعة المباشرة هي وصول الإنسان إلى درجة من التطور يظن معها أنه أصبح رباً. وقد وصف القرآن الساعة وخراب الكون الحالي في أماكن كثيرة كقوله تعالى {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} (الزلزلة ١–٥) وقوله {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} (النازعات ٦–٧) وقوله {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ} (المرسلات ٨–١٣). والفصل هو فصل قانون صراع المتناقضات عن الوجود المادي.

ب– البعث والحساب

ظهر الإنسان على الأرض بعد مليارات السنين من الانفجار الكوني الأول، وحصلت تغييرات كثيرة في الصيرورة حتى ظهر البشر ثم الإنسان، وسيستمر هذا الكون متغير الصيرورة حتى يهلك الشكل الحالي للكون، فيكون هذا الهلاك بداية لتشكيل كون مادي آخر بقوانين جديدة للمادة، فتحصل تغييرات جديدة في الصيرورة حتى يستقر ويصبح كوناً جديداً بمادة خالية من صراع المتناقضات الداخلية في الشيء الواحد. لذا لا يوجد في الكون الجديد لا ولادة ولا موت، وتختفي ظاهرة التطور وتظهر حركة للمادة من نوع آخر وعلاقات أخرى، ويبقى عمل القانون الثاني للجدل التأثير والتأثر المتبادل بين الأشياء "الأزواج". ففي الجنة يوجد أزواج وفي النار يوجد أزواج. أما الجنة والنار فليسا زوجين حيث لا يوجد علاقات متبادلة بينهما بل يوجد أزواج في كل منهما، أي أن هناك قانون تأثير وتأثر متبادل من نوع جديد مع اختفاء قانون صراع المتناقضات، لذا ففي الجنة والنار حركة من نمط آخر ولكن لا يوجد تسبيح وجود.

لقد عبر القرآن عن الطفرتين بآية واحدة بقوله {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} (الزمر ٦٨) لاحظ في النفخة الأولى قوله {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} ولاحظ أن "من" للعاقل {إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ} والعاقل المستثنى من هذه الصعقة هو ابليس لقوله تعالى {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (الحجر ٣٦–٣٨). وعبر عن النفخة الثانية بعبارة {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى} لاحظ كيف وضع بين الأولى والثانية الأداة "ثم" التي تعني التعاقب مع التراخي.

لننظر الآن في الآيات التالية ونرى عن أية طفرة "تغيير في الصيرورة" تتكلم:

– {.. قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ..} (الأنعام ٧٣) هنا ذكر الصيرورة الأولى والثانية، وجاءت الصُور هنا اسم جنس.

– {.. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} (الكهف ٩٩) الصيرورة الثانية.

– {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} (المؤمنون ١٠١) الصيرورة الثانية.

– {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} (ق ٢٠) الصيرورة الثانية.

– {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} (الحاقة ١٣) الصيرورة الأولى لأنه أتبعها بقوله {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} (الحاقة ١٤).

– {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} (الحاقة ١٥). {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} (الحاقة ١٦).

– {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} (النبأ ١٨) النفخة الثانية لأنه أتبعها بقوله {فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} إذ وضع وصفاً جديداً للسماء {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا} (النبأ ١٩). ووصف الجبال {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} (النبأ ٢٠).

لقد وصف الله البعث بالخروج من الموت إلى الحياة بقوله تعالى {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الزخرف ١١) وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الروم ١٩) {رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} (ق ١١). ففي آية الروم ١٩، وضع الإخراج متكافئاً بين الحي والميت لأنه لا قضاء للإنسان في يوم الخروج لذا قال {لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} للدلالة على انتهاء تدخل الإنسان وقضائه. أي أن البعث هو خروج الناس من الموت إلى الحياة بكينونة مادية جديدة لا تغير في صيرورتها.

قد يسأل سائل: وهل بعد أن يفنى الإنسان ويصبح تراباً سيعاد تكوينه؟ الجواب: نعم. إنما يجب أن نميز بين نوعين من النفس: النفس البشرية التي تموت وتتحول إلى تراب والتي قال عنها تعالى {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا..} (آل عمران ١٤٥) والنفس التي تتوفى والتي قال عنها تعالى {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا..} (الزمر ٤٢). فالنفس التي تموت والتي نقول عنها "الجسد" عبارة عن تحول مادي عضوي بحت، إذ يبدأ عند الموت تحلل المواد العضوية المكونة لهذه النفس. هذه النفس عبارة عن مجموعة من المواد المركبة بعضها مع بعض بنسب محددة، والتركيب المادي للنفس لا يعتبر عين الذرات المركبة لها، لكن هو مجموعة من النسب المادية مربوط بعضها ببعض. وهذا واضح في طرحنا الفضلات (الغازية –السائلة– الصلبة)، ونحرق في الجسم ما نحرق ثم نعوض بالتغذية المواد المفقودة بحيث نأخذ ونعطي دائماً. فالمهم هو التركيب النسبي للمواد وليس عين المواد.

ج– الجنة والنار لم توجدا بعد واستقرار النقيضين فيهما

١– الجنة والنار ستظهران على أنقاض هذا الكون

هناك قول شائع وخاطئ في آن معاً بأن الجنة والنار، أي جنة المتقين ونار الكافرين، موجودتان الآن تنتظران يوم البعث، وهذا غير صحيح طبقاً للنص القرآني. حيث أن الجنة والنار ستتشكلان

على أنقاض هذا الكون بعد النفخة الأولى. وحتى يحين وقت النفخة الثانية التي سيحصل فيها البعث، تكون الجنة والنار جاهزتين.

ولكن علينا ألا ننسى أن الوجود في الكون الجديد وجود مادي سيتشكل على أنقاض هذا الوجود بقوانين جديدة للمادة يختفي فيها قانون صراع المتناقضات الداخلي في الشيء الواحد "التسبيح" وينتهي التطور، لذا سمى الآخرة دار القرار في قوله تعالى {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} (غافر ٣٩) وذلك بانتهاء قانون "كل شيء هالك" ليحل محله قانون "كل شيء خالد" الذي عبر عنه بمصطلح الخلود. ويبقى قانون الأزواج، التأثير والتأثر المتبادل بين الأشياء، إنما من نمط آخر. ففي الجنة أزواج {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ} وفي النار أزواج {وَآَخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} (ص ٥٨). وفي الجنة طعام وجماع وأنهار لكنها ذات كيفية أخرى.

أولاً: لنبحث كيف ذكر القرآن أن الجنة والنار لم تظهرا بعد: قبل أن ندخل في هذا البحث علينا أن نعرف الجنة والنار وكيف جاء ذكرهما في القرآن بشكل متشابه.

فلفظة الجنة في اللسان العربي من "ج ن ن" وتعني التغطية والستر كقوله تعالى {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ..} (الأنعام ٧٦) أي غطاه الظلام ومنها جاءت كلمة المجنون وهو الإنسان الذي صار على عقله غطاء، ومنها كلمة الجن أي المخلوقات المغطاة عن أبصارنا لا نراها. وجاءت هذه اللفظة في القرآن للدلالة على الجنة في الدنيا أو في الآخرة حسب سياق الآية. فالجنة هي أرض مغطاة بأشجار وأغصان وما شابه ذلك ولها معنى إيجابي دائماً. فالبستان المشجر المزروع يقال له جنة، وقد وردت بهذا المعنى في قوله تعالى {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ..} (الكهف ٣٢). وقوله {.. وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ..} (سبأ ١٦) وقوله {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ..} (الإسراء ٩١) وقوله {أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا..} (الفرقان ٨) وقوله {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ..} (الكهف ٣٥) وقوله {فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..} (المؤمنون ١٩) وقوله {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الشعراء ٥٧) وقوله {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ..} (الأنعام ١٤١). هنا نلاحظ كيف أطلق لفظ الجنة على حالات دنيوية طبيعية، وهكذا يجب أن نفهم جنة آدم حيث أنها تختلف عن جنة المتقين. إن وصف جنة المتقين في القرآن، والتي لم تتكون بعد، يختلف عن وصف جنة آدم التي ذكرها قوله تعالى {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} (طه ١١٨) {وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} (طه ١١٩). لقد أخبرنا القرآن بأن البشر ظهر على الأرض وأنه كان يعيش في غابات في المناطق الحارة، لأن

الآيتين ١١٨ و١١٩ في سورة طه لا تصفان أكثر من غابة، وسنفصل القول في هذا حين الحديث عن آدم ونشأة الكلام الإنساني.

أما جنة المتقين فيصفها وصفاً آخر تماماً فيه الخلود بعبارة "خالدين فيها" وفيه تختفي ظاهرة الموت حيث تظهر هذه الجنة في كون آخر مع النار، حيث لا جدل ولا علاقات متبادلة بينهما لقوله تعالى {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} (الأعراف ٥٠).

ولفظة "النار" جاءت في القرآن للدلالة على النار في الدنيا أو في الآخرة حسب سياق الآية، فأحياناً تأتي معرفة كاسم جنس، وهي دنيوية كقوله {.. وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ..} (الرعد ١٧). جاءت النار هنا معرفة وتعني نار الأفران العالية المستعملة لصهر المعادن، وأحياناً تأتي نكرة مقصودة {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ} (الأنبياء ٦٩) وأحياناً أخرى تأتي غير معرفة كقوله {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} (نوح ٢٥) والنار هنا تعني ناراً في الدنيا وليس في الآخرة. أما نار الآخرة ففيها الخلود للكافرين.

ثانيا: لنورد الآن الأدلة على أن الجنة والنار لم توجدا بعد، وإنما ستوجدان على أنقاض هذا الكون بين الطفرة الأولى "تغير الصيرورة عند النفخة الأولى للصور" والطفرة الثانية "النفخة الثانية للصور".

– {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (إبراهيم ٤٨).

– {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} (الزمر ٦٨).

– {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (الزمر ٦٩).

– {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} (الكهف ٤٧).

– {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} (الكهف ٩٩).

– {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} (الكهف ١٠٠).

– {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} (آل عمران ١٣٣).

– {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الحديد ٢١).

– {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} (هود ١٠٦).

– {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} (١٠٧).

– {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} (هود ١٠٨).

– {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (الزمر ٧٤).

لقد دلت الآيات الواردة أعلاه على أنه سيحصل تبديل في السموات والأرض أي سيكون هناك سموات وأرض جديدة بقوانين مادية جديدة طبقاً لقوله تعالى {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ..} (ابراهيم ٤٨) وقوله {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} (الكهف ١٠٠). وهنا يجب أن نفهم عبارة "جنة عرضها السموات والأرض" فلفظة "عرضها" جاءت من "ع رض" ومنها جاء العرض والمعرض والأعراض فنقول هنا عرض عسكري، فعرض الشيء هو إظهاره بشكل جلي، أي أن السموات والأرض الجديدة هي المكان الذي ستعرض فيه الجنة أو هي عين عرض الجنة. وكذلك النار في عبارة "وعرضنا جهنم" هنا يجب ألا نفهم "عرضها السموات والأرض" أن العرض هو الضلع الأصغر من المستطيل، وإلا أصبحت الآية لا معنى لها وغير مترابطة، حيث أن أبعاد الوجود ليست الطول والعرض فلا نقول طول الكون وعرض الكون.

أما قوله تعالى {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..} (الحديد ٢١) هنا استعمل كاف التشبيه، والسماء بشكل مفرد للدلالة على الجنس لا العدد أي أننا حين ننظر فنرى السماء والأرض كجنس فهنا يشرح طريقة العرض "جنس العرض" أي أن العرض هو عرض مادي كعرض السماء والأرض الحاليين، وكذلك قوله {يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} (النازعات ١٠) والحافرة هي عود على بدء، وقوله {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} (النازعات ١٣، ١٤) والساهرة مصطلح في اللسان العربي يطلق على كل أرض "ابن فارس".

أما الآية ١٠٨ في سورة هود فقد ذكر دخول أهل الجنة والخلود فيها في آية واحدة للدلالة على أن الدخول إلى الجنة والخلود فيها مرتبطان بعضهما ببعض فلا إقامة مؤقتة في الجنة، أما فيما يتعلق بالنار فقد فصل أصحاب النار عن الخلود فيها لكي يبين أن الدخول إلى النار شيء والخلود فيها شيء آخر، فليس كل من يدخل النار سيخلد فيها لذا فصل أصحاب النار عن الخلود فيها، كل في آية على حده، أصحاب النار في الآية ١٠٦ والخلود فيها في الآية ١٠٧، وهذا يبين لنا أهمية مواقع النجوم بين الآيات.

هنا يكمن الدليل القرآني على أنه ليس كل من يدخل النار سيخلد فيها. وفي نهاية آية الجنة قال {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} للدلالة على وضوح وثبات الثواب، وأما بالنسبة للنار قال {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} للدلالة على احتمال المغفرة أو ثبات العذاب.

٢– استقرار النقيض في الجنة والنار

لقد وصف سبحانه الدنيا بأنها {مَتَاعُ الْغُرُورِ} (آل عمران ١٨٥– الحديد ٢٠) أي أن متاع الدنيا متاع زائل لأنه هالك أي متغير في الصيرورة باستمرار ينتقل من شكل لآخر، والغرور من (غ ر ر) وتعني في اللسان العربي عدم النضج (النقصان) كأن نقول دورة أغرار، وفلان مازال غراً، أي ناقص الخبرة ومنها جاء الغرور.

أما الجنة فأكلها دائم ومتاعها باق {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} (الواقعة ٣٢–٣٣).

المجتمع الدنيوي	اليوم الآخر
١– وجود ظاهرة العمل والراحة	١– اختفاء ظاهرة العمل ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ (الحاقة ٢٣) ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان ١٤) ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (الواقعة ٣٢–٣٣) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (الواقعة ١٦) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر ٤٨) (فاطر ٣٥).
٢– وجود ظاهرة الصحة والمرض	٢– اختفاء ظاهرة المرض ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (العنكبوت ٦٣) والحيوان هنا ضد (موتان)، وهي من الحيوية.
٣– وجود ظاهرة الخير والشر في العمل الإنساني	٣– اختفاء ظاهرة الشر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر ٤٧).
٤– وجود ظاهرة الحرب والسلام	٤– الجنة دار السلام والنار دار الخصام ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص ٦٤).

قد يقول البعض أن مواصفات الجنة يمكن تحقيقها في الحياة الدنيا، أقول هذا مستحيل للسبب التالي:

إن قوانين المادة الحالية في كوننا (التي تخضع لقانون صراع المتناقضات الداخلي الذي يؤدي إلى تغير في الصيرورة باستمرار) لا تسمح أبداً بقيام مجتمع كهذا لأن أي مجتمع دنيوي له تناقضاته الخاصة به التي تؤدي إلى تطوره أي هلاكه وعدم ثبات الصيغة فيه طبقاً لقوله تعالى {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (الإسراء ٥٨). ولأن ذلك المجتمع يحتاج إلى قاعدة مادية تقوم على قوانين مادية تختلف عن قوانين المادة الحالية في كوننا، فظاهرة العمل والراحة والصحة والمرض والخير والشر لا يمكن أن تختفي ضمن القوانين الحالية في كوننا. ففي القوانين الحالية تعطي شجرة التفاح موسماً واحداً في السنة أو اثنين أو ثلاثة، أما تفاح الجنة فكلما قطفته أخلف مباشرة، فشجرة تفاح واحدة من تفاح الجنة تكفي أهل الأرض جميعاً. ولا يمكن أن يحصل هذا إلا بتغير قوانين المادة، هذا التغيير

في القوانين المادية يوضحه قوله تعالى {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} (ق ٣٥). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن محتوى التفاح في الجنة يختلف عن محتواه في الدنيا، وأهل الجنة يرون التفاح ويعلمون أن هذا تفاح ولكن عند المذاق يختلف عن تفاح الدنيا لذا قال تعالى {.. كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا..} (البقرة ٢٥) والتشابه كما قلت ثبات الشكل وتغير المحتوى، أي كلما أكل واحد من أهل الجنة تفاحة يرى طعمها مختلفاً عن أي تفاحة أخرى.. وهكذا دواليك، أي أن هناك تفاحاً واحداً ومليارات الاحتمالات من الطعم والنكهة للتفاح.

كما نستنتج أنه في الكون الجديد والقوانين الجديدة للمادة بعد النفخة الثانية في الصور لا يوجد تسبيح للأشياء حيث لا ولادة ولا موت ولاتغير في الصيرورة. والآيات الوحيدة في التسبيح في اليوم الآخر هي عن الملائكة فقط كما في قوله تعالى {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الزمر ٧٥) ونلاحظ أن نهاية العرض والحساب ودخول الناس إلى الجنة والنار وثبات الأشياء ختم بعبارة {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وأن الكتاب بدأ بقوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الفاتحة١– يونس١٠– الصافات ١٨٢– الزمر ٧٥) وأن الخلق بقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..} (الأنعام ١) اقترن بالحمد، وهكذا نرى أن هناك حمداً في الدنيا وحمداً في الآخرة طبقاً لقوله تعالى {.. لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآَخِرَةِ..} (القصص ٧٠). وورد تسبيح العاقل في الجنة في قوله {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ١٠) فالتسبيح في اليوم الآخر للناس فقط لا للأشياء، أي تسبيح شكر لا تسبيح وجود. وهكذا فإن طبيعة المادة وتركيبها في الكون الجديد تسمح برؤية الله سبحانه وتعالى حيث تسبيح العاقل في اليوم الآخر تنزيه عاقل لله.

الفصل الثاني

جدل الإنسان والمعرفة الإنسانية

تمهيد في جدل الإنسان (الرحمن والشيطان)

لقد ميز القرآن الكريم جدلاً خاصاً بالإنسان في قوله تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} (الكهف ٥٤).

فإذا كان هناك جدل للأشياء المادية فإن هذا الجدل ينطبق على الإنسان لكونه كائناً حياً مادياً أي بشراً، لذا قال {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}. أي أن هناك جدلاً خاصاً بالإنسان لا يوجد لغيره من الأشياء وهذا الجدل هو جدل الفكر، حيث يتميز الإنسان عن بقية الأشياء بأنه كائن عاقل مفكر. لذا فإن جدل الإنسان والمعرفة الإنسانية في القرآن يقوم على المبدأ التالي:

إن الحق والباطل "الحقيقة والوهم" في الفكر الإنساني ملتبسان في علاقة جدلية لا تتوقف، بحيث يفرز الحق عن الباطل لفترة معينة ثم يعود هذا الالتباس من جديد بأشكال جديدة، فيحتاج إلى فك جديد، وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد مثل الله التباس الحق والباطل بالماء الذي يشوبه التلوث فهو بحاجة إلى فرز وتنقية ليعود صافياً، وبالحديد الذي يوجد في الطبيعة على شكل فلزات فتقوم الأفران العالية الحرارة بفرز الحديد عن الخبث.

{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ} (الرعد ١٧) "نوع الآية: قرآن".

نلاحظ كيف جعل القرآن أساس المعرفة الإنسانية هو الفصل الدائم بين الحق والباطل المرتبطين ببعضهما بعلاقة تناقضات جدلية. أما مهمة المعرفة فكمن في التفريق بين ما هو حقيقي وما هو الوهمي، وعلى هذا الأساس قال لبني إسرائيل {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة ٤٢)، أي بعد تفريق الحق عن الباطل يجب أن لا نلبسهما معاً مرة أخرى لذا علق في نهاية الآية بعبارة {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

لقد فصل النبي (ص) بين الحق والباطل عند العرب في القرن السابع، ومن جراء فك الالتباس هذا حصلت الحرب الأهلية "حيث أن الباطل ينسف والخطأ يصحح" وتأسست الدولة العربية الإسلامية بانطلاقتها الجبارة، حيث فرز النبي (ص) أوهام الجاهلية والوثنية عن الحقيقة الموضوعية في الفكر العربي المعرفي ثم السياسي في القرن السابع، ثم عاد الالتباس مرة أخرى بأشكال جديدة، وماعلينا نحن العرب والمسلمين إلا أن نفك هذا الالتباس من جديد في القرن الواحد والعشرين، حيث نفهم قول النبي (ص) "إن الحلال بين وإن الحرام بين" انظر صحيح مسلم م٣ ص١٢١٩ ولم يقل أبداً إن "الحق بين والباطل بين" فالزنا يفهمه عمر كما نفهمه نحن، أما الأوهام التي كانت عند عمر في الجاهلية والانتقال إلى الحقيقة تختلف تماماً عن الأوهام التي نعيشها نحن والحقيقة التي نريد أن ننتقل إليها. ولو كان الحق بيناً والباطل بيناً دون التباس بعلاقة جدلية لكفى للإنسانية جمعاء نبي واحد لتبيان الحق والباطل مرة واحدة وإلى أن تقوم الساعة. هنا تكمن مهمة الفلسفة وبناتها من العلوم جميعاً بفك الالتباس الدائم، وهي مهمة لا تنتهي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هنا تظهر أهمية نظرية المعرفة الإنسانية بالفك المستمر للالتباس، وقد أعطى القرآن أسس نظرية المعرفة الإنسانية أي أسس فك الالتباس بين الحق والباطل، حيث أن أسس نظرية المعرفة الإنسانية هي من القرآن "النبوة" وليست من أم الكتاب "الرسالة" "العلماء ورثة الأنبياء".

وبالاستناد إلى نظرية المعرفة في القرآن نجيب على الأسئلة التالية:

١ـ ما هي نظرية المعرفة الإنسانية؟

تتجسد نظرية المعرفة في فك الالتباس بين الحقيقة الموضوعية والوهم، أي بين الحق والباطل، وذلك من خلال إدراك العالم الموضوعي الرحماني "الحقيقة" على ما هو عليه. فوجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها، والمعرفة الإنسانية التي بدأت بالمشخص الجزئي ويجب أن تنتهي بالمجرد العقلي الكلي هي التي مكنت الإنسان من تسخير الأشياء لمصلحته فهي عملية انتقال مستمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

٢ـ ما المقصود بموضوعية المعرفة الإنسانية؟

هو وجوب أن نجعل الصور الموجودة في الأذهان "الوعي" مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان "خارج الوعي" إذ ليس بالضرورة دائماً أن تكون الصور الموجودة في الأذهان مطابقة للأشياء

الموجودة في الأعيان، وهنا يكمن الالتباس الأساسي بين الحق والباطل أي بين التصديق والتصور.أي يجب أن تكون التصورات والتصديقات متطابقة فإذا كان لدينا تصور ما عن الحياة ونظرنا إلى الحياة فوجدناها غير ذلك، فما علينا إلا أن نعدل هذه التصورات لكي نجعلها مطابقة للتصديقات. وتتجلى مصداقية هذه المطابقة في مقدار طواعية هذه الموجودات لإرادة الإنسان، وبتعبير آخر في مقدار استجابة هذه الموجودات لتكون مسخرة له.

٣ـ هل العالم الموضوعي خارج الوعي حقيقي أم وهمي؟

لقد وقفت نظرية المعرفة الانعكاسية المادية ''التي تقول إن المعرفة الإنسانية تنطلق من الواقع المادي القائم على صراع المتناقضات الداخلي'' عاجزة عن بيان عنصري التناقض في الدماغ الإنساني وكيف تتم إزالة هذا التناقض. لذا طرحت نظرية المعرفة الانعكاسية المقولة التالية: إن الدماغ الإنساني تطور معقد جداً للمادة، ولم تستطع تفسير كيف بلغ الإنسان مرحلة التجريد ومرحلة التخيل والابتكار. أما نظرية المعرفة القرآنية التي تلتقي من حيث المنطلق فقط مع النظرية الانعكاسية المادية، فإنها تقدم التفسير العلمي القادر على الإجابة عن تلك الأسئلة عن طريق طرح مقولة نفخة الروح من الله تعالى ''من خارج الكون المادي الثنائي'' التي حملت صفة من صفات الله وهي الأحادية التي تتميز بعدم التناقض.

هذا الفهم المادي لنظرية المعرفة القرآنية يرد على أوهام ذوي الفهم المثالي للقرآن الذين يرفضون نظرية التطور والارتقاء ويسخرون من نظرية داروين بزعم أنها غير علمية، وحجتهم في ذلك قائمة على التساؤل التالي: لماذا تطور الإنسان من القرد، وبقي القرد قرداً؟ وجوابنا هو أن الله تعالى نفخ الروح في البشر ''وهو فصيلة من المملكة الحيوانية'' فأدى ذلك إلى أنسنته وارتقائه عن عالم المملكة الحيوانية. ولو أنه نفخ الروح في فصائل أخرى لارتقت أيضاً. إن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين حول الأنسنة.

وقبل أن نبحث في جدل الإنسان، علينا التّمييز بين مصطلحين قرآنيين هامين جداً هما: ''الرحمن''، و''الشيطان''، وهما النقيضان اللذان يعملان في الدماغ الإنساني ''التصديق والتكذيب، الحقيقة والوهم''.

ـ الرحمن

جاءت لفظة الرحمن في اللسان العربي من "ر ح م" وهو أصل يدل على الرقة والعطف والرأفة. ومنه "صلة الرحم" وهي علاقة القرابة من جهة الأم، وأضاف القرآن الكريم لها معنى آخر. فالرحم وظيفته التوليد ومن هنا جاء اسم الرحمن على وزن فعلان، لأن النون في الرحمن ليست من أصل الكلمة. ووزن فعلان يفهم في اللسان العربي على أنه وزن ثنائية المتناقضين والزوجين والضدين. وقد كان هذا المعنى جديداً على العرب بدليل قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} (الفرقان ٦٠). لنأخذ الأمثلة التالية على وزن فعلان:

كسيان ـــــ عريان

جوعان ـــــ شبعان

فرقان ـــــ جمعان {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} (الأنفال ٤١).

تعبان ـــــ ريحان {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} (الواقعة ٨٨–٨٩).

أنثان ـــــ ذكران {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} (الشعراء ١٦٥).

موتان ـــــ حيوان {وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} (العنكبوت ٦٤).

ظمآن ـــــ رويان

إنّ اسم الرحمن يمثّل قوانين الربوبية "السيطرة والاستحكام والتوليد وبالتالي التطور في هذا الكون المادي الثنائي" التي تعمل بشكلٍ موضوعي، وعيناها أم لم نعها، أي بإخبار منه عنها أو دون ذلك، وهذا واضح في قوله {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} (الفرقان ٥٩).

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} (النبأ ٣٧). {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه ٥). أي أن كل القوانين المادية الموضوعية القائمة على الثنائيات في هذا الكون والذي يليه، هي قوانين رحمانية مادية، فالله يقضي في هذا الكون من خلال هذه القوانين التي سنطلق عليها من الآن فصاعداً اسم **"القوانين الرحمانية"**، وبما أن القرآن يشرح قوانين هذا الكون والكون الذي يليه فهو رحماني لذا قال {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآَنَ} (الرحمن ١–٢). والقوانين الرحمانية "قوانين الجدل والخلق ووحدة وصراع المتناقضات في الشيء الواحد وجدل الأزواج في الأشياء" مخزنة في اللوح المحفوظ الذي يشتمل على القوانين العامة الناظمة لهذا الكون، وجدل الأضداد في ظواهر الطبيعة عبارة عن قوانين جزئية متغيرة "ثابت ومتحول" مخزنة في الإمام المبين الذي يحتوي على قوانين التصرف في ظواهر الطبيعة، وكذلك السلوك الإنساني بعد حدوثه مخزن في الإمام المبين. ولكي يبين أن اسم الله هو الأساس قال {اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} (السجدة ٤) فنقول ''الله الرحمن'' ولانقول ''الرحمن الله'' لذا فحيثما وردت لفظة ''الرحمن'' في القرآن فإنها ترد بهذا المفهوم ولاترد بمفهوم الرحمة أبداً. وبما أن الرحمن هو المولد فقد قال سبحانه {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} (الأنبياء ٢٦) وقال {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} (مريم ٨٨). وكذلك عن الذكر قال إنه من الرحمن {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} (الشعراء ٥) وقد قلنا إنّ الذكر هو الصيغة الصوتية المادية للكتاب، وهو الصيغة التعبدية المحدثة، بغض النظر عن فهم المحتوى لذا أعطاها الصيغة الصوتية المادية.

ففي العالم الرحماني لا يوجد ''لا معقولات'' وإنما هناك عجز العقل الإنساني عن الإدراك في عصر من العصور ''مثال ذلك الجن والملائكة''.

ومن خلال القوانين الرحمانية، التي تعتبر قوانين الجدل ''قانون التطور وتغير الصيرورة وقانون الزوجية – التكيف'' من أساسياتها، ولد هذا الكون وتشيّأ أي أصبح أشياء متميزة بعضها عن بعض، وفي هذا الكون لا يوجد شيء اسمه فراغ بدون مادة أي أن ما نقول عنه الآن الفراغ الكوني هو فراغ مادي رحماني، ولهذا قال تعالى إنه خلق السموات والأرض وما بينهما أي أن الفراغ هو شكل من أشكال المادة.

هذا الوجود المادي الثنائي أطلق عليه مصطلح كلمات الله في جوهره وآيات الله في ظواهره، لذا فإن مفهوم كلام الله في القرآن يعني الوجود المادي ولا يعني أبداً الفكر ''لا مبدل لكلماته'': {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ..} (الأنعام ١١٥). فإذا أخذنا الآيات التي تقول ''ومن آياته..'' ''تلك آيات الله..'' ''آيات بينات..'' ''آية بينة..'' رأينا أنها تتكلم عن الظواهر الطبيعية في هذا الوجود كقوله:

– {.. وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آَيَةً لِلنَّاسِ..} (البقرة ٢٥٩).
– {.. أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..} (آل عمران ٤٩).
– {.. وَجِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} (آل عمران ٥٠).
– {.. تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا وَآَيَةً مِنْكَ..} (المائدة ١١٤).
– {.. وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا..} (الأنعام ٢٥).
– {.. أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآَيَةٍ..} (الأنعام ٣٥).
– {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آَيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الأنعام ٣٧).

- {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آَيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ..} (الأنعام ١٢٤).
- {هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آَيَةً..} (الأعراف ٧٣).
- {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آَيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ..} (هود ٦٤).
- {.. فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آَيَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء ٩١).
- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} (الشعراء ٨).
- {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آَيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آَيَةَ اللَّيْلِ..} (الإسراء ١٢).
- {تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ..} (البقرة ٢٥٢).
- {.. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} (آل عمران ١١٨).
- {تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ..} (آل عمران ١٠٨).
- {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ..} (الإسراء ١٠١).
- {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا..} (الكهف ٥٧).
- {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} (الجاثية ٣).
- {وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (الجاثية ٤).
- {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الجاثية ٥).
- {تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ..} (الجاثية ٦).

هنا نلاحظ في الآيات ٤-٥-٦ من سورة الجاثية كيف ذكر الظواهر الكونية ثم أعقبها في الآية رقم ٦ بعبارة {تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ}.

وإذا أخذنا الآيات في سورة الإسراء من الآية ٢٣ التي تبدأ بقوله تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..} وتنتهي بالآية رقم ٣٨ {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} نجد أنه أعقب هذه الآيات بقوله {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ..} (الإسراء ٣٩). وهي كلها من أم الكتاب وقد أطلق عليها مصطلح الحكمة، لأنها لا تحوي أحكاماً شرعية أو تعبدية، وهي "أخلاق" من الوصايا وليست من كلمات الله ولا من آياته. ولكي يبين ذلك قال لزوجات النبي (ص) {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آَيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} (الأحزاب ٣٤).

ولا نرى في الكتاب آية من آيات العبادات والأحكام ذكر فيها أنها من آيات الله، فلم يقل عن الصلاة أو الصوم أو الحج تلك آيات الله أو كلماته.

نستنتج الآن أن الرأي الذي يقول إن كلام الله أزلي غير مقبول بتاتاً، فالوجود هو عين كلام الله وهو مخلوق وغير قديم، ولو كان كلامه أزلياً لأصبح الكون والله واحداً، ولأصبح المسيح ابن الله لأنه كلمة منه، وقد شرحت في الباب الأول أن القرآن هو كلام الله وآيات الله والقصص القرآني كله بما في ذلك القصص المحمدي، وأن أم الكتاب هي الكتاب المحكم.

لنناقش الآن هل القرآن مخلوق أم أزلي؟ لقد سبق أن طرح الفكر المعتزلي هذا السؤال، والموقف من هذا الطرح بأنه مخلوق أم أزلي له انعكاسات أيديولوجية خطيرة على بنية الدولة والمجتمع والحرية الإنسانية.

– أولاً: لقد قال المعتزلة بخلق القرآن، وأعتقد بأنهم يقصدون القرآن بمفهومه الذي طرحته في كتابي هذا وكانوا لا يقصدون الكتاب كله أي أنهم يقصدون المتشابه ولا يقصدون المحكم حيث أن القرآن جُعل عربياً وأنزل عربياً، أما أم الكتاب فقد أنزلت عربية فقط دون جعلٍ.

– ثانياً: إن كان القصد بالأزلية هو النص القرآني العربي الذي بين أيدينا والذي يتلى تلاوة وهو جزء من الذكر كقوله {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} فهذا يعني أن الله عربي ولغته هي العربية وهذا مرفوض وواضح أنه غير صحيح بدلالة قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف ٣) والجعل هو تغير في صيرورة أي أنه كان غير عربي في صيغة ما، ثم أصبح عربياً وقوله {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف٢)، والإنزال هو للإدراك الإنساني وقد تلازم الإنزال والجعل في كل القرآن ماعدا القصص المحمدي الذي لم يحصل فيه جعل لعدم وجوده المسبق، ولم يتم فيه الإنزال دفعة واحدة كسائر القرآن بل تلازم فيه الإنزال والتنزيل منجما، وذلك لخصوصيته.

– ثالثاً: إذا كان المقصود بالأزلية هو عين الشمس والقمر التي هي فعلاً من كلمات الله فأيضاً الشمس والقمر ليستا أزليتين.

– رابعاً: إذا كان المقصود بكلام الله الأزلي هو الكلام النفسي "أي أفكار الله" فهذا خطأ، لأنه يعني أن لله سبحانه كلاماً نفسياً، وأننا نقيس الله على الإنسان. علماً بأن القول والوجود، والتصور والتصديق بالنسبة لله متطابقان تماماً ومتلازمان (قوله الحق). {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} وهذا هو عين كمال المعرفة. فعند الله لا يوجد شيء اسمه طموح، كأن نقول بأن الله "يطمح إلى أن يفعل كذا وكذا" والتشابه بين الله والإنسان هو في أن الله عليم والإنسان متعلم، والله حر والإنسان متحرر، ولقد سمى الله الوجود كلماته، وهذه التسمية دقيقة جداً حيث أننا إذا أخذنا الكلام

الإنساني "الأصوات – الكلام" رأيناه صادراً عنه وليس جزءاً منه. وقد قلنا أن العدم هو الدال بدون مدلول، أي أن الوجود له دالات في علم الله قبل الخلق.

– خامساً: بانتصار الفقهاء على المعتزلة تم قصم الفكر الإسلامي العقلاني وضاع الفرق بين الكتاب والقرآن وضاع العقل معه وأصبح النقل أساس الإسلام لا العقل، وبدأ التدهور الذي وصلنا إلى أسوا حالاته في يومنا هذا، حيث ولدت أزلية الكتاب الذي يحوي {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} المفهوم الجبري المسبق عند العرب والمسلمين، وكانت هذه الجبرية المسبقة في الفكر الإسلامي هي النتيجة الأيديولوجية الأولى لانتصار الفقهاء على المعتزلة. هذا لا يعني أن المعتزلة لم يرتكبوا أخطاء في طروحاتهم حيث كانت معظم أفكارهم نتيجة للأرضية المعرفية لعصرهم. أما الفقهاء فلا نقول إنهم أخطؤوا، بل نقول إنهم قضوا على دور الفكر الإسلامي الحر العقلاني. وهذه المأساة لانزال نعيشها حتى يومنا هذا منذ أصبحت الجبرية هي العقيدة الرسمية لعامة المسلمين.

– سادساً: هذا الوجود المادي الثنائي "الرحماني" مرتبط مع الله الأحادي بقانون صارم هو الحركة "التسبيح"، وقد شرحت التسبيح في القانون الأول للجدل المادي، فلانرى في الكتاب صيغة "سبح للرحمن" أبداً.

– سابعاً: في هذا الوجود المادي "الرحماني" ظهرت أسماء الله الحسنى على شكل معان مميزة بعضها عن بعض وعلى شكل ثنائي لذا قال أولاً {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا..} (الأعراف ١٨٠) وبما أن أسماء الله الحسنى لا تفهم إلا من خلال الوجود المادي الرحماني فقد قال تعالى {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى..} (الإسراء ١١٠).

– ثامناً: من خلال القوانين الرحمانية "والإرادة الإلهية" ولدت الحياة على الأرض ضمن قوانين الجدل المادي "البث" وتطورت وظهر البشر ككائن عضوي حي. لذا قال {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ } (الرحمن ١–٢–٣). أي أن خلق الإنسان تم من خلال القوانين الرحمانية وقوله {خَلَقَ الْإِنْسَانَ }. لبيان مجمل هذه الحقيقة الرحمانية، أما عندما أعطى المراحل التفصيلية لنشوء الإنسان وارتقائه فقد قال: "البشر".

– تاسعاً: عندما نضج البشر كائناً رحمانياً وأراد الله سبحانه أن يجعله خليفة في الأرض ليخلفه في قوانين الربوبية أولاً، أي في القدرة على التصرف في هذا الوجود المادي، والألوهية ثانياً أي في القدرة على التشريع، أعطاه من صفاته الذاتية الأحادية الخالية من التناقض وهي الروح "ونفخت فيه من روحي". لذا فإن الإنسان فقط مدين لله سبحانه في أنسنته وابتعاده عن المملكة الحيوانية، ومن هنا جاءت لفظة الدين وهي من دان يدين ومنه جاء الدين والمدينة والمدنية.

– **الشيطان**

لفظة الشيطان في الكتاب هي من المصطلحات المتشابهة، ولها معنيان متباينان تماماً، يؤخذ بأحدهما حسب السياق العام للآية التي ورد فيها مصطلح الشيطان. فعندما تأتي لفظة الشيطان من فعل ''ش ط ن'' تكون النون من أصل اللفظة، ويكون الشيطان على وزن ''فيعال''.

وفعل شطن يعني البعد فنقول بئر شطون أي بعيدة القعر، والشطن هو الحبل لأنه بعيد ما بين الطرفين، ومنه أيضاً معنى الغرابة. وفي هذا المعنى مصطلح الشيطان هو مصطلح مادي موضوعي له وجود خارج الوعي الإنساني، ولكي نفرقه عن المعنى الآخر للشيطان سنطلق عليه مصطلح ''الشيطان الفيعالي'' وقد جاء بهذا المعنى في الآيات التالية:

– {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} (البقرة ١٤)، الشياطين هنا قد تعني أشخاصاً ''زعماء'' غير ظاهرين للعيان.

– {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} (الصافات ٦٥). الشياطين هنا تعني شيئاً غريباً بعيداً عمّا ألفه الناس.

– {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} (الأنبياء ٨٢).

– {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ} (ص ٣٧).

– {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} (الصافات ٧).

– {.. وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} (النساء ١١٧).

– {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا..} (البقرة ١٠٢).

– {.. كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ..} (الأنعام ٧١).

– {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ..} (الإسراء ٢٧).

– {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ}. (الحج ٣).

– {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ..} (مريم ٦٨).

– {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} (المؤمنون ٩٧).

– {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} (الشعراء ٢١٠، ٢١١).

– {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ} (الشعراء ٢٢١). لاحظ كيف استعمل التنزيل للدلالة على حركة خارج الوعي الإنساني.

– {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} (الملك ٥).

– {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ..} (البقرة ٢٧٥).

أما المعنى الثاني للشيطان فهو من فعل ''شاط– شيط''، هنا النون ليست من أصل الفعل والشيطان في هذه الحالة على وزن ''فعلان''. وشاط تعني ذهاب الشيء وبطلانه كقولنا أشاط السلطان دم فلان أي أبطله، وجاء الشيطان بهذا المعنى للدلالة على الباطل ''الوهم'' في الفكر الإنساني، وسنطلق عليه مصطلح ''الشيطان الفعلاني''. أي أن الشيطان الفعلاني هو أحد أطراف العملية الجدلية في الفكر الإنساني الذي يحاول معرفة الحقيقة الموضوعية الرحمانية، وهو الطرف النقيض للرحمن الذي هو الطرف الحقيقي وهما العنصران المتناقضان في الفكر الإنساني. وهكذا نلاحظ الفرق الكبير بين هذين المعنيين للمصطلح الواحد وهذا هو أحد أشكال التشابه.

لقد ورد الشيطان الفعلاني في الآيات التالية:

– {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} (مريم ٤٤).

– {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} (طه ١٢٠).

– {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آَيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج ٥٢).

– {.. وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} (الفرقان ٢٩).

– {.. وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ..} (النمل ٢٤).

– {.. وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا} (النساء ١١٩).

– {.. وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (الأنعام ٦٨).

– {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل ٩٨).

– {.. وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} (الإسراء ٢٧).

– {.. إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا} (الإسراء ٥٣).

– {.. وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} (الإسراء ٦٤).

– {يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} (مريم ٤٥).

– {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا..} (فاطر ٦).

– {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} (التكوير ٢٥).

– {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} (الزخرف ٣٦).

– {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ..} (البقرة ٣٦).

– {يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ..} (الأعراف ٢٧).

علينا إذن أن ندقّق النظر في النصوص لنفرق تماماً الشيطان الفيعالي من الشيطان الفعلاني في كل آية ورد فيها ذكر مصطلح الشيطان. وعلى الباحثين المسلمين تدقيق آيات الشيطان مرة أخرى للتفريق بين الشيطانين وبحث ماذا يمثل الشيطان الفيعالي في الحقيقة الموضوعية.

بما أن الشيطان الفعلاني هو أحد أطراف العملية الجدلية في الفكر الإنساني، فالطرف الآخر فيها هو الرحمن المادي لذا قال {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} (مريم ٤٤). فالشيطان الفعلاني يمثل الجانب الوهمي في الفكر الإنساني، والرحمن يمثل الجانب المادي الموضوعي فيه. وبما أنّ الشيطان الفعلاني هو اسم جنس ولكل إنسان شيطانه الخاص فلا يأتي في الكتاب إلا على صيغة المفرد وليس الجمع. وبما أن الشيطان الفيعالي هو وجود مادي خارج الوعي الإنساني فيمكن أن يأتي في صيغة المفرد أو في صيغة الجمع كقوله تعالى {.. وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ..} (البقرة ١٤). وعندما يأتي الشيطان في صيغة الجمع "شياطين" ينصرف معناها إلى الشيطان الفيعالي.

لقد ورد الأمر في التنزيل الحكيم بأن نستعيذ بالله من الشيطان عند قراءة القرآن في قوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل ٩٨)، ونحن نرى أن المقصود هنا "الشيطان الفعلاني" لأن مهمة الشيطان الفعلاني تحويل قراءة "فهم" القرآن من قراءة مادية "رحمانية" إلى قراءة مثالية "شيطانية".

بعد هذا التمهيد الذي قدمناه لموضوع جدل الإنسان ننتقل الآن إلى شرح عناصر المعرفة الإنسانية.

الفرع الأول: عناصر المعرفة الإنسانية

١– الحق والباطل
٢– الغيب والشهادة
٣– السمع والبصر والفؤاد
٤– القلب
٥– العقل والفكر
٦– البشر والإنسان

١– الحق والباطل

– الحق: لقد عرفنا الحق في الباب الأول "الذكر" بأنه الوجود الموضوعي المادي خارج الوعي الإنساني. وبهذا المعنى جاء قوله تعالى {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} (يوسف ١٠٠). لقد عبر القرآن عن الحق بمصطلحين الأول هو "الله" فوصفه بأنه وجود موضوعي خارج الفكر الإنساني وليس من نتاج الفكر الإنساني بقوله تعالى:

– {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحج ٦).

– {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (الحج ٦٢).

وعبر القرآن عن الوجود الإلهي بأنه وجود موضوعي حقيقي خارج الوعي الإنساني، ولكن هذا الوجود ليس مثل وجود الأشياء {.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..} (الشورى ١١) لأن الأشياء تنطبق عليها قوانين الجدل، فتتغير وتتطور طبقاً للقانون الأول، ولها علاقات تأثير وتأثر متبادل طبقاً للقانون الثاني، وقد سبحت الأشياء لله تعالى تسبيح وجود "نزهته" عن أن يفسد مثلها ويهلك. وبما أن قانون الثنائية ينطبق على الأشياء كلها، فقد عبر القرآن عن الوجود الإلهي بالصفات التالية:

١– لا ينطبق عليه قانون ١، ٢ للجدل "ليس كمثله شيء".

٢– بأنه أحادي غير ثنائي في كيفه {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} (الإخلاص ١).

٣– بأنه واحد في كمه {.. أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ..} (الكهف ١١٠).

٤– بأنه غير متناقض حيث أن الوجود الموضوعي الأحادي لا يحتوي على التناقضات في ذاته وبالتالي غير قابل للفساد والتغير والهلاك {.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ..} (القصص ٨٨).

٥– لا تنطبق عليه معادلة الزمان حيث أن الزمان والمكان بمفهومه الحالي هو من صفات المادة الثنائية المتغيرة {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ..} (الحديد ٣). لاحظ كيف وضع واو العطف بين الأول والآخر، وبين الظاهر والباطن، وإذا استعرضنا التنزيل الحكيم فلا نجد أسماء حسنى لله تعالى معطوف بعضها على بعضها إلا في هذه الآية، وذلك للدلالة على عدم انطباق معادلة الزمان والمكان على الله. لذا فإن الإلحاد في نظر القرآن هو من نتاج الفكر الإنساني وهو موقف مثالي بحت.

أما المصطلح الثاني للحق فهو كلمات الله التي هي عين الموجودات المخلوقة {وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}. (يونس ٨٢). ولكي يعبر عن أن الوجود المادي الكوني خارج الوعي الإنساني حقيقة وليست تصورات قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} (الحجر ٨٥) {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (النحل ٣).

هنا بيَّن بشكل واضح أنّ السموات والأرض وما بينهما مخلوقات موضوعية لها وجود خارج الوعي وليست تصوراً، لذا استعمل مع الحق حرف الجر ''الباء'' ليوضح أنها مخلوقة بكلماته.

لذا فنحن كمسلمين نعتقد بوجود حقيقي لله وبوجود لكلماته التي هي عين الموجودات وكلاهما خارج الوعي الإنساني.

أما عندما استعمل كلمة الحق في أم الكتاب كما في قوله تعالى {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ..} (الأنعام ١٥١) أو في قوله {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ..} (الحج ٤٠)، استعمل هذه الكلمة (الحق) لارتباطها بالحقيقة بمفهومين أساسيين أشار إليهما في سورة الأنعام {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} (الآية ١١٥).

فالصدق والعدل لا يكونان إلا من خلال الموجودات الحقيقية فلا صدق وهمي ولا عدالة وهمية، فالعدالة لا تتحقق إلا إذا جاءت منسجمة غير متعارضة مع قوانين الوجود، والصدق لا يكون في أوهام بل في موجودات ''كلمات''. لذا قال بعد فتح مكة {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} (الإسراء ٨١)، ولم يقل جاء الصواب وذهب الخطأ.

– الباطل: لقد استعمل القرآن مصطلح الباطل للدلالة على الوهم والتصور الوهمي، فعبادة العرب للأصنام قبل الإسلام لا تعتبر موقفاً خاطئاً بل موقفاً باطلاً ''مثالياً'' أي أنهم تصوروا أن الأصنام تضر وتنفع موضوعياً، ولكنها موضوعياً ليست أكثر من أحجار. وهذا شأن كل موقف فيه شرك فهو موقف باطل ''مثالي''. ولكي يؤكد بطرح معاكس أن السموات والأرض حقيقة لا وهم قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا..} (ص ٢٧) {.. وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ..} (الشورى ٢٤) {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران ١٩١).

وعندما استعمل الباطل بمفهوم الحلال والحرام في السلوك الإنساني قال تعالى {.. إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ..} (التوبة ٣٤) {.. وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ..} (النساء ١٦١) هنا استعمل الباطل لأن الأحبار والرهبان يزرعون في أذهان الناس تصورات وهمية بأنهم وسطاء في المغفرة من الله ووسطاء في التقرب من الله ويأخذون أموال الناس اعتماداً على هذه التصورات لذا قال ''بالباطل''.

نستنتج مما ذكر أن الوجود الموضوعي المادي خارج الوعي هو وجود حقيقي غير وهمي ''تصوري''، وهذا الوجود سبق في وجوده وجود الإنسان كائناً حياً عاقلاً، لذا نقول إن التصديق

سابق التصور، أي أن الموجودات سبقت في وجودها وجود الإنسان، وأن المعرفة الإنسانية هي معرفة هذا الوجود على ما هو عليه. هنا تنقسم المعرفة الإنسانية إلى قسمين:

أ– معرفة الموجودات "الوجود المادي الثنائي" الأشياء.

ب– معرفة الله من خلال كلماته وآياته. فكلما زادت معرفة الإنسان بالموجودات "كلمات الله وآياته–العالم الرحماني" زادت معرفته بالله من خلال أسمائه الحسنى "السمات".

٢– الغيب والشهادة

الغيب في اللسان العربي من أصل "غ ي ب" وهو أصل صحيح يدل على استتار الشيء عن العيون، ويقاس عليه.

والشهادة في اللسان العربي من أصل "ش ه د" وهو أصل يدل على حضور وعلم، والمشهد محضر الناس.

إن مفهوم الغيب والشهادة كما ورد في الكتاب مفهوم مادي بحت، فالغيب في الكتاب لا يعني كما يقال في المصطلح الفلسفي ما وراء الطبيعة. ففي معنى حصول حدث ما أثناء غياب الشخص المعني قال تعالى بلسان امرأة العزيز {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ..} (يوسف ٥٢). وبمعنى غياب شيء محدد عن العيون قال {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} (النمل ٢٠) وعندما أنهى جزءاً من قصة نوح في سورة هود قال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود ٤٩).

لقد كانت أحداث قصة نوح بالنسبة لقوم نوح من الشهادة وليست من الغيب. وعندما أنبأ الله بها النبي (ص) قال إنها من أنباء الغيب، لأنها كانت غيباً بالنسبة للنبي (ص) ولقومه. وقوله أيضاً عن مريم واصطفائها {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (آل عمران ٤٤). ولكي يبين أن حدث مريم لم يكن شهادة للنبي (ص) يقول {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} وعندما أنبأ تعالى النبي (ص)، بعض أحداث نوح ومريم على أنها غيب، دخلت في معلومات النبي (ص) وفي معلوماتنا نحن وأصبحت من المدركات بعد أن كانت غيباً، ولكي يبين أن القصص القرآني كله ما عدا القصص المحمدي غيب بالنسبة للنبي (ص) قال تعالى {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} (الأعراف ٧)، ولكي يؤكد أن الغيب هو أشياء وأحداث مادية قال {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (النمل

٧٥) و{إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (فاطر ٣٨) و{قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف ١٨٨). هنا يجب أن نفهم جيدا مفهوم الغيب والشهادة الذي هو مفهوم مادي بحت كما ذكرنا، وتوضيح أنه مفهوم مطاطي متغير وليس ثابتاً كما يظنه البعض، وتغيره يكون وفق المتغيرات الزمكانية والظروف الموضوعية المحيطة بالأحداث، ولتوضيح ذلك نقول أن أحداث كل عصر تكون بالنسبة لمن حضرها وعايشها شهادة، ومن هنا جاء مفهوم الشهيد وهو السميع البصير الذي يحضر حدثاً ما، وتكون بالنسبة لمن لم يحضر الأحداث ولم يعايشها غيباً حتى ممن كان في ذلك العصر وبالخصوص لأهل العصور الأخرى سواء من قبل هذا العصر أو بعده لأن الإنسان رهين بالظروف الزمكانية الموضوعية المحيطة به، وبالتالي فإن القصص الوارد في القرآن كله كان غيباً بالنسبة للرسول (ص) لأنه لم يحضره ولم يعايشه. أما قصصه هو أي القصص المحمدي الوارد في القرآن فلم يكن غيباً بالنسبة للرسول ولا بالنسبة لمن عاصره وعاش معه تلك الأحداث بل هو بالنسبة لهم شهادة، أما بالنسبة لمن جاء بعدهم من العصور كما هو شأن عصرنا الحالي فكل القصص القرآني بما فيه القصص المحمدي غيب بالنسبة لهم ولنا لأننا لم نعاصره ولم نعايش تلك الأحداث، ولذا فعلينا معاملة القصص المحمدي الموجود في القرآن معاملة القصص القرآني باعتباره غيباً أي قرآناً. فالرسول (ص) يصرح بعدم معرفته بالغيب لأنه مفهوم مادي في قوله كما ذكرنا في الآية السابقة {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف ١٨٨).

ونلاحظ أن الدول تحاول تطبيق الآية ١٨٨ من سورة الأعراف بكل إمكانياتها، فإذا سألنا الدول عن سبب الأقمار الصناعية والتصوير الفضائي وإرسال الجواسيس وصرف مليارات الدولارات على هذه المشاريع لجاءنا الجواب بشقين اثنين:

– الأول: معرفة ما تبيّته الدول بعضها لبعض واستكشاف الكوارث الطبيعية وذلك من باب درء الأذى الذي هو شق الآية {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}. فعندما يعرف الإنسان ما يبيّته له الآخرون فإنه يتخذ الاحتياطات اللازمة لدرء الأذى.

– الثاني: استكشاف خيرات الأرض واستثمارها وعقد الصفقات التجارية المربحة، وهذا ما يسمى بدراسة الجدوى الاقتصادية الذي هو شق الآية {لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}. فالغيب أشياء وأحداث مادية موجودة وقابلة للإدراك، أو حصلت وغابت عن بعض الناس أو عن كلهم ولكنها ليست في ما وراء

الطبيعة، ففي القرآن آيات الجنة والنار والبعث والحساب والساعة وكلها من الغيبيات ولكنها في عالم المادة وقابلة للإدراك. لذا قال في بداية الكتاب {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (البقرة ٢، ٣) وبما أن الله كامل المعرفة فلا يوجد بالنسبة له أشياء موجودة أو أحداث حصلت لا يعرفها لذا قال عن نفسه عالم الغيب والشهادة {.. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} (الرعد ٩) وقال {.. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (الحشر ٢٢) وقال {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (التغابن ١٨). ولكي يؤكد أن عالم الغيب هو من عالم الرحمانيات المادي قال {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} (ق ٣٣) وقال {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} (يس ١١) وقال عن الجنة والنار إنها مادية {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ..} (مريم ٦١) وقال {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} (مريم ٧٨).

نصل الآن لنعرف الغيب كالتالي:

– الغيب: هو وجود أشياء مادية أو أحداث طبيعية أو إنسانية غابت عن المعرفة الإنسانية الحضورية أو العقلية غياباً جزئياً أو كلياً، أي أن الغيب إما أن يكون جزئياً أو كلياً.

فالغيب الجزئي: هو أشياء أو أحداث مادية أو إنسانية "كالقصص" التي شهدها "وعرفها" أناس وغابت عن غيرهم شهوداً ومعرفة، وهناك الآن أشياء كثيرة في العالم عرفها البعض وغابت عن البعض الآخر وهذا النوع من الغيب متحول غير ثابت وغير أبدي، لأن ما عرفه البعض اليوم وهو غيب للآخرين قد يعرفه الآخرون غداً.

الغيب الكلي: هو أشياء أو أحداث مادية لا يعرفها أحد إلا الله، وهذا الغيب هو غيب نسبي لأن ما تجهله الإنسانية اليوم قد تعرفه غداً. هنا وضعت الإنسانية ككل لأنه إذا عرف شخص واحد شيئاً ما أو حدثاً ما فهذا الشيء وهذا الحدث لا يدخل في الغيب الكلي.

فالغيب الكلي والجزئي متحرك دائماً باتجاه المعرفة وبالتالي باتجاه التقلص، وقد غدا هذا الأمر واضحاً بعد التقدم الذي حصل في ميدان المعلومات والتقدم الهائل في انتقال المعلومات من مكان إلى مكان آخر.

أما ما اختص به الله سبحانه فهو "مفاتيح الغيب" وهي مجموعة من القوانين إذا عرفها الإنسان أصبح مؤهلاً لأن يكون كامل المعرفة، والتي لا يطلع عليها إلا من ارتضى من "رسول" طبقاً لقوله تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} (الجن ٢٦، ٢٧).

أما الشهادة، فمن المعنى اللغوي الذي هو الحضور والعلم يتبين أنها إما المعرفة الحسية المباشرة "الحضورية" الآتية عن طريق الحواس مباشرة، أو عن طريق السمع فقط، والتي تسمى "المعرفة الخبرية" وإما المعرفة الآتية عن طريق الاستنتاج العقلي والتي هي المعرفة النظرية. لذا قال عن اليوم الآخر {.. ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} (هود ١٠٣). وهنا {يَوْمٌ مَشْهُودٌ} تعني الحضور المباشر للناس في هذا اليوم، لا المعرفة النظرية فقط.

٣ـ السمع والبصر والفؤاد

لقد جاءت الألفاظ الثلاثة "السمع والبصر والفؤاد" مجتمعة في عدة أماكن من الكتاب كقوله تعالى:

- {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} (الإسراء ٣٦).
- {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل ٧٨).
- {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} (الملك ٢٣).
- {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} (السجدة ٩).

نلاحظ في هذه الآيات كيف ربط بين السمع والبصر والفؤاد فالسمع هو وظيفة لعضو هو الأذن، والبصر وظيفة لعضو هو العين، وفي اللسان العربي لا تعطف إلا الصفات بعضها على بعضها أو الموصوفات بعضها على بعض. ففي عطف الموصوفات قال {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (البلد ٨، ١٠).

ونلاحظ في الآيات الثلاث من سورة البلد كيف ذكر الأعضاء فبدأ بالعينين ثم تلا ذلك اللسان والشفتين ولم يقل بصراً ولساناً أو بصراً وشفتين، وهنا تأتي النتيجة المباشرة بأن النجدين أعضاء بمعنى الثديين. يدلك على هذا وضع النجوم بين الآيات الثلاث إذ لم يضعها في آية واحدة لتبيان اختلاف وظائف هذه الأعضاء.

وبما أن السمع والبصر وظيفتان للأذن والعين، ثم عطف الفؤاد عليهما، نستنتج أن الفؤاد وظيفة لعضو وليس عضواً، فالفؤاد هو الإدراك الناتج عن طريق الحواس مباشرة وعلى رأسها السمع والبصر، لأن التفكير الإنساني أي الإدراك المشخص بحاستي السمع والبصر بدأ بهما، وهو

المقدمات المادية للفكر الإنساني. لذا قال تعالى عندما رمت أم موسى ولدها في اليم بيديها ورأت ذلك بأم عينيها {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا..} (القصص ١٠) أي أن المقدمات الحسية عند أم موسى جعلتها في وضع حيواني انعكاسي غير قادرة على التفكير، فعندما يعتدي إنسان على قطط صغار فإن تصرف الأم يأتي مباشرة وتبدي استياءها وتبدأ بالدفاع عن أطفالها لذا أتبعها بقوله {.. إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ..} وكذلك قوله عن تنزيل القرآن مرتلاً {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} (الفرقان ٣٢). هنا ذكر الفؤاد في مجال التنزيل الذي هو تبليغ القرآن للنبي (ص) بشكل مباشر عن طريق الوحي، لأن القرآن لم يأت للنبي (ص) عن طريق السمع والبصر لكي يتثبت الإنسان ما سمع وما أبصر، ولو جاءه دفعة واحدة لوقع فيه الشك بين الوهم والحقيقة. علماً بأن بداية الوحي كانت بداية فؤادية بحتة، حيث جاءه جبريل صوتاً وصورةً وعلمه {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (العلق ١)، ولو بدأ الوحي بداية مجردة لما صدق النبي (ص) ذلك. وهذه ناحية مهمة جداً لنا نحن المسلمين، بأن بداية الوحي كانت بداية فؤادية لها علاقة مباشرة بالسمع والبصر حيث جاءه جبريل مشخصاً. وكذلك نفهم شروط الشهادة التي يجب أن يؤديها الإنسان. فحتى لا تكون الشهادة شهادة زور يجب أن تكون شهادة فؤادية أي معلومات معتمدة على السمع والبصر مباشرة. أما إذا كانت غير ذلك كالرأي الاستنتاجي أو الاستقرائي فتسمى خبرة وليست شهادة. ومن آية النحل ٧٨ نستنتج أن الإنسان يولد خالياً من كل المعلومات، أي أن المعلومات المخزنة عنده تساوي الصفر، والحواس وعلى رأسها "السمع والبصر" هي مصدر بداية المعلومات، فالفؤاد "الإدراك المشخص" يعتبر المقدمات المادية للفكر الإنساني المجرد. أي أن الفؤاد يعتبر المرحلة الأولى من مراحل التفكير الإنساني، وهو القاسم المشترك بين أهل الأرض جميعاً عالمهم وجاهلهم، ذكيهم وغبيهم. "انظر فصل نشأة الفكر وارتباطه باللغة". وهكذا نفهم لماذا يعتبر التلفزيون أهم وسيلة للإعلام ظهرت في العالم.. لأنه مصدر معلومات فؤادي يعتمد على السمع والبصر "صوت وصورة" ولأنه جذب معظم أهل الأرض ودخل في حياتهم.

هنا نفهم قوله تعالى:{.. وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ..} (البقرة ٢٥٥)، فقد ربط في الآية المشيئة بحرف الجر "الباء" بقوله "بما شاء" وهذا يعني أن المعلومات التي يحيط بها الإنسان تأتي بالوساطة التي أرادها الله وهي السمع والبصر والفؤاد. وأيضاً ربط الفؤاد بالسمع والبصر لكي يميز بداية التفكير الإنساني عن البهائم، فالبهائم لها سمع وبصر وفؤاد انعكاسي ولكنها دون فؤاد إنساني. وقد أعطى الكتاب معنى قياسياً للفؤاد الذي جاء من أصل "ف أ د" وهو أصل صحيح يدل على حمّى وشدة حرارة ومنه قولنا: فأدت اللحم أي شويته. وقد سمي بذلك الفؤاد لأنه مقدمات أو هو

المرحلة الأولية من مراحل الفكر الإنساني، وقد أعطى القرآن هذا المعنى محمولاً على المعنى الأول، حيث أن الفؤاد هو بمثابة الصاعق "المحرض" أو مرحلة الإقلاع للفكر الإنساني.

٤ـ القلب

لقد جاء القلب في اللسان العربي من "ق ل ب" والقاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة، وبالمعنى الأول سمي قلب الإنسان قلباً لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء وأشرفه قلبه.

لنر الآن كيف استعمل الكتاب هذا المصطلح. فما هو أخلص شيء وأشرفه في الإنسان؟ وأي عضو من أعضاء الإنسان أطلق عليه الكتاب مصطلح القلب؟

لقد أطلق الكتاب مصطلح القلب على عضو يعتبر من أنبل الأعضاء في جسم الإنسان هو المخ، ولأنه أنبل الأعضاء لدى الإنسان فقد سمي بالقلب، وقلب المخ هو قشرته الخارجية التي هي أنبل جزء فيه مركز الفكر والإرادة. في هذه الحالة يزول التعجب من أن الكتاب ذكر من أعضاء الإنسان اليدين والرجلين والجلد والحنجرة والأذن والعين واللسان والشفة والأمعاء والقلب. فكيف لم يذكر المخ وهو أنبل هذه الأعضاء قاطبة؟

فإذا استعرضنا آيات الكتاب رأينا أنه ذكر المخ صراحة على أنه القلب وذلك في قوله تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج ٤٦). {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} (الأعراف ١٧٩) والإنسان يتميز عن الأنعام بالقشرة الخارجية للمخ.

نلاحظ في آيتي الحج ٤٦ والأعراف ١٧٩ أن القلب ليس العضلة التي تضخ الدم، فقد وضع الصفات والموصوفات التالية:

١ـ "آذان يسمعون بها" الأذن عضو والسمع وظيفة الأذن.

٢ـ "أعين لا يبصرون بها" العين عضو والبصر وظيفة العين.

٣ـ "آذان لا يسمعون بها" الأذن عضو والسمع وظيفة الأذن.

٤ـ "قلوب يعقلون بها" القلب عضو والعقل وظيفة القلب "وهو هنا المخ الإنساني"

٥- ''قلوب لا يفقهون بها'' القلب عضو والفقه وظيفة القلب

قد يسأل سائل لماذا لم يذكر المخ صراحة؟ فالجواب أنه في سورة الأعراف ذكر الجن والإنس وذكر القلب بأنه عضو التفقه، والقلب أنبل وأشرف عضو عند المخلوقات يقابله المخ عند الإنسان وليس من الضروري أنه كذلك عند الجن لأن الجن مخلوقات عاقلة من نوع آخر، فكان القلب الذي هو أنبل عضو، بغض النظر عن اسمه الفيزيولوجي تحديداً، هو القاسم المشترك بين الإنس والجن.

وقد ذكر الزمخشري في ''الكشاف م٣ ص١٦٧'' ''أن القلوب مراكز العقول''.

لقد ذكر التنزيل الحكيم للقلوب فعلان، الأول يعقلون بها والثاني يفقهون بها، وهما فعلان متغايران. فالفقه جاء من ''فقه'' ويدل على إدراك الشيء والعلم به وكل علم بشيء فهو فقه ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه، وأفقهتك الشيء إذا بينته لك. ومايهمنا هنا المعنى الأساسي، وهو العلم بالشيء بكامل تفاصيله حيث سمي فيما بعد العلم بالحلال والحرام ''الفقه''، علماً أنه يحتوي على تفاصيل دقيقة ظرفية وعينية. أما قوله {.. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج ٤٦) فالصدر هنا لا تعني القفص الصدري للإنسان الذي يحتوي على العضلة القلبية ولكنها تعني الدماغ أي مقدمة رأس الإنسان، فالصدر هنا هو أبرز شيء في الإنسان، وهو مقدمة رأسه الذي يحتل مركز الصدارة بين أجزاء الإنسان.

وللصدر في اللسان العربي أصلان صحيحان، أحدهما يدل على خلاف الورد، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} (الزلزلة ٦) وفي قوله تعالى {قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ..} (القصص ٢٣)، والثاني صدر الإنسان وغيره، والصدار ثوب يغطي الرأس والصدر. وفي معنى القفص الصدري للإنسان جاء قوله تعالى {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ..} (الأنعام ١٢٥).

أما معنى الصدارة أو مقدمة الرأس فقد جاء في آية الحج ٤٦ بعبارة {الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}، وقد كنا شرحنا مفهوم الصدر بمعنى الصدارة في الباب الأول من الكتاب (في موضوع قواعد التأويل) عند تطرقنا لقوله تعالى {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ..} (العنكبوت ٤٩) وقوله {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} (الناس ٥) أي في الناس الذين يشغلون مواقع الصدارة في المجتمع، كما شرحنا في حديثنا عن العنكبوت ٤٩ أن المقصود هو الناس الذين يشغلون مراكز الصدارة بين العلماء، وهكذا نجد أن مفردة الصدر لها نفس المعنى في الموضعين معا مع اختلاف بسيط في أن موضع الاستدلال بها هنا هو صدارة جسم الإنسان أي مقدمة رأسه، وفي الموضع السابق في باب التأويل كان الاستدلال بها في موضع صدارة المجتمع من علماء وساسة، لكن

الاستعمال يبقى واحداً وهو مقدمة الشيء، لذا فالمقصود بصدر الإنسان الحاوي على القلب هو مقدمة رأسه أي الدماغ، ومن ثم فإن معنى القلب الذي في الصدر هو المخ الذي في الدماغ، وهو لب الدماغ ومركزه، وبهذا المعنى كما ذكرنا في الآية السابقة جاء قوله تعالى {الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}. وهذا ما يدفعنا، رداً على ماجاء به الفقهاء من أن القلب المذكور في القرآن هو العضلة القلبية التي تضخ الدم وليس المخ (مقدمة الدماغ)، إلى طرح السؤال التالي: أيعقل أن يغفل التنزيل الحكيم عن ذكر الدماغ وهو أهم عضو بالإنسان، ولايغفل عن ذكر الأعضاء الأخرى له كاليد والرجل والأمعاء؟

إذا رتلنا الآن آيات الكتاب التي تذكر القلب فإننا نراها لا تخرج عن هذا المعنى:

١– {.. وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..} (آل عمران ١٥٩) هنا ذكر ناحيتين مهمتين في الإنسان: الأولى الفظاظة في الطبع وهي سلوكية، والثانية غلاظة القلب وهي تكوينية، التي نقول عنها الآن "بلادة الذهن أو الغباء" (STUPIDITY). فالنبي (ص) كان فطناً حيث أن الفطنة من صفات النبوة.

٢– {إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء ٨٩) {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الصافات ٨٣، ٨٤). هنا القلب السليم يعني سلامة التفكير ونضجه، وقد ذكر هذا عن إبراهيم في مكان آخر في قوله تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} (الأنبياء ٥١).

وقد عبر أيضاً عن القلب السليم في قصة تكسير إبراهيم للأصنام بقوله تعالى {.. فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} (الأنبياء ٦٣) وقوله {قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} (الشعراء ٧٢، ٧٣). وكذلك إخباره عن سلامة تفكير إبراهيم {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..} (البقرة ٢٦٠). هنا أعطانا رأس المنهج العلمي السليم الذي بدونه لا يمكن أن يتقدم العلم وهو منهج الشك للوصول إلى اليقين. ومنهج التجربة العلمية "الاختبار" لمطابقة الحقيقة الموضوعية مع المقدمات والنتائج النظرية. فالعلماء الآن يضعون النظريات العلمية، ويعلمون أنها مترابطة منطقياً، ومع ذلك فإنهم يخضعونها للتجربة العملية لمطابقة النظري مع الواقع العلمي وهذا هو أكبر اختبار لأية نظرية، وهو ما فعله إبراهيم تماماً، إذ أراد أن يخضع نظرية البعث وإحياء الموتى للتجربة العملية مع أنه واثق منها لذا قال {بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} فكان إبراهيم بهذا إماماً للناس طبقاً لقوله تعالى {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} (البقرة ١٢٤).

نلاحظ هنا أنه قال: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، ولم يقل "إني جاعلك للمتقين إماماً" فإبراهيم هو إمام الناس المؤمن منهم والكافر ولا يمكن أن يكون إمامهم إلا بالمنهج العلمي السليم لذا قال {إِذْ جَاءَ

رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الصافات ٨٤). وهنا يجب أن لا نفهم الإمامية بالتقوى لأن المتقين هم من الناس ولكن ليس كل الناس من المتقين. وقد أكد ذلك بقوله {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} وقد قلنا إن الكلمات هي عين الموجودات وقوانينها وليست صلاة أو صوماً أو أخلاقاً فاضلة.

٣- {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ..} (البقرة ٩٧). {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} (الشعراء ١٩٣-١٩٤). لقد كان الكتاب يوحى إلى النبي (ص) وحياً مجرداً بوساطة جبريل وكان يغيب عن الوعي ويصحو، فإذا بالآيات الموحاة منقوشة "مسجلة" في دماغه لذا قال {نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ} في سورة البقرة، وقال {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} في سورة الشعراء.

٤- {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ..} (الشورى ٢٤) والافتراء نشاط فكري بحت يجري في المخ، لذا علق على الافتراء بعبارة {إِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ}. ففي هذه الحالة يصبح المخ عاجزاً عن التفكير، وكذلك في قوله تعالى {.. فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (المنافقون ٣).

٥- {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} (البقرة ٢٠٤).

القول هو من نشاط الفكر، وقد قلنا إن الكلام حين يتحول إلى معنى في الذهن يصبح قولاً، وهذه الآية تصف المنافقين الذين {.. يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ..} (الفتح ١١). فالإنسان عندما يقول شيئاً ويضمر شيئاً آخر فإنه يضمره في دماغه لا في العضلة التي تضخ الدم.

ثم إنه لو كان يقصد بالقلب العضلة التي تضخ الدم فإن الحيوانات العليا كالقردة لها عضلة قلبية كعضلتنا تماماً ولكن دماغها ليس كدماغنا أي أنها لا تملك نشاطاً فكرياً. وكل شيء قاله الكتاب عن القلب يتعلق بالنشاط الفكري الذي يميز الإنسان عن بقية الحيوانات.

٦- {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد ٢٤) إن التدبر صفة إنسانية والقرآن بحاجة إلى تدبر لذا أتبع تدبر القرآن بعبارة {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}. هذا الإصطلاح الذي نقول عنه الآن: مخ مغلق أو مقفل (Mind Closed).

٧- {.. تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى..} (الحشر ١٤) ففي عبارة (وقلوبهم شتى) يذكر الخلافات الفكرية بين اليهود.

٨- {.. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ..} (الصف ٥)، {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (آل عمران ٨). فالزيغ يعني النقص وهو عكس الطغيان "الزيادة" كما

في قوله تعالى {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} (النجم ١٧) وهو الانحراف لذا قال {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ}. أي أصبح تفكيرهم منحرفاً.

٩– {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} (البقرة ٧٤). فقوله: {قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} تعني أن بني إسرائيل تحجروا في تفكيرهم من بعد موسى، ولاتعني أنه حصل معهم تصلب في الشرايين.

١٠– {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (البقرة ٢٢٥).

هنا يذكر الله أن المؤاخذة تكون عن الإيمان والأعمال التي يقوم بها الإنسان عمداً وعن وعي لما يعمل، ولذا قال {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ}. وهذا المعنى جاء أيضاً في قوله تعالى {ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (الأحزاب ٥).

هنا أيضاً وضح الأعمال المقصودة عن وعي وإدراك بعبارة {مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} أما الأعمال غير المقصودة فأوضحها بعبارة {فِيمَا أَخْطَأْتُمْ}. والخطأ والعمد ما هما إلا نشاطان فكريان.

١١– {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا} (الأحزاب ٩، ١٠).

عندما ينتاب الإنسان الخوف ويظن أنّ الذي اعتمد عليه قد سحب تأييده، تبدأ عنده الهواجس لذا قال {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا}. في هذه الحالة عبارة {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} تعني ما يلي: الحنجرة هي جهاز الصوت "الكلام" والقلب هو جهاز الفكر والعقل. أي يبدأ الإنسان بالتعبير صراحة وجهراً عن شكوكه واستيائه، لذا عندما قال {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ} أتبعها بقوله {وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا}.

كذلك نفهم أيضاً قوله تعالى {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} (غافر ١٨). ففي يوم الحساب "يوم الآزفة" كل شيء موجود في القلب "في المخ" يصبح على اللسان {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ولا يوجد أي شيء يمكن أن يخفيه الإنسان مع أنه لا يرغب بإبدائه لذا قال (كاظمين) والكظم أصل واحد هو الإمساك والجمع لشيء.

وهذا المصطلح مازال شائعاً حتى يومنا هذا إذ نقول: زيد من الناس لا يخفي شيئاً، ما في قلبه على لسانه.

١٢– {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة ٦٠).

يحدد سبحانه هنا مصارف الصدقات، ويذكر أن نوعاً من المستفيدين منها هم مجموعة من الناس سماهم "المؤلفة قلوبهم"، الذين لهم جاه معين أو من الذين يتصفون بالحكمة ورجاحة العقل والذين يؤدون دوراً في إقناع الآخرين بتأييد فكرة أو قضية ما وعدم الوقوف ضدها.

١٣– {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (القصص ١٠).

لقد قلنا في بحث الفؤاد إن الفؤاد هو الإدراك المشخص المرتبط بالحواس مباشرة وعلى رأسها السمع والبصر، وهو القاسم المشترك بين أهل الأرض جميعاً الذين يملكون حواساً، لذا عندما ألقت أم موسى ولدها في اليم على مرأى ومسمع منها فرغ إدراكها الفؤادي أي كادت تخضع لرد الفعل الانعكاسي البهيمي أي تسلك سلوكاً بهيمياً كما تسلك البهائم عند فقدان أولادها وذلك بأن تصوت وتصرخ وتجلب الانتباه إليها، وهذا معنى عبارة "إن كادت لتبدي به" ولكن لكي يثبتها ويجعل عقلها يسيطر عليها وتسلك سلوك إنسان رابط الجأش صابر قال {لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} ومركز الإرادة في القلب.

١٤– {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج ٣٢) هذه الآية تتكلم عن شعائر الحج، وهي طقوس تعبدية لذا ذكر فيها التقوى، والتقوى جاءت من أصل "و ق ي" لتدل على دفع شيء عن شيء بغيره، والوقاية: ما يقي الشيء، واتق الله "توقه"، أي اجعل بينك وبينه كالوقاية. ومنه جاء الطب الوقائي وهو إجراءات يقوم بها الإنسان ليدفع عن نفسه المرض وكذلك تعظيم شعائر الله هو من إجراءات الوقاية الواعية العاقلة التي يقوم بها الإنسان لذا قال {مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}.

وهذا يذكرنا بقوله تعالى {الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد ٢٨).

فحتى يطمئن تفكير الإنسان بذكر الله يجب عليه أولاً أن يكون مؤمناً، لذا بدأ الآية بقوله {الَّذِينَ آَمَنُوا}. والاطمئنان بذكر الله هو الاتباع الواعي لأوامر الله الواردة في الكتاب وعلى رأسها الوصايا، هذا الاتباع الواعي هو الذي يولد الاطمئنان، لذا أتبعها بعبارة {وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ} وعندما ذكر سبحانه الوصايا الخمس الأولى من الفرقان قال {.. ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الأنعام ١٥١). والمصطلح الحديث لاطمئنان القلب يسمى "راحة البال" (mind of peace).

١٥- {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} (آل عمران ١٥١).

- {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} (الأنفال ١٢).

للرعب في اللسان العربي ثلاثة أصول: "الخوف، والملء، والقطع". أما في الآية فالرعب هو "الخوف" وهو "القطع" أي الخوف واختلاف الرأي وهذه من صفات القلوب.

١٦- {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ} (الحجر ١٠).

- {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (الحجر ١١).

- {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} (الحجر ١٢).

- (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} (الحجر ١٣).

- {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ} (الشعراء ١٩٨).

- {فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} (الشعراء ١٩٩).

- {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} (الشعراء ٢٠٠).

- {لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} (الشعراء ٢٠١).

يذكر القرآن هنا أن المجرمين يصرون على اعتبار القرآن مجموعة أساطير قديمة لذا تكلم عن شيع الأولين، علماً بأن طريقة النبوات والمعجزات للأولين قد خلت، وأن هذه المعجزات الجديدة هي للآخرين وليست للأولين.

١٧- {مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ..} (الأحزاب ٤).

هنا يتكلم عن جوف الرأس "الجمجمة" الذي يحتوي على دماغ واحد مهما كانت التشوهات الخلقية، لأنه لو كان هناك دماغان لجسد واحد لأصبح هذا المخلوق اثنين وليس بواحد، ولأن الذي يحدد شخصية الإنسان دماغه وليس العضلة القلبية أو بقية الأعضاء.

نخلص إذاً إلى أن الآيات الواردة في الكتاب والمذكور فيها "القلب" تعني أشرف وأنبل عضو في الإنسان وهو الدماغ وهو عضو التعقل كما أن العين هي عضو البصر والأذن عضو السمع، وهذا ما نراه في الطب الحديث. فالقلب الذي يضخ الدم يمكن أن ينتقل من إنسان إلى آخر دون أن يؤثر على شخصية الآخر، ولكن إذا انتقل دماغ زيد إلى جوف رأس عمرو "جوف الجمجمة" فإن عمرواً سيصبح زيداً. ولكي نميز القلب الذي يعقل عن القلب الذي يضخ الدم يجب علينا أن نقول: "القلب" عن الذي يعقل و"العضلة القلبية" عن الذي يضخ الدم. ونحن نعلم الآن أن العضلة القلبية والدماغ هما

الأعضاء النبيلة في الإنسان، والدماغ أنبلها لأن الموت يتحدد بتوقف الدماغ عن العمل لا بتوقف القلب.

٥ـ العقل والفكر

العقل في اللسان العربي جاء من أصل "ع ق ل" وهو أصل واحد مطرد منقاس يدل على حبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. من ذلك العقل الحابس عن ذميم القول والفعل. قال الخليل: العقل نقيض الجهل يقال: عقل، يعقل عقلاً، ومن الباب: المعقل وهو الحصن. ويقال: عقلت البعير، أعقله عقلاً إذا شددت يده بعقاله، وهو الرباط، وعقيلة كل شيء أكرمه.

والفكر في اللسان العربي جاء من أصل "ف ك ر" ومعناه تردد القلب في الشيء. وجذرها "فك" وتعني التفتح والانفراج، من ذلك فكاك الرهن وهو فتحه من الانغلاق، وجاءت الراء للتكرار والترداد في عملية التفتح وفك الأشياء بعضها عن بعض، ومنه جاء معنى الفكر وهو فك الأشياء بعضها عن بعض وتقليبها.

وهكذا نرى أن الفكر والعقل صفتان متتامتان فالفكر يفكك الأشياء بعضها عن بعض ويقلبها والعقل يربط الأشياء بعضها إلى بعض، والفكر يفاضل ويحلل الأشياء بعضها عن بعض، والعقل يكامل ويركب عناصر الأشياء بعضها إلى بعض ليصدر حكماً يتعلق بالوجود المادي الموضوعي أو حكماً يتعلق بالسلوك الاجتماعي والأخلاقي.

ـ الفؤاد والفكر والعقل من سمات الإنسان وهي من نتاج نفخة الروح. هذه الصفات الثلاث ارتبطت بنشأة اللغة.

٦ـ البشر والإنسان

ورد مصطلح البشر في الكتاب ليعبر عن الوجود الفيزيولوجي لكائن حي له صفة الحياة كبقية المخلوقات الحية. وقد شرحت في القانون الأول للجدل كيف نمت الحياة وتطورت عن طريق البث الذي يحتوي على الطفرات الحياتية التي أدت إلى ظهور البشر، وقد تميز البشر في الظهور ككائن حي مستقل في الفترة التي ظهرت فيها الأنعام طبقاً لقوله تعالى {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر ٦). ففي هذه الآية نلاحظ كيف

تزامن وجود الإنسان البشري مع ظهور الأنعام، وقد شرحت في موضع سابق معنى الإنزال والتنزيل. وكيف أن الإنسان في رحم الأم يمر بكل مراحل التطور التي مر بها من ظلمات ثلاث هي المرحلة الحيوانية البحرية والمرحلة الحيوانية البحرية البرية والمرحلة الحيوانية البرية. وعندما شرح الكتاب إحدى مراحل خلق الإنسان بالمعنى العام مقارنة مع الجان قال {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} (الحجر ٢٦).

وعندما أعطى التفصيل أتبعها بقوله {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (الحجر ٢٨، ٢٩). وبعد نفخة الروح أمر الله إبليس بالسجود فأجاب {.. لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} (الحجر ٣٣). وفي سورة "ص" قال {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص ٧١، ٧٢). وقد قلنا: إن الخلق هو التقدير قبل التنفيذ. وعندما قال سبحانه للملائكة {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا} فهذا يعني أن البشر لم يظهر بعدُ، لذا اتبعها بعبارة {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ} ثم بعبارة {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} وبين الخلق والتسوية وضع الأداة "إذا" وهي ظرف لما يستقبل من الزمن، لذا قال {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} (الأنعام ٢). ثم استعمل أداتين معاً هما "ثم وإذا" في قوله {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} (الروم ٢٠) وقد استعمل هاتين الأداتين معاً بسبب الفارق الزمني الطويل بين التراب "المواد غير العضوية" وبين البشر، هذه المرحلة التي أخذت مئات الملايين من السنين. وقد بين أن الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح وأن البشر كان منتشراً قبل مرحلة الأنسنة، وأن البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان حيث أن الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش "اجتماعي".

وقد أجمل سبحانه خلق الإنسان في بداية التنزيل بقوله {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} (العلق ٢). والعلق في اللسان العربي من أصل "ع ل ق"، وعلق به وعلقه: نشب به، كقول جرير يصف شجاعاً:

إذا علقت مخالبهُ بقرنٍ *** أصاب القلب أو هتك الحجابا

(الزمخشري أساس البلاغة ص ٢١١). وفي معجم ابن فارس جاءت مفردة العلق (العين واللام والقاف) أصلا كبيرا صحيحا، يرجع إلى معنى واحد هو أن يناط الشيء بالشيء ثم يتسع الكلام فيه، وأحد معاني العلق "الدم الجامد".

لقد فهم المفسرون العلق على أنه الدم الجامد، وهو تأويل لا يتطابق تمام التطابق مع الحقيقة لجهلهم بوجود الخلية المنوية والبويضة واللقاح الخلوي.

فالعلق هو أن يعلق شيء بشيء آخر ومفردها "علقة" لذا قال: {مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ} فوضع العلقة بعد النطفة، وهي مفردة تعني دخول الحيوان المنوي إلى البويضة "تعلق شيء بشيء آخر" وهذا ما نسميه اللقاح، نقول عنه الآن في المصطلح الحديث "علاقة" فالعلق جمع علقة "أي علاقات" وقوله {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} يعني أن الإنسان مخلوق من مجموعة من العلاقات هذه العلاقات التي نقول عنها في المصطلح الحديث علاقات فيزيائية وكيميائية معدنية وعضوية وبيولوجية. ونلاحظ أن آية {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} جاءت في بداية الوحي للتنويه بأن الوجود المادي هو مجموعة كبيرة من العلاقات المتداخلة بعضها ببعض، ومن هذه العلاقات لا من خارجها تم خلق الإنسان، وذلك للدلالة على أن الوجود المادي خارج الوعي الإنساني هو مجموعة من العلاقات.

– الآيات التي ذكر فيها البشر تعني الوجود الفيزيولوجي المادي للإنسان وذلك للدلالة على جنسه كبشر وليس ملَكاً أو من جنس آخر:

١– {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ..} (آل عمران ٤٧).

– {.. فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} (مريم ١٧).

– {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا} (مريم ٢٠).

تبين هذه الآيات أن مريم قد رأت روح الله في صورة بشرٍ بحت لا في صورة ملكٍ أو جن ولذلك قال "سويا".

٢– {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ..} (آل عمران ٧٩).

– {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الشورى ٥١).

هنا يؤكد طريقة الوحي للجنس البشري لأنه لو كان جنساً آخر لكان من الممكن أن تكون طريقة الوحي غير الذي ذكر. فمثلاً في الوحي للنحل، والنحل ليس بشراً يقول تعالى {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ..} (النحل ٦٨)، وهذا يعني أن طريقة وحي الله للنحل غير طريقة وحي الله للبشر. ولكي يؤكد أن المسيح بشر والبشر إذا أوحي إليه من الله لا يقول للناس كونوا عباداً لي. فإذا حصل أن قال أحد من البشر للناس كونوا عباداً لي فهذا يعني أنه دجال ولم يوح إليه شيء.

٣– {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ..} (النحل ١٠٣).

– {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} (المدثر ٢٥).

هنا أكد أن الذي يكلم النبي (ص) ليس من البشر أي ليس من جنس النبي (ص) وإنما يعلمه الله عن طريق الوحي وهو ليس من البشر. وقول الوليد بن المغيرة إن الذي يوحى إلى محمد هو من قول البشر أي من قول مخلوق من جنسنا.

٤- {.. مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ..} (المؤمنون ٣٣).

هنا أكد أن الطعام من صفات البشر وأن الرسل الذين أرسلهم الله كانوا من البشر يأكلون كما تأكل بقية الناس.

٥- {.. بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ..} (المائدة ١٨) {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ..} (الأنعام ٩١). {.. قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا..} (إبراهيم ١٠). {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ..} (إبراهيم ١١). {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ..} (الكهف ١١٠) {.. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون ٢٤).

- {مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (الشعراء ١٥٤).
- {وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} (الشعراء ١٨٦).
- {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا..} (هود ٢٧).
- {.. وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} (يوسف ٣١).
- {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا} (الإسراء ٩٤).
- {وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} (المؤمنون ٣٤).
- {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} (المؤمنون ٤٧).
- {فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} (القمر ٢٤).

نلاحظ في الآيات السابقة أنه ذكر البشر في مجال الجنس الفيزيولوجي المادي، وأن الرسل كبقية الناس لهم أيدٍ ومعدة ووجه وباقي الأعضاء ويأكلون كبقية الناس ولكن يتميزون عنهم فقط بالوحي لذا قال {بَشَرٌ مِثْلُنَا} {لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا}. وقد قارن البشر كجنس بأنه ليس ملائكة بقوله في مجال المقارنة مع البشر {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} (المؤمنون ٢٤) والملائكة ليسوا من جنس البشر والناس تعودوا أن ينزل الله ملائكة رسلاً قبل أن يبعث رسلاً منهم بصفة بشرية ولذا كان هذا الاستغراب الكبير.

٦- {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} (المدثر ٢٦- ٣٠).

هنا بين أن العذاب جسدي فيزيولوجي بحت فقال عن سقر بأنها {لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ} وبيَّن أن سقر المذكورة في الكتاب هي لهذا الجنس الذي هو البشر.

- الآيات التي جاء فيها الإنسان "الناس" تعني الكائن العاقل:

لقد ورد الإنسان والناس في عدة آيات بمعنى الكائن العاقل، ولكن لابد من أن نميز بينهما. فأصل الإنسان من "أنسن" وتعني في اللسان العربي ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريقة التوحش، ومنه الأنس أي أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه، ويقال إنسان وإنسانان وأناسي.

فالإنسان هو البشر المستأنس غير المتوحش، الذي له علاقة اجتماعية وصلة مع غيره. أما الناس فقد جاءت من أصل "نوس" وهو في اللسان العربي أصل يدل على اضطراب وتذبذب، فعندما اجتمع الإنسان مع أخيه الإنسان تولد عن هذا الاجتماع اضطراب وتذبذب في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، أي لم تسر الحياة بشكل رتيب كما عند بقية المخلوقات كالنحل، وأصبحوا ينوسون أي ينتقلون من مكان إلى آخر بشكل واع. وكلما ازداد الإنسان في تقدمه الإنساني كلما زاد النوسان.

فإذا تصفحنا آيات الكتاب التي تحتوي على لفظة الإنسان والناس نراها تدور حول المواضيع التالية:

١- {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ..} (البقرة ٨)، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ..} (البقرة ١٣)، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..} (البقرة ٢١)، {.. وَقُولُوا لِلنَّاسِ..} (البقرة ٨٣)، {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ..} (البقرة ٤٤)، {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ..} (البقرة ٩٦)، {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ..} (البقرة ١٤٢)، {.. بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ..} (البقرة ١٦٤)، {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ..} (البقرة ١٨٥)، {.. لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ..} (البقرة ١٨٨)، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ..} (النساء ١٧٤) {.. فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ..} (المائدة ٤٤) {.. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} (المائدة ٤٩)، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ..} (الروم ٤١)، {.. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (سبأ ٢٨)، {.. ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ..}، (هود ١٠٣) {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} (يوسف ١٠٣)، {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} (الناس٥).

نلاحظ أن هذه الصيغة كلها للعقلاء، وأن الخطاب الموجه لهم في الكتاب يأتي تحت عنوان {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} ولم يقل أبداً ياأيها البشر.

٢– {.. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} (ابراهيم ٣٤)، {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ..} (الإسراء ١١)، {.. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ} (الزخرف ١٥)، {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} (المعارج ١٩)، {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ} (القيامة ١٠) {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا..} (الأحقاف ١٥)، وهذه الصفات كلها للمخلوق العاقل.

٣– عندما ذكر سبحانه خلق الإنسان جعله في جملة كما في قوله {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} وعندما أعطى التفاصيل وطريقة الخلق ذكر البشر كما في قوله {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا}.

نلاحظ الفرق الواضح بين البشر والإنسان، فالبشر هو الوجود الفيزيولوجي المادي للإنسان ككائن حي ضمن مجموعة مخلوقات حية. إن القردة كائنات حية والأنعام كائنات حية لذا عندما ندرس جسم الإنسان في الجامعة ككائن حي نقول" كلية الطب البشري" ولا نقول كلية الطب الإنساني. فالبشر هو تباشير الإنسان وأوله لأنّ تباشير كل شيء أوائله. وعندما نقول العلوم الإنسانية فإننا نقصد علوم اللغات والتاريخ والفلسفة والحقوق والتشريع والسياسة والاقتصاد وعلم النفس والفنون بأنواعها، أي العلوم التي تتعلق بالإنسان ككائن حي عاقل له سلوك واع.

الفرع الثاني: نشأة الإنسان واللغة

تمهيد

عندما بلغ البشر مرحلة متقدمة من التطور العضوي والنضج، أصبح مؤهلاً لنفخة الروح وهذا التأهيل تجلى في ظاهرتين رئيسيتين هما:

١– انتصاب الإنسان على قدميه وتحرير اليدين وذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} (الانفطار ٦–٨). فهنا نرى لفظة عدلك جاءت بعد التسوية، وعدل في اللسان العربي لها أصلان صحيحان لكنهما متقابلان كالمتضادين أحدهما يدل على الاستواء والآخر على الاعوجاج. ونرى أن معنى عدلك هو معنى فيزيائي وليس اجتماعياً لأنه جاء في آية واحدة مع الخلق والتسوية، والخلق والتسوية هنا لهما معان مادية وليست اجتماعية بمعنى العدل ضد الظلم. وعلى هذا فالمعنى الأول هو الصحيح وهو الاستواء على قدمين، لأن الإنسان الآن مستو على قدميه ومتحرر اليدين. هذه الظاهرة في الاستواء على القدمين أعطت للإنسان بعداً إضافياً هو تحرير اليدين من أجل ظاهرة العمل الواعي، فإذا نظرنا إلى اليدين في الإنسان رأيناهما من أروع آلات العمل، تمتلكان قدرة هائلة على المناورة في الحركات.

٢– نضوج جهاز صوتي خاص به، وهذا الجهاز قادر على إصدار نغمات مختلفة بعكس بقية المخلوقات التي تصدر نغمة صوتية واحدة. هذا الجهاز الصوتي عبر عنه في سورة الرحمن: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} فقوله (علمه البيان) والهاء تعود إلى الرحمن يعني أنه تعلم اللغة بواسطة قوانين مادية موضوعية وليس وحياً أو إلهاماً. وأول هذه القوانين هو وجود الجهاز الصوتي، لاحظ أنه قال "الرحمن" ولم يقل "الله".

أولاً: آدم وبداية نشأة الكلام الإنساني

لا يمكن للكلام أن يسمى كلاماً إنسانياً إلا إذا كان مقطعاً إلى مقاطع صوتية متميزة بعضها عن بعض يصدرها الإنسان بشكل واعٍ.

عندما أصبح البشر جاهزاً من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخة الروح "الأنسنة"، بانتصابه على قدمين وتحرير اليدين وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار النغمات المختلفة، وللدلالة على أنه جاهز قال تعالى للملائكة: {.. إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة ٣٠).

نلاحظ في الآية عبارة {إِنِّي جَاعِلٌ} والجعل هو عملية التغير في الصيرورة كقوله لإبراهيم {.. إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا..} (البقرة ١٢٤) إذ لم يكن إبراهيم إماماً للناس فأصبح إماماً. واستعمال اسم الفاعل في عبارة {إِنِّي جَاعِلٌ} فيه دلالة على استمرار العملية كقوله تعالى {.. إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} (ص ٧١) ففي مراحل الخلق المختلفة استعمل {إِنِّي خَالِقٌ} كذلك قال {إِنِّي جَاعِلٌ} للدلالة على وجود البشر الذي تمت تسويته وأصبح جاهزاً لتغير في الصيرورة ليصبح خليفة الله في الأرض أي لم يكن خليفة فأصبح خليفة بعد أن كان موجوداً دون خلافة. لذا سألت الملائكة {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} لنقارن هذا القول مع قوله {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} فعندما قال {خَالِقٌ بَشَرًا} لم يذكر احتجاج الملائكة لأنه لم يستو بعد، ولم يكن الإنسان موجوداً في شكله الجاهز لنفخة الروح لذا أتبعها بقوله {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص ٧٢). ومع ذلك لم تقل الملائكة {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}. أما عندما قال {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} كان البشر ما يزال في المملكة الحيوانية قبل الأنسنة، ولكنه قائم على رجلين وله جهاز صوتي قادر على التنغيم المختلف وكان تصرفه كالبهائم يأكل اللحوم {وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} للدلالة على التخريب غير الواعي في الغابات كما تفعل بعض فصائل القردة من قطع أغصان الأشجار، وهنا

يجب أن لا نفهم عبارة {يُفْسِدُ فِيهَا} أنها سلوك لا أخلاقي مخالف لتعليمات الله سبحانه فهذا يسمى فسوق لا فساد. فعندما يصبح الطعام غير صالح للأكل نقول: فسد الطعام ولا نقول فسق الطعام. فالفساد هو التخريب كقوله تعالى {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (المائدة ٣٣).

هنا عبارة {يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا} تعني قطع الشجر وتخريب الطرق والجسور وهدم البيوت والمنشآت. وكما في قوله تعالى {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} (الأعراف ٨٥) وقوله {.. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (البقرة ٦٠، هود ٨٥، الشعراء ١٨٣). هنا أيضاً تؤكد الآيات أن الله منع تخريب الأرض بعد إصلاحها، ومنع أن نفسد الأرض من جراء إقامتنا فيها طبقاً لقوله تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا..} (الروم ٤١). هذه الآية تعطينا نبأ مسبقاً عن ظاهرة التلوث، حيث ذكر الفساد في الأرض وذكر أن السبب هو الناس، كل الناس وليس الكافرين فقط. فهنا أعطاها أيضاً مفهوماً مادياً لا مفهوماً أخلاقياً.

إن من الخطأ القول بأن عبارة {يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} تعني أنه كان هناك مخلوقات عاقلة قبل آدم فسدت وسفكت الدماء فأهلكها الله سبحانه وتعالى، أو علمت الملائكة أن هذا المخلوق سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فالقولان فيهما نظر، والصحيح عندنا أن الملائكة قالت ما شهدت فعلاً عند قوله تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}. ومن هنا فعلينا أن نعيد النظر في القول الذي يقول إن الله خلق آدم ووضعه في الجنة ثم خلق بعده حواء ثم طردا من الجنة هما وابليس ونزلا إلى الأرض، وذلك للأسباب التالية:

إن وصف الجنة التي سكنها آدم لا يشبه وصف جنة المتقين، فقد بيَّنا في بحث الساعة والصور واليوم الآخر بأن الجنة والنار لم توجدا بعد وإنما ستقومان على أنقاض هذا الكون بقوانين مادية جديدة، وأن من صفات جنة المتقين الخلود واختفاء ظاهرة الموت. فكيف يمكن إغراء إنسان بشيء لا يعرفه وغير موجود؟ طبقاً لما جاء في الحوار على لسان الشيطان بقوله {.. هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} (طه ١٢٠) وقوله تعالى {.. مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} (الأعراف ٢٠).

فلولا أنّ آدم يعرف الموت وأن الأشياء تبلى لما غره ذلك القول. وهذه الآية تبين أيضاً بأن غريزة البقاء هي أقوى غريزة لدى المخلوقات كلها. ثم تأتي بعدها شهوة التملك وبقاء الممتلكات بدليل عبارة

{وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}.ثم إن وصف جنة آدم بعيد جداً عن وصف جنة الخلد في قوله تعالى {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} (طه ١١٨، ١١٩).

هنا نلاحظ أنه يصف غابة أرضية فيها ثمار طبيعية بحيث يأكل بدون أن يعمل. و"تعرى" هنا من العراء أي الخروج من الغابة إلى الصحراء كما في قوله تعالى {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ} (الصافات ١٤٥) فإذا خرج إلى العراء فإنه يحتاج إلى ظاهرة العمل ليكسب عيشه لذا قال {.. فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} (طه ١١٧).

وكذلك يوجد في الغابات التي عاش فيها الإنسان المياه {لَا تَظْمَأُ فِيهَا}، وفيها أيضاً الظل {وَلَا تَضْحَى}، حيث "تضحى" جاءت من أصل "ض ح ي" وهو في اللسان العربي أصل صحيح يدل على بروز الشيء ويقال أضحى الرجل يضحي، إذا تعرض للشمس، ويقال أضح زيداً أي أبرز للشمس، ومنه سميت القرابين أضحيات لأنها تذبح عند إشراق الشمس، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة.

إن هذا الوصف بعيد جداً عن وصف جنة الخلد الذي جاء في القرآن ومن أول مواصفاتها اختفاء ظاهرة الموت.

من هنا نستنتج:

أ- أن البشر وجد على الأرض نتيجة تطور استمر ملايين السنين "البث"، حيث أن المخلوقات الحية بث بعضها من بعض طبقاً للقانون الأول للجدل، وتكيفت مع الطبيعة وبعضها مع بعض طبقاً للقانون الثاني للجدل.

وقد وجد البشر وانتشر في مناطق حارة مغطاة بالغابات، فيها مخلوقات حية أخرى كان يفترسها البشر {يَسْفِكُ الدِّمَاءَ} وكان يسلك سلوك الحيوانات الأخرى أي كان كائناً غير عاقلٍ إذ لم تظهر عنده كبشر ظاهرة العمل الواعي.

ب- علينا أن نفهم أن عبارة {اهْبِطُوا مِنْهَا} تعني الانتقال من مرحلةٍ إلى أخرى، وليس المعنى "انزلوا منها". ونحن نقول: إن الله أنزل ونزل القرآن ولا نقول أهبط وهبط القرآن وقد استعمل الكتاب فعل "هبط" في مجال الانتقال المكاني أو الكيفي. ففي مجال الانتقال المكاني، أي من مكان إلى آخر على الأرض، قال تعالى {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (هود ٤٨). ترى أين كان نوح عندما قال له (اهبط) هل كان في السماء؟ وقال {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ

الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ..} (البقرة ٦١).

لاحظ أن الكلام هنا عن بني إسرائيل الذين كانوا في سيناء وليس في السماء فجاءت عبارة (اهبطوا) هنا في المعنيين المكاني والكيفي. فالمكاني الانتقال من سيناء إلى مصر والكيفي أنهم كانوا يأكلون طعاماً واحداً هو المن والسلوى فأرادوا الانتقال إلى كيفية أخرى من الأطعمة.

فهنا يجب أن نفهم أن {اهْبِطُوا مِنْهَا} أي الهبوط جاء بمعنى الانتقال الكيفي أوالمكاني أو الاثنين معاً، وكل ذلك حصل على الأرض، وجنة الخلد ليس لها أية علاقة بذلك لأنها أصلاً لم توجد بعد.

ج– مفهوم آدم: لقد جاء آدم من أصل "أدم" وهذا الأصل في اللسان العربي له معنى واحد هو الموافقة والملاءمة، ومنها جاءت الأدمة وهي باطن الجلد لأن الأدمة أحسن ملاءمة للحم من البشرة ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أدمة الأرض.

لقد جاء في لفظة آدم مصطلحان معاً البشرية والآدمية، فالبشر مؤلف عضوياً من عناصر موجودة في الأرض، وبعد انتصابه ووجود الجهاز الصوتي المناسب أصبح موافقاً وملائماً لعملية الأنسنة، ومن الخطأ الفاحش أن نقول إنّ آدم اسم أعجمي بل هو مصطلح عربي صرف وإذا مدحنا إنساناً وقلنا إنه آدمي فهذا يعني أنه دمث متكيف مع الظروف التي يعيشها. في ضوء هذا كله نفهم أن آدم ليس اسماً لشخص واحد، بل اسم جنس هو الجنس الآدمي.

فعندما يقول تعالى { يَا بَنِي آَدَمَ} فإنه يخاطب الجنس الآدمي، وعندما يقول {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ..} (المائدة ٢٧) فإنه يذكر أحدى مراحل تطور الجنس الآدمي بعد خروجه من المملكة الحيوانية وكان متواجداً مع إنسان تياندرتال الذي تعلم معه دفن الموتى، ولاتعني كما يقول البعض قابيل وهابيل.

د– شرح قوله تعالى "الذي علم بالقلم": القاف واللام والميم في اللسان العربي أصل صحيح يدل على تسوية شيء عند بريه وإصلاحه، من ذلك: قلمت الظفر، ومن هذا الباب سمي القلم قلماً.

لقد جاءت آية {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} في سورة إقرأ مع بداية الوحي، التي شرحنا منها (خلق الإنسان من علق) وعندما قال سبحانه {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} أتبعها بقوله {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}. ونلاحظ أنهما آيتان منفصلتان بينهما "نجمة"، وكان من الممكن أن يقول "الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم".

ولقد جاء فصل الآيتين للدلالة على أن التعليم بالقلم مطلق، وأن الإنسان من جملة المخلوقات التي تم تعليمها بالقلم. لقد قال المفسرون: هي كناية عن تعليم الكتابة لأن آلة الكتابة هي القلم. فإذا سلمنا

جدلاً بأن هذا الكلام صحيح، فماذا نقول عن قوله تعالى {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} والتعليم في زعمهم لا يكون إلا بالقلم، فهل كان زمن آدم فيه أقلام وقرطاسية؟

إننا نعلم أن الكتابة، بمعنى رسم الحروف المنطوقة، ظهرت في عهد غير بعيد نسبياً. فإذا كان الأمر كذلك فما هو القلم الذي علم الله به كل المخلوقات دون استثناء ومن ضمنها الإنسان؟

إذا نظرنا للأصل اللغوي وهو التسوية والإصلاح والتهذيب نفهم أننا عندما نقص أغصان الشجر فإننا نقلمها، وعندما نقص ونهذب طرف العود الصغير نسميه قلماً. فالقلم هو قص الأشياء بعضها عن بعض وتهذيبها، وهذا ما نقول عنه اليوم التمييز "التعريف". فحتى يومنا هذا في سوريا عندما نقوم بجرد مستودع أو استلام مواد نكتب في قائمة الجرد أو الاستلام ما يلي، مثلاً:

١– طاولة عدد ٦.

٢– كرسي عدد ٦.

٣– خزانة عدد ٣.

٤– مكتبة عدد ١.

ثم نغلق القائمة فنقول "فقط أربعة أقلام لاغير" أي أربعة بنود متميزة بعضها عن بعض، وهذه البنود هي طاولة، كرسي، خزانة، مكتبة.

وفي مكتب تسجيل السيارات هناك قلم فيه اضبارة كل سيارة، يبين النوع، سنة الإنتاج، اللون، الرقم، المالك، لتمييز كل سيارة على حده. وكذلك في القوات المسلحة هناك "قلم" فيه الأوراق الصادرة والواردة تميز وتوزع حسب العائدية.

فالتقليم هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض وهذه العملية هي العمود الفقري للمعرفة الإنسانية، وبدونها لا تتم أية معرفة.

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا وضعها بشكل مطلق {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} ثم علق الإنسان بها بقوله {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}؟ والجواب: لأن التقليم ليس من صفات الإنسان فقط، فحتى المعرفة الغريزية عند الحيوانات تقليم. فنرى أن القطة تميز أولادها، والبقرة تميز وليدها، فإذا جاء غير وليدها ليرضع منها فإنها تصده، أي أن للبقرة جهاز أو مؤشر يتناسب مع بنيتها تستطيع أن تميز به وليدها. وكذلك النحلة تميز خليتها عن باقي الخلايا، والخيل تميز اللحم من الحشائش فلا تأكله. والملائكة أيضاً لا تعلم من العلم إلا المعلومات التي تدخل بجهاز التقليم الخاص بها، فهناك ملائكة تسبح فقط لأن قلمها قائم على التسبيح فلا تميز شيئاً آخر. لذا فما دخل في قلمنا فهو ضمن معلوماتنا "الشهادة" ومالم يدخل في قلمنا فهو خارج معلوماتنا "الغيب".

وقد خلق الله للتقليم أنواعاً كثيرة وإمكانيات مختلفة حسب الظروف التي يعيشها كل كائن حي. فالسمكة لها قلم، والوطواط له قلم.. وهكذا دواليك.

فإذا تأملنا الحواس مثلاً، نرى أن العين تقلم الألوان والأبعاد والأشكال التي تدخل ضمن إمكانياتها البصرية، والأذن تقلم الأصوات التي تدخل في إمكانياتها السمعية، واللسان يقلم الطعوم حسب إمكانياته، والشم يقلم الروائح، والجلد يقلم الحرارة والملمس. ولولا هذا التقليم الذي هو صفة الحواس لما كان هناك علم، علماً أن الحواس التي تقلم هي نفسها مقلمة إلى خمس حواس.

وعندما تنتقل صورة الأشياء عن طريق الحواس يعمل الفكر أيضاً على التقليم، فيحلل "يقلم" ظاهرة ما إلى عناصرها الأساسية، ثم يركبها "يعقل" ويصدر حكماً.

وإذا نظرنا في تقدم المعارف الإنسانية رأينا أن التقليم هو أساسها. فعندما اكتشفت الكهرباء في القرن ما قبل الماضي كانت عبارة عن علم بسيط واحد، ثم تطورت بالتقليم فأصبح هناك محطات توليد طاقة، خطوط نقل طاقة، محركات كهربائية، دارات إلكترونية، حتى أصبحت كلية قائمة بذاتها تتألف من عدة مواد منفصلة "مقلمة". وكذلك الطب كان هناك جسم الإنسان وطب عام ثم قلمناه بالتطور فأصبح هناك طب عظام وطب عيون وطب أنف وأذن وحنجرة وطب نفساني وطب عصبي، وجراحة، وجهاز هضم، وهكذا دواليك.

ثم إذا نظرنا إلى القلم في معناه المجازي كأداة كتابة نرسم بها الحروف، فلا يمكن أن نخط رسالة بحبر أبيض على ورق أبيض، لأن العين بذلك لا تميز شيئاً، ولكننا نكتب بلون أزرق مثلاً على ورق أبيض، وهذا هو التمييز الأول. ثم هناك التمييز الثاني للحروف، فنرمز لصوت النون بالرمز "ن" ولصوت اللام بالرمز "ل". وبما أن النون واللام صوتان مميزان عن بعضهما فقد رمزنا لهما برمزين مختلفين لتبيان التمييز.

وإذا تأملنا في الأمراض مثلاً، نرى أن مرض السرطان موجود موضوعياً ونستطيع أن نقلم "نميز" الخلية السرطانية غير المخلقة عن الخلية العادية "المخلقة" رغم أننا لم نستطع إلى اليوم أن نقلم الأسباب الحقيقية للسرطنة، لذا فإن مرض السرطان مقلم كظاهرة مرضية وغير مقلم كأسباب حقيقية لهذه الظاهرة. علماً أنه قد تم تقليم بعض الأسباب المساعدة على السرطنة، وهذا يسمى باللغة الإنجليزية (Identification).

ومبدأ الهوية الشخصية يقوم على التقليم بالاسم والكنية واسم الأب والأم والصورة وتاريخ ومكان الميلاد والعلامات الفارقة وذلك لتقليم صاحب الهوية عن غيره.

فإذا رجعنا الآن إلى تعريف الكلام الإنساني قلنا إنه يتألف من أصوات مقطعة متميزة، أي أن الكلام الإنساني يقوم على تقليم الأصوات.

وإذا أخذنا قوله تعالى {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} وقوله {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} لوجدنا أن بداية الوحي لمحمد (ص) هي بداية المعرفة، حيث بدأ الوحي بفعل الأمر "اقرأ" والقراءة هي العملية التعليمية، ثم جاء بعدها العمودان الفقريان للمعرفة. الأول أن الوجود خارج الوعي الإنساني مؤلف من علاقات متداخلة بعضها مع بعض ومنها خلق الإنسان، والثاني أن وعي هذه العلاقات من قبل الإنسان لا يمكن أن يتم إلا بالتقليم أي تمييز هذه العلاقات بعضها عن بعض، والحواس هي الأدوات المادية للتقليم المشخص المباشر.

نستنتج من هذا التعريف للعلاقات المتداخلة ولتقليمها أساس البحث العلمي والنشاط الاقتصادي والإنتاجي. فإذا أردنا أن نقوم ببحث علمي لظاهرة ما فما علينا إلا أن نعلم أن هذه الظاهرة يجب أن تكون مؤلفة من علاقات متداخلة ببعضها، وبالتالي فإذا أردنا أن نعرفها فالبحث العلمي يقلمها إلى العناصر الأساسية المركبة لهذه العلاقات. وكذلك في النشاط الإنتاجي الناجح فإنه يجري تقليم العملية الإنتاجية إلى مجموعة من العلميات الأولية وناتج هذا التقليم هو ما يسمى بالخط الإنتاجي. وهكذا فإن النشاط الإنساني المعرفي والإنتاجي قائم على العلاقات وتقليم هذه العلاقات.

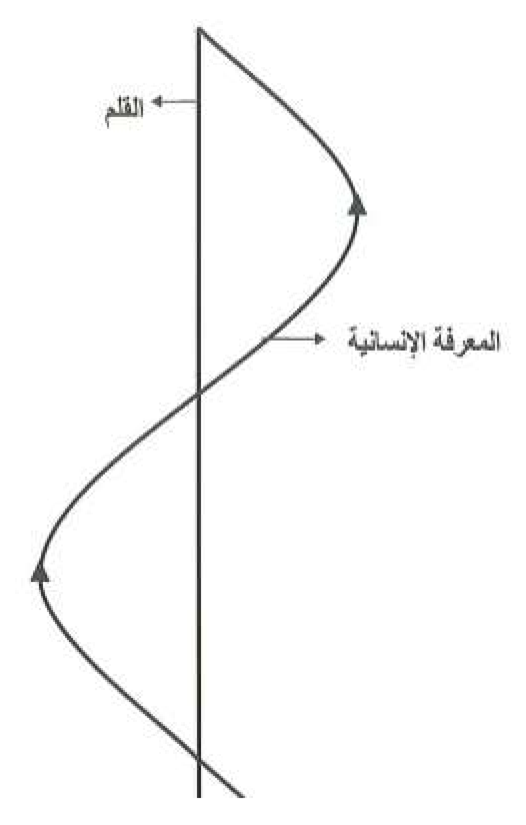
فإذا نظرنا في آيات الكتاب التي ذكر فيها القلم رأيناها كالتالي: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (لقمان ٢٧).

نجد أنّ القلم جاء في هذه الآية بمعنى آلة الكتابة "الخط" وقد شرحت مفهوم التقليم في الكتابة.

– {.. وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ} (آل عمران ٤٤).

هنا جاءت الأقلام أيضاً للتمييز، فعندما تضرب قرعة بين عدة أشخاص فكل شخص يأخذ علامة مميزة عن الآخر، وقد كانت في الجاهلية تسمى "القِداح" أي كل شخص له قدح خاص ليميزه عن غيره.

– {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} (القلم ١) هذه الآية لها بحث خاص بها سيأتي. فمن مفهوم القلم نتوصل إلى الاستنتاج الرئيسي التالي:



هـ – الاسم: جاء الاسم من أحد أصلين في اللسان العربي:

١– من فعل ''وسم'' ولهذا الفعل أصل واحد يدل على أثر ومعلم. نقول: وسمت الشيء وسماً: أثرت فيه بسمة، والوسمي أول المطر لأنه يسم الأرض بالنبات. وسمي موسم الحج موسماً لأنه معلم يجتمع إليه الناس. وقوله تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} (الحجر ٧٥) أي للناظرين في السمات الدالة.

٢– من فعل ''سمو'' وهو أصل يدل على العلو. يقال: سموت إذا علوت، وسما بعده علا، وسما لي شخص: ارتفع حتى استثبته، وسماوة كل شيء شخصه، والجمع سماء وسماوٌ. والعرب تسمي السحاب سماء، والمطر سماء. والسماءة: الشخص. السماء سقف البيت. وكل عالٍ مطلٍ سماء. حتى يقال لظهر الفرس سماء.

ويقال إن أصل ''اسم'' سمو وهو من العلو لأنه تنويه ودلالة على المعنى.

والسؤال الآن: هل الاسم مشتق من ''سوم'' أم من ''سمو''. فإذا كان الاسم من ''سمو'' فهو العلو والارتفاع. أي أن الاسم يعلو صاحبه ولو كان هذا الكلام صحيحاً لعرفنا اسم كل شيء دون أن يخبرنا

عنه أحد لأنه يعلوه. أما إذا كان الاسم من "وسم" فهو سمة لصاحبه، أي شيء يميزه عن غيره. ونحن نسمي الأشياء لنميزها عن بعضها أي لنعطيها سمات مميزة. ولكل شيء سمة خاصة به، فنقول "تفاح جميل" فالتفاح اسم لثمرة أطلقنا عليها هذا الإسم لنميزها عن بقية الثمار، وجميل أيضاً اسم وهو سمة "صفة" مميزة للموصوف هو التفاح.

وقد قال "الفراء" واضع أسس المدرسة الكوفية إن اصل الاسم من وسم وليس من سمو. حتى أن ابن فارس وضعها بصيغة غير مؤكدة في "سمو" حيث ذكره بصيغة ممرضة "يقال بأن أصل الاسم من سمو".

فإذا أخذنا بالرأي القائل إن أصل الاسم من "وسم" فيتضح لنا معانٍ واقعية لآيات في الكتاب ذكر فيها لفظة "الاسم".

لنأخذ الآيات التي ورد فيها لفظ "اسم":

١– {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: هنا ذكرت الصفة المميزة "لله"، والله هو لفظ الجلالة ولانقول اسم، من سماته أنه الرحمن الرحيم. وكذلك قوله تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا..} (الأعراف ١٨٠) فالسمات المميزة لله هو الأسماء الحسنى وقد جاء ذكرها في الكتاب.

٢– {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ..} (النجم ٢٣). تذكر الآية أنه كان في زمن هود تعدد للآلهة مع التخصص، فهناك إله الحرب وإله الغضب وإله الخصوبة وإله الحب وهكذا دواليك. لذا قال لهم هود {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ} فأجابه قومه {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ..} (هود ٥٤). هنا ذكر "بعض" كجزء من كل أي أن آلهة السوء اعترت هوداً وذلك لوجود آلهة أخرى لها سمات أخرى.

٣– {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ..} (آل عمران ٤٥) إن المسيح هو سمة عيسى ابن مريم، وقد ذكر سبحانه هذه السمة في الآية السابقة، وأتبعها بصفات أخرى له فقال {وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (آل عمران ٤٥). ولا نرى في الكتاب أبدا صيغة "اسمه" عيسى بن مريم إلاّ وقرنها بالمسيح "اسمه المسيح"، لأنّ المسيح هي سمة خاصة لعيسى بن مريم وقد ذكر هذه السّمة في الآيات إما بصيغة كاملة "عيسى ابن مريم" كما في آل عمران ٤٥ والنساء ١٥٧ و١٧١، أو بصيغة "ابن مريم" كما في المائدة ١٧ و٧٢ و٧٥ والتوبة ٣١، وفي الحالتين اقترن الاسم في هذه المرات الثمان بسمة "المسيح". أما في المرات الثلاث الباقية فقد وردت سمة "المسيح" دون اسم كما في آل عمران ١٧٢ والمائدة ٧٢ والتوبة ٣٠. أي أن سمة "المسيح" قد تأتي مع الاسم أو بدونه، لكن الاسم لا يأتي أبداً دون سمة.

٤- {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} (مريم ٧) هنا أعطى الله اسماً لابن زكريا، وسمة هذا الاسم أنه أكثر اسم حي من أسماء أهل الأرض لذا سماه ''يحيى'' وهو أول تسمية فهو في العربية يحيى، حنا، يوحنا، وفي الروسية إيفان، وفي الإنجليزية والفرنسية جون، وفي الإيطالية جيوفاني، وفي الإسبانية خوان، وفي الألمانية يوهان.

٥- {.. وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ..} (الصف ٦) إن أحمد هو السمة المميزة لمحمد بن عبد الله وهذه الصفة على وزن أفعل هي للتفضيل. فبدأ سبحانه الكتاب بالحمد {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الفاتحة ١). وبدأ خلق الوجود بالحمد: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..} (الأنعام ١). وبدأ الإنزال بالحمد: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} (الكهف ١). وأنهى الحساب بالحمد {.. وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الزمر ٧٥) وأنهى دخول الجنة بالحمد {.. وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (يونس ١٠) وقال {.. لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ..} (القصص ٧٠). لذا فقد أعطى الله لمحمد (ص) سمة الحمد المميزة بالتفضيل له على كل الرسل والأنبياء، فسماه أحمد. وقد فهم العرب الأوائل هذه الصفة بأنها خاصة بمحمد (ص) فامتنعوا عن تسمية أبنائهم باسم أحمد. فلا نرى في صدر الإسلام أو في العهد الأموي من سمى ابنه ''أحمد'' وأول اسم صادفناه تاريخياً باسم أحمد هو الإمام أحمد بن حنبل في العهد العباسي. مع العلم أن كثيراً من الصحابة سموا أبناءهم باسم محمد، أي أنهم فهموا أن اسم أحمد خاص بمحمد (ص) مثلما أن اسم المسيح خاص بعيسى بن مريم.

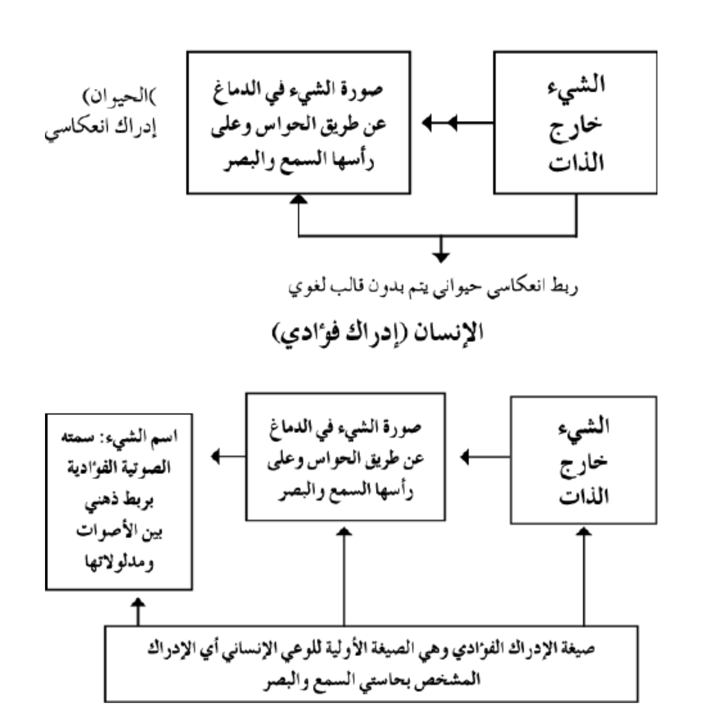
ثانياً: نشأة اللغة وارتباطها بالفكر ''نفخة الروح''

لقد تطور الإنسان من البشر وتميز عن بقية البهائم بالربط الذهني بين الشيء وصورته من خلال صيغة لغوية، بينما تربط الحيوانات بين الشيء وصورته بربط انعكاسي (reflection) فالكلب عندما يشم رائحة اللحم يسيل لعابه بربط انعكاسي بحت. أي أن هناك الشيء ''اللحم'' وصورة الشيء ''في مخ الكلب عن طريق حاستي البصر والشم'' والربط الانعكاسي بينهما يؤدي إلى سيلان اللعاب.

هذا الشيء موجود عند الإنسان في سلوكه الغريزي ''البهيمي البحت''. أي أن الكلب له سمع وبصر وذوق، والإنسان كبشر له سمع وبصر وذوق، فماذا يزيد الإنسان عن ذلك حتى نقول إنه بداية الأنسنة.

وما علينا حتى نعرف بداية الأنسنة ونفخة الروح وظهور الفكر إلا أن نبحث في نشأة الكلام الإنساني. فالسبب الجوهري يكمن في أنّ الربط الانعكاسي عند الحيوانات يتم بدون قالب لغوي "أي بدون أسماء". ونحن نعلم بشكل قاطع أن الفكر الإنساني مهما كان بدائياً لا يتم بدون قالب لغوي "صوتي" لأنه يوجد تلازم لا ينفصم بين الفكر واللغة منذ بداية الأنسنة. ونرى الآن أن أهل الأرض جميعاً تفكر بقالب لغوي. أي أن اللغة لها وظيفتان الأولى حمل الفكر، والثانية التواصل بين متكلم ومخاطب في صيغة خبر أو أمر ونهي أو تعجب واستفهام. فإذا نظرنا إلى الكلام الإنساني بين متكلم ومخاطب رأينا أن صيغة الخبر هي أكثر الصيغ تردداً، تليها صيغة الأمر والنهي، تليها صيغة التعجب والاستفهام. فلكي نميز الإنسان عن الحيوان "البشر" نضع الصيغتين التاليتين:

الحيوان (إدراك انعكاسي)



فبدأ الإنسان بمرحلة الإدراك القائم على المشخص المحدد بحاستي السمع والبصر. وقلنا إن الفؤاد هو بمثابة المحمِّي أو الصاعق لمرحلة الفكر والذي يليه وهو "القلب". لذا عندما قال {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ} أي عندما فرغ فؤاد أم موسى كاد أن يصبح سلوكها بهيمياً انعكاسياً غير مسيطر عليه لذا قال: {إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ}. ثم ذكر مرحلة الفكر المجرد "القلب" وهو المرحلة الأكثر تقدماً والأكثر وعياً التي سيطرت فيها على سلوكها بعبارة {لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} (القصص ١٠).

فمهمة الفؤاد هي إدراك المشخص الذي تنقله الحواس والربط بين الأشياء وأسمائها، أي هل يفيد الاسم هذا الشيء حصراً أو لا يفيد؟ وهذه هي عملية التقليم التي بدأت بالربط بين الأصوات اللغوية "الأسماء" ومدلولاتها العينية "المشخصة" وهذا الربط ذهني لا انعكاسي. وبعد ذلك تصبح الأسماء جاهزة للعلاقات المجردة في الفكر والعقل.

إن الفؤاد الإنساني الذي يربط بين الشيء المشخص واسمه هو بداية نفخة الروح، فقد قلنا إن الله سبحانه وجود أحادي من صفاته عدم التناقض، فبدأ بإعطاء هذه الصفة الخاصة إلى البشر بالفؤاد. وابتداء من هذه الخاصية بدأ النقيضان بالعمل في الدماغ الإنساني وهما "الرحمن والشيطان" التصديق والتكذيب "الحقيقة والوهم" وهنا نرى الصيغة الأولية للفكر الإنساني. هذه هي الحلقة المفقودة التي بحث عنها العلماء والتي ربطت بين البشر والإنسان، وهي السر في بداية الأنسنة، والسر في جدل النقيضين غير الماديين الحقيقة والوهم "الرحمن والشيطان" اللذين تم ربطهما بقانون عدم التناقض وهنا يكمن سر بداية نفخة الروح، وسر سبب تقدم البشر وتطوره إلى إنسان ليصبح كائناً عاقلاً عالماً ومشرعاً، ولم تتطور بقية الحيوانات العليا من فصيلة القردة رغم أنها وجدت في نفس الشروط الطبيعية ولها نفس النشأة البيولوجية. لقد خضع البشر لنفخة الروح فأصبح إنساناً، والقردة لم تخضع لنفخة الروح فبقيت على ما هي عليه. وعلى هذا يجب أن نزيل الأوهام العالقة في أذهاننا بأن الروح هي سر الحياة، وإنما هي سر الأنسنة فالإنسان له روح وبقية الحيوانات ليس لها روح.

وبما أن الكتاب يحتوي على معلومات وتشريعات فقد سمي روحاً كما في قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ..} (الشورى ٥٢).

ونحن نرى إلى يومنا هذا أن مرحلة الإدراك الفؤادي هي المرحلة التي يبدأ بها تعليم الأطفال، وذلك بالربط القائم على حاستي السمع والبصر بين الشيء المشخص واسمه، وهي المرحلة التي يبدأ بها أي علم جديد. أي عندما يكتشف الإنسان شيئاً جديداً فأول شيء يفعله هو أن يضع له اسماً أو تعريفاً. يقول البعض إن عدم التناقض الذي هو أساس الفكر الإنساني نتج عن ظاهرة العمل، وهذا غير صحيح للأسباب التالية:

١– لم يذكر أصحاب النظرية المادية الانعكاسية ما هما النقيضان اللذان يعملان في الدماغ الإنساني، وإذا كان هناك نظرية انعكاسية فكيف ظهر التصديق والتكذيب والحقيقة والوهم في الدماغ الإنساني.

بينما تقول النظرية القرآنية إن النقيضين غير الماديين اللذين يعملان في الدماغ ''الرحمن والشيطان''، ''الحقيقة والوهم'' مربوطان بقانون عدم التناقض. وعندما يفك هذا الربط يتحول الإنسان إلى شخصيتين متناقضتين تماماً. فدائماً هناك موقف رحماني ''صادق حقيقي'' في أمر ما وموقف آخر شيطاني ''كاذب وهمي'' في الأمر نفسه.

٢– حتى يعمل الإنسان بشكل واع لابد من وجود صيغة أولية بين المخاطب والمتكلم، أي أن وعي الشخص الثالث فقط لا يكفي لكي يعمل الإنسان بشكل واع، بل يجب أن يكون هناك بالإضافة إلى وعي الشخص الثالث وعي الشخص الثاني ''المخاطب'' ووعي الشخص الأول ''المتكلم''.

٣– إن عدم التناقض ليس من صفات المادة الثنائية القائمة على المتناقضات بل هي صفة لوجود موضوعي آخر غير الوجود المادي المعروف من قبلنا وهو الوجود المشيأ ''الأشياء''. وذلك الوجود الآخر هو وجود أحادي منزه عن صراع المتناقضات الداخلية في ذاته {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وهو الله سبحانه لذا قال {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}.

– الرحمن والشيطان في الفكر

عند الربط الذهني بين الشيء واسمه من قبل الفؤاد، يبرز شيء هام هو الصراع بين الرحمن والشيطان كنقيضين، فالرحمن اسم الله الذي يمثل قوانين الربوبية لهذا الكون المادي، والذي يعطي الصور الحقيقية للأشياء. فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف ظهر مفهوم الوهم عند الإنسان ومفهوم الخطأ؟ فالفؤاد الرحماني هو الذي يثبت الصورة الحقيقية للأشياء مع مسمياتها والفؤاد الشيطاني ''الفعلاني'' هو الذي يعطي صورة وهمية للمسميات. ولولا هذه العلاقة الجدلية بين المتناقضات في الفكر الإنساني لما كان هناك شيء اسمه وهم ومثالية ولما كان هناك تخيل.

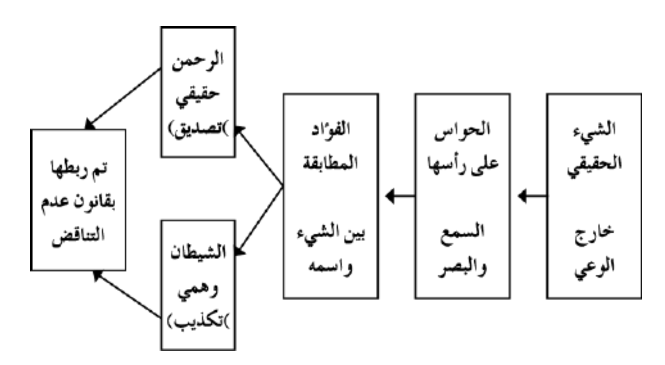
هذا هو جدل الفكر الإنساني كظاهرة، لأنّ الطبيعة تقوم على القانون الأول للجدل وهو صراع المتناقضات في الشيء، والقانون الثاني التأثير والتأثر المتبادل بين شيئين مختلفين في مستويات مختلفة. أما جدل ظواهر الطبيعة فيقوم على الأضداد، كالليل والنهار اللذين يتألف منهما اليوم، والشهيق والزفير اللذين يتألف منهما التنفس. وقل مثل ذلك في الإدراك الإنساني القائم على صراع المتناقضات الحقيقية والوهم المربوط بقانون عدم التناقض. هذه العلاقة الجدلية بين المتناقضات جاءت في مصطلح الرحمن والشيطان الفعلاني {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} (مريم ٤٤).

وقد قلت إن الشيطان الفعلاني هو أحد أطراف العملية الجدلية في الفكر الإنساني وهو الطرف الوهمي المثالي. أما الرحمن فهو الطرف المادي الحقيقي.

والسؤال الآن: هل الوهم من نتاج المادة التي لها وجود حقيقي؟

لا يوجد خارج الفكر الإنساني شيء اسمه أوهام، فالأوهام فقط في الفكر الإنساني. هكذا نفهم قوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل ٩٨) والقراءة هنا تعني التعلم والفهم، ولاتعني التلاوة، فالشيطان يحول فهم آيات القرآن من فهم مادي رحماني إلى فهم وهمي مثالي شيطاني وفي هذا المجال نجح الشيطان نجاحاً باهراً مع المسلمين وغيرهم. ونفهم أنه لا يوجد إنسان في العالم إلا وله شيطانه الخاص لأن أي موقف مثالي أو خطأ مهما كان نوعه هو موقف شيطاني.

هنا يجب أن نضيف إلى المخطط مفهوم الرحمن والشيطان اللذين يمثلان جدل النقيضين بين الحقيقة والوهم في الفكر الإنساني.



ثالثاً: كيف عبر القرآن عن مراحل نشأة الكلام الإنساني ونفخة الروح

قلنا إنه لا يمكن أن يكون هناك تفكير إنساني بدون نمط لغوي، لذا فقد ارتبطت نشأة الفكر بنشأة الكلام الإنساني ارتباطاً لا انفصام فيه. وقد عبر القرآن عن مراحل نشأة الفكر ونفخة الروح بنشأة الكلام الإنساني كالتالي:

ـ المرحلة الأولى

مرحلة تقليد أصوات الحيوانات والطبيعة وهي التي عبر عنها بقوله: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة ٣١).

هنا نرى أنّ قوله ''علم'' جاءت بمعنى التعليم وهو التمييز والتقليم، وهنا يجب أن لا نفهم أن التعليم وحي ''إلهام'' لأن الوحي يحتاج إلى لغة مجردة، ويجب أن لا نفهم أن الله جلس مع آدم وعلمه كما نعلم الأطفال، بل يجب أن نفهمها فهماً مادياً رحمانياً، أي أنه أصبح يميز بواسطة الحواس ''السمع والبصر'' ويقلد بواسطة الصوت ''السمع''. وأما قوله ''آدم'' فهو اسم جنس جاء للدلالة على أن البشر أصبح متكيفاً متلائماً بوجود جهازه الصوتي وبانتصابه على قدميه جاهزاً لعملية الأنسنة. وأما قوله ''الأسماء'' فهي من فعل وسم وهي السمات المميزة للأشياء المشخصة، والسمات الأساسية المميزة للأشياء المشخصة هي الصوت والصورة. فبدأ بملاحظة الأشياء التي تصدر صوتاً وتتحرك ''الحيوانات'' قبل ملاحظة التي تصدر صوتاً دون أن تتحرك ''الأشجار'' لذا قال {كُلَّهَا} أي السمات الصوتية المميزة لكل الأشياء المشخصة الموجودة حوله. أما قوله {ثُمَّ عَرَضَهُمْ}. فللدلالة على أن السمات هي للمشخصات حصراً لأن عرضهم تعود على المسميات لا على الأسماء وهل يعرض إلا المشخص. هنا يجب أن نصحح أمرين اثنين:

١- ''الأسماء'' هي السمات، وليس كما يقول البعض بأن الله علم آدم أسماء الأشياء كلها بالمعنى اللغوي قراءة وكتابة، إذ لو عنى سبحانه هذا لقال ''علم آدم الألسن كلها'' الأمر الذي تنفيه وقائع التاريخ، حيث بدأ استعمال الألسن في شكلها البسيط من نوح، ولهذا قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ..} (ابراهيم ٤).

٢- يجب أن نفهم من عبارة {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ} أن آدم ''الجنس'' كان في الأرض، ولم يعلم ماذا قالت الملائكة، ولاعلاقة له بهذا الحديث، وفي هذا المجال قال تعالى {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (ص ٦٧-٦٩) وقد قلنا إنّ العلم لا يكون إلا بالقلم للإنسان وغير الإنسان لذا فإن ما علمه آدم لم يدخل في علم الملائكة لأن الملائكة لها قلمها الخاص ''تمييزاتها الخاصة'' بدليل قولهم {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (البقرة ٣٢). هذه المرحلة هي مرحلة التقليد والمحاكاة، أي مرحلة آدم الأول وفيها ظهر وعي الشخص الثالث، وهي مرحلة ما قبل الكلام الإنساني، وهي التمهيد الضروري للمرحلة التي تليها، مرحلة بداية الكلام الإنساني القائم على التقطيع بفعل الأمر ''أي مرحلة آدم الثاني''.

- المرحلة الثانية ''مرحلة آدم الثاني''

هي مرحلة فعل الأمر التي جاءت في قوله تعالى {قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} (البقرة ٣٣) والنبأ في عبارة {يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ} جاء من النبأة وهي الصوت ومنه سمى النبأ لأنه ينتقل من شخص لآخر كما ينتقل الصوت من مكان إلى آخر. وقوله {بِأَسْمَائِهِمْ} يعني أن واسطة النبأ هي التمييز الصوتي لذا استعمل ''الباء'' حرف الجر والواسطة، أي أن النبأ ''الصوت'' هو واسطة الدلالة على الاسم فربط بين الصوت والاسم، وبالتالي بين الشيء وسمته الصوتية.

في هذه المرحلة ظهر التقطيع الصوتي بواسطة فعل الأمر فمثلاً ''لفظة الطلب'' للشخص الثاني بواسطة التقطيع الإرادي:

تكرار خَرْ خَرْ فعل الأمر خَرْخِرْ

تكرار زَقْ زَقْ فعل الأمر زَقْ زِقْ

في هاتين المرحلتين نرى مرحلة الإدراك الفؤادي، وهي مرحلة ربط الشيء المشخص وصورته عن طريق حاستي السمع والبصر مع اسم الشيء. نلاحظ في هذه المرحلة قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (البقرة ٣٤).

لنقارن تسلسل الآيات (٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤) من سورة البقرة مع تسلسل مراحل الخلق المشار إليها في قوله تعالى {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (ص ٧١– ٧٤).

نلاحظ في الآية ٣٠ من سورة البقرة قوله تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} للدلالة على استكمال التسوية وفي الآية ٣٤ أمر الملائكة بالسجود، ومنه يتبين أن الآيات (٣١، ٣٢، ٣٣) كانت للتعبير عن بداية نفخة الروح ''بداية الأنسنة''.

في هذه المرحلة بدأ البشر يصبح إنساناً بظهور الشيطان الفعلاني، ولكنه كان غير قادر على العمل الواعي، لذا قال له تعالى {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} وقد شرحت في موضع سابق أن جنة آدم عبارة عن غابات استوائية ذات أشجار مثمرة متوفر فيها الطعام والماء والظل. كانت هذه الفترة لتعميم فعل الأمر والتقطيع الصوتي على الأصوات المخزونة لديه من المرحلة الأولى. لذا قال {وَلَا تَقْرَبَا} ''صيغة الطلب''. وكان هذا الطلب أول ظاهرة من ظواهر التشريع البدائي. هنا يجب أن نفهم أن الشجرة ذات معنى رمزي فقط، حيث جاءت صيغة التشريع البدائي متعلقة بمظاهر الطبيعة الشائعة والبارزة لدى الإنسان.

وقد مثل الشيطان الفعلاني الجانب الجدلي في العملية الفكرية، حيث دخل الوهم إلى الإنسان بأن هذه الشجرة فيها الخلود "الباطل" فلعب الشيطان بغريزة حب البقاء لدى الإنسان حتى أدخل الوهم إلى الفكر الإنساني. في هذه الحالة التي أخذت فترة من الزمن أصبح الإنسان جاهزاً للعمل الواعي فانتقل نقلة نوعية أشار إليها تعالى بقوله {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (البقرة ٣٦).

هذه النقلة هي نقلة {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} (طه ١١٧) التي تمثلت بعبارة {اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} حين كانت الحياة الاجتماعية والتشريعية لم تبدأ بعد. وبقوله {فَتَشْقَى} بدأت ظاهرة العمل والتواصل بين اثنين مع البقاء على استعمال الأصوات المقطعة المكتسبة من تقليد أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، لذا اعتبرها القرآن فترة انتقالية مؤقتة أشار إليها قوله تعالى {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}.

ـ مرحلة آدم الثالث

تعتبرهذه المرحلة قفزة هائلة في نفخة الروح، كقفزة قانون ربط النقيضين بعدم التناقض، هي قفزة التجريد، حيث يقوم الإدراك الفؤادي بربط الأسماء بالأشياء كلٍ على حده ربطاً قائماً على الحواس وعلى رأسها حاستي السمع والبصر. انتقل الإنسان بعدها إلى مرحلة أخرى من مراحل تطور اللغة هي مرحلة التجريد، أي الانتقال من العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول القائمة على الحواس "السمع والبصر" إلى علاقة اصطلاحية قائمة على الاسم والشيء فقط ما يسمى بالتجريد. وبما أن الطبيعة المعروفة كلها قائمة على المشخصات فكان الإنسان بحاجة إلى قفزة نوعية للانتقال من المشخص إلى المجرد.

وبما أننا ننطلق من النظرة الرحمانية (المادية) في المعرفة الإنسانية أي أن المعلومات تأتي من الخارج القائم على قوله تعالى {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل ٧٨).

فالسؤال الذي يطرح نفسه كيف بدأ التجريد عند الإنسان لأول مرة علماً أن الطبيعة خالية من التجريد أي أنه لم يأت تقليداً لظاهرة ما في الطبيعة؟

هنا جاءت مرحلة آدم الثالث لتغطي هذه القفزة في قوله تعالى {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (البقرة ٣٧). لقد جاءت قفزة التجريد من الله مباشرة أي أن آدم سمع أصواتاً

مجردة لها معنى التوبة، والتوبة من المفاهيم المجردة وليست من المشخصات، أي أنه سمع فعل أمر من صوتين أو ثلاثة أصوات مقطعة كقوله تب فتاب عليه، وهنا بدأ التجريد. وقد أعطى التنزيل الحكيم مثالاً رائعاً على التجريد والعلاقة الاصطلاحية بين الصوت والمدلول في قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} (البقرة ٥٨) لاحظ العلاقة الاصطلاحية بين لفظة "حطة" وبين نغفر لكم خطاياكم أي: حطة تعني المغفرة "علاقة اصطلاحية بصيغة الطلب" وقارنها بقوله تعالى {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ..} والكلمات كما قلنا من الناحية اللسانية تعني مجموعة الأصوات المقطعة، أي تلقى مجموعة من الأصوات المقطعة بصيغة الطلب تعني التوبة بعلاقة اصطلاحية غير طبيعية. وعليه فليس بالغريب أبداً أن نرى أن أول كلمة بدأ بها الوحي للنبي (ص) هي صيغة الطلب بفعل الأمر "اقرأ". بعد هذه القفزة الربانية الهائلة أي قفزة التجريد بدأ القانون الثاني للجدل يعمل مع القانون الأول.

فالقانون الأول للجدل يعمل على ربط النقيضين بعدم التناقض. أما القانون الثاني فبدأ منذ التجريد يعمل بربط الأشياء بعضها مع بعض عن طريق أسمائها المجردة كقولنا "القط جميل". وهذا هو ربط أسماء الأشياء والمفاهيم بعضها ببعض "تأثير وتأثر متبادل قانون الزوجية" برباط يسمى الرباط المنطقي "المسند والمسند إليه"، وببداية الفكر المجرد بدأت العلاقات المنطقية بين أسماء الأشياء والمفاهيم، وباكتمال التجريد الذي بدأ بعبارة {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} أخذ وقتاً طويلاً، اكتمل الرباط المنطقي للغة بظاهرتي الصرف والنحو، فظاهرة الصرف تعني إعطاء أسماء جديدة للأشياء، أي عندما يكتشف الإنسان جديداً غير معروف سابقاً فإن أول شيء يفعله دون شك هو أن يضع له اسماً "مصطلح" وفي الوقت الحاضر تستعمل قواعد الصرف "الاشتقاق" في اللسان الواحد أو يستعار من لسان آخر. وفي ظاهرة النحو تظهر بشكل جلي العلاقة المنطقية بين البنية اللفظية النحوية وبين مدلولاتها.

ثم ظهر القانون الثالث وهو قانون الأضداد في الظواهر "صفات الأشياء والمفاهيم" وظهر بعده مفهوم العقل، وهو الربط المجرد بين المقدمات والنتائج بقانون عدم التناقض الذي ربط بين الرحمن والشيطان وبه يستنتج الإنسان المجهول من معلوم، وهو القانون الأساسي للتفكير المنطقي المجرد عند الإنسان فإذا كانت النتائج وهمية فهي شيطانية، وإذا كانت حقيقية فهي رحمانية وفي كلتا الحالتين يعمل قانون عدم التناقض.

يبقى علينا أن نؤكد الحقائق التالية في أذهاننا:

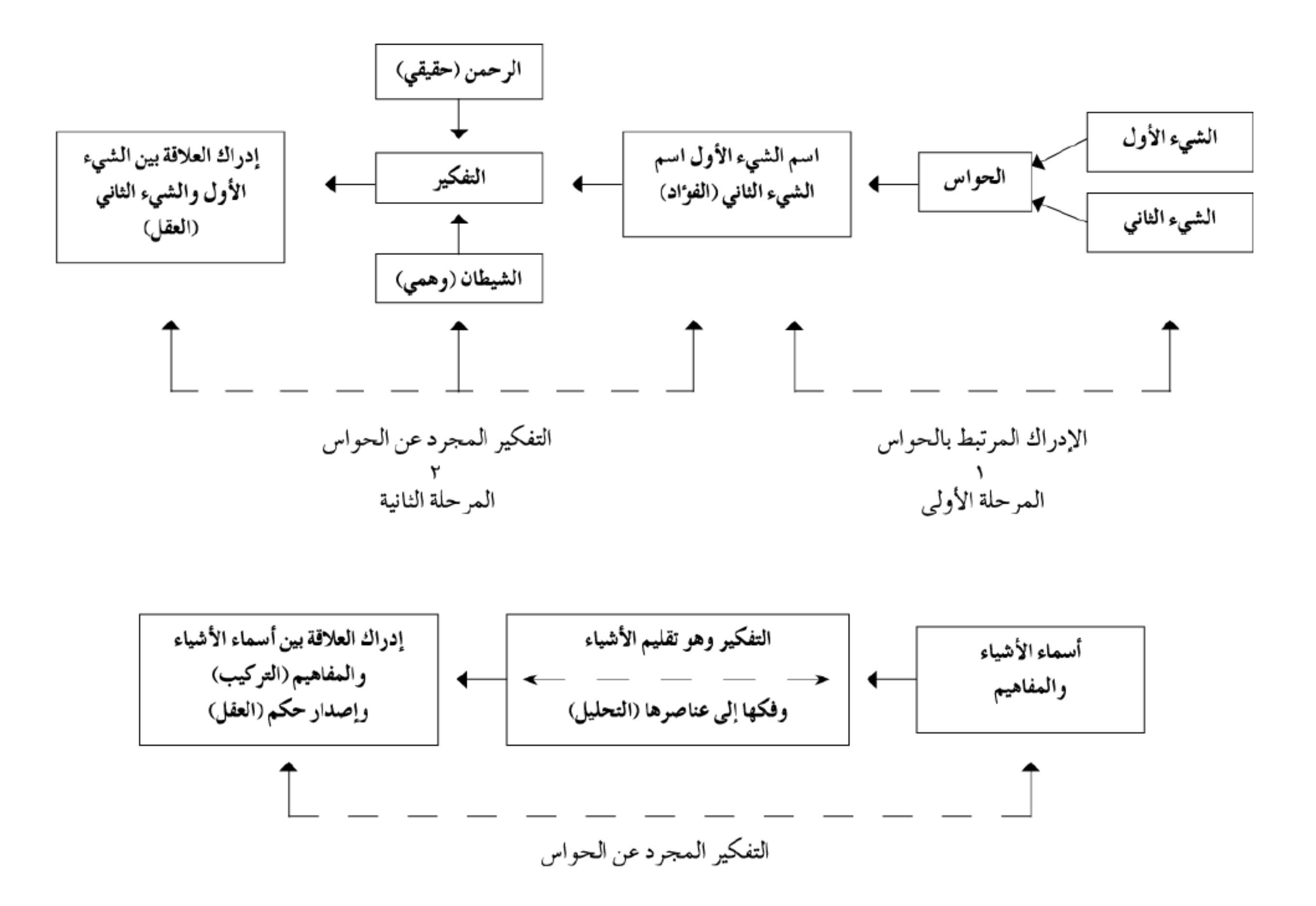
١– إن القانون المنطقي موجود عند كل الناس العاقلين على حد سواء، لأنهم يمتلكون لساناً، ولكن مستويات استعمال هذا القانون تختلف من إنسان لآخر، وهذا القانون يعمل سواء أكانت المقدمات حقيقية "رحمانية" أم وهمية "شيطانية" ولا يمكن أن نقول: إن العلماء عاقلون والدجالين مجانين لأن كلاهما عاقل، ولكن العالم يستعمل المقدمات الرحمانية، والدجال يستعمل المقدمات الشيطانية وكلاهما يستعمل قانون عدم التناقض.

٢– إن القانون المنطقي، الذي هو ربط مجرد بين أسماء الأشياء بعضها ببعض لاستنتاج المجهول من معلوم مع مبدأ عدم التناقض، هو الذي نسميه المنطق الصوري.

٣– إن قانون الربط بين النقيضين بقانون عدم التناقض والربط المنطقي بين المقدمات والنتائج القائم على عدم التناقض هو القانون الذي لا يخضع للتطور أبداً، وهنا تكمن نفخة الروح حيث أن التطور جاء منهما. وهذا القانون لم يتولد من علاقة إنتاجية أو طبقية أو اقتصادية، بل به تميز الإنسان كجنس وقفز من المملكة الحيوانية، وهو الحلقة المفقودة عند داروين.

هنا لا بدّ، لإزالة الالتباس الحاصل من طرح اسمين للمنطق: الأول المنطق الصوري. والثاني: المنطق الجدلي، من التنويه بأن هذا خطأ فادح إذ لا يوجد منطق جدلي، بل يوجد قوانين الجدل. أما المنطق فهو قانون التفكير الإنساني المجرد والقائم على عدم التناقض.

يمكن أن نضع الآن المخطط الثاني للمرحلة الثانية مرحلة التفكير المجرد الذي ينتهي بالعقل:



ـ مرحلة الهبوط الثاني

بعد أن تلقى آدم الثالث القفزة الأساسية وهي بداية التجريد حصل الهبوط الثاني، وهو الانتقال إلى مرحلة اكتمال التجريد واكتمال العلاقة المنطقية. في هذه المرحلة بدأ الإنسان باكتساب المعارف وبدأت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية في أشكالها البدائية. لذا قال تعالى {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة ٣٨).

لاحظ الفرق بين التعقيب على الهبوط الأول بقوله تعالى {.. وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (البقرة ٣٦) وبين التعقيب على الهبوط الثاني بعبارة {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} التي جاءت للمستقبل، حيث أرسل الله بعد ذلك رسلاً للهدى بواسطة الوحي. وهل يمكن أن يكون هناك وحي من الله لإنسان دون أن يملك هذا الإنسان لغة مجردة يوحي له بها.

ـ الاصطفاء

{إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} (آل عمران ٣٣).

لقد حصل الاصطفاء في مرحلة آدم الثالث، أي أن الذي تلقى التجريد والعلاقة الاصطلاحية شخص واحد عن طريق السمع ثم علمها هذا الشخص للآخرين.

لذا جاء الهبوط "الانتقال" بصيغة الجمع في عبارة {اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا} أي هو ومن كان معه ممن علمهم تعليماً. وهذا يؤكد قوله تعالى {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} (طه ١٢٣).

هنا لاحظ التعليق على قوله "جميعاً" بعد "اهبطا منها" فقد حصل الأمر لمثنى والتنفيذ لجمع، لأنه لو حصل الهبوط لاثنين فقط فإن كلمة جميعاً تصبح لا معنى لها، ولو كان الخطاب موجهاً إلى جزء من كل لقال "أجمعون" كما في قوله تعالى {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} (الحجر ٣٠) أي أن السجود ليس من كل الملائكة وإنما حصل من الذين وجه إليهم القول، ولو قال "فسجد الملائكة جميعاً" لعنى بذلك جنس الملائكة كلهم. فقولك "جاء الناس كلهم أجمعون" يعني جاء الناس الذين وجهت إليهم الدعوة فقط. ولو قلت "جاء الناس كلهم جميعاً" لكان معنى ذلك مجيء الناس دون استثناء. وهنا قوله جميعا هي للكل، لذا أتبعها بقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى}. وهذا ما نراه حتى يومنا الحاضر عند كل أهل الأرض هو أن العلاقة الاصطلاحية بين الصوت والمدلول "الاسم والمسمى" لا تأتي إلا تعليماً، أي أن الشخص الذي يعرف العلاقة الاصطلاحية يعلمها للشخص الذي لا يعرفها. وهذا ما يحصل عند تعليم الأطفال الكلام من قبل الوالدين والمجتمع، فالطفل يمكنه أن يقلد صوت الهرة أو الكلب دون أن يعلمه أحد، ولكن لا يمكنه أن يعلم لوحده كلمة الهرة أو الكلب.

ولو ولد إنسان وعاش لوحده في غابة فإنه يستطيع أن يمر بمراحل آدم الأول والثاني، ولكنه لا يستطيع بلوغ مرحلة التجريد التي تمكنه من إقامة علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول كما حصل عند آدم الثالث إلا إذا علمه إياها أحد. وهنا يكمن الاصطفاء لآدم الثالث الذي هو أبو الإنسان وأبو الوجود التاريخي وليس أبا البشر. وعندما نقول عن أنفسنا إننا بنو آدم، فهذا لا يعني أننا أبناؤه بشكل فيزيولوجي مباشر، ولكنه يعني أولاً أننا من الجنس الآدمي المتكيف المتلائم، ويعني ثانياً أن آدم المصطفى والدنا، ونحن أبناؤه من حيث الأنسنة، ففي اللسان العربي نقول إن فلاناً ابن المدينة أي ولد في المدينة وأخذ طباعها. ونقول إن فلاناً ابن أبيه ونعني بذلك أن أباه علمه وأعطاه من طباعه فكان نسخة عنه. أما نوح وآل إبراهيم وآل عمران فهم من أبناء آدم المصطفى من صلبه لقوله تعالى {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (آل عمران ٣٣، ٣٤).

لذا فإن الإنسان الذي تعلم التجريد ومشى فيه استمر إلى يومنا هذا، والذي لم يجرد وبقي على العلاقة الطبيعية فقد انقرض، وهذا ما يسمى بالإنسان الحديث الذي اكتمل عنده حد أدنى من العلاقات المجردة وأصبح له لغة ولو في أدنى مستوى تجريدي.

– إبليس

لقد شرحنا سابقاً مفهوم الشيطان وقلنا إن هناك نوعين من الشيطان: الشيطان الفعلاني من ''شاط، شيط'' وهو أحد أطراف العملية في جدل الأضداد في الفكر الإنساني، والشيطان الفيعالي من ''شطن'' وهو وجود مادي خارج الوعي.

أما إبليس فقد جاء من أصل ''ب ل س'' وتعني في اللسان العربي اليأس والقنوط كما في قوله تعالى {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} (الأنعام ٤٤).

وهنا يجب أن نميّز بين الملائكة وإبليس. فإبليس كان من الجن وهي مخلوقات عاقلة مكلفة وجدت قبل الإنسان عندما كانت الأرض ما زالت ملتهبة قبل أن تبرد طبقاً لقوله تعالى {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} (الرحمن ١٥). وقوله {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} (الحجر ٢٧). والجان لهم بنية مادية تختلف عن البنية المادية للإنسان بحيث تأخذ هذه البنية أشكالاً مختلفة، ويمكن أن تكون هذه البنية موجية كما في قوله تعالى {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} (الجن ٨، ٩).

هذا الكلام لا ينطبق إلا على مخلوقات ذات بنية موجية. ومنه نفهم أن إبليس ليس له علاقة بالملائكة لا من قريب ولا من بعيد – كما زعم بعضهم – وإنما وجد على الأرض قبل آدم.

ثم قال الله للملائكة أن يسجدوا لآدم، ونحن نعلم أن {قَوْلُهُ الْحَقُّ} فإذا تفحصنا الآيات حول هذا الموضوع رأيناها كما يلي:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} (الأعراف ١١) لاحظ كيف يوضح بشكل قاطع أن الله قال للملائكة قولاً وأمر إبليس أمراً بآية منفصلة تالية يقول فيها تعالى {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (الأعراف ١٢). ثم لاحظ أن إبليس ليس له علاقة بالملائكة ولم يخرج من الأرض كآدم، ومع ذلك قال له كقوله لآدم {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} (الأعراف ١٣).

ولكي يؤكد أن إبليس عصى الأمر ولم يخالف القول قال {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} (الكهف ٥٠).

أما قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} (طه ١١٦، ١١٧) فاسم الإشارة في عبارة (إن هذا) للدلالة على أن إبليس هو أحد الشياطين الفيعالية وله وجود مادي خارج الوعي. وهذا يوجب علينا أن نميز بين مهمة الشيطان الفعلاني في تحويل الحقيقة إلى وهم التي أشار إليها بعبارة {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ} وبين مهمة إبليس "الشيطان الفيعالي" في مخالفة الأمر لذا قال عنه {.. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} (الأعراف ٢٧) لاحظ كيف جاءت "الشياطين" بصيغة الجمع. وبما أن أوامر الله ونواهيه بدأت من عهد آدم بأبسط الأمور {لَا تَقْرَبَا} وأن أهم أوامر رب العالمين بدأت بموسى وانتهت بمحمد (ص) وهي الصراط المستقيم، إذ الوصايا والحدود جزئياً أو كلياً لم تكن قد جاءت بعد قال {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} (الأعراف ١٤– ١٧).

هنا نلاحظ قوله {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} والصراط المستقيم بدأ بالتوحيد {لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} وانتهى بالوصايا العشر والحدود لذا قال: {أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} ولكي يبين أن الشيطان الفيعالي هو وجود خارج الوعي الإنساني قال {ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ..} (الأعراف ١٧).

من هنا نفهم أن مهمة الشيطان الفعلاني هي تحويل الحقيقة إلى وهم في الفكر، وزرع الفكر بالأوهام "المثالية"، وهي مهمة معرفية بحتة ليس لها علاقة بالحلال والحرام. أما مهمة "إبليس" الشيطان الفيعالي فهي خارج الوعي الإنساني، وهي خلق ظروف موضوعية لحض الناس على مخالفة الصراط المستقيم الذي له علاقة بالحلال والحرام فقط "الأخلاق والحدود".

أما قوله تعالى {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} (الأعراف ٢٢)، نجد أن الآية تصف التصرف الطفولي البدائي للإنسان عندما يشعر أنه اقترف ذنباً، إذ نرى الأطفال الآن عندما يقترفون ذنباً يحاولون بإدراكهم الطفولي الاختباء والاختفاء عن الأعين، أي أن عبارة {بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا} لا تعني ظهرت لهما الأعضاء التناسلية، ولكن بدا لهما أن هذا

العمل سيء ومنها جاءت السيئة والسيئات، وهنا بيَّن مرحلة بدائية من مراحل وجود الضمير الذي يؤنب الإنسان، والتصرف البدائي الطفولي لردة فعل الضمير الإنساني الذي بدأ بالتشكل.

علماً بأن جنس آدم عند نفخة الروح كان عارياً لا يعرف الملابس وكان يعيش في منطقة ذات مناخ حار بدلالة قوله تعالى {لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} (طه ١١٩).

رابعاً: مرحلة الإنسان القديم من آدم إلى نوح

لقد بدأ القصص بعد آدم بنوح مباشرة، ولم يغط الفترة الطويلة بين آدم ونوح التي استمرت فيها عملية الأنسنة. حيث أن البشر الذين تعلموا التجريد من آدم المصطفى كانوا موجودين في كل منطقة. وقد قلنا إن البشر انتشروا قبل الأنسنة في أكثر من منطقة، أي أن آدم المصطفى كان أكثر من واحد في أكثر من منطقة، وإن فئة البشر التي لم تتعلم التجريد منه انقرضت، وهذا ما يسمى بالإنسان القديم الذي انقرض لأنه لم تتم عنده عملية الأنسنة بالتجريد. أي أن الإنسان القديم هو الإنسان الذي بقيت عنده العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول دون قفزة إلى العلاقة الاصطلاحية. لقد بدأ القصص القرآني بنوح، لأن نوحاً يمثل بداية التاريخ الإنساني الحديث في منطقة الشرق الأوسط على الأقل. ومرحلة نوح تمثل اكتمال لغة مجردة بأبسط أشكالها سهلت نزول الوحي الإلهي للجنس البشري، لأنه لا يمكن أن يكون هناك وحي بدون لغة تقوم على علاقات مجردة. هذا الوحي بدأ بنوح بأبسط صورة مجردة وانتهى بمحمد (ص) فأصبح القرآن قمة التجريد اللغوي عندما وصل اللسان العربي إلى طور "اللسان العربي المبين" واعتبرت لغة القرآن قمة العلاقات المنطقية المجردة. ولكن ماذا يخبرنا القرآن عن الفترة الواقعة بين آدم ونوح.

لقد اعتمد التعليم بعد آدم على المشخص، ذلك بأن الله أرسل من الملائكة رسلاً ترى بالعين وتسمع بالأذن، لذا عندما بعث نوحاً قال له قومه {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون ٢٤).

إذا تأملنا في هذه الآية نرى ما يلي:

أ– الاستغراب من أن بشراً جاءه وحي من الله ليدعي بذلك الزعامة على قومه، بعد أن تعودوا على أن اتصال الله بالبشر لا يكون إلا عن طريق الملائكة لذا قالوا {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} لاحظ صيغة الإنزال في عبارة {لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} أي أن الملائكة التي بعثها لتتصل بالناس مشخصة وترى

بالحواس ''قابلة للإدراك''. أما عندما ينزل الله الملائكة ولاترى بالحواس فهو يستعمل صيغة التنزيل كما في قوله تعالى {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} (القدر ٤).

ولكي يؤكد أن هذه أول مرة يأتي بها الوحي إلى جنس البشر عندهم قالوا {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}.

ب– لقد أكد لهم نوح من طرفه ما يلي: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} (هود ٣١).

ج– لقد أكد أن اللغة التي يتكلم بها نوح وقومه هي لغة مجردة مقطعة إلى مقاطع صوتية متميزة وذلك ليبين أن الإنسان أصبح جاهزاً للوحي وذلك في قوله تعالى {حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الشورى ١– ٣).

هنا نلاحظ أن ''حم'' عبارة عن مقطعين صوتيين متميزين، وأن ''عسق'' عبارة عن ثلاثة مقاطع صوتية مقطعة متميزة. ثم اتبع هاتين الآيتين بقوله ''كذلك'' وكذلك في اللسان العربي تستعمل في خبر غير ابتدائي للتعليق على خبر ابتدائي والخبر الابتدائي هو {حم – عسق} الذي شرحه بقوله {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} هنا وضع المفعول به قبل الفاعل لأهمية الخبر، والخبر هو أنه عندما وجد المقطعان الصوتيان المتميزان والثلاثة مقاطع الصوتية المتميزة بدأ الوحي، وعلى غرار هذا كان الوحي للنبي (ص) وللذين من قبله لذا أضاف إليها قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا..} (الشورى ٧).

ولكي يبين أن نوحاً هو أول من أوحي إليه من البشر قاطبة، وأن به بدأ تاريخ الإنسان الحديث في الشرق الأوسط على الأقل قال تعالى {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ..} (النساء ١٦٣).

فماهي الأشياء التي جاءت للإنسان في الفترة بين آدم المصطفى ونوح؟ أي في فترة الانتقال من العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول إلى العلاقة الاصطلاحية؟

ممارسة الإنسان لدفن الموتى عن طريق التعليم المشخص المباشر ''التقليد'' حيث أكد الكتاب بأن الإنسان تعلم دفن الموتى تعليماً ''فؤادياً'' مرتبطاً بحاستي السمع والبصر بدليل قوله تعالى {فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} (المائدة ٣١). لقد ذكر هذه الحادثة ليؤكد أن الإنسان كان لا يعرف دفن الموتى، وقبل ذلك كان يتركهم في العراء كالبهائم، وهذا يؤكد مرة أخرى قوله تعالى

{وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} بأن الأسماء لا تعني الألسن واللغات، لأن الإنسان لا يمكن أن يكون عنده دلالات دون أن يكون لها مدلولات في ذهنه. فكيف يمكن أن يتعلم آدم فعل "دفن" مثلاً باللسان العربي وهذا الفعل ليس له مدلول في ذهنه. لذا فتفسير {الْأَسْمَاءَ} بأنها أسماء الأشياء كلها جاءته إلهاماً لا ندري بأية لغة، هل هي بالعربية أو الإنجليزية هو تفسير خاطئ.

وقد أكد سبحانه أن هذه الحادثة حصلت بعد آدم بقوله تعالى {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ..} (المائدة ٢٦) هنا يجب أن نفهم أن ابني آدم لا تعني ابني آدم المباشرين من صلبه، ولكنها تعني ما نعنيه بقولنا: نحن أبناء آدم، أي نحن أبناؤه بالأنسنة وليس بالبشرية. وبقولنا عن الذي تخرج من جامعة دمشق إنه "ابن جامعة دمشق".

هكذا نرى أن الإنسان تعلم في هذه الفترة تعليماً مشخصاً فقط وذلك عن طريقين: أولهما عن طريق الملائكة المشخصة "الإنزال" والثاني عن طريق التقليد.

أما الملائكة فكانت مشخصة يراها الإنسان ويسمعها وقد سماها سبحانه النذر في قوله تعالى {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} (فاطر ٢٤) لقد أرسل الله هذه النذر إلى كل التجمعات التي بدأت بالأنسنة في كل أنحاء الأرض، لتعطيهم فكرة أولية عن الله والتوحيد بأبسط صورة البدائية وعن التقرب والعبادة لله بأبسط الصور البدائية المشخصة، وهي تقديم القرابين لله. لذا لا نرى تجمعاً إنسانياً مهما كان بدائياً إلا ولديه فكرة ما عن الله، ولديه مفهوم ما للتضحية تقرباً من الله أولاً، التي تشوهت فيما بعد وأصبحت تقرباً من الآلهة.

هذا المفهوم في أبسط صوره بقي عندنا نحن المسلمين في الذبح في عيد الأضحى المبارك، وفي هذا قال تعالى {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (المائدة ٢٧).

هنا نلاحظ أن مفهوم التقوى لم يكن مجرداً، بل تجسد في تقبل الله للقربان تقبلاً مادياً محسوساً. ونلاحظ أيضاً نمو مفهوم الضمير الإنساني بالتقوى وظهور المفهوم الاجتماعي لرفض قتل النفس بقوله تعالى {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} (المائدة ٢٨).

علماً أن قتل النفس لم يحرمه الله سبحانه إلا في رسالة موسى، بدلالة قوله تعالى {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..} (المائدة ٣٢) أي أن الناس قبل موسى كانت تتصرف حسب أعرافها في عقوبة قتل النفس أو في الحالات التي تستحق قتل النفس.

هكذا نفهم قوله تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٠٥) فنوح إنسان واحد رسول، فلماذا قال {الْمُرْسَلِينَ} بالجمع؟ هنا نفهم أنه كان قبل نوح مرسلون من الملائكة فكذبوهم وكذبوا نوحاً معهم.

بهاتين الطريقتين: التعليم المشخص المباشر "التقليد"، أو إرسال ملائكة مشخصة تعلم الإنسان ما يلي بالإضافة إلى دفن الموتى والقرابين:

فعن طريق الملائكة المشخصة تعلم اللباس بأبسط صوره، لقوله تعالى بعد ذكر آدم الثالث والانتقال إلى مرحلة الأنسنة مباشرة {يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} (الأعراف ٢٦) هنا نلاحظ كيف ذكر اللباس مع الإنزال ولم يذكر التنزيل، أي أن الإنسان أدرك اللباس عن طريق التقليد ولو ذكر التنزيل مع اللباس لعنى بذلك أنه أرسل ملابس مخيطة من عنده، أي جاءت الملابس بعينها من عند الله وليس فكرة الملابس. أي أن الإنسان الحديث في بداياته كان يلبس شيئاً ما، شرحه سبحانه في سورة النحل "انظر فصل المفاهيم الجمالية في الباب الرابع".

وعن طريق التعليم المباشر "التقليد" اكتشف الإنسان النار واستعملها. لقد ذكر التنزيل الحكيم أن الإنسان عاش في مناطق لها غطاء نباتي "غابات" ونحن نعلم إلى يومنا هذا أن الغابات يمكن أن تشب فيها الحرائق الطبيعية دون تدخل من الإنسان، وقد تدوم هذه الحرائق مدة طويلة وتلتهم النار مساحات كبيرة. وتلفت نظر الإنسان إذا رآها بما تصدره من حرارة وضوء وبما تسببه من خوف وذعر له وللحيوانات التي تعيش معه. فمن تكرار ملاحظة الإنسان لهذه الحرائق، وكيف أنها تنتقل من فرع شجرة إلى فرع آخر، وكيف تسبب الخوف للحيوانات كلها وتصدر حرارة وتضيء في الليل. فعند ذلك أوقد النار لنفسه بدلالة قوله تعالى {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} (يس ٨٠).

هنا ذكر أن النار التي جعلت من الشجر الأخضر "الغابات" هي التي أوقد منها الإنسان بعد أن رآها مرات عديدة، لذا قال {فَإِذَا} وفي هذه المرحلة أيضاً كان إنسان نياندرتال حيث تدل الاكتشافات على أنه كان يوقد النار.

هنا يعطينا القرآن حقيقة تاريخية كبرى هي أن الإنسان أوقد النار من حرائق الغابات، وعندما أشعل الإنسان النار بواسطة الاحتكاك كان يعرف النار وفوائدها ومضارها وكان بحاجة إليها ومن الاحتكاك اكتشف كيف يشعلها بنفسه.

هذه النواحي التي أعطاها القرآن تعتبر قفزات نوعية هائلة في تقدم الإنسان نحو الأنسنة وابتعاده عن المملكة الحيوانية.

ففي ظاهرة دفن الموتى ظهر مفهوم اجتماعي، وذلك بقيام الإنسان بعمل يتعلق بغيره، وله فيه وللآخرين مصلحة.

وفي ظاهرة القرابين ظهر مفهوم التضحية والإيثار، وهو مفهوم التقوى بأبسط صوره الذي جاء فيما بعد بمفهوم العبادات والإيثار.

وفي ظاهرة الامتناع عن قتل النفس تعبير مباشر عن بداية ظهور الضمير الاجتماعي وظهور الأخلاق التي كانت الوصايا العشر "الفرقان" قمتها.

وفي ظاهرة إشعال النار قفز الإنسان قفزة معرفية كبرى مكنته من الدفاع عن النفس والرؤية في الليل وظهور ظاهرة أكل اللحم مشوياً. ونرى أن الفترة الزمنية الكبرى ابتداء من إشعال الإنسان النار بالاحتكاك "توليد الحرارة من قوة ميكانيكية" إلى توليد القوة الميكانيكية من الحرارة بالمحرك البخاري أخذت الآلاف من السنين.

ـ الإنسان الحديث

لقد قلنا إن الإنسان الحديث الذي بدأ بنوح كان يملك لغة مجردة في أبسط صورها سمحت بظاهرة الوحي، علماً بأنه كان هناك مرحلة انتقالية اشترك فيها الوحي المجرد مع الملائكة المشخصين. فعن مرحلة نوح قال تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٠٥) وعن مرحلة عادٍ قال {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٢٣) ولكن هناك ناحية هامة في مرحلة عاد هي أن الملائكة "النذر" جاءت قبل هود ومعه لذا قال {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الأحقاف ٢١).

هنا لاحظ عبارة "وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه" أي أن هداية هود كانت على أيدي النذر التي عاصرته "من بين يديه" حيث لم يأت قومه بالبينات المادية التي طالبوه بها طبقاً لقوله تعالى {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} (هود ٥٣). هنا نلاحظ طلب الناس للبينة، حيث يعلمنا الله أن لانتبع كلام أي شخص بدون بينات، وقد كانت بينة النبي (ص) هي القرآن "النبوة" الذي هو تصديق الذي بين يديه "الرسالة".

وكذلك قال في ثمود {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٤١)، وقال في لوط {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء ١٦٠) وقال {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} (هود ٧٧) ولإبراهيم أيضاً جاءت الملائكة المشخصة بالإضافة إلى الوحي في قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} (هود ٦٩). وانقطعت الملائكة المشخصة عند موسى حيث بعث الله معه أخاه هارون، وعند عيسى، وعند محمد (ص).

ولكن بينات موسى وعيسى كانت خارج النبوة والرسالة وكانت مادية مشخصة. أما بينة محمد (ص) فكانت نبوته (القرآن) وفيها قمة العلاقات المجردة أي أن المعقولات سبقت المحسوسات، وعند هذا المستوى انتهى عصر النبوات والرسالات لأن الإنسانية كانت قد بدأت تنضج وتتهيأ لإتمام مسيرة التطور والأنسنة لوحدها دون الحاجة إلى نبوات ورسالات، لذا فنحن نعيش عصر ما بعد الرسالات.

إن القصص في التنزيل الحكيم يعطينا تطور التشريعات في الرسالات والمعلومات في النبوات بالنسبة للإنسان الحديث ابتداء من نوح إلى محمد (ص)، وهنا يكمن سر القصص. أما من يقول إن القصص جاء لتسلية النبي (ص) فهذا نوع من العبث. ومن يقول عن قوله تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} بأن تكذيب نوح هو بمثابة تكذيب للرسل التي جاءت بعده فهذا عبث أيضاً، لأن الإنسان يمكن أن يكذب من معه ومن قبله ولكنه لا يكذب من هو بعده. فتكذيب قوم نوح له ولمن قبله لا يعني تكذيب محمد (ص) إذ ليس لهم أية علاقة بمحمد (ص) وإلا فإنهم شركاء لله في معرفة سياق التاريخ الذي هو غيب بالنسبة لهم[5].

5 – لمزيد من التفاصيل في آدم وإبليس، أنظر كتابنا **القصص القرآني – مقدمة آدم** الصادر عام ٢٠١٠ عن دار الساقي.

الفصل الثالث

نظرية المعرفة الإنسانية

تمهيد

قلنا إن العلاقات المجردة التي جاء التعبير عنها باللغة المجردة والرباط المنطقي القائم على عدم التناقض بالربط بين نقيضين هما الرحمن والشيطان هي نفخة الروح، وهي التي حولت البشر إلى إنسان وما زالت نفخة الروح تقوم بهذا العمل الجبار الذي أنجزته الإنسانية بفرعين رئيسيين وهما:

١– خط التشريع والعبادات والأخلاق، وهو العلاقات الاجتماعية والقانونية بين الناس والتعبدية بين الناس والله، وهي التي نقول عنها العلاقات المتحضرة "خط الرسالات".

٢– خط تقدم المعرفة الإنسانية بالموجودات وظواهر الطبيعة التي سمحت للإنسان بتسخير الطبيعة لمصلحته والسيطرة عليها "خط النبوات" "العلماء ورثة الأنبياء".

إننا سنطلق اصطلاحاً على الخط الأول العقل الاتصالي "الاجتماعي والأخلاقي والتعبدي"، وعلى الخط الثاني العقل العلمي.

وبما أن الكتاب كله يحتوي على النبوة "العقل العلمي" والرسالة "العقل الاتصالي" معاً فقد سماه روحاً {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشورى ٥٢). وسمي جبريل روحاً لأنه كان ينقل الأوامر "الرسالات" والمعلومات "النبوات".

وهنا يكمن جدل الإنسان في العقل العلمي "المعرفي" وفي العقل الاتصالي "الاجتماعي".

وجاء تعريف الروح بشكل قاطع بأنها أوامر رب العالمين في الرسالات والمعلومات الموحاة في النبوات بقوله تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء ٨٥). ولكي يبين أن الروح في هذه الآية هي مجمل الموحى من أوامر ونواهي ومعلومات إلى النبي (ص) أتبعها بقوله {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا} (الإسراء ٨٦).

قلنا إن جدل الإنسان يتجلى في ظاهرة الفكر غير الموجودة في بقية الأشياء التي نعرفها بدلالة قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} (الكهف ٥٤).

تبين هذه الآية أن قوانين الجدل من القرآن، وأن الأمثال المضروبة في الكتاب هي من القرآن ففي قوله {أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} استعمل كلمة "أكثر" للدلالة على الزيادة الكمية. أي أن الجدل الموجود في الأشياء موجود في الإنسان ولكن هناك جدلا في الإنسان غير موجود في الأشياء، هو جدل الفكر. ولو كان جدل الإنسان هو نفس جدل الأشياء ولكنه أوضح عند الإنسان لقال "وكان الإنسان أكبر شيء جدلا".

لقد شرحنا في قوانين الجدل القانون الأول للجدل في الشيء الواحد. والقانون الثاني العلاقة المتبادلة بين الأشياء المتميزة بعضها عن بعض "الأزواج". وهذه العلاقة موجودة في مستويات التأثير المتبادل وهي علاقة في غاية التعقيد، حيث أن العلاقة الزوجية بين شيئين مختلفين توجد في مستوى تأثير وليست في وحدة. هذان القانونان يعملان في الأشياء ومن ضمنها الإنسان كبشر وهما العمود الفقري لقوانين القدر.

ـ الأضداد

يختلف مفهوم الأضداد كثيراً عن مفهوم المتناقضات والأزواج. ففي الأشياء لا يوجد أضداد بل أزواج ومتناقضات، ولكن الأضداد موجودة في ظواهر الأشياء التي تدرس من قبل الإنسان. فالقانون الأول للجدل في الشيء الواحد وعيناه من خلال الموت والحياة. وكذلك الأرض والشمس هما من الأشياء. لكننا لا نقول عن الليل والنهار أنهما من الأشياء بل هما ظاهرة طبيعية تولدت عن دوران الأرض حول نفسها، وكذلك الصيف والشتاء هما ظاهرتان تولدتا عن دوران الأرض حول الشمس.

هذه الأضداد التي هي من ظواهر الأشياء هي الطريقة التي يستوعب بها الإنسان الأشياء، ولها وحدة تسمى وحدة الأضداد لأن الأضداد يلغي بعضها بعضاً، ولاتجتمع لكنها تتعاقب وتتناوب، ويوجد في تناوبها مرحلة انتقالية. فمثلا بين الليل والنهار يوجد الفجر، وبين النهار والليل يوجد الغسق.

فالأشياء في الطبيعة لا يلغي بعضها بعضاً، لكن الإلغاء "النفي والإثبات" يكمن في ظواهر هذه الأشياء. حيث نفهم هذا النفي والإثبات من خلال الحركة الميكانيكية والحرارية والعضوية..الخ، وهذا ما تدرسه العلوم.

وبما أن الفكر الإنساني ظاهرة وليس شيئاً، واللغة حال هذا الفكر ولاتنفصل عنه، فقد تم التعبير عن الفكر الإنساني في ظاهرة الأضداد، وقد ظهرت هذه الأضداد في اللغة كحامل للفكر لا ينفصم عنه. أي أننا يمكن أن نورد ما يلي:

١ـ القانون الأول للجدل "قانون صراع المتناقضات في الشيء الواحد" وقد أدى هذا القانون لتطور اللغات كمفردات جديدة وقوانين للصرف.

٢ـ القانون الثاني للجدل "قانون التأثير والتأثر المتبادل بين الشيئين" وقد أدى هذا القانون إلى العلاقات المنطقية بين الكلمات في تأليف الجمل وإخراج المعاني المختلفة، وتجسد في قوانين النحو.

٣ـ بما أن التعبير عن ظواهر الطبيعة جاء في الأضداد فجاءت الأضداد في التعابير اللغوية وفي معاني الكلمات أي التعبير عن الفكر، فقد جاءت المتناقضات في الفكر الإنساني المعرفي في مصطلحي الرحمن والشيطان "الحقيقة والوهم" وجاءت الأضداد في التعابير اللغوية "قيام، قعود" "شهيق، زفير" "حب، كراهية"، "فجور، تقوى"، "كفر، إيمان" "سالب، موجب" "كبير، صغير" "قليل، كثير" "يمين، يسار". ولذا وجب علينا تمييز النقيضين في الرحمن والشيطان، أي الحقيقة والوهم الملتبسين معاً، والمربوطين بقانون عدم التناقض وبين التعبير اللغوي عن ظاهرة ما وذلك في الأضداد، أي أن الرحمن هو الجانب الحقيقي والشيطان هو الجانب الوهمي في الضد الواحد، علماً بأن الحركة بين الأضداد هي حركة تناقضية. وتبدو ظاهرة الأضداد في بنية اللسان العربي واضحة بشكل جلي في الظاهرتين التاليتين:

أـ يوجد أفعال في اللسان العربي ذات تراكيب صوتية بحيث إذا انعكس التركيب الصوتي انعكس المعنى، أي أعطت المعنى المضاد تماماً:

ـ "كتب" تعني تجميع الأشياء بعضها إلى بعض ومنها جاء الكتاب والمكتب والكتابة.

ـ "بتك" تعني تفريق الشيء إلى قطع أو تفريق الأشياء بعضها عن بعض، كقوله تعالى {.. فَلَيُبَتِّكُنَّ آَذَانَ الْأَنْعَامِ..} (النساء ١١٩).

ـ "د ر" تعني الإعطاء كقوله {.. كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ..} (النور ٣٥) أي أنه شفاف يمرر الضوء.

ـ "رد" تعني رد الشيء.

ـ "فاض" عكسها في الصوت والمعنى "ضاف".

– ''نهر'' سمي النهر نهراً لأنه ينهر المياه ويمررها. عكسها في الصوت والمعنى ''رهن'' وتعني الحجز ومنه جاءت الرهينة.

– ''شرف'' تعني العلو ومنه جاءت الشرف والشرفة، عكسها في الصوت والمعنى ''فرش''.

– ''حبس'' تعني الحجر، عكسها في الصوت والمعنى ''سبح'' وتعني الحركة المستمرة.

– ''جب'' وتعني التجميع ومنه جاء معنى الجب وهو المكان الذي يجمع المياه، وعكسها في الصوت والمعنى ''بج'' فنقول بجت الأرض الماء أي طرحته.

– ''رخص'' تدل على الرخاوة، عكسها في المعنى والصوت ''صخر''.

– ''سرح'' تدل على الإطلاق، وعكسها في المعنى والصوت ''حرس''.

– ''حزم'' تدل على شدة في الأمر، وعكسها في المعنى والصوت ''مزح''.

– ''علق'' منها تعليق شيء بشيء آخر عكسها في الصوت والمعنى ''قلع''.

– ''قشع'' عكسها في الصوت والمعنى ''عشق''.

ب– يوجد في اللسان العربي أفعال، كل فعل منها يحمل الضدين، أي المعنى والمعنى المضاد في نفس الفعل. فأحيانا يأتي الفعل بالمعنى الأول وأحيانا يأتي بالمعنى المضاد تماما وأحيانا يأتي بالمعنيين معا، ومن هذه الأفعال:

– ظن: لها معنيان متضادان: المعنى الأول الشك كقوله تعالى {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا..} (يونس ٣٦). {.. إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ..} (الحجرات ١٢). وجاءت بالمعنى المضاد وهو اليقين في قوله تعالى {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} (البقرة ٤٦) وقوله {.. قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ} (البقرة ٢٤٩) وقوله {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} (الحاقة ١٩–٢١) وقوله {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا..} (الكهف ٥٣) وقوله {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} (القيامة ٢٤–٢٥) وقوله {فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} (الإسراء ١٠١).

– عبد: له معنيان متضادان: الأول الذل والخنوع، والثاني الأنفة والكبر. في المعنى الأول جاء قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} (الفاتحة٥) ومنها جاءت العباد والعبيد. وقوله {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ} (التوبة ١١٢) وقوله {لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} (الكافرون ٢) وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر ٦٠) وقوله {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} (هود ١٢٣) وقوله {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ} (الأنبياء ٥٣).

وجاء بمعنى التكبر والأنفة والاستعلاء في قوله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (الزخرف ٨١). وهذا يعني أن الله أخبر النبي (ص) بأن الرحمن لم يلد ولم يولد فإذا تبين أن له ولداً فإن النبي (ص) هو أول إنسان يكفر به ويستنكف عنه.

وجاء يحتمل المعنيين معاً في قوله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات ٥٦) هذه الآية خبرية. فالله خلق الجن والإنس أحراراً ولهم حرية الاختيار، فمنهم من يعبد بمفهوم التذلل والطاعة، ومنهم من يعبد بالمفهوم المضاد، أي يكفر ويتكبر. وهذه الآية تعطينا الغاية من خلق الإنسان وهي الحرية وتنسجم مع قوله تعالى {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..} (الكهف ٢٩).

– خفي: لها معنيان متضادان: الأول الستر والثاني الظهور. ففي المعنى الأول جاء قوله تعالى {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ..} (إبراهيم ٣٨) وقوله تعالى {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} (الحاقة ١٨) وقوله {.. وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ..} (الأحزاب ٣٧).

وبالمعنى الثاني أي الظهور والعلن جاء قوله تعالى {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} (طه ١٥) هنا "أخفيها" بمعنى أظهرها. وقوله تعالى {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} (طه ٧) هنا "أخفى" تعني العلن أي يعلم السر والعلن.

– تل: لها معنيان متضادان هما الارتفاع والانخفاض. ففي معنى الارتفاع جاءت كلمة التل وهو المكان المرتفع. وفي معنى الانخفاض جاءت في قوله تعالى {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} (الصافات ١٠٣) أي أخفضه على جبينه إلى الأرض ليذبحه.

– مولى: لها معنى السيد والعبد. فنقول الله مولانا "أي سيدنا" ونقول فلان مولى فلان "أي خادمه". وجاءت في المعنى الأول في قوله تعالى {وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي..} (مريم ٥).

– عدل: لها معنيان متضادان: العدل "المساواة" والظلم. فبمعنى العدل جاء قوله تعالى {.. وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ..} (الشورى ١٥) وقوله {.. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً..} (النساء ٣) وقوله تعالى {.. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى..} (الأنعام ١٥٢) وفي المعنى الثاني في قوله تعالى {.. أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} (النمل ٦٠).

– قسط: لها معنيان متضادان: الأول البر والإحسان، والثاني الجور والطغيان. ففي المعنى الأول جاء قوله تعالى {.. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (المائدة ٤٢) وقوله تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى..} (النساء ٣) وفي المعنى الثاني جاء قوله تعالى {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} (الجن ١٥).

ـ كيف استعمل الكتاب فعل "جدل" في المواقف الفكرية الإنسانية

بما أن جدل الإنسان قائم على جدل الأضداد في مظهره وشكله، وعلى جدل المتناقضات في جوهره ومحتواه، سواء في تفكيره العقائدي أو في سلوكه، فقد استعمل التنزيل الحكيم فعل "جدل" عند الإنسان في حالة الأضداد وليس الأزواج علماً بأن العلاقة بين الأضداد هي علاقة تناقضية.

١ـ {.. وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آَيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} (الكهف ٥٦).

ـ {.. وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} (غافر ٥).

هنا نلاحظ كيف استعمل الجدل بين الباطل والحق، وهما من الأضداد في وحدة هي الفكر الإنساني. وقد قلنا إن أحد معاني الجدل هو الكلام ومراجعة الكلام "موقف وموقف مضاد"، ونلاحظ هذا المعنى بشكل كامل في قوله تعالى:

{قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (المجادلة ١) لقد كانت المرأة التي تشتكي للنبي حول المظاهرة في موقف مضاد فيما يتعلق بزوجها ولكنها لم تكن في موقف مضاد مع النبي. فحول الموقف بالنسبة لزوجها قال { تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وحول موقفها بالنسبة للنبي (ص) قال { وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} هنا نلاحظ كيف استعمل فعلي الحوار والجدل في آية واحدة. وعندما يوجه الإنسان كلاماً إلى آخر، أمراً أو نهياً أو خبراً بدون أن يعرف موقف الآخر، في هذه الحالة يسمى الكلام "خطاباً" كقوله تعالى لنوح {.. وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} (هود ٣٧) ومن هنا جاء مفهوم المهرجان الخطابي حيث يعرض الإنسان في خطابه وجهة نظر، وبعد ذلك يجادله قسم من الناس ويحاوره قسم آخر.

٢ـ {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ..} (غافر ٥٦).

ـ {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آَيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} (الشورى ٣٥).

ـ {.. حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (الأنعام ٢٥).

ـ {مَا يُجَادِلُ فِي آَيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا..} (غافر ٤).

هنا نلاحظ أن الجدل غير الحوار، فقد قال "يجادلون" ولم يقل "يحاورون" أي يمكن أن يكون هناك حوار بين اثنين من المسلمين حول معنى آية. ولكن الذي يتخذ موقفا ضدّ آيات الله فهذا موقف

جدلي لذا قال عن الذين يجادلون في آيات الله {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ} وقال عنهم {الَّذِينَ كَفَرُوا} وقال عنهم {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ} (غافر ٥٦).

٣– {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا..} (هود ٣٢).

– {.. أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ..} (الأعراف ٧١).

هنا قام موقف جدلي بين نوح وقومه وبين هود وقومه، وكان الجدل قائماً بينهم على الوحدة والتعددية لذا قال لهم هود {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ} تماماً كما قام مثل هذا الموقف الجدلي بين الوحدانية والتعددية بين النبي (ص) وقومه في قوله تعالى {وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الحج ٦٨).

٤– ولكي يبين أن جدل وحدة الأضداد يمكن أن يكون في الإنسان الواحد، وأن الأضداد تتناوب وتتعاقب قال عن إبراهيم {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} (هود ٧٤، ٧٥).

لقد اتخذ إبراهيم موقفاً مضاداً حين جادل رب العالمين في قوم لوط، فالله يريد أن يهلكهم وكان موقف إبراهيم هو التريث لذا قال {يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} وردَّ الله عليه {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} (هود ٧٦).

ولكي يبين وحدة الأضداد في إبراهيم أوردها في آية منفصلة {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} (هود ٧٥). فالحلم من الأناة، والتأوه من العجلة فهما متضادان ووحدتهما هو منيب من الإنابة. فالإنابة إما بحلم أو بتأوه. ولكي يبين سبحانه أن الأضداد تتناوب وتتعاقب قال {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} (التوبة ١١٤) لاحظ التناوب في قوله تعالى:

إن إبراهيم لأواه حليم ـــــــ إن إبراهيم لحليم أواه.

والإنابة هي وحدة "أواه حليم" كالتنفس الذي هو وحدة الشهيق والزفير.

هنا نلاحظ الجدل في الأضداد في المواقف الإنسانية، ففي موقف إبراهيم مع أبيه كان أواهاً حليماً يستعجل الاستغفار لأبيه لذا تقدم الأواه على الحليم، وفي موقفه من قوم لوط كان موقف إبراهيم هو تأجيل العذاب لذا تقدم الحليم على الأواه. وهكذا لا نستغرب لماذا سمي إبراهيم خليل الرحمن، والرحمن فيه توليد الثنائيات.

– جدل الأضداد في العلاقات الاجتماعية والسياسية والفكرية بين الناس

لقد قسم القرآن جدل الأضداد، الذي يعتبر ظاهرة للتعبير عن المتناقضات الداخلية في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية بين الناس، إلى نوعين من الجدل:

ـ النوع الأول

جدل متصالح غير متخاصم. أي أن هناك مواقف جدلية بين مجموعتين من الناس لكنها ليست مواقف تصادمية فيها عنف، وقد أطلق عليها القرآن اسم ''الجدل بالتي هي أحسن'' وذلك في قوله تعالى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت ٤٦) فقوله {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} يعني بالضرورة أن هناك جدلاً مضاداً وهنا نلاحظ كيف بين التنزيل الحكيم العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، فالعلاقة العقائدية علاقة جدل متصالح {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي هناك مواقف جدلية ولكنها غير تصادمية. أما فيما يتعلق بالعدل والظلم فيمكن أن يكون هناك جدل تصادمي مع أهل الكتاب ومع غيرهم من المسلمين أيضاً لذا قال {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا} وقال {لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ..} (النساء ١٤٨).

ـ النوع الثاني

الجدل التصادمي ''الجدل المتخاصم'' هذا النوع من الجدل بين المتناقضات في الجوهر والمتضادات في المظهر في العلاقات الاجتماعية والسياسية هو جدل مبرر في الحالات التالية:

أـ حالة الظلم لقوله {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا} .

بـ في حالة الصدام العقائدي والسياسي لفئات تعادي المسلمين عنوة وصراحة كالحالة بين النبي (ص) والمسلمين وبين مشركي العرب التي كانت حالة جدل تصادمي وقد بين سبحانه هذا في قوله {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} (الزخرف ٥٧ـ٥٨) هنا نلاحظ العلاقة الجدلية المتخاصمة بين النبي (ص) وبين قومه التي كانت واضحة في المعارك التي خاضها النبي (ص) معهم.

وقد أكد التنزيل الحكيم على وجوب أن تكون العلاقة مع غير المسلمين من غير أهل الكتاب علاقة جدل غير تصادمي {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، عندما يكون موقف هؤلاء من المسلمين موقف جدل غير تصادمي وذلك في قوله تعالى {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة ٨).

هنا نلاحظ كيف جاء الأمر بالبر والقسط في الآية ليشمل كل الناس وليس أهل الكتاب فقط. أي على المسلم أن يكون في علاقة جدلية غير تصادمية مع كل الذين يتخذون مواقف مضادة، ماعدا

هؤلاء الذين يتخذون منه مواقف جدلية تصادمية ويحاولون احتلال أرضه وداره ظلماً، حتى ولو كانوا من المسلمين.

لكن قراءة الفقهاء للقصص المحمدي وخلطه بالرسالة جعلهم لا يفرقون بين الجدل المتصالح غير المتخاصم والجدل التصادمي بين المسلمين وغيرهم، الأمر الذي دفع بهم إلى القول بالنسخ بين آيات الكتاب لعدم تمكنهم من التوفيق بين الجدلين الواردين في هذه الآيات، ووضع كل واحد منهما في الموضع الخاص به، فراحوا يسبغون آيات الجدل التصادمي على آيات الجدل المتصالح، فنشأ ما أصبح يعرف بالولاء والبراء والتكفير وغيرها من الآراء التي تصعد من حدة الجدل التخاصمي بين المسلمين وغيرهم، مع أن الأمر في كتاب الله واضح في هذه المسألة عندما نتعامل معها بشكل عملي أكثر واقعية بأن ننظر إلى الأحداث التي وقعت في عهد البعثة المحمدية ووردت في كتاب الله نظرة تاريخية، فنربطها بظروفها الزمكانية وشروطها الموضوعية كي نتمكن من استخلاص العبر منها، سواء في الحالات التي ورد فيها الجدل التصالحي كقوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} (النساء ٩٠)، أو في الحالات التي ورد فيها الجدل التصادمي كقوله تعالى {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} (التوبة ٢٩). فالآية الأولى تبين الجدل التصالحي والثانية تبين الجدل التخاصمي في علاقات المسلمين بغيرهم، لذا لا يمكن التوفيق بينهما إلا بالنظر إليهما وإلى غيرهما من الآيات في نفس السياق نظرة تاريخية بدراستها وفق النسق التاريخي الموضوعي الذي جاءت فيه، الذي يبينه قوله تعالى {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة ٨، ٩)، فالآيتان تبينان أن الجدل بنوعيه التصالحي والتخاصمي وارد في العلاقات بين المسلمين وغيرهم، وأن الفرق بين الجدلين هو وجود الظلم الذي يجعل الجدل تخاصمياً أو يبقيه جدلاً تصالحياً، وهذا الظلم يختلف مفهومه حسب الشروط الموضوعية لكل عصر، لذا لا يجدر بنا النظر إلى آيات القصص المحمدي في علاقات المسلمين مع غيرهم نظرة تشريعية، بأن نسقطها على أحوالنا وعلاقاتنا مع غير المسلمين، كما يفعل الفقهاء من خلال تكفيرهم للآخر ودعوتهم للبراء منه والإفتاء بجهاده، مستدلين في ذلك بآيات القصص المحمدي وما شهدته معارك الرسول (ص)

مع غير المسلمين من أهل زمانه، غافلين في ذلك تماماً عن أن تلك الأحداث إنما هي قصص للعبرة لا تدخل في نطاق الرسالة، لأن الظروف الموضوعية والزمكانية التي كانت محيطة بها واستوجبتها تغيرت تماماً، والأصح من باب الموضوعية دراستها دراسة تاريخية لاستخلاص العبر منها في سجال العلاقات الاجتماعية والفكرية والسياسية وجدليتها بين المسلمين وغيرهم. علماً أننا سنبسط الحديث في الموضوع بشرح مستفيض في كتاب لنا قيد التأليف بعنوان (القصص المحمدي) الذي يمثل جزءاً من سلسلة القصص القرآني التي صدر الجزء الأول منها سنة ٢٠١٠.

– **شرح قوله تعالى** {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}

بما أنّ أساس المعرفة الإنسانية – كما سبق أن قلنا – هو التمييز "القلم"، فالعين في الإدراك الفؤادي تقلم الألوان والأبعاد والأشكال ضمن مجال إمكانياتها البصرية، والأذن تقلم الأصوات ضمن مجال إمكانياتها السمعية، وكذلك بقية الحواس. ثم بعد ذلك يأتي الفكر المجرد وتقلم العلاقات المجردة بعضها عن بعض بواسطة اللغة المجردة أولاً، ثم بواسطة اللغة المجردة والأعداد والرموز ثانياً. وهذه اللغة المجردة والرموز تقوم على علاقات منطقية. ولكن عندما بدأ الإنسان بالكلام كان لا يميز الذكر عن الأنثى في المتكلم والمخاطب ولايميز العدد أيضا فقد ظهر هذا التمييز في فترات لاحقة.

فالكتاب يخبرنا أن إحدى وسائل التمييز التي لعبت دوراً في الكلام الإنساني المجرد هو صوت النون وذلك في قوله تعالى {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} (القلم ١).

ونرى في اللسان العربي أنّ الصيغة العامة التي تشمل العاقل وغير العاقل في اللسان العربي هي صيغة "ما" كما في قوله تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..} (النحل ٤٩).

ثم جاءت النون لتمييز العاقل فقط بلفظة "من" كما في قوله تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} (الرعد ١٥). ونفهم أن "ما" صيغة عامة سبقت في الاستعمال التاريخي، وأن "من" صيغة خاصة للعاقل جاءت بعد "ما" استعمل فيها صوت النون التي لعبت دوراً في التمييز بين الذكر والأنثى وذلك في "نون النسوة". فكانت "أنتم" صيغة عامة للذكور والإناث سبقت "أنتن" كصيغة خاصة للإناث فقط"، أي أن ميم الجماعة سبقت نون النسوة في الاستعمال التاريخي.

وهكذا نجد أن صوت النون في السياق التاريخي كان له دور كبير في التمييز "التقليم" لذا أتبع هذا الصوت في الآية بقوله {وَالْقَلَمِ}. وبزيادة التقليم زاد التصنيف للأشياء، وهذا ما يسمى بالتسطير، لذا أتبعها بقوله {وَمَا يَسْطُرُونَ} وقد جاءت يسطرون من "س ط ر" وهو في اللسان العربي أصل مطرد يدل على اصطفاف الشيء كالكتاب والشجر وكل شيء اصطف. وهذا ما يسمى باللغة الإنكليزية (Classification) وبالعربية التصنيف. أي أن القلم هو تمييز الأشياء بعضها عن

بعض وهو ما يسمى (identification) يعقبه تصنيف الأشياء حسب مواضيعها وهذا ما يسمى بالتسطير. وفي هذا قال تعالى {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} (القمر ٥٣) أي أن كل الأمور والأشياء صغيرها وكبيرها تدخل ضمن التصنيف (Classified).

ومن فعل سطر جاءت الأسطورة وهي تصنيف الأشياء الباطلة بعضها إلى بعض لإخراج قصة ولهذا سميت أسطورة.

فصوت النون زاد في تقليم الأشياء بعضها عن بعض وزيادة التقليم أدت إلى التصنيف لذا قال {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

قد يتساءل البعض: إن كان صوت النون زاد في التقليم والتصنيف في اللسان العربي، فما حال بقية الألسن؟ والجواب:

إن الأمر المؤكد في صوت النون أنه موجود في كل ألسن أهل الأرض قاطبة وبدون استثناء.

وبالإضافة إلى صوت النون يوجد الأصوات التالية في كل ألسن أهل الأرض قاطبة:

الألف "أ" وقد وردت هذه الأحرف الثلاثة في مطلع سورة اللام "ل" يوسف بقوله تعالى {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}

الراء "ر" {الْمُبِينِ} (يوسف ١).

لقد ميز الصحابة الذين خطوا المصحف بين (يس). الياء "ي" التي هي مقطعين صوتيين (ي س) والتي تلفظ

بالدمج (yes)، وبين ياسين الكلمة التي وردت

السين "س" في قوله {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} (الصافات ١٣٠).

أي أن "يس" و"ألر" و"ن" مقاطع صوتية

موجودة في ألسن أهل الأرض قاطبة.

الفرع الأول جدل الأضداد في معرفة آيات الله (العقل الرحماني والعقل الشيطاني)

أولاً: أسس العقل الرحماني

لقد عبر القرآن عن جدل الأضداد في ظواهر الطبيعة بمصطلح آيات الله كم في قوله تعالى:

– {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} (الروم ٢٢)

– {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آَيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} (الجاثية ٣–٦).

لقد أعطى التنزيل الحكيم في سورة الجاثية ثلاثة مستويات مختلفة لظواهر الطبيعة سماها آيات الله. هذه المستويات هي:

١– المستوى العام: هو ظواهر الطبيعة في الوجود المادي كله في عبارة "إن في السموات والأرض" هنا نلاحظ أنه قال {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ولم يقل "إن السموات والأرض". ونفهم أن هناك ظواهر عامة في السموات والأرض، وأن تصديقها من أركان الإيمان لذا قال {لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ}.

٢– المستوى الخاص الأول: هو ظواهر الحياة العضوية في عبارة "وفي خلقكم ومايبث من دابة" وقد جعلها في مستوى يقيني حيث أن الخلق والبث والحياة والموت هي من قوانين الجدل "التسبيح" اليقينية التي يعتبر البعث نتيجتها لذا قال {لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

٣– المستوى الخاص الثاني: ظواهر الطبيعة غير العضوية كالليل والنهار والأمطار والرياح، وقد جعلها في مستوى عقلي ترتبط فيه المقدمات والنتائج ويمكن تقليدها على مستوى صغير لذا قال {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

والآن: ما هي المركبات المعرفية لظواهر الطبيعة؟ لقد أعطى التنزيل الحكيم المركبات المعرفية لظواهر الطبيعة في الآيات التالية وسماها "كتاب مبين" في قوله تعالى:

– {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (الأنعام ٥٩).

– {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآَنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (يونس ٦١).

– {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (هود ٦).

– {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (النمل ٧٥).

– {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (سبأ ٣).

نلاحظ أن الآيات التي ورد فيها مصطلح "كتاب مبين" تحتوي على ظواهر معرفية وهذه الظواهر يمكن أن تجمل بالبنود التالية:

– {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}: تركيب الأشياء (Ingredients).

– {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}: الحركة الميكانيكية للأشياء وانتقالها من مكان إلى آخر (Movement).

– {وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ} {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}: مواقع الأشياء (Position).

– {وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ}: الحركة الحرارية والعضوية للأشياء (of Transformation motion).

– {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ}: الكتلة والوزن، فقد بين وحدة الكتلة والوزن في الذرة وذكر أن هناك أصغر من ذلك وأكبر.

– {وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا}: حركة الحياة العضوية للكائنات الحية بما فيها البشر.

– {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}: أعمال الإنسان الواعية "السلوك الواعي" مهما استرسل فيها وذلك في قوله {إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}.

هنا يجب أن نذكر ملاحظة هامة هي أنه سبحانه في الآيات السابقة يتكلم عن أشياء وظواهر موجودة فعلا في العالم المادي.

فطبقاً لآيات التنزيل الحكيم إذا أردنا معرفة ظواهر الطبيعة، فما علينا إلا أن نحدد العناصر التالية لهذه الظواهر:

١– الموقع (Position): ففي الموقع يظهر مفهوم النسبة والأضداد، فإذا أردنا أن نحدد موقع جسم ما، فما علينا إلا أن ننسبه إلى جسم آخر، ثم نحدد موقعه بالنسبة لهذا الجسم، فيظهر مفهوم الفوق والتحت واليمين واليسار والشمال والجنوب.

٢– البعد (Dimension): في البعد لا يظهر مفهوم النسبية وإنما يظهر مفهوم المقارنة، فعندما نحدد الأبعاد الثلاثة لجسم ما من طول وعرض وارتفاع نحتاج إلى مقياس للمقارنة، لأن أبعاد الأجسام موجودة في ذاتها غير منسوبة إلى غيرها، وإنما لها مقياس للمقارنة وفيها الصغير والكبير.

٣– حركة الجسم (Motion): في الحركة تظهر الأنواع المختلفة للحركة وفيها مفهوم النسبية والزمن والأضداد. فهناك الحركة الميكانيكية والحرارية والعضوية وانتقال شكل الحركة إلى شكل آخر، فمن الحركة الميكانيكية نحصل على حرارة، ومن الحرارة نحصل على حركة ميكانيكية.

٤– كتلة الجسم: نعبر عنها بالكتلة ثم بالوزن، وقد اعتبر التنزيل الحكيم أن الذرة هي وحدة الوزن "الثقل" وهي وحدة مركبة الأجسام المختلفة.

٥– تركيب الجسم: وهو معرفة العناصر المركبة لهذا الجسم.

٦– الكم في الوحدة أو الكتلة أو البعد أو الحركات بأنواعها.

هذه هي مركبات العلوم الطبيعية كلها. ولكن علينا أن نعلم أن هناك مفهومين متناقضين في هذه العناصر الخمسة الأولى هما حركة الجسم وموقع الجسم، فلا يمكن للإنسان أن يدرس بنفس الوقت حركة جسم ما وموقعه. فإذا أردنا أن ندرس موقع جسم في لحظة ما، فهذا يعني أنه لا يتحرك. وإذا أردنا أن ندرس حركته فهذا يعني أن موقعه متغير. فلإزالة هذا التناقض تم تقسيم العلوم إلى فرعين رئيسيين هما:

أ– حركة الجسم دون النظر إلى موقعه، وهذا ما عبر عنه في الطب بمفهوم الفيزيولوجيا وماعبّر عنه في التاريخ بمسار التاريخ، وماعبّر عنه في اللغة بمسار تطور اللغة. فعندما ندرس مسار صاروخ من الأرض إلى القمر نعتبر الصاروخ نقطة مادية.

ب– موقع الجسم وأبعاده ومركباته دون النظر إلى حركته: وهذا ماعبّر عنه في الطب بالتشريح. فالتشريح يأخذ مقطعاً من جسم إنسان، جنين أو طفل أو مسن ويدرسه في اللحظة التي تم أخذ المقطع فيها. وهذا ما عبّر عنه في التاريخ بالفترات التاريخية. فالمؤرخ إما أن يدرس حركة مسار التاريخ أو يدرس تاريخ العالم في القرن الثالث قبل الميلاد. ففي هذه الحالة يذكر الشعوب والأسماء والمعارك والوضع الإنتاجي والاقتصادي بكل تفاصيله الممكنة.

إن موقع الجسم وأبعاده يسمى بالمواصفات الهندسية للجسم (Properties Geometrical) وهي من أهم المواصفات التي يدرسها الإنسان في العلوم. فمثلا في الهندسة ظهر عزم العطالة من بعد الجسم وموقعه. فالجسم له ثلاثة أبعاد M3 وله موقع واحد بالنسبة إلى شيء آخر منسوب إليه. وهذا الموقع الواحد له بعد M1. ففي هذه الحالة يصبح عزم العطالة M4.

– طريقة التعبير عن المعارف

قلنا إن أساس المعرفة هو التقليم ثم التسطير ''التمييز والتصنيف'' وقد تم التعبير عن المعرفة بالأشكال التالية:

١ـ **التعبير التشكيلي**: وهو أن يرسم الإنسان شكلا ما شاهده مشاهدة مشخصة، وقد رسم الإنسان فعلا في الكهوف القديمة بعض الحيوانات التي كانت لها صلة مباشرة معه ''تعبير فؤادي'' ثم تطور هذا التعبير إلى أبجدية بتطور اللغة المنطوقة ووسائل الإنتاج، وتطور إلى فنون النحت والرسم والتصوير. أي أن بداية التعبير التشكيلي كانت بداية فؤادية لها علاقة مباشرة بالسمع والبصر ثم تطورت إلى تعبير مجرد عن قيم ''انظر فصل المفاهيم في الباب الرابع''. وما زالت هذه التعابير تستعمل حتى يومنا هذا بالرسم في علوم الهندسة والطبيعة والطب.

٢ـ **التعبير اللغوي**: وهو أساس التعابير عن المعرفة الإنسانية وأعمها، وقد بدأ بداية فؤادية مشخصة بالسمع والبصر ثم انتقل إلى التجريد وقد شرحت هذا في مقالتي حول نشأة اللغة وارتباطها بالفكر.

٣ـ **التعبير ''الكمي'' العددي والرمزي:** وهو التعبير الأكثر تجريداً من التعبير اللغوي لذا ظهر في مرحلة متأخرة في الرياضيات. وظهرت فيه العلاقات المجردة بأرقى تعابيرها.

فمثلا عندما نريد أن نعبر عن دائرة، فإما أن نرسمها تشكيلياً أو نقول هذه دائرة لغوياً أو نكتب معادلة دائرة بالشكل التالي:

$$X^2 + Y^2 = {}^{2}R$$

ـ التعبير العددي ''الكمي''

الرقم والعدد ـ تعريفاً ـ مصطلحان يعبران عن الكم. فالرقم يعبر عن كم معرف والعدد عن كم غير معرف، أي أن الرقم عبارة عن عدد معرف. فإن قلنا مثلا لإنسان: عدّ الطلاب الموجودين في القاعة وقال إن عددهم ''٤٥'' طالباً يكون قد أجاب الطلب.

وإن قلنا له رقّم الطلاب الموجودين في القاعة فقال إن زيداً رقمه واحد وعمرواً رقمه اثنان.. وهكذا يكون أيضاً قد أجاب الطلب. فالعدد هو واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، والرقم هو الأول، الثاني، الثالث، الرابع، والفرق بينهما كالفرق بين المعرفة والنكرة. فالعدد منكر والرقم معرف. وعندما نمارس علوم الكم فإننا نتعامل مع الأعداد لا مع الأرقام ولهذا نقول: الضرب العددي، لا الضرب الرقمي. فإذا أردنا أن نبحث في كيفية ظهور الأعداد والأرقام عند الإنسان فما علينا إلا تتبع نفس

خطوات نشأة اللسان، فبداية نشأة اللسان كانت بداية فؤادية، وكذلك بداية العد كانت بداية فؤادية متصلة بحاستي السمع والبصر. فالطفل الآن لا يجرد الأعداد بل نضع أمامه تفاحة ونقول هذه تفاحة، ثم نضع تفاحة أخرى ونقول هاتان تفاحتان. والإنسان القديم عندما بدأ بالعد لم يجرد العدد من مدلولاته. فمهمة الفؤاد في العدد هي ''هل يفيد العدد الدال على الشيء المدلول المشخص أم لا يفيد'' أي المطابقة بين الكم ومدلولاته المشخصة وبالتالي الكم والكيف معاً.

وهكذا نرى في الحضارات القديمة أن أسماء الأشياء وأعدادها مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا بالمعادلة التالية:

١ ''تفاحة'' + ٢ ''تفاحة'' = ٣ ''تفاحة''

ثم جاءت مرحلة تالية هي مرحلة التجريد، وهو فصل العدد الدال عن الشيء المدلول أي فصل الكم عن الكيف، وهذا ما يسمى بالتجريد العددي. وقد تعلم الإنسان التجريد في الأعداد من اللغة المجردة، فهو لم يستطع تجريد الأعداد إلا بعد أن جرد اللغات وأصبح عنده علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول. ومن هنا ظهر التجريد العددي عند الإنسان متأخراً عن التجريد اللغوي أي أصبح عنده جمع مجرد هو: ١+٢=٣

أي أعداد مجردة عن مدلولاتها. وهكذا ظهر علم الحساب عند الإنسان القائم على استعمال العلاقات المنطقية القائمة على عدم التناقض بين المقدمات والنتائج. أي أن علاقات التأثير والتأثر المتبادل بين الأشياء أصبحت علاقات تأثير وتأثر متبادل بين الأعداد طال ''القانون الثاني للجدل'' فأصبح:

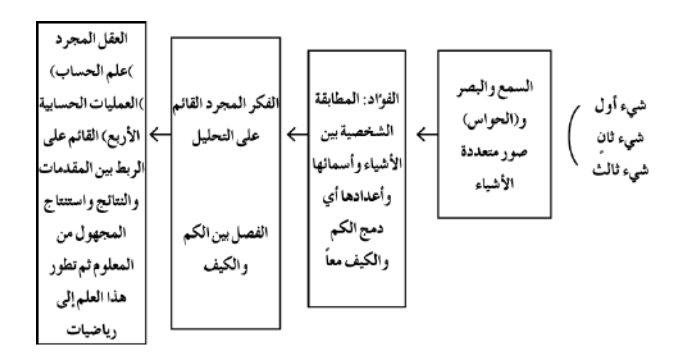
١+٢=٣

٣–١=٢

١+١+١=٣

١+١–١=١

أما كيفية التطور في التعبير عن الأعداد فهو بحث خاص مشابه لتطور التعبير عن الأصوات اللغوية ''الأبجدية'':



ـ القدر والمقدار

لقد بدأ العد بتعبير كمي عن كيفيات متماثلة أو مختلفة، ثم انتقل إلى تعبير كمي مجرد عن الكيف. لذا وجب علينا تمييز مصطلحين وردا في التنزيل الحكيم هما القدر والمقدار فكلاهما له أصل واحد هو "ق د ر". وهو أصل صحيح في اللسان العربي يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته. فالقدر مبلغ كل شيء، والقدر قضاء الله تعالى على مبالغ الأشياء ونهاياتها التي أرادها لها، ومنه جاءت قدرة الله تعالى وهي استطاعته على إنفاذ أي شيء يريده في كمه وكيفه كما في قوله تعالى {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} (القمر ٥٥) فالقدر كما ورد في آيات التنزيل الحكيم هو وجود الأشياء بكمها وكيفها معاً "كنهها" خارج الوعي الإنساني، حيث أن الكم والكيف لا ينفصلان عن بعضهما في الوجود الموضوعي وفي كنه الأشياء وغايتها وهو التحول "تغير الصيرورة" والتطور. لذا قلنا إن القرآن فيه قوانين القدر وهو الحق. وهكذا نفهم قوله تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (القمر ٤٩) وقوله {.. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} (الفرقان ٢) وقوله {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ..} (الواقعة ٦٠) وقوله {.. وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا..} (فصلت ١٠) وقوله {مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} (عبس ١٩) وبما أن القدر فيه الكم والكيف معاً وفيهما تكمن وظيفة الأشياء قال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} (الأعلى ١–٣) هنا لاحظ كيف ربط {قَدَّرَ فَهَدَى} أي أن الوجود الكمي والكيفي معاً يؤدي إلى هداية الشيء للقيام بوظيفته. لذا جاءت عبارة {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} في صيغة مطلقة ليس لها أي علاقة بالسلوك الإنساني الواعي.

أما المقدار فقد عبر عنه التنزيل الحكيم بأنه كم مجرد عن الكيف وهو صيغة معرفية مجردة لأنه لا يمكن أن يجرد الكم عن الكيف إلا في الصيغ المعرفية المجودة، ففي الواقع الموضوعي يوجد:

تفاحة + تفاحة = تفاحتان "قدر" كم وكيف معا.

أما في الواقع المعرفي المجرد فنقول:

١ + ١ = ٢ ’’مقدار‘‘ ’’كم مجرد فقط‘‘.

ولقد جاء المقدار في الآيات التالية:

١ – {اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد ٨).

أ – الله يعلم ==> معرفة.

ب – ماتحمل كل أنثى ==> كيف، وهو الحمل.

ت – وماتغيض الأرحام وماتزداد ==> كم مرتبط بالكيف، تغيض وتزداد ’’زيادة ونقصان في "الكم‘‘ أرحام ’’كيف‘‘.

ث – وكل شيء عنده بمقدار ==> كم مجرد حيث عمم الكم على معرفة الأشياء.

٢– {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (السجدة ٥)

– {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} (المعارج ٤)

هنا نلاحظ كيف أتبع مصطلح المقدار بتعبير عددي ’’كمي‘‘ مباشر. وهكذا نجد أن نفخة الروح بدأت بقوله {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..} (البقرة ٣١)، وبالتجريد اللغوي، ثم تطورت إلى التجريد الكمي الذي تم التعبير عنه بالأعداد والرموز الرياضية. ونجد أن اللغة والرياضيات هما وجهان لعلم واحد هو ’’قانون عدم التناقض والعلاقات المنطقية‘‘ أي أن مادة علم المنطق هي اللغة والرياضيات. فإذا كانت اللغة قائمة على التجريد، فالرياضيات مرحلة متقدمة هي تجريد التجريد.

وإذا أردنا أن نعرّف علم الله في الأشياء نجد أنه علم رياضي بحت، أي في علم الله لا يوجد أصفر فاتح وأصفر غامق، وتفاحة كبيرة وتفاحة صغيرة، ولكنها في علمه كلها علاقات رياضية عددية بحتة وهي مفاتيح الغيب لأن العلاقات الرياضية تتصف بالدقة والتنبؤ وعندما يريد الله أن يخبرنا عن شيء من علمه فهناك طريقتان:

أ– إخبار رياضي مباشر غير لغوي: جاء هذا الإخبار في السبع المثاني.

ب– تحويل هذا الإخبار إلى لغة إنسانية. وهذا ما حصل في ليلة القدر عند إنزال القرآن، أي تحويله عن طريق الجعل إلى صيغة لسانية قابلة للفهم من قبل الإنسان.

ولكي نفهم كيف تحصل المعرفة بالمقدرات ’’القدر‘‘ من خلال الأعداد ’’المقدار‘‘ ماعلينا إلا أن نشرح المفهوم التالي:

ـ العد والإحصاء

العد في اللسان العربي جاء من أصل "ع د د" وهو أصل صحيح يدل على مقدار ما يمكن عده. يقال ما أكثر عديد بني فلان وعددهم ومنه جاءت العدة: ما أعد لأمر يحدث والاستعداد له، وجمع العدد أعداد، وعداد الملدوغ أن يجد الوجع ساعة بعد ساعة، وعداد السليم أن يعد له سبعة أيام، فإذا مضت رجوا له البرء، ومن الباب العدان لأنه محدود بزمان. وأن عداد القوس أن تنبض بها ساعة بعد ساعة.

والإحصاء في اللسان العربي جاء من "ح ص و" وهو المنع والعد مع الإطاقة، وشيء من أجزاء الأرض ومنه الحصاة بمعنى العقل كقول الشاعر:

وإن لسان المرء ما لم تكن له *** حصاة على عوراته لدليل

لنر الآن كيف جاء العدد والإحصاء في التنزيل الحكيم وبأي معنى تم استخدامهما:

ـ {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} (مريم ٨٤)

ـ {لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا} (مريم ٩٤)

ـ {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} (المؤمنون ١١٣)

ـ {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ} (المؤمنون ١١٢)

ـ {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ..} (يونس ٥)

ـ {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} (الكهف ١١)

ـ {.. فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} (الجن ٢٤)

ـ {.. وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} (الجن ٢٨)

ـ {.. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} (إبراهيم ٣٤)

ـ {.. وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (الحج ٤٧)

ـ {.. أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ..} (المجادلة ٦)

ـ {.. لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا..} (الكهف ٤٩)

ـ {.. وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢)

ـ {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} (النبأ ٢٩)

ـ {.. فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ..} (الطلاق ١)

– {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} (الكهف ١٢)

إن الآيات الواردة أعلاه تدل على أن العد والإحصاء فعلان متغايران مع وجود علاقة ما بينهما. فلو كان العد هو الإحصاء لأصبحت آية مريم ٩٤ لا معنى لها، أي تصبح "ولقد أحصاهم وأحصاهم" أو "لقد عدهم وعدهم" وكذلك الآية ٢٨ من سورة الجن تبين أن هناك فرقاً وعلاقة بين الإحصاء والعدد وذلك في عبارة {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} فكونه قال "عددا" وهي هنا حال لفعل أحصى فهذا يعني أن هناك إحصاء من نوع آخر غير عددي. فالإحصاء هو أن نعقل الأشياء. فنحن نرى نخلة فنعقلها عن طريق الحواس، ولكننا نراها قطعة واحدة وكماً متصلاً في وحدة متكاملة علماً بأنها تتألف من آلاف الجزيئات بحيث إذا ضمت هذه الجزيئات بعضها إلى بعض أصبحت نخلة "وحدة متكاملة".

وعليه نميّز عدة أنواع من الإحصاء، إما أن نعقل الشيء ككل وذلك بأن نعرض صورة له ونرسمه، وهذا ما نفعله عندما نريد أن نعقل خلية فنضعها تحت المجهر ونرسمها "إحصاء كيفي" وإما أن نعقل الشيء عن طريق الوصف اللغوي، كأن نصف شخصاً وصفاً عن طريق التعبيرات اللغوية بحيث يأخذ المستمع صورة كاملة عن الشخص الموصوف "إحصاء لغوي". أما النوع الثالث من الإحصاء فهو الإحصاء العددي، أي الإحصاء عن طريق الكم. بأن نأخذ صورة كاملة عن الكم المتصل "الإحصاء" بواسطة الكم المنفصل "العدد". لذا قال عن إحصاء الله للأشياء بأنه إحصاء عددي لا إحصاء لغوي أي أن علم الله للأشياء – كما قلت – علم رياضي تجريدي بحت.

فإن سألنا شخصاً ما: كم عدد الطلاب في القاعة؟ يجيب مباشرة: إن عددهم عشرة طلاب. أما إذا طلبنا منه إحصاء الطلاب الموجودين في القاعة، فعليه أن يعطينا صورة كاملة عن كل الطلاب الموجودين في القاعة بحيث يمكننا أن نأخذ صورة كاملة "متصلة" عنهم دون أن نراهم. وعندما نسأل عن عدد سكان سوريا في عام ١٩٨٨ فالجواب يأتي في عدد واحد، وعندما نسأل عن النشرة الإحصائية للجمهورية العربية السورية عام ١٩٨٨ فالجواب يأتي في مجلد كبير يقدم لنا صورة متكاملة "كما متصلا" عن الجمهورية العربية السورية، ولكن المعطيات في هذا المجلد عبارة عن معلومات عددية منفصلة بعضها عن بعض، مجموعها يعطينا صورة متكاملة عن سوريا، وكلما زادت المعلومات العددية المنفصلة زادت الصورة وضوحاً، لذا قال تعالى {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا} (إبراهيم ٣٤) أي أننا يمكن أن نعدد نعم الله علينا بشكل منفصل ونقول: النعمة الأولى البصر، والثانية السمع، وهكذا دواليك. ولكننا مهما عددنا هذه النعم واستغرقنا في عدها منفصلة لا يمكن لنا أن نعقل "نحصي" نعمة الله علينا ككل متكامل متصل.

أما قوله تعالى {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} (المؤمنون ١١٢–١١٣)، فالسنة وحدة زمنية منفصلة إذ نقول: سنة..سنتان. ولكن السنة الواحدة تحتوي على وحدات زمنية أصغر منها وهي الشهور والأيام، فإذا قلنا سنة سنتان فيكون الانفصال في العد بين العدد والذي يليه سنة. لذا كان السؤال {عَدَدَ سِنِينَ} فجاء الجواب {فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}.

وبما أن الإحصاء كم متصل متكامل فعندما نسجل على إنسان عمله صوتاً وصورة ثم نعرضه له، فهذا إحصاء لأن المشاهد يأخذ صورة متكاملة عن عمل الإنسان. فالإحصاء يمكن أن يكون لشيء واحد متكامل تنطبق عليه مقولة أصغر وأكبر، ولا تنطبق عليه مقولة أكثر وأقل. هكذا نفهم قوله تعالى {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} (الكهف ٤٩)

هذه الآية تبين لنا بشكل واضح الأمور التالية:

١– أن أعمال الإنسان غير مكتوبة وغير مسجلة سلفاً، وهذا مادعانا إلى القول بأن الله عز وجل قد عامل القصص المحمدي معاملة خاصة لأنه لم يكن مكتوباً أو مسجلاً سلفا، بل تلازم فيه الإنزال والتنزيل بالتتابع وفق الأحداث التي كانت تحصل فيتم تسجيلها وأرشفتها بعد وقوعها، وكان بمثابة الدليل الدامغ الذي أرانا الله من خلاله أن الأفعال الإنسانية الواعية ليست مسجلة قبل وقوعها ولا مؤرشفة بل تتم وفق الإرادة الإنسانية الحرة الواعية مع التتبع الإلهي لأرشفتها بدقة متناهية تتناسب وعلمه المحيط بكل شيء.

٢– أن الله يسجل أعمال الإنسان حين قيامه بها بالصوت والصورة، وقد أكد هذا في قوله تعالى {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية ٢٩).

٣– ولكي يؤكد سبحانه أن الصورة والصوت المنسوخة والمكتوبة "المجمعة والمصنفة" ستعرض عليه يوم القيامة ويراها "يعقلها" بنفسه فقد قال {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}.

٤– ولكي يؤكد أن الإحصاء كم متصل فقد استعمله في حالة المفرد واستعمل مصطلح الصغير والكبير معه في قوله {لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}.

أما العدد فإننا نستعمل معه الكثرة والقلة. فعندما يرد مصطلح "أكثر" في قوله تعالى {.. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الأعراف ١٨٧) فإنه يقصد أكثر من شخص واحد، أما عندما نقول "ولكن أكبر الناس لا يعلمون" فإننا نقصد شخصاً واحداً ككل، ولابد في هذه الحالة أن يأتي الفعل بصيغة المفرد.

لذا قال تعالى عن معركة حنين {.. وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} (التوبة ٢٥) فمن الواضح أنه يتحدث عن الكثرة والقلة، وأن الكثرة أكثر من واحد كما في قوله تعالى {لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} (الفرقان ١٤)

وعندما نقول إن العدد سبعة أصغر من ثمانية فإننا نقارن بين العدد سبعة ككل وبين العدد ثمانية ككل ونستنتج أن الثمانية أكبر من السبعة. أي أننا نقارن بين ما يحوي الرقم سبعة ككل بكل مركباته الجزئية، وبين الرقم ثمانية ككل بكل مركباته الجزئية.

بعد أن عرفنا أن الإحصاء هو "التعقل" نقول بأن له عدة أنواع، فعندما يكون نوع الإحصاء عددياً يصبح كماً متصلاً. والعدد كم منفصل. فالكم المتصل والكم المنفصل يخضعان للمساواة والترجيح. فعن الكم المتصل نقول:

$$Y = X$$

أو

$$Y > < X$$

وعن الكم المنفصل نقول:

$$1+3 = 4$$

$$4<5$$

$$6>5$$

فكيف نحول الكم المنفصل إلى كم متصل؟

لكي نعرف كيف يتم التحويل نورد المثال التالي:

```
*           *            *
 __________   __________
A           C            B
```

إذا أخذنا المستقيم AB ولنقل إنه حرف طاولة ذات لون أخضر. ثم غطينا هذا المستقيم بقطعة من قماش أصفر. فالمشاهد المتفرج يرى قطعة القماش ذات اللون الأصفر ولا يرى شيئاً من حرف الطاولة. فعند ذلك نقول إن لون حرف الطاولة مجهول. فإذا ثقبنا قطعة القماش في النقطتين A وB فإن المشاهد يرى نقطتين خضراوين أي إنه يعرف لون حرف الطاولة في نقطتين. فعند ذلك نقول إن المستقيم معرف في نقطتين. وإذا أخذنا الآن نقطة ثالثة C وثقبناها. فسيرى المشاهد ثلاث نقاط

ذات لون أخضر، والباقي مجهول. وتبقى باقي المسافات مجهولة. فإذا استمرينا بتثقيب النقاط يزيد عدد النقاط المعرفة وتقل المسافة بينها. وهذه المسافة نرمز لها ب ×Δ وهي مقدار حسابي عشوائي ليس له إشارة. فكلما قلت المسافة ×Δ بين النقاط زاد عدد النقاط المعلومة. فإذا انتهت ×Δ إلى الصفر فإن عدد النقاط المعلومة ينتهي إلى اللانهاية. ففي هذه الحالة نرى نقاطاً متقطعة ״كماً منفصلاً״ ونرى خطاً مستقيماً ״كماً متصلاً״ أي أننا أحصينا المستقيم ״عقلناه״ من خلال عدد لا متناهٍ من النقاط المنفصلة.

◊ – x – ◊ – x – ◊ – x – ◊

xxxxxxxxxxxxxx

ونرى أن أحسن تعبير عن الكم المنفصل هو ×Δ وأحسن تعبير عن الكم المتصل هو dx أي عندما تنتهي ×Δ إلى الصفر نحصل على dx.

وهذا هو الفرق بين الكومبيوتر والمعادلات الرياضية ״التفاضلية״ فالكومبيوتر يعمل على ×ΔY Δ، أي يعمل على الكم المنفصل، ويعبر عن نتائجه من خلال نقاط منفصلة (dots) وكلما قربت النقاط المنفصلة من بعضها زادت دقته. أما المعادلات الرياضية فتعمل على dx، dy النهايات والمشتقات وتعبر عن الكم المتصل. أي تابع ومتحول من خلال التعبير:

Y = f(x)

وبما أن المعادلات التفاضلية تعبر عن كم متصل فإن أحد أسس صحتها هو الاستمرارية. وبما أن الاستمرارية غير متوفرة في عالم الذرة، فإن الرياضيات الكلاسيكية تصبح غير صالحة لهذا العالم. ولذلك لجأنا إلى مفهوم جديد هو ميكانيك الكم (Mechanics Quantum).

وبما أن الرياضيات تعبير رمزي مجرد، لها رباط منطقي قائم على عدم التناقض، فهي تحمل خاصية اللغة كتعبير مجرد، اي تحمل خاصية الأضداد في التعبير التي نجدها في الموجب والسالب. ولذا فإن من الخطأ أن نقول إن –٣ و +٣ زوجان، بل هما ضدان يعدم أحدهما الآخر.

+ X – X = 0

$+ 3 – 3 = 0$

وهناك أيضاً الحلول الحقيقية والحلول الوهمية، وهي من المتناقضات لأنها ملتبس بعضها مع بعض في نفس المعادلة، وعند الحل نستبعد الحل الوهمي ونأخذ بالحقيقي.

وبما أن الكم المنفصل والكم المتصل يعبر عنهما من خلال الأضداد فهناك مرحلة انتقالية بينهما، كالفجر بين الليل والنهار، وهذه المرحلة الانتقالية هي الصفر. أي أننا يجب أن لا نفهم الصفر على أنه عدد بل هو كيف، يعبر عن انتقال الأعداد ''الكم المنفصل والتوابع 'الكم المتصل''' من ضد إلى الضد الآخر. فالصفر في الأعداد هو مرحلة انتقال من كيف إلى كيف آخر. والصفر في المعادلات يعبر عن التجانس. وفي المشتقات يعبر عن النهايات. وكذلك يجب أن نفهم اللانهاية على أنها حالة تمثل حالة انتقالية من كيف إلى كيف آخر.

الآن يمكن لنا أن نطرح السؤال التالي:

هل هناك أعداد لها صفات المتصل والمنفصل معاً؟

فإذا كان هناك أعداد تحمل هذه الصفة المميزة جداً عن غيرها، وجب أن يكون لهذه الأعداد صفات أساسية لها علاقة بالطبيعة التي يتمثل فيها المنفصل والمتصل معاً.

هذه الأعداد أطلق عليها اسم الأعداد المتعالية أو الأعداد السامية (Number Transidental) وسنطلق عليها نحن مصطلح الأعداد الرحمانية لأنها حَوَت الثنائية. هذه الأعداد يجب أن تحمل الصفات التالية:

١– لا يمكن أن تكون عدداً صحيحاً كالعدد ٢.

٢– لا يمكن استنتاجها من تقسيم عددين صحيحين كتقسيم ٥÷٢=٢.٥.

٣– ليس لها نهاية كسرية كالعدد ٤.٥٦٦٧.

٥– ليس لها نهاية كسرية تحمل صفة الترداد كالعدد ١.٣٣٣٣٣ أو كالعدد ١.١٨١٨١٨.

وبالتالي يمكن استنتاج هذه الأعداد من سلسلة غير متناهية. فإذا نظرنا إلى الأعداد التي تحمل هذه الصفات رأينا أن فيها عددين أساسيين هما (e) أساس اللوغاريتم الطبيعي، والعدد الذي يمثله الرمز (Pi) اللاتيني أساس التوابع الجيبية. هذان العددان يستنتجان من سلسلة غير متناهية وليس لها نهاية مترددة. فكل منهما يحمل ضمناً كل الأعداد المنفصلة وهما في ذاتهما يمثلان كماً متصلاً. فإذا نظرنا إلى هذين العددين رأينا أن العدد e يرصد التوابع الأسّية، وأن العدد الذي يمثله الرمز (Pi) اللاتيني يرصد التوابع الجيبية. فالتوابع الأسية تمثل التزايد والتناقص في الطبيعة، والتوابع الجيبية تمثل

التردد في الطبيعة والتابعان الأسي والجيبي هما تابعان أوليان في الرياضيات أي أن حل المعادلة هو أن تصل إلى تابع أسي أو تابع جيبي أو تابع أسي جيبي.

وكذلك نجد أن الجذر التربيعي ل ٢ هو عدد رحماني، يستنتج من علاقة فيثاغورث للمثلث القائم الزاوية والمتساوي الساقين حيث كل ضلع قائم يساوي الواحد والوتر يساوي الجذر التربيعي ل ٢ أما في مفهوم الجذر التربيعي الموجب فتظهر وحدة الأضداد فنقول إن جذر ٤ هو +٢ و–٢. أما إذا أخذنا حالة السالب مثلا – ٤ فنقول إن –٤ = –١×٤. فجذر ٤ هو + ٢و–٢. ويبقى لدينا جذر ال –١ الذي يظهر لنا أن هناك حالة وهمية وحالة حقيقية، فظهرت الأضداد في السالب والموجب وظهر النقيضان الملتبسان معاً في الحقيقي والوهمي.

وبما أن اللغة تجريد والرياضيات تجريد وترميز معاً، فكلاهما قائم على قانون عدم التناقض وقانون التأثر والتأثير المتبادل "العلاقات المنطقية" ففيهما التعريف والتنكير. فـ"ال" تعتبر أداة تعريف في اللغة يقابلها الإحداثيات في الرياضيات. والإضافة في اللغة للتعريف، والإضافة في الرياضيات x١, x٢, x٣ أيضاً للتعريف.

– التغيرات الكمية والكيفية

قلنا إن الكم والكيف مرتبطان في الطبيعة ارتباطاً لا ينفصل، والمعرفة الإنسانية تميز بعضهما من بعض بعملية التقليم، فالمعرفة الإنسانية إما أن تهتم بالكيف أو بالكم وهذا يتبع مستوى المعرفة الإنسانية، فالأذن تميز النغمات المختلفة في الأصوات أولاً وهي كيف، والعين تميز الألوان وهي كيف، والجلد يميز درجات الحرارة والنعومة والخشونة وهي كيف. فبداية التمييز كيفية فؤادية تحولت عن طريق التجريد إلى تعبير كمي، علماً بأن الكم والكيف مرتبطان معاً في الطبيعة طبقاً لقوله تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} (الأعلى ١–٣)، أي أن وظيفة كل شيء تتبع المقادير الموجودة فيه، وأن أي تغير كمي في الأشياء يتبعه تغير كيفي وظيفي. ولولا هذا القانون لأصبحت كل علوم الرياضيات علوماً ليس لها أي معنى ولاتعكس أي واقع موضوعي. أي أن التعبير المعرفي القائم على الأضداد لقانوني الجدل الأساسيين في الأشياء الأول والثاني هما التغيرات الكمية التي يلازمها تغيرات كيفية، ولولا هذا التغير الكمي والكيفي لما أمكننا فهم قوانين الجدل في الطبيعة وفي الإنسان. فقانون التغير الكمي الذي يلازمه تغير كيفي هو قانون تابع لقانوني الجدل ١، ٢ وغير منفصل عنهما، وهو القانون الذي مكن الإنسان من فهم قوانين

الجدل الأساسية. فعندما نقول: إذا بلغت درجة حرارة الإنسان ٤٣ أدى ذلك إلى الموت، فالحرارة كم والموت انتقال من كيف إلى كيف آخر. وارتفاع الحرارة في الماء يؤدي إلى التبخر فارتفاع الحرارة تعبير كمي والانتقال من حالة سائلة إلى حالة بخارية حالة كيفية وقابلة للانعكاس، وتكاثف بخار الماء يؤدي إلى انخفاض الحرارة وهذا التكاثف له تعبير كمي، وانخفاض الحرارة له تعبير كمي، وكلاهما يمثل كيفاً متميزاً عن الآخر ولكنهما متعلقان ببعضهما، وهذا ما شرحته في قوله تعالى {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} (العلق ٢) أي أن الوجود الموضوعي عبارة عن علاقات متداخلة بعضها ببعض، فما علينا إلا أن نميزها ونفصل بعضها عن بعض "التقليم" وهذا الفصل هو فصل معرفي بحت يجري من قبلنا، إما فصل كيفيات مختلفة بعضها عن بعض، أو فصل بين كم وكيف وفصل بين كميات مختلفة تعبر عن كيفيات مختلفة، فهذا أرقى أنواع التقليم الذي هو التقليم الكمي من كيفيات مختلفة. وهو الإحصاء العددي الذي قلنا إنه أرقى أنواع العلوم {وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} (الجن ٢٨).

وعليه، يمكن أن نقول إن قانون الكم والكيف هو الذي سمح للإنسان بمعرفة الطبيعة عن طريق التقليم، وسمح له بفهم الطبيعة وقوانين الجدل، وسمح له بالسيطرة على قوانين الطبيعة لمصلحته. فالله مسيطر على الطبيعة ومعرفته لها معرفة رياضية، ونحن أيضاً نمتلك معرفة رياضية، وكلما زادت معرفتنا الرياضية بالطبيعة زدنا سيطرة عليها، حيث أن المعرفة الرياضية تتصف بصفتين أساسيتين هما الدقة والتنبؤ.

ثانياً: العقل الشيطاني

قلنا إن العقل المدرك للموجودات عبارة عن علاقة جدلية بين نقيضين هما: الرحمن وهو الجانب المادي الموضوعي "الحقيقي"، والشيطان الفعلاني وهو الوهم والخرافة. وقد شرحنا في صفحات سابقة أسس العقل الرحماني المادي في الإدراك الفؤادي والفكر والعقل. فما هي أسس العقل الشيطاني الوهمي الذي يولد الخرافة والوهم والأمنيات الكاذبة لدى الناس؟ وقلنا أنّ المادة حقيقة موضوعية، والدماغ الإنساني مؤلف من مادة. فكيف يمكن للمادة التي هي حقيقة موضوعية أن تولد وهماً؟

لقد أعطى القرآن جواباً لهذا السؤال ممثلا بالشيطان الفعلاني الذي هو أحد طرفي العملية الجدلية القائمة في الفكر الإنساني "الوسواس" "الأمنيات الكاذبة" والطرف الآخر هو العقل الرحماني

المادي حيث قال {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} (مريم ٤٤) فمن مهمات الشيطان تحويل قراءة القرآن من قراءة مادية رحمانية إلى قراءة وهمية شيطانية. وقد نجح في هذه المهمة نجاحاً باهراً، لأننا لم نمتثل لقوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل ٩٨) ولاحظ أنه قال {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} ولم يقل "فاستعذ بالرحمن".

فلنعدد الأبواب الرئيسية التي يعمل من خلالها الشيطان الفعلاني:

ـ الباب الأول: (تلاه فهو سببه)

كل الدرب إلى معرفة الحقيقة يتلخص في الانتقال من الصدفة إلى الضرورة التي عبر عنها التنزيل الحكيم بمفردة "كتاب"، لأن كل شيء وكل حدث في الوجود له كتاب خاص به يشمل القانون الموضوعي له ككتاب الحياة وكتاب الموت وكتاب المرض. والضرورة هي القانون الموضوعي الذي قال عنه تعالى في محكم تنزيله {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} (النبأ ٢٩). وعليه، فإن الصدفة تعتبر حالة معرفية مؤقتة يقف عندها الإنسان في مسيرة بحثه عن الحقيقة في أي مسألة كانت، ثم ينتقل من هذه المرحلة المؤقتة "الصدفة" بمزيد بحث واستكشاف إلى القانون الموضوعي الذي يحكم الشيء قيد البحث والدراسة ليتوصل بعد ذلك إلى الضرورة التي هي حقيقة الشيء وكتابه. والحقيقة غير محدودة بل هي مطلقة لا متناهية، لأن الإنسان في رحلة بحثه المعرفية ينتقل من مستوى معرفي للحقيقة إلى آخر، وكلما توصل إلى مستوى ما واكتشف حقيقة ما يدرك بعدها أن هذه الحقيقة بحد ذاتها ماهي إلا مستوى من مستويات المعرفة اللامتناهية، فيفتح له هذا المستوى المعرفي أو الحقيقة التي توصل إليها باباً من الإشكالات المعرفية ينطلق منها بحثاً عن حقيقة أعمق وأشمل من سابقتها. وهكذا يستمر الإنسان في مسيرته المعرفية بالانتقال من حقيقة إلى حقيقة أكثر ضرورة وأكثر موضوعية، ومن خلال هذه المسيرة يتبلور ويتطور الوعي الإنساني بالوجود وبنفسه بانتقاله من التفكير العشوائي الذي يحيل كل الأجوبة على تساؤلاته المعرفية إلى الصدفة، إلى التفكير العلمي الذي يتوصل إلى ضرورات الأشياء وقوانينها "كتبها" وترابطها المحكم فيما بينها وعملها وفق نظام علمي دقيق ومحكم هو القانون العام الموضوعي الناظم للوجود، وهو من علم الله المطلق الذي لا يمكن اكتشافه كله لأنه يتعلق بماضي وحاضر ومستقبل الإنسانية ومسيرتها المعرفية، ولا يمكن للإنسانية أن تستكمل اكتشافها له حتى يوم القيامة، حيث يتم الكشف عن كل الغيب الماضي والحاضر والمستقبل. وعليه فإن حركة المعرفة الإنسانية تتم بالانتقال من الصدفة

إلى الضرورة، بالجدلية القائمة بين الاثنين، وكلما ارتقى المستوى المعرفي للإنسان كلما تمكن من إلغاء التفكير العشوائي من ذهنه (الصدفة) إلى التفكير العلمي (الضرورة). لذا فإن الصدفة لا وجود لها في علم الله المطلق وإنما هي وليدة الوهم الذي ينتجه الوعي الإنساني الجاهل بوجوب وجود ضرورة تستوجب وجود الأشياء والأحداث، لكن هذه الضرورة لا يمكن أن يتوصل إليها الإنسان مهما تطور مستواه المعرفي بصورة مطلقة بل يبقى وصوله إليها محدداً دائماً بمستواه الابستمولوجي المعرفي، ومن هنا فإن الضرورة التي يتوصل إليها الإنسان تبقى دائماً محدودة وغير مطلقة وتدخل ضمن علم الله الكلي المطلق.

هذا هو الدرب الصحيح للوصول إلى الحقيقة "الضرورة" والناس فيه متفاوتون كل حسب مستواه المعرفي. أما بالنسبة للدرب الوهمي فهو فهم حقائق الأشياء بناء على المبدأ المغلوط "تلاه فهو إذن سببه"، الناتج عن التفكير العشوائي وغير الموضوعي في الربط بين حدثين متتاليين لا علاقة موضوعية بينهما إلا التتالي بجعل الأول سبباً للثاني، مثال ذلك كسوف الشمس وموت إبراهيم بن محمد (ص) حين تلا كسوف الشمس موت إبراهيم، فوقع كثير من الصحابة في الوهم وقالوا "كسفت الشمس لموت إبراهيم" ولكن النبي (ص) لم يقع في هذا الوهم وصحح لهم بقوله – إن صح – "إن الشمس آية من آيات ربي لا تكسف لموت أحد ولالحياة أحد" ونحن لا نستعرض هذا الحديث من باب الاستشهاد به ولكن فقط من باب توضيح الربط الوهمي الذي يحصل للفكر الإنساني عند ربطه بين أشياء ليس بينها أي علاقة موضوعية، ويمكن أن نضرب على هذا الباب آلاف الأمثلة لبيان سبب ظهور معظم الخرافات عند أهل الأرض جميعاً وظهور الأسطورة. نكتفي بمثال بسيط آخر كثيراً مايقع في حياتنا اليومية، هو أن يشتم زيدٌ عمرواً، وبعد فترة وجيزة تصيب زيداً حمى فيقولون إن الحمى أصابته لأنه شتم عمرواً. هذا الرابط الوهمي الناتج عن التتالي إنما هو طريقة خاطئة لإلغاء الصدفة ومحاولة فاشلة في الربط بين الأشياء وأسبابها، وهذا ناتج عن حالة الجهل وقلة الوعي لدى الإنسان، وهي ظاهرة منتشرة بشكل كبير – مع الأسف – في المجتمعات المسلمة التي تحاول الربط الوهمي بين الأشياء والأحداث بطريق الحسد والعين بدل البحث عن الأسباب الحقيقية العلمية لها.

هنا يجب أن نميز بين الربط الوهمي الناتج عن التتالي وبين الحسد. فالحسد صفة تحمل صاحبها على القيام بعمل مؤذ لقوله تعالى {وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } (الفلق ٥) والشر عمل واع مقصود لقوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (الزلزلة ٨) أما العين فلها تأثير علمي واحد، هو أنه إذا نظر مجموعة من الأشخاص بتركيز إلى شخص يمشي، فقد يؤدي ذلك إلى انزلاقه ووقوعه على

الأرض بعد توتره وارتباكه عند إحساسه بتوجيه الجميع نظرهم إليه كقوله تعالى {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} (القلم ٥١).

- الباب الثاني: الخلط بين قدرة الله ومشيئته

هذا الباب دخل منه الشيطان وأوقع كثيراً من الناس في الوهم وخاصة العرب المسلمين، ودخل منه مشعوذون ودجالون يدعون التصوف أو العلم إلى عقول المسلمين السذج وزادوهم جهلا وسذاجة، وهذا الباب لا يولد إلا التخدير والأماني الخادعة. فكيف حصل هذا الخلط؟.

لنضرب المثال التالي لتوضيح الالتباس بين القدرة والمشيئة. لو قلنا إن زيداً يقدر على حمل ١٠ كغ، فهذا لا يعني أنه كلما صادف ١٠ كغ حملها بالضرورة لأن حمله لها يتوقف أولاً على قدرته، وثانياً على مشيئته "يريد أو لا يريد".

فعندما يعلن الرئيس الأمريكي قدرة بلاده على إسقاط أية طائرة تطير فوق مجالها الجوي، هذا لا يعني أن أية طائرة تطير فوق المجال الجوي للولايات المتحدة سيتم إسقاطها بالضرورة، إذ لابد من أن يتبع إعلان القدرة إعلان للمشيئة. فيعلن أن الولايات المتحدة ستسقط أية طائرة تطير فوق مجالها الجوي دون إذن مسبق. وبالمقابل، فإن إعلان المشيئة دون أن يسبقه إعلان القدرة يصبح هراء. وإلا فكيف يمكن لإنسان أن يعلن عن إرادة ما إذا كان غير قادر على تنفيذ هذه الإرادة؟!

لقد فصل التنزيل الحكيم بين آيات القدرة وآيات المشيئة. ففي آيات القدرة قال تعالى:

- {.. يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (النور ٤٥)
- {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الملك ١)
- {.. إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الروم ٥٠)
- {.. يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحديد ٢)
- {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (المائدة ١٢٠).

هذا فيما يتعلق بالموجودات وظواهرها. أما فيما يتعلق بالأوامر ونفاذها بالنسبة لتاريخ الإنسان فقال:

- {.. وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (التوبة ٣٩).
- {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأنعام ١٧).

- {.. وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة ٢٠).
- {.. فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة ٢٨٤).

من الآيات الواردة أعلاه نلاحظ إطلاق القدرة في ظواهر الطبيعة مع الإنسان. ولكن إطلاق القدرة لا يعني الخروج على ظواهر الطبيعة وقوانينها، حيث نعلم أن ظواهر الطبيعة وقوانينها هي كلمات الله وسننه في خلقه بدلالة قوله تعالى {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} (الكهف ٢٧) وقوله {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا} (فاطر ٤٣)

وبالنسبة للإنسان فإن الله قادر على أن يفعل ما يشاء مطلقاً، ولكن القدرة اقترنت في التنزيل الحكيم بالمشيئة في قوله تعالى {.. وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} (البقرة ٢٦) {.. وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (البقرة ٢٥٨) {.. وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (البقرة ٢٦٤) {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ..} (آل عمران ٨٦) {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ..} (النحل ٣٧) {.. إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (الزمر٣) {.. إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} (غافر ٢٨) {.. اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} (الشورى ١٣)

ونلاحظ هنا أمرين بالنسبة للوجود وظواهره الذي هو كلمات الله. فمشيئة الله هي أنه لا مبدل لكلماته ولا تبديل ولا تحويل لسنته، وبالنسبة للإنسان فمشيئة الله هي أنه لا يهدي الفاسقين والكاذبين والمنافقين. علماً بأنه قادر على ذلك.

إن السؤال عن قدرة الله غير وارد بالنسبة للإنسان المسلم والكافر. فإذا قلنا هل يستطيع الله أن يخلق الشمس والشمس موجودة؟ وهل يستطيع الله أن يخلق إنساناً، والإنسان موجود؟ وإذا قلنا هل يستطيع الله أن يجعل الشمس مكعبة؟ فنقول: نعم يستطيع. فإذا قلنا ولكنها كروية وليست مكعبة، فهل هذا عجز؟ الجواب: هي كروية لأنه أرادها أن تكون كذلك. كأن نقول: طارت طائرة فوق الولايات المتحدة ولم يتم إسقاطها، فإننا نفهم أن الولايات المتحدة لم ترد ذلك لا أنها غير قادرة على ذلك.

فإذا كان زيد ذكراً فإن الله قادر على أن يجعله أنثى. لكن بقاءه ذكراً مع أن الله قادر على أن يجعله أنثى لا يعني العجز بل يعني أن الله أراد له أن يكون ذكراً من خلال قوانينه.

ويجب علينا أن نعلم أن إرادة الله في الأشياء لا تتم إلا من خلال كلماته {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس ٨٢) وإرادة الله في الأحداث لا تتم إلا من خلاله كلماته {.. وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (البقرة ١١٧) ونحن نعلم أن قوله هو الوجود (قوله الحق)، وأن الوجود كلماته {يُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} وعلينا أن نعلم أن لاخوارق ولا تبديل لكلمات الله ولا لسنن

الوجود، وأن ما نسميه خوارق في الطبيعة هو خروج عن المألوف وعن المعرفة النسبية للإنسان لا خروجاً عن سنن الطبيعة نفسها ''انظر فصل إعجاز القرآن''. وكل ما يقال من أن الكرامات خروج عن ظواهر الطبيعة هو وهم، لأن الكرامات غير ذلك تماماً. فالله يكرم إنساناً بأن يهبه ذكوراً وإناثاً أو يهبه الحكمة {.. وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا..} (البقرة ٢٦٩) أو يهبه رزقاً حلالاً {.. وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأنعام ١٧) أو يكرمه فيشرح صدره للإسلام.

هذا الالتباس بين القدرة والمشيئة كان مدخل الشيطان عند المسلمين السذج، فيأتيهم دجال ويقول: إن زيداً صنع كذا وكذا. فيسألون كيف حصل هذا؟ فيخرسهم بقوله: {إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

لقد أمرنا التنزيل الحكيم بأن لا نسأل عن قدرة الله، وحثنا على أن ننظر في مشيئته ونبحث فيها {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ..} (العنكبوت ٢٠).

فواجبنا كمسلمين أن نسأل ونبحث لاعن قدرة الله في خلق الشمس، ولكن نبحث ونسأل كيف خلق الله الشمس، أو كيف تمت مشيئة الله في خلق الشمس. هكذا نصل إلى جواب ونصبح علماء حقيقيين لا دجالين، لا نسأل هل الله قادر على أن يخلق ذكراً وأنثى؟ ولكن نسأل كيف تمت مشيئة الله في وجود الذكر والأنثى؟ ففي هذا ندخل في علم المورثات ونرى أن هناك حيوانات منوية فيها XY للذكر وحيوانات منوية فيها XX للإناث. إن الاستعمال الشيطاني الوهمي لبديهية ''إن الله على كل شيء قدير'' حرفنا عن منهاج البحث العلمي في الكيفيات والكميات فوقعنا عاجزين أمام العالم. وقد سبب لنا توظيف هذه البديهية على غير ما ينبغي وهماً كبيراً رفضنا معه كثيراً من النظريات العلمية مثل نظرية النشوء والارتقاء والتطور، التي برهنا في كتابنا هذا على أنها العمود الفقري لأطروحات القرآن في الخلق والوجود والساعة والبعث واليوم الآخر.

لقد قال بعض المفسرين القدامى عن آدم – ونحن نعلم أن في تفسيراتهم كثيراً من الإسرائيليات في الأمور المتعلقة بخلق الإنسان والكون – إن الله خلقه على النحو التالي:

جمع الله ترابا من أديم الأرض وخلطه بالماء فأصبح طيناً، ثم تركه ليجف فأصبح صلصالا. ومنهم من أضاف بأن كل مرحلة من المراحل استمرت أربعين عاماً ''كذا''. ثم نفخ فيه الروح فأصبح كائناً حياً ''كذا''، ثم نام واستيقظ فإذا حواء بجانبه لتؤنس وحشته، وخلقت من ضلعه، ثم سكنا الجنة ثم طردهم الله من الجنة إلى الأرض. فإذا سألتهم: أيعقل هذا؟ فيكون الجواب المباشر ''أليس الله على كل شيء قدير''. ونطرح على من يقول ذلك السؤال التالي: إن كان ما تقولونه صحيحاً فهذا يعني أن الله أنشأ معملاً للسيراميك والفخارلاندري أين، وصنع تماثيل من الطين على شكل إنسان وسمك وحيتان وبقر وغنم وإبل وذباب، وكل أنواع الحشرات والطيور والأسماك

والزواحف. ثم نفخ فيها الروح فأصبحت حية. ولكن القرآن يقول إن نفخة الروح حصلت للبشر فقط. علماً بأن الإنسان وبقية المخلوقات المذكورة كلها كائنات حية. ومن هذه الأطروحة الوهمية للروح على أنها سر الحياة العضوية، انحجب المسلمون عن علوم الجيولوجيا والمستحاثات وأصل الأنواع والتشريح.

ويمكن أن يأخذ ذلك الطرح الشكل التالي: إذا كان خلق الإنسان قد تم كما ذكر في تلك الروايات لا كما ذكر في القرآن، فهذا يعني أن الله فعلا هو الذي خلق الإنسان. وإذا جاء طرح آخر يقول إن الخلق لم يحصل كما تقولون، فهذا يعني أن الله لاعلاقة له بخلق الإنسان وبالتالي فإن هذا الطرح هو طرح إلحادي كافر. هذا الاستنتاج الشيطاني علينا أن نبتعد عنه وذلك بتوضيح ما يلي:

إن الذين أوَّلوا آيات خلق الإنسان، وكلها آيات متشابهات "قرآن"، هم أناس كانوا يقفون على أرضية علمية ضعيفة، والمستوى المعرفي لعصرهم لا يسمح لهم بالتوصل لاستنتاجات حقيقية، ومناهج ووسائل البحث العلمي لعصرهم قاصرة ومحدودة، فأولوا تأويلات تتناسب مع أرضيتهم ومناهجهم. ونحن نعلم قوله تعالى {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (الأنعام ٦٧) {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} (ص ٨٨) لذا نستنتج أنهم كانوا عاجزين عن التأويل العلمي المقنع لنا وذلك لعجز الأرضية العلمية ومنهج البحث العلمي لديهم ووسائله.

ونحن حين نتكلم عن خلق الإنسان لا نتكلم عن القدرة، بل نتكلم عن المشيئة، أي كيف تمت مشيئة الله في خلق الإنسان. هذه المشيئة قد تأخذ ثانية واحدة، وقد تأخذ مئات الملايين من السنين، فإذا اكتشف داروين أن هذه المشيئة أخذت مئات الملايين من السنين، فهذا لا يعني أنه إلحاد أو كفر وكأن الله لاعلاقة له بهذا.

وأمثل بقضية أخرى: لقد طغى على الأذهان أن عمر الإنسان ثابت منذ أن خلق في بطن أمه. إن هذا الاعتقاد يلغي كل العلوم الموضوعية في الطب والإحصاء التي تقول عكس ذلك. فإذا قلنا إن عمر الإنسان مفتوح ورزقه مفتوح وعمله مفتوح وغير مكتوب سلفاً ذهب ظن الناس السامعين فوراً إلى أن الله لاعلاقة له بعمر الإنسان ورزقه وعمله، وبالتالي فقولنا كفر وإلحاد. علماً أن التنزيل الحكيم يقول إن الأعمار والأرزاق مفتوحة بالنسبة للإنسان وغير مكتوبة عليه سلفاً. وسنفصل القول في هذا في مبحث الأعمار والأعمال والأرزاق من هذا الباب.

فإذا أردنا التخلص من هذا الوهم فما علينا إلا أن نعلم أن نظرية التطور في كل شيء هي نظرية التسبيح وهي العمود الفقري لنظرية القرآن في الوجود، وأن معرفة الإنسان معرفة نسبية

بالموجودات تتطور مع الزمن، وأن القرآن حوى الحقيقة المطلقة ككلمة إلهية، وأن فهمه يخضع للتطور والحركة وهنا السر الأكبر في إعجازه.

– الباب الثالث: الخلط بين العلم والأخلاق والتقوى

أي الخلط بين كلمات الله في الوجود وقوانينه التي جاءت في القرآن "النبوة" وبين الوصايا والمواعظ والأوامر التي جاءت في أم الكتاب "الرسالة". لقد دخل الشيطان من الالتباس بين الرسالة والنبوة، مثال ذلك:

١– إذا أخذنا قصة نوح مع ابنه في قوله تعالى على لسان نوح {.. رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} (هود ٤٥) حيث وعده الله بأن ينجي أهله في قوله تعالى: {فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ} (المؤمنون ٢٧). لقد استغرب نوح كيف يغرق ابنه مع أن وعد الله حق نافذ، وكان استغرابه في محله. فلكي يكون وعد الله حقاً يلزم أن الذي غرق ليس ابن نوح في الحقيقة، وإنما ابن زنا، دون أن يدري نوح بذلك. فجاء جواب رب العالمين في قوله: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (هود ٤٦). هنا تحت باب اللباقة والقيم الاجتماعية والتحرج، تم الوقوع في الوهم فقيل لا يليق بامرأة نبي أن تكون زانية ناسين أو متجاهلين أنها من أهل النار {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} (التحريم ١٠)، لاحظ أن الله لا يستحي من الحق.

٢– عندما اتهمت عائشة أم المؤمنين بالزنا "حديث الإفك" كان موقف النبي (ص) من هذا الاتهام موقفاً موضوعياً مادياً، إذ أنه لا يملك دليلاً لإثبات الاتهام، ولا دليلا لنفيه، فسكت حتى جاءه الوحي بتبرئتها. وكان الأحرى بالنبي – طبقاً لزعم علمائنا الأفاضل – أن يقول منذ أول لحظة "اصمتوا فهذه امرأة نبي ولايليق بها أن تكون زانية" لكنه سكت لعدم وجود دليل الإثبات أو النفي.

٣– لقد انعكس وضع المرأة الاجتماعي على وضعها في الجنة. فمن الناحية الشرعية الاجتماعية لا يجوز ولا يليق بامرأة أن تنام مع رجل بدون عقد نكاح، أو أن تعقد على رجلين. فانعكس ذلك على وضع المرأة في الجنة. وتم جعل الحور العين للرجال فقط. ولاندري ماذا تركوا للمرأة في الجنة وهي لا يليق بها أن تنام مع رجلين؟ خصوصاً ونحن نعلم أن في الجنة لا يوجد شيء اسمه

عقود أنكحة. وكل القيم الاجتماعية والمفاهيم الأخلاقية والشرعية والقانونية الموجودة في الحياة الدنيا ملغاة في الجنة.

هنا نستنتج بأن أحد مداخل الشيطان هو الخلط وتلبيس الحقائق الموضوعية في القرآن، بالقيم الاجتماعية والأخلاقية في أم الكتاب.

فعلينا أن لا نسقط أبداً القيم الاجتماعية والأخلاقية على الحقائق الموضوعية، وإلا فإننا نقع في الوهم "الباطل".

ـ الباب الرابع: عدم الاعتماد فقط على الرباط المنطقي المجرد بين المقدمات والنتائج

أي إذا كان هناك رباط منطقي بين المقدمات والنتائج لمسألة ما، ولا يوجد تناقض، فهذا لا يعني بالضرورة أن المسألة صحيحة "انظر أنواع المعرفة" إذ أن صحة الرباط المنطقي لا تعني أن المسألة حقيقية، فقد تكون المسألة كلها وهمية وفيها رباط منطقي، حيث أن المقدمات يجب أن تكون حقيقية.

ـ الباب الخامس: الأماني

هو إسقاط أهواء الإنسان الخاصة وأمانيه الشخصية على الواقع الموضوعي، مما يسبب له الوقوع في الوهم. هذا الباب يمكن أن يقع فيه كل الناس بدون استثناء حتى الأنبياء والرسل، بدلالة قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آَيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج ٥٢) هنا نلاحظ أن الأهواء والأماني من مداخل الشيطان الفعلاني. وكذلك قوله {أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى} (النجم ٢٤) {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} (النساء ١٢٠) وقوله {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ..} (النساء ١٢٣).

وفي الختام نلخص العقل الشيطاني "التكذيب والوهم" بالعبارة التالية:

إن الصور الموجودة في الأذهان غير المطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان وهذه هي وظيفة الشيطان الفعلاني.

الفرع الثاني أنواع المعرفة ونسبيتها

أولاً: أنواع المعرفة

لقد شرحنا في نشأة الكلام الإنساني ارتباط الفكر باللغة ارتباطاً لا انفصال له، وقلنا إن اللغة تطورت من مرحلة المشخص المحدد بالحواس وعلى رأسها حاستي السمع والبصر، أي من مرحلة العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول، إلى مرحلة المجرد مع وجود مراحل انتقالية بين المشخص والمجرد. وقلنا إن أنواع التعبير عن المعرفة أخذ الشكل التشكيلي بالرسم، وتطور إلى الأبجدية، وباللغة المجردة "البلاغة"، وبالرموز الرياضيات.

فيمكن الآن أن نستنتج أنواع المعرفة الإنسانية وهي:

١ـ **المعرفة الفؤادية:** وهي المرتبطة مباشرة بالحواس "وعلى رأسها حاسة السمع والبصر" وهي أبسط أنواع المعرفة وأكثرها فعالية وأكثرها يقيناً، وهي القاسم المشترك بين أهل الأرض ذكيهم وغبيهم. لذا قلنا إن الحساب يوم القيامة فؤادي مرتبط بالحواس {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ..} (النور ٢٤) {.. وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا..} (الكهف ٤٩) ومن هنا طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليكون يقينه بإحياء الموتى يقيناً فؤادياً.

٢ـ **المعرفة الخبرية:** وهي بأن يتواتر النبأ عن طريق الخبر، كقولنا بأن العرب انتصروا على الروم في معركة اليرموك. هذه المعرفة قد تنتهي إلى معرفة فؤادية، وهذا من اختصاص علماء الآثار الذين يستطيعون تصديق الخبر أو تكذيبه. وقد يكون الخبر بالتواتر القولي والفعلي. فالله حفظ الذكر عن طريق تواتر الحفظة. فمنذ أن كان النبي (ص) حياً إلى يومنا هذا هناك أناس يحفظون التنزيل الحكيم بذاكرتهم دون انقطاع. كما أن نقله إلينا تم عن طريق التواتر الخطي بعد جمع المصحف. علماً بأننا في هذا المجال نتكلم عن الخبر كأحد أنواع المعرفة أي صدقه أو كذبه. وقد برع المسلمون في ذلك وخاصة في علوم الحديث باهتمامهم بعلم الحديث وطبقات المحدثين طبقاً للمنهج المتوفر لديهم. إنما يجب أن نفهم تماماً أن صدق الخبر شيء وتوظيفه توظيفاً مطلقاً شيء آخر. فصدق الخبر لا يعني بالضرورة إطلاقه وخاصة الخبر التاريخي "أنظر الباب الأول في الفرق بين النبأ والخبر".

٣ـ **المعرفة النظرية "الاستنتاجية":** هذا النوع من المعرفة يعتمد على المنطق الصوري والرياضي في الاستنتاج والاستقراء والربط بين المقدمات والنتائج فحدود المنطق ـ كما هو

معروف – ثلاثة هي: الحد الأول في المقدمات، والحد الأوسط في العمليات الانتقالية، والحد الأخير في الاستنتاجات، حيث أن المنطق هو استنتاج المجهول من معلوم بقانون عدم التناقض بغض النظر عن الاستنتاج أوهمي هو أم حقيقي. هذا الرباط المنطقي هو نمط التفكير المجرد عند الإنسان بغض النظر أكان المنطلق مادياً رحمانياً أم مثالياً شيطانياً، حيث أن النقيضين في الدماغ الإنساني "الرحمن والشيطان" مربوطان بقانون عدم التناقض. ولقد ذكرنا أن أحد مداخل الشيطان يأتي من هذا الباب. إذ لا يكفي أن يكون هناك عدم تناقض بين المقدمات والنتائج حتى يكون الحكم حقيقياً. فالرباط المنطقي في العقل الرحماني المادي هو أن المقدمات الموجودة في الأذهان يجب أن تتطابق مع الأشياء الموجودة في الأعيان. أي أن المقدمات يجب أن تكون حقيقية مطابقة للواقع الموضوعي. وهذا ما نسميه بفرضيات النظريات حيث أن هذه الفرضيات يجب أن تتطابق مع الواقع. ثم يأتي الحد الأوسط في العمليات الانتقالية حتى نتوصل إلى النتائج. إن الحد الأوسط في الاستنتاجات وربط النتائج بالمقدمات برباط عدم التناقض هو نفسه عند العالم وعند الجاهل. فلا نقول إن العالم عاقل والجاهل مجنون، ولكن نقول إن مقدمات العالم حقيقية، ومقدمات الجاهل وهمية وكلاهما إنسان عاقل سوي. وأوضح مثال على ذلك هو الحاسب الإلكتروني فلا يكفي أن نعرف لغة الحاسب حتى نحل مسألة عليه، ولكن يجب أن نعرف الرباط المنطقي الذي يقوم عليه الحاسب لكي نبرمج حل المسألة وهذا ما نسميه (Flowchart) فإذا وضعنا مخططاً منطقياً للمسألة فإننا نأخذ حلولاً صحيحة طبقاً للرباط المنطقي ولكن هذه الحلول قد تكون مطابقة للواقع الموضوعي "حقيقية" وقد تكون غير مطابقة "وهمية". وللتحقق من صحة مسألة علمية ما وحقيقيتها يجب أن نتحقق من أمرين اثنين: أ– أن تكون المقدمات غير متناقضة مع النتائج "الرباط المنطقي" فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن العمليات الانتقالية بين المقدمات والنتائج صحيحة.

ب– أن تكون النتائج مطابقة للواقع الموضوعي، وهذا يعني أن المقدمات صحيحة. وكلما كان التطابق بين النتائج والواقع الموضوعي قريباً كلما تأكدنا من صحة المقدمات، فأحياناً تكون النتائج النظرية والواقع الموضوعي متقاربين وغير متطابقين ممايدل على صحة الفرضيات المستعملة، ويدل في الوقت نفسه على نقص في الفرضيات وعلى متحولات أهملت ولم يتم أخذها بعين الاعتبار. فالفرضيات هي مجموعة الشروط الموضوعية التي تم تمييزها "تقليمها" من قبل الإنسان، والتي تعتبر العناصر المركبة لظاهرة ما.

هذا الاعتماد على المنطق بالربط بين المقدمات والنتائج فقط بغض النظر عن فحص المقدمات وتدقيقها وتحقيقها هو السبب في كثير من الوهم الذي وقع فيه علماء الكلام المسلمون إذ اعتمد علم

الكلام عندهم على الربط بين الحدود فقط بغض النظر عن المسألة الكلامية أهي حقيقة رحمانية أم وهمية شيطانية، ولاأريد الاستفاضة في علم المنطق لأن كتابنا هذا ليس كتاباً في المنطق. وعلى من يريد أن يستفيض في هذا العلم فعليه بالكتب المختصة.

ثانياً: الزمن والوقت والنسبية

يجب علينا أن نميز بين مصطلحين أساسيين وهما الوقت والزمن، وقد استعمل التنزيل الحكيم مصطلح الوقت ولم يرد مصطلح الزمن فيه وإنما جاء مصطلح الدهر والسنين. فالوقت جاء من "و ق ت" ويعني في اللسان العربي الزمان المعلوم، والموقوت الشيء المحدد.

فالزمن وجود موضوعي فيه حركة الأشياء. ولكن كيف يمكن للإنسان إدراك الزمن؟

نحن ندرك الأشياء بالتقليم الكمي والكيفي. فقد قلمنا الزمن بواسطة الحركة المتغيرة، أي لو أن كل شيء في الوجود يسير بنفس السرعة لما عرفنا أن هناك حركة، أي لما استطعنا تقليمها وبالتالي لما عرفنا الزمن. فمن اختلاف السرعات ظهرت نسبية الحركة ونسبية الزمن، وبالتالي ربطنا الزمن بالأحداث الطبيعية أو التاريخية للتعبير عن النسبية في الحركة وظهر مفهوم الوقت، فالوقت هو ربط الزمن بحدث من أجل المعرفة النسبية للحركة، لذا سمي الوقت زمناً معلوماً. وقد استعمل التنزيل الحكيم مصطلح الوقت بهذا المعنى تماماً حين ربطه بأحداث، فالساعة حدث هو الانفجار الثاني للكون قال عنها {.. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ..} (الأعراف ١٨٧) وقال {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا} (النبأ ١٧) وقال {إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} (الدخان ٤٠) وعندما سألوا محمداً (ص) عن الأهلة وهي ظواهر تنتج عن حركة القمر قال تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ..} (البقرة ١٨٩) والصلاة مرتبطة بوقت، والوقت مرتبط بحدث، فعندما تصبح الشمس في كبد السماء نقول حان وقت الظهر، لذا قال {.. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (النساء ١٠٣) وقال لإبليس {فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (الحجر ٣٧، ٣٨). ونحن الآن نقول الساعة الثانية حسب توقيت غرينتش ولانقول حسب زمن غرينتش. وبنفس الوقت نقول "المسافة = الزمن × السرعة" هنا استعملنا الزمن لأننا أخذنا قانوناً مجرداً غير مرتبط بحدث فلا يصح أبداً أن نقول الوقت، وإذا قلنا الوقت فيجب علينا أن نقول وقت ماذا؟ فنحن نستعمل الزمن في المجردات، والوقت عندما نربط الزمن بحدث معرف كوقت الصلاة ووقت الطعام والنوم وتوقيت المعركة وقنبلة موقوتة.

ولتمييز الوقت عن الزمن في الوحدات استعمل التنزيل الحكيم مصطلح السنة والعام.

فالوقت له نسبيته وهي الحدث ونسبة القياس فعندما تصبح الشمس في كبد السماء نقول وقت الظهر ''نسبة الحدث'' ونقول إن وقت الظهر هو الساعة ١١.٣٠ حسب توقيت دمشق أو حسب توقيت غرينتش ''نسبة القياس''. لذا قال {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} (الحجر ٣٦–٣٧) فنسب التوقيت إلى حدث {يَوْمِ يُبْعَثُونَ} أما نسبة الزمن فتتعلق باختلاف السرعات، فإذا قلنا إن جسماً ما يسير على الأرض بسرعة ١٠٠كم/سا فإننا ننسب السرعة إلى الأرض ونعتبر أن سرعة الأرض تساوي الصفر. وهكذا ظهرت النظرية النسبية باعتبار أن هناك راصداً ومرصوداً وهناك زمن للراصد وزمن آخر للمرصود. ولما كانت نسبة الزمن لها علاقة بالسرعة فيجب أن يكون هناك سرعة مطلقة تنسب إليها كل السرعات، وحسب معلوماتنا الحالية فإن السرعة المطلقة هي سرعة الضوء، حيث أن سرعة الضوء ثابتة بغض النظر عن السرعة البدائية ''أي بغض النظر عن سرعة المصدر الضوئي''. وبما أن الضوء حسب معلوماتنا فيه كمال السرعة فلا يسير بسرعة الضوء إلا الضوء أي إذا سار أي جسم بسرعة الضوء فإنه يصير ضوءاً.

لقد وضع التنزيل الحكيم مصطلحات مختلفة للزمن والوقت وهي السنة والعام واليوم. فالسنة مقياس زمني منسوب إلى السرعة لذا فهو وحدة متغيرة غير ثابتة، والعام مقياس زمني منسوب إلى الأحداث يأتي دائماً معرفاً. ولبيان نسبة الزمن في مصطلح السنة نجده يضع السنة منسوبة إلى شيء معروف كقوله {أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (السجدة ٥) وهذا يعني بالضرورة أن هناك سنة تختلف عن السنة التي نعد، ولايوجد أبداً مصطلح ''ألف عام مما تعدون'' لأن الأعوام بحد ذاتها معرفة كما في قوله تعالى {.. فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا..} (التوبة ٢٨) فعرف العام باسم الإشارة ''هذا'' حيث أن العام جاءت في اللسان العربي من ''ع و م'' وتعني السباحة كقولنا الإبل تعوم في البيداء، وعاومت النخلة حملت عاماً ولم تحمل عاماً ''الزمخشري أساس البلاغة ص ٣١٧'' هنا نلاحظ كيف ربط العام بموسم الحمل للنخل.

وكقولنا ولد النبي (ص) في عام الفيل وليس في سنة الفيل أي تم ربط الولادة بحدث. وهذا المصطلح للتوقيت. فنقول توفى النبي (ص) في العام العاشر للهجرة أي بدأ التاريخ بحدث هو هجرة النبي (ص) فنستعمل العام.

ونقول نحن الآن في عام ١٩٨٧ للميلاد ولانقول في سنة ١٩٨٧ للميلاد. لأننا ربطنا التاريخ بحدث هو ولادة السيد المسيح عليه السلام.

وعندما ربط الزمن بحدث قال تعالى {.. فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ..} (البقرة ٢٥٩) فجاءت العام لتبين القياس ابتداء من الحدث الذي عبر عنه في عبارة {فَأَمَاتَهُ اللهُ} وأجابه بالنسبة للمقاييس المعروفة ابتداء من حدث الوفاة في قوله {بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ}. وعندما ذكر الأعوام المتعارف عليها عند العرب قال {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ..} (التوبة ١٢٦) وقال {.. يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا..} (التوبة ٣٧) وعندما ذكر فصال الطفل وهو حدث بعد الولادة وله قياس قال {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} (لقمان ١٤)

وفي سورة يوسف ذكر الزمن بالسنة في قوله {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا..} (الآية ٤٧) {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ..} (الآية ٤٨) {ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} (الآية ٤٩). هنا نعرف العام بعام الغوث والعصير {عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} كقوله عام الفيل. ونلاحظ أنه في مصطلح العام لم يستعمل الكتاب مصطلح "مما تعدون" لأنه في الأصل معرّف.

أما مصطلح السنة فقد جاء من أصل "س ن ه" وهو أصل واحد يدل على زمان. وقد جاءت إما كعد للزمن بشكله النسبي كقوله تعالى {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (الحج ٤٧) وقوله {.. ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (السجدة ٥)، وإما كعدّ للزمن بشكل عام دون ربطه بحدث ما كقوله {.. حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ..} (الأحقاف ١٥) وقوله {.. وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ..} (يونس ٥)، وقوله {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} (الكهف ١١)، وقوله {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} (الكهف ٢٥). هنا نلاحظ كيف استعمل الله سبحانه الزمن بشكل عام في قوله {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} وقوله {ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ}، لأنه يتكلم على وجه العموم عن أي إنسان. و{ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ} عبارة عن برهة زمنية (t) وفي معنى البرهة الزمنية العددية (t) جاء قوله تعالى {.. فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} (طه ٤٠) وقوله {وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} (الشعراء ١٨) وقوله {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ} (الشعراء ٢٠٥) وقوله {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ} (المؤمنون ١١٢) وقوله {.. وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ..} (الروم٣، ٤) وقوله تعالى {.. فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ..} (البقرة ٢٥٩) أي لم يؤثر عليه الزمن t كما يؤثر على غيره. هنا استعمل "يتسنه" للدلالة على الفترة الزمنية. وقوله {.. يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ..} (البقرة ٩٦).

لنناقش الآن الآيات التالية:

١– {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (العنكبوت ١٤) لقد ورد في هذه الآية مصطلحا السنة والعام معاً. وهذا يعني أنه استعمل منكراً عددياً في السنة، ومعرفاً عددياً في العام، وعليه فليس من الضروري أبداً أن يكون الاستنتاج أن نوحاً لبث في قومه ١٠٠٠ – ٥٠ = ٩٥٠. فالسؤال الذي يطرح نفسه: هل لبث نوح في قومه تسعمائة وخمسين سنة أم تسعمائة وخمسين عاماً ونحن نعلم أن البنية البيولوجية للبشر لا تسمح له بأن يعمر هذا المقدار من السنين التي نعرفها الآن؟

فهنا إما أن يكون للسنة مقياس آخر غير الذي نعرف، أو أن يكون ربط العام بحدث بحيث يكون العام الواحد "الحول" أكثر من سنة أي في كلتا الحالتين تكون النتيجة لا تساوي ٩٥٠ سنة من مقاييسنا. وهناك احتمال آخر أن تكون السنة من مقاييسنا ولكن لفظة ألف لا تعني عددا يساوي ٥٠٠ + ٥٠٠ ولكن تعني مجموعة من السنين حيث أن "الف" تعني في اللسان العربي انضمام الشيء إلى الشيء والأشياء الكثيرة. ومنه جاء العدد ألف والتأليف. أي ألف سنة عبارة عن مجموعة من السنين نقص منها خمسون عاماً. ففي هذه الحالة أيضاً لا تكون النتيجة (٩٥٠).

٢– {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} (المعارج ٤)

– {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (الحج ٤٧)

– {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} (السجدة ٥)

هنا نلاحظ أنه استعمل مصطلح اليوم للدلالة على مقدار زمني مفتوح، فاليوم يمكن أن يكون ١٢ ساعة أو ٢٤ ساعة أو ألف سنة أو خمسين ألف سنة.

أما عندما استعمل المقدار {مِمَّا تَعُدُّونَ} فالألف في هذه الحالة لها معنى عددي بحت فعندما قال {مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} ذكر المقدار الذي هو كم، ولم يقل مما تعدون، وعندما ذكر ألف سنة عن العذاب وتدبير الأمر قال {أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}

٣– {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} (الأعراف ١٣٠)

ذكر سبحانه في هذه الآية قانونين أساسيين في هلاك الأمم الصالح منها والطالح. القانون الأول عام ينطبق على كل الأمم وهو الزمن (السّنين)، أي أن الزمن كفيل بأن يهلك كل الأمم وفي هذا قال تعالى {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ..} (الإسراء ٥٨) وقال {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} (القصص ٨٨).

والقانون الثاني خاص يتمثل في الأزمات الاقتصادية، أوضحته عبارة ''ونقص من الثمرات''، وهذا القانون أيضاً كفيل بإهلاك الأمم لذا وضع العام ''السّنين'' قبل الخاص ''نقص في الثمرات''. وحول القانون الخاص أتم الآية ٥٨ من سورة الإسراء بقوله {.. أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}، فالهلاك في الزمن والعذاب الشديد في الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية والحروب، وهذا كله من الأمور المبتوتة المصنفة (Classified) بدلالة عبارة ''كان ذلك في الكتاب مسطورا''.

ثالثاً: الدائم والباقي

لقد استعمل التنزيل الحكيم مصطلح الدائم، ومعنى الديمومة في قوله تعالى {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ..} (هود ١٠٧) وقوله {.. وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} (مريم ٣١).

والدائم جاء من أصل ''د و م'' وهو أصل واحد يدل على السكون واللزوم، والماء الدائم: الساكن. ويحمل عليه تدويم الطائر في الهواء وذلك إذا حلق وكانت له عندها كالوقفة، ومن ذلك قولهم: دومت الشمس في كبد السماء. وذلك إذا بلغت ذلك الموضع، ويقول أهل العلم بها: إن لها ثم كالوقفة ثم تدلك. قال ذو الرمة:

والشمس حيرى لها في الجو تدويم. أي أنها لا تمضي.

فكيف استعمل التنزيل الحكيم مفهوم الدائم؟:

لقد استعمله بمعنيين: الأصل والمحمول. فنقول إن زيداً من الناس مداوم على الصلاة، يعني أنه لا يقطع وقتاً من الأوقات ويؤدي الفرائض الخمس ولكنه بين الصلاة والصلاة يقوم بأعمال أخرى. ونقول إن زيداً مداوم على عمله ونعني أنه يتواجد في مكان عمله أثناء فترة معينة ولكنه يقوم بأعمال مختلفة ضمن الدوام. فإذا ربطنا قوله تعالى {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ} مع قوله {مَا دُمْتُ حَيًّا} رأينا أن {مَا دُمْتُ حَيًّا} هي الفترة الزمنية التي يقضيها الإنسان على قيد الحياة، وهنا تعني اللزوم. ولكن هذه الفترة الزمنية تحمل ضمنها صفة التقطيع والاستمرار لأعمال ونشاطات مختلفة منها الصلاة والزكاة، فالإنسان يصلي ويزكي ويأكل وينام ويعمل. فإذا صلى خلال فترة زمنية قدرها t1، فضمن هذه الفترة نقول استمر الإنسان في صلاته لمدة ١٠ دقائق. هنا يظهر مفهوم الاستمرارية في الصلاة، ثم بعد الصلاة أكل لفترة زمنية قدرها t2، فنقول انقطع عن الصلاة واستمر في الطعام لمدة ١٠ دقائق أخرى، فاستمراريته في الطعام هي في نفس الوقت انقطاع عن

الصلاة، واستمراريته في الصلاة هي بنفس الوقت انقطاع عن شيء آخر، ولكن فترة t1 للصلاة وفترة t2 للطعام اللتين تعتبران انقطاعاً عن شيء واستمراراً في شيء آخر، كلتاهما تقعان على محور الزمن الذي يعيشه الإنسان وهو الدوام.

لقد استعمل الكتاب مفهوم الدوام على أنه محور الزمن t الذي يحمل فترات زمنية لأحداث تحمل صفة التقطع والاستمرار اللذين هما النقيضان المتصارعان في حدث ما، وهو أن يبقى مستمراً أو ينقطع وهذان النقيضان محمولان على محور هو الدائم. وبما أن الدائم هو محور النقيضين التقطع والاستمرار وهو محور الزمن فلا نرى أن هذا الاسم يدخل ضمن أسماء الله الحسنى، فلانقول عن الله إنه دائم ولكن نقول عنه إنه باقٍ. ومن الخطأ أن نقول عبد الدائم، أو سبحان الدائم لأن الدائم حامل النقيضين والله لا يحمل صفة التناقض وغير خاضع للزمن.

وقد استعمل الكتاب أحد النقيضين المركبين للدائم والدوام وهو الاستمرار في قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} (القمر ١٩). هنا يجب أن ندقق لماذا استعمل الريح ولم يستعمل الرياح، فنحن نعلم أن الرياح عندما تهب فإنها تهب على دفعات، دفعة قوية تتبعها دفعة ضعيفة أو سكون نسبي ثم تليها دفعة قوية ثم تليها دفعة خفيفة. أي أن الرياح تأخذ شكل نبضات مختلفة السرعات. فالنبضة الواحدة تستمر لمدة عدة ثوان لتنقطع فتتبعها هبة أقل قوة أو أكثر قوة تستمر لمدة عدة ثوان أخرى.. وهكذا دواليك، لذا سميت رياحاً. أما الريح الواحدة فهي نبضة واحدة مستمرة قد تستمر لمدة ١٠ ثوان أو يوم كامل. وقد ذكر الريح في مجال عذاب قوم هود. حيث استمرت الهبة الواحدة يوماً كاملاً لذا استعمل الريح مفردة وأتبعها بعبارة {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} (القمر ١٩). إن علماء الرياح يعلمون تماماً ماذا تعني نبضة واحدة تستمر يوماً كاملاً. وماهو الدمار الذي يمكن أن ينتج عنها. لذا أعقب الآية بقوله تعالى {تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} (القمر ٢٠). ونحن الآن نستعمل الدوام والاستمرار بهذا المعنى عندما نقول تهطل الأمطار في سوريا دائماً في الشتاء ونقول هطل المطر لمدة ثلاث ساعات مستمرة أي ثلاث ساعات لم ينقطع فيها هطول المطر.

هكذا نفهم قوله تعالى {مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ} ولم يقل "ما بقيت السموات والأرض". وقوله بشكل واضح {إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} (المعارج ٢٢–٢٣) فدوام الصلاة لا يعني أبداً أنه لا يفعل شيئا في حياته إلا الصلاة، بل يصلي الفرائض ويقوم بأعمال أخرى بالإضافة إلى الصلاة.

وقوله {.. وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ} (المائدة ١١٧) أي أن المسيح كان شهيداً على الناس وهو معهم. أما عندما رفعه الله إليه لم يعد شهيداً عليهم، لذا قال {مَا دُمْتُ فِيهِمْ} ولم يقل "مادمت حيا" أي أنه في الفترة الزمنية التي كنت حاضراً فيها معهم كنت شهيداً عليهم[6]. وقوله {وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا..} (آل عمران ٧٥) إن عبارة "مادمت عليه قائما". لا تعني استمرار المطالبة. ولو قال "ما استمريت عليه قائماً" لعنى أن الدائن يلازم المدين ويطالبه بدون انقطاع ولايقوم بأي عمل آخر غير المطالبة. وقوله {.. وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا..} (المائدة ٩٦) يعني أن الفترة الزمنية التي تبدأ بالإحرام وتنتهي بفك الإحرام لا يجوز فيها الصيد فاستعمل {مَا دُمْتُمْ} لأن الحاج غير المفرد قد يحرم من أجل العمرة ثم يفك إحرامه، ثم يحرم من أجل الحج أي أن الإحرام فيه تقطع واستمرار. وعنى هنا بكلمة "مادمتم" الفترة الزمنية للإحرام. وقوله تعالى {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا..} (المائدة ٢٤). هنا أيضاً عنى الفترة الزمنية التي يقيم فيها القوم في الأرض التي أمرهم موسى بدخولها. ولو قالوا "إنا لن ندخلها أبداً ما استمروا بالإقامة فيها" لوجب التعريف أي استمروا بماذا ليأتي الجواب بالإقامة فيها. فهذا يعني إثبات الإقامة ونفي الأفعال الأخرى كالأكل والشرب.

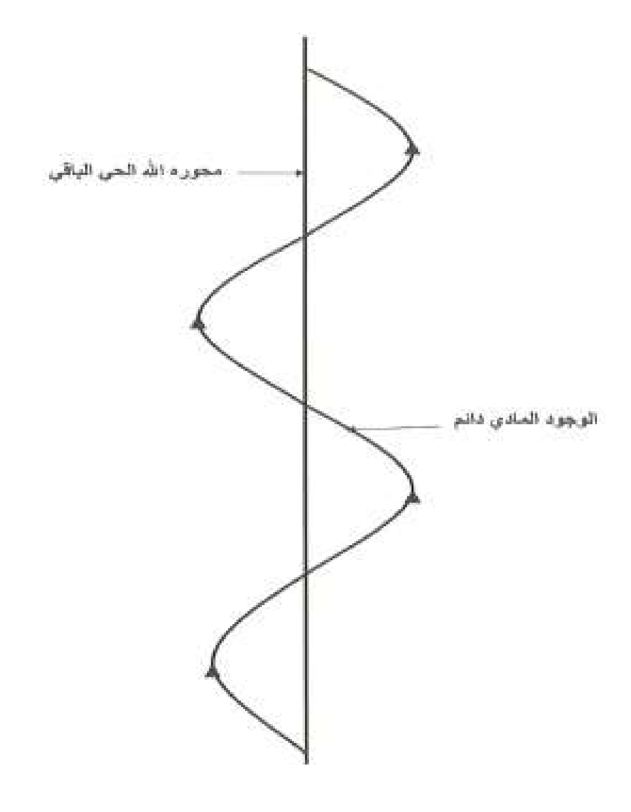
6 – للمزيد من الاطلاع في موضوع الشاهد والشهيد، يرجى الرجوع إلى كتابنا **تجفيف منابع الإرهاب**، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ٢٠٠٨.

وقوله {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..} (الرعد ٣٥) هنا ذكر الدوام في مجال الجنة وأكلها وظلها. وقد ذكرت في فصل الجدل بأن الكون الآخر له قوانين مادية جديدة خالية من صراع المتناقضات في الشيء الواحد، فلاموت ولاولادة ولاحمل. وتقوم علاقات تأثير وتأثر متبادل جديدة بين الأشياء. لذا قال {أُكُلُهَا دَائِمٌ} بمعنى اللزوم والثبات و"ظلها دائم"، بمعنى اللزوم والثبات. ولو قال "مستمر" لوجب تحديد الفترة الزمنية للاستمرار كقوله {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} وقولنا جلس زيد ثلاث ساعات مستمرة. علماً بأن الزمن في الكون الآخر له مفاهيم مغايرة لمفهوم الزمن في كوننا الحالي. لذا قال أيضاً في مجال اليوم الآخر عن أهل الجنة وأهل النار {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ..} (هود ١٠٧) أي هناك سموات وأرض في هذا الكون بظواهر التقطع والاستمرار، وهناك سموات وأرض في الكون الآخر بقوانين الدوام من اللزوم والثبات وبمفاهيم جديدة للزمن.

أما الباقي فقد جاءت في اللسان العربي من أصل "ب ق ي" وهو ضد الفناء أي يبقى على ما هو عليه. لذا نقول إن الله حي باق ولانقول حي دائم. ألا ترى إلى قوله تعالى {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو

الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} (الرحمن ٢٧) وقوله {وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (الأعلى ١٧) {.. وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (طه ١٣١) {.. وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى..} (القصص ٦٠) {.. وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} (طه ١٢٧) {.. وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (طه ٧٣) {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} (الصافات ٧٧) أي أن سلالة نوح لا تندثر إلى يوم القيامة وهي منتشرة في كل أنحاء المعمورة، لذا أتبعها بقوله {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} (الصافات ٧٨، ٧٩) ومنه البقاء بمعنى البقية وهو ما تبقى ولم يفن أو يستهلك حتى لحظة معينة كقوله تعالى {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} (الحاقة ٨) وقوله {.. وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى..} (البقرة ٢٤٨) وقوله {.. وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا..} (البقرة ٢٧٨) وقوله {وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى} (النجم ٥١) وقوله {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ..} (هود ١١٦).

من الدائم والباقي نستنتج أن الوجود المادي الحالي دائم يحمل صفة التقطع والاستمرار التي تعبر عن حركة التغير والتطور. والزمن هو الديمومة الحاملة لهما. والله حي باق لا يحمل صفة التطور والتقطع والاستمرار. فالوجود المادي الحالي دائم ومحوره الله الحي الباقي "أي المرتبط به". ويمكن أن نمثل الدائم والباقي في الشكل الرمزي التالي:



– {.. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (يونس ٦١)

فالله هو محور الوجود المادي الذي يسيطر عليه ومربوط به لذا قال "وما يعزب" وقوله "في كتاب مبين" أي أن الدائم "التقطع والاستمرار" هو في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة الجزئية لأنها تخضع للزمن أي أن نسبية الزمن من قوانين الإمام المبين وليس اللوح المحفوظ.

والدائم والمادة لهما معنيان متقاربان فالمادة جاءت من "م د د" ومنه الامتداد، وضمناً تحمل معنى الزمان والمكان فالامتداد فيه حركة "زمان" ويحصل ضمن فراغ "مكان" ومنه نقول الديمومة للمادة والبقاء لله.

الفرع الثالث الوحي وعلم الله وقضاؤه

أولاً: الوحي

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} (النساء ١٦٣).

فالوحي هو أحد أنواع المعرفة الخاصة. وقد جاء الوحي في اللسان العربي من أصل "وح ي" وهو أصل يدل على إلقاء علم في الخفاء إلى غيرك. والوحي: الإشارة وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

فالوحي في الأساس هو نقل المعلومات والأوامر والنواهي بعدة طرق عددها التنزيل الحكيم بالأشكال التالية:

١– الوحي عن طريق البرمجة الذاتية.

٢– الوحي عن طريق التشخيص "السمع والبصر".

٣– الوحي عن طريق توارد الخواطر.

٤– الوحي عن طريق المنام.

٥– الوحي المجرد.

٦– الوحي الصوتي عن طريق السمع.

– **الوحي عن طريق البرمجة العضوية في الكائنات الحية أو الوظيفية في ظواهر الطبيعة:** وذلك عن طريق تخزين معلومات وأوامر في البنية الجينية للخلايا كقوله تعالى {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ

أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل ٦٨، ٦٩) أو في البنية الوظيفية للأشياء كقوله {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا..} (فصلت ١٢) وكقوله تعالى {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} (الزلزلة ٤–٥).

– **الوحي عن طريق التشخيص "صوت وصورة":** وهذا ما نسميه بالوحي الفؤادي وهو أبسط أنواع الوحي وأكثرها بدائية وفعالية، وقد جاء هذا النوع من الوحي إلى إبراهيم في قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} (هود ٦٩) وقوله {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} (هود ٧٧).

– **الوحي عن طريق توارد الخواطر:** وهذا الوحي وارد لكل البشر حتى يومنا هذا، فعندما يقع الإنسان في مأزق أو يفكر في مشكلة علمية تستحوذ على كل تفكيره، تأتيه فكرة أو خاطرة ما فيها الخروج من المأزق أو حل المشكلة العلمية "كتفاحة نيوتن". وهذا النوع من الوحي جاء في التنزيل الحكيم في قوله تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } (القصص ٧) وفي قوله تعالى {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي} (المائدة ١١١) وقوله عن يوسف {.. وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (يوسف ١٥) وقوله لموسى {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى} (طه ٣٨).

هذا النوع من الوحي ليس له أية علاقة بالأمور الشرعية التي تتعلق بأم الكتاب وإنما له علاقة بالأمور الإجرائية والمعرفية حين الأزمات ولا يأتي إلى إنسان عشوائياً، فالإنسان لا يفكر في أمور الذرة فيأتيه إلهام حول أسرار الذرة.

– **الوحي عن طريق المنام:** هنا يجب أن نميز بين مصطلحين هامين وهما: الحلم والمنام لأنّ لهما معنيان مختلفان في الكتاب. والشيء المشترك بينهما هو أن كليهما يحصل أثناء النوم. فالحلم مجموعة من الصور التي يراها الإنسان وهو نائم، وتتصف بأنها عبارة عن صور متداخلة بعضها ببعض وغير مترابطة. فعندما رأى فرعون الرؤيا قالوا له "أضغاث أحلام" وقولهم للنبي (ص): {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ..} (الأنبياء ٥)، لأن الأضغاث صفة للأحلام وتعني في اللغة التباس الشيء بعضه ببعض. والحلم جاء من فعل "حلم" وأحد معانيه النضوج الجنسي كقوله: {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..} (النور ٥٩) وإذا بين العلم أن هناك رابطاً بين الأحلام وبين النضوج الجنسي فهذا وارد.

أما المنام فهو ظاهرة مختلفة عن الحلم، فالمنام يعبر عن ظاهرتين:

أ- أحد أنواع الوحي للأنبياء.

ب- بالنسبة لغير الأنبياء يسمى المبشرات وهي الرؤيا الصادقة. وما زالت الرؤيا الصادقة ظاهرة شائعة بين الناس بغض النظر عن التقوى وهي ليست حلماً. لقد جاء الوحي في المنام إلى إبراهيم {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (الصافات ١٠٢). هنا جاء الوحي بإعطاء أمر من الأوامر.

وهناك وحي في المنام بإعطاء معلومات، كالوحي إلى يوسف {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (يوسف ٤).

والوحي في المنام إما أن يكون صريحاً، كالوحي إلى إبراهيم، وإما أن يكون غير صريح وبحاجة إلى تأويل كالوحي إلى يوسف حيث قال في نهاية السورة {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا..} (يوسف ١٠٠).

هنا يجب أن نميز بين قول إبراهيم {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ} حيث استعمل "أرى" في فعل مضارع، وبين قول يوسف {إِنِّي رَأَيْتُ} في الماضي. فالإنسان لا يذبح ابنه بمجرد أنه رأى في المنام مرة واحدة أنه يذبحه، بل تكرر هذا المنام لإبراهيم حتى صدقه، بدليل استعمال المضارع "إني أرى". أما مع يوسف فمحتوى المنام كان خبراً، لذا جاءه مرة واحدة فقال {إِنِّي رَأَيْتُ} وقد صدق الرؤيا. لذا سمى الله إبراهيم صديقاً في قوله تعالى {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} (مريم ٤١)، وقارن هذه الآية حول تصديق الرؤيا في قوله {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات ١٠٥)، وكذلك كانت طريقة الوحي إلى إدريس حيث بينها تعالى في قوله: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} (مريم ٥٦).

وقد أكد طريقة الوحي عن طريق المنام ليوسف حين سماه أيضا صديقاً في قوله تعالى {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ..} (يوسف ٤٦) وكذلك أطلق التنزيل الحكيم على مريم لقب صديقة في قوله {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ..} (المائدة ٧٥)، وذلك لأنها صدقت جبريل بأنه سيهبها غلاماً ذكياً وجاءها بشكل بشر سوي بدون أي علامة فارقة، فصدقته بمجرد أن أخبرها بهذا الخبر فسماها صديقة، وقد أكد ذلك قوله تعالى {.. وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ..} (التحريم ١٢). وقد سمي أبو بكر صديقاً لأنه كان يصدق النبي (ص) في كل ما يقوله بمجرد أن يقول وبدون أي نقاش.

والآن لنميز أنواع الرؤيا الصادقة:

أ– النوع الأول: للأنبياء وهو الوحي عن طريق المنام، ويكون – كما قلت إما مباشر كالوحي إلى إبراهيم، أو غير مباشر "رمزي" كالوحي إلى يوسف.

ب– المبشرات: وهي الرؤيا الصادقة وليست وحياً. وهذا يمكن أن يحصل مع كل الناس، المؤمن وغير المؤمن. ويمكن أن يكون مباشراً أو رمزياً. وهذا ما أطلق عليه التنزيل الحكيم مصطلح الوفاة.

هنا علينا التّمييز بين مصطلحين حصل فيهما خلط والتباس هما: الوفاة والموت. وقد قلنا إن الروح ليست سر الحياة العضوية وإنما هي سر الأنسنة فلاعلاقة لها بالموت أو الوفاة. وكل ماقيل عن الروح بأنها سر الحياة، أو أي موضوع يربط الروح بالحياة العضوية، يجب أن يستبعد، لأنه كما بينا سابقاً– يخالف العمود الفقري للكتاب جملة وتفصيلا. فقد حدث الخلط بين الحياة والموت بسبب الالتباس بين النفس والروح. علما أنّ النفس في اللغة الإنكليزية يقابلها مصطلحان: (body) الجسد العضوي، و(Soul) المشاعر والأحاسيس والشخصية "الأنا". أما الروح فيقابلها (Spirit). وفي اللغة الروسية هناك مصطلح (YWAΔ) النفس ومصطلح الروح (YXΔ). أما التنزيل الحكيم فقد أطلق مصطلح النفس على معنيين يفهمان حسب سياق الآية:

– المعنى الأول: النفس ككائن عضوي حي تنطبق عليه ظاهرة الموت، أشار إليها في قوله تعالى {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ..} (آل عمران ١٨٥) هذه النفس التي تموت موجودة عند كل الكائنات الحية بما فيها الإنسان، وهي التي يمكن قتلها كما في قوله تعالى {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ..} (الأنعام ١٥١). والنفس التي حرم الله قتلها هي النفس البشرية، فهناك نفوس أحل الله قتلها كالأنعام والبهائم والأسماك. وهي التي أشار إليها قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا..} (آل عمران ١٤٥) وقوله {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ..} (الحجرات ١٥) وقوله {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} (التكوير ٧) هذه النفس هي التي نطلق عليها مصطلح الجسد العضوي المادي الذي ينتقل من حال الحياة إلى حال الموت والتحلل العضوي والتغير والفناء.

– المعنى الثاني: النفس الإنسانية فقط وهي النفس التي تتوفى ولها طب خاص بها اسمه الطب النفسي، وفيها مجموعة الأحاسيس والمشاعر كالحب والكراهية والألم النفسي والراحة النفسية والسرور والعذاب، وهي التي قال عنها تعالى {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الزمر ٤٢).

من خلال ما سبق، يتبين لنا الفرق الكبير بين الروح والنفس. حيث أن الروح هي إزالة التناقض والربط المجرد وهي سبب المعرفة والتشريع والخلافة، وهي من الله مباشرة لأنها من صفات الله

التي لا ينطبق عيها قانون صراع المتناقضات الداخلية في ذاته. أما النفس التي تتوفى فهي الصور المدركة والأحاسيس واللذات والمشاعر ولها جدل خاص بها، وهي ليست الروح وإنما من نتاجها، فالصور والأحاسيس تعتمد على المدركات من الأشياء وإدراك الأشياء يتم بواسطة الروح. ولما كانت هذه الروح لا تتحلل بالموت لأنها غير مادية، فقد قرنها بالوفاة وقرن النفس العضوية بالموت. وأعطى نفس المصطلح للحالتين لأنهما مرتبطتان بعضهما ببعض في الحياة، ولا يحصل الانفصال إلا في المنام والموت لذا قال {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}. وهنا يحسن أن نزيل الالتباس الذي يقول إن النوم كالوفاة فهذا وهم. فالمنام هو الوفاة، والذي يحصل أثناء النوم ليس النوم نفسه. فماذا يحصل في المنام وليس في الحلم؟ يرى النائم في المنام مجموعة من الصور والأحداث المباشرة لها معنى مباشر أو رمزي فيها رعب أو سرور أو خوف أو فرح أو ألم أو لذة. فيقول التنزيل الحكيم إن هذه وفاة مؤقتة للنفس ترسل بعدها لقوله تعالى {وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى} هذه الحالات لا تحدث بالضرورة كلما نام الإنسان، ولكن إن حدثت فإنها تحدث أثناء النوم. ولتمييزها عن الحلم فإنها قابلة للتحقيق "التأويل" وهذه التي سميت المبشرات "الرؤيا الصادقة".

أما الوفاة الدائمة التي أشارت إليها عبارة {حِينَ مَوْتِهَا} فذاك أن كل إنسان في لحظة الموت سواء أكان الموت سريعاً جداً أم بطيئاً يرى مجموعة من الصور يشعر فيها بالراحة أو بالعذاب. هذه الصور تبقى ثابتة إلى يوم يبعثون، أما الجسد فليس له أي علاقة بذلك سواء دفن أم حرق، وهذا ما نسميه حياة البرزخ. هذه الحياة عبارة عن صور ثابتة وشعور ثابت يستمر مع الإنسان حتى يبعث يوم القيامة، فهو في هذه الفترة، أي فترة ما بعد الموت والحياة الثانية، لا يشعر بالزمان والمكان لأن وجوده ليس مادياً بل يعيش بصفة مجردة في آخر منام رآه، وهي حالة غير عضوية ولاعلاقة لها بالحياة المادية الجسدية. هكذا فقط نفهم قوله تعالى {.. وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آَيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} (الأنعام ٩٣) وقوله تعالى {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة ٨٣– ٩٦).

نلاحظ هنا كيف يعطي صورة الوفاة حين الموت. فالمقربون يشعرون كشعورهم بفسحة ونزهة "روح" وهم في غاية الراحة "ريحان". هنا ريحان على وزن فعلان وهي ضد "تعبان". ولكي

يبين سبحانه أن هذه الصورة التي تحصل في الوفاة حين الموت تبقى ثابتة إلى يوم يبعثون، قال عن آل فرعون {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر ٤٦). هنا نلاحظ قوله: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} أي ثبات الصورة منذ الموت حتى قيام الساعة لقوله: (ويوم الساعة ادخلوا)، فهنا أكد القرآن أنّ لا نعيم جسدي ولاعذاب جسدي إلا بعد البعث الجسدي والحساب المادي، فهناك توجد الجنة والنار الماديتان.

هذا البحث يقودنا إلى استنتاج مهم جداً، هو ما يسمى بعذاب القبر. فإذا فهم عذاب القبر فهماً رمزياً، على أنه آخر الصور التي يراها المتوفى حين موته بغض النظر أتم دفنه في القبر أم تم حرقه أم التهمته الوحوش، أمكن تقبله بتحفظ لأن الموضوع بحاجة لمزيد دراسة وتتبع، ولكننا نقول مبدئياً بأنه وارد بالمفهوم المجرد الذي سقناه ولايتعارض مع المفاهيم الواردة في التنزيل الحكيم. أما ما ورد في كتب الحديث عن منكر ونكير وسؤال الميت بعد الدفن عن ربه ودينه، فيتناقض مع المعطيات العلمية المعاصرة. لهذا فإن ما يفعله بعضهم من تلقين الميت بعد الدفن لم نجد له سنداً صحيحاً. ومن مجانبة الدقة أن نقول الصلاة على روح فلان أو الفاتحة إلى روح النبي (ص) أو روح الميت. والأدق أن نقول الصلاة على نفس فلان ونفس النبي (ص) أو نفس الميت. فنحن نقرأ في الأثر قول النبي (ص)– إن صح –: ''والذي نفس محمد بيده''، كما نرى وجوب إعادة النظر في كل ما ورد من روايات في كتب التراث تذكر الروح على أنه سر الحياة ووضع علامة استفهام كبيرة على صحتها.

أما النفس التي ترى حين الوفاة الروح والريحان وجنة نعيم وتثبت لها هذه الصورة إلى يوم القيامة فهي التي قال عنها تعالى {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي} (الفجر ٢٧–٣٠) يبقى أن نلاحظ أنه حيثما ورد ذكر الموت والوفاة في التنزيل الحكيم فالمصطلح المرافق هو النفس وليس الروح.

قد يسأل سائل: لقد أوردت في بحث الجدل أن الجنة والنار لم توجدا بعد وإنما ستوجدان على أنقاض هذا الكون بعد هلاكه، فكيف قال عن النفس المطمئنة {وَادْخُلِي جَنَّتِي} والجنة لم توجد بعد؟ الجواب: أن التنزيل الحكيم أشار إلى أن هناك جنة ليس لها علاقة بجنة المتقين أو جنة الثواب والعقاب سماها جنة المأوى في قوله تعالى {وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} (النجم ١٣–١٥).

من هذه الآيات نناقش حادثة المعراج. فإذا شاهد النبي الجنة والنار في المعراج– وقد قلنا إن الجنة والنار لم توجدا بعد – فهذا يعني أن المعراج حصل في المنام. أما إذا كانت المشاهدة فؤادية أي

مرتبطة بالحواس فهذا يعني أنه شاهد جنة المأوى وليس جنة الثواب. وقد ذكر التنزيل الحكيم أن المشاهدة حسية فؤادية في قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} (النجم ١١) وفي قوله {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} (النجم ١٧). وختاما يبقى للبحث المستقبلي ترتيل آيات النفس التي جاءت في التنزيل الحكيم تحمل معنى النفس – الجسد التي تموت، ومعنى النفس التي تتوفى. فعلى سبيل المثال قوله تعالى {.. وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (العنكبوت ٤٠) يقصد النفس التي تتوفى، وقوله تعالى {.. فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ..} (السجدة ٢٧) يقصد النفس التي تموت.

لقد ذكرنا أنّ ما جاء في الكتاب عن الوفاة والموت يسمىّ حياة البرزخ بالنسبة لكل الناس. والناس الوحيدون المستثنون من هذه الحياة هم الأنبياء والشهداء. فهذه الحياة بالنسبة لهم ملغاة حيث تستمر مباشرة حين موتهم ووفاتهم– حياتهم المادية والجسدية والنفسية– عند الله سبحانه وتعالى وليس في الجنة. وقد يقول البعض إنّ جثث الشهداء تبقى في الأرض أو تحرق. هذا صحيح ولكن جسد الإنسان المادي عبارة عن مجموعة من الكميات والنسب المادية المؤلفة من عناصر، ولكل إنسان وصفة خاصة به من المواد ونسبها وهندستها، هذه الوصفة موجودة عند الله سبحانه وتعالى ويعاد تركيبها. أما الجسد الذي مات فيبقى في الأرض. لذا قال عن الشهداء: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (آل عمران ١٦٩)، ففي قوله ''أمواتا'' يعني بذلك الحياة العضوية وأتبعها بقوله ''أحياء عند ربهم''. وأضاف إليها أمرا ماديا بحتا في قوله ''يرزقون''. ونلاحظ هنا أنه قال ''عند ربهم'' ولم يقل في الجنة، وذلك مثال قوله:{يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩) وقوله: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} (لقمان ٣٤).

وقد أكد أنه لا بعث للنبييّن والشّهداء لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون في قوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} (الزمر ٦٩). لاحظ قوله هنا ''وجيء بالنبيين والشهداء''، فقد قال ذلك لأنهم أصلا موجودون ''عند ربهم''.

هنا يتبيّن لنا المرتبة العالية للشهداء حيث أنّ مكافأتهم من الله هي من جنس التضحية التي قدموها ولكن تفوقها درجات. فالشهداء قصّروا أعمار أنفسهم وآثروا الموت على أن يستمروا في الحياة ويستمتعوا بها أطول مدة ممكنة فكافأهم الله سبحانه وتعالى بأن أحياهم ومتّعهم ورزقهم من لحظة موتهم إلى يوم يبعثون.

– **الوحي المجرد:** هو أرقى أنواع الوحي، حيث يأتي جبريل دون أن يُدرَك بالحواس فيلتبس مع النبي (ص) ويسجل الآيات الموحاة بشكل مباشر في الدماغ ''القلب''. هذا النوع من الوحي الأساسي

هو الذي كان يأتي للنبي (ص)، وهنا يجب أن نناقش الوهم الذي يقع فيه البعض من أن النبي (ص) كان يغيب عن الوعي عندما يأتيه الوحي المجرد، فقالوا إن النبي (ص) كانت تأتيه نوبات من الصرع. وقد حصل هذا الوهم من أن النبي (ص) كان يغيب عن الوعي ويتصبّب عرقاً حين يأتيه الوحي، وبعد أن يتركه الوحي كان يصحو ويعود إلى وعيه، ويتلو الآيات التي أوحيت إليه، وأحيانا كانت تأتيه سورة كاملة من السور الطوال على دفعة واحدة كسورة يوسف ومعظم سورة الأنعام. لنناقش هذا الزعم ونرد على هذا الوهم بما يلي:

١– إن الإنسان المريض بالصرع الذي تأتيه نوباته يصحو بعد النوبة كالمخبول ولا يقول إنه علم شيئاً أو زادت معلوماته قيد أنملة أثناء النوبة. وكل العرب الذين عاشوا مع النبي (ص)، المؤمن منهم والكافر، كانوا يعلمون أن النبي (ص) كان يغيب عن الوعي أثناء الوحي، وبعد أن يعود إلى وعيه يتلو عليهم الآيات التي أوحيت إليه.

٢– إننا نعلم بشكل قاطع أنه لا يمكن للإنسان أن يفكر بشكل متلازم بأمرين اثنين بنفس اللحظة. فهناك طريقتان لاستلام المعلومات: إما عن طريق الحواس التي توصلها إلى المخ "الإدراك الفؤادي" ثم يبدأ المخ بعملية التحليل والتركيب "الفكر والعقل" ويصدر أحكاماً. وفي هذه الحالة، الحواس هي واسطة المعرفة والإنسان بحاجة ماسة إليها. وإما أن تأتي المعلومات إلى الدماغ بشكل مباشر متجاوزة الحواس. وهذا التجاوز لا يمكن أن يحصل موضوعياً إلا إذا غاب الإنسان عن الوعي. والعلم والتجارب العلمية يمكن أن تبرهن على هذا حالياً أو في المستقبل. فإن أردنا أن نعطي معلومات وأوامر ونواهي إلى دماغ شخص بشكل مباشر واستطعنا فعل ذلك فهذا يعني أننا بالضرورة نحتاج إلى أن نعطل حواس الشخص الذي يتلقى المعلومات ونغيبه عن الوعي، إذ لا يمكن أن نعطي للإنسان معلومات مباشرة إلى دماغه وحواسه تعمل، لأن الحواس بحد ذاتها مصدر للمعلومات.

وعلى هذا فلا غرابة أبداً من الناحية العلمية، أن يغيب النبي (ص) عن الوعي أثناء الوحي. لذا أطلقت على هذا النوع من الوحي مصطلح الوحي المجرد أي المجرد عن الحواس، وهو أرقى أنواع الوحي. علماً بأنه وحي مادي يأتي من خارج دماغ النبي (ص) ومن خلال قوانين موضوعية "جبريل" وليس من نشاطات الدماغ الذاتية بدلالة قوله تعالى {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} (الإسراء ١٠٥) أي أن ترجمة القرآن إلى العربية حدثت خارج وعي محمد (ص) {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ}. وتم نقله موضوعياً إلى قلب محمد (ص) {وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}. لذا كان دور النبي (ص) هو البشير والنذير، حيث أن التبشير بالجنة والإنذار بالنار هو من القرآن.

–**الوحي الصوتي:** وهو شكل الوحي الذي جاء إلى موسى عليه السلام فقط بالإضافة إلى أشكال أخرى كالإلهام. لذا فصل سبحانه الوحي إلى موسى في أية منفصلة وحدها في قوله تعالى {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (النساء ١٦٤)، بعد أن عدد في الآية ١٦٣ قبلها أسماء مجموعة من الأنبياء والرسل وذكر أنه أوحى إليهم، ولم يذكر فيهم موسى، بل خصه وحده بهذه الآية المنفصلة.

هذا الوحي الصوتي جاء لموسى "صوتا" ومنسوخا كالوصايا العشر "الفرقان" بدلالة قوله تعالى {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} (الأعراف ١٤٥) وقوله {.. وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ..} (الأعراف ١٥٠).

– أنواع الوحي التي أوحيت للنبي محمد (ص):

١– الوحي المجرد: لقد كان هذا النوع الأساسي للوحي للنبي (ص).

٢– الوحي الفؤادي: كانت بداية الوحي للنبي (ص) بداية فؤادية، إذ لو بدأ الوحي مجرداً لما صدق النبي (ص) نفسه، ولظن أنه يتوهم. فالبداية الفؤادية للوحي ضرورة بشرية، لأن الحواس أساس المعرفة، ولهذا جاءه جبريل أول مرة صوتاً وصورة، ولم يغب النبي (ص) في تلك المرة عن الوعي. بهذه الطريقة الفؤادية أوحيت له أوائل سورة العلق. هنا نتساءل: لماذا لم ينزل عليه القرآن "لا الكتاب" جملة واحدة، بل جاء مرتلا؟ ويأتي الجواب في قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} (الفرقان ٣٢) لقد جاء القرآن على دفعات ببداية فؤادية "مشخصة" لتثبيت فؤاد النبي، أي لكيلا يشك، ثم جاءه بعد ذلك على أرتال بالطريقة المجردة.

ثانياً: علم الله

قلنا إن علم الله أرقى أنواع العلم. فهو علم تجريدي بحت يحمل الصفة الرياضية المتصلة والمنفصلة معاً {.. وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} (الجن ٢٨) {.. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد ٨)، وقلنا إن العلم التجريدي هو علم مجرد عن الحواس. فالحواس ضرورية للإدراك الفؤادي المتعلق بالحواس من جانب، وضرورية لناقصي المعرفة لاكتساب المعارف عن العالم الموضوعي المادي من جانب

آخر. أما الإدراك المجرد فهو إدراك بمعزل عن الحواس ”العقل“، لذا فعلم الله علم مجرد وهو في الوقت نفسه يحمل صفة كمال المعرفة.

فإذا قلنا إن مخلوقاً ما يعرف أشكال الموجودات واحتمالاتها، ويعرف كل أصوات الموجودات واحتمالاتها، ففي هذه الحالة يبصر ولكن بدون عين ويسمع ولكن بدون أذن فيزيولوجية. لذا نقول إن الله سميع بصير أي يسمع بدون أذن ويبصر بدون عين فيزيولوجية، حيث أن الحواس ضرورية لناقصي المعرفة. وقد أكد سبحانه ضرورتها لاكتساب المعرفة وربطها بالفؤاد في قوله تعالى {وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل ٧٨).

فبالنسبة لناقص المعرفة هناك السمع كوظيفة عضوية للأذن تؤدي إلى المعرفة، وهناك الاستماع كفعل إرادي للإنسان نفسه. لذا فإننا نرى في التنزيل الحكيم عبارة ”قد سمع الله“ كما في قوله تعالى {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا..} (المجادلة ١) وقوله {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ..} (آل عمران ١٨١). لكننا لا نرى في التنزيل الحكيم صيغة ”استمع الله“ وإنما هي لغير الله من العاقل كقوله تعالى {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ..} (الجن ١) وقوله {قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} (الشعراء ٢٥) وقوله {.. فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} (الجن ٩) وقوله {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الأعراف ٢٠٤).

لنناقش الآن: هل يحتمل الله كامل المعرفة أن يكون له شريك؟ أي هل هناك إمكانية بأن يحمل إله آخر أو أي كائن آخر نفس الصفة؟ هذا مستحيل. وللدلالة على ذلك نقول إن كمال السرعة، في حدود ما نعلم، موجود في الضوء، فإذ سار جسم بسرعة أقل من سرعة الضوء لا يصبح ضوءاً، ويبقى جسماً مغايراً للضوء. ولكنه إذا سار بسرعة الضوء، يصبح ضوءاً، حيث أنه لا يسير بسرعة الضوء إلا الضوء. فالسيارة تصبح ضوءاً، والإنسان يصبح ضوءاً إذا بلغت سرعتهما سرعته.

هكذا نرى أن كمال السرعة لا يكون إلا في واحد، وهذا الواحد لا يحتمل الشريك ولايحتمل معادلة الزمن. وكمال المعرفة لا يكون إلا في واحد ولايحتمل الشريك ولايحتمل معادلة الزمن {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الحديد ٣). وكما أن سرعة الضوء هي السرعة التي تنسب إليها كل سرعات الأجسام الأخرى، كذلك فإننا ننسب إلى علم الله كل علوم المخلوقات الأخرى {.. وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ..} (البقرة ٢٥٥). وبما أن الروح هي سر اكتساب المعرفة فقد أعطاها الله للإنسان ليكون خليفة له {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} فأصبح

البشر إنساناً متعلماً مكتسباً للمعارف، فكلما زادت معارف الإنسان زاد اقتراباً من الله بالمعرفة، وكلما زاد جهلاً بعد عن الله. وهكذا نرى أن الإنسان ككل يقترب من الله مع التطور ومرور الزمن، وسيبقى هذا الاقتراب من الله مستمراً حتى يأتي يوم يظن فيه الإنسان أنه أصبح إلها. فعند ذلك تقوم الساعة {.. حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا..} (يونس ٢٤).

والآن نسأل السؤال التالي: هل علم الله يقيني أم احتمالي؟ نقول هو الاثنان معاً. فعلم الله يقيني كامل بالأشياء والأحداث القائمة والموجودة فعلا بدلالة قوله تعالى {.. وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} (الأنعام ٨٠) وقوله {.. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا..} (الأعراف ٨٩) وقوله {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا..} (طه ٩٨) وقوله {.. رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا..} (غافر ٧) وقوله {.. وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} (الطلاق ١٢) وقوله {.. وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ..} (فاطر ١١، فصلت ٤٧) وقوله {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الحجرات ١٦) وقوله {.. ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المجادلة ٧) وقوله {.. وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (التغابن ١١) وقوله {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..} (الحج ٧٠).

نلاحظ في الآيات السابقة قوله {بِكُلِّ شَيْءٍ}، فالأشياء هي الموجودات فعلا، وقد أجمل علمه بقوله {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} وقد شرحت معنى الكرسي في الباب الأول. أما عن حركة الأشياء ووظائفها فقال تعالى {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا..} (سبأ ٢، الحديد ٤) وقال {.. وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا..} (الأنعام ٥٩).

علينا هنا أن نميز بين نوعين من علم الله:

أ– النوع الأول: علم الله بالأشياء وظواهرها وحركاتها وهو الذي شرحناه.

ب– النوع الثاني: علم الله بالسلوك الإنساني الواعي وبالاختيار الإنساني.

لقد حصل لغط كثير وجدل طويل وأخذ ورد والتباس في النوع الثاني من علم الله حول السلوك الإنساني والاختيار. ومرد هذا الالتباس إلى أنهم أدخلوا في علم الله حول الاختيار الإنساني ما لا يدخل فيه، ولم يرد له ذكر في الكتاب.

فحول علم الله بالاختيار الإنساني قال تعالى:

– {.. وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} (النمل ٢٥).

– {وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} (النمل ٧٤)

- {وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} (القصص ٦٩)
- {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} (الأحزاب ٥١)
- {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} (غافر ١٩)
- {.. وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (الشورى ٢٥)
- {.. وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} (محمد ١٩)
- {.. وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} (محمد ٢٦)
- {.. وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الحجرات ١٨)
- {.. وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ..} (التغابن ٤)
- {.. إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} (الأعلى ٧)
- {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ..} (البقرة ٢٧٠)
- {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ..} (آل عمران ٢٩)
- {.. يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} (آل عمران ١٦٧).
- {.. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} (آل عمران ٩٢)
- {.. قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (القصص ٨٥).
- {.. عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ..} (البقرة ١٨٧)
- {.. فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ..} (الفتح ١٨)
- {.. فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} (الفتح ٢٧)
- {.. عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ..} (المزمل ٢٠)
- {.. عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ..} (المزمل ٢٠).
- {.. عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا..} (البقرة ٢٣٥).
- {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ..} (الأنفال ٢٣).
- {الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا..} (الأنفال ٦٦).

إن الآيات الواردة أعلاه كلها تتحدث عن سلوك إنساني واع، فلنأخذ مثلا قوله {يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} فقد جاءت في صيغة المضارع للدلالة على استمرارية العلم أولاً، وجاء العلم لأمر مخفي فعلا. فإذا كان زيد في لحظة ما لا يخفي شيئا فالله يعلم أن زيداً لا يخفي شيئاً في هذه اللحظة. وفي لحظة تالية إذا أخفى زيد شيئاً فإن الله يعلم أن زيداً قد أخفى شيئاً. وكذلك الإعلان والإسرار.

وبما أن السر والعلن متغير عند الإنسان بتغير نواياه، فقد جاء العلم بصيغة المضارع للدلالة على استمرارية المعرفة. فأين يكمن الالتباس إذاً؟

إن الالتباس يكمن في أنه إذا نوى زيد غداً القيام بأمر ما فإن الله منذ الأزل يعلم أن زيداً في يوم كذا وساعة كذا وثانية كذا سينوي القيام بهذا الأمر. إننا ننظر إلى الأمر نظرة مغايرة ولتبيانها نقول:

لنبدأ بمناقشة أنه لو كان يدخل في علم الله منذ الأزل ماذا سيفعل زيد في حياته الواعية، وماهي الخيارات التي سيختارها منذ أن صار قادراً على الاختيار إلى أن يموت فلماذا تركه إذا كان يعلم ذلك؟ من أجل تبرير هذا الأمر ندخل في اللف والدوران، فنقول إن الله علم منذ الأزل أن أبا لهب سيكون كافراً، وأن أبا بكر الصديق سيكون مؤمناً. ثم نقول إن أبا لهب اختار لنفسه الكفر وأبو بكر اختار لنفسه الإيمان. إن هذا الطرح لا يترك للخيار الإنساني الواعي معنى، بل يجعله ضرباً من الكوميديا الإلهية مهما حاولنا تبرير ذلك. وإن كان الأمر كذلك فماذا نعني بقولنا: إن الله كامل المعرفة؟

إننا نعني أن الله كامل المعرفة بالأشياء وأحداثها "الطبيعة وظواهرها" لأن علمه رياضي {.. وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا..} (الجن ٢٨) {.. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد ٨)، والرياضيات اليوم أرقى أنواع العلوم، ولو توصل العقل الإنساني "المصوغ من روح الله" إلى علم هو أرقى من الرياضيات وسميناه العلم س ثم وجدنا في القرآن إشارة إليه كانت تخفى علينا، أو كنا نؤولها تأويلاً آخر لجهلنا بالعلم س، لقلنا إن علمه جل وعلا علم سيني. وما دمنا لا نعرف علماً أرقى من الرياضيات فإننا نذهب دون حرج إلى أن علمه رياضي "دلنا على ذلك العقل المصوغ من روح الله". إن الرياضيات تتصف بالدقة والتنبؤ، فإذا علمنا القانون الرياضي لظاهرة ما في الطبيعة، يصبح من السهل علينا أن نتنبأ سلفاً بسلوك هذه الظاهرة. وهذا ما نفعله الآن في الاختراعات الكبيرة في الطب والعلوم. إذ يمكننا أن نحكم سلفاً على موعد وصول الصاروخ إلى القمر إذا عرفنا قدرته وسرعته... إلخ. وبما أن الوجود هو كلمات الله، فقد طمأننا سبحانه بقوله تعالى {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}، وبما أن عين الأشياء هي كلماته، وظواهر الأشياء في كلماته لذا قال {.. سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (مريم ٣٥). وقال {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس ٨٢) وقال عن ظواهر الطبيعة إنها في كتاب مبين فلايوجد شيء في الطبيعة صغيراً كان أم كبيراً إلا يعلمه الله ويسيطر عليه {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} (لقمان ١٦) لذا فإن معرفة الإنسان بكلمات الله هي مفتاح خلافته لله في الوجود وهي مفتاح رقيه.

فعلم الله بالطبيعة إما علم مبرمج سلفاً في اللوح المحفوظ "القرآن المجيد" الذي يحوي قوانين جدل الطبيعة الأول والثاني والخلق والتطور والساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار، أي قوانين الجدل المادي لهذا الكون والكون الذي يليه. وإما علم في كلية الاحتمالات لظواهر الطبيعة الجزئية القائمة على الأضداد والتي نفهمها من خلال الرياضيات والتي سماها "كتاب مبين". وبما أن سلوك الإنسان سلوك احتمالي فقد سمى القصص أيضا الكتاب المبين لذا قال {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس ١٢) أي أن الإمام المبين هو أرشيف الأحداث الجزئية الجارية للأشياء في الكون والإنسان، ولهذا جاء القصص القرآني من الإمام المبين لأنه كان مؤرشفاً فيه قبل جعل وإنزال القرآن ليلة القدر، في حين أن القصص المحمدي لم يكن مؤرشفاً في الإمام المبين لأنه لم يكن له وجود مسبق فقد حصل بعد جعل وإنزال القرآن، وكانت تتم أرشفته تباعاً وفق أحداثه التي كانت تحصل وتفاعلات الرسول معها. بالإضافة إلى معلومات عند الله فقط، غير مؤرشفة ولامبرمجة سلفاً قال عنها تعالى {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..} (لقمان ٣٤)

أما بالنسبة لسلوك الإنساني الواعي، فعلينا لكي نفهمه أن لا ننسى أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وأن في الإنسان – وليس في الكائنات الحية الأخرى – شيء من ذات الله هو الروح، وأنه بها أصبح خليفة الله في الأرض واكتسب المعارف وأصبح قادراً على المعرفة والتشريع. هذه النقطة إذا نسيناها فإن السلوك الإنساني سيتحول إلى مجموعة من الصور المتحركة يديرها الذي صممها "أفلام كرتون". ولكن إذا قلنا إن هناك أمرا مشتركا بين الله والإنسان هو الروح، أي إذا قلنا إن الصور المتحركة فيها شيء من ذات المصمم، لتغير الأمر.

فعلم الله في السلوك الإنساني الواعي يقسم إلى قسمين:

١– علم الله الكامل بكلية الاحتمالات التي يمكن أن يسلكها الإنسان، فأمام كل إنسان ملايين الاحتمالات كل يوم لنومه وطعامه ولباسه وكلامه وعلاقته مع الآخرين وصلاته وصومه وإيمانه وصدقه وكذبه وعلمه وجهله. فلا يمكن لأي إنسان أن يقوم بأي عمل علني، أو يخفي أي أمر، أو يتبنى أية فكرة سراً أو علناً، إلا وتصرفه داخل في هذه الاحتمالات، وبالتالي داخل في علم الله الكلي. أي لا يمكن لأي إنسان أن يقوم بعمل ما سراً أو علناً يفاجئ الله به ولايدخل في كلية احتمالات علمه، وهذه هي عين كمال المعرفة كسرعة الضوء فإنها تحوي كل احتمالات السرعات الممكنة للأشياء. فأبو بكر لم يفاجئ الله بإيمانه وأبو لهب لم يفاجئ الله بكفره، لأنّ الكفر والإيمان كليهما معاً يدخل في علم الله. ألا ترى إلى قوله تعالى {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} (التكوير٢٨). حيث ذكر

الاستقامة في حيز التبعيض، والذي لا يشاء الاستقامة ينحرف، فعلم الله ومشيئته أن يكون هناك استقامة وانحراف معاً، لذا قال في مجال الكلية وليس في مجال التبعيض {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ..} (الإنسان ٣٠). ففي علم الله ومشيئته الاستقامة والانحراف معاً، وفي مشيئتنا نحن أن نستقيم أو ننحرف. بيد أن من يستقيم لا يفاجئ الله باستقامته، ومن ينحرف لا يفاجئ الله بانحرافه. وبهذا يصبح الخيار الإنساني الواعي خياراً حراً يستلزم الثواب والعقاب، وتصبح خيارات الإنسان غير مكتوبة عليه سلفاً. وفي هذا قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..} (الكهف ٢٩). وإذا قلنا الآن إن الله منذ الأزل علم أن أبا بكر سيؤمن وأن أبا جهل سيكفر فهذا عين نقصان المعرفة وليس كمالها. أي أن علم الله يحمل صفة الاحتمال الواحد. ولو كفر أبو بكر وآمن أبو جهل لكانت مفاجأة كبيرة لله تعالى، علماً أن باب الكفر والإيمان كان مفتوحاً أمام الاثنين على حد سواء.

٢- علم الله الكامل بأحداث مسبقة بكلياتها وجزئياتها، أو بأحداث جارية بكلياتها وجزئياتها: وذلك أنه في لحظة أن نوى أبو بكر الإيمان سراً في نفسه قبل أن يفضي بهذه النية لأحد علمها الله في نفس اللحظة التي نوى فيها أبو بكر الإيمان. إضافة إلى أن هذه المعرفة داخلة في احتمالات علمه الكامل أي لم يفاجأ بها. وهنا تكمن الصفة "الصورة" المشتركة بين الله والناس. فقد خلقنا الله أحراراً في اختيارنا ونحن بالنسبة له لسنا لهواً يلهو بنا. والفرق هو أنه كامل المعرفة "عليم" ونحن ناقصي المعرفة "متعلمين" لذا فهو حر وله تمام الحرية ونحن متحررون. وقد جاءت صيغ الآيات السابقة في صيغة الماضي وفي صيغة المضارع "الحاضر" للدلالة على علمه بأحداث مسبقة بكلياتها وجزئياتها أو بأحداث جارية بكلياتها وجزئياتها.

ولكي يبين حرية الاختيار للإنسان، وأن الإنسان الفرد لحظة اختياره لأمر ما، ينتقل هذا الأمر من علم الله الكلي المطلق "كمال المعرفة" إلى علمه المصنف الذي سيسجله على الإنسان لذا قال {.. يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..} (النحل ٩٣) وقال {.. لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (المائدة ١٠٨) فإذا اختار الإنسان الفسق بملء اختياره لم يهده الله. ومن هنا فقد وضع الله صيغاً بالنسبة للاختيار الإنساني في قوله تعالى {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ..} (العنكبوت ٣) وقوله {.. وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} (آل عمران ١٤٠) وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} (آل عمران ١٤٢) وقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المائدة ٩٤) وقوله {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ

جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (التوبة ١٦) وقوله {.. وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} (البقرة ١٤٣) وقوله {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} (محمد ٣١) وقوله {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} (الكهف ١٢).

في هذه الآيات قد يظن البعض أن الله ناقص المعرفة، علماً بأن هذه الآيات ليس لها علاقة بكمال المعرفة الكلي بل تدخل تحت باب المعرفة الجزئية التي هي جزء من المعرفة الكلية، أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة ولكن تدخل تحت باب التصنيف الجزئي. فالإنسان مثلا يختار الجهاد والإيمان، فيصنف هذا الاختيار في كتاب هذا الإنسان حصراً، أي ينتقل من باب المعرفة الجزئية التي هي جزء من المعرفة الكلية لتدخل تحت باب التصنيف الجزئي، ثم تنقل إلى باب التصنيف الشخصي لأعمال الإنسان التي يختارها أصلا من ضمن المعرفة الكلية لله. لذا فإن أعمال الإنسان كلها من أفعال وأقوال تتم أرشفتها بعد وقوعها وتصبح مسجلة في ملفه الشخصي، أما قبل وقوعها فهي جملة احتمالات وخيارات متاحة للإنسان، وعلم الله بها علم بكلية الاحتمالات لحصره لكل الاحتمالات والخيارات التي قد تتاح للإنسان، ومع ذلك تبقى مجرد احتمالات قابلة للتطبيق أو العكس، ولايصبح لها وجود حتى يقوم الإنسان باختيار احتمال من بين جملة الاحتمالات المعروضة له، فعند اتخاذ الإنسان لقرار ما باختيار احتمال دون غيره وعزمه عليه قولاً أو فعلاً، يصبح للتصرف الإنساني محل ألا وهو العقل، وجاء ذلك في قوله عز وجل {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران ٢٩)، فما يخفى في الصدور من أقوال أو أفعال هو بمثابة قرارات يتخذها الإنسان ويعزم عليها، وبالتالي يعلمها الله عندما يقررها الإنسان ويختارها من جملة الاحتمالات التي تكون واردة أمامه، فيتحول علم الله بها من علم احتمالي يضم مجموعة من الاحتمالات، إلى علم يقيني بعد اختيار الإنسان أحد هذه الاحتمالات من جملة الاحتمالات الكثيرة الواردة أمامه، ويصبح محلها العقل الإنساني بعد أن صارت قراراً متخذاً من الإنسان. ونحن إذ نقول أن محلها العقل الإنساني بعد اختيارها فذلك لأن الصدر – كما أوضحنا سابقا في الفصل السابق (عناصر المعرفة الإنسانية– القلب) – له معنيان، الأول صدر الإنسان أو قفصه الصدري، والثاني مقدمة الرأس أي الدماغ، والمقصود بالصدر في آية آل عمران ٢٩ هو المعنى الثاني أي مقدمة الرأس، لأن قرارات الإنسان لا يتم التوصل إليها والعزم عليها في قفص صدره، بل يتم ذلك بعد العملية الجدلية في المخ أي في دماغه الذي هو

مقدمة رأسه بواسطة عملية العقل التي تتم في مخ الإنسان أي قلبه الذي هو مركز دماغه. وهذا هو المعنى الذي يرمي إليه قوله تعالى {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (المائدة ٧)، أي يعلم ما يعقله الإنسان من قرارات وأفكار في مخه (قلبه) الذي هو مركز دماغه (رأسه)، فالله عز وجل يعلم بهذه القرارات والأفكار عندما توجد في قلب الإنسان (مخه) علم اليقين لأنها تخرج من دائرة الاحتمالات التي كانت بها بعد أن اتخذها الإنسان وفكر فيها، وعليه فعندما تكون على شكل احتمالات فإن علم الله المطلق بها يكون ضمن الاحتمالات الممكنة لها موضوعياً، أما بعد أن تصبح قرارات وأفكاراً فيصبح علمه بها عز وجل علماً يقينياً، ولذا فإنها في الأول تكون ضمن علم الله المطلق كاحتمال ثم تتحول إلى حقيقة ناجزة عند حدوثها، علما أنه في علم الله لا يوجد احتمال مرجح معرفياً على احتمال آخر، بل كل الاحتمالات متساوية في علم الله سواء التي اختارها الانسان أو التي لم يخترها دون تمايز معرفي مسبق بينها.

وهكذا نفهم قوله تعالى {.. إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} (يونس٢١) {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} (مريم ٧٩) هنا نلاحظ من مفهوم الكتابة أنه تصنيف أعمال الإنسان وأفعاله. وقوله تعالى {.. وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ..} (يس ١٢) {.. وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ..} (النساء ٨١) {.. بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} (الزخرف ٨٠).

ونقف هنا لكي نشرح مفهوم الإكراه. فالإكراه هو انخفاض الاحتمالات الممكنة للخيار الإنساني إلى الاحتمال الواحد فقط، فإذا وجد أمام الإنسان خمر وماء يصبح لديه خيار في أن يشرب أحدهما، أما إذا لم يجد أمامه إلا الخمر فهنا يدخل مفهوم الإكراه، حيث أن الإكراه موضوعياً هو وجود احتمال واحد للاختيار بغض النظر أذكر الإكراه علناً أم لم يذكر. وعندما ينخفض عدد احتمالات الاختيار الإنساني للاحتمال الواحد فقط فالعقيدة الإسلامية تقول لا ثواب ولا عقاب فإذا وضعتم علم الله ضمن الاحتمال الواحد فهذا يعني الإكراه ظاهراً أم مبطناً ويعني نقصان المعرفة لا كمالها.

أما قوله تعالى {.. عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ..} (المزمل ٢٠) فالطلب الذي طلبه الله من الرسول في قوله {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا} (المزمل ١–٤) فهو طلب لا يتعلق بالصلاة أو قيام الليل، وقد حاول النبي (ص) فعل ذلك ولكنه لم يستطع، علماً بأن هذه الآيات جاءت في أوائل التنزيل حيث لا صلاة ولا صوم، ولو أخذنا الآية ٢٠ من سورة المزمل وهي آية مدنية نزلت بعد نزول أوائل السورة بأكثر من عشر سنوات وهي {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ..} لتبين أن الطلب الذي طلبه غير قابل لأن يعقل ضمن المستوى المعرفي لعصر

النبي (ص) والصحابة لذا قال {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} والهاء في قوله "تحصوه" تعود على "الليل". وطلب عوضاً عن ذلك فهم ما تيسر من آيات القرآن وليس كل القرآن والقراءة هنا لا تعني التلاوة. ولما كان إحصاء الليل وتفهمه ودراسته تحتاج إلى تفرغ والناس منهم المريض، وآخرون يزاولون مهنهم للعيش "العمال"، وآخرون مجندون للقتال "الجند" فقد استعاض عن ذلك بفهم شيء من القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخير بقوله تعالى {.. عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى..} (المزمل ٢٠).

أما قوله تعالى {عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا..} (البقرة ٢٣٥)، فقد وضع عبارة "ستذكرونهن" بصيغة المستقبل للجمع، حيث أن هذه الآية وردت للنساء الأرامل أثناء العدة، وذكرهن أثناء هذه الفترة هو أحد الاحتمالات الواردة والمعروفة سلفاً.

وأما قوله {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} (الأنفال ٢٢، ٢٣) هنا وصف الله الذي لا يعقل بأنه دابة، بل من شر الدواب، وربط العقل بحاسة أساسية من الحواس هي السمع. واستعمل شر الدواب استعمالاً مجازياً، علما بأنه يتكلم عن بعض الناس، كما استعمل السمع استعمالاً مجازياً بمعنى الفهم كما في عبارة "سمعنا وأطعنا" لذا قال {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} أي في علم الله المسبق إذا اختار الإنسان الكفر وصم أذنيه عن غير ذلك فلا فائدة من إفهامه، لذا أتبعها بقوله {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} وهذه الآية هي علم مسبق على وجه العموم "كمال المعرفة في كلية الاحتمالات" ولاتعني أن أبا جهل مكتوب عليه منذ الأزل أن يكون كافراً. ولكن عندما اتخذ أبو جهل هذا الموقف تم تصنيفه ضمن هذه الزمرة "أي تمت كتابة الكفر عليه".

وكذلك نفهم قوله تعالى {الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا..} (الأنفال ٦٦) ففيه "الآن" بصيغة الحاضر و"علم" بصيغة الماضي، أي أن الضعف والقوة هي الاحتمالات الداخلة سلفاً في علم الله، ولما انطبق أحد هذه الاحتمالات على المؤمنين قال {وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا} ونلاحظ أنه وضعها في صيغة الجمع {فِيكُمْ ضَعْفًا} إذ لا يمكن أن نفهم أن الله خفف الآن بعد أن علم، وكان قبل ذلك لا يعلم. كما وضع في صيغة الجمع (ستذكرونهن).

ثالثاً: قضاء الله

لقد حمل فعل "قضى" في التنزيل الحكيم المعاني التالية:

١– قضى بمعنى ''أخبر'' كقوله تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} (الإسراء ٤) وقوله تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} (الحجر ٦٦) وقوله {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ..} (القصص ٤٤).

٢– قضى بمعنى ''أمر'' أي ضد نهى كقوله تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..} (الإسراء ٢٣).

٣– القضاء بمعنى إنهاء الشيء كقوله تعالى {.. فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ..} (القصص ١٥) وقوله {.. فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ..} (الأحزاب ٢٣) وقوله {.. أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ..} (القصص ٢٨).

٤– قضى بمعنى الإرادة الإلهية النافذة وقد جاء في قوله تعالى:

أ– {.. سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (مريم ٣٥).

ب– {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (النحل ٤٠).

ج– {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس ٨٢).

د– {.. فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (غافر ٦٨).

إن بحثنا هو قضاء الله في الحالة الرابعة حيث صاغه سبحانه بصيغة حتمية مبرمة مربوطة بقوله ''كن فيكون''. أي أن قضاء الله النافذ لا يأتي إلا من خلال كلماته {يُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ}. وكلماته هي الوجود وقوانينه الموضوعية {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا } (النبأ ٢٩)، أي أن قضاءه المبرم لا ينفذ إلا من خلال المقدورات {وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} (الأحزاب ٣٨).

فعندما أراد الله إهلاك عاد وثمود ومدين أهلكهم بقضائه، لكن عن طريق القوانين الموضوعية ''كلماته'' لذا قال عنهم {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} (هود ٥٨) وقال {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} (هود ٦٦) وقال {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ} (هود ٧٣) وقال {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ} (هود ٧٦) وقال {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ} (هود ٨٢) وقال {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ..} (هود ٩٤) وقال {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آَلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} (هود ١٠١).

هنا نلاحظ كيف ارتبط الأمر {لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} بظاهرة من ظواهر القانون الموضوعي وهي الريح، الصيحة، الرجفة، الأحجار. أي أنّ هذا الأمر تم من خلال كلمات الله وهي قوانين الربوبية بقوله عندما علّق على كل القصص: {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} (هود١٠١).

لنلخص الآن آيات القضاء المبرم:

"قضى أمراً + قولنا لشيء + إنما أمره + فإذا قضى أمراً" "يقول، نقول له كن فيكون". لاحظ القاسم المشترك بين هذه الآيات وهو فعل "يقول" وقوله الحق. هنا يجب أن نميز بين قضاء الله وأمره بإرادة مبرمة مرتبطة بالقول وبين أوامر الله ضد النواهي التي تعتبر موعظة ووصية وليست قولا.

فإرادة الله التي هي موعظة وأمر ضد النهي وعلاقات تقوى روحية لا مادية جاءت في قوله تعالى {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا..} (النحل ١، ٢) وأتبعها بقوله {.. أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} هنا نلاحظ كيف دمج أوامر الله التي هي ضد النواهي والتي لا يوجد فيها عبارة "كن فيكون" مع الروح ووضع فيها التقوى. فالصلاة أمر ضد النهي لا قول، وهي من التقوى لأنها ليست كلمة، وكذلك بر الوالدين وبقية التعاليم حيث لا نجد في التعاليم كلمة "قال الله" أو "كن فيكون" لذا ميز الأوامر التي هي ضد النواهي بقوله "يعظكم، يأمركم، يوصيكم"، والإرادة النافذة بقوله "قول، يقول، حقت كلمة ربك، فحق عليها القول". مثال الأوامر ضد النواهي التي ليست قضاءً مبرماً وليست قانوناً موضوعياً يعمل خارج الوعي وليست كلمات الله:

١– {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل ٩٠) ونلاحظ أن الأمر والنهي في الآية انتهى بعبارة "يعظكم".

٢– {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (الإسراء ١٦). لاحظ هنا الربط بين "أردنا" و "أمرنا" و"فحق عليها القول" وبدون هذا التمييز بين أمر الله، الذي هو ضد النهي "الروح"، وبين أمر الله، الذي هو قضاء مبرم والذي هو "القول" "الكلمات" "الحق"، لا يمكن فهم أساس الأسس في العقيدة الإسلامية. فإذا حكم الناس إنسان ظالم لا نقول هذه إرادة الله وهذا قدر الله، والله قضى علينا بكذا وكذا. إن هذا الكلام مناف لأساس الأسس في العقيدة الإسلامية يقضي بأن المجتمعات الإنسانية تقوم على قوانين موضوعية هي كلمات الله، وعلى قوانين ذاتية تعتبر مواعظ الله ووصاياه جزءاً منها. فوعي هذه القوانين الموضوعية هو الذي

يعطينا حرية الحركة والتصرف ويزيل عنا مفهوم الجبرية من خلال فهم العلاقة الموضوعية فالله عندما أراد أن يهلك قوما أهلكهم من خلال تصرفه بهذه القوانين الموضوعية. والآن عندما تريد دولة أن تهلك دولة أخرى فإنها تفعل ذلك من خلال التصرف بهذه القوانين "الذرّة الصواريخ – الأزمات الاقتصادية"، والتزامنا الواعي بالوصايا والمواعظ هو الذي يحدد العلاقة الاجتماعية من خلال القانون الأخلاقي.

علينا أن نعرف أن زواج زيد بزينب لا يعني أن الله كتب منذ الأزل هذه الزيجة، فلو كان الأمر كذلك لما جاء قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} (الأحزاب ٣٦). ولو كان الأمر مكتوباً منذ الأزل لما قال {الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} ولما قال {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ} لأن هذا أمر ضد النهي لا أمر على أنه كلمة. وكذلك إذا ضرب زيد عمرواً فلانقول إنه مكتوب عليه لأن الله قدر الضرب على زيد وعمرو معا في وجود اليدين وإمكانية الضرب، فإذا اختار زيد الضرب فما على عمرو إلا أن يرد عليه أو يسامحه.

هكذا يجب أن نفهم معنى كيفية قضاء الله في أعمال الناس وأرزاقهم وأعمارهم وزيجاتهم.

– الإذن والمشيئة

قلنا إن قضاء الله نوعان: أمر ضد نهي جاء في أم الكتاب، وأمر شرطي نافذ جاء في القرآن مرتبط ب: "كن فيكون" {يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} أو {فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ} أو {تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}. فقضاء الله النافذ قضاء غير أزلي، أي أن الله لم يقض منذ الأزل بهلاك قوم هود أو قوم صالح أو قوم نوح أو قوم شعيب لذا قال لنوح {.. أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (نوح ١) وقال شعيب لقومه {.. وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ} (هود ٨٤). وأن الله لم يقض منذ الأزل بزواج زينب من زيد لأنها تمنعت علماً أن الرسول أخبرها بذلك لذا قال تعالى {إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} (الأحزاب ٣٦)، فـ"إذا" هنا شرطية لما يستقبل من الزمن كان لها الخيار فيه، ولو كان قضاء أزلياً لما سئلت ولما أخبرت. وعندما يقضي الله قضاءً نافذاً فإن قضاءه ينفذ من خلال كلماته وقوله دائماً، ففي هذا القول جانبان:

الجانب الأول: إطلاق الإرادة بقوله "كن" والثاني إطلاق القدرة بقوله "يكون" ولاحظ الفرق بين "كن" الآنية و"يكون"الزمنية، إذ لو كان قضاء الله مبرماً منذ الأزل لقال "فإنما يقول له كن فكان"

وإنما جاءت "فيكون". وهذا الإطلاق قابل للتغيير والتبديل بالدعاء لأنه ليس أزلياً، لذا قال النبي (ص) في حديثه إن صح "ردوا القضاء بالدعاء". أما "اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه" فهي صيغة جبرية مشكوك فيها لأنها تناقض الصيغة الأولى، والأصح أن نقول: اللهم إنا لا نسألك رد القدر وإنما نسألك اللطف بنا. ومن هنا نفهم قوله تعالى في قوم يونس لما آمنوا بقوله {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} (يونس ٩٨) هنا نلاحظ بشكل قطعي أن قضاء الله غير أزلي ويمكن أن يتغير بتغير أحوال الناس، لذا جاء الأنبياء والمرسلون منذرين للناس، ولو كان قضاء أزلياً مبرماً لأصبحت الرسالات والنبوات والدعاء ضرباً من ضروب العبث، حيث أن القضاء الأزلي هو في قوانين اللوح المحفوظ وليس الإمام المبين، وكذلك قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (الأعراف ٩٦) وكذلك قوم يونس كفروا فأنذرهم الله بالعذاب ثم آمنوا فرفع عنهم العذاب. لذا فالقول بأن قضاء الله النافذ بالنسبة للإنسان هو قضاء أزلي غير صحيح، فقضاء الله النافذ في الإنسان قضاء مشروط بموقف الإنسان ماعدا قوانين اللوح المحفوظ الأزلي في الوجود والتطور، عندما ينفذ هذا القضاء فلاينفذ إلا من خلال كلماته. ويظهر ذلك بوضوح في القصص المحمدي في قوله تعالى {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} (الأنفال ٤٢) فهل نقول أن القضاء الوارد في هذه الآية قضاء أزلي؟ طبعاً لا. لأننا لو قلنا نعم لأدى بنا ذلك إلى القول بأن الحدث الذي ورد فيه هذا القضاء هو أزلي أيضاً، وهذا غير صحيح لأن الحدث المذكور بالآية متعلق بمعركة بدر، وهذه المعركة مرهونة بشروطها الزمكانية وظروفها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية في تلك الفترة تحديداً، حيث تهيأت الظروف الموضوعية لالتقاء الجيشين في نفس الموعد على اختلاف مكانهما، فكان جيش المسلمين بمنطقة منخفضة "العدوة الدنيا" وجيش المشركين بمنطقة مرتفعة "العدوة القصوى"، فتهيأت كل الظروف الموضوعية لتلاقيهما في منطقة واحدة بين المنطقتين، وهذا لم يكن له وجود مسبق أي لم يكن أزلياً كي يكون القضاء فيه بتلاقي الجيشين في نفس المكان أزلياً، لذا فإن القضاء الذي حصل في معركة بدر لاعلاقة له بقوانين اللوح المحفوظ، ولم يكن مؤرشفاً في الإمام المبين من قبل لأن الحدث المتعلق بهذا القضاء لم يكن له وجود مسبق ولم يكن مؤرشفاً بدوره في الإمام المبين قبل حدوثه، بل كان بتهيئة الظروف الموضوعية لالتقاء الفريقين من مناصري الرسول ومن المشركين، وعليه فهذا

القضاء قضاء مشروط بموقف إنساني جاء نتيجة ظروف معينة اجتمعت كلها لحصول هذا القضاء بتدخل إلهي.

أما قضاء الله الذي هو أمر ضد النهي فهو لا يحمل أي صفة من صفات الأزلية أو من صفات المادية حيث أنه ليس بكلمات الله وإنما هو من الروح، جاء من العرش وليس من اللوح المحفوظ أو الإمام المبين.

والآن لنبحث في الإذن والمشيئة كما جاءا في التنزيل الحكيم تحت عنوان "أذن الله" و "شاء الله".

ـــ الإذن

جاء الإذن من "أذن" يعني في اللسان العربي إعلان الشيء وتأكيد الحصول والنفاذ. فعندما يخبرنا الله عن قانون موضوعي يعمل خارج الوعي يستعمل فعل "أذن" كقوله {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا..} (آل عمران ١٤٥) أي أن إذن الله بالموت حاصل ونافذ لا محالة. ولكن الإذن يتم موضوعياً من خلال "كتاب" هو كتاب الموت، أي مجموعة الشروط الموضوعية التي إذا حصلت واجتمع بعضها مع بعض حصل الموت لا محالة، وهذه الشروط مؤجلة غير موقوتة، ومن هنا جاء شرط طول العمر وقصره. أي أن الله أذن إذا بلغت حرارة جسم الإنسان (٤٤) درجة مئوية فما فوق أن يحصل الموت، وأذن إذا شنق الإنسان أن يحصل الموت، وأذن إذا قطع رأس الإنسان أن يحصل الموت... وهكذا دواليك.

لنأخذ الآن الآيات التي يشير فيها فعل "أذن" إلى شيء لا محالة حاصل من خلال قانون موضوعي مادي:

١ــ {.. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ..} (غافر ٧٨).

هنا يبين أن الآيات البينات التي يأتي بها الرسل تنفذ من خلال قوانين مادية لا محالة حاصلة، وأنه لا خرق لأي قانون من قوانين الطبيعة وأن الخرق هو في المعرفة النسبية لدى الناس.

٢ــ {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ..} (آل عمران ١٦٦).

ــ{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (المجادلة ١٠).

- {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ..} (التغابن ١١) هنا يبين كيف أن الضرر والنفع والمصائب والنصر والهزائم لا تحصل إلا من خلال القوانين المادية الموضوعية لذا قال {بِإِذْنِ اللهِ}.

٣- {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} (القدر ٤).

- {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ..} (البقرة ٩٧).

قال "بإذن ربهم" لأن الملائكة حقيقة موضوعية مادية موجودة خارج الوعي الإنساني وتنزل من خلال قوانين موضوعية ثم عطف جبريل عليها.

٤- {.. مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ..} (البقرة ٢٥٥).

- {.. مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ..} (يونس ٣).

- {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ..} (هود ١٠٥).

- {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ..} (طه ١٠٩).

- {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ..} (سبأ ٢٣).

- {.. لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} (النبأ ٣٨).

هذه الآيات عن الشفاعة وعن الكلام في غاية الأهمية لأنها جاءت مع فعل "أذن"، أي أنه إذا أذن الرحمن لأحد بالكلام أو الشفاعة يوم القيامة فهذا يعني أنه يستطيع الكلام والشفاعة فيزيائياً، وإذا لم يأذن فهذا يعني أنه لا يستطيع الكلام فيزيائياً كأن يصبح أبكم، أي بمجرد لفظه الكلام فهذا يعني أن الرحمن أذن له، وإذا استطاع الكلام بالشفاعة فيزيائياً فهذا يعني أن الرحمن أذن له، لذا قال في سورة المرسلات ٣٦ {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} (المرسلات ٣٥، ٣٦) أي انهم موضوعياً لا يستطيعون أصلا الكلام ليعتذروا.

٥- {.. وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ..} (البقرة ١٠٢).

- {.. كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ..} (البقرة ٢٤٩).

- {فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ..} (البقرة ٢٥١).

- {.. فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ..} (آل عمران ٤٩).

- {.. وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ..} (آل عمران ٤٩).

- {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ..} (الأعراف ٥٨).

- {.. وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} (إبراهيم ١١).

- {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..} (إبراهيم ٢٥).

– {.. وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ..} (سبأ ١٢).

– {.. وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ..} (فاطر ٣٢).

هذه الآيات تبين أن النفع والضرر والنصر والهزيمة للجن والإنس ومعجزات الأنبياء لا تحصل إلا من خلال القوانين الموضوعية المادية كنبات الشجر.

فعندما أراد الله أن يعاقب بني إسرائيل من خلال القوانين التاريخية الموضوعية النافذة قال {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأعراف ١٦٧).

وعندما أراد الله أن يبين أن الربا حرام قال {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ..} (البقرة ٢٧٩)، والحرب جاءت من أصل "ح رب" ويعني السلب والنهب في الأموال والممتلكات، أي أن سلب ونهب المال لا محالة حاصل من قبل الله في حال الربا من خلال قوانين الوجود الموضوعي.

أما المعنى الثاني لفعل "أذن" ومعناه الإعلان والموافقة، وجاء في الآيات التالية:

١– {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ..} (الحج ٢٧).

٢– {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ..} (التوبة ٩٠).

٣– {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ..} (النور ٢٨).

٤– {.. فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ..} (النور ٦٢).

٥– {.. فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا..} (التوبة ٨٣).

٦– {.. إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ..} (النور ٦٢).

٧– {وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ..} (التوبة ٣).

٨– {.. لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ..} (النور ٥٨).

هنا نلاحظ كيف أن الإذن بمعنى الموافقة والإعلان جاء في آيات أم الكتاب وكيف أن الإذن بمعنى القانون الموضوعي النافذ جاء في القرآن وتفصيل الكتاب.

ـ المشيئة "شاء الله"

قلنا إن إذن الله لا محالة حاصل من خلال قانون موضوعي نافذ كالموت والنصر والهزيمة، لذا فهو لا يحتمل إلا وجهاً واحداً هو النفاذ في حال وجوده. أما المشيئة فتحتمل الوجهين الإيجابي والسلبي

كما في قوله تعالى

– {.. تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران ٢٦).

– {.. وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (آل عمران ٢٧).

– {.. إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ..} (الأعراف ١٥٥).

– {.. نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الأنعام ٨٣).

– {.. قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ..} (آل عمران ٧٣).

هنا نلاحظ الإذن والمشيئة في آية واحدة، فالوحي يحدث من خلال قوانين نافذة أما ما يوحى به لأحد من الناس فشرطي يحتمل عدة أوجه، لذا قال "ما يشاء".

– {ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ..} (الأنعام ٨٨).

فعندما قال "يهدي به من يشاء" فهذا يحتمل الوجهين: الإيجاب أو النفي لذا وضعها مفتوحة وذلك لأنه جعلها مشروطة بأعمال الإنسان طبقاً لقوله تعالى {.. وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (البقرة ٢٥٨). لذا قال {يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩) فأحكام أم الكتاب حصل فيها تطور بين نفي وإثبات حسب التطور التاريخي لذا قال "ما يشاء" فعندما تستعمل كلمة "شاء" يجب أن تفهم أنها تحتمل الوجهين أي أنها مشيئة ظرفية مرتبطة بموقف الإنسان أو لموقف تاريخي لذا قال:

– {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} (الواقعة ٦٥).

– {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} (الأنعام ١٤٩) ولكنه لم يشأ ولم يهد الناس أجمعين.

– {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً..} (النحل ٩٣) ولكنه لم يشأ وليس الناس أمة واحدة.

– {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} (هود ١١٨) ولكن لم يشأ ولم يجعل الناس أمة واحدة.

لذا فعندما نقول إن زيداً سيذهب غداً إلى الطبيب فإن ذهابه سيحتمل الوجهين: الذهاب أو عدم الذهاب فيقول: إني ذاهب غداً إلى الطبيب إن شاء الله. ولكن إذا أخذ زيد حبة من الأسبرين من أجل الصداع فيقول: فيها الشفاء بإذن الله لأنها تحتمل الوجه الواحد وهو التفاعل وتسكين آلام الرأس.

وكذلك قوله {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ..} (الكهف ٢٩) هنا ربط الكفر والإيمان بالمشيئة "مشيئة الإنسان" ولم يربطهما بالإذن لأن عقيدة الإنسان تحتمل الوجهين الإيمان والكفر وله الخيار فيهما.

ننتقل الآن إلى تأويل قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان ٣٤).

تأويل هذه الآية يؤكد بشكل قطعي جازم أن الأعمال والأرزاق والأعمار غير محددة سلفاً وذلك حسب التأويل التالي:

قلنا إن القرآن المجيد في اللوح المحفوظ وهو مجموعة قوانين الطبيعة العامة الصارمة الجازمة ومنها قوانين الجدل المادي "التطور وتغير الصيرورة" وقوانين جدل الإنسان، وإن أي حدث يتم تسجيله في الإمام المبين بعد حصوله، لذا جعل "الكتاب المبين وكتاب مبين" جزءاً من القرآن العظيم، ولا يوجد أي استثناءات منها لأحد، ومطلوب منا وعيها ومعرفتها، ومن خلال وعينا لهذه القوانين تزداد حرية التصرف. ويجدر بنا هنا أن نقارن بين مفهومين: الأول الوجود المادي الموضوعي الصارم، والثاني حرية التصرف من قبل العاقل بهذه القوانين. ومن أجل هذا نضرب المثال التالي:

يوجد في كل من الدولتين العظميين في العالم مجموعة من الأسلحة المدمرة والصواريخ مختلفة الحجوم والمدى. هذه الصواريخ موجودة وكل شيء فيها مبرمج سلفاً: الاتجاه، القوة التدميرية، آلية الانطلاق، مكان الوصول. ولكن هناك شيئاً واحداً فقط غير مبرمج سلفاً هو موعد إطلاق هذه الصواريخ، إذ أن هذا الموعد مرتبط بأعلى قيادة سياسية في الدولتين، مثلا الرئيس الأمريكي والأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي. والقيادة السياسية في كلتا الدولتين تتصرف وفق أحد الاحتمالين التاليين:

أ- إما أن تتصرف حسب الأحوال السياسية الدولية وحسب تصرف الدولة الأخرى وتقرر أن تُطلق أو لا تُطلق.

ب- أن تضع توقيت إطلاق الصواريخ عندها حصراً، ولاتظهر هذا التوقيت إلا بغتة وبشكل مفاجئ.

لقد وضع الله عنده هذين الاحتمالين معاً بعد أن خزن قوانين الكون العامة سلفاً في اللوح المحفوظ، وأبقى لنفسه حرية التصرف بهذه القوانين. هذه الحرية احتمالية، إما حرية ظرفية، أي الاحتمال الأول، وإما حرية التصرف مع التوقيت، أي إظهار الحدث بشكل مفاجئ. وعلى هذا الأساس نحلل هذه الآية بنداً بنداً:

١- **"إن الله عنده علم الساعة":** لقد برمج الله أحداث الساعة سلفاً في اللوح المحفوظ، وقد وصف لنا أحداث الساعة وماسيحصل في هذا الكون المادي حين تقوم الساعة، ولكن لم يضع توقيت

قيامها في اللوح المحفوظ، واحتفظ به لنفسه لذا قال "عنده علم الساعة". لنقارن هذه الآية مع قوله تعالى {.. وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩) أي أن أم الكتاب هي أمر ظرفي قابل للتبديل وغير محددة سلفاً "الاحتمال الأول". أما الساعة فتخضع للاحتمال الثاني لذا قال {.. لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ..} (الأعراف ١٨٧) وقال أيضا {.. لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً..} (الأعراف ١٨٧) أي أن توقيتها عنده حصراً كأم الكتاب، وقد قلنا إن أم الكتاب هي كتاب الله لذا قال {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (الروم ٥٥، ٥٦) هنا نلاحظ الناحية المهمة جداً كيف قال "لقد لبثتم في كتاب الله" ولم يقل في القرآن أو في اللوح المحفوظ أو في الكتاب.

هنا يجب علينا أن نفهم تماماً مايلي: يقول علماء الفلك والكوسمولوجيا حسب الدراسات العلمية إن الشمس ظهرت منذ كذا مليار سنة وإنها ستخبو وتنطفئ بعد كذا من الوقت، فظن البعض أن انطفاء الشمس وزوالها هو الساعة، وأخذ البعض بنظرية الكون النابض بأن هذا الكون آخذ في الاتساع، وسيأتي زمن يبدأ فيه بالانقباض ليرجع إلى نقطة الصفر، وظن البعض أن هذه هي الساعة. وهذا كله غير صحيح مع أننا لا نشكك مطلقاً بالدراسات الفلكية والكوسمولوجية، ولكننا نشك بربط هذه الأحداث بالساعة، حيث أن الساعة هي حدث كوني مفاجئ تماماً "تسارع في تغير الصيرورة" {نُفِخَ فِي الصُّورِ} وغير متوقع {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} ولا يمكن التنبؤ بزمن حدوثه أبداً {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}. وقد وصف سبحانه أشراط الساعة في عدة أماكن لذا قال {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا..} (طه ١٥) هنا (أكاد أخفيها) بمعنى "أكاد أظهرها" أي لم يظهرها ولكنه اقترب من إظهارها بقوله {.. فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا..} (محمد ١٨) ولو أن توقيت الساعة مخزن في اللوح المحفوظ أو في إمام مبين لأمكن للعلماء في المستقبل تحديد توقيتها بكل دقة، حتى دقة الثانية، ولكنها ليست كذلك.

٢– **"وينزل الغيث":** لقد حدد الله سلفاً القوانين الموضوعية مثل قوانين تشكل البخار وتشكل الغيوم الحاملة للمطر، ولكنه لم يحدد سلفاً كمية المياه التي ستنزل على كل كيلومتر مربع من سطح الأرض، ولو حدده سلفاً لأمكن للعلماء في المستقبل تحديد كمية الأمطار التي ستهطل في مساحة ما على سطح الأرض ولو بعد ألف سنة، لذا فإن الإنسان يستطيع أن يقلد تشكيل الغيوم من خلال قانون التبخر، ويستطيع أن يسوق هذه الغيوم في المستقبل ولو جزئياً لتنزيل المطر في منطقة ما لأنها غير محددة سلفاً في اللوح المحفوظ. ومن هنا نفهم معنى صلاة الاستسقاء والدعاء لله سبحانه بإرسال

الغيث، لأنه لو كانت كميات الأمطار التي ستهطل في كل منطقة إلى أن تقوم الساعة محددة سلفاً ومبرمجة مسبقاً لأصبح الدعاء لله بتنزيل الغيث ضرباً من ضروب العبث.

٣– **"ويعلم ما في الأرحام":** لقد برمج الله سبحانه سلفاً في اللوح المحفوظ قانون الزوجية واللقاح، فعندما يلقح أي حيوان منوي أية بويضة سيحصل الحمل ويتشكل الجنين. كل هذا ضمن قوانين صارمة هي قوانين الجينات والوراثة، ولكنه لم يبرمج في اللوح المحفوظ سلفاً من سيتزوج من. أي أننا نحن البشر غير مبرمجين سلفاً في اللوح المحفوظ ولكن المبرمج هو قوانين الحياة والموت والوراثة والجنين البشري أما تحويل البشر إلى إنسان فقد جاء من الله مباشرة، لذا فلا نقول إن فلانة من نصيب فلان منذ الأزل. لذا قال سبحانه {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} (الشورى ٤٩، ٥٠) لاحظ هنا قوله "يشاء" ولم يقل "يأذن"، لنعلم بشكل جلي أن عدد الذكور والإناث لكل إنسان غير مبرمج سلفاً وكذلك الزيجات، لذا فالدعاء له معنى كقوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ..} (إبراهيم ٣٩) من هنا نستنتج مايلي: بما أن نوع الجنين غير محدد سلفاً في اللوح المحفوظ أذكر هو أم أنثى، فإن باستطاعة الطب بالتالي تحديد وتوجيه نوع الجنين سلفاً أذكر هو أم أنثى ومعرفة نوعه وهو في رحم الأم. ولكن ليس باستطاعة الطب خلق جنين بدون لقاح حيوان منوي مع بويضة.

ولو كان كل شيء مبرمجاً سلفاً في اللوح المحفوظ لأمكن معرفة من سيتزوج فاطمة لحظة ولادتها وعدد الأولاد الذين ستنجبهم، ولكن هذا مستحيل لأنه غير مبرمج وإنما يحدد من خلال الشروط الظرفية "المشيئة".

٤– **"وماتدري نفس ماذا تكسب غداً":** هنا يؤكد بشكل قاطع أن اختيار الإنسان لأعماله غير محدد سلفاً في اللوح المحفوظ، وإلا فإن العلم سيعلم في المستقبل ماذا سيفعل كل إنسان غداً. هذا العمل مفتوح تماماً للإنسان، ويمكن لكل إنسان أن يختار أعماله بنفسه لأنها غير محددة له سلفاً، والأرزاق غير محددة سلفاً لكل إنسان والله يتدخل فيها تدخلاً شرطياً غير مسبق "المشيئة".

٥– **"وماتدري نفس بأي أرض تموت":** هذا مجمل للآيات التي تقول إن أعمار البشر غير محددة سلفاً في اللوح المحفوظ، ولو كانت أعمارهم محددة سلفاً منذ بداية الخلق لأمكن في المستقبل معرفة عمر كل إنسان من لحظة ولادته، وهذا مستحيل لأنه غير مبرمج سلفاً، وفي هذا قال الله سبحانه عن معركة بدر {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ..} (الأنفال ١٧) فلو كانت أعمارهم مبرمجة ومحددة سلفاً لأصبح قوله "ولكن الله قتلهم" غير ذي معنى. ولكن الله حدد سلفاً القوانين الموضوعية

التي تحدد الحياة والموت وتحدد قصر العمر وطوله ولنا نحن البشر التصرف بها حسب معرفتنا النسبية لها، والله يتدخل فيها تدخلاً شرطياً "المشيئة". لذا فإني أقول وأدعو لنفسي وللقارئ بأن يطيل الله أعمارنا ويحسن أعمالنا، وأن يتدخل تدخلاً شرطياً فيستجيب.

ـ القضاء والقدر والحرية

قلنا إن قانون الزوجية بين الأشياء وصراع المتناقضات في الشيء الواحد هما القانونان الأساسيان لجدل الأشياء، وإن ظواهر الطبيعة تقوم على الأضداد، وإن الفكر الإنساني يقوم على صراع نقيضين هما الرحمن والشيطان "الحق والباطل"، وإن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية كظواهر تقوم على الأضداد في مظهرها وعلى التناقضات في محتواها.

وبما أن الفكر الإنساني عبارة عن ظاهرة تقوم على الأضداد في مظهرها فإن الحرية الإنسانية ظاهرة تقوم على الأضداد وجدلها والحركة الواعية بين النفي والإثبات بين ضدين، وهذان الضدان متكافئان في النفي والإثبات كالشهيق والزفير، والليل والنهار في ظواهر الطبيعة، ونعم ولا في السلوك الإنساني، والكفر والإيمان في العقيدة، فلا أحد منهما يغلب الآخر وينفيه نهائياً، وفي هذا التكافؤ يكمن سر الحرية الإنسانية، إذ أن الظواهر الموضوعية للطبيعة فيها النفي والإثبات، وظواهر الحرية الإنسانية فيها النفي والإثبات "نعم، لا" بشكل متكافئ، فلا الكفر يغلب الإيمان بشكل مستمر ويسيطر على كل أهل الأرض، ولا الإيمان يغلب الكفر بشكل مستمر ويسيطر على أهل الأرض. وهذه الظاهرة في جدل الإنسان التي نعمل بها نحن المسلمين على أنها من سنن الله في خلقه جاءت في قوله تعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (يونس ٩٩) ولكي يبين التكافؤ بين النفي والإثبات في جدل الإرادة الإنسانية أورد التنزيل الحكيم هذا الجدل في الإرادة الإلهية فوضعه بشكل متكافئ في قوله تعالى {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (آل عمران ٢٧) هنا نلاحظ كيف وضع النفي والإثبات بشكل متكافئ، وذكر قبلهما ظاهرة من ظواهر الطبيعة هي الليل والنهار، واستعمل فعل "تخرج" لحالة النفي والإثبات معاً، أما في جدل الأشياء فقال {إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ..} (الأنعام ٩٥). واستعمل صيغتين "يخرج، ومخرج" لاستبعاد قضاء الإنسان، لأن الموت في جدل الأشياء هو المنتصر النهائي دائماً. وكذلك وضع الصيغة المتكافئة للنفي والإثبات في القضاء الإلهي

في الظواهر في قوله سبحانه {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (يونس ٣١). هنا نلاحظ كيف أنهى الآية بعبارة "ومن يدبر الأمر" وذكر فيها عملية الرزق، لا الرزق نفسه، وذكر ظاهرة السمع والبصر وليس الأذن والعين.

وقبل أن ندخل في تعريف الحرية علينا أن نحدد بعض الظواهر التي تدخل في مركبات الحرية الإنسانية بشكل مباشر والتي حصل فيها التباس كبير وهي عمر الإنسان ورزقه وعمله لأن هذه العناصر الثلاثة لها علاقة مباشرة بالحرية الإنسانية، هل هي محددة مكتوبة عليه سلفاً؟ أي هل مقدر على زيد منذ أن يولد أو منذ الأزل عمره ورزقه وعمله؟ أم أن الأعمار والأرزاق والأعمال مقدرات احتمالية، وبالتالي فالأعمار والأرزاق والأعمال تصبح غير ثابتة ولكنها مقدرة على وجه العموم. كيف تطول الأعمار وتقصر وكيف تتسع الأرزاق وتضيق، وماهي الأعمال التي يمكن أن يقوم بها الإنسان موضوعياً، يختار منها حسب معارفه واجتهاداته.

الفصل الرابع

الأعمار والأرزاق والأعمال

تمهيد

لقد ظن كثيرون أن عمر الإنسان ورزقه وعمله مكتوب عليه سلفاً، والمكتوب جاءت بمعنى المقدر عليه سلفاً، وبذلك يصبح الإنسان فاقد الإرادة والخيار في أعماله وأرزاقه ويصبح الطب والعلاج والعمليات الجراحية بدون معنى، وكذلك يصبح دعاء الإنسان لله تعالى ضرباً من ضروب العبث واللهو.

أما رأي القرآن فهو غير ذلك. ففي بحثنا عن القرآن والكتاب عرفنا أن "ك ت ب" تعني تجميع الأشياء بعضها إلى بعض لإخراج موضوع معين محدد، ومن هنا جاءت كلمة الكتاب وهو مجموعة المواضيع التي أوحيت إلى محمد (ص)، وجمع فيها نبوته ورسالته معاً.

فعندما تأتي لفظة "كتاب" في مواضيع أم الكتاب كما في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ..} (البقرة ١٨٣)، فهذا يعني أن الصوم هو أحد المواضيع التعبدية التي فرضها الله على الذين آمنوا كما فرضها على الذين من قبلهم، وقوله {.. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (النساء ١٠٣)، أي أن الصلاة هي أحد المواضيع التعبدية التي تؤدى في أوقات محددة سلفاً، وأنها كتاب مؤلف من عناصر الطهارة والوضوء والقيام والقعود والركوع والسجود، وأن مجموعة هذه المواضيع بعضها مع بعض تؤلف كتاب الصلاة.

أما عندما تأتي لفظة "كتاب" في القرآن فهي تعني مجموعة الشروط الموضوعية التي إن اجتمع بعضها مع بعض خرجت منها ظاهرة موضوعية ما. فمثلا كتاب الموت هو مجموعة الشروط الموضوعية التي إن اجتمع بعضها مع بعض وقع الموت لا محالة. وكذلك كتاب النصر هو مجموعة الشروط الموضوعية التي إن اجتمع بعضها مع بعض وقع النصر، وكذلك كتاب الهزيمة.

وكما ورد في الحديث –إن صح– عندما حاضت عائشة رضي الله عنها عند خروجها مع النبي (ص) إلى الحج فقال لها النبي (ص) مالك أنفست؟ قالت: نعم. فقال: إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم". ونحن نورد هذا الحديث في هذا السياق، بغض النظر عن صحة أو عدم صحة سنده، من باب

الاستئناس اللغوي فقط، فهو يسمى الدورة الشهرية للمرأة كتاباً، أي هو إحدى الظواهر الطبيعية للمرأة. وإذا أردنا أن ندرس كتاب الحيض فعلينا أن نراجع الطب النسائي لمعرفة تفاصيل هذا الكتاب.

إن علاقة الإنسان بكتب الطبيعة والتي هي "القدر" هي علاقة دراسة ومعرفة، فكلما زادت معلومات الإنسان عن كتاب الموت استطاع أن يؤجل وقوعه ولكنه لا يلغيه. بعد هذه المقدمة لندخل إلى صلب البحث:

الفرع الأول: الأعمار

لنقارن بين الآيتين التاليتين:

١- {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} (آل عمران ١٤٥).

٢- {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (النساء ١٠٣).

الآية الأولى من آل عمران هي من القرآن "نبوة"، أما الآية الثانية من سورة النساء فهي من أم الكتاب "رسالة"، والنبوة فيها قوانين القدر، والرسالة فيها القضاء الإنساني. فقوله إن الموت كتاب مؤجل يعني أنه كتاب فيه مجموعة الشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت، وإن الموت مؤجل حتى تتحقق شروط هذا الكتاب. وعندما يدرس الإنسان كتاب الموت وتزيد معرفته به يستطيع أن يؤجل هذه الشروط ويطيل الأعمار. فمثلا عندما تقدم طب الأطفال انخفضت وفيات الأطفال بشكل ملحوظ وعندما شاعت النظافة العامة قضت على بعض الأمراض السارية، وعندما تقدم طب القلب والعمليات الجراحية أصبحت فرص النجاة من أمراض كانت سابقاً لا أمل من النجاة منها كثيرة، وهذا ما أدى إلى ارتفاع متوسط الأعمار في هذا المضمار. فكلما زاد تقدم البلد في الطب وفي النظافة وفي تطبيق قواعد السلامة في العمل وفي الحياة العامة، ارتفع متوسط الأعمار فيه، لذا قال عن الموت "كتابا مؤجلاً". فإذا ما اجتمعت الشروط الموضوعية التي تؤدي إلى الموت فالأجل لا محالة حاصل، ولذلك قال تعالى {.. فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} (الأعراف ٣٤)، ولكنه ربط كل أجل بكتاب بقوله {.. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} (الرعد ٣٨). أي أن الأجل المحتوم لأي حدث لابد أن يسبقه كتاب هو مجموعة الشروط الموضوعية التي تؤدي حتماً إليه، والتي تخضع

للدراسة من قبل الإنسان، فكلما زادت معرفة الإنسان بالكتب الطبيعية زادت إمكانيته لتسخيرها لمصلحته والمناورة بها وقد أخبرنا سبحانه أن كل شيء له كتاب بقوله تعالى {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} (النبأ ٢٩). أما الآية الثانية من سورة النساء فهي من أم الكتاب وهي من قضاء الإنسان لذا قال عن الصلاة وهي من المواضيع التي تؤدى في أوقاتها المحددة المعروفة سلفاً إنها كتاب. لذا فإن كتاب الصلاة هو من أم الكتاب وكتاب الموت هو من القرآن فالأول كتاب قضاء والثاني كتاب قدر.

من هذا المنطلق نفهم أن أعمار الناس غير ثابتة، بل متغيرة لقوله "كتاباً مؤجلاً". وجاء هذا بشكل صريح في قوله تعالى {وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} (فاطر ١١). لاحظ في هذه الآية كيف صرح أن نقصان العمر أو زيادته لا تكون إلا في كتاب، أي أن هناك مجموعة شروط موضوعية تؤدي إلى نقصان العمر أو زيادته لا تكون إلا في كتاب، أي أن هناك مجموعة من الشروط الموضوعية تؤدي إلى نقصان الأعمار، وأخرى تؤدي إلى زيادتها، وما اختصاص علم الطب إلا في هذه الكتب، وإن الأموال المصروفة على الأبحاث الطبية في العالم لا تصرف هدراً وبدون فائدة بل تصرف على البحث في شروط طول العمر وقصره. أما ما جاء من اللف والدوران في بعض كتب التفسير بأن الضمير في "ينقص من عمره" تعود على شخص آخر فهذا ما لا تحتمله اللغة لأنه لو كان يريد ذلك لقال "ولاينقص من عمر آخر" ولكن الفكرة المسبقة عن ثبات الأعمار أدت إلى هذا التخريج الساذج.

لقد آن لنا نحن المسلمين أن نفهم أن الأعمار غير ثابتة، وآن لأطبائنا أن يفهموا أن الأعمار غير ثابتة ويتحملوا مسؤولياتهم الكاملة تجاه المرضى، وآن للمسؤولين في البلاد العربية والإسلامية أن يفهموا ذلك ويتحملوا مسؤولياتهم تجاه حياة الناس في دولهم.

إن عدم ثبات الأعمار يوضح لنا لماذا كانت عقوبة القاتل هي القتل، لأن القاتل قد أنقص من عمر المقتول فكانت عقوبته إنقاص عمره. وهذا أيضاً يبين لنا لماذا كان النبي (ص) من أحرص الناس على حياة أصحابه وعلى حياة العرب وكان يعدهم بالأجر عند الله، ولكنه لم يأمر أحداً منهم بأن يذهب في مهمة انتحارية لقتل نفسه، ونرى هذا أيضاً في نهي الله تعالى عن الانتحار بقوله {.. وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ..} (النساء ٢٩) ونرى أيضاً كيف أجَّل إهلاك قوم يونس بقوله {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} (يونس ٩٨).

لنشرح الآن قوله تعالى في الآيات التالية: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا..} (التوبة ٥١). إن هذه الآية تفهم في ضوء قوله تعالى {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا} (النبأ ٢٩). هذا يعني أن كل شيء في الطبيعة عبارة عن شروط مجتمعة بعضها مع بعض في كتب. فلا يمكن لأي إنسان أن يصيبه شيء إلا من خلال هذه الكتب. فإذا مرض فإنه لن يمرض إلا بمرض من الأمراض الموجودة في الطبيعة والموجودة ضمن الشروط التي يعيشها، أي تنطبق عليه، لذا وضع "لن يصيبنا" بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد، تماماً كما في قوله تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} (الحديد ٢٢).

– {لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (الحديد ٢٣)، في هاتين الآيتين يتبين أن كل المصائب التي تحصل في الأرض من زراعة وأملاك وهلاك دول وقيامها والزلازل والمصائب التي تحصل في الأنفس لا تكون إلا في كتاب، أي من خلال الشروط الموضوعية الموجودة فعلاً. ففي حالة الهزيمة مثلاً، هناك شروط موضوعية وجدت نتج عنها الهزيمة "كتاب الهزيمة"، وفي حال النصر هناك شروط موضوعية اجتمعت مع بعضها أدت إلى النصر "كتاب النصر". وبالتالي فيجب على المنتصر أن لا يفرح بنصره، وعلى المهزوم أن لا ييأس من هزيمته، بحيث إذا درسا كتاب النصر وكتاب الهزيمة فيمكن أن يتبادلا الأدوار، فالمنتصر يمكن أن يهزم والمهزوم يمكن أن ينتصر لذا قال {لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ}.

أما قول النبي (ص) – إن صح–: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد... إلى أخر الحديث" (انظر صحيح مسلم ج٤ ص ٢٠٣٦)، ونحن نورد هذا الحديث في هذا السياق، بغض النظر عن صحة أو عدم صحة سنده من باب الاستئناس اللغوي فقط، وقوله هذا (ص) يبين لنا الأمور التالية:

١– إن الروح ليس لها علاقة بالحياة لأن الملك ينفخ الروح في كائن حي هو الجنين، نتج عن كائن حي هو الحيوان المنوي، تلاقح مع كائن حي آخر هو البويضة وبعد اللقاح حصل التكاثر، وهذه كلها ظواهر كائن حي، أما الروح فهي شيء آخر تماماً وليست سر الحياة، كما سبق لنا أن بينا.

٢– بعد أن يتحول هذا الكائن البشري في الرحم إلى كائن إنسان يبدأ التسجيل عليه في ثلاثة فروع:

أ– تسجيل الحياة العضوية أثناء الحياة "تجميع وهذا يعني يكتب".

ب– تسجيل الأعمال حين وقوعها.

ج– تسجيل الأرزاق حين وقوعها.

وبعد أن يموت ينتهي عمره ورزقه وعمله فيمكن أن يعمل له كشف بأعماله فتظهر نتيجة ذلك الكشف بأنه شقي أم سعيد.

إن هذا الحديث متطابق تماماً مع النص القرآني، فقد بينا أن الروح في النص القرآني ليست سر الحياة، وأن أعمال الإنسان في النص القرآني إنما تسجل عليه حين وقوعها لا قبل وقوعها وذلك واضح في قوله تعالى {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية ٢٩)، وقوله {كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} (الانفطار ١١ و١٢). فنحن نعلم أن النسخ لا يكون إلا من أصل، فأصل الأعمال هو أعمالنا نحن، أي النسخة الأصلية لأعمالنا هي أعمالنا حين وقوعها وحين نقوم بها يؤخذ نسخة عنها "صوت وصورة" لذا قال "ينطق عليكم بالحق". لقد فهم كثير من الناس هذا الحديث فهماً معاكساً تماماً حيث ظنوا أن الجنين في بطن أمه يكتب عليه سلفاً عمره ورزقه وعمله وشقي أو سعيد. لقد أخطأوا هنا بفهم كلمة "كتب". وقد أكدت الآيات أن الأساس هو أعمالنا والله ينسخها ويجمعها لنا بعد وقوعها وذلك في قوله تعالى {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} (الأنبياء ٩٤) وقوله {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آَيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} (يونس ٢١) وقوله {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} (مريم ٧٩) هنا لاحظ قوله (كاتبون، سنكتب، يكتبون) كلها للدلالة على أن أساس الأعمال هو نحن، وأنها تسجل علينا وتجمع وتصنف بعد وقوعها.

الفرع الثاني: الأرزاق

– {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} (الذاريات ٢٢).

– {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (الزخرف ٣١).

– {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} (الزخرف ٣٢).

لقد ظن كثيرون أن أرزاق الناس محددة سلفاً. هذا صحيح إذا فهمناها على معنى الجمع الكلي الاحتمالي، وغير صحيح إذا فهمناها على معنى الإفراد. فإذا فهمناها على معنى الجمع فهذا يعني أن أرزاق الناس لا تأتي إلا من خيرات الطبيعة ومن العمل، هذان هما المصدران الوحيدان للرزق لقوله تعالى {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (يس ٣٥)، وهنا "ما" اسم موصول بمعنى الذي، أي والذي عملته أيديهم.

أما خيرات الطبيعة من طعام وشراب وأنعام فأساسها الماء لذا سمي ماء المطر "الرزق" لقوله تعالى {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الجاثية ٥). لاحظ كيف سمى الماء من السماء رزقاً، أما قوله {وَمَا تُوعَدُونَ} بمعنى والذي توعدون، فإن كل وعود رب العالمين تأتي من السماء لقوله تعالى {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ..} (السجدة ٥).

أما قوله تعالى في آية الزخرف ٣٢ {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..} فيعطينا قواعد التنظيم الاجتماعي المتحضر بأن يمارس الناس عملاً واحداً في معاشهم فهناك مجال الزراعة وهناك مجال الصناعة وهناك مجال الخدمات، كل هذه الأعمال هي مجال الحياة ولاخروج عنها لذا قال "قسمنا بينهم معيشتهم". وهنا جاء مفهوم التسخير "ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً" فالذي يزرع مسخر لإطعام الذي يعمل في المصانع، والطبيب مسخر لكي يعالج العامل والفلاح، والعامل مسخر لكي ينتج للفلاح والطبيب، والمعلم مسخر لكي يعلم أبناء هؤلاء، إذ لا يمكن لأي تجمع حضاري متقدم أن يعيش إلا على أساس تخصص المهن وطرق المعاش بحيث أن كل صاحب عمل مسخر لخدمة الباقين. وقد أكدنا أن التسخير لا يكون دون مقابل أي أن السخرة هي عمل له مقابل لذا قال {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} أي أن هذه الآية ليس لها علاقة بالتحديد المسبق لأرزاق الأفراد كل على حدة. أما التحديد المسبق للرزق فهو الطبيعة وخيراتها وعمل الإنسان، وهناك القسمة في المهن بين الناس التي تعتبر قانوناً لا مناص منه.

أما قوله تعالى {.. وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} (الطلاق ٢، ٣) فعلينا هنا أن نعرف التقوى أولاً. فالتقوى الاجتماعية هي اتباع وصايا أم الكتاب حصراً. يقول تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام ١٥٣). هذه هي الوصية العاشرة في الفرقان. فعندما يتبع الإنسان الوصايا فإن الله يسهل له عمله ورزقه، ولكن هذا التسهيل لا يكون إلا من خلال الكتب أي من خلال الشروط الموضوعية التي يعيشها هذا

الإنسان لا من خارجها أي من خلال المقدرات الموجودة فعلاً، لذا أنهى الآية بأهم شرط بقوله {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}. فإذا أراد الله أن يرزق إنساناً يعمل في حقل الهندسة المدنية "كتاب الهندسة" فلا يرزقه من حقول القمح والبطاطا إلا إذا غير مهنته إلى حقل الزراعة "كتاب الزراعة". أي عندما يريد الله سبحانه أن يرزق إنسانا ما يجعل كل الظروف الموضوعية التي يعيشها تعمل لصالحه.

الفرع الثالث: الأعمال

ماهي الأعمال؟ وهل أعمال الإنسان مقدرة عليه سلفاً؟ وماهو المقدر عليه سلفاً من أعماله؟ وماهو الشيء المفتوح؟ قبل أن نخوض في هذا البحث علينا أن نعرف المصطلحات التالية:

"العمل"، "الفعل"، "الصنع"، "الكسب":

– **العمل:** حركة واعية يقوم بها الإنسان على وجه العموم (WORK) وغالباً ما يتألف العمل من عدة أفعال.

– **الفعل:** عمل معرف محدد (DO) فنقول "ضرب" فعل ماض أي عمل معرف بالضرب، و"أكل" فعل ماض أي عمل معرف بالأكل، ولانقول عمل ماض. فإذا أخذنا كل آيات التنزيل الحكيم المذكور فيها "فعل وعمل" رأيناها لا تخرج عن هذين المعنيين. فالله سبحانه وتعالى يعلم ماذا يفعل فقال {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} (البروج ١٦) ولم يقل عمّال لما يريد. وعندما تسجل الملائكة أعمال الإنسان فإنها تعلمها وتسجلها لذا قال {كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} (الانفطار ١١، ١٢) وعندما كسر إبراهيم الأصنام وجاء قومه يسألونه عمن كسرها {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا..} (الأنبياء ٥٩) كانوا يسألون عن الكسر فأجابهم إبراهيم {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ..} (الأنبياء ٦٣) أي كسره. وعندما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه {.. قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..} (الصافات ١٠٢) فأجابه ابنه: {.. قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ..} (الصافات ١٠٢). هنا قال "افعل" أي اذبح.

وعندما أمر الله النبي (ص) بتبليغ الرسالة قال {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ..} (المائدة ٦٧)، هنا قال "وإن لم تفعل" أي لم تبلغ.

وعندما قال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} (الأنعام ١١٢). هنا جاء قوله "ولوشاء ربك ما فعلوه" تعليقاً على قوله "يوحي بعضهم إلى بعض" وعندما قال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ

وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} (البقرة ٢٧٨، ٢٧٩) هنا قال ''فإن لم تفعلوا'' أي لم تذروا ما بقي من الربا، أي جاءت لشيء محدد معرف.

وبما أن الله يعلم أفعال الإنسان تحديداً عندما يقوم بها فقد قال {.. إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (النحل ٩١) هنا جاءت معرفة الله بأفعال الإنسان بصفتين: الصفة الأولى: إثبات المعرفة بقوله ''إن الله يعلم'' والثانية نفي الجهل بقوله {.. وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (النمل ٩٣)، ولو قال ''ليس الله بغافل عما تفعلون'' فالفعل أصلا معرف محدد، ولاداعي لأن يقول ليس بغافل ولاتأتي الصيغة قبلها إلا بصيغة يعلم. وبما أن العمل منكر أي على وجه العموم لا التحديد، جاءت الصيغة قبله بنفي الجهل بقوله تعالى ''ليس بغافل''، ولا نجد في الكتاب أبداً صيغة ''وليس الله بغافل عما تفعلون''.

أما قوله {.. إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} (النمل ٨٨)، فالخبرة تسبقها معرفة وتواكبها ممارسة لذا نقول إن الله عليم خبير. ولانجد في الكتاب أبداً صيغة ''إن الله يعمل ما يشاء'' بل نجد صيغة {.. إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} (الحج ١٤) وصيغة {.. وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} (إبراهيم ٢٧)، لأن إرادة الله وأفعاله كلها معرفة له. فعندما قال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} (الكهف ١٠٧) لم يحدد ماهي الصالحات وقالها على وجه العموم، لأن الصالحات متغيرة مع تغير الزمن، وعندما قال {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (الزلزلة ٧، ٨) قالها على وجه العموم لأنه لو قال ''ومن يفعل مثقال ذرة خيراً يره'' لقالت له العرب: ماهو الفعل الذي إذا فعلناه لكان مثقال ذرة من الخير؟ أي لوجب عليه تعريفه تحديداً. ولو قال ''إن الذين آمنوا وفعلوا الصالحات'' لأتبعها بتحديد الصالحات حصراً، أو لسأله العرب ماهي هذه الصالحات؟ مثال على ذلك قوله في سورة الفيل {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} إذ أتبعها مباشرة بتحديد هذا الفعل بقوله {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ} وهكذا نرى أنه عندما يقول {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} تأتي على وجه العموم لا على وجه الخصوص دون أن تعرف ماهي هذه الصالحات، لأنها متغيرة حسب الزمان والمكان وتطور التاريخ فيبقيها دون تعريف.

فالعمل عام، والفعل خاص ومعرف. فنقول إن زيداً من الناس يعمل نجاراً ولانقول يفعل نجارا، يقوم بالأفعال التالية: ينشر الخشب ويدق المسامير ويلصق الألواح الخشبية بعضها ببعض. أي أن العمل بشكل عام والعمل الإنتاجي بشكل خاص يمكن أن يقسم إلى أفعال أولية معرفة كل على حده.

الآن بعد أن عرفنا الفعل والعمل، نرى أن إثبات المعرفة لله سبحانه جاءت في التنزيل الحكيم على ثلاث حالات:

– الحالة الأولى

حالة إثبات المعرفة على وجه الخصوص أي جاءت المعرفة للحدث المعروض في الآية وقد جاءت على وجهين:

أ– تقديم العلم على الفعل:

– {.. إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (النحل ٩١).

– {.. إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} (النمل ٨٨) "الخبرة = العلم + الممارسة".

– {.. وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (الشورى ٢٥).

– {.. ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (الأنعام ١٥٩).

– {.. إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} (يونس ٣٦).

ب– تقديم الفعل على العلم:

– {.. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا} (النساء ١٢٧).

– {.. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة ٢١٥).

– {.. وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ..} (البقرة ١٩٧).

هنا قدم الفعل على العلم بصيغة واحدة فقط هي (من خير) حيث ذكر الخير في حالة التبعيض في بداية الآيات، وبما أن علم الله يحمل كل الاحتمالات فقد وضع العلم بعد صيغة "من خير".

– الحالة الثانية

حالة إثبات المعرفة على وجه العموم، أي أن المعرفة لم تقتصر على الأحداث المذكورة في الآية بل هي معرفة عامة كاملة وجاءت في صيغتين:

أ– حالة تقديم العلم على العمل: وقد جاءت هذه الصيغة في التنزيل الحكيم ٣٦ مرة بالأشكال التالية:

– {.. وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (آل عمران ١٥٣).

– {.. وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} (البقرة ٩٦).

– {.. وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} (يوسف ١٩).

– {.. وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} (آل عمران ٩٨).

– {.. فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا..} (النور ٦٤).

– {.. فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} (الأعراف ١٢٩).

– {.. إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية ٢٩).

ب– حالة تقديم العمل على العلم: وقد جاءت هذه الصيغة في التنزيل الحكيم ٣٧ مرة بالأشكال التالية:

– {.. إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة ١١٠).

– {.. وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (البقرة ٢٣٤).

– {.. وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا..} (يونس ٦١).

– {.. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (هود ٩٢).

– {.. إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} (المؤمنون ٥١).

– الحالة الثالثة

حالة نفي الجهل جاءت حصراً على وجه العموم، أي وردت كلمة ''عمل'' ولانجد في التنزيل الحكيم صيغة ''فعل'' مع نفي الجهل وذلك لنفي الجهل على العموم لا لنفي الجهل بالموضوع المذكور بالآية ولو جاء نفي الجهل مع ''يفعلون'' لنفي جهله في الفعل المعرف مع زمن حدوثه بالآية فقط مع إمكانية جهله بمواضيع أخرى وفي أزمنة أخرى:

– {.. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة ٧٤).

– {.. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة ٨٥).

– {.. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة ١٤٩).

– {.. وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام ١٣٢).

– {.. وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (آل عمران ٩٩).

– {.. وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (هود ١٢٣).

– {.. وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (النمل ٩٣).

– {.. وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} (فصلت ٢٢).

– {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ..} (إبراهيم ٤٢).

– إرادة الله وأفعاله كلها معرفة له

إنّ إرادة الله وأفعاله كلها جاءت في صيغة المعرّف على وجه الخصوص بالنسبة له سبحانه وتعالى، لذا استعمل فيها صيغة الفعل لا العمل:

– {.. وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} (البقرة ٢٥٣).

- {.. كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (آل عمران ٤٠).
- {مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ..} (النساء ١٤٧).
- {.. وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} (إبراهيم ٢٧).
- {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء ٢٣).
- {.. إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} (الحج ١٤).
- {.. إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (الحج ١٨).
- {.. فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} (هود ١٠٧).
- {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} (البروج ١٦).
- {.. وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} (النساء ٤٧).
- {.. لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا..} (الأنفال ٤٢).
- {.. لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا..} (الأنفال ٤٤).
- {.. وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا} (الإسراء ٥).
- {.. إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} (الإسراء ١٠٨).
- {.. وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} (الأحزاب ٣٧).
- {.. كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا} (المزمل ١٨).

- **شرح قوله تعالى** {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} (يس ٧١).

هنا لو قال "مما فعلت أيدينا أنعاماً" فهذا يعني أن المخاطب وهو الإنسان يعلم كل الأفعال المتتالية والمتوازية المعرَّفة التي تمت في خلق الأنعام، ابتداء من أول خلية حية حتى الوصول إلى الأنعام، ولذكر ماهي كل الأفعال التي نفذت حتى تم خلق الأنعام، ولو كانت هذه الأفعال معرفة للمخاطب لاستطاع هذا المخاطب أن يخلق أنعاماً بنفسه. وهنا يجب أن نشرح كلمة "أيدينا": فالأيدي جاءت من "أ ي د" ومنه جاءت الأيدي والأيادي والتأييد، فنقول إن فلاناً أيَّد فلاناً في موقفه فهذا يعني أنه وافقه وبالتالي مد له يد المساعدة ودعمه. وهكذا نفهم قوله تعالى {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ..} (الفتح ١٠). إن الله سبحانه أيَّد الصحابة في بيعة الرضوان في موقفهم هذا ومدَّ لهم يد المساعدة. وكذلك نفهم قوله تعالى {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} (الذاريات ٤٧) فالآية تدل على القدرة والحفظ على وجه العموم لا الحصر.

وإذا جاءت من "يد" فهي تعني المنعة والقوة والإصلاح "ضرب بيد من حديد" أي ضرب بمنعة وقوة، أي اتخذ موقفاً منيعاً وقوياً.

– معنى فعل "صنع"

استعمل الفعل "صنع" في التنزيل الحكيم للدلالة على نتاج عمل كقوله لنوح {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} (هود ٣٧) وقوله {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..} (المؤمنون ٢٧). وبما أن السحر كان مهنة أيام موسى قال تعالى {وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ..} (طه ٦٩). وفي قوله عن داوود {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ..} (الأنبياء ٨٠). وعن الطبيعة التي هي من صنع الله قال {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} (النمل ٨٨). أما قوله تعالى مخاطباً قوم هود {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} (الشعراء ١٢٩)، فبما أن قوم هود كانوا يبنون بيوتهم في الأماكن العالية لقوله {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} (الشعراء ١٢٨). والريع هو المكان العالي، وبما أن هذا المكان العالي بحاجة إلى مياه فقد صنعوا أيضا حُفَراً لتجميع المياه، سميت مصانع، وإلى الآن تستعمل في بعض البلاد العربية كلمة "مصنع مياه" أي خزان ماء. وعندما قال {.. إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (النور ٣٠)، {إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (فاطر٨)، {.. وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} (العنكبوت ٤٥). فالصناعة تحتاج إلى علم وخبرة وتتألف من مجموعة من الأفعال المحددة لإنتاج شيء ما لذا أرفقها بعبارة: عليم وخبير بما يصنعون، فوضع "عليم وخبير" قبل "يصنعون" لا بعدها لأنه قالها على وجه الخصوص لا على وجه العموم. أما قوله لموسى {.. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} (طه ٣٩)، حيث تربى في بيت فرعون وقام فرعون بتربيته وتنشئته والله يرعاه قال {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} لذا فقولنا "الجامعة مصنع العلماء" يعتبر قولاً عربياً صحيحاً أي لتحويل الجاهل إلى متعلم.

ولنشرح الآن الآيتين التاليتين:

١– {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل ١١٢). إذ أن آيات الأمثال هي من القرآن دائماً لقوله تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ..} (الكهف ٥٤). ففي هذه الآية قانون موضوعي، هو أن كل مجتمع إنساني مستقر "قرية" كفر بأنعم الله فهناك عقابان نتيجة صنع الإنسان نفسه، هنا "الباء" في "بما" هي باء الاستعانة كقولنا "ضربتك بيدي" العقاب الأول هو الجوع، والعقاب الثاني هو الخوف. وسببهما هو صناعة الإنسان نفسه. فإذا نظرنا الآن مثلا إلى العالم رأينا أنه يصنع القنابل الذرية وحاملات الطائرات والغواصات والصواريخ فإذا عرفنا الآن أن

حاملة طائرات واحدة مع ملحقاتها تكلف حوالي /٢٠/ مليار دولار لعرفنا النفقات الهائلة الأسطورية التي تنفق على سباق التسليح. هذا السباق ينتج عنه مشكلتان:

– الأولى: الجوع حيث تذهب هذه النفقات على حساب متطلبات الإنسان ورفاهيته.

– والثانية: الخوف حيث تسبب هذه الأسلحة الدمار الهائل فتصبح كابوساً على الإنسان. وهذه الأسلحة هي من صناعة الإنسان أصلاً أي من نتاج عمله لذا قال {فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} وهذا أيضاً يدل على أن القرية عندما تكفر بالله لا يقطع الله عنها الرزق من ماء وشجر وزراعة، لأنه ربها. فسباق التسلح هو عذاب الله على الكفر بنعمته في العصر الحديث. وعلى الإنسانية المؤمنة أن تسعى لوضع حد لهذا العذاب. إن مقياس إخلاص الإنسان تجاه الإنسانية هو موقفه من سباق التسلح وهدر المليارات من النقود على آلة الرعب وسبب الجوع. وهكذا نفهم قوله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (هود ١٥، ١٦). هذه الآيات تقول للذين لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا ويظنون أنها نهاية المطاف وأنه لا آخرة بعدها أن الله يوفيهم أعمالهم فيها ولايبخسهم فيها شيئاً، أما في الآخرة فلا تفيدهم كل صناعاتهم المنتجة في الدنيا لذا قال {وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا} يظن بعضهم أن الدنيا للكافر والآخرة للمؤمن! وهذا غير صحيح. فالدنيا للكافر والمؤمن على حد سواء، والمؤمن له ثواب الآخرة بالإضافة إلى الدنيا، أما الكافر فلا يوجد له ثواب في الآخرة.

٢– {وَلَوْ أَنَّ قُرْآَنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} (الرعد ٣١).

تدل هذه الآية على أن مواضيع القرآن هي العلم فقط لذا قال ‘‘قطعت به الأرض أو كلم به الموتى‘‘، وأن العلم متاح لكل إنسان لذا قال عن القرآن ‘‘هدى للناس‘‘. هذه العلوم متاحة للمؤمن والكافر على حد سواء لذا قال للمؤمن إن قوانين الجدل هي قوانين موضوعية، وإنه لا مناص من وجود الكفر والإيمان معاً وإن الكفر لا ينتهي والإيمان لا ينتهي، بل هما في علاقة جدلية ما دامت الإنسانية موجودة. أما الذين كفروا فيصيبهم ‘‘بما صنعوا‘‘، فالباء هنا باء الاستعانة، أي بصناعتهم التي هي نتاج عملهم ستصيبهم ‘‘قارعة‘‘، وهي من أصل ‘‘ق ر ع‘‘ ومعناه الضربة القاصمة القوية أو تحل قريباً من دارهم. وهنا يجب أن نميز بين الدار والديار، فالدار هي قطعة من الأرض تسمى الوطن، فالأرض التركية هي دار الأتراك، أما الديار فهي أبنية لها جدران لذا قال ‘‘أو تحل قريباً من

دارهم" أي مجاورة لحدودهم وهذا المعنى جاء في قوم ثمود فهناك فئتان من الناس في ثمود، الفئة الأولى تسكن البيوت المنحوتة في الجبال وهذه البيوت لها أبواب وجدران ولكنها دون نوافذ فهلك سكانها بالصيحة "الموجة الصوتية" لذا قال {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (هود ٦٧). أما الفئة الثانية من الناس فكان تعيش خارج البيوت المنحوتة في السهول ولاتؤثر فيها الموجة الصوتية وكانوا يعيشون على قطع من الأرض لها حدود فيما بينها لقوله {تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا..} (الأعراف ٧٤)، والقصور جاءت من "ق ص ر" أي أن إنسانا ما أخذ قطعة من الأرض ووضع لها حدوداً وأصبحت هذه الأرض مقتصرة عليه، بدون أن يبني عليها مبنى له جدران، فهؤلاء أهلكهم الله بالزلزال، لذا قال {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (الأعراف ٧٨).

ـ الكسب

قال تعالى {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ..} (البقرة ٢٨٦)، فالكسب فهود المردود الإيجابي للعمل، وأما الاكتساب فهو المردود السلبي للعمل. والآية تبين أن لكل نفس تعمل مردوداً، فإن كان إيجابياً فهو لها وإن كان سلبياً فهو عليها.

ننتقل الآن لنلخص معاني المفردات الأربع التالية بالمفهوم الإنساني العاقل، لا بالمفهوم الطبيعي:

ـ **العمل:** حركة واعية يبذلها الإنسان العاقل ويحمل معنى العموم، وقلنا الإنسان العاقل لنميزها عن العمل الناتج عن الحركة الميكانيكية للأجسام بالمعنى الفيزيائي البحت.

ـ **الفعل:** عمل معرَّف محدد يحمل معنى الخصوص "أكل، شرب، ضرب، نام".

ـ **الصنع:** هو نتاج العمل "أو نتاج تربية".

ـ **الكسب:** هو المردود الإيجابي للعمل.

ـ **الأجر:** هو ما يعطيه رب العمل للأجير مقابل عمل هو للمأجور كسب.

فنقول إن زيداً من الناس يعمل نجاراً ويقوم بالأفعال التالية: يقطع الخشب ويدق المسامير ويلصق الخشب ثم يدهنه فيصنع كرسياً ويكسب نقوداً. ونقول ضرب زيد عمرواً فاكتسب إثماً، فالضرب فعل والإثم اكتساب. فهل هذه المعاني تنطبق على الزراعة؟ لا تنطبق كلياً. لأنه إذا قلنا إن زيداً من الناس يعمل في الزراعة فإنه يقوم بالأفعال التالية: يشق الأرض ويبذر البذار ويذر السماد ويقوم بعدة أفعال لكي تنتج الأرض المحصول فالإنسان يعمل في الأرض، والأرض هي التي تنتج

المحصول لذا قال تعالى {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} (الواقعة ٦٣–٦٤). فالحرث هو غلة الأرض الزراعية لا شق الأرض الزراعية، وهو بالتالي كسب لمن عمل فيها. فالمزارع يقوم بالأفعال المذكورة لكي تنتج الأرض، لأن الأرض يمكن أن تنتج دون تدخل الإنسان كما نرى في الغطاء النباتي الطبيعي للكرة الأرضية وفي البحار. لقد ذكر أن تدخل الإنسان يكون "بالعمل بالأرض وفي الحرث" لا في الزراعة نفسها، وأن مصطلح الزراعة والصناعة مفصولان عن بعضهما وهذا صحيح.

فالإنسان يعمل في الزراعة ويجني الحرث والأرض تنتج، ويعمل في الصناعة وهو ينتج لذا قال سبحانه عن خيرات الأرض من النبات {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ..} (يس٣٥) هنا قال عن النبات "ليأكلوا من ثمره" وعن عمل الإنسان "وماعملته أيديهم"، أي والذي عملته أيديهم.

لنشرح الآن لماذا لم يعتبر القول فعلاً حين قال {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف ٢)، أليس القول فعلاً يقوم به الفم واللسان والجهاز الصوتي؟ والجواب: لا، ليس هذا هو القول، وإنما هو الكلام. فالكلام فعل وليس قولاً، وعندما يتكلم الإنسان يصدر أصواتاً، وهذا الإصدار حقيقة موضوعية لأنه صوت نسميه النطق. فالنطق فعل وحقيقة لذا قال {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} (الذاريات ٢٣) ولم يقل مثلما أنكم تقولون، فالنطق للكلمات لا للأقوال لذا قال سليمان {.. يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} (النمل ١٦) ولم يقل قول الطير. أما القول فهو عندما تصل الكلمات إلى ذهن السامع فتتحول إلى معنى في الذهن هو القول. فالإنسان نطقه حق، إنما ليس من الضروري أن يكون قوله حقاً. أما الله سبحانه فالقول والوجود بالنسبة له واحد لذا قال {قَوْلُهُ الْحَقُّ}، والكون كله ماهو إلا عين كلمات رب العالمين لذا قال {.. إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس ٨٢).

هل أعمال الإنسان محددة سلفاً؟ ومامعنى قوله تعالى {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} (الصافات ٩٦)؟

لاحظ أنه قال "وما تعملون" على وجه العموم ولم يقل "وماتفعلون" رغم أن الأفعال أعمال معرَّفة.

فلنأخذ الآن أعمال الإنسان على العموم لنحولها إلى أفعال على الخصوص، ولكن بعد شرح معاني الأفعال التالية في اللسان العربي:

– خلق، سوى، جعل

١– خلق

فعل خلق في اللسان العربي له أصلان صحيحان، الأول يعني التقدير قبل التنفيذ كقولنا خلق الخياط القميص من القماش أي قدره قبل القطع. فعندما يأخذ الخياط قطعة القماش ويضع عليها علامات تبين الأكمام والصدر والظهر قبل القص فهذا يعني أنه يخلق قميصاً، وهذا ما نقول عنه في اللغة المعاصرة ''التصميم'' فعندما نخلق سيارة ''نصمم'' نخلق الأسطوانة والمكبس وكل قطع المحرك وبقية السيارة، كل هذا الخلق يتم على مخططات طبقاً لقوانين الميكانيك والترمو ديناميك، فكل ما تقوم به السيارة من عمل، طبقا للتصميم الموضوع ''الخلق''، مؤلف من أفعال أولية موجودة في بنية التصميم. وعندما نقول خلق المهندس بيتاً أي وضع له مخططات معمارية وإنشائية وصحية وكهربائية قبل التنفيذ، فالله يخلق والإنسان يخلق، ولكن الله أحسن الخالقين كما في قوله تعالى {.. فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون ١٤) وذلك لأنه بكل خلق عليم، فالله هو خالق السموات والأرض. ولكن الخلق يمكن أن يكون منقولاً فليس من الضروري أن كل بيت يخلقه مهندس هو تصميم لا سابق له، فإذا كان لا سابقة له فهذا يسمى الإبداع لذا قال {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..} (البقرة ١١٧) أي أن الله خالق السموات والأرض ومبدعها على غير سابقة لها، فهو بديع السموات والأرض.

هنا يجب أن نفهم بشكل واضح وجلي أن الخلق لا يعني الإيجاد من العدم كما يظن البعض، فنحن لا نرى آية واحدة في التنزيل الحكيم تقول إن الخلق من العدم وإنما من شيء كقوله تعالى {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} (العلق ٢) فهل العلق عدم؟ وقوله {.. إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} (ص ٧١) وقوله {.. خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (الأعراف ١٢) وقوله {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى} (القيامة ٣٨) وقوله {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا..} (الفرقان ٥٤) وقوله {.. وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} (السجدة ٧). فعندما يذكر تعالى فعل خلق فإما أن يقول من ماذا؟ كالآيات السابق ذكرها، أو لا يقول شيئا كقوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} (الأنعام ١). أما لماذا سميت بعض النواحي في السلوك الإنساني أخلاقاً وهي من فعل ''خلق'' هذا، فلأن الإنسان في تصميمه ''خلق'' مهيأ لهذا السلوك فنقول: خلق سيء وخلق حسن، وجاءت في هذا المعنى ''الخلاق'' وهو ما يستحقه الإنسان نتيجة لسلوك معين. فنقول أن زيداً من الناس خليق بكذا وكذا كقوله تعالى {.. مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ..} (البقرة ١٠٢) وقوله {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم ٤) أما المعنى الثاني لفعل ''خلق'' فهو التمليس فنقول صخرة خلقاء أي صخرة ملساء.

٢ـ سوى

وله في اللسان العربي عدة أصول صحيحة:

أولها: المساواة، فنقول أن ٣+١=٤، ثلاثة مضاف إليها واحد تساوي الأربعة. وهذا المعنى جاء في قوله تعالى {.. وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} (فصلت ١٠)، أي أن الأرض تعطي أقواتها وخيراتها للذي يعمل فيها ويأخذها كافر أو مؤمن على حد سواء. وقوله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (البقرة ٦). وبما أن المساواة في المعادلة تكون في الوسط وعلى طرفيها حدود المعادلة فيستنتج منها المعنى الثاني وهو الوسط كقوله تعالى {فَاطَّلَعَ فَرَآَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ} (الصافات ٥٥) أي في وسط الجحيم.

أما المعنى الثالث فهو ما نقوم به بعد التصميم ونسميه التسوية، فإن أي تصميم "خلق" يحتاج بعده إلى عملية تنفيذ فعلية لتحويل المخطط المخلوق إلى شيء واقعي منفذ على أرض الحقيقة لذا قال {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} (الأعلى ١، ٢)، فالخلق يعقبه تسوية، ولاحظ أن "فاء" التعقيب والسببية جاءت بين فعلين "خلق، سوى".

والتسوية هي التنفيذ الكامل للتصميم بدون أي نقصان أو عيب، فعندما نقول إن زيداً من الناس "إنسان غير سوي" أي فيه عيب ونقص. وهكذا نفهم قوله تعالى {.. فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} (مريم ١٧) أي أن جبريل تمثل لمريم بصورة بشر لا عيب فيه ولا نقص. ولم تلاحظ مريم أي شيء غير بشري. لاحظ قوله "بشراً سوياً" ولم يقل إنساناً سوياً للتأكيد على كمال الناحية الفيزيولوجية.

وعندما قال الله للملائكة عن خلق البشر أعقبه مباشرة بالتسوية بقوله تعالى {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص ٧١، ٧٢)، فلاحظ كيف أن الخلق هو التصميم الذي أعقبه التسوية "التنفيذ".

أما المعنى الأخير لفعل "سوى" فهو الاستقرار والتحكم كقوله تعالى {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ..} (الزخرف ١٣). فالاستواء على ظهور الأنعام هو الاستقرار عليها، إذ يمكن للإنسان أن يركب على ظهر الجواد ثم يقع عن ظهره أثناء التذليل. أما الاستواء فهو الاستقرار والتحكم وهكذا نفهم قوله تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه ٥).

٣ـ جعل

وتعني في اللسان العربي انتقالاً من حالة إلى حالة، أو تغيراً في الصيرورة لشيء موجود فعلاً كقوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف ٣). فهنا "جعل" تدل على أن القرآن كان موجوداً فأخذت منه نسخة مترجمة إلى العربية لذا قال "إنا جعلناه" ولم يقل "إنا خلقناه" فالجعل

يمكن أن يتم بتغيرات أثناء عملية التسوية أو بعدها كقوله عن أحد مراحل التسوية في الأرض {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا..} (فصلت ١٠) أي أن الأرض كانت كرة ملتهبة سائلة وتجمد قسم منها هو القشرة الخارجية لذا قال ''رواسي من فوقها'' وعندما قال سبحانه لإبراهيم {.. إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا..} (البقرة ١٢٤) قصد أن إبراهيم لم يكن إماماً للناس فأصبح إماماً لهم، أي أضيفت له صفة صار بها إماماً للناس. وقوله تعالى {.. وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ..} (الأنبياء ٣٠) أي أن الماء يغير في صيرورة الأشياء من كائن غير حي إلى كائن حي، وقوله {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} (القيامة ٣٨، ٣٩) لاحظ كيف جاءت الأفعال الثلاثة متتالية ''خلق، سوى، جعل'' هنا جاء التصميم ثم التنفيذ ثم تغير من صيرورة إلى صيرورة أخرى.

لنعد الآن إلى الموضوع الأساسي وهو قوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} (الصافات ٩٦) ولنأخذ أعضاء الحركة عند الإنسان:

١– اليد: تتألف من الكف والزند والذراع وفيها عدة مفاصل، فإذا نظرنا إلى اليد من حيث البنية نرى أن هناك أفعالاً موجودة في تصميم هذه البنية. فهي تحتوي في بنيتها على إمكانية الحركة باتجاهين متضادين، القبض والبسط، وكذلك الأصابع مع مفاصلها تحتوي في بنيتها على مجموعة من الأفعال. وكذلك الذراع والزند يحتويان في بنيتهما على مجموعة من الأفعال، وكل هذه الأفعال الموجودة ضمن مجال حركتها البنيوية عبارة عن أضداد، فاليد اليمنى واليد اليسرى أزواج، والحركات ضمن اليد اليمنى واليسرى أضداد، فالقبض والبسط في الكف، والكب والاستلقاء في الزند، والرفع والتنزيل في الزند والذراع، والحركة إلى الأمام والخلف في الذراع.

٢– الرجل: الأرجل أيضاً تحوي في بنيتها أفعالاً وتوجد فيها أفعال على شكل أضداد ''الوقوف والمشي'' وفي الحوض والأرجل ''الجلوس والنهوض''.

٣– العين: نجد لدى الإنسان عينين، عين يمنى وعين يسرى، أي ''أزواج''، وفيها تدخل إمكانية العمى والبصر ''أضداد''.

٤– الأذن: يملك الإنسان أذنين، أي ''أزواج''، وفيهما إمكانية الصمم والسمع.

٥– اللسان: فيه إمكانية البكم والكلام، والبلعوم فيه إمكانية التقيؤ والبلع.

فإذا أراد الإنسان أن يقوم بعمل ما على وجه العموم فإن هذا العمل يتألف من مجموعة من أفعال أولية على وجه الخصوص، وإمكانية هذه الأفعال موجودة في بنيته فلا يستطيع أي إنسان أن يمضغ الطعام برجليه ويمشي بأسنانه.

فكل أفعال الإنسان التي يقوم بها على وجه الخصوص للقيام بعمل على وجه العموم هي ممكنة التنفيذ في بنيته "خلقه"، وعلى هذا فالإنسان لا يخلق ولا يستطيع أن يخلق أي فعل غير موجود في بنيته أو في الطبيعة. رب سائل يقول إن الإنسان صنع السيارة والصاروخ والغواصة والرافعة والطائرة والأدوية. أقول إن الإنسان صنع هذه الأشياء من قوانين موجودة في الطبيعة، فالإنسان صنع الطائرة نتيجة استيعابه لقوانين الطيران الموجودة فعلاً في الطبيعة، والتي شاهدها أولاً من خلال الطيور والحشرات الطائرة، لذا فقد سمى القرآن ظواهر الطبيعة "آيات الله" فالإنسان بعد أن عرف هذه الأفعال الموجودة بالإدراك الفؤادي أولاً، ثم بالتجريد العقلي "القوننة" وصل إلى ظاهرة الابتكار والتخيل، فقلد أفعال الطبيعة وأبدع فيها وسخرها لمصلحته "للإعمار أو الدمار" وابتكر آلاف الأدوات والتجهيزات الجديدة، لذا لم يقل أبدا في التنزيل الحكيم "والله خلقكم وما تصنعون" بل قال {.. إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (فاطر ٨) وقال {.. إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (النور ٣٠) فكل ما ذكر سابقاً عن الأفعال ووجودها في الطبيعة هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الوعي الإنساني "حق" وتعتبر من قوانين القدر "الوجود".

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو دور الإنسان في هذا؟ وأين الخيار والحرية للإنسان؟ أي أين قضاء الإنسان؟ وماعلاقة الإنسان بقوانين القدر القائمة في ظواهرها على الأضداد وفي ذاتها على المتناقضات الأزواج "التأثير والتأثر المتبادل"؟

الجواب هو أن هذه العلاقة تتحدد حصراً بالمعرفة. فعندما عرف الإنسان قوانين القدر في الدورة الدموية وفي دورة الدم في القلب والشرايين استطاع أن يقضي فيها وذلك بالعمليات الجراحية وبالتالي زادت حريته فيما يتعلق بهذا الموضوع. وعندما عرف قوانين الطيران استطاع أن يصمم الطائرة وينتجها وبالتالي ازدادت درجة حريته في التنقل، وعندما عرف قوانين الكيمياء زادت درجة حريته في اختراع الأدوية. فالإنسان يتعلم ظواهر الطبيعة والأفعال المقدرة فيها لكي يمارس القضاء من خلالها لأن حريته تكمن فيهما معاً.

فالموت قدر والقتل قضاء ولولا الموت لما كان هناك قتل. ووجود إمكانية الضرب باليد قدر والقيام بعملية الضرب قضاء وهذا نراه في قوله تعالى {هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ..} (يونس ٥٦) "قدر إلهي". وقوله {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ..} (المائدة ٢٨) "قضاء إنساني".

فكلما زاد جهل الإنسان بالمقدرات زاد شعوره بالجبرية، فالإنسان يطلب الأشياء حسب معرفته لها، والذي لا يعرف شيئاً لا يطلب شيئاً لذا قال تعالى {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ} (الأنفال ٢٢) فمثلا كان الإنسان سابقاً يظن أن وجوده على الأرض جبري، ولكن عندما عرف قوانين الجاذبية وقوانين الطيران والدفع الصاروخي تخطى هذه الجبرية فأصبح يخرج من الأرض ثم يعود إليها.

لنضع الآن تعريفاً للقضاء والقدر والحرية:

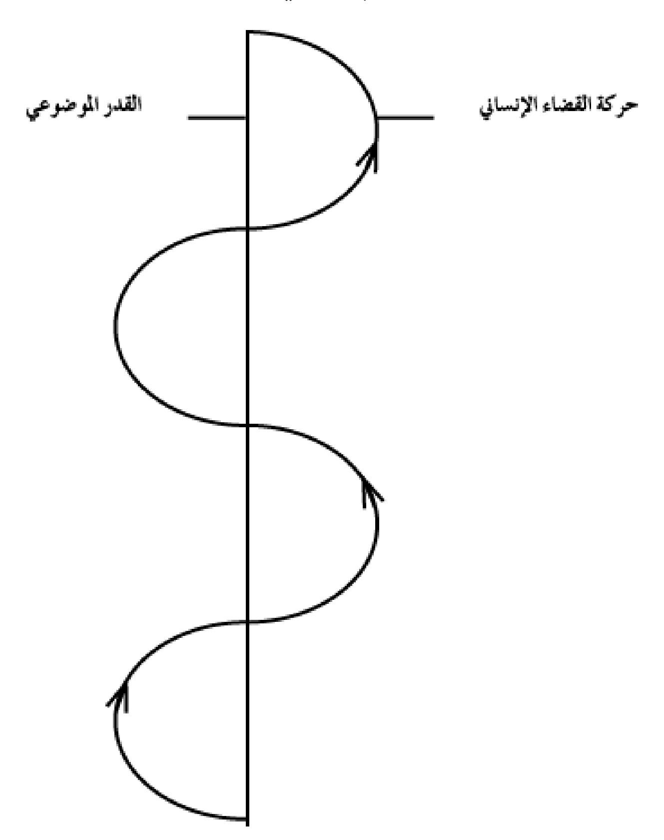
١ـ **القدر:** هو الوجود الموضوعي للأشياء وظواهرها خارج الوعي الإنساني.

٢ـ **القضاء:** هو ظاهرة تتمثل في السلوك الواعي "إرادة إنسانية" قائم على الحركة بين الأضداد، أي سلوك بين نفي وإثبات في ظواهر الوجود "القدر".

فالقضاء الإنساني المتحرك دائماً يتولد من القدر من خلال المعرفة المتحركة دائماً "والتي تعتبر المقادير أعلى شكل للتعبير عنها".

وبما أن المعرفة الإنسانية لظواهر الوجود متحركة دائماً إلى الأعلى، فالقضاء الإنساني بالتالي متحرك دائماً إلى الأعلى.

هذه التعاريف يمكن أن نمثلها بالشكل الرمزي التالي:



القضاء الإنساني صاعد إلى الأعلى ومحوره القدر والقوة المحركة هي المعرفة

فكلما زادت معرفة الإنسان بالقدر زاد قضاؤه وبالتالي زادت حريته وانخفض مفهوم الجبرية عنده. فالقضاء دون قدر وهم وأحلام يقظة "لا موضوعية"، والقدر دون قضاء جبرية وجهل ورجعية أو رجوع إلى المملكة الحيوانية.

من هذا التعريف للقضاء والقدر نستطيع أن نضع تعريفاً جامعاً مانعاً للحرية والتقدمية:

١– **الحرية:** هي إرادة إنسانية واعية دائمة الحركة بين النفي والإثبات في الأضداد "ظواهر الوجود".

المعرفة

الحرية = القضاء ⟷ القدر

والسؤال الآن: كيف بدأت حرية الإنسان "الومضة الأولى للحرية"؟ بدأت هذه الومضة الأولى مع بداية المعرفة الإنسانية، وجاءت مع نفخة الروح وهي الحلقة المفقودة بين البشر "المملكة الحيوانية" والإنسان وقد تم شرحها في مقال سابق.

ولنعبر عن هذا الانتقال بالمعادلات التالية:

هنا تنطبق على البشر قوانين

"في المملكة الحيوانية" البشر ⟷ القدر

الوجود دون إرادة واعية

نفخة الروح "الحلقة المفقودة"

المعرفة "التمييزات"

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ⟷ القدر

(البقرة ٣١) بداية الإنسان أو "بداية الأنسنة".

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ (طه ١٢١)

من هذا التعريف نرى أن ظاهرة الحرية لها مركبتان: المركبة الأولى موضوعية وهي الوجود الموضوعي للأشياء وظواهرها. والمركبة الثانية ذاتية وجاءت من نفخة الروح، وهي المعرفة التي نتج عنها إرادة واعية. فأول شيء مارسه آدم بعد المعرفة مباشرة هو الحرية، وكانت هذه الحرية في معصية أمر الله. لذا فإن الذي يطلب الحرية لا يطلب وهماً ولا يعيش في وهم، وإن أحد الأسباب الرئيسية لمعاداة العرب للنبي (ص) هو الجهل، لذا كان الني (ص) يدعو بقوله "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".

أما التعريف القائل إن الحرية هي "وعي الضرورة" فهو تعريف ناقص، فوعي الضرورة لا يكفي لممارسة الحرية، لأن هذا الوعي الذي أطلقنا عليه مصطلح المعرفة بالموجودات شرط لازم غير كاف لممارسة الحرية، فالحرية ظاهرة تقوم على الأضداد وليست شيئاً، فلكي يمارس الإنسان حريته لابد أن يكون هناك مجال للاختيار بين ضدين، أي مجال للنفي والإثبات، وهنا يكمن سر جدل الإنسان في الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية. ولكي يتحقق جدل الإنسان في الفكر لابد أن يكون هناك فكر وفكر مضاد، ورأي ورأي مضاد "جدل غير متخاصم" وهذه الخاصية تعتبر أهم خاصية في المجتمعات الإنسانية الحرة المتحضرة.

فإذا سأل سائل: ماهي وحدة الفكر والفكر المضاد في المجتمعات المتحضرة؟ أقول: وحدتهما هي البحث عن الحقيقة في المعرفة، وعن الوطنية في السياسة والاقتصاد.

٢ــ **التقدمية:** بما أن المعرفة الإنسانية هي معرفة صاعدة إلى الأعلى وغير ثابتة وتحمل مفهوم النسبية، لذا فإن التقدمية هي الانتقال كيفاً وكماً من درجة في الحرية إلى درجة أعلى في كل نواحي الحياة. وإذا فقدت هذه الخاصية في رفع الحرية كماً وكيفاً للناس فقد فقدت أهم مبررات وجودها.

لننتقل الآن إلى تصحيح بعض الأخطاء الشائعة:

١ــ إن من الخطأ الفاحش عندما نعجز عن تفسير ظاهرة ما، كأن يقع إنسان ما من على السطح ويموت، أن نقول مات قضاء وقدراً. لأن قولنا مات قضاء وقدراً يعني أنه قتل عمداً من قبل شخص ما لا نعرفه والصحيح أن نقول: مات قدراً. وكما قلت كلما زاد جهل الإنسان بالمقدرات زاد الجانب الجبري في قناعاته وتصرفاته، وكلما زاد جهل الناس زاد تفسيرهم الجبري للأحداث، وهذا شائع جداً في الوطن العربي حيث يرد كثير من الناس كثيراً من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والمرضية بقولهم "هذا مكتوب علينا" ويظنون أن هذه القناعة هي جزء أساسي من العقيدة الإسلامية وهي ليست أكثر من سذاجة.

٢ــ كلما زاد جهل الإنسان بقوانين الطبيعة والاجتماع والاقتصاد زاد ربطه للأحداث بمفهوم الصدفة، وأكبر جهل يمكن أن يرتكبه إنسان هو أن يعزو ظهور الحياة على الأرض وظاهرة الإنسان إلى الصدفة.

٣ــ إن الإنسان مخير وحر في اختياره لكل أفعاله من خلال عالم الحقيقة لا الوهم، والناس ولدوا أحراراً مسلمين، والذي يقيد الإنسان في اختياره أمران:

أــ المرجع الأخلاقي والمعرفي والجمالي الذي يعتبر المرجع القانوني امتداداً له.

بــ الإرهاب "الإكراه".

فالأمر الأول يقبل به الإنسان العاقل المتحضر من وازع وجداني وإنساني بحت "التقوى" ومن وازع بشري بحت "الخوف من العقوبة". أما الأمر الثاني فلا يستعمل إلا مع البهائم.

ـ الخلاصة

إن أساس العقيدة الإسلامية فيما يتعلق بالأعمال والأرزاق والأعمار بالنسبة للإنسان هو أن الله لم يحدد سلفاً عمر الإنسان ورزقه وعمله، وإنما حدد سلفاً القوانين الموضوعية "الكتب" التي من خلالها يولد الإنسان ويحيا ويموت "يطول عمره أو يقصر" والقوانين الموضوعية التي من خلالها يرزق، والقوانين الموضوعية التي من خلالها يعمل. والإنسان حرفي اختياره من خلال هذه القوانين، ولايحد اختياره إلا أمران: المرجعية المعرفية والأخلاقية والجمالية والعرفية أو الإكراه. وإن تدخل الله بقضائه في هذه الأشياء هو تدخل ظرفي "المشيئة" مرهون بموقف الإنسان وبالظروف الموضوعية التي يوجد فيها {.. إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ..} (الرعد ١١).

وإن قضاء الله هو إما أمر ضد النهي فأعطى فيه القانون الأخلاقي والتشريعي "الذاتي". أما قضاؤه من خلال أمر نافذ وغير مبرم منذ الأزل فهو ظرفي لذا قال "إذا أراد" وتدخله يكون من خلال كلماته، وكلماته هي الوجود، والقوانين الموضوعية للأشياء خارج الوعي. وبما أن الله كامل المعرفة فهو الحر المطلق بهذه القوانين يتدخل فيها لمصلحة الإنسان أو ضده. وبما أن الإنسان ناقص المعرفة فهو ذو تصرف نسبي بهذه القوانين، وبالتالي فحريته نسبية تزداد بازدياد معرفته لهذه القوانين الموضوعية، وكلما زادت معرفته بهذه القوانين زاد قرباً من الله تعالى.

ـ الديموقراطية[7]

7 ـ لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا: **الدولة والمجتمع**، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ١٩٩٤.

بعد أن عرفنا الحرية والتقدمية ننتقل إلى تعريف الديموقراطية.

الديموقراطية: هي ممارسة الحرية من قبل مجموعة من الناس ضمن علاقات معينة، وفقاً لمرجعية معرفية وأخلاقية وجمالية وعرفية. فنقول: إن الله حر لكنه غير ديموقراطي، لأن ديموقراطيته تتطلب آلهة مثله لكي يمارس حريته بالاتفاق معها ضمن مرجعية ما، وفي هذا المجال

قال تعالى {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا..} (الأنبياء ٢٢) وقال {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} (الإسراء ٤٢) أي لتوجهوا إلى ذي السلطة فيهم فجعلوه مرجعاً.

لنورد الآن بعض الأمثلة على أنواع المرجعية:

١ـ **المرجعية المعرفية:** إن الأرضية العلمية وتقدم المعارف بالموجودات في الطب والفيزياء والكيمياء وعلم الإحصاء وغيرها تعطينا يومياً معلومات جديدة عن قوانين الوجود "القدر" وبالتالي تنمو معلوماتنا عن الضار والنافع في الموجودات. هذه المعلومات المتطورة تعطينا أرضية للقيام بتشريعات تحد من حرية الإنسان، وأكبر مثال على ذلك "التلوث، التدخين، المواد السامة، المخدرات" حيث تم سن هذه التشريعات طبقاً لأرضية معرفية بحتة لا طبقاً لأرضية أخلاقية، وعليه فإن تقدم المعارف ينعكس على تطور التشريع بالضرورة، وهذه إحدى صفات الحنيفية في الإسلام "انظر مبحث الاستقامة والحنيفية في الباب الثالث".

٢ـ **المرجع الأخلاقي:** هذا المرجع هو من المراجع التي تحمل صفة الثبات في الإسلام وهي تحمل الصفة الكونية، مثل الصدق والكذب وشهادة الزور وتحريم قتل النفس والوفاء بالكيل والميزان وحنث اليمين، وهذا المرجع الأخلاقي هو من المراجع التي لا تحمل صفة التطور وهو أحد الصفات المستقيمة في الإسلام ويتمثل في الفرقان "الوصايا العشر" "انظر مقالتي حول الوصايا العشر في الباب الثالث".

٣ـ **المرجع الجمالي:** هذا المرجع يحمل الصفة المتطورة لمفاهيم الإنسان عن الجمال ضمن المفاهيم المعرفية المتطورة "انظر مبحث الجمال في الباب الرابع" مثل أشكال اللباس والهندام.

٤ـ **المرجع العرفي:** هو المرجع الذي يتبع أعراف المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان. فهذه الأعراف تختلف من مكان لآخر، ومن زمان لآخر، وهو يتبع الجانب الحنيفي في الإسلام.

هذه المراجع الأربعة أضيف إليها في الإسلام مرجع خامس هو الأحكام التي جاءت في التنزيل الحكيم تحت بند "حدود الله" كالإرث وغيره، وهذا التشريع فيه حد من الحرية.

ـ أنواع الحرية

بما أن الحرية تدخل تحت بند جدل الإنسان وهي خاصة إنسانية بحتة تمارس من خلال المجتمعات الإنسانية وفق المرجعيات المذكورة أعلاه، فلها عدة أشكال رئيسية تعبر عن ذاتها فيها. ونذكر منها

واحدة فقط هي حرية الفكر والرأي حيث أن بقية أنواع الحرية تبحث في مفهوم الدولة والمجتمع والقانون.

– حرية الفكر وحرية التعبير عنه

هي أهم أنواع الحرية الإنسانية قاطبة، إذ أن الفكر والتعبير عنه هو أهم صفة مميزة للإنسان عن البهائم، ويتجلى دائماً في حرية الرأي والرأي المضاد التي تقاس دائماً بالميزان المضاد لها. فحرية الفكر عند إنسان ما تقاس بمقدار ما يسمح للفكر المضاد له بالتعبير عن نفسه ولا تقاس بالمقدار الذي يسمح لنفسه بالتعبير عن ذاته. أي يجب علينا دائماً أن نقيس حرية الفكر بحرية الفكر المضاد.

وبما أن الحرية هي حركة واعية بين ضدين، فلابد من وجود ضدين حتى نقول إن هناك حرية أصلاً. هذه الحرية هي من نتاج جدل الإنسان وهي ظاهرة مميزة للمجتمعات الإنسانية. ولحرية الفكر والفكر المضاد وحدة هي البحث عن الحقيقة بالنسبة للوجود، وكلاهما يبحث عن الحقيقة ولايقيد هذه الحرية إلا منهج البحث العلمي. وحرية الرأي والرأي المضاد في المجتمعات لها وحدة هي الوطنية ولا تقيدها إلا المفاهيم الوطنية التي تعتبر مرجعية هذه الحرية والتي يعبر عنها بالدستور.

الباب الثالث

أم الكتاب "الرسالة" وأزمة الفقه الإسلامي

الفصل الأول

أم الكتاب ''الرسالة''

تمهيد في الاستقامة والحنيفية

قلنا إن أم الكتاب هي مجموعة الآيات المحكمات {.. مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ..} (آل عمران ٧) وهي الكتاب المحكم الذي قال عنه {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود ١) وهي التي خضعت للتطور وللتدرج وللناسخ والمنسوخ ولا تحمل صفة الأزلية وهي التي وتلازم فيها الإنزال والتنزيل، ولا يوجد فيها جعل {يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩).

فالكتاب المحكم هو رسالة محمد (ص) التي تحتوي على الحدود والعبادات والأخلاق وعلى تعليمات عامة وخاصة وأحكام مرحلية. هذه الأمور كلها تدخل في السلوك الإنساني ''الذاتي'' (Subjective) والتي تضع أسس علاقة ''صلة'' الإنسان مع الله ''العبادات''، ومع أخيه الإنسان ''الأخلاق'' وأسس التشريع في الحدود، وهي التي أطلقنا عليها مصطلح العقل الاتصالي.

قبل أن نناقش باختصار كل مفردات أم الكتاب، علينا أن نبدأ بالمدخل التالي لفهم أم الكتاب.

لقد بحثنا في فصل جدل الكون وجدل الإنسان المواضيع الرئيسية لنبوة محمد (ص)، أي لمواضيع القرآن الذي وقع به الإعجاز، وقد بينا أن إعجازه يكمن في التشابه لذا فهو يحمل طابعاً متميزاً إلى أن تقوم الساعة، بينما كانت نبوة موسى وعيسى في التوراة والإنجيل تحمل الطابع النسبي المرحلي التاريخي طبقاً لمعارف الإنسان حين نزولها، لذا قال عن التوراة والإنجيل إنهما هدى للناس من قبل.

لنبحث الآن موضوع الرسالة، أي بماذا أصبح محمد (ص) رسولاً؟

إذا قارنا رسالة محمد (ص) برسالتي موسى وعيسى نرى أن رسالة موسى وعيسى تحمل اسم ''الكتاب''، أي مجموعة التشريعات التي جاءت إليهما، ولكن هذه التشريعات تحمل الطابع الزماني والمكاني ''المرحلي التاريخي'' من حيث الزمان والمكان ''لبني إسرائيل''. لذا كان موسى رسول بني إسرائيل، وأرسل عيسى لبني إسرائيل لتعديل شريعة موسى. وهكذا يجب أن نعلم أن شريعة موسى وعيسى كانت شريعة عينية، أي أن كل التشريعات التي جاءت إليهما تشريعات عينية وأن مفهوم التجريد في التشريع لم يكن عند موسى وعيسى، لذا فقد وجه الله سبحانه وتعالى اللوم لبني إسرائيل

لشدة تمسكهم بشريعة موسى عندما جاءهم عيسى قائلاً {.. وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..} (آل عمران ٥٠). ومن جراء هذا التمسك بشريعة موسى ثم بشريعة عيسى المعدلة، وعلى مرور الزمن، أصبح هذا التشريع غير صالح، وخرج من الحياة تماماً كما خرج التوراة والإنجيل من الحياة أيضاً في تفسير الكون والإنسان، ومن هنا أصبحت الديانتان اليهودية والمسيحية ديانتين كنسيتين توجدان في المعابد فقط وخرجتا من الحياة وبقي منهما الفرقان فقط "الوصايا"، حيث أن الفرقان عبارة عن أخلاق وليس تشريعاً ولا تفسيراً للكون والإنسان.

أما بالنسبة لرسالة محمد (ص) فالوضع لابد أن يكون مختلفاً تماماً باعتباره خاتم الرسل إضافة إلى أنه خاتم الأنبياء. فكما أن نبوته جاءت بشكل متشابه لكي تصلح لكل زمان ومكان كان لابد أن تكون لرسالته خاصية ما تميزها تماماً عن الرسالات التي قبل وتجعلها صالحة لكل زمان ومكان. وهذه الخاصية ليست خاصية التشابه، حيث أن التشابه فقط لآيات القرآن والسبع المثاني، وإنما هي خاصية استيعاب الشمول والأبدية في التطبيق لأنه ليس هناك رسالة بعدها، لذا امتازت بهذه الخاصية كي تكون قابلة للتطبيق على كل المجتمعات على اختلاف أزمنتها وأمكنتها، وهي خاصية امتازت بها الرسالة المحمدية دون غيرها من الرسالات السابقة لها، ينطبق عليها قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء ١٠٧) وقوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..} (الأعراف ١٥٨) لأنه جاء برسالة فك بها الإصر والأغلال التشريعية التي كانت في شريعة موسى، لهذا سمى رسالته رحمة للعالمين. لذا فإن الرسالة المحمدية تحمل صفات الخاتمية والعالمية والرحمة، ولكن أين هذه الصفات الثلاث؟

إن مشكلة الأدبيات الإسلامية والفقه الإسلامي المتعلقة بالرسالة هي أنها إلى اليوم لم تميز هذه الخاصية لكي تستعملها بيسر وسهولة وتكون مقنعة لغير المسلم، قبل أن تكون مقنعة للمسلم نفسه بأن محمداً (ص) رسول الله إلى الناس جميعاً وهو رحمة للعالمين وأن الرسالة صالحة لكل زمان ومكان.

إنّ إغفال هذه الخاصية جعل من الفقه الإسلامي التشريعي فقهاً متزمتاً متحجراً حجب عنا فهم أسس الشريعة الإسلامية كما حجب عنا فهم السنة النبوية على حقيقتها، حيث أن مفهوم السنة النبوية مرتبط بهذه الخاصية التي تتيح لنا وضع مفهوم معاصر متجدد دائماً للشرع الإسلامي وللسنة النبوية، وبالتالي وضع أسس جديدة للتشريع الإسلامي.

فإذا أردنا أن نقسم الرسالة إلى مواضيع رئيسية رأيناها تتألف من:

١ـ الحدود "التشريعات" كالإرث

٢ـ الشعائر كالصلاة والزكاة

٣– القيم الإنسانية كبر الوالدين: وهي التي جاءت في الفرقان العام والخاص. علماً أن فيها المحرمات وهي عينية أبدية شمولية وفيها ختم الرسالة حيث أغلقت المحرمات إلى أن تقوم الساعة، كتحريم قتل النفس، وفيها المنهيات وهي ظرفية كمنع التجسس والغيبة.

٤– مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الجانب الإنساني.

فكيف نفهم هذه المواضيع ضمن منظور عام خاص بها حصراً يجعل من رسالة محمد(ص) رسالة متجددة دائماً صالحة لكل زمان ومكان؟

هذه الخاصية لا يمكن أن نفهمها إلا إذا فهمنا صفتين أساسيتين متميزتين من صفات الدين الإسلامي بشكل عام هما من المتناقضات، حيث أن الحركة الجدلية بينهما هي حركة تناقضية تفرزها التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية في مجال المعرفة وعلوم الاجتماع والاقتصاد، ينتج عنها دائماً مجالات جديدة في التشريع كماً ونوعاً. هذان النقيضان هما الاستقامة والحنيفية اللذان يكمن فيهما جدل التشريع، وبالتالي تطوره، وبدونهما يستحيل فهم الدين الإسلامي فهماً معاصراً والاقتناع بصلاحيته لكل زمان ومكان. فالاستقامة جاءت في قوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الفاتحة ٦) وقوله {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ١٦١) وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام ١٥٣) وقوله عن موسى وهارون {وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الصافات ١١٨).

أما الحنيفية فقد جاءت في قوله تعالى {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ٧٩) وقوله {.. مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ١٦١) وقوله {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم ٣٠) وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (البينة ٥). لاحظ عبارة ”وذلك دين القيمة“ هنا وعبارة ”ذلك الدين القيم“ في آية الروم ٣٠. وقوله {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ..} (الحج ٣١) وقوله {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..} (النساء ١٢٥) وقوله {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يونس ١٠٥) وقوله {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل ١٢٠) وقوله {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..} (النحل ١٢٣) وقوله {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا..} (آل عمران ٦٧) وقوله {قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا..} (آل عمران ٩٥).

ونبدأ بـ"حنيف" فنقول: اشتق "الحنيف" من "ح ن ف" وتعني في اللسان العربي الميل والانحراف، ويقال للذي يمشي على ظهر قدميه "أحنف" والحنف اعوجاج في الرجل إلى الداخل. وبما أن الحنف والخنف والجنف تشترك في صوتين وتختلف في صوت واحد فلها معان مشتركة، فالحنف الميل والانحراف في الرجل، والخنف الميل والانحراف في اللفظ حيث جزء من الأصوات يميل نحو الأنف، والجنف الانحراف والميل في القسمة كقوله تعالى {فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا..} (البقرة ١٨٢).

أما المستقيم والاستقامة فقد اشتقت من الأصل "ق وم" وله في اللسان العربي أصلان صحيحان: الأول جماعة من الناس للرجال فقط وهي جمع امرئ، والثاني الانتصاب والعزم. فمن الانتصاب جاء المستقيم والاستقامة "ضد الانحراف" ومن العزم جاء الدين القيم أي الدين القوي صاحب السيطرة، ومن هذا الباب جاء التقييم وأصله أنك تقيم شيئاً مكان شيء. وبمعنى السيطرة والعزم جاء قوله تعالى {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ..} (النساء ٣٤) وقوله {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..} (البقرة ٢٥٥) وجاء معنى العزم والسيطرة في قوله تعالى {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ١٦١). هنا نلاحظ أن عزم الدين الإسلامي وقوته وسيطرته تأتي بهاتين الصفتين معاً الاستقامة والحنيفية حيث جاءتا معاً في آية واحدة، حيث أنّ قوّة الدين الإسلامي تكمن في استقامته وحنيفيته معا.

قد يسأل سائل: كيف تكمن قوة الإسلام في هذين النقيضين؟

والجواب على هذا السؤال مايلي: يتولد من هذين النقيضين مئات الملايين من الاحتمالات في التشريع وفي السلوك الإنساني العادي بحيث تغطي كل مجالات الحياة الإنسانية في كل مكان وزمان إلى أن تقوم الساعة.

أما لفظة الحنيف بمعناها الطبيعي الكوني المباشر فقد جاءت في قوله تعالى {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ٧٩). فهنا {حَنِيفًا} حال والحال تصف الفعل، وأول فعل قبلها هو فطر وقد شرحت معنى "فطر" في فصول سابقة ومنها جاءت الفطرة "القانون الطبيعي". أي أن طبيعة السموات والأرض والوجود المادي كله في هذا الكون الثنائي هي طبيعة حنيفية متغيرة، فمن ناحية الحركة لا يوجد حركة مستقيمة في هذا الوجود المادي ابتداء من أصغر الإلكترونات إلى أكبر المجرات، إذ كلها لها مسارات منحنية "مائلة" لا يوجد فيها استقامة، لذا جعل سبحانه صفة الحنيفية صفة أساسية للوجود المادي قاطبة، فالدين الحنيف هو دين منسجم مع هذا الوجود، وصفة "الحنف" هي صفة طبيعية فطرية، فإذا حمل الإنسان هذه الصفة في

فطرته فهي تنسجم مع وجوده في هذا الكون المادي لأنه في أي منحن يختلف ميل النقطة عن النقطة التي قبلها والتي بعدها.

وهذه الصفة هي صفة الميل والانحراف في التشريع وفي الطباع والعادات والتقاليد والتي نقول عنها صفة التغير "المتغيرات". فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يكون هناك ثوابت يحتاجها الإنسان في حياته وتشكل علاقة جدلية مع المتغيرات، وهذه الثوابت لا تخضع للتحول "مستقيمة" بل تنسب إليها المتغيرات. فهنا ظهرت حاجة الإنسان إلى الله ليدله على هذه الثوابت والتي سماها "الصراط المستقيم". حيث أن التحول والتغير موجود أصلاً في طبيعته وهو قوي جداً في طبيعة الكون والمجتمعات، ولا يحتاج الإنسان لمن يدله عليه، ولكن يحتاج إلى من يدله على الثوابت لذا قال في سورة الفاتحة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} ولايوجد آية تقول اهدنا إلى الحنيفية لأنها أصلا موجودة لذا قال عن الحنيفية {.. فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ..} (الروم ٣٠) ولكن أمرنا أن نكون حنفاء ولايعني أبداً أن الصراط المستقيم "الثوابت" جاء ليلغي المتغيرات بل ليشكل علاقة جدلية ثنائية معها، وهنا يكمن التفاعل الجدلي بين الثابت والمتحول "المستقيم والحنيف" في الدين الإسلامي. فإذا سأل سائل: إذا كانت الحنيفية "التغير" موجودة في طبيعة الوجود، فما هو الصراط المستقيم "الثوابت"؟

يجب علينا لنفهم هذا أن نرجع إلى الرياضيات "Mathematics" وخاصة ما يسمى التوابع المستمرة أو رياضيات نيوتن التي ظهر فيها مفهوم التحليل الرياضي "Mathematical Analysis" ومفهوم النقاط المميزة ذات الطبيعة الخاصة بها.

إن التحليل الرياضي علم يربط علاقة تابع بمتحول أو بمتحولين أو أكثر. فإذا كان التابع هو Y والمتحول هو X فالتابع هو:

$$Y=f(x)$$

وإذا كان متحولين فالتابع هو:

$$Y=f(x,z)$$

لكن هذه العلاقة للتوابع المستمرة تأخذ أشكالا متعددة يمكن أن نحصرها فيما يلي:

١ـ تابع منحن "حنيف" له نهاية عظمى فقط ونقطة النهاية لها وضع مميز خاص بها بين كل نقاط المنحني، وجاء التعبير الرياضي لهذا التمييز بأن المشتق الأول يساوي الصفر. "انظر الشكل رقم ١

حيث تجده مع باقي الأشكال في نهاية مبحث الحدود في التشريع".

٢– تابع منحن "حنيف" له نهاية صغرى فقط "انظر الشكل رقم ٢".

٣– تابع منحن "حنيف" له نهايتان عظمى وصغرى كالتوابع الموجِيَّة. وهذا المنحني له نقطتان مميزتان هما النهاية العظمى والنهاية الصغرى حيث المشتق الأول يساوي الصفر في النهايتين ونقطة الانعطاف وهو تغير الميل من الأعظمي إلى الأصغري وبالعكس أي نقطة التوازن بين الأصغري والأعظمي وفيها المشتق الثاني يساوي الصفر. "انظر الشكل رقم ٣".

٤– تابع مستقيم مواز للمحور × ليس له نهاية عظمى ولا نهاية صغرى أي كل نقاطه هي عظمى وصغرى معاً. "انظر الشكل ٤".

٥– تابع منحن له نهاية عظمى و صغرى ولكن بنمط مقارب أي التابع المنحني يقترب من المستقيم ولا يمسه إلا في اللانهاية."انظر الشكل ٥".

٦– حالة منحن فيه الحد الأعلى موجب والحد الأدنى سالب. "انظر الشكل ٦".

هذه التوابع تصف ظواهر في الطبيعة، ونلاحظ في التوابع المنحنية أن النهايات العظمى والصغرى فيها يمر منها خط مستقيم مماس لها له خاصية أساسية هي أنها لا يمكن أن تتجاوزه إذا كانت النهاية عظمى، ولا يمكن أن تنزل عنه إذا كانت النهاية صغرى، ولا يمكن أن تتجاوزه أو تنزل عنه إذا كانت له نهايتان عظمى وصغرى، وتصل إليه في اللانهاية إذا كان خطاً مقارباً، ولا يمكن أن تخرج عنه إذا كان مستقيماً. هنا نلاحظ أن التوابع منحنية بحد ذاتها ماعدا الحالة الرابعة حالة الخط المستقيم، لكنها بنفس الوقت لا تتجاوز أبداً المستقيمات المماسة للنهايات، وأن مجال تحقيقها وعملها هو مجال النهايات تحت النهاية العظمى وفوق النهاية الصغرى، أو بين النهايتين العظمى والصغرى هذه النهايات المتمثلة بمستقيمات تعطينا حدود تحقيق التابع المنحني ماعدا الحالة الرابعة وهي حالة المستقيم. وخارج هذه النهايات لا يتحقق التابع.

إذا فهمنا هذه الخاصية تحديدا فإننا نستطيع أن نفهم الإسلام بشقيه المستقيم والحنيف، فالحنيفية هي التابع الذي هو منحن أصلاً والاستقامة هي حدود تحقيق هذا التابع المتمثلة بالنهايات، أما إذا أخذنا الحالة الرابعة وهي حالة المستقيم فقط فإننا نرى أن التابع ليس له حدود يتحقق فيها إلا المستقيم نفسه أي لا يوجد فيه مجال للميل "الانحناء" أبداً "غير حنيف".

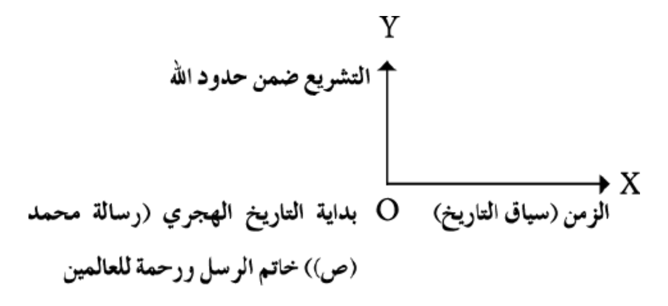
فإذا نظرنا إلى التشريع الإسلامي ووجدناه يحمل خاصيتي الانحناء والاستقامة معاً فهذا يعني أنه صالح لكل زمان ومكان، أي قابل للحركة في حدود النهايات، وهذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان التشريع الإسلامي والسلوك الإسلامي مبنيين على مبدأ النهايات أي الحدود المستقيمة التي يمكن

للحركة الحنيفية أن تتحقق ضمنها. وقد أعطانا الله في أم الكتاب الحدود فقط أي المستقيمات التي يمكن أن نكون حنفاء ضمنها وسماها حدود الله وهي مع الفرقان تشكل الصراط المستقيم ونحن نحنف ضمن هذه الحدود المستقيمة.

فإذا نظرنا الآن إلى بعض الآيات في أم الكتاب رأيناها تتصف بهذه الصفة أي صفة الحدود وقد أعطانا الله الحالات جميعها: الحد الأدنى فقط، والحد الأعلى فقط، والحد الأدنى والحد الأعلى معاً، وحالة المستقيم الذي هو حد أعلى وحد أدنى ولايتغير، وحالة الخط المقارب الذي يقترب من النهاية "المستقيم" ويمسه في اللانهاية. وحالة الحد الأعلى موجب والحد الأدنى سالب.

ولكن هنا الإحداثيات يجب أن تكون كما يلي: إحداثية (Y) هي تطور التشريع ضمن الحدود وإحداثية (×) هي الزمن أو سياق التاريخ.

ومبدأ الإحداثيات يمثل البعثة النبوية أو زمن تنزيل الرسالة على محمد (ص) "الهجرة النبوية".



فما علينا الآن إلا أن نميز آيات حدود الله وهي رأس السنام في التشريع والقيم الإنسانية والشعائر"العبادات"، علما أن هناك فرعاً آخر في الرسالة هو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مبدأ مطلق لكن تطبيقاته تكون خاضعة للشروط الموضوعية والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمستوى المعرفي لكل مجتمع.

١– الحدود في التشريع
٢– الحدود في العبادات
٣– القيم الإنسانية (الفرقان)
٤– مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الصراط المستقيم

ولكن قبل البدء في عرض نظرية الحدود التي جاءت في الرسالة، يجدر بنا بيان مفهوم النسخ بين الرسالات، وانعدامه تماما في الرسالة المحمدية الخاتمة.

الفرع الأول: انعدام النسخ في الرسالة المحمدية[8]

8 – لمزيد من التفاصيل في الموضوع يرجى الاطلاع على كتابنا: **الدولة والمجتمع**، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ١٩٩٤.

إن ميزتي الاستقامة والحنيفية – كما رأينا سابقاً– اللتان تتميز بهما رسالة محمد (ص) الموجودة في أم الكتاب هما اللتان ساعدتاها على خاصية استيعاب الشمول والإطلاق، هذه الخاصية التي منحت أم الكتاب قابلية التطبيق عبر كل العصور والأزمنة وعلى كل المجتمعات، وفق نظريتها الحدودية التي سنشرحها لاحقاً، فهي بذلك جامعة مانعة للتشريع الإلهي الذي يطبقه الإنسان في جل جوانب حياته، ويقلده عند تشريعه للقوانين الوضعية كقانون الضرائب مثلا. فهذه الرسالة التي جاءت في أم الكتاب بشموليتها وإطلاقها لا يمكن أن يحدث فيها نسخ أسماه الفقهاء قديماً علم الناسخ والمنسوخ، ولجؤوا إليه بعد عجزهم عن إزالة التناقض الذي توهموه بين آيات التنزيل الحكيم وخاصة بين آياته المحكمات، فكانت وسيلتهم الوحيدة لفك هذا التناقض هو القول بأن أحكام أم الكتاب ينسخ بعضها البعض، كما أن البعض منها منسوخ بالسنة النبوية أي بما نسب للرسول (ص) من أحاديث، ونجم ذلك – كما ذكرنا في الباب الأول من كتابنا – عن عجزهم عن التفريق بين القرآن والرسالة في التنزيل الحكيم من جهة، وعن التباس الأمر عليهم من جهة أخرى بين القصص المحمدي الذي هو من القرآن وبين أم الكتاب "الرسالة". كل ذلك أدى بهم إلى الزج بالتنزيل الحكيم في متاهات الناسخ والمنسوخ، فأهدروه حقه الذي خصه به الله عز وجل من إطلاق وشمول، وأخضعوه لحقبة زمنية واحدة هي حقبة البعثة المحمدية بإيقافهم زمن التشريع في هذه الحقبة، وأوجبوا الخضوع لأحكامها وتشريعاتها على كل الحقب الزمنية المتلاحقة، وفي ذلك ظلم كبير وإجحاف في حق الرسالة والرسول معاً الذي جاء رحمة للعالمين ومن المفروض أن تناسب رسالته كل العالمين وتكون قابلة للتطبيق في كل العصور والأماكن، لكنه ومن جراء خصخصتهم لها بحقبة بعثته حصراً تاهت الرسالة المحمدية بين ما أسموه بعلم أسباب النزول الذي كنا تطرقنا له سابقاً في الباب الأول من كتابنا وعلم الناسخ والمنسوخ، فضاعت الرسالة بين هذين العلمين اللذان سميا كعلمين عبثاً لأنهما لا يمتّان بأي صلة للعلوم، وانمحت معالمها الشمولية والعالمية، محتجين بصحة عملهم بالنسخ بقوله تعالى {مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة ١٠٦) وغيرها من الآيات التي جاءت في النسخ، فما هو النسخ المذكور في هذه الآية؟ وكيف يتم؟ وكيف يجب أن ينظر إليه لإزالة التناقض واللغط الموجودين في الموضوع؟

يقول ابن فارس: النون والسين والخاء أصل واحد، إلا أنه مختلف في قياسه. قال قوم: قياسه رفع الشيء وإثبات شيء مكانه. وقالوا: النسخ: نسخ الكتاب. وقال السجستاني: النسخ، تحول ما في الخلية

من العسل والنحل إلى خلية أخرى. اه. فللنسخ إذن معنيان:

الأول، رفع الشيء وإثبات شيء مكانه. كما في قوله تعالى {.. فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آَيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج ٥٢).

الثاني، رفع الشيء نفسه من مكان إلى آخر، كما في نسخ الكتاب في قوله تعالى {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية ٢٩).

فإذا نظرنا إلى الآية ١٠٦ من سورة البقرة، نرى أنها تحمل المعنيين جميعاً. فهي تعني رفع آية وإثبات آية أخرى مكانها، وفي هذه الحالة تكون الآية المثبتة خيراً من الآية المرفوعة، وتعني رفع ونقل الآية من مكان إلى آخر، وفي هذه الحالة تكون في موضعها الجديد مثلها في موضعها الأول "نسخة طبق الأصل" ونرى أن الإنسان في الآية يحمل المعنى الأول للنسخ، أي رفع الآية وإثبات آية أخرى مكانها خير منها. كما نرى أخيراً أن النسخ والإنساء يقع على آيات الأحكام الموجودة في "أم الكتاب"، ولايقع على آيات قوانين الوجود المتشابهات "القرآن"، "اللوح المحفوظ" "والإمام المبين". إذ لا يمكن، بل لا يجوز، نسخ قانون المطر أو قانون الجاذبية أو قانون أحداث التاريخ. لكن لا يجب أن يفهم من قولنا بأن النسخ يقع على آيات الأحكام الموجودة في أم الكتاب أننا نقول بوجود النسخ بين آيات الرسالة الموجودة في التنزيل الحكيم، فهذا غير صحيح لأن الرسالة المحمدية تمتاز بخاصية استيعابية الشمول والإطلاق وهي بالتالي كاملة وخالية من التناقض وليس فيها نسخ بين أحكامها، أما المقصود بالنسخ الوارد في الآية ١٠٦ من سورة البقرة فهو النسخ بين أحكام أم الكتاب التي عند الله والتي قال فيها {يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد ٣٩)، فأم الكتاب عند الله يمحو فيها ويثبت ما شاء من الأحكام، وقد أتت الأحكام للأقوام قبل الرسول محمد (ص) ظرفية محدودة بشروط الموضوعية وظروف الزمانية والمكانية لكل قوم، لذا فقد كانت مؤقتة وآنية تناسبت مع واقع كل قوم وكان يتم النسخ فيها بالتتابع، حيث تم نسخ الشريعة التي جاء بها موسى بالشريعة التي جاء بها عيسى والتي نسخت بدورها بالشريعة التي جاء بها محمد (ص)، وبما أنها آخر تشريع إلهي فقد جاءت متصفة بالشمول والإطلاق، لذا فلا يمكن أن يكون فيها نسخ بين آياتها وإلا لتناقض ذلك مع خاصيتها الأبدية القابلة للتطبيق في كل زمان ومكان، وبالتالي ففكرة وجود النسخ في الرسالة الموجودة في التنزيل الحكيم مرفوضة، وهذا ما جعلنا نقول أن النسخ حصل بين الرسالات وليس في الرسالة الواحدة.

ففي الدستور والقانون، يتم النسخ بمفهومي المماثلة والاستبدال، مع اشتراط أن يكون الاستبدال بخير منها لا بأسوأ منها، ويتم تعديل الدساتير والقوانين في البلاد، في الحالات التالية:

١– أن تبقى بعض المواد على ماهي عليه، وهذا هو مثلها (نسخة طبق الأصل) ويعدل البعض الآخر لعدم ملاءمته للحياة ولتغير الواقع الاجتماعي، فيؤتي بمواد جديدة ملائمة، وهذا هو خير منها.

٢– أن يندثر مفعول قانون بكامله، ويتم تشريع قانون جديد يتلاءم مع الحياة، وهذا معنى "ننسها" والقانون الجديد لا ينطبق عليه "مثلها" بل ينطبق عليه "خير منها" أما القانون الذي يندثر فهو لا يندثر هكذا فجأة وبشكل قاطع، بل يبقى في أذهان الناس إلى حين، ويبقى ساري المفعول ضمن فترة انتقالية، ثم يندثر ويدخل دائرة النسيان التاريخي.

٣– أن يبطل القانون كلية في شكله ومضمونه، وهذا يدخل في القوانين ذات الخصوصية الشديدة التي جاءت لحالات معينة خلال التاريخ، وينطبق عليها قوله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآَيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ..} (غافر ٧٨). فالآية تتحدث عن رسالات وشرائع جاءت قبل محمد (ص) في الشكل والمضمون، ثم ألغيت كلية ولم تصلنا إطلاقاً، أي دخلت في نطاق "ومنهم من لم نقصص عليك"، وأما الذي قصصنا عليك، فشرائع لم تبطل تماماً بل تم تطويرها بالنسخ "مماثلة – تبديل"، وتم إضافة أشياء جديدة إليها لم تكن أصلاً موجودة. ونلاحظ أن المواضيع الجديدة والأحكام التي جاءت في الرسالة المحمدية، جاءت في سورة النساء، ولهذا فنحن نرى أن اسم السورة هنا يعني جمع نسيء وليس جمع امرأة، أي أنها سورة أحدث الأحكام وأجدّها عهداً، ونرى أن عدد الآيات التي جاءت فيها ناسخة أو خير من الأحكام التي نزلت على موسى ليس بالقليل. وهناك بعض آيات الأحكام جاءت في سورة النساء ولم يكن الوضع التاريخي زمن التنزيل يسمح بتطبيقها، وإنما سيتم الوصول إليها فيما بعد طبقاً لدرجة التطور الحضاري (أي أن تطبيقها سيأتي متأخراً عن زمن نزولها)، فهي نساء أيضاً جمع نسيء. مثال ذلك الآية رقم ٣ من سورة النساء التي تتحدث عن التعددية الزوجية، فالوضع الحضاري للعرب حتى الآن لم يصل إلى مستوى هذه الآية لكي يتبناها، أي أن هناك آيات في الأحكام نزلت إلى محمد (ص) ولم تطبق في حياته ولابعد مماته حتى الآن وهذا ما يؤكد خاتمية الرسالة المحمدية، وأنها جاءت إلى كل أهل الأرض إلى أن تقوم الساعة، وأنها تتناسب مع التطور (الفطرة).

٤ – جاء التطور في الأخلاق تراكمياً، فمع تطور الحياة ظهرت القيم الأخلاقية، ثم تراكمت هذه القيم، بمعنى أنها جاءت تكمل بعضها بعضاً، وليس لتلغي إحداها الأخرى. فبر الوالدين جاء لنوح، والوفاء بالكيل والميزان جاء لشعيب، وأضيف إلى بر الوالدين، حتى صارت عشرة تحت اسم الوصايا عند موسى، ثم تراكمت عليها بعد ذلك قيم أخرى إضافية تحت أسم الحكمة (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

٥ – الشعائر تراكمية في العدد، موحدة في المضمون، مختلفة في الشكل. فعند نوح لا يوجد صلاة ولا صوم ولا زكاة. ثم تراكمت بعد نوح عددياً، وبقي مضمونها واحداً هو طاعة العبد لربه. واختلف الشكل، فأصبح الصوم صوماً عن الطعام مثلا، بعد أن كان صوماً عن الكلام في الأصل. وأصبحت الصلاة وضوءاً وقراءةً وركوعاً وسجوداً بعد أن كانت دعاء وذكراً.

ولهذا لا يمكن أن يأتي التبديل ضمن الشريعة الواحدة للرسول الواحد، بل لابد أن يكون بين الشرائع المختلفة والرسل المتتابعين. وقد أصاب من فهم أن نسخ الآية هو نسخ الرسالة والشريعة، ولهذا لا يمكن أن يوجد ناسخ ومنسوخ في التنزيل الحكيم الموحى إلى محمد (ص) وهذا كله يطرح علينا الأسئلة التالية: هل هناك آيات أحكام في التنزيل الحكيم متماثلة؟ فإذا وجدت فلماذا النسخ؟ وهل هناك آيات أحكام خير من آيات أخرى في التنزيل؟ فإذا وجدت فما هي؟ وأيها الناسخة؟ وأيها المنسوخة؟ وما هي الآيات المنسأة؟

بما أن التطور في التشريع يتجه من المشخص إلى المجرد، متطابقاً مع خط سير الإنسانية، فيجب في المماثلة، أن تكون الآية الجديدة مماثلة ومطابقة للآية المنسوخة القديمة، وهنا يأتي معنى النسخ بمعنى نسخة طبق الأصل، أما في حالة ‘‘خير منها’’ فيجب أن تشمل أمرين:

أ – أن تكون الآية المنسوخة عينية مشخصة، والآية الناسخة تقترب من التجريد، لتتناسب مع تطور الإنسانية كما قلنا في الاتجاه من التشخيص إلى التجريد وتتحدثان عن نفس الموضوع.

ب – أن يتجه التشريع فيها نحو التخفيف فيما يتعلق بالعقوبات، وليس نحو التشديد، ونحو توسيع الحلال على حساب تضييق الحرام، الأمر الذي يؤكده قوله تعالى في إرسال عيسى إلى بني إسرائيل إذ كانت رسالته الميل بالتشريع نحو التخفيف {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..} آل عمران ٥٠. ونحو توسيع المحارم في حالات البعد عن المملكة الحيوانية واكتمال المجتمع الإنساني المتحضر، كمحارم النكاح التي جرى زيادة عددها في رسالة محمد (ص) لأن فيها تطوراً باتجاه المجتمعات المتحضرة. {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الأعراف ١٥٧).

فإذا ما تأملنا في التنزيل الحكيم، رأينا فيه الأحكام البديلة للآيات المنسأة، لكن يبقى علينا أن نبحث حكماً خارج التنزيل لنجد الآيات المنسأة نفسها. وإذا ما وضعنا باعتبارنا أن تطور التشريع بطيء، والتبديل نسخاً أو إنساء لا يتم خلال شهور أو عدة سنوات، بل يحتاج إلى مئات السنين، خاصة فيما

يتعلق بأسس التشريع وعمومياته، وهذا ما تؤكده دساتير العالم، إذ أنها لا تتعدل خلال خمس أو عشر سنوات، وليس بخصوصياته وتفاصيله واجتهاداته. وإذا ما لاحظنا أخيراً أنه (ص) لم يأمر أبداً أصحابه بأن يضعوا آية من التنزيل مكان أخرى تحت مفهوم الناسخ والمنسوخ، ولم يصلنا بالتواتر أنه أشار إلى هذا المفهوم أو ذكره، يبقى لدينا احتمال واحد، هو أن النسخ والإنساء جاء على شريعة سابقة للرسالة المحمدية، ونرى أنها شريعة موسى وكتابه، بدليل ذكر أهل الكتاب وماأنزل إليهم في التنزيل الحكيم بالعديد من السور، وبكثير من الاستفاضة[9] ونضرب مثالاً بالآيات التالية:

9 – قولنا إن الأساس في التشريع قبل محمد (ص) هو كتاب موسى وشريعته، فلأن عيسى المسيح جاء ليأخذ بشريعة موسى نحو التخفيف، وليحل لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم، وهو ما فصلته الآية ١٤٦ من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا...}

– {.. قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} (الأنعام ٩١).

– {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة ٥٣).

– {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران ٤٨، (عن المسيح).

– {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (البقرة ١٠٥).

– {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة ١٠٦).

– {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} (المائدة ١٥).

الكتاب ======>الشريعة "الأحكام"

مثلها ======>يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون.

خير منها ======>ويعفو عن كثير

– {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} (الشورى ١٣).

لقد ذهب القائلون بالنسخ إلى أن الآية ٢ من سورة النور {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ..} قد نسخت آيتي النساء ١٥ و١٦ {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ

أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا} ونرى أن هذا خطأ، قاد إليه خطأ سبقه، هو الاعتقاد بجواز النسخ في الرسالة الواحدة. فالآية ١٥ تتحدث عن فاحشة بين النساء حصراً، عقوبتها الإمساك في البيوت بعد استكمال شرط شهادة أربعة شهداء، أي ما نسميه اليوم"السحاق". أما الآية رقم ١٦ فتتحدث عن فاحشة بين الذكور حصراً وهي ما نسميه اليوم "اللواط"، فالفاحشة المقصودة في الآيتين لاعلاقة لها بالزنا، لأن الزنا فاحشة علنية بين أنثى وذكر، وهو ما استهدفته الآية ٢ من سورة النور، ونصت على عقوبته بالجلد.

وذهب القائلون بالنسخ إلى أن الآية ٢٣٤ من سورة البقرة {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} نسخت الآية ٢٤٠ من السورة نفسها {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ونرى مرة أخرى أن القول بالنسخ هنا خطأ. فالعجب العجاب أن تنسخ آية نزلت، آية أخرى لما تنزل بعد. والأعجب منه أن نعلق ما نشاء من الثياب على مشجب النسخ، بعيداً عن كل متواتر موثوق، اعتماداً على اجتهادات وتفاسير هي أضعف من أن يعتمد عليها في إعمال حكم إلهي، أو في إبطاله ونسخه.

قد يقول قائل: إن ورود الآية الناسخة في المصحف الذي بين أيدينا الآن قبل الآية المنسوخة، لا يعد برهاناً، فترتيب المصحف بسوره وآياته لم يتوخ تسلسل النزول. نقول: هذا الاعتراض يؤيدنا ولايعارضنا، فالترتيب جاء بيده (ص)، ومن قبله، وفقاً لوحي جبريل الأمين، آيات وسوراً، والأخبار المتواترة أفادت بأنه كان (ص) يرشد أصحابه إلى موقع الآيات من السور، وإلى موقع السور من التنزيل. وهذا أمر في علوم القرآن كتب القوم فيه وأكثروا، فليرجع إليه من يرغب بالتفاصيل. أضف إلى ذلك، أنك تجد كل الآيات الناسخة بعد الآية ١٠٦ من سورة البقرة وليس قبلها، أي بعد ذكر موضوع النسخ.

ويقول قائل: إذا كان ما تقوله صحيحاً، فيجب حين ننظر في الكتاب أن نرى فيه:

١ – أحكاماً من شريعة موسى، يوجد ما يماثلها في أم الكتاب "نسخة طبق الأصل".

٢ – أحكاماً من شريعة موسى، يوجد خير منها في أم الكتاب وفي الموضوع نفسه.

٣ – أحكاماً من شريعة موسى ظلت سارية المفعول في عهد النبي (ص) وطبقها، ثم نزل في أم الكتاب خير منها، نحا نحو التخفيف والتجريد والإنساء.

ونقول: نعم نحن نجد كل هذه الحالات في التنزيل الحكيم، تؤكد ما ذهبنا إليه في فهم الآية ١٠٦ من سورة البقرة توضحها الجداول في الصفحات التالية. ونسير مع جدول المقارنة، لنناقش ونوضح ونعلق على كل نقاطه، ولنضيف ما نرى أنه ينفع في التوضيح:

١ – الفرقان الذي أنزل على موسى في الوصايا يماثل ما أنزل على محمد (ص) في سورة الأنعام ١٥١، ١٥٢، ١٥٣. وقد أضاف إليها سبحانه قيماً أخلاقية لم تكن معروفة في عهد موسى ولافي شريعته، شكلت مع الفرقان مصطلح الحكمة.

ولما كانت القيم الأخلاقية، أي الحكمة بما فيها الفرقان، إنسانية عامة ومثل عليا، تحمل الصفة التراكمية رسالة بعد أخرى، وبدأت بنوح "رب اغفر لي ولوالدي"، فهي لوحدها لا تحتاج إلى وحي ولا إلى رسالة.

٢ – التشريعات التي أنزلت على موسى "العين بالعين والسن بالسن" تشريعات مشخصة عينية لمجتمع رعوي زراعي عشائري "أسباط" لم يقطع شوطاً في سلم التطور التاريخي.

– {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة ٥٢).

– {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (البقرة ١٠٥– ١٠٦).

– {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} (المائدة ١٥)

– {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} (الأنعام ١٥٢)	– {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} (النساء ٢، ٣) – {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا} (النساء ٦) – إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً (النساء ١٠	نسخ خير منها	

ضمير عليهم هنا يعود على اليهود. أما المكان الذي كتبنا عليهم فيه هذا الحكم فهو كتاب موسى، بدلالة سياق ما قبل الآية في قوله {.. بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ..} (المائدة ٤٤).	مثلها (نسخة طبق الأصل)	– {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (المائدة ٤٥)	– {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ
			هُمُ الظَّالِمُونَ} (المائدة ٤٥) (انظر لمزيد من المقارنة المادة ١٩٦ و١٩٧ و٢٠٠ و٢٢٩ و٢٣٠ من شريعة حمورابي) العرب واليهود في التاريخ –أحمد سوسة– دار العربي ١٩٧٥ ص ٣٧٠.

– {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (المائدة ٤٥) (انظر لمزيد من المقارنة سفر اللاويين ٢٤ وسفر الخروج ٢١ وسفر التثنية ٤ و١٩ في كتاب العهد القديم)	– {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} (الإسراء ٣٣) – {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء ٩٢ و٩٣)	نسخ خير منها	لقد فرق كتاب موسى (ص) بين القتل العمد والقتل الخطأ، تماماً كما فرق كتاب محمد (ص) بينهما، إلا أنه مال في العقوبة بالرسالة المحمدية نحو التخفيف، فجعلها في أدنى درجاتها صيام شهرين متتاليين لمن لم يجد الدية، بينما كانت في كتاب موسى تصل إلى النفي لإحدى ثلاث مدن بعينها، وهذا بأخذنا قياساً إلى قلع العين وكسر السن المتعمد وعقوبته المثل قصاصاً كما في الآية، أما القلع والكسر الخطأ فيدفع مرتكبه تعويضاً مادياً.

- {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ..} (الأنعام ١٤٦) - {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ} (الأنعام ١٣٨)	- {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ..} (الأنعام ١٤٥) - {..أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} (المائدة ١)	نسخ خير منها	انتقل من العيني المشخص في التحريم إلى التوسيع والتخفيف، أي من الحدي إلى الحدودي بذكر الحد الأدنى من المحرمات وإطلاق التحليل. أما ما زاد عن ذلك فهو اجتهاد إنساني مسموح، كمنع المخدرات والسموم.

– {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}.. (النساء ١٦٠) – {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ..} (آل عمران ٩٣) (وانظر سفر التثنية لمزيد من تفصيل ما حرم الأحبار على أنفسهم وعلى بني إسرائيل زاعمين أنه من عند الله)	– {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ..} (المائدة ٥) – {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ..} (المائدة ٤) – {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..} (البقرة ١٧٢) – {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ..} (المائدة ٨٧)	نسخ خير منها	الانتقال هنا واضح من التشخيص إلى التجريد العمومي المطلق في ربط التحليل بالطيبات عموماً، بعد أن أوضح سبحانه الحد الأدنى من المحرمات، وإعادة حكم التحليل إلى ما كان عليه، قبل أن يظلم الذين هادوا أنفسهم.

– {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ}.. (النساء ١٦٠) – {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ..} (آل عمران ٩٣) (وانظر سفر التثنية لمزيد من تفصيل ما حرم الأحبار على أنفسهم وعلى بني إسرائيل زاعمين أنه من عند الله)	– {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ..} (المائدة ٥) – {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ..} (المائدة ٤) – {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ..} (البقرة ١٧٢) – {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ..} (المائدة ٨٧)	نسخ خير منها	الانتقال هنا واضح من التشخيص إلى التجريد العمومي المطلق في ربط التحليل بالطيبات عموماً، بعد أن أوضح سبحانه الحد الأدنى من المحرمات، وإعادة حكم التحليل إلى ما كان عليه، قبل أن يظلم الذين هادوا أنفسهم.

– لا تضاجع ذكراً مضاجعة امرأة، إنه رجس. سفر اللاويين ١٨. – إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً. إنهما يقتلان. ودمهما عليهما.	– {وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا} (النساء ١٦)	إنساء خير منها	انتقل الحكم في اللواط من الحدي المشخص، إلى الحدودي المجرد الذي يترك مفهوم الإيذاء لمقتضيات المجتمع وظروفه، فمال بذلك نحو التخفيف، والتخفيف ليس إقلالاً من شأن الجرم أو تسويفاً له كما قد يتوهم البعض، لكنه استبدال للعقوبة بحد أخف، يؤدي في الوقت نفسه الغاية من الردع، مع رقي الإنسان الحضاري، وزيادة وعيه، وقد فتح عقوبة الإيذاء بشكل واسع بحيث تحوي كل عقوبة ممكنة عدا القصاص والإعدام، وأسقط الشكل نهائياً وتركه للمجتمع لتحديده. وبما أنه ترك التصرف فيه لكل مجتمع كل حسب عاداته وتقاليده وأعرافه في العقوبة ولم يحدد فيه عدد الشهداء، فذلك يدل على أنه لو اتفق أي مجتمع على الاكتفاء بشاهد لإسقاط العقوبة التي يحددها المجتمع أيضا.

الإرث / لا توجد أحكام عند موسى	– {يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}(النساء ١١و١٢) – {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ		الإرث من الأحكام التي لم تأت إلى رسول قبل محمد (ص) وهي لذلك آية حدودية مباشرة.

السحاق / لا توجد أحكام عند موسى	وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} (النساء ١٥)		أضاف فاحشة جديدة لا توجد عند موسى و هي السحاق و بذلك أغلق (ختم) الفواحش كلها، وهذه الفاحشة هي التي تكون بين الإناث، وفي هذه الحالة من الفاحشة لم يترك الله عز وجل للمجتمع حرية التصرف فيها بل أملى فيها بصريح العبارة أن عقوبتها هي الإمساك في البيت حتى تتوب عن فعلتها وترجع إلى السلوك الفطري الطبيعي السليم، فالإمساك في البيت حتى يتوفاهن الموت هو الحد الأعلى من العقوبة وهي عقوبة تعزيرية تأديبية، حيث ينتظر منها التوبة والرجوع للسلوك الطبيعي، كما اشترط لتوقيع عقوبة الإمساك في البيت أن تكون الفاحشة ارتكبت علناً وحدد عدد الشهداء لإثبات العقوبة بأربعة تحديداً لا أقل، وإلا فلا يثبت وقوع الفاحشة ولاتطبق العقوبة، على عكس الفاحشة بين الذكور التي ترك حكم التصرف فيها كلية للمجتمع، سواء في العقوبة وشكلها أو طريقة إثبات الفاحشة. وكنتيجة نلاحظ أن كل فاحشة أحد أطرافها أنثى لا يثبت وقوعها إلا في الحالة العلنية أي في حالة وجود أربعة شهداء، وذلك حماية للمرأة من الظلم والتعدي الذي قد يصيبها لو أن الأمر ترك

المحارم عند موسى قليلة جداً حيث لم تكن الأخت مثلا من ضمن المحارم كما لم يكن زواج الأبناء من زوجات آبائهم المتوفين من المحارم أيضاً (انظر سفر الملوك الأول ٢ـ١٣ في كتاب العهد القديم)	ـ {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء ٢٢ـ٢٤)	نسخ خير منها	أضاف محارم جديدة في النكاح، وذلك لتوسيع دائرة الأسرة، وفي هذا تطور حضاري نحو الأمام، فزيادة عدد المحارم تؤدي إلى ترقي الإنسانية إلى الأمام، وقد زاد النبي (ص) عددها من عنده، لأنها آية حدودية تمثل الحد الأدنى من محارم النكاح.

ملاحظات تتعلق بالجداول

١– إن بحث الناسخ والمنسوخ يبين لنا مدى صحة ما ذهبنا إليه في الباب الأول من أن القرآن مصدقاً لما بين يديه، وأن الذي بين يديه هو أم الكتاب "الرسالة" وليس التوراة والإنجيل. وبما أن جزءاً من رسالة محمد بن عبد الله جاء من رسالة موسى "مثله" فقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آَمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} (النساء ٤٧). هذا ما يؤكد أن التصديق دائما للأحكام، ونرى أيضاً أن كتاب موسى ذكر في التنزيل الحكيم أكثر مما ذكرت التوراة "نبوة موسى" وبما أن القصص جزء من التوراة فيه اختلاف لذا قال تعالى {إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (النمل ٧٦). والغريب أن القرآن أكد أن هناك خلافات في قصص التوراة ومع ذلك اعتمدها المفسرون في تفسير القصص القرآني الخاص بالأنبياء والرسل السابقين على البعثة المحمدية، أما في القصص المحمدي الذي لم يتمكنوا من استيعاب حقيقته التاريخية في كونه قصصاً أي جزءاً من القرآن ولاعلاقة له بأم الكتاب لأنه ليس من الرسالة، فالتبس عليهم الأمر عندما جعلوه من الرسالة واستنبطوا منه الأحكام فأوقعهم ذلك في التناقض بين ما جاء في مختلف آيات الرسالة والقصص المحمدي، الأمر الذي اضطرهم إلى ابتداع الناسخ والمنسوخ خاصة في موضوع الآيات المتعلقة بالجهاد والقتال التي حصل فيها لبس كبير بأن تم نسخ آيات الجهاد وحصره في القتال فقط، فضاعت الرسالة المحمدية بإقحام الناسخ والمنسوخ فيها وعابها النقص رغم أنه من المفروض أن تتصف بالكمال والشمولية وعدم التناقض لأنها خاتمة الرسالات وأشملها على الإطلاق. أما التوراة كنبوة فجاءت هدى للناس من قبل القرآن وجاء القرآن هدى للناس ونسخها كلية. أما شريعة محمد (ص) فقد نسخت كلية شريعة موسى، لأنها حوت كل التعديلات والإضافات النهائية لكي تكون صالحة لكل زمان ومكان والرسالة الخاتم، فلاغرابة أنها سارية المفعول الآن في كل العالم المتحضر بدون أن يعلموا ذلك، وقد حوى النسخ كل الحالات الممكنة على سلم التطور التاريخي إلغاء ومماثلة وتعديلاً وإضافة.

٢– إن الآية المنساة هي حكم عند موسى نسخ بحكم خير منه في أم الكتاب استعمل في زمن النبي (ص)، وكل حكم استعمله النبي (ص) في حياته وهو في كتاب موسى وجاء خير منه في رسالته (أم الكتاب) فهو من الأحكام المنساة والإنساء تاريخي بحت. أي يدخل في مفهومنا المعاصر تحت عنوان "الأحكام الانتقالية للعلاقات الحضارية" ولهذا جاء التشريع مشخصاً غلب المضمون فيه الشكل.

والإنسان في مجتمع مثل هذا، يفهم أن القتل هو القتل، ولايفرق بين العمد والخطأ، ولهذا جاءت شريعة موسى لا تفرق بينهما. ولما كانت الشريعة المحمدية هي الخاتم لكل الأزمنة والناس، فقد أبقت على هذه الآية للمجتمعات التي لم تقطع شوطاً في سلم الحضارة، وجاءت بخير منها للمجتمعات المتحضرة "حكم للقتل العمد وحكم للقتل الخطأ"، أي أنها أخذت بعين الاعتبار أن التطور الحضاري للمجتمعات الإنسانية لا يسير بنفس الخطوة وبنفس المعدل عند جميع أهل الأرض، فالمجتمعات البدائية تأخذ بشريعة موسى "المضمون غالب على الشكل".

كما يمكن في المجتمع الواحد تطبيق شريعة موسى، عندما يكون بدائياً، ثم ينتقل مع التطور ومع الزمن إلى ما هو خير منها، ويتحول الحكم من حدي إلى حدودي، ويتوسع الاجتهاد الإنساني. وهنا نرى مفهوم الخاتمية واضحاً في رسالة محمد (ص) ومفهوم الصلاحية لكل زمان ومكان، وللعالمين كافة، إذ كلما تقدمت المجتمعات على سلم الحضارة كلما أخذت الصلاحية في الاجتهاد والتشريع لنفسها ضمن حدود الله، وكلما توسعت في الحنيفية. ونلاحظ الآن أن كل شعوب الأرض وخاصة المتحضرة تقلد، دون أن تقرأ التنزيل الحكيم، في تطور قوانينها وتشريعاتها الخط ذاته الذي جاء في التنزيل الحكيم، النسخ كنسخة طبق الأصل لبعض المواد والنسخ بمعنى الإبدال لمواد أخرى وإلغاء مواد قديمة وإضافة مواد جديدة، ومرة أخرى تظهر صلاحية التنزيل الحكيم في بنيته لكل أهل الأرض "الفطرة".

٣ – آية القصاص: {يَا أَيُّها الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة ١٧٨)، آية عينية لها ظروفها الموضوعية عند التطبيق في حالة القتال العشائري – القبلي ضمن المجتمع الواحد، لإنهاء قوانين الثأر العمياء، وهي في المجتمع المتحضر غير قابلة للتطبيق لانتفاء هذه الظروف الموضوعية، فمن مؤشرات الحضارة في المجتمع اختفاء التعصب السلبي الممقوت للأسرة والعشيرة والقبيلة[10]، وتطبيقها كان ظرفياً مرتبطاً بشروط زمانية ومكانية معينة اجتمعت فيهما ظروف موضوعية توجب تطبيق هذه الآية، كالرق مثلاً، لذا لا يمكن إسقاطها على كل المجتمعات التي جاءت بعدها، لأن هذه الآية بحكم كونها ظرفية مرتبطة بحقبة زمنية معينة فإن المضمون فيها يغلب الشكل، لهذا لا يمكن تطبيقها على المجتمعات المتحضرة التي يكون فيها الشكل والمضمون متلازمان في العقوبات. فأنت لا تفرق في المجتمعات المتحضرة بين العقوبة (المضمون) وبين الشروط الواجب تحقيقها لتوقيع العقوبة (الشكل)، التي تتضمن مثلا بالنسبة للقتل، التحقيق والتحليل المخبري والبصمات والشهود وتحديد

العمد أو الخطأ أو الدفاع عن النفس، فبدون هذا الشكل لا تقوم عقوبة، وهذه من سمات المجتمع المتحضر. فإذا سأل سائل: وهل في المجتمعات المتحضرة حولنا الآن محل لتطبيق هذه الآية؟ أقول: نعم. في حالات خاصة جداً، أبرزها الجريمة المنظمة (المافيا) التي تعاني منها معظم المجتمعات المتحضرة إن لم يكن كلها.

10 – قولنا إن آية البقرة ١٧٨ خاصة بالقتال العشائري القبلي ضمن المجتمع الواحد، وضعها سبحانه لإنهاء مسألة الثأر العشائري التي كانت شائعة بين القبائل العربية، يعني أن الحكم في الآية لاعلاقة لها مطلقاً بجرائم القتل الفردية عمداً أو على غير عمد، فالأحكام الإلهية الخاصة بهذه الجرائم وردت في آيات أخرى كالمائدة ٤٥ والنساء ٩٢ و٩٣. ودليلنا على ماذهبنا إليه يأتي من عبارة "القصاص في القتلى" ومن عبارة "ذلك تخفيف من ربكم ورحمة".

فالقصاص ليس عقوبة كما وهم المفسرون والفقهاء، وكما وهم من وضع لوحة على جدار محاكم الجنايات تقول: ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب. بل هو عملية تقاص وتعويض – بالمعنى المصرفي بين البنوك لتسوية المديونيات – قد تخرج عن قتل القاتل إلى الحكم عليه بدفع دية عينية لأهل القتيل على سبيل التعويض، بدلالة عبارة "فاتباع بالمعروف وأداء بإحسان".

وفي النزاعات الفردية قد يقع قتلٌ القاتل فيه معروف والمقتول معروف، والحكم هو أن يقتل القاتل كما في عبارة { النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} في المائدة ٤٥، حيث نلاحظ أل التعريف في النفس الأولى القاتلة وأل التعريف في النفس الثانية المقتولة. ونفهم أن المائدة ٤٥ تتحدث عن قتيل واحد في نزاع فردي حكم قاتله هو القتل. أما في البقرة ١٧٨ فالحديث فيها عن "القصاص في القتلى". أما القصاص فلأن القاتل غير معروف وأما القتلى – بالجمع – فلأن النزاع لم يكن فردياً بل كان بين مجموعات، سقط فيه من سقط من كلا الطرفين المتنازعين. ولقد فات ذلك على علمائنا الأفاضل حين توهموا أن الموضوع واحد في آيتي البقرة ١٧٨ والمائدة ٤٥ الأمر الذي قادهم إلى القول بالنسخ.

ننتقل الآن إلى عبارة "ذلك تخفيف من ربكم ورحمة" ونفهم أن ثمة أمماً أخرى غير الأمة المحمدية كانت لديها أحكام ثقيلة وقاسية، لاقصاص فيها ولا تعويض، جعلها تعاني الأمرين في حروب تكاد لاتنتهي كحرب داحس والغبراء وحروب بني النضير مع قريظة، فشاء تعالى أن يخفف عن الأمة المحمدية رحمة منه، وجاءت آية البقرة ١٧٨ عنواناً لهذا التخفيف وتلك الرحمة.

فهناك مجرمون يعرفون أن من سمات المجتمع المتحضر في العقوبات تلازم الشكل والمضمون، فينفذون جرائمهم، ويخططون كيلا تستطيع السلطات استكمال الشكل، فيفلتون من العقاب، وهناك مجرمون تعرف السلطات تماماً بأنهم قتلة (مافيا) ولكن الشكل غير مكتمل لإنزال العقوبة بهم. لهذا كله، فإن آية القصاص في القتلى التي أخذت بالمضمون وأهملت الشكل، وقال عنها تعالى {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ..} (البقرة ١٧٩)، هي البلسم الشافي للقضاء على المافيات والجريمة المنظمة قضاء مبرماً، أقول الجريمة المنظمة ولاأقول الجريمة العادية، لأن للجرائم العادية حكمها المختلف في تلازم الشكل والمضمون.

٤ – تبدأ سورة المائدة ٤٥ بقوله تعالى {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ..} وتنتهي بقوله تعالى {.. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} والظلم، وضع الشيء في غير مكانه عنوة، فإن كان ظلماً مع سبق الإصرار والترصد فهو الظلم المقصود، أما إن كان عن جهل وخطأ، فهو الظلم غير المقصود. فلماذا وصف تعالى عدم الحكم بما أنزل الله بأنه ظلم؟ لقد ذكر الظلم هنا، لأن مبدأ العين بالعين والسن بالسن عقوبة عينية مشخصة تغلب فيها المضمون على الشكل، وتطبيقها على المجتمعات المتحضرة وضع للشيء في غير مكانه، وهذا هو الظلم. كذلك

تطبيق مبدأ تحرير الرقبة أو صيام الشهرين في القتل الخطأ على المجتمعات البدائية الرعوية التي لا تعرف سوى المشخص، وضع للشيء في غير مكانه، وهذا هو الظلم.

فالظلم هو وضع آيات الأحكام والعقوبات في غير مكانها، لأن الحياة وحدها والتطور التاريخي الحضاري في المجتمع، هو الذي يقرر الآية التي ستطبق عنده، وهو الذي يحدد حالات القصاص أو العقوبات الحدودية أو الحدية التي سيعتمدها، والذي يحدد هذه الأمور في المجتمع هم الأحياء المشرعون، ولايحتاجون معه إلى قول صحابي مات منذ أربعة عشر قرناً. فتطور الحياة ومقتضياتها هي المعلم، وآيات الأحكام جاءت لتلائم التطور في الزمان، واختلاف التطور باختلاف المكان، وهنا أيضاً تكمن خاتمية الرسالة المحمدية.

أما أن نجتث قوله تعالى {.. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} من سياقه، ونرفعه شعاراً نضع خلفه أحاديث الآحاد، والأم، وشرح الباري، والفتاوى، و"هكذا أجمع العلماء" و"هكذا اتفق الجمهور" نكون قد ظلمنا أنفسنا وظلمنا الناس معنا، ووصلنا وأوصلناهم إلى طريق مسدود، ونكون قد مارسنا الاستبداد بتقديم اجتهادات إنسانية تحت اسم الشريعة الإسلامية، اجتهادات جاءت لمرحلة معينة من التاريخ، ولا يمكن تطبيقها على مراحل أخرى إلا بالإكراه.

علينا أن نعي ذلك، ولانهدر أموال الناس وأنفسهم تحت شعارات ظاهرها الرحمة "ماأنزل الله" وباطنها العذاب "فرض علوم السلف على الأحياء المعاصرين، وإيقاف حركة التاريخ والتطور".

أما قوله تعالى {.. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} فقد جاء تذييلاً لآية المائدة ٤٤ {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}. وواضح من الآية أنها خطاب للنبيين والربانيين والأحبار من اليهود، الذين أضافوا اجتهاداتهم إلى شريعة موسى، وأعطوها منزلة ما أنزل الله في كتابه، وانطبق عليهم قوله تعالى {وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} ولهذا نعتهم بالكفر، لأن الذي يضيف أحكاما إنسانية، ويعطيها نفس قيمة ما أنزل الله في كتابه، أو يدعي أنها عين ما أنزل الله في كتابه، يرتكب الكفر بعينه، ولذا قال {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}.

وأما قوله تعالى {.. وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} فقد جاء تذييلاً لآية المائدة ٤٧ {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} وواضح أن الآية تحكي عن أهل الإنجيل حصراً. فلماذا هذا الحصر بأهل الإنجيل ونحن نعلم أن الكتاب المقدس

عند المسيحيين هو العهد القديم والعهد الجديد، الذي يحتوي على "الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل" ولماذا خص الإنجيل بالذات من هذه المركبات الأربعة؟

السبب هو أن الذي وضع الأطر للديانة المسيحية هو بولس وليس عيسى بن مريم. فإذا تصفحنا الإنجيل، نجد في نهايته رسائل بولس. وعندما أرسى بولس أسس الديانة المسيحية، التي كانت سائدة عند نزول الوحي على محمد (ص) ٦١٠–٦٣٢م، نجد أنه ألغى تماماً شريعة موسى، أي ألغى المركب الأول من المركبات الأربعة، وجعل الديانة المسيحية مستقلة تماماً عن الديانة اليهودية، وأقامها ديانة دون تشريع، أي عبادات وأخلاق فقط، وأصبح المسيحيون يقرؤون العهد القديم للتلاوة فقط، وأبطلوا التقيد نهائياً بشريعة موسى، رغم أن الإنجيل، الذي هو نبوة عيسى، أمرهم باتباع شريعة موسى وكتابه مع بعض التعديلات، لأن الإنجيل لا يوجد فيه تشريع، ففعلوا عكس ما فعله اليهود، وتركوا الشرائع وخرجوا عن طاعة الله في أحكامه. ولهذا قال عنهم {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} لذا فإن استعمال ذيول هذه الآيات ونهاياتها إطلاقاً على المسلمين، مقطوعة من سياقها، ظلم فادح. ووضع هذه المقتطفات (ظالمون – كافرون – فاسقون) شعاراً سياسياً تحت اسم حاكمية الله، خطأ يؤدي بصاحبه وبالناس إلى طريق مسدود.

٥ – يتضح مفهوم الإنساء جلياً أمامنا مع الآية ٢ من سورة النور، بما فيها من حكم على الزانية والزاني. فالأحكام المنسأة أحكام طبقتها شرائع سابقة لشريعة محمد (ص)، ومع التطور التاريخي، ومع الصعود في سلم الحضارة، ستلغى هذه العقوبات والأحكام وتستبدل بأخف منها.

كان حكم الزنا في شريعة موسى الإعدام، وهنا نفهم سبب عدم ورودها في التنزيل الحكيم مع أنها العقوبة الأشد، ونفهم لماذا طبقها النبي (ص). فحكم الرجم جاء لمجتمع ذكوري رعوي عشائري قبلي، والمجتمع العربي في حياته (ص) لا يختلف كثيراً عن هذه الصفات. ولهذا طبق شريعة موسى في رجم الزاني المحصن، مع علمه أنها لم ترد في التنزيل، لأنه سيأتي يوم على سلم الحضارة ينسى فيه الناس أن هناك عقوبة إعدام بالرجم، وتبقى عقوبة الجلد الأخف، التي يتغلب فيها الشكل على المضمون.

هذا كله يوضح لنا أن معنى الإنساء تاريخي بحت، وأن الله سبحانه لم يعط الحق لأحد من خلقه بأن يضع تشريعات أبدية إلى أن تقوم الساعة، ويوضح لنا أن الأحكام التي طبقها (ص) ولم ترد في التنزيل، صحيحة مئة بالمئة، وصحتها تاريخية مرحلية انتقالية، عدا الأخلاق والشعائر فهي ليست أحكاماً. وهنا نضع أيدينا على المفهوم الحقيقي للسنة النبوية وسبب منع كتابتها، لأن الناسخ والمنسوخ أعطانا برهاناً على أن الله لم يعط الحق لأحد بالتشريع إلى أن تقوم الساعة، بل أعطى الحق في

تشريعات ظرفية مرحلية. وهنا تكمن أيضاً الأسوة الحسنة بالرسول في تعليمنا الاجتهاد كتشريع مرحلي ظرفي تاريخي.

٦ – لقد أثر الاستبداد السياسي على تدعيم مفهوم أن الناسخ والمنسوخ يقع في التنزيل الحكيم، متكئاً على أن معنى كلمة (آية) هو الجملة القرآنية بين فاصلتين، وذلك للأسباب التالية:

أ – لقد حث التنزيل الحكيم على مكافحة الظلم أيا كان مصدره، وكان لابد للطغيان "الاستبداد" لكي يضع حداً للمعارضة الداخلية الشديدة والحروب الأهلية، من إيجاد مخرج من التنزيل نفسه أو من السنة القولية. ترسخ الاستبداد بشكله النهائي، ابتداء من عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله "لاأخلع ثوباً ألبسنيه الله.." مروراً بعبد الملك بن مروان في قوله "لاأسمع رجلاً يقول بعد اليوم اتق الله إلا ضربت عنقه" وانتهاء بأبي جعفر المنصور ومن بعده في قوله "إنما نحكم فيكم بسلطان الله"، حيث اخترع الفقهاء لترسيخ الاستبداد وفض التناقضات الداخلية عقاباً رادعاً ومانعاً لأي تمرد مجتمعاتي هو القتل تحت اسم الحرابة، أخذوه ظلماً من قوله تعالى {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (المائدة ٣٣) إذ لما كانت السلطة المستبدة قد أخذت شرعيتها من الحق الإلهي في الحكم، ومن قضاء الله وقدره، ومن خلافة الله في الأرض، فكل محاربة للاستبداد هي محاربة لله ورسوله، وجزاؤها كما هو وارد بالآية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تم صرف المعارضة، أو على الأصح من بقي منها، عن المجال الداخلي إلى المجال الخارجي، بنسخ ١٢٠ آية من آيات الجهاد بآية السيف[11]، وكان أن لبس الجهاد لبوس القتال والغزو الخارجي، وكان أن قام الفقهاء بتقسيم الكون إلى دار إسلام ودار كفر، وأن الجهاد حصراً هو الذي يتم بينهما، وأن دار الإسلام هي التي تقام فيها شعائر العبادات علناً من أذان وصلاة وصوم وكأن الإسلام هو هذه العبادات، وتغاضوا عن ظلم الحاكم وفسقه، واعتبروها مقبولة من الحاكم، وإتيانه لها لا يوجب العزل[12].

11 – انظر **كيف نتعامل مع القرآن** للشيخ محمد الغزالي، دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٩٢ ص ٨٢.

12 – انظر **الأم** للإمام الشافعي.

وعزوا ذلك إلى الإجماع وإلى الجمهور وإلى أحاديث الآحاد، وعلى رأسها حديث حذيفة بن اليمان عن الرسول (ص)، بوجوب السمع والطاعة للأمير، وإن ضرب الظهر وأخذ المال[13]. وحديث نافع، عن عبد الله بن عمر حين جاء عبد الله بن المطيع بعدما كان من أمر الحرة[14] يلومه على خلع يزيد والخروج عليه[15].

13 – انظر **صحيح مسلم** تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ج٣، ص١٤٧٧، الحديث ٥٢ من **كتاب الإمارة**.

14 – اسم الغزوة التي قام بها يزيد بن معاوية على المدينة المنور لإرغام أهلها على بيعته، ثم استباحتها ثلاثة أيام، وافتضاض ألف عذراء فيها. وانظر **تاريخ الرسل والملوك للطبري**.

15 – انظر صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٧٨، الحديث ٥٨ من **كتاب الإمارة**.

وهذه الأوضاع هي نتيجة للبس الذي كان حاصلاً في فهم التنزيل الحكيم، وعدم القدرة المعرفية على التمييز بين الرسالة المحمدية وبين القصص المحمدي، وهذا ما أدى إلى اللجوء وتقبل الحلول التي كان يفرضها الفقهاء على مجتمعاتهم من شرعنة للاستبداد على المستوى الداخلي وشرعنة للقتل باسم الجهاد على المستوى الخارجي، حيث تم نسخ ١٢٠ آية من آيات الجهاد وحملها على آية السيف، لأن القصص المحمدي يمكن أن نقول عنه أنه في الغالب يتضمن آية السيف، وهذا لا يعيب رسالة الرسول (ص) في شيء لأن القتال كان السمة الغالبة للنمط السياسي لتلك الحقبة التاريخية، وماكان للرسول أن يشذ عن ذلك فقد كان القتال واقعاً حاضراً في حياة كل المجتمعات، ولكن التفريق بين القصص المحمدي والرسالة هو المفتاح الذي يجعلنا نزيل التناقض الحاصل بين آيات الجهاد بمفهومه العام في حياة الإنسان والقتال كتصرف عسكري نتيجة موقف سياسي ما. وهذا ما يدعونا إلى تأكيد الأهمية على وجوب التفريق بين الاثنين أي بين القصص المحمدي بحكم كونه واقعاً تاريخياً يخضع لظروف وشروط موضوعية معينة لا يمكن إسقاطه بحرفيته على كل المجتمعات، وبين الرسالة التي تتصف بالشمول والاستيعاب والقابلية للتطبيق في كل المجتمعات، لأن التفريق بينهما سيزيل التناقض الحاصل في قراءة التنزيل الحكيم وسيظهر تكامله وانتفاء النقص فيه.

ب – لقد تم الضرب بالشورى عرض الحائط، فقوله تعالى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} وقوله تعالى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} لا يعني الحاكم المستبد لا من قريب ولامن بعيد، إذ هو، كما يرى الفقهاء، غير ملزم بالشورى، حتى لو استشار فرأي الأكثرية غير ملزم له، إن شاء أخذ وإن شاء ترك!!

ج – كما تم خنق الفكر والمعارضة الفكرية تحت اسم الزندقة تارة، والردة تارة أخرى، والخروج أو الاعتزال تارات متفرقة، وليس الإمام ابن حنبل، وعبد الله بن المقفع، وابن تيمية، إلا أمثلة حية في تاريخنا، هي غيض من فيض عن خنق الفكر والقلم والمعارضة.

من هنا نرى أن حرية التعبير عن الرأي، والاحتجاج بالوسائل السلمية المتاحة، لا تعتبر فساداً في الأرض. ونرى في البنود التالية أمثلة لما يدخل تحت هذا الباب:

١– ترويج المخدرات والمتاجرة بها.

٢– تصريف وبيع الأطعمة الفاسدة التي لا تصلح غذاء للإنسان.

٣– ترويج الدعارة وتجارة الرقيق الأبيض، وإشاعة الفاحشة.

٤– تسميم المياه والنباتات والمواشي.

٥– بيع أسرار الدولة للعدو.

٦– تخريب الطرق والجسور والمنشآت العامة.

٧– تخريب الاقتصاد الوطني بإشاعة الكسب غير المشروع ونشر الرشوة.

هذه الأمور يمكن مناقشتها في مجتمع ديموقراطي متعدد الأحزاب، ووضع تشريعات لها تخضع للتصويت والتعديل، مع التأكيد على أن حقوق الإنسان والمطالبة بها لا تدخل تحت باب الفساد في الأرض، ولا تخضع أصلاً للتصويت.

٧ – لابد، ختاماً، من التأكيد على حقيقة أن العلم والحرية توأمان لا ينفصلان. فكما أن تاريخ العلوم هو تاريخ أخطائها لا تاريخ صوابها، كذلك فإن التاريخ الإنساني هو تاريخ أخطاء المجتمعات الإنسانية، فالعبرة تأتي من الخطأ لا من الصواب. ولهذا السبب في رأينا، أخذ القصص القرآني هذا الحيز الكبير في التنزيل الحكيم، لكي يستنتج الأحياء العبرة من أخبار من طوى التاريخ أخطاءهم، فالتاريخ هو المعلم الأول في العلوم الإنسانية. والذي لا يقرأ التاريخ، عليه أن يعيشه مرة أخرى ليكتشفه من جديد، وحتى لا تحصل هذه الحالة، نبهنا سبحانه بقوله {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ..} (يوسف ١١١).

فالعبرة تكون في تحليل الأحداث وليس في مجرد سردها، وأي شخص يستطيع أن يسرد أحداث التاريخ، ولكن ليس كل شخص يستطيع تحليلها، ولهذا خص سبحانه أولي الألباب بالعبرة من القصص ولم يقل "عبرة للناس".

قد يسأل سائل: أليس في تاريخنا صفحات ناصعة، وآراء صائبة؟؟

أقول: بلى، يوجد!! لكن الصفحات الناصعة والصواب لا تدخل في موضوع العبرة، وضمن ما يفيدنا في حاضرنا ومستقبلنا كيلا تعاد الأخطاء وتتكرر. إن من يدرس التاريخ، عليه أن يبتعد عن الأمور التالية:

١ – ألا يعتبر نفسه قاضياً في محكمة، يصدر الأحكام على أناس التاريخ وشخصياته، فنحن لسنا قضاة، لنحاكم زيداً فندينه، أو نحاكم عمرواً فنبرئه.

٢ – ألا ينصب من نفسه مدعياً عاماً يوجه الاتهامات.

٣ – ألا يعتبر نفسه محامياً يدافع عن المتهمين.

هذه الأمور الثلاثة ليس لها إيجابيات في قراءة التاريخ ودراسته، بل كلها سلبيات، فهي تزكي الصراع المذهبي والطائفي، وتوجه الاتهامات لزيد، وتنبري للدفاع عن عمرو، وتدين شخصاً وتبرئ

شخصاً آخر. أما الصواب عندي، فهو أن نقرأ التاريخ واضعين أمامنا قوله تعالى {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (البقرة ١٣٤ و ١٤١).

لقد نبهنا الله عز وجل من خلال القصص القرآني إلى أهمية متابعة السيرورة التاريخية لمسيرة الإنسانية، موضحاً لنا ذلك بذكر قصص الأنبياء والرسل السابقين على البعثة المحمدية وتفاعلات الأنبياء مع أقوامهم، لكي نستشف بعد ذلك كيفية تفاعل الرسول محمد (ص) نفسه مع هذا القصص الذي نرى أنه تفاعل معه كقصص من الماضي ولم يتعامل معه كتشريع، لقد كان ذلك درساً إلهياً لنا نتعلم من خلاله كيفية التعامل مع القصص وذلك بعدم الوقوف عنده، وهذا ما يجب أن نفهمه ونحن نتعامل بدورنا مع القصص المحمدي، فالله عز وجل يعلمنا من خلاله أن ننظر إلى الماضي نظرة تاريخية تجاوزه باستخلاص العبر منه، والعبرة من الاعتبار والعبور أي بعبور القصص الذي هو رمز للتاريخ في التنزيل إلى ما وراءه بعدم الوقوف عند أي حقبة من حقبه، وبذلك بأخذ العبر من الأحداث التاريخية وتجاوز أبعاده الزمانية والمكانية إلى الأبعاد الحاضرة والتطلع إلى المستقبلية، فيتضح لنا من ذلك أن مطلب الاعتبار من القصص الذي نص عليه التنزيل الحكيم ليس مطلباً تشريعياً يقتصر على أخذ الحلال والحرام والأمر والنهي من القصص، بل هو مطلب ابستمولوجي معرفي محض يحثنا الله من خلاله إلى التطلع المتواصل إلى الأمام في مسيرة الإنسانية، وعدم الوقوف عند محطة من محطاتها إلا للتزود بما فيها من عبر، مع مواصلة السير للأمام لتحقيق الخلافة التي كلف الله الإنسان بها في عمارة الأرض بالتطور العلمي والمعرفي. وبالنظر إلى مسيرة الإنسانية علينا نحن العرب المسلمين خاصة أن نؤكد ونتأكد خاصة أننا نعيش حالياً في عصر ما بعد الرسالات، وهو عصر يتميز بانقطاع العلاقة المباشرة بين السماء والأرض، لأننا وصلنا إلى وضع معرفي وأخلاقي أحسن وأفضل من أوضاع عهود الرسالات، حين كانوا بحاجة إلى تدخل إلهي مباشر أما نحن فلم نعد بحاجة لهذا التدخل الإلهي المباشر لأننا في عصر العلم والمعرفة، وهذا القرار ليس قراراً إنسانياً بل هو قرار رباني يضعنا أمام تحديات معرفية وعلمية واقتصادية واجتماعية وسياسية كبيرة علينا مواجهتها لإثبات خلافته على الأرض.

إننا نتمنى على كل الحركات السياسية والفكرية في الوطن العربي، أن تتقدم إلى إنساننا العربي، بمفصل يحوي جميع النقاط والأمور التي وصلت فيها من واقع خبراتها وممارساتها إلى طريق مسدود. لقد سمعنا الكثير الكثير عن أمجاد وانتصارات، ولم نسمع أبداً عن خيبات وعثرات، لأن هذه هي التي سيخلدها التاريخ، وهذه هي التي ستزود الأجيال القادمة بمناعة تدفع بها إلى القرارات

والسياسات الصحيحة، فتتعلم دروساً من الأخطاء والفشل، لا تستطيع أن تتعلمها من النجاحات والأمجاد.

ثمة قاعدة في البحث العلمي تقول، عندما يقوم باحث في أحد فروع العلم ببحث، يتضح بعد عدة سنوات خطؤه، ويصل به إلى طريق مسدود، يتم تقديم هذا البحث إلى المؤسسات العلمية، وينال الباحث عليه درجة علمية، رغم أنه خطأ، معتبرين أن إيجابيته تكمن في أنه دل الآخرين على أن المنهج الذي سلكه في بحثه أوصله إلى طريق مسدود، على الآخرين اجتنابه في أبحاثهم المقبلة. فهل من يدلنا على المناهج التي توصل صاحبها إلى طرق مسدودة، كي تتجنبها الأجيال القادمة؟

يتبين لنا، في الختام، أن علم الناسخ والمنسوخ، كجزء من علوم القرآن جاءنا من أدبيات التراث، هو وهم من أوله إلى آخره. ونحن نعجب من أن السلف لم يهتم به بشكل جدي ومسؤول كما اهتم بتحقيق أحاديث الآحاد؟!!

الفرع الثاني: الحدود في التشريع

تمهيد

الإسلام دين الفطرة ودين الحنيفية المتغيرة حسب الزمان والمكان وحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، المتطابق تماماً مع فطرة الناس التي تحمل تشابهاً كبيراً مع قوانين الطبيعة. لذا ربط عبارة {.. فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..} (الروم ٣٠) بعبارة: لا تبديل لخلق الله، ثم علق في نهاية الآية بأن هذا الدين هو {الدِّينُ الْقَيِّمُ} أي صاحب السيطرة والقوة وبالتالي فله القيومية. وأكد أن معظم الناس لا تعرف حقيقة أن الإسلام دين منسجم مع طبائعها ومع قوانين الطبيعة معاً وهنا تكمن أزمة الفقه الإسلامي.

لنضرب الآن أمثلة من الطبيعة وكيف ربط طبائع الناس بها:

١– إن أعلى نقطة على سطح الأرض هي قمة إيفرست في جبال هيمالايا، وأخفض نقطة على سطح الأرض هي ساحل البحر الميت في وادي الأردن. فإذا نظرنا إلى المكان الذي يعيش فيه الناس نرى أنه محصور بين هاتين النقطتين. وبين هاتين النقطتين يقع سطح الكرة الأرضية ببرها وبحرها، ونرى عدداً قليلاً من الناس يعيش على ساحل البحر الميت، ونرى بعض المغامرين من الناس يصلون إلى قمة إيفرست.

٢– إن أطول نهار في السنة في مدينة دمشق هو ١٤ ساعة و٢٦ دقيقة، وأقصر نهار في السنة هو ٩ ساعات و٥٠ دقيقة. فإذا سأل سائل: ماهو طول النهار في بقية أيام السنة؟ فالجواب هو: بينهما.

٣– إن العين لا تبصر إلا الألوان المحصورة بين الطيف الضوئي مع مركباته فهي لا تبصر تحت الحمراء ولا فوق البنفسجية.

٤– إن الأذن لا تسمع إلا الذبذبات الصوتية المحصورة بين ٢٠–٢٠٠٠٠ هرتز. وكذلك حركة اليدين والأرجل ونبضات القلب والشهيق والزفير ودرجات الحرارة لجسم الإنسان.

٥– إن النسبة الطبيعية للسكر في الدم تتراوح بين ٧٠ملغ/ل كحد أدنى و١٢٠ملغ/ل كحد أعلى. فإذا وصل السكر في الدم إلى نسبة ٧٠ فهو طبيعي، لكنه على الحد الأدنى تماماً ويحتاج إلى مراقبة. وإذا وصل السكر في الدم إلى نسبة ١٢٠ فهو طبيعي لكنه على الحد الأعلى تماماً ويحتاج إلى مراقبة. أما النسبة الطبيعية للسكر في الدم عند ملايين الناس فهي بين الحدين. وكذلك نسبة الكولسترول والشحوم وبقية العناصر المكونة للدم.

٦– إن درجات الحرارة في مدينة ما تنحصر دائماً بين حدين أدنى وأعلى. فمثلاً نقول إن أدنى حرارة في مدينة ما استمرت لساعة واحدة هي الصفر، وأعلى درجة حرارة استمرت لساعة واحدة هي ٤٠، أو نقول إن أدنى درجة حرارة في مدينة ما استمرت لمدة ٢٤ ساعة هي ٥ درجات مئوية فوق الصفر، وأعلى درجة استمرت لمدة ٢٤ ساعة هي ٣٨ درجة. أما بقية درجات الحرارة على مدار السنة فهي بينهما. وقد تتغير "تحنف" في اليوم الواحد أربع أو خمس مرات لكنها تبقى بين الحدين. وكذلك نسبة هطول الأمطار وسرعة الرياح ودرجات الرطوبة وارتفاع الأمواج في البحر.

٧– إن الحد الأدنى للسوائل التي على الإنسان أن يتناولها يجب أن لا يقل عن كمية معينة في النهار الواحد، أما الحد الأعلى فهو مفتوح حسب درجات الحرارة وحسب حالة الإنسان في حالة عمل أو راحة.

٨– إن الحد الأدنى المطلوب لسرعة جسم منطلق من الأرض هو حوالي ٧كم/ثا لكي ينفذ من الجاذبية الأرضية، أما الحد الأعلى فهو – من الناحية النظرية – حتى سرعة الضوء حيث يتحول الجسم إلى ضوء.

٩– إن الحد الأعلى للسرعة في الوجود المعروف حتى الآن هو سرعة الضوء فلا يوجد سرعة أعلى منها، ولكن يوجد سرعة أخفض منها. فإذا سأل سائل إذا كان الجسم ساكناً فسرعة الصفر هي الحد الأدنى. أقول: إن السرعة لاتطلق على جسم ساكن، فحين نتحدث عن سرعة جسم ما لابد أن يكون متحركاً.

١٠– إن الحد الأدنى اللازم لوجود حياة في مكان ما هو وجود الماء "الرطوبة" ووجود الأوكسجين.

١١– إن الحد الأدنى لعدد المدارات حول النواة في كل العناصر هو مدار واحد، والحد الأعلى هو سبع مدارات. فكل العناصر في الطبيعة مداراتها بين الواحد والسبعة، بعضها له مدار واحد كالهيدروجين، وأخرى لها سبعة مدارات.

١٢– إن الحد الأدنى لعدد الحواس التي يجب أن يمتلكها الإنسان لكي يستوعب العالم الخارجي هو السمع والبصر.

١٣– إن الحد الأعلى للعلاقة العضوية بين الذكر والأنثى هو الجماع الجنسي.

هذه الحقيقة أول من اكتشفها وسلم بها في التاريخ الإنساني هو إبراهيم عليه السلام، وبهذا كانت ميزته على الأنبياء والمرسلين. أي أنه اكتشف الطبيعة الحنيفية "المتغيرة" وسلم بها، وبذلك اكتشف أن كل شيء حنيف ماعدا الله، وأن تثبيت أية ظاهرة في الوجود هو شرك بالله، أي أشرك هذه الظاهرة مع الله في بقائها وثباتها. لذا فقد ربط سبحانه الحنيفية بالتوحيد حين أتبع مصطلح "حنيفاً" بعبارة {..وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ١٦١) هذا فيما يتعلق بظواهر الطبيعة الحنيفية حيث أن الإيمان بحنيفية الطبيعة وبالحدود الموجودة فيها والحركة في هذه الحدود فيه توحيد الربوبية، ومن هنا كان إبراهيم {.. أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا..} (النحل ١٢٠) وهو الذي سمانا المسلمين والحنفاء. فإذا أخذنا ظواهر الطبيعة الحنيفية وأسقطناها على سلوك الناس، رأينا أن سلوك الناس يكون ضمن حدود دنيا أو عليا أو الاثنين معاً. فإذا جاء للناس دين يتطابق مع هذه الفطرة السلوكية فهو يتناسب معهم ويعيش معهم، وهذا الدين هو الدين المبني على الحدود في التشريع لا على تشريعات عينية. وهذا هو الدين الإسلامي الذي له المنعة والقوة والقيومية ويتطابق مع طبائع أهل الأرض، وأكثريتهم لا تعلم ذلك.

ولكي يبين أن إبراهيم كان أول الحنفاء حين اكتشف الحنيفية في الوجود قبل أن يأتيه الوحي قال {.. وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} (الأنبياء ٥١) ولكي يبين أن الملتين اليهودية والنصرانية لا تحملان الطابع الحنيف، وأن الحنيفية انتقلت من إبراهيم، في نظرته إلى الكون، إلى محمد (ص) كدين عالمي شمولي قال تعالى {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (آل عمران ٦٧).

لقد ساد التشخيص في العصر الموسوي وانعدم التجريد، وساد بالتالي الجانب الحدي المشخص في التشريع وغاب الجانب الحدودي منه، مثال ذلك قوله تعالى {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا} أي على بني

إسرائيل في الألواح {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ..} (المائدة ٤٥).

ولهذا حين قال موسى لقومه – كما في آية البقرة ٦٧ – {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، لم يفهموا قوله على ما ينبغي وظنوا أنه يستهزئ بهم، ولم يستوعبوا بفكرهم التشخيصي أمراً إلهياً يأمرهم بأن يذبحوا أي بقرة كانت لا على التعيين.

ولهذا أيضاً حين قال لهم – كما في آية البقرة ٥٤ – {يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ}، طلبوا منه أن يريهم الله جهرة، إذ كان من المستحيل عليهم أن يؤمنوا بإله لا يرونه ولا يسمعونه ولا يلمسونه. وحين أمرهم – كما في البقرة ٥٨ – بترك التكبر وبالاستغفار لكي يغفر لهم الله خطاياهم لم يفهموا العلاقة بين التوبة والمغفرة إذ كلاهما من المفاهيم التجريدية التي لا تدرك بالتشخيص.

لم يكن قوم موسى – كما زعم المفسرون – مكابرين يعرفون البقرة المطلوب ذبحها ثم يطلبون من موسى أن يصفها لهم من باب المماحكة، بدليل قولهم – كما في البقرة ٧٠ – {إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ}. ولم يكونوا مكابرين يعرفون استحالة رؤية الله جهرة ثم طلبوا ذلك من بابا التعجيز، بدليل أن إبراهيم طلب من ربه قبلهم أن يريه كيف يحيي الموتى، وأن موسى نفسه قال لربه – كما في الأعراف ١٤٣ – رب أرني أنظر إليك. ومع ذلك لم يزعم أحد أنهما مكابران مماحكان.

قد يسأل سائل: فلماذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله وقال لهم ربهم كونوا قردة خاسئين؟ والجواب: هؤلاء ليسوا قوم موسى، بل هم الذين أطلق عليهم التنزيل الحكيم اسم "الذين كفروا من بني إسرائيل" حيناً، واسم "أصحاب السبت" حيناً، واسم "اليهود" حيناً. وسبب لعنهم ومسخهم وغضب الله عليهم أنهم كانوا يحرفون ويبدلون كلام الله وهم يعلمون كما في البقرة ٥٩، ٧٥. ويكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً كما في البقرة ٧٩. وكانوا يكذبون الرسل ويقتلونهم كما في البقرة ٨٧. وهذا كله حصل بعد عصر موسى وهارون بدلالة أنه سبحانه بعد أن يحكي حكاية البقرة بدءاً من الآية ٦٧ يقول {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً..} (البقرة ٧٤).

فإن عاد السائل ليسأل: فما هي العبرة إذن من رواية هذه الأخبار كلها؟ أقول: الجواب في قوله تعالى {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً..} (النساء ١٥٣). فالمقصود بالخطاب في الآية هو محمد (ص) والكتاب هو التوراة، وأهله هم أتباعه من اليهود. والآية تذكّر النبي بما طلبه قوم موسى من موسى بأن يروا الله جهرة، وهذا أكبر شأناً مما يطلبه يهود المدينة المنورة من محمد (ص) بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء.

وهذه هي العبرة الأولى. والآية تشير إلى أن يهود المدينة أسوأ كثيراً من قوم موسى، لأن قوم موسى إن كانوا معذورين – بشكل أو بآخر – في طلبهم بحكم مستوى فكرهم التشخيصي، فهؤلاء لاعذر لهم بعد أن ارتقت الإنسانية إلى مرتبة التجريد. وهذه هي العبرة الثانية.

انطلاقاً من هذا المفهوم للدين الإسلامي بحنيفيته وعالميته وخاتميته:

١– نفهم أن رسالة الإسلام رسالة عالمية وليست للعرب فقط أو للقرن السابع الميلادي {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..} (الأعراف ١٥٨) فهو دين واحد من إله واحد مالك للسموات والأرض، جاء به الأنبياء والرسل إلى كل من في الأرض على فترات متعاقبة.

٢– ونفهم لماذا كانت رسالة محمد (ص) رحمة للعالمين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء ١٠٧).

٣– ونفهم لماذا كانت رسالة محمد (ص) خاتم الرسالات، بالإضافة إلى كون القرآن خاتم النبوات، حيث تعني رسالته أن الإنسان ابتعد عن المملكة الحيوانية، وهو مدين لله في هذا البعد، وقد وجهه الله في المعرفة بالنبوات والتشريع بالرسالات حتى وصلت عند محمد (ص) إلى درجة النضوج، بحيث أصبح الإنسان قادراً على الاعتماد على نفسه في معرفة الوجود وفي التشريع، وهو يعيش في عصر ما بعد الرسالات.

انطلاقاً من هذا نتوجه بالسؤال التالي: هل الإسلام جاء ليحيا الناس به أم ليحيوا من أجله؟ فإذا جاء الإسلام ليحيا الناس من أجله فهذا يعني أنه لا يتناسب مع فطرتهم وفرض عليهم فرضاً وسيأتي يوم يعافونه ويهربون منه، وإذا جاء ليحيوا به فهو متناسب معهم في كل زمان ومكان. ويتضح ذلك من خلال نظرية الحدود التي وردت كلها في أم الكتاب بحالاتها التالية: حالة الحد الأعلى، وحالة الحد الأدنى، وحالة الحدين الأعلى والأدنى معاً، وحالة المستقيم فقط، وحالة الحد الأعلى لخط مقارب دون المساس بالحد، أي الاقتراب من الحد دون أن تمسه، وحالة الحد الأعلى موجباً، والحد الأدنى سالباً.هذه هي الخطوط المستقيمة "الثوابت" التي تعطينا مجال الحركة الحنيفية في التشريع "التغير".

أولا: الحدود في التشريع

١– حالة الحد الأدنى

ورد الحد الأدنى من حدود الله في آيات المحارم وهي:

آ – {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} (النساء ٢٢).

– {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} (النساء ٢٣).

لقد وضع الله في هاتين الآيتين الحد الأدنى في تحريم النكاح وهذا الحد الأدنى هو الأقارب المذكورين فيهما، فلا يجوز بأي حال من الأحوال تجاوز هذا الحد نقصاناً على أساس أنه اجتهاد، ولكن يمكن الاجتهاد بزيادة العدد، فإذا بين علم الطب أن الزواج من الأقارب، كبنات العم والعمة والخال والخالة المباشرين، له آثار سلبية على النسل وله آثار سلبية على توزيع الثروة، فيمكن أن نصدر تشريعاً يمنع زواجاً من هذا النوع دون أن نكون تجاوزنا حدود الله. هذا النوع من التشريع يحتاج إلى بينات مادية وإحصائيات قبل البت فيه، ولايكفي فيه القياس على نص تراثي، لأن ما فعله السلف قد يكون غير مفيد لنا، أو قابلاً للتغير حسب التطور المعرفي والاقتصادي والاجتماعي للمرحلة التاريخية التي نعيش فيها. في ضوء هذا نرى أن التشريع الإسلامي تشريع متجدد دائماً وحنيفي "متغير" ولكن ضمن حدود الله. وهكذا نفهم لماذا يكون للمجتهد المخطئ أجر وللمجتهد المصيب أجران.

ب– كذلك ورد الحد الأدنى في تحريم الأطعمة كالميتة والدم ولحم الخنزير في قوله تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (المائدة ٣). هنا نرى كيف أعطى الحد الأدنى للمحرمات في الأطعمة، وبما أن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وماأكل السبع إذا كانت على قيد الحياة وتم ذبحها فهي من المحللات، وإذا لم تذبح وتركت فستهلك لتدخل تحت بند الميتة، لذا أدمج محرمات الأطعمة في قوله تعالى {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأنعام ١٤٥). وقد أكد تفصيل ما

حرم علينا من الأطعمة بقوله تعالى {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} (الأنعام ١١٩).

هنا نلاحظ أنه لم يغلق الحد الأدنى لمحرمات الأطعمة كما أغلقه لمحرمات النكاح حيث قال {.. فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأنعام ١٤٥) أما بالنسبة لمحرمات النكاح فلا يوجد "فمن اضطر" أي هو حد مغلق تماماً.

نلاحظ أن قوله تعالى {.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..} ورد في نفس آية الحد الأدنى من محرمات الأطعمة "المائدة ٣". لذا نعتقد أن هذه الآية هي آخر آية حدودية وردت في التنزيل الحكيم، أو آخر آية من آيات أم الكتاب "الرسالة" وليست آخر آية في "المصحف".

كذلك الآيتين ٢٨٣ و ٢٨٤ من سورة البقرة هما آيتا الحد الأدنى للمداينة. أما الحد الأدنى للباس المرأة فجاء في الآية ٣١ في سورة النور وهي مشروحة بالتفصيل في كتابنا "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي"[16].

16 – **فقه المرأة/ نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**، الدكتور محمد شحرور، الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٥.

٢– حالة الحد الأعلى "نظرية العقوبات في السرقة والقتل"

أ– {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (المائدة ٣٨) والنكال في اللسان العربي من الأصل "ن ك ل" وتعني المنع ومنه جاء القيد ونكل به تنكيلاً ونكالاً: فعل به ما يمنعه من المعاودة.

في هذه الآية بيَّن سبحانه العقوبة القصوى للسارق وهي قطع اليد، أي أنه لا يجوز أبداً أن تكون عقوبة السرقة أكثر من قطع اليد، لكنها يمكن أن تكون أقل من ذلك، فما على المجتهدين إلا أن يحددوا حسب ظروفهم الموضوعية ما هي السرقة التي تستوجب العقوبة القصوى، وماهي التي لا تستوجب العقوبة القصوى، وماهي عقوبة كل منهما.

نلاحظ مرة أخرى أن الاجتهاد فتح على مصراعيه بحنيفية في الإسلام، وما على المجتهدين إلاّ أن يضعوا – كل في بلده وحسب زمانه– مواصفات السرقة، خاصة وأن الأيدي في الآية جاءت بصيغة الجمع وهذا يدل على أن المقصود من الآية هو كف أيديهما عن المجتمع بالسجن أو بأي حل آخر تراه الهيئات التشريعية مناسباً لكل بلد. قد يقول قائل: هناك حالات تبدو في ظاهرها سرقة عادية

ولكن عقوبة قطع اليد تعتبر غير كافية، كأن يسرق إنسان ما أسرار بلده ويبيعها إلى دولة أجنبية أو يسلب أموال الناس عن طريق الابتزاز أو عن طريق شركات ومشاريع وهمية، أو يسرق أموال الدولة ويساهم في تخريب الاقتصاد الوطني، أو تخريب البنية السليمة للدولة بوضع الرجل المناسب في المكان غير المناسب، أو ترويج المخدرات أو تخريب المنشآت من مبانٍ وجسور وسدود ومحطات توليد الطاقة وغير ذلك، فهل تكفي عقوبة قطع اليد بالنسبة لهذه الجرائم؟

في هذه الحالة على مجالس التشريع تحديد الحد الذي يتناسب مع هذا التصرف سلفاً وفقاً للظروف الموضوعية كقطع اليد أو الحكم بالسجن المؤبد أو الإعدام أو أي عقاب تقوم بتحديده هذه المجالس مسبقاً كقانون ظرفي قابل للتعديل.

ب- {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} (الإسراء ٣٣).

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة ١٧٨).

هنا بيَّن العقوبة القصوى للقتل بغير حق وهي الإعدام لذا قال "فلا يسرف في القتل"، أي أنه لا يجوز أن تكون العقوبة القصوى للقاتل ظلماً وعدواناً هي قتله هو وأهله، أوقتل شخص آخر من أهله عوضاً عنه وهو ما يسمى بالثأر. فهنا يجب على المجتهدين توصيف جريمة القتل التي تستحق الإعدام كعقوبة قصوى، والتي تسمى جريمة قتل مع سابق الإصرار والترصد. ولكن هناك جرائم قتل يمكن أن ترتكب ولايعاقب عليها بالإعدام مثل القتل غير المتعمد والقتل دفاعاً عن النفس. وهناك أيضاً عفو أهل القتيل لذا قال "فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان" ليبيّن كيف فتح الإسلام باب الاجتهاد في نظرية العقوبات في القتل إلى يوم الدين. أما في حالة القتل الخطأ فقد جاء الحد الأدنى لعقوبتها في قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء ٩٢). هنا وضع الحد الأدنى في عبارة "فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين".

٣- حالة الحد الأدنى والأعلى معاً

أ– {يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء ١١).

– {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} (النساء ١٢).

– {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (النساء ١٣).

– {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} (النساء ١٤).

نلاحظ في الآية ١٣ عبارة "تلك حدود الله" وعبارة "ويتعد حدوده" ونفهم أن الحركة مسموحة ضمن حدود الله، مما يعني وجود أكثر من حدين حيث جاءت الحدود بصيغة الجمع، والتعدي هنا لا يمثل الحركة في اتجاه الحد حتى نصل إليه، وإنما إذا تم تجاوزه بعد الوصول إليه حصلت حالة التعدي، ولايعني التعدي الوقوف على الحد فقط بحيث تمنع الحركة بأي اتجاه.

نلاحظ كذلك من عبارة "ويتعد حدوده" أن الهاء تعود على الله فقط، علماً بأن الله ورسوله (ص) ذكرا قبلها مباشرة في قوله تعالى {.. وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ..} هنا نستنتج استنتاجاً قاطعاً بأن صاحب الحق الوحيد في وضع حدود تشريعية دائمة إلى أن تقوم الساعة هو الله وحده فقط، ولم يعط هذا الحق للنبي (ص)، ولو أعطاه الله هذا الحق لقال "ويتعد حدودهما" أي أن كل تشريع حدي أو حدودي ورد من قبل النبي (ص) هو تشريع مرحلي وغير ساري المفعول إلى أن تقوم الساعة. وهنا تكمن عظمة السنة النبوية والأسوة الحسنة للرسول (ص) بالاجتهاد ضمن حدود الله، أو في وضع حدود مرحلية ظرفية تتعلق بالشروط التاريخية في شبه جزيرة العرب.

وقد أسهبنا في الحديث حول موضوع الإرث في كتابنا (نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي)[17]، وبيَّنا فيه كيف تنتقل أنصبة الورثة من الميراث بين الحدين الأعلى والأدنى بالتفصيل، ونكتفي هنا بذكر مثال أو مثالين على اجتماع حالتي الحد الأدنى والحد الأعلى معاً. أما المثال الأول فهو حالة إرث الزوجين في قوله تعالى {وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ

فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ..} (النساء ١٢). فالزوج يرث النصف مما تركت زوجته إن لم يكن لها أولاد ورثة، وتعتبر هذه حالة الحد الأدنى من ميراث الزوج، أما إذا وجد الأولاد فإنه يرث الربع مما تركت زوجته، وتمثل هذه حالة الحد الأدنى من ميراثه، وكذلك بالنسبة لميراث الزوجة من إرث زوجها في قوله تعالى {.. وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ..} (النساء ١٢)، فالزوجة ترث الربع من تركة زوجها في حال انعدام الأولاد للزوج المتوفى ويمثل هذا النصيب الحد الأدنى الذي ترثه الزوجة، أما إذا وجد أولاد للمتوفي فإنها ترث الثمن ويمثل ذلك الحد الأدنى الذي ترثه الزوجة، بعد سداد الوصية والدين. أما في حال عدم وجود الفروع والأصول فيصبح في هذه الحالة ميراث الزوجة أو الزوج كل التركة وهو الحد الأعلى. وكذلك الحال بالنسبة لنصيب الإخوة في قوله تعالى {.. وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ..} (النساء ١٢)، فإن وجد أخ منفرد أو أخت منفردة فيرث كل واحد منهما السدس وهو الحد الأدنى من ميراث الإخوة، أما في حال وجود اثنين أو أكثر من الإخوة فيصبحون شركاء في الثلث وهو الحد الأعلى لميراث الإخوة.

17 – **فقه المرأة/ نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي،** الدكتور محمد شحرور، الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٥.

ب– كذلك وردت حالة الحد الأدنى والحد الأعلى معاً في آية النساء ٣، حيث وضع سبحانه حداً أدنى وحداً أعلى للتعددية الزوجية في قوله تعالى {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} ولقد تم شرح مسألة التعددية الزوجية بالتفصيل في كتابنا (نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي) (18).

18 – الرجوع للمصدر السابق.

٤– حالة الحد الأدنى والحد الأعلى معاً على نقطة واحدة، أي حالة المستقيم أو حالة التشريع العيني

هذه الحالة جاءت في حد الزنا فقط حيث وضع الحد الأعلى والأدنى معاً في نقطة واحدة وهو المئة جلدة في قوله تعالى {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (النور ٢). لاحظ كيف نوه هنا بأن هذا هو الحد الأعلى والأدنى معاً في عبارة "ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله" ليؤكد أنه لا يجوز التخفيف وأن هذا الحد هو الوحيد الأعلى والأدنى معاً، علماً بأنه لم يذكر موضوع الرأفة في

قطع يد السارق لأن قطع اليد هو الحد الأعلى فقط، ومجال الرأفة والتخفيف مفتوح، بل ذكر العكس تماماً في عبارة ''نكالاً من الله''. لتبيان أن هذا الحد فيه تنكيل من الله فلا يجوز تجاوزه ولايطبق إلا في حالات العقوبة القصوى للسرقة فقط وهي قطع الأيادي عن المجتمع وهو السجن حتى الإصلاح.

فإذا كان حد الزنا نقطةً لا مجال للزيادة والنقصان فيه، فكيف يقام هذا الحد؟ وماهي الشروط الظرفية التي يطبق فيها؟

بما أن الله سبحانه وتعالى ثبت حد الزنا فلم يترك الشروط الظرفية لإقامة الحد لاجتهاد الناس بل أعطانا الشروط الظرفية أيضاً وهي ''أربعة شهداء'' و''الملاعنة'' بالنسبة للرجل وزوجه. ووضع أيضاً عقوبة من يرمي الآخر بالزنا بدون تحقق هذه الشروط وذلك من الآية ٣ إلى الآية ١٠ من سورة النور.

وقد سمى الآيات التي بين فيها الشروط الموجبة لإقامة حد الزنا بالآيات المبينات، حيث لم تأت الآيات المبينات إلا في هذا الموضوع لقوله تعالى

– {وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} (النساء ١٩).

– {.. وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ..} (الطلاق ١).

وضعت آية الطلاق شرطاً لإخراج المطلقات من بيوت الزوجية هو ارتكابهن للفاحشة المبينة ''العلنية'' وهي الزنا، علماً أن حد الزنا هو الحد الوحيد الذين بيَّن تعالى فيه الشروط الظرفية لإقامة الحد، لكونه حداً أدنى وأعلى معاً في نقطة واحدة، ولأنه هو الفاحشة العلنية، وكي تكون علنية استوجب وجود أربعة شهداء على الأقل حتى يقام هذا الحد حماية لحرمة أفراد المجتمع من المساس بأعراضهم، حفاظاً على أعراض النساء وسمعتهن بدليل أنه اشترط في الزنا أربعة شهداء بينما اكتفى بالقتل بشهيد واحد لإثبات جريمة القتل.

أما في بقية الحدود كحد السرقة فلم يبين فيها الشروط الظرفية لأنها إما أعلى أو أدنى، أو أعلى وأدنى ضمن مجال بينهما لا على نقطة واحدة.

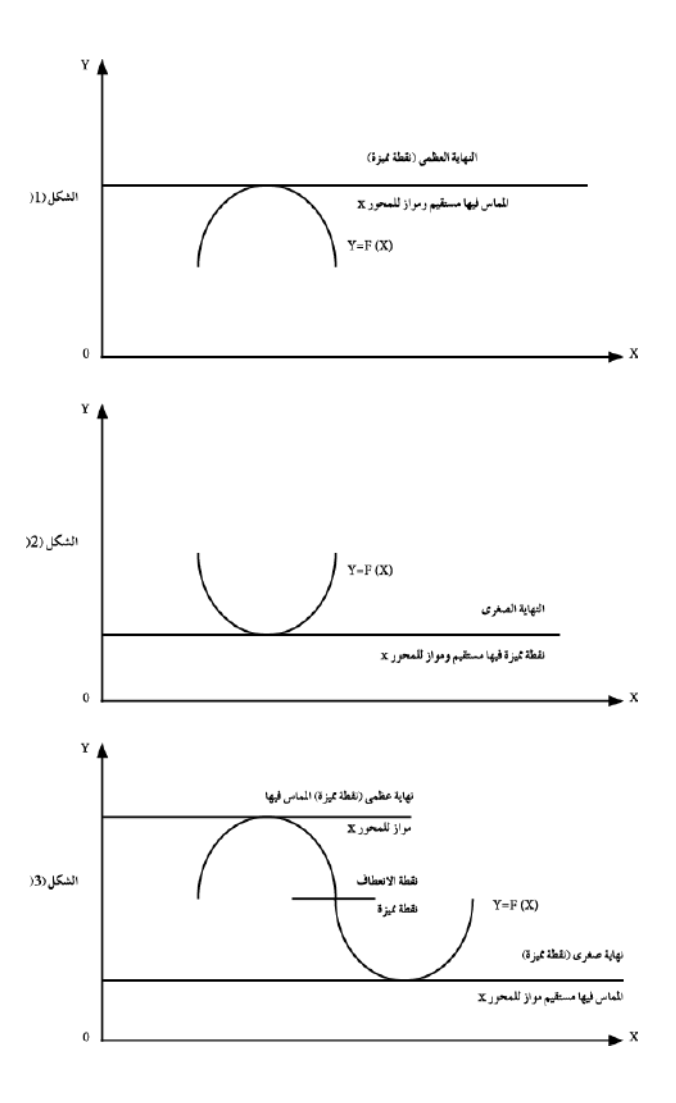
٥– حالة الحد الأعلى بخط مقارب لمستقيم يقترب منه ولايمس

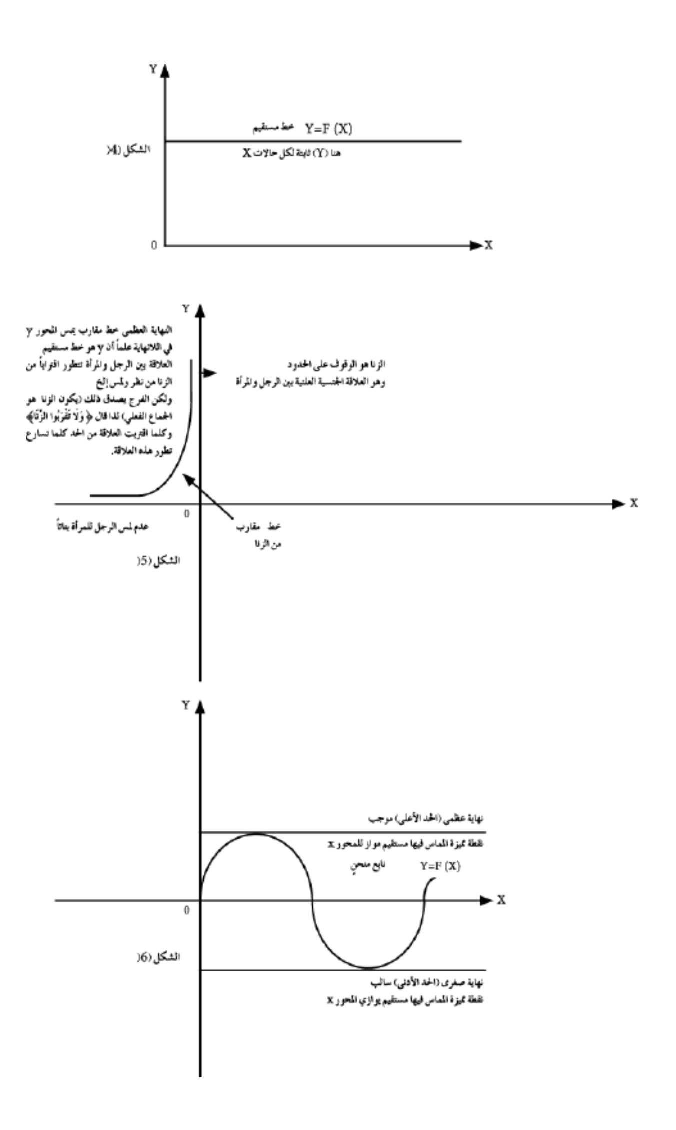
هي حالة علاقة الرجل بالمرأة من ناحية الجنس، وتبدأ هذه العلاقة بحدودها الدنيا، وهي عدم ملامسة الرجل للمرأة بتاتاً وتنتهي بخط مستقيم يقارب الممارسة الجنسية الكاملة، فإذا اقترب الإنسان من الممارسة الجنسية علانية ولم يمارسها كما هو حال التقبيل في أوربا، فإنه لم يقع في حدود الله، حيث

أن الزنا هو الممارسة العلنية للجنس وهو من حدود الله التي يجب ألا يقف عليها الإنسان أي لا يمسها مهما اقترب منها، على عكس القتل الذي يمكن الوقوف على حده بالاكتفاء بشهيد واحد، أما في حالة الزنا فلا يمكن الوقوف عليه، لأن الوقوف عليه يعني الوقوع فيه. وبما أن حد الزنا هو من حدود الله في خط مستقيم مقارب ويتسارع كلما اقترب منه الإنسان، لذا جاءت العقوبة عليه في خط مستقيم، حد أعلى وحد أدنى معاً. هنا نلاحظ أن عقوبة الزنا في الحالة الرابعة منسجمة تماماً مع الحالة الخامسة وهي حد الله في علاقة الرجل بالمرأة علاقة جنسية مباشرة وعلنية، يقام فيها الحد بعد ثبوتها بشهادة أربعة شهداء، أما إذا كانت هناك علاقة جنسية مباشرة غير علنية فهي فاحشة وليست زنا وتبقى بين العبد وربه. لذا قال {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} (الإسراء ٣٢) وقال {.. وَلاَتَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ..} (الأنعام ١٥١) فالظاهر من الفواحش هو الزنا "أي الفاحشة العلنية" أما الفواحش الباطنة فهي متعلقة بين العبد وربه ولم يرتب عليها الله عز وجل أي عقوبة، لذا فإن الزنا فاحشة تستحق العقوبة لكن ليس كل فاحشة زنا.

٦ــ حالة: الحد الأعلى موجب مغلق لا يجوز تجاوزه، والحد الأدنى سالب يجوز تجاوزه

هي العلاقة المالية بين الناس، وهذان الحدان يمثلهما الربا كحد أعلى موجب والزكاة كحد أدنى سالب، وهذا الحد يمكن تجاوزه بالصدقات وبما أن هناك موجباً وسالباً فهناك حالة الصفر بينهما. أي هذه الحالة تشمل الربا "الموجب" والقرض الحسن "الصفر" والزكاة والصدقات "السالب". يفهم من هذا أن هناك ثلاث حالات لإعطاء المال يمكن للإنسان أن يحنف بينها حسب الظروف الموضوعية التي يعيشها وحسب وضع الإنسان الذي يأخذ المال. هذه الحالات هي الربا والصدقات والقرض الحسن.


Y
النهاية العظمى (نقطة مميزة)
الشكل (1)
المماس فيها مستقيم ومواز للمحور x
Y=F (X)
0
X
Y
الشكل (2)
Y=F (X)
النهاية الصغرى
نقطة مميزة فيها مستقيم ومواز للمحور x
0
X
Y
نهاية عظمى (نقطة مميزة) المماس فيها
مواز للمحور x
الشكل (3)
نقطة الانعطاف
نقطة مميزة
Y=F (X)
نهاية صغرى (نقطة مميزة)
المماس فيها مستقيم مواز للمحور x
0
X



ـ الربا

لقد قلنا إن الربا من حدود الله، الحالة رقم ٦، الحد الأعلى الموجب والصفر والحد الأدنى السالب. لذا لا يمكن فصل موضوع الربا عن موضوع الزكاة والصدقات.

جاءت لفظة الربا في اللسان العربي من الأصل "رب وـ ربء" "الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه" ولها معنى واحد هو الزيادة والنماء والعلو، تقول ربا الشيء يربو إذا زاد، وربا الرابية يربوها إذا علاها، والربوة المكان المرتفع.

لقد ورد الربا في التنزيل الحكيم في الآيات التالية:

ـ {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى

اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة ٢٧٥).

– {يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} (البقرة ٢٧٦).

– {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (البقرة ٢٧٨).

– {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} (البقرة ٢٧٩).

– {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة ٢٨٠).

– {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (آل عمران ١٣٠).

– {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} (آل عمران ١٣١).

– {وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (آل عمران ١٣٢).

– {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} (النساء ١٦١).

– {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} (الروم ٣٩).

نلاحظ في هذه الآيات ما يلي:

أ– ربط الربا بالصدقات بقوله {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ..} (البقرة ٢٧٦).

ب– ربط الربا بالزكاة بقوله {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا... وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} (الروم ٣٩).

ج– وضع حد أعلى للفائدة "الربا" بقوله {.. لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً..} (آل عمران ١٣٠).

د– وضع حد الصفر بقوله {.. وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون} (البقرة ٢٧٩).

جاء في تفسير ابن كثير (ج١/ص ٥٩٢) عند الكلام عن آية الكلالة، النساء ١٧٦ ما يلي: "وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله (ص) كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه – الجد والكلالة وباب من أبواب الربا".

ونفهم أن الربا أمر غير مقطوع فيه، أشكل حتى على أمير المؤمنين عمر.

الآن إذا أردنا أن نربط مفهوم الربا بالزكاة والصدقات فما علينا إلا أن نعرف الزكاة والصدقات.

– **الزكاة والصدقات**: هي مبلغ نقدي من المال أو عطاء عيني يعطى من شخص لآخر دون أي مقابل أو التزام من الآخذ تجاه المعطي. والفرق بين الزكاة والصدقات، أن الزكاة هي الحد الأدنى للهبة أي الحد الأدنى للصدقات وهي من فرائض الإسلام. لذا فعندما أورد المستفيدين من الزكاة قال "إنما الصدقات" حيث أن الزكاة هي من ضمن الصدقات، والصدقات هو المصطلح الأعم. هنا نرى أن الحد الأدنى للعطاء السالب هو الزكاة وهو فرض، وهذا الحد الأدنى مفتوح بالصدقات وبما أن الأمر كذلك فقد وجهنا الله نفسه إلى الزمر من الناس التي يجب أن تعطى لهم الصدقات، أي أن هذا الحد مفتوح في الكم وفيه توجه في الكيف لذا قال {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ..} (التوبة ٦٠). وبما أن سورة التوبة لا تحوي حدوداً فهذا يعني أنها مفتوحة للاجتهاد في الزيادة أو النقصان وقد اجتهد عمر فألغى الصدقات على المؤلفة قلوبهم بعد أن أعز الله الإسلام ونصره لأن هذه الآية ليست من آيات الحدود. وقد عرفنا في مبحث الزكاة الفقير والمسكين، وقلنا إن الفقير هو الإنسان الذي لا يستطيع سداد أي قرض ضمن الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة. فلهؤلاء الناس جاءت آية {يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} أي أن هؤلاء الناس لا يستطيعون سداد أي قرض أصلاً فالمال الذي يعطى لهم ليس بقرض أصلاً وإنما هو هبة وأجرها عند الله. وجاءت الآية أيضاً التي ربطت الربا بالزكاة "وما آتيتم من ربا.. وما آتيتم من زكاة" وإعطاء المال لهؤلاء الناس على أساس قرض مع فائدة تنطبق عليه الآية ٢٧٥ من سورة البقرة {لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} وجاءت الآية ٢٧٨ من نفس السورة {ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} والآية ٢٧٩ {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} هذه هي الحالة الأولى من حالات العطاء.

أما الحالة الثانية فهي للناس الذين يستطيعون سداد القرض ولكن دون أية فائدة أي حالة الصفر أو ما يسمى بالقرض الحسن، وفيها جاءت الآية ٢٧٩ من سورة البقرة {فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} وهذه الحالة أيضاً هي الحد الأعلى في معاملة أصحاب الصدقات، لذا فضل الهبة وقال {وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة ٢٨٠).

فإذا أخذنا بقية الحالات ونظرنا إلى المستفيدين الذين لا تنطبق عليهم آية الصدقات، ابتداء من الهبة بدون مقابل وحتى القرض الحسن كأعلى حد، وجدنا أن هؤلاء الناس هم أهل الفعاليات التجارية والصناعية والزراعية الذين هم عصب الاقتصاد، مثل شركات النفط والسيارات والتعدين وكل حقول الصناعة والزراعة والتجارة والخامات، فما حُكمُ هؤلاء وهم ليسوا من أهل الصدقات؟ من أجل هؤلاء جاءت الحالة الثالثة وهي الحد الأعلى في الفائدة وهو مغلق تماماً جاء في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (آل عمران ١٣٠) أي أن الله وضع سقفاً للفائدة من أجل الناس الذين لا يستحقون الصدقات وليسوا بحاجة إليها، وهؤلاء يشكلون شريحة كبيرة في المجتمع وهم الصناعيون والحرفيون والمزارعون والتجار وغيرهم. هذه الفائدة هي ضعف مبلغ الدين ولا يمكن أن تزيد عن ذلك، أي أن أساس النظام المصرفي الإسلامي هو ما يلي:

١– لا يعطى مستحقو الزكاة والصدقات قروضاً، بل هبات دون مقابل.

٢– يمكن في حالات معينة إعطاء قرض دون فائدة، وهي معاملة الحد الأعلى لمستحقي الصدقات.

٣– لا يوجد في النظام المصرفي الإسلامي قرض مفتوح الأجل قد تبلغ الفوائد فيه أكثر من ضعف المبلغ، لذا فأجل القرض في المصارف الإسلامية كحد أعلى هو حتى تبلغ الفائدة ضعف المبلغ، يجب بعدها أن يكون المبلغ مسدداً. فإذا بلغت الفائدة أكثر من ضعف المبلغ الأصلي يحق للمدين الامتناع عن دفع ما زاد عن الضعف.

هذه هي أسس النظام المصرفي الإسلامي، حيث أن المصارف هي عصب الاقتصاد الحديث من تجارة وصناعة وزراعة. وحين تتقيد المصارف بهذه القاعدة لا يبقى ما يمنع المسلم من أن يضع ماله في هذه المصارف لكي تديره ويأخذ عليه الفوائد.

في هذه الحالة تكون الدولة المسلمة هي صاحبة الحق الوحيد في تحديد نسبة الفائدة السنوية طبقا للوضع الاقتصادي السائد، والمصارف فقط هي صاحبة الحق الوحيد في إعطاء القروض بفوائد وتطبيق أقصى العقوبات على الذي يقرض بفائدة من غير المصارف.

هنا نناقش وضع النظام المصرفي الإسلامي بالنسبة لاقتصاد معافى سليم ضمن نسب تضخم مقبولة طبقاً للأوضاع السائدة. أما إذا كانت في الاقتصاد نسبة تضخم نقدي عالية، ففي هذه الحالة لا تحل المصارف مشكلته وإنما تحل المشكلة بحلول جذرية أخرى.

وكذلك البيع بالتقسيط "إلى أجل" يمكن أن نتجه فيه بنفس الاتجاه أي يجب أن لا يتجاوز المبلغ المقسط ضعف السعر النقدي.

ومع هذا وذاك فإننا نقدم اجتهاداً ونترك لذوي الاختصاص من الاقتصاديين والمصرفيين والتجاريين المسلمين أن يضعوا تفصيلات لذلك بشرط أن لا يتجاوزوا حدود الله.

مخطط الحد الأدنى السالب والحد الأعلى الموجب في الربا



نستنتج من هذا البحث مايلي:

١– إن الإسلام مستقيم في الحدود والوصايا "الفرقان". وحنيف ضمن الحدود، فهو يحمل صفة الثبات في الحدود "الاستقامة" والتحول "الحنيف" ضمن الحدود لذا قال {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}.

٢– لقد أعطى الله سبحانه تشريعات عينية لموسى وعيسى في الكتاب وذلك لتتناسب مع الظروف التي عاشوها هم، لذا سميت تشريعات موسى وعيسى "الكتاب" وهذه التشريعات لم تحمل الصيغة العالمية وإنما حملت الطابع الزماني المكاني، أي أنها لم تكن مبنية على نظرية الحدود لذا تم تجاوزها وتم فصل الشريعة عن السلطة بالنسبة للمسيحية واليهودية وهذا عين الصواب.

٣– لقد سميت رسالة محمد (ص) بأم الكتاب لأنها حنيفية على نظرية الحدود لذا فهي تحمل الصيغة الكونية، ويمكن استنتاج ملايين الأحكام العينية من خلالها، ومن الصعب تجاوزها إلا على الجاهل، وكلما زاد الإنسان تحضراً وتقدماً زاد فهمه لحدود الله وقناعته بها. وإننا نرى معظم أهل الأرض ملتزمين بحدود الله في معظم تشريعاتهم وخاصة المتحضرين منهم. لذا وصف الأعراب وهم أقل تحضراً من أهل المدن بأنهم {.. وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ..} (التوبة ٩٧) هنا نلاحظ كيف بيَّن أن حدود الله هي الرسالة الموجودة في أم الكتاب.

إن الفرق بين الصحابة ساكني المدينة ومكة وبين الأعراب في فهم حدود ما أنزل الله، هو أن الصحابة أكثر تحضراً من الأعراب. ولنا أن نذكر فرق التحضر بين الصحابة وبيننا بسبب العنصر الزمني، وهو فرق أكبر بكثير من ذلك الفرق. لذا فنحن مؤهلون الآن لفهم حدود ما أنزل الله على رسوله أكثر بكثير من أهل القرن السابع الميلادي.

٤– إن مصطلح "الشريعة الإسلامية" مصطلح خاطئ ووهمي في الأصل، إذ لا يوجد شيء اسمه الشريعة الإسلامية، حيث أن الإسلام مبني على الحدود فقط وهو دين مدني بحت. من هذا المنطلق نرى أن رسالة محمد (ص) صالحة لكل زمان ومكان {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..} (الأعراف ١٥٨) ونفهم لماذا كان (ص) خاتم الرسل بالإضافة إلى أنه خاتم الأنبياء وأن رسالته رحمة للعالمين.

٥– إن أكبر خطأ ارتكب في الفقه الإسلامي هو نزع الصفة الحنيفية منه وذلك بوضع المبدأ التالي "لا مساغ للاجتهاد فيما ورد فيه نص صريح قطعي" والصحيح أن أساس التشريع الإسلامي هو الاجتهاد ضمن مجالات الحدود "دنيا أو عليا أو الاثنين معاً" ويقف الاجتهاد عند النص الذي وردت فيه الحدود، لا على النص الذي وردت فيه الحدود وضمن مجال الحدود. إن اجتهد الإنسان وأخطأ فله أجر واحد وإن اجتهد وأصاب فله أجران. ومن هذا يتبين لنا أن المذاهب الفقهية جميعها هي من التراث، وكذلك يتضح لنا قول النبي (ص) – إن صح – "الحلال بيّن والحرام بيّن" ولم يقل "الحق بيّن والباطل بيّن".

٦– هنا يتضح لنا مفهوم السنة تماماً، وذلك بأن محمداً (ص) اجتهد وتحرك ضمن نص الحدود بما يتلاءم مع ظروف شبه جزيرة العرب في القرن السابع، وبهذا كان لنا الأسوة الحسنة. ولايعني أبداً أنه إذا طبق النبي (ص) في موقف من المواقف الحد الأدنى أو الحد الأعلى فعلينا أن نلتزم هذا التطبيق وأن نستمر عليه إلى أن تقوم الساعة تحت شعار السنة، إذ ليس له علاقة بالسنة. لذا فإن مبدأ القياس الذي وضعه الفقه الإسلامي الموروث هو مبدأ خاطئ، فلا يمكن قياس الشاهد على الغائب، أما التشريع فهو تشريع مبني على البينات المادية الموجودة كدليل ثم الالتزام بحدود الله.

٧– بما أن الحدود سميت حدود الله فهذا يعني أن الذي يضع حدود الله هو الله نفسه، فلا يمكن لأي إنسان أن يضع حدوداً بنفسه ويقول عنها حدود الله. لذا قال تعالى {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ..} (البقرة ٧٩) فكل شيء قاله النبي (ص) في السماح أو المنع ولم يرد ذكره أبداً ضمن حدود الله في الكتاب أصلاً، هو إجراء مرحلي اتخذه النبي طبقاً للظروف التي عاشها مثاله رجم الزاني المحصن أو تحريم التصوير، حيث وجبت طاعته فيه طاعة منفصلة أي في حياته

فقط كقائد وسياسي مجتهد، أما حد الصدقات الذي وضع النبي حداً أدنى لها وهو ٢.٥% فهو ملزم ولا يمكن النزول عنه بل يمكن تجاوزه زيادة، وهو ما يسمى بالطاعة المتصلة لله ورسوله بطاعته في حياته وبعد مماته.

٨- إن اجتهاد عمر بن الخطاب في عام الرمادة بعدم قطع يد السارق لا يعني أنه عطل حد السرقة، فقد كان عمر بن الخطاب فاهماً لحدود الله، واعياً أن قطع اليد هو العقوبة القصوى للسارق، لذا كان موقفه هو عدم تطبيق العقوبة القصوى وهو في هذا لم يعطل حدود الله إطلاقاً، وإنما اجتهد ضمن حدود الله ووقف على الحد الأدنى وهو العفو.

كذلك حين ألغى عمر بن الخطاب سهم المؤلفة قلوبهم في توزيع الصدقات طبقاً لقوله تعالى {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ..} (التوبة ٢٠)، كان يعلم أنها ليست من آيات الحدود.

٩- عندما تضع السلطة قانونا، فهي نفسها من يتكفل بحمايته وتطبيقه مثل قانون السير والجمارك، وبما أن حدود الله هي من عنده وهو الذي وضعها فإن عقوبة تجاوزها تقع على الله، لذا حذرنا سبحانه من تجاوز حدوده وتعديها، وقال إن هناك جنة لمن يلتزم حدود الله، وهناك ناراً لمن يخرج عنها ويتعداها، ونبهنا إلى أنه عندما يتجاوز الناس حدود الله فإنهم يظلمون أنفسهم {.. وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة ٢٢٩).

١٠- إن العقوبة في الإسلام تجب الذنب، فعندما يقتل القاتل العمد، أو يسجن القاتل عن غير قصد ففي هذه الحالة "يمحى ذنبه" لذا قال تعالى {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} (البقرة ١٧٩)، وعلينا أن نعلم أن القصاص عقوبة ولكن ليس كل عقوبة قصاص. أما إذا تم تجاوز حدود الله وتم الإفلات من العقوبة الدنيوية، كأن يقتل الإنسان إنساناً آخر عن عمد ولم يعترف ويسلم نفسه ليحاكم وأفلت من العقوبة، أي تم تسجيل الجريمة ضد مجهول، ففي هذه الحالة فقط يكون الله له بالمرصاد ويأخذ عقوبته من الله وفي هذا قال تعالى عن القاتل العمد الذي يفلت من العقوبة الدنيوية {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء ٩٣).

١١- الحالات التي لم يرد فيها حدود نهائياً والتي سماها الفقهاء المصالح المرسلة مثل قانون السير وقانون الجمارك وغيرهما، لا تحتاج إلى حدود من الله، ولو احتاجت لوضع لها حدوداً لأنه في الإسلام التشريعي الحدود لله والتشريع للإنسان وحدود الإنسان تعتمد على نظرية "الأعراف". فهناك تشريع إنساني حنيف "متغير ضمن حدود الله في حالات الحدود بما تمليه مصالح المجتمع آخذاً بعين

الاعتبار اليسر لا العسر" وتشريع بدون حدود أيضاً بما تمليه مصالح الناس والمجتمع ضمن السياق التاريخي لتطور المجتمعات الإنسانية من حيث المعرفة والعلاقات الاقتصادية.

فالله سبحانه لم يحدد لنا حدود الضرائب، فالحد الأدنى هو الصفر "الإعفاء" والحد الأعلى يمليه التطور الاقتصادي والاجتماعي والوضع الطبقي "ضريبة الدخل التصاعدية" حيث الحد الأعلى متغير دائماً وغير ثابت، يستنتجه المشرع من مصلحة المجتمع ككل. هكذا فقط نفهم ما يقال عنه المصالح المرسلة التي يضع حدودهما المجتمع نفسه.

١٢- إن حدود الله بشكل عام مغلقة ولايسمح بتجاوزها، وتجاوز الحدود المغلقة فيه نار جهنم وعقوبة من الله تعالى، مثل حدود الإرث وحدود السرقة والقتل ونكاح المحارم. ولكن هناك بعض الحدود وضع الله نفسه لها رخصة في تجاوزها "أي أعطى جواز سفر لاجتيازها" مثل أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير حيث قال {.. فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأنعام ١٤٥) وكذلك صوم رمضان حيث وضع هو نفسه رخصة التجاوز بقوله تعالى {.. وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ..} (البقرة ١٨٥).

وكذلك الحد الأدنى للباس المرأة الوارد في الآية ٣١ في سورة النور وضع له رخصة في حالات وردت في نفس الآية، وأمر بالتوبة في حالات التجاوز غير المسموحة بقوله {.. وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور ٣١).

١٣- يمكن الاستفادة كثيراً من تشريعات الحد الأعلى والحد الأدنى وذلك بتطبيقها على حالات مماثلة في المجتمع. فمثلاً يمكن أن نقول إنه يجب في الدولة العربية الإسلامية ألا يقل الحد الأدنى للرواتب والأجور عن نصف الحد الأعلى للرواتب والأجور، وكذلك بالنسبة للمكافآت والعطاءات التي تمنحها الدولة أو المؤسسات للعاملين وغيرهم، وكذلك بالنسبة للشريحة العليا من ضريبة الدخل بحيث تبدأ الضريبة من الصفر "الحد الأدنى" وتنتهي عند نسبة ٦٦.٦% من الأرباح "الحد الأعلى".

١٤- تجاوز حدود الله لا يمكن أن يكون فيه أية منافع للناس. وهنا يجدر بنا بيان قوله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (البقرة ٢١٩).

يبين لنا سبحانه أن الخمر فيه إثم كبير ومنافع للناس، فهل يمكن أن يكون من حدود الله أو من المحرمات وفيه منافع للناس؟ والجواب أنه لو كان من حدود الله، فقد جاء في التنزيل حالات هي من حدود الله سمح بتجاوزها في الطعام في قوله {.. فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ..} (الأنعام ١٤٥) لذا

نقول أن الخمر والميسر ليسا من حدود الله "المحرمات" بل هما من المنهيات لذا اكتفى الله بالنهي عنهما لما فيهما من رجس ولم يحرمهما كما جاء في قوله تعالى {.. إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (المائدة ٩٠). والأمر بالاجتناب لا يستوجب التحريم بالضرورة، ولو قصد التحريم لجاء به صريحاً كما في تحريمه للميتة والدم ولحم الخنزير الذي جاء صريحاً في قوله تعالى {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ..} (المائدة ٣)، فقد حرمها الله عز وجل ولم يبين لنا لماذا حرمها، لأنها من حدود الله، وعلينا أن نسلم بها ونقبلها كما جاءت في التنزيل الحكيم.

أما الخمر والميسر فقد أمر باجتنابهما لما فيهما من رجس، لأن التمادي فيهما يوقع في الرجس الذي هو اختلاط الأمور في الذهن، وهذا يؤدي بدوره إلى خلق العداوة والبغضاء بين الناس في قوله تعالى {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ..} (المائدة ٩١). ونلاحظ هنا أن الخمر والميسر من المنهيات وليسا من المحرمات، ورجسهما هو نشر العداوة والبغضاء بين الناس، بينما الانصاب والأزلام من المحرمات وفيهما رجس أيضاً، حيث أن رجس النصب هو الذبح عليه، أما رجس الأزلام فهو الاستقسام بها. وبما أن الخمر والميسر فيهما منافع للناس فلا يمكن أن تكون من المحرمات. وهذه المنافع تتمثل في التخدير الذي ينتج عن الإكثار من تعاطيه، وعلينا أن نعلم أن كل مخدر خمر إن كان عن طريق الفم أو الشم أو الحقن أو التدخين أو تعاطي الحبوب، والمواد المخدرة لا يمكن الاستغناء عنها في العمل الطبي إطلاقاً، بدليل أنه في العصور الماضية قبل أن يتقدم الطب بالشكل الذي هو عليه اليوم، كان يتم تخدير الناس بواسطة الخمر "المشروبات الكحولية بكل أنواعها" بالإكثار من شربه حتى الوصول إلى اقصى حالة السكر "التخدير التام" للتمكن من إجراء العمليات الجراحية لهم. وهنا يجب أن نبين الفرق بين الإسكار لسبب التداوي وهو المنفعة الموجودة في الخمر "فيه منافع للناس"، وبين الإسكار للنشوة فقط بالسُّكر وتعاطي المخدرات، وهو الذي نهى عنه التنزيل الحكيم، لأن المنهي عنه ليس هو عين الخمر بل هو الإكثار منه للوصول إلى حد الإسكار وحَدُّهُ هو ألا يعلم السكران ما يقول أو ما يفعل وهو الرجس، ولهذا قبل الله عز وجل الصلاة من شارب الخمر إذا لم يصل إلى حد السُّكر بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..} (النساء ٤٣) فالآية تنهى عن الاقتراب من الصلاة في حالة السكر أي في حالة الإفراط في شرب الخمر، لأن شرب الخمر لا يؤدي ضرورة إلى الإسكار بل الإكثار منه هو الذي يؤدي إلى حالة السكر التي نهى الله عن الاقتراب من الصلاة في

حالة الوصول إليها. يبقى التنويه أنه لا يصح أن يفهم من كلامي أنه دعوة إلى احتساء الخمور وتسليم العقول لها وتعطيلها، بل إن قصارى ما أردت الوصول إليه هو أن الله سبحانه أراد إفهامنا أنه يتخذ موقفاً من استعمال الخمور لغير غرض التخدير لأن ذلك منافٍ للفطرة، وهذا ما يفعله أهل الأرض الآن جميعاً على درجات مختلفة، فكلهم لديهم موقف سلبي من السكران وليس من شرب الخمر وكذلك رب العالمين، وكذلك كل أهل الأرض قاطبة وبدون استثناء تتناول حبوب المسكنات والمهدئات وكلها بدون استثناء فيها خمر "مواد مخدرة" والكثير منها يسبب السُّكر "التخدير" لذا فلا يمكن أن تعتبر مقولة "ما أسكر كثيره فقليله حرام" لأن هذا الفعل يتناوله كل أهل الأرض ولا يمكن أن نضعه تحت باب "الضرورات تبيح المحظورات". لذا طلب من السكران الابتعاد عن الصلاة لأنه لن يعلم ما يقول أو ما يفعل في هذه الحالة. وبناء عليه فعلى الباحثين المسلمين فرز آيات الحدود في أم الكتاب دون تشنج ومزاودات هدفها تخويف الناس وزيادة العنت عليهم، كما هو الأمر بالنسبة لتحريمهم كل أنواع القمار بحجة أنه ميسر مع أن التنزيل الحكيم أوضح صراحة أن الميسر هو كل ما يصد عن ذكر الله وينشر العداوة والبغضاء بين الناس، وهنا يجب أن يفرق بين ما يصد عن ذكر الله وينشر العداوة بين الناس، كما هو حال القمار "الروليبت" الذي يمارس في كازينوهات لاس فيغاس وغيرها ويعتبر من الميسر، وبين ما لا يصد عن ذكر الله ولاينشر العداوة والبغضاء بين الناس مثل لعبة اليانصيب التي تمارس في العالم أجمع، فهذا التفريق الدقيق يبين لنا دقة التنزيل الحكيم في طرحه للقضايا المتعلقة بالحياة اليومية للناس ومشاغلهم، والذي لا يمكن فهمه إلا من خلال قراءة معاصرة له تعمل على إيجاد حلول للإشكالات المتجددة في حياة الإنسان.

نستنتج من نظرية الحدود ما يلي:

ـ التشريعات العينية

يتأكد طرحنا السابق الذي طرحناه عن تاريخ الرسالات السابقة التي كانت تأتي للرسل قبل محمد(ص) على شكل أحكام منفصلة عينية وجزء من الوصايا، ثم جاءت الوصايا "الفرقان" إلى موسى، وجاء الكتاب كدستور كامل من التشريعات ولكنها عينية وليست حدودية كقوله تعالى عن نموذج لتشريعات بني إسرائيل {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (المائدة ٤٥). هذه الآية تمثل حالة خاصة من حالات أم الكتاب، فيها نلاحظ

كيف أعطى تشريعاً عينياً ولم يعط تشريعاً حدودياً. ونلاحظ في كتاب موسى أن التشريع هو تشريع مشخص ''فؤادي'' إذ لم تصل الإنسانية وقتئذ إلى المفهوم التجريدي للتشريع الذي عبر عنه بالحدود ولكن أجبرهم على التقيد به حرفيا بعبارة ''ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون'' حيث أن الإنسان لم يكن قد نضج بعد للاجتهاد ضمن الحدود. وعندما أراد سبحانه تعديل شريعة موسى العينية بما فيها من إصر وأغلال ''انظر شريعة موسى في الكتاب المقدس'' أرسل عيسى بن مريم لتعديل هذه الشريعة نحو التخفيف {..وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ..} (آل عمران ٥٠). ولكن بقي كتاب عيسى الذي هو شريعة موسى معدلة عينياً لا حدودياً. وبما أن شريعة عيسى هي شريعة موسى معدلة عينية فهي تحمل الطابع الزماني البحت، وبما أن هاتين الشريعتين مربوطتان إحداهما بالأخرى فقد ربط نبوة عيسى ''الإنجيل'' بنبوة موسى ''التوراة''. لذا أتبعها بقوله {وَقَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} (المائدة ٤٦). هنا يكمن سر الوهم الأول الذي وقع به كثير من المفسرين عندما ظنوا أن ما بين يدي القرآن في قوله {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآَنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ..} (يونس ٣٧). هو التوراة والإنجيل على غرار تصديق إنجيل عيسى لتوراة موسى. هذا الكلام صحيح لو لم يكن محمد (ص) هو خاتم الأنبياء والرسل حيث أن رسالته ونبوته تحمل طابعاً خاصاً تماماً لا تحمله الرسالات والنبوات السابقة. لذا فإن القرآن الذي نزل على محمد (ص) لم يكن تصديقاً لا للتوراة ولا للإنجيل، بل كان تصديقاً لأم الكتاب ''الرسالة'' حيث أن القرآن لا يحمل الطابع الزماني المكاني، بل هو صالح لكل زمان ومكان، وكذلك أيضاً حدود أم الكتاب لا تحمل الطابع الزماني المكاني ولكنها قابلة للتحوير، فجاء القرآن مصدقاً وحافظاً لها، لذا سمى التشريع عند موسى وعيسى الكتاب، وعند محمد (ص) أم الكتاب. لذا فإن أم الكتاب لها خاصتان أساسيتان:

١– أنها من عند الله وليست من اللوح المحفوظ ''وعنده أم الكتاب''.

٢– أن حدود أم الكتاب يمكن أن تستنتج منها ملايين الكتب في التشريع وليس كتاباً واحداً، لذا سماها أم الكتاب.

أما الوهم الثاني الذي وقع فيه كثير من المفسرين والفقهاء، ولم يقع فيه عمر بن الخطاب، والذي نتج عن الوهم الأول فهو التالي: بما أن كتاب موسى وعيسى يحتوي على تشريعات عينية توجب الوقوف على النص فقد ظنوا أن تشريعات أم الكتاب عند محمد (ص) هي على غرار ذلك، أي توجب الوقوف على النص لاعند حدود النص، ولم ينتبهوا إلى الناحية الحدودية التي جاءت فقط

لمحمد (ص) إن هذا هو سبب تخلف التشريع الإسلامي في الوقت الحاضر وهو سبب التسمية الخاطئة "شريعة محمد" على غرار تسمية "شريعة موسى" وهو تقليد اليهود والنصارى. وكما كان عند اليهود والنصارى أحبار ورهبان، صار عندنا ما يسمى السادة العلماء "المشايخ". هذا فيما يتعلق بفهم التشريع في أم الكتاب "الرسالة" وقد حذا بعض المفسرين نفس المنهج عندما اعتمدوا على التوراة في تفسير القرآن ونسوا أن التوراة مرحلية والقرآن غير مرحلي.

ثانياً: الحدود في الشعائر

هي التي تحدد صلة الإنسان بالله وهي توقيفية رمزية خضعت للتطور والتبدل من ملة إلى أخرى {.. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا..} (المائدة ٤٨) وتتربع الصلاة على رأسها، وهي صلة مباشرة بين العبد وربه. وأهم خاصية للشعائر هي سقوط العقل فيها أي أنها لا تخضع للعقل إطلاقاً، ولا لقواعد البحث العلمي الموضوعي وذلك لورود المقدمات والعمليات والنتائج معاً بعكس الحدود التشريعية والوصايا. ففي أي مسألة من المسائل جاءت فيها المقدمات والنتائج معاً يسقط فيها العقل "العلمي" بالضرورة. فمثلاً إذا طلبنا من إنسان ما أن يسير مسافة كيلو متر واحد ويأخذ مقابل هذا السير عشرة آلاف دولار:

أي: المقدمة ====> سير ١كم.

النتيجة ====> ربح عشرة آلاف دولار.

ففي هذه الحالة لا داعي أبداً لأن يسأل هذا الإنسان لماذا يجب أن يسير، أي لا داعي لأن يفكر في هذه المسألة أو يعقلها. حيث وردت فيها المقدمات والنتائج معاً. وكذلك إذا أعطينا إنساناً ما نص مسألة وطريقة الحل والنتيجة، ففي هذه الحالة أسقطنا العقل عنده. ففي العبادات هناك حالة الصلاة وطريقة الصلاة ونتيجة الصلاة. وكل الشعائر عبارة عن علاقة رمزية أي غير قابلة للعقلنة، فالعَلَم من الناحية العقلانية قطعة قماش، فلماذا الوقوف والتحية لهذه القطعة القماشية؟ الجواب: هي رمز الوطن، وتحية العلم رمز الاحترام.

وعلينا أن نعلم أنه كلما زادت المسائل التي تحوي على المقدمات والنتائج معا ازداد سقوط العقل. هذه الناحية مهمة جداً في العملية التعليمية والتربوية وفي وضع سياسة التربية والتعليم، حيث أن العملية التعليمية والتربوية يجب أن تقوم على أحد أطراف المسألة لكي يفكر الإنسان المتعلم كيف يصل إلى الطرف الآخر. وبما أن المنطق هو استنتاج المجهول من معلوم، فيفترض أن المعلوم هو

المقدمة، والمجهول هو النتيجة. والشعائر بالنسبة للإسلام تمثل التقوى الفردية، أي تقوى الإيمان، وليس الاجتماعية أو التشريعية.

لذا فإن من الخطأ الفاحش أن نقول إن الصلاة رياضة والصوم للصحة. أو أن نضع فلسفة عقلية للشعائر. هنا يجب أن لا نخلط بين وضع فلسفة عقلية للشعائر وبين فهم النصوص التعبدية على نحو يقتضيه العقل.

فلنر الآن كيف جاءت المقدمات والنتائج معا في الكتاب بالنسبة للشعائر:

أ– الصلاة والزكاة

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} (المؤمنون ١–٤) {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (المؤمنون ٩–١١).

هنا نلاحظ كيف أن المقدمة هي الصلاة والزكاة، والنتيجة {.. يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} أما آلية الصلاة والزكاة فقد شرحهما النبي (ص) عملياً، فاكتملت بذلك الشروط الثلاثة: المسألة وطريقة الحل ونتيجة الحل. وعندما يذكر الصلاة والزكاة في التنزيل الحكيم يذكر معها صفة المفلحين كما في قوله تعالى {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (البقرة ٣–٥) وقوله {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (لقمان ٤–٥) وقوله {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الروم ٣٨).

ب– الصوم

{.. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ..} (البقرة ١٨٤) "مقدمة ونتيجة". {.. وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ... أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (الأحزاب ٣٥).

مقدمة "والصائمين والصائمات" = نتيجة "أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً".

– أنواع الشعائر

الشعائر في الإسلام أربع هي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. فلنناقش هذه الشعائر من حيث النوع والمظهر، فأقدم الشعائر هي الحج:

١ـ الحج

لقد بدأت الصلة بين العبد وربه منذ أقدم العصور بشكل مشخص على شكل قرابين وأضحيات، فنرى في كل الديانات القديمة مفهوم الأضحية للإله أو الآلهة. هذا الشكل من التعبد له أساس إلهي، ولكنه تحول إلى صور وثنية مختلفة بتعدد الآلهة. فالأضحية هي صلة مادية للاقتراب من الإله، ولها مكان معين تؤدي فيه، أي أنها عبادة مشخصة بالحواس ''عبادة فؤادية''. فإذا نظرنا إلى الحج رأينا أنه الشعيرة الإسلامية المشخصة. فالكعبة بناء حجري يتم الطواف حوله، والصفا والمروة صخرتان يتم السعي بينهما، ثم الوقوف بعرفة والرجم والأضحية. كل هذه العمليات تتم وفق أشياء مشخصة بما فيها الرجم، لذا فإنه لا يستغرب أن الحج كان قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام فهذبه وثبته.

فمن السذاجة القول بأن الحج من بقايا الوثنية، ولكن الصحيح أن نقول: إن الحج هو استمرارية العبادة الفؤادية البدائية المشخصة بحاستي السمع والبصر. وهكذا نفهم قوله تعالى على لسان إبراهيم {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} (إبراهيم ٣٧) هنا نلاحظ أن الحج استمرارية تاريخية للعبادات القديمة التي تم فيها التباس في الفهم على أنها استمرارية للوثنية مع أنها استمرارية للشكل الفؤادي المشخص للشعائر الربانية.

وعلينا أن نلاحظ ما يلي:

لقد وجه التنزيل الحكيم الخطاب حول الصوم والصلاة والزكاة للمؤمنين مباشرة وذلك في قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} (المؤمنون ١، ٢) ولكن حول الحج تم توجيه الخطاب إلى الناس في قوله تعالى {.. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (آل عمران ٩٧) وقوله {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ..} (الحج ٢٧) هذه الناحية يجب دراستها حيث أن الحج وأماكن الحج لها مدلول أساسي بالنسبة للناس أجمعين.

٢ـالصلاة

الصلاة في اللسان العربي جاءت من الصلة والدعاء، ففي معنى الدعاء فقط جاء قوله تعالى {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (الأحزاب ٥٦) وقوله تعالى {.. وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ..} (التوبة ١٠٣) وقوله {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ..} (البقرة ١٥٧) وقوله {.. وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ..} (التوبة ٩٩) وقوله {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ..} (الأحزاب ٤٣).

وفي معنى الصلة بين العبد وربه، الذي يعتبر الدعاء جزءاً أساسياً منها، جاء قوله تعالى {.. وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} (مريم ٣١) فهنا الصلاة التي أوصى الله بها المسيح لا تعني طقس الصلاة مثل صلاة صبح ركعتين وظهر أربع ركعات وبقية الصلوات الخمس التي جاءت لأهل الملة المحمدية، وإنما هي صلاة طقسها خاص بالديانة المسيحية. وكذلك قوله تعالى على لسان لقمان {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ..} (لقمان ١٧) ترى هل كان لقمان يأمر ابنه بالصلوات الخمس؟ أم كان يأمره بالصلاة كما كان طقسها معروفاً آنذاك، والتي جوهرها كعبادة هو الصلة بين العبد وربه؟ وكذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ..} (إبراهيم ٤٠) وقوله {.. وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ..} (الحج ٣٥) وقوله عن إسماعيل {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} (مريم ٥٥) وقوله عن زكريا {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ..} (آل عمران ٣٩) هنا أيضا صلاة زكريا لا تعني أنه كان يصلي الأوقات الخمسة كصلاة المسلمين المؤمنين، بل كان يمارسها على شكل طقس معين كان معروفاً في وقته.

أما الصلاة عند الملة المحمدية فقد جاءت بشكل صريح في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ..} (الجمعة ٩) هنا الصلاة تعني صلاة الجمعة التي نعرفها. أما بمعنى الصلوات الخمس التي نعرفها فقد جاءت في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ..} (المائدة ٦) وكان من مهمات الرسول (ص) الشرح والبيان التطبيقي العملي للصلاة لأهل ملته بأوقاتها الخمسة وبعدد الركعات في كل صلاة.

هنا أنبه إلى بيان البعد المفاهيمي لكل من الوضوء والطهارة والغسل وماجاء فيها من تفصيلات فقهية وذلك بإيراد الحقيقة التاريخية التالية:

لقد ظهر الإسلام في شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي، ونحن نعلم علم اليقين الحقائق التالية:

١– أن شبه جزيرة العرب منطقة شحيحة جداً بالمياه، ويعتبر الماء مادة عزيزة جداً بالنسبة للعرب، وأن مدينتي مكة ويثرب لا تقعان على البحر.

٢– لا يوجد في شبه جزيرة العرب في ذاك الوقت تمديدات صحية، مياه حلوة ومياه مالحة وحمامات في المنازل.

٣– عدم وجود دورات مياه "تواليت" في المنازل حيث كانت نساء المدينة تخرج ليلاً خارج المدينة للتغوط.

هذه الأمور الثلاثة تبين أن مستوى النظافة العامة وإمكانياتها عند الناس كان أدنى منه عندنا الآن. فنحن الآن نعيش في القرن الواحد والعشرين الميلادي "الخامس عشر الهجري" بشروط أفضل بكثير مما كان عليه الناس في القرن السابع الميلادي من حيث توفر المياه ووسائل النظافة الخاصة والعامة.

وأعتقد أنه لا أحد من الناس يشك بصحة شروط الطهارة والوضوء عند الصحابة وعند نساء المسلمين في يثرب في عهد النبي (ص) ضمن شروط تعتبر أدنى بكثير من شروطنا المعاصرة. لذا فإن الصفحات الطوال التي كتبت عن الوضوء والطهارة والغسل في كتب الفقه الموروثة هي كلام لا يتفق أبداً مع الشروط التي عاشها الناس في صدر الإسلام في يثرب ومكة، حيث أن الاستفاضة والشرح المفصل لهذه الأمور هو نوع من الترف الفقهي غير مفيد وغير عملي. وإذا أراد إنسان ما أن يتقيد بحرفية هذه الكتب فإنه سيصاب بداء الوسواس بصحة وضوئه وطهارته وصلاته، وقد تم ترسيخ مثل هذا النوع من الفقه خلال قرون عصور الانحطاط. ومن المؤسف أن يدرس اليوم على أنه جزء أساسي من الفقه الإسلامي، حيث أن الشعائر وخاصة الصلاة والصوم لا تحتاج إلى أكثر من ساعة واحدة لشرحها لأكثر الناس سذاجة، وقد فرضت الصلاة على إنسان يبلغ من العمر عشر سنوات، فهذا يعني أن الإنسان بعمر عشر سنوات قادر على أن يستوعبها.

قد يسأل سائل: لماذا لم يتم ذكر التطبيق العملي لكل من الصلاة في التنزيل الحكيم، وترك مجال التوضيح فيها لتطبيق الرسول لبيانها للمؤمنين؟

نقول: الصلاة شعيرة روحية مرتبطة بعلاقة الإنسان بربه، وعلاقة متصلة ودائمة بالله لأنها شعور فطري كامن في احتياج الإنسان الدائم إلى وجود قوة عليا يستشعر وجودها ورغبته في التواصل معها بحثاً عن الطمأنينة والسكينة بغض النظر عن تسميتها. وطالما أن الإسلام دين عالمي جاء به الرسل بداية من نوح وحتى محمد خاتم الرسل الذي أرسل للعالمين كافة وحمل برسالة صالحة إلى يوم الدين، فهو على هذا الأساس دين يستوعب كل الملل التي تؤمن بالله واليوم الآخر من أهل الكتاب وغيرهم، وهي ملل تختلف شعائرها الدينية عن شعائر الملة المحمدية بما فيها الصلاة، لذا ترك الله المجال للرسول لبيان تطبيقاتها العملية للمؤمنين من ملته, على غرار صلاة إبراهيم التي كانت معروفة لديهم. فالتنزيل يبين أن هذه الشعيرة كانت موجودة قبل الملة المحمدية في قوله تعالى {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} (الحج ٢٦)، حيث ذكر هيئاتها من قيام وركوع وسجود، لكن بترتيب يختلف من ملة إلى أخرى، فنجده في قوله تعالى {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} (آل عمران ٤٣) حين

يخاطب مريم ويطلب منها السجود قبل الركوع وهي صفة صلاة النصارى، على عكس ما جاء من تسبيق الركوع على السجود، وهي الصفة التي طلب من المؤمنين من أمة محمد القيام بها في صلاتهم في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الحج ٧٧) هذا التمايز في هيئات الصلاة يبين تمايز صفتها من ملة إلى أخرى كقوله تعالى {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا} (الإسراء ١٠٧) إذ تذكر الآية هيئة مختلفة في السجود عن تلك التي يمارسها أهل الملة المحمدية وهي هيئة السجود للذقن كما يفعل النصارى. فالصلاة شعيرة تعبدية تختلف من ملة إلى أخرى لذا أسند الله مهمة بيان تطبيقها العملي للرسول ليوضحها لأهل ملته، على غرار صلاة إبراهيم من قيام وركوع وسجود ولم يتم ذكرها بالتفصيل في التنزيل الحكيم. لكننا بالمقابل نرفض ما جاء من أحاديث منسوبة للنبي (ص) حول الإسراء والمعراج وماصاحبها من فرض لعدد ركعاتها وأوقاتها فكلها أحاديث هلامية ومتناقضة مع التنزيل الحكيم، لأن النبي (ص) بيَّن التطبيق العملي لأمته بتوجيه من الله على ملة إبراهيم الموروثة، واكتفى في التنزيل الحكيم بإعطائنا أوقات الصلاة على الملة المحمدية لأن هذه الأوقات لم تكن معروفة في ملة إبراهيم. لذا فالأمة المحمدية لم تكن يوماً بحاجة إلى كل تلك الأحاديث الخرافية الواردة عن الإسراء والمعراج والمنسوبة للنبي. علماً بأن الاحاديث حول الإسراء تتضمن خرافات وتفصيلات لاعلاقة لها بالإسراء الوارد في التنزيل الحكيم.

كما نفهم لماذا شرح التنزيل الحكيم الوضوء ولم يشرح طريقة الصلاة كما يؤديها المؤمنون من ملة محمد، وذلك لأن الوضوء عبادة سابقة عن الصلاة ومرتبطة بها مباشرة وهو خاص بالملة المحمدية فقط دون الملل الأخرى، إذ لا يوجد وضوء في صلوات الملل الأخرى. وعندما ذكر الوضوء ربطه بالمؤمنين من أمة محمد حصراً دون غيرهم في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ..} (المائدة ٦) ليبين لهم كيف يتم الوضوء كعبادة على ملتهم فقط.

وهكذا بترك مجال الصلاة مفتوحاً في التنزيل الحكيم, فبعدم تعيينها فيه وربطها بصلاة الملة المحمدية يتحقق الهدف من كون التنزيل الحكيم وحياً جاء للعالمين أجمعين على اختلاف مللهم وشعائرهم، لأنه لو ذكرها على هيئتها الخاصة بالملة المحمدية لأدى ذلك إلى إلغاء صلوات الملل الأخرى، وصار التنزيل خاصاً بأمة النبي محمد ووحياً لملته فقط، وهذا لا يمكن لأن الوحي جاء للعالمين أجمعين مهما كانت مللهم ومهما اختلفت هيئات صلواتهم. لذا فإن إقامة الصلاة الشعائرية كما

بينها النبي (ص) هي من أركان الإيمان بالرسالة المحمدية. وليس كما ورد في صحيح البخاري أنها من أركان الإسلام.

٣- الزكاة

شعيرة لها علاقة بشهوة التملك والمعاملات المالية بين الناس ومدى التزام الإنسان بعلاقته مع الآخرين. والزكاة كما جاءت في التنزيل الحكيم هي للمسلمين ولغير المسلمين كقوله تعالى عن المسيح {.. وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} (مريم ٣١) وقوله عن إسماعيل {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ..} (مريم ٥٥) فالزكاة من الناحية اللغوية تعني النماء والزيادة والطهارة "التزكية". وبمعنى التزكية جاءت في قوله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا..} (التوبة ١٠٣) وهذا ما نستعمله في المصطلح الحديث بأن فلاناً زكى فلاناً أي شهد بصلاحه من ناحية الكفاءة والأمانة لمنصب ما.

فالزكاة في معناها العام هي الزيادة والنماء. وهكذا نفهم مفهوم زكاة المال، وكيف جاءت الزكاة في الإسلام وقبل الإسلام في نفس المصطلح. هنا نلاحظ دقة التنزيل الحكيم في الزكاة بأنه تركها مفتوحة من ناحية الكم وكيفية الجباية، ولكنه وضع لها حداً أدنى ومازاد عنه فهو صدقات، لذا فمصطلح الصدقات أعم من الزكاة، وحددها بشكل دقيق من ناحية الإنفاق. وأعتقد أن هذا الإطلاق والتحديد للسبب التالي:

أ- الإطلاق من حيث الكم والكيف في الجباية: بما أن الزكاة مال يدفع على شكل نقدي أو عيني، فإن الوضع الاقتصادي التاريخي وبنية الدولة التاريخية يؤدي دوراً هاماً في الكم والكيف. فقد حدد النبي (ص) الزكاة بأنها ١/٤٠ أي ٢.٥% وأعتقد أن هذا التحديد هو حد أدنى للزكاة "للصدقات" لا كحد أعلى، أما من يدفع الزكاة ومن لا يدفع فهذا متروك للظروف الموضوعية الاقتصادية والاجتماعية ويحدد من قبل المجتهدين حسب هذه الظروف. أما من يجبي الزكاة فقد تمت جبايتها لأول مرة من قبل الدولة، حيث أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل. فوقع تأسيس الدولة العربية على عاتق الإسلام. وكانت الزكاة هي أول دخل رسمي للدولة إذ ربط الدولة بأمر تعبدي من الناحية المالية، ولكنه كان ربطاً مرحلياً، إذ بعد نمو الدولة وإيجاد دخول أخرى لها كان يمكن للدولة أن تشكل ميزانيتها بدون أموال الزكاة. وتحديد أوجه الإنفاق للزكاة أكد أن للدولة مهمة أكبر من الأوجه التي تنفق فيها الزكاة، ففي عصرنا الحاضر هناك المنشآت المدنية مثل الطرق والجسور وسكك الحديد والموانئ والهاتف والكهرباء وتمديدات مياه الشرب والمياه المالحة، ومنشآت البحث العلمي

والجامعات والمدارس والمشافي والبلديات وغيرها، كل هذه البنود لا تدخل تحت بند الزكاة ولكنها تدخل كلها أو جزء منها ضمن مسؤولية السلطة حسب بنية الدولة الاقتصادية.

ومن السذاجة بمكان الظن بأن الزكاة ضريبة، أو أنها مصدر الدخل في الدولة الإسلامية. إذ قد تكون هناك دولة مبنية على أسس إسلامية دون أن تجبي زكاة من أحد، وهذا يقودنا مباشرة إلى تحديد أوجه الإنفاق للزكاة.

ب- التحديد في الإنفاق: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة ٦٠).

لقد جاء هذا التحديد للإنفاق لكي يؤكد أن الزكاة ليست ضريبة للدولة وليست البديل للضرائب ولنفقات الدولة، ويمكن أن تكون دخلا للدولة في ظروف تاريخية معينة كما حدث عند قيام الدولة العربية الإسلامية، حيث كانت الصدقات هي الدخل الوحيد للدولة الفتية لذلك جاءت في سورة التوبة.

من ناحية أخرى جاء هذا التحديد لكي يؤكد ويرد على بعض المزايدين بأن الإسلام يعترف بوجود الفوارق الطبقية أي أن هناك يداً عليا ويداً سفلى. هذا صحيح، فالإسلام يعترف بوجود فروق الدخل بين الناس لأن هذا واقع موضوعي، والإسلام لايدور في الأوهام ولا الطوباويات، وعليه فإن مسألة الغنى والفقر دائماً مسألة نسبية وليست مطلقة تتبع الظرف التاريخي والبنية الاقتصادية لمجتمع ما. وإذا نظرنا إلى كل دول العالم دون استثناء مع أنها ذات بنى اقتصادية مختلفة رأينا أن مسألة الغنى والفقر لها وجود نسبي في كل هذه الدول، وأنها تأخذ مظاهر مختلفة حسب بنية الدولة والمجتمع. الإسلام يؤمن بالمساواة المطلقة بين الناس في إنسانيتهم وحقهم في الحياة والحرية بغض النظر عن عقائدهم وعن مركزهم الاجتماعي والاقتصادي، وبأن الحياة والحرية هبة من الله لعباده، ولكنه يقر بفوارق الدخل والدرجات بين الناس انطلاقاً من قوانين الجدل المادي، حيث أن قانون التأثير والتأثر المتبادل لا يمكن أن يعمل بشكل ٥٠% و٥٠% بأن يؤثر X على Y وتبقى العلاقة بينهما علاقة تقابلية زوجية غير تناقضية. فإذا كانت X تؤثر على Y كلياً دون تأثير مقابل من Y على X فهنا يحصل الخلل، أي كلما ضعفت العلاقة المتبادلة بينهما زاد الخلل.

وقد يقول قائل: إذا كان الدخل القومي كله بيد الدولة، فهل تلغى الزكاة؟ الجواب: لا، لا يمكن للسببين التاليين:

- لا تلغي على مستوى فردي لأنه لا يمكن أن تكون هناك دخول متساوية بين الأفراد لأن التفكير بهذا الاتجاه هو ضرب من ضروب العبث.

– إذا نظرنا إلى أوجه صرف الزكاة، فمن المستحيل قطعياً إلغاؤها من أي مجتمع مهما كان نوعه ودرجة رقيه. فحسب التطور الاجتماعي والاقتصادي يمكن إلغاء جزء من هذه البنود كما حدث أن ألغى عمر بن الخطاب (رض) بند ''المؤلفة قلوبهم'' حيث امتنع عن الدفع لهم من أموال الزكاة لزوال سبب الدفع.

ننتقل الآن لنناقش ماهي الأوجه التي لا يمكن أن تلغى في أي مجتمع مهما كان نوعه:

١– الفقراء والمساكين: لقد ميز التنزيل الحكيم بين الفقير والمسكين، حيث أنهما حالتان مختلفتان تماماً. فالفقير جاء من أصل ''ف ق ر'' وهو في اللسان العربي أصل صحيح يدل على انفراج في شيء من عضو أو غير ذلك، ومنه جاءت الفقار للظهر الواحدة فقرة، ومنه جاء العمود الفقري، ومنه اشتقت كلمة الفقير وهو المكسور فقار الظهر من ذلته. فالفقير هو الإنسان المذلول من قلة الدخل كأنه قصم ظهره، ولكن هذا الإنسان ليس مسكيناً بالضرورة. فمصطلح الفقير مصطلح متطور حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية للمكان والزمان الذي نعيش فيه، لذا وجب علينا عدم التقيد بمصطلح الفقير الذي وضعه الفقهاء في عصور سابقة لأنه قد لا ينسجم مع معطياتنا المعاصرة، وعلينا أن نحدد مصطلح الفقير وفقاً للشروط الموضوعية التي نعيشها نحن لا وفق الشروط التي عاشها السابقون. فمثلا يمكن دمج الأيتام الذين لا معيل لهم ضمن الفقراء والصرف على مؤسسات رعاية الأيتام من الزكاة.

أما المسكين فقد جاء من أصل ''س ك ن'' ومنه جاء السكون والمسكن، المكان الذي يسكن فيه الإنسان ويهدأ. فالمسكين هو الإنسان القليل الحيلة الذي فيه سكون نسبي عن غيره كالأعمى والأصم الأبكم والمقعد والقاصر عقلياً أو فاقد أحد أعضاء الحركة كاليد أو الرجل أو الكف. كل هؤلاء الناس يدخلون تحت بند المساكين. هنا نلاحظ كيف أنه يمكن للإنسان أن يكون فقيراً ولايكون مسكيناً والعكس صحيح. قد يسأل سائل: إذا كان الإنسان مسكيناً غير فقير فلماذا نساعده؟ الجواب: هل يمكن لإنسان واحد أعمى أن يفتح مدرسة لتعليم نفسه ويؤهل نفسه للعيش في المجتمع؟ وقس على هذا. حيث أن كل مؤسسات تأهيل المساكين ورعايتهم تأخذ أموالها من الزكاة.

٢– الغارمين: هم الناس الذين وقع عليهم غرم ولا يستطيعون سداده كتأدية الدية للقتل الخطأ. لذا وجب علينا تحديد الغارمين وفق شروطنا المعاصرة. وهنا يجب علينا أن ننبه إلى نقطة مهمة جداً هي أن الغارمين في الإسلام تسدد غراماتهم من الزكاة وليس على حساب المتضررين من الناس، أي أن حقوق الناس أمانة في عنق الدولة ولايجوز لها أن تعفو مجاناً عن الذين تسببوا في الضرر للآخرين

نيابة عن المتضررين. وإذا أرادت أن تعفو عنهم فعليها أن تسدد عنهم التزاماتهم، لذا جاء بند الغارمين كأحد بنود الزكاة.

٣– ابن السبيل: هم الناس الذين انقطعوا أثناء السفر كأن سرقت نقودهم وانقطعوا.

ذكرت هنا أربعة بنود فقط من بنود صرف الزكاة، لأنه لا يمكن أن يخلو مجتمع مهما كان نوعه من هؤلاء الناس "الفقراء حسب تعريف معاصر، والمعوقين بكل أنواعهم، والغارمين، والمقطوعين في السفر". ولعل أدق تعريف للفقير" أنه الإنسان غير القادر على سداد أي قرض مهما كانت قيمته نسبة للظروف الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه.

لقد جاءت بنود صرف الزكاة صريحة لكي يؤكد سبحانه حقوق هؤلاء الناس على مجتمعهم حيث أن هذه الحقوق لا مزاح فيها.

فإذا كان الدخل القومي كله بيد الدولة فهذا يعني أن ٢.٠% من ميزانية الدولة كحد أدنى يجب أن ينفق على هذه البنود. فلنتصور الآن مدى رقي العلاقات الإنسانية في دولة من هذا النوع. فإذ كانت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل لها ميزانية لا تقل عن ٢.٥% من ميزانية الدولة ككل، ومهمتها رعاية هؤلاء فقط، فهذا مؤشر كبير للمستوى الحضاري للدولة.

هنا أريد التنبيه إلى أن على المجتهدين المعاصرين إعادة النظر بنصاب الزكاة، ومن يدفع، وعلى ماذا تدفع الزكاة، وتعريف الفقير والغارم، وتحديد طرق الجباية، وعدم الاعتماد فقط على الفقهاء القدامى حيث أن شروطنا الاقتصادية ومتطلبات الحياة والعلاقات الإنتاجية أصبحت متغيرة تماماً عن العصر الذي عاش فيه الفقهاء القدامى.

٤– الصوم

الصوم من الناحية اللغوية هو الامتناع عن الكلام، كقولنا صام الديك أي امتنع عن الصياح. وهذا المعنى جاء في قوله تعالى {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} (مريم ٢٦) ثم جاء معنى الصوم في الملة المحمدية محمولاً على الامتناع عن الطعام والشراب والنكاح من الفجر حتى الليل في شهر رمضان. وأصبح الصوم بذلك عند هذه الملة تحديداً عبادة لها علاقة بالغريزة الإنسانية في الطعام والشراب والجماع الجنسي. بينما كان عند ملة النصارى من قبل عبادة لها علاقة بالامتناع عن غريزة الكلام، فالصوم أساسه سيطرة العقل والإرادة الإنسانية الواعية على الغرائز البشرية غير الواعية بشكل عبادة شخصية فردية بحتة.

وقد جاء ذكره في التنزيل الحكيم متنوعاً ليبين التنوع والتمايز الموجود في الشعائر بين مختلف الملل الدينية كما في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة ١٨٣).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل هناك حدود في الشعائر؟ الجواب: إن الشعائر أيضاً تخضع لنظرية الحدود، إذ نرى أن الشعائر وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة تخضع للحدود:

١– الصوم: الحد الأدنى هو صوم رمضان ولايوجد حد أعلى وله رخصة لاجتيازه تسمى فدية، وللإنسان حرية الاختيار بين الصوم والفدية والحد الأدنى في الفدية هو إطعام مسكين.

٢– الزكاة: لقد وضع النبي (ص) الحد الأدنى للزكاة وهو ٢.٥% وبما أن هذه النسبة هي من وضع النبي (ص) وهي من الحدود فيجب التقيد بها كحد أدنى، فهي متغيرة صعوداً، لذا جاء مصطلح الصدقات أعم من الزكاة.

٣– الحج: الحد الأدنى مرة واحدة في العمر على المستطيع.

٤– الصلاة: لم يرد الحد الأدنى للصلاة صراحة في التنزيل الحكيم على أنه الأوقات الخمس "الصبح، الظهر، العصر، المغرب، العشاء" ولكن ورد صراحة صلاة الجمعة وتم الحث بشكل مؤكد على إقامة الصلاة. أي أننا حسب منطوق التنزيل الحكيم يمكن أن نحدد ثلاثة مستويات للصلاة:

– المستوى الأول– صلاة الجمعة جاء أكبر تأكيد عليها صراحة في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ..} (الجمعة ٩).

– المستوى الثاني – الصلوات الخمس {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} (المؤمنون ٩ – المعارج ٣٤).

– المستوى الثالث – النفل والتطوع {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} (الفرقان ٦٤).

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الشعائر في الإسلام هي من التقوى الفردية لا الاجتماعية، أي أنها تخص كل إنسان على حده ولاعلاقة لها بالسلطة أو بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

٥– الوضوء: الحد الأعلى والحد الأدنى جاءا في الآية رقم ٦ من سورة المائدة. الحد الأعلى للوضوء كما ورد في أول الآية، والحد الأدنى التيمم، والاجتهاد هو الحركة بينهما. ويمكن أن يكون الحد الأعلى للوضوء هو الاغتسال والحد الأدنى هو التيمم.

الفرع الثالث: الفرقان أو الوصايا العشر "القيم الإنسانية"

تمهيد

الفرقان هو التقوى الاجتماعية، وهو القيم الإنسانية المشتركة في الملل السماوية الثلاثة، لذا فرقها الله لوحدها وسماها "الفرقان". وعلى المسلم أن يتعامل مع المسلم وغير المسلم على هذا الأساس لا على أساس التقوى الفردية التي تعتبر العبادات من ضمنها. والفرقان هو الصراط المستقيم بالنسبة لموسى، والحكمة بالنسبة لعيسى، وهو مع الحدود يشكل الصراط المستقيم بالنسبة لمحمد (ص).

"التعاليم اليهودية + التعاليم المسيحية + التعاليم الإسلامية" القاسم المشترك فيها = الفرقان.

ويجب أن نميز بين نوعين من الفرقان: الأول الفرقان العام، والثاني الفرقان الخاص. حيث أن الفرقان العام هو الحد الأدنى من التعاليم الأخلاقية الملزمة لكل الناس، وهو القاسم المشترك بين الأديان، وفيها تتحقق التقوى الاجتماعية. كما أن هناك فرقاناً خاصاً جاء لمحمد (ص) هو فقط للذين حققوا التقوى الاجتماعية بحدها الأدنى "أي الفرقان العام" ويريدون زيادة في ذلك، أي يريدون أن يكونوا أئمة للمتقين. و قد ذكر الفرقان الخاص في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الأنفال ٢٩) هنا نلاحظ أن الفرقان الخاص جاء منكراً في هذه الآية، حيث تم تعريفه وتحديد بنوده في سورة الفرقان من الآية ٦٣ إلى الآية ٧٦.

أولاً: الفرقان العام

لقد جاء الفرقان العام مختصراً في سورة الأنعام في الآيات التالية:

– {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الأنعام ١٥١).

– {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الأنعام ١٥٢).

– {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام ١٥٣).

وقد جاء الفرقان مشروحاً في سورة الإسراء "سورة مكية".

هذه الوصايا العشر هي الأخلاق وهي رأس التقوى الاجتماعية، لنشرحها الآن بالتفصيل، كل وصية على حده:

الوصية الأولى

{أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}

هنا قال لا تشركوا به شيئاً ولم يقل لا تكفروا به شيئاً فما الفرق بين الشرك والكفر؟

– الشرك والكفر

الشرك جاءت من فعل (شرك) ولها في اللسان العربي أصل واحد هو جعل شيء نداً لشيء ومكافئاً له، ومنه جاءت الشركة والشراكة كقوله تعالى {وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} (طه ٣٢) وقوله {.. فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ..} (النساء ١٢) فالله سبحانه وتعالى له أسماء حسنى. منها "الباقي" أما غير الله فهو دائم. وقد شرحت معنى الديمومة في وحدة التقطع والاستمرار. فالدائم هو دائم التغير في حركة تقطع واستمرار على محور هو الزمن. فالعرب قبل الإسلام كانوا مشركين ولم يكونوا كافرين، والكون متغير متحرك دائماً ولايوجد أي ثبات في هذا الكون.

أما الله سبحانه وتعالى فهو ثابت، وعندما عبد العرب الأصنام نسبوا للحجارة صفة إلهية هي الثبات. هذا التثبيت كان بالطبع تصوراً باطلاً في أذهانهم، ومن هذا المنطلق كان للشرك مظاهر كثيرة جداً في تثبيت الظواهر الطبيعية والاجتماعية ووضع صفة الأبدية لظاهرة ما وخاصة لهذا الكون الحالي، وعدم الأخذ بعين الاعتبار ظاهرة التطور، وأن التسبيح "الجدل الداخلي" هو شكل الوجود المادي الحالي حيث أن الشرك له مظهر خاص به يتجلى في الطاعة والالتزام كقوله تعالى {.. وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام ١٢١) فللشرك نوعان:

١– الشرك الظاهر "شرك الألوهية": كعبادة الأصنام ومظاهر الطبيعة وعبادة الفرد "التأليه" وعبادة الهوى وتثبيت التشريع وشكل الدولة، حيث أن التشريع متطور دائماً "حنيف" ضمن حدود الله {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ..} (الجاثية ٢٣) والاعتقاد بأن الأموات لهم قدرة المساعدة والعطاء كزيارة قبور ما يسمى بالأولياء وتقديم النذور لهم. ففي هذا قال تعالى {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} (النساء ٤٨).

٢– الشرك الخفي "شرك الربوبية": وهو تثبيت مظاهر الطبيعة وحركة التاريخ عند مرحلة معينة والاعتقاد بثبات الأشياء والظواهر الاجتماعية، أي جعل الطبيعة والظواهر الاجتماعية متكافئة مع الله في البقاء. وهذا النوع يقع به كثير من الناس، وقد بيَّنه تعالى بقوله {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} (يوسف ١٠٦) وقول النبي (ص) إن صح "اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل". فالعرب قبل الإسلام كانوا واقعين في نوعين من الشرك الظاهر والخفي. أما الظاهر فقد تجلى

بالوثنية. وأما الخفي فقد تجلى بالثبات على الوضع القبلي العشائري، وعدم التطور والتقدم. كل هذا حصل وهم لا يقرون بأنهم مشركون، حيث أن الشرك لا يحتاج من صاحبه أن يعلن عنه لأنه لسان حال لا لسان مقال.

لنبين الآن كيف ربط سبحانه الشرك بالثبات والتوحيد بالتطور. فقد أعلمنا أن الأمثال في التنزيل الحكيم كلها قرآن، وأنه في كل مثل من أمثال القرآن يعطينا قانوناً موضوعياً بقوله تعالى {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ..} (الزمر ٢٧، الروم ٥٨) وبين لنا أن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العلماء بقوله {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (العنكبوت ٤٣) ثم ضرب لنا مثلاً على الشرك بقوله تعالى {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا} (الكهف ٣٢– ٣٨).

ونفهم من هذه المحاورة الرمزية بين رجلين أحدهما له وضع نموذجي من شجر وزراعة ومياه وغلة، والآخر لم يكن له ذلك، فظن الأول أن هذا الوضع يحمل صفة البقاء والأبدية لذا قال: "ماأظن أن تبيد هذه أبداً". لكن هذا الموقف يؤدي مباشرة إلى نكران الساعة واليوم الآخر حيث أن الساعة والصور هما تغير كامل في صيرورة الكون ينشأ على أنقاضه خلق "تصميم" جديد للكون لذا أتبعها بقوله "وماأظن الساعة قائمة" أي أصبحت الساعة ليس لها معنى، أو أنها أصبحت أمراً احتمالياً مشكوكاً فيه بقوله "ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً" هذه الأطروحة باحتمالية الساعة موجودة الآن عند كثير من الناس بقولهم، إننا نؤمن بالساعة واليوم الآخر فإذا كان هناك ساعة ويوم آخر فنحن الرابحون، وإذا لم يكن هناك ساعة ويوم آخر فلا نخسر شيئاً.

زعم المنجم والطبيب كلاهما أن لا معاد فقلت ذاك إليكما

إن صح زعمكما فلست بنادم أو صح زعمي فالوبال عليكما

إن هذا مما لا يصح لمسلم أن يقع فيه لأن الساعة والصور واليوم الآخر هي كلمات الله، والمسلم على ثقة ويقين بحدوثها كثقته ويقينه بوجوده هو في هذه الحياة الدنيا، وثقته بوجود هذا العالم المحيط به من شمس وقمر ونجوم ومجرات.

وعندما رد عليه صاحبه رد عليه بموقفين: الأول اتهمه بالكفر بقوله "أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً" حيث غطى وتجاهل قانون التطور وتغير الصيرورة مع علمه بأن هذا القانون موجود موضوعياً. أما الثاني فاتهمه بالشرك بقوله "لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً" لأن من يؤمن بثبات الأشياء والمجتمعات وعدم التغير الدائم في صيرورتها فموقفه موقف مشرك بربوبية الله وناكر لقانون تسبيح الأشياء لله، أما من يؤمن بثبات الوثنية وعبادة الفرد من ولي أو زعيم أو فقيه بعد موته فهو شرك بالألوهية، لأن الشرك بالألوهية يتولد عنه طاعة والشرك بالربوبية يتولد عنه قناعة ونظرة إلى الكون. ومن باب توحيد الربوبية قال تعالى {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ..} (الأنعام ١٦٤) وقال {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ..} (الإسراء ١١١). فعبادة الأفراد بتحويلهم إلى أصنام لا تتحدث بل يجعل لها سدنة يتحدثون باسمها، وهذا هو الواقع عندنا في المجتمعات العربية من تحويل الصحابة والفقهاء إلى أصنام تعبد من دون الله. وقد أعطوا الرسول (ص) حق التحليل والتحريم، فصار بذلك شريكاً لله.

لهذا يجب أن ينتبه الإنسان المسلم إلى أنه لا يوجد أي ثبات في الأشياء والمجتمعات والصناعات والاختراعات والأفكار إلا ما جاء من عند الله في الحدود، وأن كل شيء متحرك متغير الصيرورة يسبح الله، وأن الثوابت لا تأتي إلا من الله. فكل الطاعات لغير الله نسبية مرحلية ولكي يخلصنا الله من هذه الأزمة وهي طاعة المطلق وضع لنا العبادات التي هي صلة العبد مع المطلق وهي ثابتة، لذا نقول لا يعبد الله إلا بما شرعه هو لنا لأننا نسبيون، هذا الثبات المستقيم في العبادة والأخلاق والحدود لكي يمارس الإنسان فطرته الحنيفية من خلالها، فالشرك بتعريفه العام "الثبات في هذا الكون المتحرك" إنكار لقانون التسبيح ووقوف ضد التطور، وهذا شرك الربوبية، وتثبيت لتشريع غير الله وهذا شرك الألوهية كتثبيت مذهب أو مذاهب فقهية معينة وعدم تطوير التشريع بشكل عام لكي يتناسب مع الشروط الموضوعية المتطورة دائماً.

فشرك الربوبية هو من الشرك الخفي، وشرك الألوهية من الشرك الظاهر وهذا ما لا يسامحنا الله عليه.

من هذا المنطلق ربط لنا الشرك الظاهر والخفي بالظلم بقوله تعالى {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ..} (الكهف ٣٥) وقوله {.. يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان ١٣) وربط الشرك الظاهر لاتباع الذين يدعون الطاعة المطلقة بقوله {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ..} (الأحقاف ٤). فكيف ربط الشرك بالظلم، والظلم في اللسان العربي يعني "وضع الشيء في غير محله عن غير قصد أو عنوة" فسكونية الفكر والفقه والتفسير هي من أول مظاهر

الشرك الخفي عند العرب حيث أنهم أعطوا الموروث صفة المطلق وأكبر مظاهر الشرك قاطبة هو سكونية الفكر (static state of mind) فالتخلف شرك والتقدم توحيد. أي أن الإنسان المسلم حتى يبتعد عن الشرك عليه أن ينكر ظاهرة الثبات في الأشياء وفي المجتمعات وفي القوانين التشريعية، ويجب أن يؤمن أن كل شيء متحرك، ماعدا العبادات والحدود في شكلها ومحتواها والأخلاق في محتواها التي تشكل الصراط المستقيم "الثابت". وأن أي ظاهرة أو قانون يعيق التطور والتقدم فعلى المسلم أن يكافحهما بشدة ويحنف عنهما، فلا ثوابت في المجتمعات وفي الدول وفي القانون وفي السياسة، لأنه حين نثبت فإننا نقع في الشرك والظلم. فمثلا إذا كان هناك قانون صدر منذ مئة سنة ومازال ساري المفعول إلى اليوم، واختلفت الشروط الموضوعية لتطبيقه وهو ساري المفعول فهذا شرك وفيه منتهى الظلم... وقس على هذا.

لهذا فإنه لا ثوابت في شعاراتنا الإسلامية إلا "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" حيث لا يوجد شعار مختصر مفيد جامع مانع كهذا الشعار الذي يدمج كل قوانين التطور والتقدم والعدالة في جملة واحدة فلا قوالب جاهزة إلا هذا الشعار، وهذا ما يجب أن تسعى إليه أي دولة عربية إسلامية في دستورها، حيث يجب أن تنص أول مادة في الدستور على مايلي:

كل القوانين التي تصدر في الدولة يعاد النظر فيها كل سبع سنوات "مثلا" بحيث إذا لم تصدر مرة أخرى معدلة أو بدون تعديل ولم يعد النظر فيها تصبح غير نافذة المفعول، على شرط أن تكون هذه التشريعات ضمن حدود الله.

إن نصاً من هذا النوع في دستور الدولة العربية الإسلامية يدل على مصداقية عقيدة التوحيد عندها، ويجعل المشرعين والقانونيين في حالة عمل دائم دون كسل وخيبة، وفي الوقت نفسه تصبح الأحزاب والمنظمات الشعبية والنقابية والصحافة ذات فعالية كبيرة، فمن خلال مؤتمراتها وصحفها تدعو إلى تعديل القوانين لأنها قانعة ومتأكدة بأن دستور دولتها ينص على إعادة النظر بالقوانين وإلا فإنها ستفقد مفعولها. هذه المادة هي لتفادي الشرك الخفي.

أما المادة المخصصة لتفادي الشرك الظاهر "شرك الألوهية" فهي:

أ- لا يوجد في الدولة العربية الإسلامية طاعة مطلقة ولاحكم مطلق ولابقاء أو استمرارية، وكل واحد يسمع منه ويرد عليه، وإن الطاعة المطلقة هي لحدود الله، والطاعة النسبية هي للقوانين المتحركة المتبدلة دائما ضمن الحدود، وإن حرية الفكر هي من أقدس المقدسات في هذه الدولة.

ب- إن الدولة العربية الإسلامية مبنية على البينات المادية الموضوعية، لذا فإن منهج التفكير الموضوعي والبحث العلمي والتطور والتصور المبني على التصديق، لا التصديق المبني على

التصور هو الذي يحدد خط سير الدولة، والالتزام بهذا المنهج هو الذي يحدد مصداقية الناس في هذه الدولة بغض النظر عن الحسب والنسب وموقع المسؤولية الذي يشغله أي شخص.

هاتان السمتان هما اللتان تحددان بنية الدولة العربية الإسلامية بغض النظر عن البنية الاقتصادية التاريخية لأنهما صالحتان لكل البنى الاقتصادية.

لقد عرفنا الشرك بكل جوانبه الظاهرة والخفية. فما هو الكفر؟ هل يمكن أن يكون كل مشرك كافر؟ أو كل كافر مشرك؟

جاء لفظ الكفر من أصل (ك ف ر) ويعني في اللسان العربي "التغطية والستر ونكران الموجود "الحقيقة" عن سابق معرفة أو جهل" ومنه جاء اسم "الكفر" وهي القرى المغطاة بثنايا الجبال، وجاء اسم الكفر للمناطق الزراعية النائية.

فجاء فعل "كفر" بالمعنى اللغوي المادي المباشر في قوله تعالى {.. كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا..} (الحديد٢٠) هنا جاءت "الكفار" بمعنى الناس الذين يعملون في الزراعة، يحفرون الأرض ويضعون البذار ثم يغطونه ويسترونه.

وجاء أيضاً بمعنى التكفير والكفارة والكفران وهو التغطية عن سابق معرفة في قوله تعالى {.. لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..} (آل عمران ١٩٥) وقوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ..} (العنكبوت ٧). هنا نكفر أي نغطي ونستر عن سابق معرفة وهو ما نسميه اليوم التغاضي عن سابق معرفة. أما الكفارة فهي عمل لستر الذنب كقوله تعالى {.. أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ..} (المائدة ٩٥). وعندما أخبر بأن الله لا يغطي ولا يستر للناس أعمالهم الصالحة قال {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ..} (الأنبياء ٩٤).

الكفر بمعناه العقائدي هو تغطية وستر للحقيقة عن معرفة وتجاهل، ويعبر عن هذا الموقف بلسان مقال لا بلسان حال. فالعرب قبل الإسلام كانوا مشركين شرك ألوهية، وكان الشرك لسان حال حياتهم وسلوكهم دون أن يقولوا ويعلنوا أنهم مشركون، بل على العكس كانوا يعلنون بقولهم {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ..} (العنكبوت ٦١). ولكنهم عندما يعلن بعضهم عن ذلك بلسان مقال من قول أو تصرف أو موقف "سلوك معادي" يصبحون بالإضافة إلى شركهم كافرين كما في قوله تعالى {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} (التوبة ١٧) فالآية تبين أنه عندما يعبر المشركون بلسان المقال والموقف عن الشرك يوصفون بالكافرين.

أما بالنسبة لمحمد (ص) فقد كان من العرب، ورفض الواقع الذي كانوا يعيشون فيه ولكنه لم يعلم ما هو البديل، أي أنه رفض الواقع المشرك دون معرفة البديل، هذا قبل الإسلام. وعندما جاءه الوحي أعطاه البديل، لذا قال تعالى عن محمد (ص) ووضعه قبل الإسلام {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآَنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف ٣) وقال {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ..} (الشورى ٥٢) لذا فإن ظاهرة الرفض في أي مجتمع هي ظاهرة تسبق تقديم البديل، وهذه الظاهرة هي من الإرهاصات الصحية لأي ثورة أو حركة إصلاحية.

وعندما بعث محمد (ص) انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١– قسم آمن به هم المؤمنون.

٢– قسم لم يؤمن به ولم يعبر عن ذلك بلسان مقال فهؤلاء هم المشركون.

٣– قسم لم يؤمن به وأعلن عن ذلك في مواقف علنية عدائية فهؤلاء بالإضافة إلى شركهم أصبحوا كافرين.

هنا يجب أن نفهم تماماً معنى الكفر الذي هو لسان مقال وموقف أما الشرك فلسان حال قناعة وطاعة، مع الإشارة إلى أن الكفر صفة إضافية لصفة الشرك فالكافر مشرك معلن عن شركه قولاً أو عملاً.

وهكذا نلاحظ كيف وصف القرآن الناس الذين وقفوا ضد دعوة الأنبياء بقوله تعالى:

– {.. وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ} (الأحقاف ٣) لاحظ قوله "معرضون".

– {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا..} (العنكبوت ١٢) لاحظ قوله "وقال الذين كفروا".

– {.. وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآَيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ} (الروم ٥٨) لاحظ قوله "ليقولن".

– {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (سبأ ٧) لاحظ "وقال".

– {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآَنِ..} (سبأ ٣١).

– {.. قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا..} (يس ٤٧).

– {فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (الصافات ١٧٠).

– {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا..} (هود ٢٧).

– {.. أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} (هود ٦٠).

لذا قال الله للنبي (ص) {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ..} (التوبة٧٣، التحريم ٩).

– {.. وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (النساء ١٣٦).

على هذا، لا نقول عن منكري الله ورسله واليوم الآخر ملحدين بل هم كفار. ثم لاحظ موقف الكفر كيف جاء بصراحة على أنه لسان مقال وموقف في قوله {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ..} (المائدة ١٧و٧٢)، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} (المائدة ٧٣).

ولاحظ موقف الذي آتاه الله الملك مع إبراهيم حين قال "أنا أحيي وأميت" فقال له إبراهيم "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب" فكان الجواب "فبهت الذي كفر" (البقرة ٢٥٨).

وليبين سبحانه أن الشرك لسان حال وهو غير الكفر قال {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يونس ١٠٥) {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يوسف ١٠٨) {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل ١٢٠) {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل ١٢٣). وقد ورد الشرك والكفر في آية واحدة ولكل لفظ منهما معناه الخاص في قوله تعالى {.. قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} (غافر ٨٤). هنا "كفرنا" أي اتخذنا موقفاً علنياً واضحاً ضد كل مظاهر الشرك، وقوله {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ..} (آل عمران ١٥١).

وأما من حيث القتال فقد أمر الله بقتال المشركين عندما يقاتلون المؤمنين بقوله: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} (التوبة ٣٦). أما الكفار فقد نصح بأشد من ذلك بقوله: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} (التوبة ٧٣، التحريم ٩).

وهكذا فإننا لا نرى في التنزيل الحكيم كله إلا آية واحدة تقول: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا..} (النحل ٣٥). لأنه دائماً يعطي الشرك كلسان حال وقناعة. وآية واحدة تتحدث عن المستقبل تقول {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} (الأنعام ١٤٨). إن هذه الآية في معناها المعاصر وتطبيقها الحالي هي:

١– تعيش أمة من الأمم في وضع سكوني متخلف "شرك خفي" قانوني ومعرفي.

٢– هذه الأمة لا يوجد عندها قوانين متطورة أي أنها تطيع قوانينها البالية المطلقة القديمة "شرك ظاهر".

٣– حرَّم مشرعو هذه الأمة كثيراً مما أحل الله تحريماً دائماً غير ظرفي.

هذه الحال تنطبق على المسلمين تماماً، فالفقهاء المسلمون السابقون حرموا كثيراً مما أحل الله (انظر مبحث المرأة في الإسلام)، لذا قال عنهم قالوا: {وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام ١٤٨). فإذا قلنا للفقهاء الحاليين غيروا هذا الفقه فسيرفضون عندما نقول لهم: {هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} (الأنعام ١٤٨)، فسيخرجون لنا بالآراء التي كتبت في القرنين الثاني والثالث الهجري وسيبتعدون عن آيات التنزيل الحكيم لذا أجابهم سبحانه {.. إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ..}. فالكتاب لا ريب فيه، يقود إلى اليقين، والباقي فيه ريب يقود إلى الظن. وعندما قال تعالى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا..} (الأنعام ١٤٨) نفهم أنهم لم يقولوا بعد من ناحية، ونفهم من ناحية أخرى أنه سؤال استفهامي لم يصل إلى الإنكار بعد. فعندما أتاهم الجواب واتخذوا بعد ذلك موقفاً مضاداً أصبحوا كافرين.

أما قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (النحل ٣٥). نرى فيه جواباً للآية ١٤٨ من سورة الأنعام التي أكد فيها أنه لا محرمات من عند الله إلا ما جاء في الرسالة فقط. فعلينا أن لا نعبث بكلمة حرام فهي كلمة كبيرة جداً وذات أبعاد خطيرة، لأن تحريم ما أحل الله فيه تقول على الله وبالتالي يجعل قائلها نفسه شريكا لله، وهذه حالة أخطر من الشرك بالله بجعل أنداد له، لأنها حالة يجعل فيها من يحرم ما أحل الله نفسه نداً لله، وقد عاتب الله عز وجل الرسول (ص) على تحريم ما أحله الله له في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ} (التحريم ١) وطالما أن الله رفض هذا التصرف من الرسول رغم أنه رسوله فالرفض من غيره أولى.

بناء على ما ذكرنا هناك ملاحظة يجب الإشارة إليها هي أن الشرك ليس صفة لصيقة بصاحبها على الدوام بل هي حالة اعتقادية فقط، وقد تتحول إلى حالة سلوكية تسمى الكفر في حال التعبير عنها بالمقال أو بالفعل، وبالتالي فإن كلتي هاتين الصفتين متغيرتان إذا تغير الموقف الإعتقادي للإنسان. فقد يكون الإنسان مشركاً أو كافراً ثم يتحول إلى التوحيد فتنتفي عنه صفة الشرك أو الكفر، كما أن مفهوم الشرك كما رأينا ليس ثابتاً، لأن المشركين على عهد الرسول كانوا عبدة أصنام أما في عصرنا فهذه الظاهرة ليست منتشرة، وذلك لأن تطور الوعي الإنساني مكّن الإنسانية من الانتقال تدريجياً من عبادة الأصنام والتقرب إلى الله بواسطتها إلى مرحلة التجريد في توحيد الله، فسارت هذه الصفة إلى طريق الانقراض بشكل كبير، وهذا يوجب علينا كأمة محمدية عدم إلصاق تهمة الشرك والكفر بالغير من أهل الملل الأخرى بشكل جزافي، لأن الله وحده فقط يعلم بالسرائر وما تخفي الأنفس، وبالتالي

يستحسن بنا التنزه عن نعت كل أهل الملل الدينية الأخرى بهذه الصفة وتركيب أحكام شرعية بناء عليها بالتحريم عن طريق التقول على الله، فالحكم على الناس هو لله فقط لقوله تعالى:

– {.. إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (يوسف٤٠).

– {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (السجدة ٢٥).

أما الحكم بين الناس فهو للناس يتداولونه بينهم لقوله تعالى {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيرًا} (النساء ٥٨) وعلى هذا الأساس فلا يجب الخلط بين حاكمية الله على الناس وحكم الناس ومحاولة الحصول على السلطة بواسطة الدين، أي بطرح فكرة حاكمية الله للتسلط بواسطتها على رقاب الناس وأخذ شرعية سلطوية من خلالها، لأن هذه الشرعية لم تعطَ لأحد إلا داوود وسليمان لقوله تعالى {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء ٧٩).

وطالما أن الكفر يكون حسب لسان المقال والموقف والسلوك فهو متغير وفق المقال أو السلوك أو التصرف المعبر به عنه، ولذلك نجد له أنواعاً عديدة ذكرت في التنزيل الحكيم:

١– كفر بمعنى الشرك بالله: كما في قوله تعالى {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} (آل عمران ١٥١).

٢– كفر بمعنى النفاق: كما في قوله تعالى {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتمُونَ} (آل عمران ١٦٧).

٣– كفر الاستكبار: وهو الذي في قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (البقرة ٣٤).

٤– الكفر بالآيات الكونية: كما في قوله تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُون} (آل عمران ٧٠).

٥– الكفر مقابل الشكر: كما في قوله تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} (إبراهيم ٧).

٦– الكفر مقابل النعمة: كما في قوله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} (إبراهيم ٢٨).

٧– الكفر مقابل الإنفاق: كما في قوله تعالى {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِينًا} (النساء ٣٧).

لذا لا يجب إلصاق صفة الكفر بأي إنسان إلا إذا أعلن عن ذلك بنفسه وبيَّن ما يكفر به، لأن الكفر ليس مطلقاً بل هو مفهوم مقيد دائماً بالموقف المعبر فيه عن الكفر أي توضيح الكفر بماذا؟ ولا يمكن إطلاق صفة الكفر على أي إنسان إلا بتحديد ما كفر به، أي أن يقال هو كافر بماذا؟ وذلك بعد إعلانه هو شخصياً عن ذلك.

ولذا فإن إطلاق مصطلح دار الكفر ودار الإسلام مصطلح ضبابي تماماً، وقد وضع في حينه لأسباب سياسية بحتة، ويحمل معنى رجراجاً زئبقياً، فهو يعني كل شيء ولاشيء في نفس الوقت، وبالتالي فليس له أية مصداقية واقعية يمكن الاعتماد عليها. لأن مفهوم الكفر في الحروب يصبح وصفاً يتراشق به الأطراف المتحاربة، فكل طرف بالنسبة للآخر كافر لأنه أظهر العداء.

الوصية الثانية

{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}

لقد وضع الله بعد الشرك بالله هذه الوصية، وذلك لسببين:

١– إن أساس الحياة هو التكاثر ثم الانفصال والانتشار. فإذا نظرنا إلى الحياة النباتية نرى أن الشجرة ترعى بذورها حتى تنضج، ثم تنفصل البذرة عن الثمرة الأم لتكون شجرة بنفسها، وقد تشارك هذه البذرة بعد الانفصال الشجرة الأم في غذائها. وإذا نظرنا إلى الحياة الحيوانية رأينا أن الوالدين يرعيان أطفالهما بتقديم الطعام لهم والدفاع عنهم حتى سن معينة، ثم ينفصل الأولاد عن الأبوين انفصالاً كاملاً، وقد يتناحر الأبناء مع الآباء على الفريسة والطعام، وهذه هي سنة الله في خلقه حتى في الإنسان. فالإنسان وهو طفل كائن بشري يسلك سلوكاً حيوانياً وأبواه ومجتمعه يعلمانه، والأم والأب يرعيان الأولاد ثم يكبر الأولاد وينفصلون عنهما وقد يهاجرون إلى مكان آخر بعيد ابتغاء العلم والعمل والرزق. ولقد أمرنا الله من الناحية الإنسانية لا من الناحية البشرية أن نحسن لآبائنا وألا ننساهم، كما تنسى البهائم والديها، ونرعاهم ولانقول لهم إلا قولا حسناً {.. فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا..} (الإسراء ٢٣).

لم يوص الله الآباء بأولادهم لأن حرص الأبوين على الأبناء ليس من الوصايا الإنسانية وإنما هو من الغرائز البشرية حيث قال تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي

عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (لقمان ١٤) {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ..} (الأحقاف ١٥). أي أن عيد الميلاد الثاني للطفل عند المسلمين هو عيد هام جداً، إذ أنه مرحلة بداية الاعتماد على النفس "الفصال". هنا ذكر الفصال في عامين وذكر الحمل والفصال في ثلاثين شهراً، فأورد الحد الأدنى للحمل وهو إتمام ستة اشهر والدخول في الشهر السابع.

٢– إن أساس الحياة الإنسانية هو التقدم والتطور وزيادة المعارف، فالأبوان يعطيان الأولاد معارفهم وخبراتهم المتراكمة، فيأخذ الأولاد هذه الخبرة والمعارف ليزيدوا عليها ويطوروها، وهنا تحصل المصادمة بين الآباء والأبناء بصراع متصالح هو صراع الأجيال. فالأب والأم ينتميان إلى جيل، والأولاد ينتمون إلى جيل آخر، والأب والأم يحاولان جاهدين أن يلزما الأولاد بطريقة المعاش والأعراف والتفكير التي كانت سائدة عندما كانوا شباباً، والأولاد يرفضون هذه الطريقة، ولو أطاع الأولاد الوالدين في هذه المشكلة لوقف تطور الإنسانية عند حد معين ورجعنا إلى المملكة الحيوانية حيث أن الأبناء في المملكة الحيوانية يقلدون الآباء تقليداً طبق الأصل تماماً. وقد حسم الله سبحانه هذا الموقف لصالح التطور والتقدم ولم يعتبره عقوقاً للوالدين بقوله {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت ٨) { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (لقمان ١٥). لقد جاء هذا الحسم في الآيتين العنكبوت ٨ ولقمان ١٥، ففي كلتا الآيتين جاء فعل "جاهداك" فهنا الجهاد لا يعني الأمر أو الطلب وإنما هو أكثر من ذلك فالجهاد عملية مستمرة يومية يبذل فيها جهد، ولكنه مرة قال "لتشرك بي ما ليس لك به علم" والمرة الثانية "على أن تشرك بي ما ليس لك به علم" ففي الحالة الأولى جاء خبر صراع الأجيال كأن يقول الوالدان كنا نلبس هكذا وكنا نفعل هكذا وكانت معلوماتنا عن الطبيعة هكذا، أي المستوى المعرفي القديم، ويطلبان من الأبناء التقيد بذلك "شرك ربوبية" لذا قال "فلا تطعهما" وحسمت لصالح الأبناء. وفي الحالة الثانية يجاهد الوالدان الأولاد على ثبات الطاعة المطلقة لهما أي إشراك أوامرهم بحدود الله بدون أي مجال للاختيار والتصرف "شرك ظاهر" ويضعانها شرطاً للغضب والرضا، فهنا أيضاً حسمت لصالح الأبناء بقوله "فلا تطعهما" ثم أضاف "وصاحبهما في الدنيا معروفاً". أي على الأولاد أن يتبعوا الأعراف السائدة في محاولة طاعة الوالدين وأن يحسنوا إليهما وأن لا يقولوا لهما أف ولاأن يطردوهما "ولا تنهرهما" ولكن على الأبناء

أن يكونوا أذكياء، عندهم حلم وكياسة في معالجة القضية. لذا فقد حسم سبحانه قضية صراع الأجيال لصالح الأبناء من ناحية التطور والتقدم في الأعراف وطرق المعاش والعلم وحسمها لصالح الآباء من الناحية الأخلاقية، وفي هاتين الناحيتين يوجد تمييز عن الحيوان، أي أن الإنسان يجب عليه أن يتطور ويتقدم ولايكون صورة طبق الأصل لوالديه وعليه أيضاً أن يحمل قيماً أخلاقية تجاه والديه، وهاتان الناحيتان مفقودتان في المملكة الحيوانية.

الوصية الثالثة والخامسة

– {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}،

– {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ}.

لا تفهم الوصية الثالثة إلا إذا ربطت وقورنت مع الوصية الخامسة حيث أن كلتيهما تبدأ بأمره تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا}.

ففي الوصية الثالثة جاءت {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ} والولد هو الذكر والأنثى، فالسؤال الأول الذي يطرح نفسه الآن: أليس الولد نفسا؟ لماذا لم يدمج الوصية الثالثة مع الوصية الخامسة؟

والسؤال الثاني هو أنه في الوصية الثالثة حدد الشروط التي حرم فيها قتل الولد وهي من إملاق أي إذا كانت الحالة ليست إملاق فيجوز قتل الولد. أما في الوصية الخامسة فجاءت النفس التي حرم الله، فهذا يعني بالضرورة يجوز قتل النفس التي لم يحرمها الله، ثم وضع شرطا آخر لقتل النفس التي حرمها الله وهو {إِلَّا بِالْحَقِّ}. فهذا يعني أن هناك فرقا كبيرا جوهريا بين الوصية الثالثة والوصية الخامسة. فنشرح الوصية الخامسة وعلى ضوء شرحها سنشرح الوصية الثالثة.

فالنفس جاءت من أصل "نفس" ومنها جاءت النفوس والأنفس والنفس والتنفس. فكل كائن حي يتنفس ويأخذ الأوكسجين بطريقة ما حسب درجة تطوره إما بشكل مباشر بعد الولادة أو بشكل غير مباشر عن طريق دم الأم قبل الولادة بالنسبة للحيوانات العليا ومن ضمنها البشر. فالحيوانات كلها أنفس كائنات حية وكذلك الإنسان بوجوده الفيزيولوجي البشري فهو نفس، فنقول النفس البشرية حيث أن فيها جهاز تنفس. فقد أحل الله لنا قتل الأنفس غير البشرية بقوله: {قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ} (المائدة ٤) وقوله: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ} (المائدة ٩٦) وقوله: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ} (المائدة ١)، {وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}. (الحج ٣٠).

وقد أحل لنا الله سبحانه وتعالى هذه الأنفس بالقتل وحرم علينا أن نأكلها ميتة بقوله: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ} (الأنعام ١٤٥)، هذه الأنفس التي أحل الله لنا قتلها ولم يحلل لنا أكل لحومها إلا بعد قتلها لذا قال: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ} (الأنعام ١٥١). فالنفس التي حرم الله قتلها هي النفس البشرية والنفس الإنسانية.

فالنفس البشرية هي الوجود الحي الفيزيولوجي أو هي الوجود الإنساني ككائن حي فقط والذي يفهم من قتلها هو انتقالها من الحياة إلى الموت عن طريق الشنق أو الذبح أو الجروح أو السم أو إطلاق النار عليها و الحرق.

أما النفس الثانية التي حرم الله قتلها وهي النفس الإنسانية "بشر + روح = إنسان" وهي أن يبقى الإنسان كائنا حيا كبشر ويموت كإنسان أي قتل كل الأحاسيس والمشاعر الخيرة والشريرة معا وتحويله إلى بهيمة أو آلة تماما. هذه النفس التي قال عنها الله: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس ٧–٨). فقتل النفس الإنسانية هو قتل هذه النفس المليئة بمشاعر الفجور والتقوى معا، وتحويل الإنسان إلى بهيمة. هذه النفس التي تقل بالإرهاب والتعذيب والقمع والكذب والغش، لها حقوق أيضا. وقد انتبهت الإنسانية إلى هذه النفس بعد الحرب العالمية الثانية تحديدا حين صدرت عن الأمم المتحدة وثيقة حقوق الإنسان "لا حقوق البشر" حيث أنّ حق البشر هو الحياة والعناية بالصحة الجسدية وحق الإنسان هو الحرية والكرامة والعناية بالصحة النفسية. والفجور والتقوى هي في علاقة جدلية وتمثل النفس الإنسانية والترجيح بينهما لا يأتي إلا عن طريق التربية لذا قال: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس ٩–١٠)، لذا فإن عناية أي مجتمع بأفراده تتضمن العناية بالصحة الجسدية "البشر" والصحة النفسية "الإنسان". هذه النفس البشرية والإنسانية لا يجوز قتلها إلا بالحق، أي يجب أن يقوم الإنسان بعمل يستحق عليه هذه العقوبة، وقد حدد الله هذا الحق في قوله "النفس بالنفس" وقوله أيضا "إلا بالحق". يعني أنّ الذي تريد قتله يجب أن يكون قاتلا تصديقا لا تصورا أي لا يمكن قتل النفس إلا بعد إقامة البينات المادية الموضوعية. أما قتل النفس الإنسانية فقد حرمه الله في كل الأحوال حتى مع المجرمين.

ويجب علينا نحن العرب المسلمين أن نكون واعين لهذه الناحية، لذا علينا أن نعلم أنّ المشافي والخبز والطعام والسكن ليست بديلا لحرية الإنسان وليست ثمنا لهذه الحرية حيث أن كل أمر منها يتمم الآخر ولا يعتبر بديلا لها. والحرية أيضا ليست بديلة للمشافي والطعام والخبز والسكن.

قد يقول قائل إن الإنسان يمكن أن يتنازل عن حريته مقابل الطعام والشراب والسكن، وهذه الأطروحة هي أطروحة القمع والإرهاب. فإذا أخذت حرية الإنسان ولم تعطه الطعام والشراب

والسكن، فكيف يمكن أن يطالب بها؟ إذا أخذت منه حريته وسلبته كل الأقنية التي يمكن أن يطالب بها فيفقد بذلك طعامه وشرابه وحريته معا. ولكن العكس هو الأصح، فإذا أخذ الإنسان حريته من خلال الصحافة والمؤسسات الحرة والأحزاب دون أن يأخذ الخبز والسكن فتبقى عنده إمكانية المطالبة والحصول عليها حيث أن الحياة والحرية الإنسانية هي أغلى ما يملكه الإنسان ولا يمكن مقايضتها بأي شيء آخر.

وهنا يجب أن نتنبه إلى ناحية في غاية الأهمية وهي تجاوز حدود الله في قتل النفس، ذلك أن الحد الأعلى لعقوبة قتل النفس هو الإعدام "النفس بالنفس" وقد شرحناها في مبحث الحدود. أي أنّ الذي يستحق الإعدام هو القاتل عن عمد وقصد ويجب أن تقام البينات المادية عليه لقوله "إلا بالحق". فأي تجاوز من الدولة في غير حالة الحرب لحدود الله في هذه الناحية يؤدي بالضرورة إلى شناعات تقشعر لها الأبدان وهي حملات القتل الجماعية، كأن تكال التهم غير المدعمة بأدلة مادية تحت شعار أعداء الشعب أو أعداء الثورة، وتحت هذه التهم يفتح باب الإعدام لملايين من الناس. وقد حصل هذا في ألمانيا النازية وروسيا الستالينية، حيث قتل الملايين دون إدانات مادية. بل لمجرد مواقف فكرية.

ولننتقل بعد هذا إلى الوصية الثالثة: لقد حرم الله قتل الولد في حالة واحدة وهي الإملاق فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ} (الأنعام ١٥١)، وقال: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} (الإسراء ٣١).

ويبقى سؤال: هل هناك من الوالدين من يقتل ولده حيث أن هذه الوصية موجهة للوالدين؟ وهل إذا قتل الإنسان ولده فهو حر ولا يعاقب؟ أو ليس الولد نفسا وتنطبق عليه الوصية الخامسة؟ هنا لا يمكن تفريق هذه الوصية عن الوصية الخامسة إلا إذا كان الخطاب موجها لمشكلة تخص الوالدين فقط وحصرا. وهذه المشكلة هي مشكلة الإجهاض، لأن الولد يصبح نفسا بعد الولادة فتنطبق عليه الوصية الخامسة ولا يحتاج إلى وصية خاصة وهي تحريم قتل الولد ذكرا كان أم أنثى وهو في رحم الأم وهو ما نسميه اليوم "بالإجهاض" لأن هذه المشكلة تخص الوالدين بشكل أساسي ثم المجتمع، فهنا لم يقل ولا تقتلوا أولادكم إلا بالحق بل قال: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ}. أي هذه هي الحالة التي حرم الله فيها الإجهاض. فالإملاق غير الفقر حيث جاءت من "ملق" وهو أصل في اللسان العربي يعني تنظيف الثوب ومسحه ومنها جاءت الممالقة وهي ما نسميه اليوم "تمسيح الجوخ" تعبيرا عن النفاق.

فالإملاق هو نظافة الإنسان من المال وهو سبب اقتصادي بحت. فإذا أراد أحدهم أن يقتل ولده عن طريق الإجهاض بسبب عدم وجود قدرة مالية ليرعى الولد (من إملاق)، أو يخاف أن لا يوجد عنده مال ليرعى الولد (خشية إملاق). إذا كان الإجهاض لهذا السبب فهو حرام.

وهناك كثير من الحالات الأخرى التي لا ينطبق عليها "من إملاق أو خشية إملاق" وعلى علماء الطب أن يحددوها متعاونين ويشرحوها للمسلمين على أنها حالات يعتبر الإجهاض فيها حلالا، أما بعد ولادة الطفل فمهما كانت الحال فعلى الإنسان المسلم أن يقبل ذلك ولا يقتل الولد لأنه أصبح نفسا، في هذه الحالة تنطبق عليه الوصية الخامسة. وهذه مشكلة أخلاقية يعاني منها كل أطباء العالم في حالتين: حالة ولادة طفل مشوه والعناية به ومحاولة الإبقاء على حياته، وحالة المريض الذي يتعذب ولا أمل في شفائه.

هذه الوصية جاءت عن قتل الولد أي الإجهاض بعد الحمل. أما حالات منع الحمل أصلا فلا يسأل عنها أهي حلال أم حرام، أو هي عمل أخلاقي أم غير أخلاقي؟ لأنها حلال فهي عبارة عن إجراء فني بحت ولا يوجد فيه أية مخالفة للمنظومة الأخلاقية والتشريعية في الإسلام.

قد يقول البعض إن هذه الوصية جاءت لتحريم وأد البنات، فأقول إنّ هذا غير صحيح لأن العرب كانت تئد البنات بعد الولادة. ووأد البنات يدخل تحت بند الوصية الخامسة هذا من ناحية. وأما الأولاد فهم الذكور والإناث معا. ثم إن هذه الوصايا جاءت لأهل الأرض قاطبة ولكل زمان ومكان. فهي ليست للعرب فقط وليست للقرن السابع الميلادي. فإذا أصر الفقهاء على هذا الرأي نقول: عليكم في هذه الحالة أن تعترفوا أولا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان رسولا للعرب فقط وليس للناس وعليكم أن تنسخوا آية: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} (الأعراف ١٥٨) لكي يكون رأيكم صحيحا !.

الوصية الرابعة

- {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}.
- {إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}.

هنا جاءت الفواحش بصيغة الجمع لتدل على أنه يوجد على الأقل ثلاثة أعمال مختلفة يعتبر كل منها فاحشة، جاءت في التنزيل الحكيم حول الأمور التي حرمها الله وتتعلق بالعلاقات الجنسية العلنية وغير العلنية. والفاحشة اسم جنس للعلاقات الجنسية غير المشروعة، فمثلا السرقة وشرب الخمر ولعب الميسر ليست من الفواحش وإنما هي من الآثام جمع "إثم".

فالعلاقات الجنسية المحرمة التي جاءت في التنزيل الحكيم صراحة سميت فواحش هي التالية:

١- {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} (النساء ٢٢).

وهذا ما نسميه نكاح المحارم الذي ورد في الآيتين ٢٢، ٢٣ من سورة النساء، وهي حالة الحد الأدنى في تحريم النكاح. ويعتبر فاحشة عند وقوعه حتى بعدم وجود شهداء عليه، لأن هذه العلاقة بالأصل تمارس سراً في حال حدوثها.

٢– {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} (الأعراف ٨٠، ٨١).

٣– {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} (الإسراء ٣٢) والزنا هو الفاحشة العلنية التي تستوجب وجود أربعة شهداء لإثبات وقوعها. وعندما صرف الله سوء امرأة العزيز عن يوسف قال {.. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} (يوسف ٢٤). هذه العلاقة الجنسية هي فاحشة لأن امرأة العزيز كانت امرأة متزوجة وأرادت ممارسة علاقة مع يوسف، وهذا النوع من العلاقات يدخل في إطار الخيانة الزوجية.

هنا نرى لماذا ذكر الفواحش بصيغة الجمع، ونرى أن للفاحشة نوعين: النوع الأول ذو منشأ غريزي بحت وهو نكاح الذكر للأنثى. هذه الناحية موجودة عند كل مخلوقات رب العالمين الحية بما فيها البشر، وتتمثل في عملية الجماع الغريزية كصفة بشرية بحتة لا مجال لنفيها والاستغناء عنها {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} (النجم ٤٥). وقد أضاف سبحانه للجماع الغريزي البشري صفة تعاقدية إنسانية بحتة سماها العقد الذي يجامع بموجبه الذكر الأنثى "عقد نكاح" لا "عقد زواج" وهذا العقد ذو صيغة اجتماعية يقوم على تحريم نكاح المحارم الوارد في سورة النساء حتى ولو بعقد. وقد وضع سبحانه الجماع الجنسي كحد أعلى للعلاقة بين الذكر والأنثى. أما أي علاقة بين ذكر وأنثى لا تنتهي بالجماع الجنسي فهي ليست من الفواحش وإنما ينظر إليها من باب الأعراف "الآداب العامة". فالفرج هو الذي يصدق الفاحشة أو يكذبها.

أما النوع الثاني فليس غريزياً وإنما جاء من شهوة إنسانية واعية ومدركة يمارسها الإنسان عن طريق التعليم الخاطئ، أو عن طريق شروط موضوعية غير صحية وهو نكاح الذكر للذكر "اللواط" وهذا أحد أنواع الشذوذ الجنسي لذا قال لوط لقومه {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} (الأعراف ٨٠، ٨١) وسميت هذه العلاقة فاحشة سواء مورست في السر أو العلانية.

أما قوله تعالى {.. مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ..} فالفاحشة الظاهرة هي التي تمارس في العلن وهي الزنا الذي يثبت بوجود أربعة شهداء، حتى ولو كان بين الرجل وزوجته، فإن مارسا العلاقة الجنسية كاملة في العلن تصبح زنا، أما العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة كممارسة الدعارة مثلا، فإن كانت

في السر فهي فاحشة وإن كانت في العلن فهي زنا، وكذلك اللواط "العلاقة بين الذكر والذكر" فهو فاحشة إذا مورس في الخفاء أما في العلن فهو زنا، وكذلك نكاح المحارم فهو فاحشة إذا مورس في الخفاء وزنا إذا مورس في العلن.

هذه الوصايا الخمس التي جاءت في سورة الأنعام في آية واحدة هي الآية رقم ١٥١ جاءت بصيغة أخرى أكثر تفصيلا في سورة الإسراء وبأكثر من آية وسماها الحكمة وهذه الآيات هي:

– {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} (الإسراء ٢٣).

هنا نلاحظ كيف ربط التوحيد وعدم الشرك ببر الوالدين في آية واحدة حوت الوصيتين الأولى والثانية وقد شرحت هذا الربط في مبحث حول "وبالوالدين إحسانا".

– {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} (الإسراء ٣١).

في هذه الآية جاءت الحالة الثانية من الوصية الثالثة وهي {خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ} أي الخوف افتراضاً من عدم إمكانية صرف المال لذا أضاف "نحن نرزقهم وإياكم". فوضع الأولاد قبل الوالدين. أما في الحالة الأولى {.. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ..} (الأنعام ١٥١) فقد وضع الوالدين قبل الأولاد، لأن الإملاق هنا موجود فعلاً لا افتراضاً. وهنا نلاحظ التعليق المهم جداً في آية الإسراء ٣١ {.. إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} حيث وصف قتل الأولاد لسبب اقتصادي "من إملاق" بأنه خطأ كبير، ولم يقل جريمة أو مجرمين ولم يضعه بمنزلة القتل المتعمد مع سابق الإصرار كما في قوله {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء ٩٣) ونلاحظ دقة الصيغة الإلهية في الوصايا.

– {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} (الإسراء ٣٢) وقد رأينا أن الزنا هو الفاحشة العلنية بوجود أربعة شهداء على الأقل حتى يثبت وقوعه. هنا وضع إحدى حالات الوصية الرابعة.

– {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا} (الإسراء ٣٣).

هنا وضع الوصية الخامسة وشرح معنى {إِلَّا بِالْحَقِّ} وبيَّن أن من يقتل إنساناً ظلماً بدون ذنب اقترفه يستحق عليه القتل "النفس بالنفس". وكما شرحت أن الظلم هو وضع الشيء في غير محله عنوة أو عن غير قصد أي ظلم مقصود "القتل المتعمد" وظلم عن غير قصد "القتل الخطأ" وهنا نلاحظ أيضا كيف وضع القتل كحد أعلى للعقوبة لذا قال "فلا يسرف في القتل" وهذه الآية من آيات الحدود.

الوصية السادسة

– {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}.

اليتيم في اللسان العربي تطلق على فاقد الأب والقاصر بنفس الوقت. أما فاقد الأم والأب فهو يتيم الأبوين، وأما فاقد الأم فقط فهو اللطيم.

وفي حالة فقدان الأب والقصور، فإن اليتيم بحاجة إلى وصي من الناحية المالية والتربوية لذا جاءت الآيات التالية:

– {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} (النساء ٢).

– {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا} (النساء ٦).

لذا فإن الوصية السادسة موجهة إلى غير الآباء لأنه في حالة فقدان الأم فالأب هو الوصي حكماً ولاتنطبق عليه هذه الوصية.

أما من ناحية المسؤولية المالية والمسؤولية التربوية معاً فقد جاءت في قوله تعالى:

– {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} (النساء ٣)[19].

19 – **فقه المرأة/ نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**، الدكتور محمد شحرور، الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٥.

الوصية السابعة

{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}.

هذه الوصية تتعلق بالعلاقات الإنتاجية والعلاقات التعاقدية. فإذا نظرنا الآن إلى أية سلعة من البضائع المنتجة "سيارات، أدوية، مأكولات، مشروبات، مواد بناء، أقمشة وملبوسات" وأردنا أن نضع لها مواصفات، رأينا أن المواصفات لا تخرج عن بندين اثنين:

أ– مواصفات وزنية: وهي الكيلوغرام وأضعافه وأجزاؤه، أو الباوند وأضعافه وأجزاؤه.

ب– مواصفات بعدية: طول، عرض، مساحة، حجم.

لقد جعل الله التقيد بالمواصفات بالبيع والشراء والإنتاج من أركان التقوى في الإسلام حيث دخلت في الوصايا. فلا يمكن أن تستقيم وضعية إنتاجية ومن ثم تعاقدية إلا من خلال المواصفات. فعلى المسلم عندما ينتج ويبيع ويشتري أن يضع مواصفات لإنتاجه ولبيعه وشرائه، وبدون هذه المواصفات لا يمكن ضبط أية سلعة إنتاجية أو تسعيرها بيعاً وشراء. مع العلم بأن رقي أي دولة في الإنتاج يقاس بمقدار رقي مواصفاتها وتقيدها بها. فإذا أراد مسلم مثلا أن يشتري بيتاً فهذا الشراء له نوعان:

أ- شراء حاضر كأن يكون البيت جاهزاً للتسليم.

ب- شراء غير حاضر، وهذا الشراء لا يصح إلا بمواصفات، أي عقد البيع يجب أن يكون له ملحق بالمواصفات التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من العقد، وكلما كانت المواصفات دقيقة كان البيع أكثر حلالاً.

وبما أن هناك درجات في الدقة مختلفة في المواصفات فقد ختم هذه الوصية بعبارة ''لانكلف نفساً إلا وسعها'' فالإنسان يتقيد بالمواصفات حسب الدقة الوزنية والحجمية الموجودة عنده وحسب المواصفات القياسية الشائعة في الدولة التي يعيش فيها.

إن من أولويات الأمور التي يجب أن تمارسها الدولة العربية الإسلامية هي وضع مواصفات لكل شيء ضمن هذه الدولة، وأن تتقدم هذه المواصفات مع تقدم المعرفة، أي أن الانعكاس المباشر للتقدم والبحث العلمي في الدولة هو تطوير المواصفات الدارجة في الدولة والمجتمع. أما من الناحية الفردية فعلى المسلم التقي أن يتقيد بالمواصفات الوزنية والحجمية في كل شيء حسب الدقة المتوفرة لديه.

فإذا نظرنا إلى القضايا في المحاكم رأينا أن معظمها نشأ من عدم وجود مواصفات في العقد، وإن وجدت فهي مواصفات بدائية جداً. وعلينا أن نعلم أيضاً أن آية المداينة وهي الآية رقم ٢٨٢ في سورة البقرة هي من آيات الحدود، وهي آية الحد الأدنى لصلاحية العقد ويجب أن لا ينقص من بنودها شيء في أي عقد، بل يمكن إضافة بنود جديدة إليها حسب الحاجة.

ولكي نعلم أن الله أمرنا بالتقيد بالمواصفات في رسالة شعيب، حين وصلت الإنسانية إلى مرحلة التبادل التجاري وظهرت الوحدات القياسية، قال تعالى {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (هود ٨٥). ونفهم أن التقيد بالمواصفات جاء من أجل غاية أوضحتها عبارة ''ولاتبخسوا الناس أشياءهم''. أي حين يدفع الإنسان مالاً يجب أن يعلم مقابل ماذا يدفع هذا المال، وماهي مواصفات السلعة المشتراة، لأن كل عمل منتج يمكن تحويله إلى مواصفات، ويجب علينا أن لا نبخس الناس أشياءهم إن كانت عملاً أو سلعة أو نتاجاً علمياً أو أدبياً أو فنياً أو ابتكاراً. وهنا نلاحظ قوله {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ}، ولم يقل ''ولا تبخسوا الذين آمنوا'' لأن نظرة

الإنسان العربي المسلم إلى قيمة الأشياء وإلى العدالة يجب أن تكون نظرة عالمية بحتة. وقوله أيضاً {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ..} (النساء ٥٨) ولم يقل بين الذين آمنوا.

الوصية الثامنة

– {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}.

هذه الوصية عبارة عن حالة عامة، تعتبر شهادة الزور حالة خاصة لها، فالإنسان يجب أن لا يتكلم إلا كلاماً صادقاً، وعندما يكون موضوعياً في أحكامه لا تتحكم فيه الأهواء والعواطف. والموضوعية المادية بحد ذاتها صادقة وعادلة، وهذا واضح في قوله تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الأنعام ١١٥). فكلام الله الذي هو عين الوجود ونواميسه يحمل صفتين أساسيتين هما: الصدق والعدل. وهكذا فإن الصفة الأساسية للإنسان هي الصدق والعدل. لأن قوله مبني على البينات لاعلى الأهواء. وهذه صفة أساسية للتقوى عند الإنسان المسلم، وهذا ما شرحته في مبحث عن الشرك بأن الدولة الإسلامية لها بنية في مؤسساتها وأفرادها هي التصور المبني على التصديق، لا التصديق المبني على التصور. ففي هذه الحالة تحمل الدولة في بنيتها الصدق والعدل. أما شهادة الزور فهي حالة خاصة من هذه الوصية. فعلى الدولة العربية الإسلامية أن تضع في دستورها عقوبة شهادة الزور على أنها عقوبة جزائية لا إدارية أو مالية. ويجب أن تغير يمين الشهادة في القضاء بأن يقسم الشاهد على قول الصدق لا الحق. لأن الإنسان قد يقول الصدق حسب ما شاهده وقد تكون المشاهدة خادعة أو ظنية فتصبح غير حقيقية. لأن الوحيد الذي أقواله حقيقية وصادقة وعادلة تماماً بدون استثناء هو الله فقط، لأن الحق الصادق والعادل هو عين كلماته وهو عين الوجود "قوله الحق" "وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً".

الوصية التاسعة

– {وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا} (الأنعام ١٥٢).

تعد هذه الوصية اختصاراً قانونياً للآلاف المؤلفة من البنود فيما لو فصلت كلٌّ على حده. فكل مهنة لها مواصفاتها ولكل علاقة اجتماعية شروطها. فمثلا في مهنة الطب هناك أمور يجب على الطبيب أن لا يمارسها وهناك أمور يجب عليه القيام بها من الناحية المهنية وهذا ما نسميه بالدستور الأخلاقي

المهني. فكل مهنة لها مواصفاتها الأخلاقية ''دستورها'': المالي، والمشرع، والمهندس، والوزير، والضابط، والشرطي، والموظف، والمنتج في كل دائرة حسب درجة المسؤولية ونوع العمل، وهناك البناء ومواصفاته وأصول البيع والشراء ونسبة الأرباح، في هذه الحالة توضح المواصفات الأخلاقية لكل مهنة على حده، ولا يسمح لأحد أن يمارس المهنة إلا إذا كان مؤهلاً أولاً، ثم عليه أن يقسم اليمين على الدستور الأخلاقي لمهنته. فإذا لم يقسم اليمين فإنه يمنع أصلاً من ممارسة المهنة حيث لا يوجد في الدولة العربية الإسلامية مهنة مهما كان نوعها بدون قسم لهذه المهنة.

وتضع الدولة لهذا القسم عقوبة واحدة، علماً بأنه يدخل تحت هذا القسم الآلاف المؤلفة من البنود، هذه العقوبة هي عقوبة حنث اليمين ويجب أن تكون جزائية لا إدارية ولا مالية.

وإني أرى أن ينظر إلى اليمين المهني في البلاد العربية الإسلامية بجدية كبيرة. وعدم التقيد باليمين يدل على شدة التدهور الأخلاقي. فاليمين عهد بين الذي أقسمه وبين الله لا بين إنسان وإنسان آخر. وكذلك البيعة في الانتخاب عهد، فعندما ينتخب إنسان إنساناً فهذا يعني أن المنتخب أعطى عهداً بأن يمثل مصالح المنتخبين، والمنتخب أعطى عهداً بأن يطيع المنتخب طاعة نسبية ضمن التشاريع الصادرة دون أن تتعدى حدود الله.

إن وصية ''وبعهد الله أوفوا'' تختلف تماماً عن أداء الأمانة المادية للآخرين الواردة بأمره تعالى {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا..} (النساء ٥٨).

قد يقول قائل: فماذا إذا كان إنسان ما لا يؤمن بالله يؤدي القسم ولايلتزم به فيقول إنه غير مؤمن بالله لذا فهو غير ملتزم بالقسم، فنقول: نحن لنا الظاهر فقط والقلوب لله تعالى. فعندما يقسم الإنسان اليمين فعلاً فقد أصبح في نظر الآخرين ملتزماً لا مناص له من ذلك. وإن كان صادقاً في عدم إيمانه فعليه أن يرفض أداء القسم منذ البداية. في هذه الحالة لا أحد يجبره على ذلك ولكنه يعفى من المهام التي ستوكل إليه أو يمنع من ممارسة المهنة التي سيقسم من أجلها.

ثم إن عقوبة حنث اليمين تريحنا من متاهات كبيرة، فمثلا عندما يؤدي الشرطي اليمين المهني على ألا يستلم مالاً من أحد ثم يأخذ جنيهاً واحداً، فإننا نعاقبه ليس من أجل الجنيه الواحد بل لأنه حنث اليمين.

ولقد جاءت الوصايا الأربع، من الوصية السادسة حتى التاسعة، في سورة الإسراء) في الآيات التالية:

- {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} (الإسراء ٣٤)، هذه الآية فيها الوصية السادسة والوصية التاسعة.

– {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (الإسراء ٣٥). "الوصية السابعة".

– {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ} (الإسراء ٣٦)، هذه الآية هي شرح الوصية الثامنة {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} (الأنعام ١٥٢).

أي أن القول يجب أن يكون مبنياً على البينات المادية الموضوعية دون أهواء وعواطف. والشهادة يجب أن تكون شهادة فؤادية محددة بالحواس وعلى رأسها السمع والبصر. أما إذا كانت استنتاجاً عقلياً فتسمى خبرة وليست شهادة.

الوصية العاشرة

– {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام ١٥٣).

قد يسأل البعض: ما الجديد في هذه الوصية؟ أقول: الجديد فيها هو أنه اشترط التقوى فيها بأنها اتباع الوصايا التسع الواردة قبلها معاً غير مجزأة، وسماها مجتمعة صراطاً مستقيماً، فهي من الدين القيم "الأخلاق" {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام ١٦١). وهي الصراط المستقيم عند موسى وعيسى، وهي مع الحدود تشكل الصراط المستقيم عند المسلمين.

وقد أمرنا باتباع هذه الوصايا جملة حيث أن التقوى فيها.

وقد يسأل البعض: فما الصلاة والصوم والحج والزكاة؟ أليست تقوى؟ أقول نعم هي تقوى ولكن التقوى لها ثلاثة أنواع:

التقوى الفردية، والتقوى الاجتماعية "الأخلاق"، والتقوى التشريعية "الالتزام بالقانون ضمن حدود الله". فالوصايا مجتمعة هي التقوى الاجتماعية، والعبادات هي التقوى الفردية، والالتزام بالقانون ضمن حدود الله هو التقوى التشريعية. فعلى العرب المسلمين أن يعلموا هذا جيداً وأن لا يقيموا حكماً على أي إنسان – مسلماً كان أم غير مسلم– إلا من خلال التزامه بالتقوى الاجتماعية "الوصايا" والتقوى التشريعية. إن عدم تمييز التقوى الفردية من الاجتماعية والتشريعية مطب يقع فيه كثير من العرب المسلمين اليوم، فهم ينخدعون بسهولة بإنسان يصلي ويصوم وقد أدى فريضة الحج، وعندما يعاملونه أو يبرمون عقوداً معه يرون منه العجب. فيقول قائل: أليس هذا الإنسان متديناً؟ نقول: نعم هو متدين لنفسه. فكل شيء رأيتموه منه هو من التقوى الفردية التي لاعلاقة لنا بها،

ولكن قيموا الآخرين على أساس "الوصايا" التقوى الاجتماعية، وعلى أساس التقوى التشريعية في التزامه ضمن حدود الله، ولن تروا منه في هذه الحالة أي عجب ولن تصدموا بأية مفاجأة. فلندع جانباً هذه العبارات المعسولة كأن نقول: "فلان إنسان آدمي، متدين، وصاحب دين، ولايقطع وقت صلاة" ولنقل عوضاً عن ذلك إن فلاناً ملتزم بالوصايا والحدود فهو جدير بالثقة والمعاملة.

الآن يمكن أن نحدد من هم المغضوب عليهم ومن هم الضالون في قوله تعالى في فاتحة الكتاب {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} بعد أن هدانا إلى الصراط المستقيم في الحدود والوصايا. هذا الصراط الذي يعتبر الفرقان عموده الفقري والذي هو التقوى الاجتماعية والذي هو من الثوابت "مستقيم"، من يتبعه فقد أنعم الله عليه ومن يتبع غيره {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} يصبح من الضالين {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} أو من يضع وصايا غير هذه الوصايا أو يحرفها على أنها الوصايا العشر فيصبح مغضوباً عليه {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} نلاحظ أنه لا يوجد في الوصايا شيء حول الطعام والشراب واللباس، وأن هناك أناساً يلتزمون بالوصايا ويشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير، فهم أيضاً جديرون بالثقة والمعاملة.

لقد جاءت الوصايا بصيغة أمر مباشر عطف بعضها على بعض، والعطف يعني التغاير والتمايز في الوصايا لا في الالتزام بها، أي لم تأت بصيغة يمكن معها لشخص أن يلتزم بالوصية الأولى وآخر بالسابعة وآخر بالثانية، لذا جاء الدمج في الوصية العاشرة ليعني أن التقوى الاجتماعية هي التزام كل شخص على حده بالوصايا التسع مجتمعة.

لقد جاء في مكان آخر من التنزيل الحكيم أنواع من الالتزام الفردي "التقوى الفردية" معطوفاً بعضها على بعض، لكن الالتزام بها جاء منفرداً لا مجتمعاً كما في قوله تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (الأحزاب ٣٥).

إذا نظرنا في هذه الآية وأردنا أن نطبق المواصفات الواردة فيها على شخص واحد، فإننا لا نكاد نجد بين سكان أهل الأرض من تنطبق عليهم هذه المواصفات جميعها فتصبح عبارة "أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً" نوعاً من أنواع التعجيز. ولو أنه سبحانه عنى أن هذه المواصفات تنطبق على شخص واحد ذكراً كان أم أنثى لقال "إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات..." أي لحذف حرف العطف بين صفة وأخرى كما حذفها في قوله تعالى {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} (التحريم ٥). هنا وضع

واو العطف بين ثيبات وأبكاراً فقط لأن المرأة لا تكون في وقت واحد ثيباً وبكراً، لذا فإن الصفات الواردة قبلها موجودة في امرأة واحدة ثيب أو بكر. لقد جاءت الآية ٣٥ في سورة الأحزاب لكي تتناسب مع إمكانيات الناس ومزاجهم، فمن الناس من يحب تلاوة الذكر ولايحب دفع المال "الذاكرين الله كثيراً والذاكرات" وآخر يحب دفع المال ولايحب أن يصوم يوماً واحداً إضافة لشهر رمضان "والمتصدقين والمتصدقات" وهكذا دواليك. فهذه الآية هي آية المساعدة من رب العالمين لا آية التعجيز.

نأتي الآن إلى آية التقوى الفردية التي وضع فيها تعالى جانبين: الجانب الإيماني القناعة، والجانب السلوكي الممارسة {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (البقرة ١٧٧). هنا نجد التقوى الفردية في الإيمان والعبادات والإنفاق والوفاء بالعهد والصبر على الضر والصبر في الجهاد "حين البأس". ونجد التقوى الاجتماعية في الوصية التاسعة مشتركة مع التقوى الفردية في عبارة "والموفون بعهدهم إذا عاهدوا" وعبارة "وبعهد الله أوفوا".

لقد قرر بعضهم أن الصلاة – وهي بلا شك رأس الشعائر، والشعائر كلها من التقوى الفردية – أهم من أي شيء آخر في الإسلام. وأقول هذا غير صحيح لقوله تعالى {.. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} (العنكبوت ٤٥). وقد يقول قائل إن قوله: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} تعني أن الصلاة تنهى بشكل آلي عن الفحشاء والمنكر. وهذا أيضاً غير صحيح، فعندما نقول مثلاً إن اللوائح الجامعية تنهى عن الغش في الامتحان فهذا لا يعني نفي الغش في الامتحانات وكذلك الصلاة. وفي هذا قال النبي (ص) في حديثه إن صح: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً" (الجامع الصغير للسيوطي ج٢ ص ١٨٠). ثم وضع ماهو أكبر من الصلاة حيث قال {وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ} فلماذا جعل ذكر الله أكبر من الصلاة؟

قلنا إن لفظة الذكر أتت من أصل (ذ ك ر) وهذا الأصل معناه في اللسان العربي الترديد اللغوي، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر ٩). والذكر هو الصيغة اللغوية الصوتية للتنزيل الحكيم بغض النظر عن فهم المحتوى، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى {ص وَالْقُرْآَنِ ذِي الذِّكْرِ} (ص ١) وقوله {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ..} (القمر ١٧). وقد جاء هذا الذكر

بالصيغة اللسانية العربية لقوله مخاطباً العرب {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ} (الزخرف ٥) وقوله {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (الأنبياء ١٠).

والذكر جاء بمعنى التذكير عكس النسيان كما في قوله تعالى {.. فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ..} (يوسف ٤٢) وقوله {.. وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ..} (الكهف ٢٤) وقوله {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ..} (الأعراف ١٦٥) وقوله {.. أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى..} (البقرة ٢٨٢) وقوله {.. أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} (الأنعام ٨٠) وقوله {.. وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ..} (الكهف ٦٣) وقوله {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ..} (الأنعام ٤٤) وقوله {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} (الفرقان ٧٣). وفي هذا المعنى جاء قوله: {وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ} (العنكبوت ٤٥) التي شرح سبحانه معناها في قوله تعالى {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران ١٩١). هنا جاء شرح الذكر، فالإنسان لا ينسى الله في حالة العمل، فإذا اشترى تذكر الله بقوله تعالى {.. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ..} (الأعراف ٨٥). وإذا باع تذكر قوله {.. وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ..} (هود ٨٤). وإذا تحدث لا يكذب، وكذلك في حالة الراحة والمرض، أي أنه إنسان لا ينسى الله في عمله وراحته ومرضه ولا ينسى الوصايا "التقوى الاجتماعية" ولاينسى "التقوى الفردية". هذا هو الإنسان المسلم الذي نقول عنه في المصطلح الحديث "الإنسان ذو الضمير الحي". وفي هذا المعنى ورد الذكر في باب الخمر والميسر بقوله تعالى {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} (المائدة ٩١)، فهنا وضع ذكر الله قبل الصلاة، في باب الخمر والميسر وهما ليسا من العبادات وليسا من الحدود، ثم فصل طاعة الله عن طاعة الرسول في الآية التي بعدها {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (المائدة ٩٢). وهكذا نستنتج بأن ذكر الله قياماً وقعوداً وعلى الجُنوب لا يعني أن يغمض الإنسان عينيه ويقول "الله، الله" ألف مرة أو أكثر أو أقل.

وعندما أتم سبحانه آية آل عمران ١٩١ بقوله {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا}، نفهم أن المسلم إضافة إلى أنه إنسان ذو ضمير حي يحمل صفة الموضوعية في التفكير، لذا ذكر العالم المادي بأنه عالم حقيقي غير وهمي وأنه عالم البينات فقال {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا}.

وعندما أنهى آية العنكبوت ٤٥ بعد قوله: {وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ}، قال {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}. نفهم أن هذا الإنسان الملتزم بالوصايا والعبادات والتفكير الموضوعي هو إنسان التربية الإسلامية الجادة.

إن مبحث الفرقان "الوصايا العشر" يبين لنا الفرق الجوهري الأساسي بين مفهومين مختلفين هما الأعراف والقيم الإنسانية حيث يمكن أن يحصل بينهما خلط كبير، فلنعرف كلا منهما على حده:

١– الأعراف هي مجموعة العادات والتقاليد الاجتماعية الناشئة عن بنية ما اقتصادية أو بيئية أو اجتماعية.

هذه العادات تتغير حسب الزمان وتطور وسائل الإنتاج وتبادل السلع وظهور سلع جديدة، وحسب المكان كذلك هل هو صحراوي أو سهلي أو جبلي أو ساحلي أو غابات أو حار أو بارد. ويمكن أن نقول إن هناك عادات قومية تتغير حسب المكان، فنقول العادات العربية والتركية وغيرها. والأعراف تتبلور نتيجة لتفاعل عدة مؤثرات خارجية موضوعية.

٢– القيم الإنسانية هي قانون روحي اجتماعي يربط أفراد بني الإنسان بعضهم إلى بعض لكونهم مجموعة إنسانية لا حيوانية، بغض النظر عن البنية الاقتصادية للمجتمع الإنساني. لذا تحمل القيم الصفة العالمية الشمولية.

وبما أنها تأخذ الطابع الشمولي الكوني "كونية القيم"، فقد جاءت وحياً من الله تعالى. أما الأعراف فقد أشار إليها الله في التنزيل الحكيم بصفة العموم ودون تفصيل لأنها متغيرة وفق الزمان والمكان. وقد جاء الأنبياء والرسل للدعوة إلى القيم الإنسانية بشكل تراكمي متعاقب، ونجدها حسب ما ورد في التنزيل الحكيم في الوصايا "الفرقان" من زمن موسى وإلى عيسى وإلى محمد (ص) وهي ما زالت سارية المفعول إلى يومنا هذا عند كل شعوب الأرض، بغض النظر عن بنيتها الاقتصادية والاجتماعية ومللها الدينية وبيئتها وأعرافها. لذا فإن القيم الإنسانية هي القاسم المشترك في العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما كانت ملته الدينية أو توجهاته السياسية والفكرية، ولها صفة التأثير في السلوك الإنساني حيث أنها تؤثر في شكل الأعراف.

هذا ما يجب أن يعرفه الإنسان العربي المسلم من أهل الملة المحمدية عن البنية القيمية للمجتمع الذي يعيش فيه، حيث أن التزامه الاجتماعي تجاه مجتمعه خاصة وتجاه الإنسانية عامة هو التزام قيمي أخلاقي قبل أن يكون التزاماً قانونياً.

هناك من يخلط عن عمد أو غير عمد بين القيم والأعراف، ويقول إن القيم هي بنية فوقية لبنية تحتية هي العلاقات الاقتصادية. وأن القيم "الوصايا" التي جاءت بها الملل الثلاثة هي بنية لعلاقات اقتصادية خاصة، وعندما تتغير هذه البنية تتغير القيم. ونحن نرى أن هذا الكلام لم نجن منه إلا خيبة

الأمل، لأن هذا الطرح ينتج عنه أن يتحلل الإنسان من الوصايا. فالسؤال الذي يطرح نفسه: أين البديل طالما أن القيم متغيرة حسب زعمهم؟. وبناء على زعمهم يصبح البديل هو نبذ القيم والوصايا التي جاءت في الكتب المقدسة، فينتج عن ذلك إباحة قتل النفس وعقوق الوالدين والإخلال بالمواصفات وشهادة الزور وانتشار الفاحشة. وهذا ما بيّنت الأحداث والوقائع أنه البديل الذي يؤدي إلى أن يقع المجتمع في أزمة أخلاقية تعصف به وتحطمه. وعليه يتوجب على العربي المسلم أن يعلم أن الالتزام بالوصايا هو التزام أخلاقي إنساني لا علاقة له بالنظام الاقتصادي والبيئة لأنه لا بديل لهذه الوصايا. لذا أعطاها الله سبحانه هذه الأهمية ووضعها تحت عنوان خاص هو "الفرقان" وجاءت في سورتين الأولى سورة الإسراء وهي مكية، والثانية في آيات مدنيات من سورة الأنعام.

ثم علينا أن نعلم أن الله أمرنا بأن نكيف أعرافنا مع الوصايا بحيث لا تخالف أعرافنا الوصايا التي هي من حدود الله، لذا قال {.. الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ..} (التوبة ١١٢) فلا يمكن لنا أن نقول عن شيء ما إنه عرف إذا كان يخالف الوصايا. وسيأتي الحديث عنها لاحقاً في نفس الباب.

العلاقة الاقتصادية الأعراف (تحمل صفة متطورة)

+ البيئة

الله سبحانه أوحى الوصايا (القيم الإنسانية) وهي القاسم

المشترك في العلاقات الإنسانية

الأعراف أساس الحياة الاجتماعية والعلاقات

+ القيم الإنسانية في المجتمع العربي الإسلامي

ثانيا: الفرقان الخاص

لقد لاحظنا كيف أكد سبحانه على أنه وضع الفرقان العام لكل الناس في ثلاثة مستويات هي: مستوى التحريم بقوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ..} (الأنعام ١٥١)، ومستوى النهي بقوله {.. أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..} (الأنعام ١٥١)، ومستوى الوصية بقوله {.. ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ..} (الأنعام ١٥١). ثم ختم كل ذلك بالوصية العاشرة {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام ١٥٣) حيث نلاحظ أنه جعل التقوى في اتباعه بقوله {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام ١٥٣).

فعندما يلتزم الإنسان بالفرقان العام يصبح من المتقين، ولكن إذا أراد زيادة على ذلك، فهل هناك وصايا إضافية إن هو اتبعها يصبح من أئمة المتقين؟ ويأتي الجواب في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا..} (الأنفال ٢٩)، حيث نلاحظ في هذه الآية كيف وضع التقوى شرطاً لهذا الفرقان، وكيف جعله فرقاناً خاصاً بالمتقين، أي أنه غير ملزم لكل الناس كالفرقان العام، ولكن من أراد أن يستزيد فعليه باتباع هذا الفرقان، ومن يتبع هذا الفرقان فهو من أئمة المتقين. هذا الفرقان ورد في سورة الفرقان في الآيات التالية:

١– ٢: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان ٦٣).

٣: – {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} (الفرقان ٦٤).

– {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} (الفرقان ٦٥).

٤: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} (الفرقان ٦٧).

٥– ٦ –٧: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آَخَرَ * وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ * وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} (الفرقان ٦٨).

٨ – ٩: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} (الفرقان ٧٢).

١٠: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} (الفرقان ٧٣).

– {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (الفرقان ٧٤).

نلاحظ في الآيات السابقة أن الفرقان الخاص عبارة عن عشر وصايا جاءت بصيغة إخبارية ولم تأت بصيغة أمر صريحة كما جاءت الوصايا في الفرقان العام، ونلاحظ أنها ختمت بعبارة "واجعلنا للمتقين إماماً"، أي أن من يحقق هذه الشروط بالإضافة إلى الفرقان العام فهو من أئمة المتقين، ومن يحقق شروط الفرقان العام فهو من المتقين. ونلاحظ أن هناك أربعة بنود مشتركة بين الفرقان العام والفرقان الخاص وهي:

١– لا يدعون مع الله إلهاً آخر ألا تشركوا به شيئا

٢– ولا تقتلوا النفس التي ولاتقتلوا النفس التي حرم

حرم الله إلا بالحق الله إلا بالحق

٣– ولا يزنون ولا تقربوا الفواحش

ما ظهرمنها وما بطن

٤– والذين لا يشهدون الزور وإذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى

ونلاحظ أنّ الله سبحانه خصص ثواباً خاصاً في الآخرة لعباد الرحمن هؤلاء بقوله {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} (الفرقان ٧٥).

نلاحظ هنا أمرين في غاية الأهمية في أئمة المتقين وهما التأكيد على الجانب المادي في نظرتهم إلى الحياة، وقد جاء هذا التأكيد بقوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ}. والرحمن كما سبق وقلنا هو اسم الربوبية لهذا الكون المادي الثنائي، وذلك لكي يؤكد أن زيادة التقوى ليس لها علاقة بالشطحات الصوفية وكرامات الأولياء.

وقد جاء الأمر الثاني في بند خاص في قوله {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} (الفرقان ٧٣). وقد حدد لنا القرآن أن آيات الربوبية هي ظواهر الطبيعة، لذا فإن صفة أئمة المتقين هي الإيمان بالمادة وبالعلم والعقل، وأن فهم آيات الله "ظواهر الطبيعة" هي من أساسيات منهجهم في الحياة ولاتقلُّ أبداً عن قوله تعالى {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا} (الفرقان ٦٤).

لذا فإن أئمة المتقين في فرقان محمد (ص) هم من أئمة العلم المادي وأئمة الناس الذين يؤمنون بالبينات المادية وذوي التفكير العلمي البعيد

عن الخرافة. علماً بأن الفرقان الخاص يحتاج إلى شرح مفصل أكثر من ذلك، وبما أنه خاص بأئمة المتقين وليس كل الناس فإننا نكتفي بهذا القدر من الشرح في هذا الكتاب والله الموفق.

الفرع الرابع: مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

– {.. الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (التوبة ١١٢).

جاء المعروف لغوياً من أصل "ع رف" ومنه المعرف والتعريف، فنقول لغوياً إن هناك "ال" التعريف وإن الإضافة في اللغة للتعريف.

أما المنكر فقد جاء من أصل "ن ك ر" وهو يشمل غير المعرف. فعندما جاءت الملائكة إلى إبراهيم ولم يعرفهم قال {.. سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} (الذاريات ٢٥)، وعندما جاءت الملائكة إلى لوط ولم يعرفهم قال {.. إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} (الحجر٦٢)، وعندما قدم إبراهيم الطعام إلى الملائكة قال تعالى {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} (هود ٧٠)، وكذلك قال موسى للعبد الصالح عندما قتل الغلام {.. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} (الكهف ٧٤)، وكذلك سليمان {قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا..} (النمل ٤١)، ومثلهم يوسف إذ دخل عليه إخوته {.. فَعَرَفَهُمْ

وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} (يوسف ٥٨) وقوله تعالى {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} (الأنبياء ٥٠) وقوله {أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} (المؤمنون ٦٩).

هنا نلاحظ كيف استعمل فعل نكرهم، ومنكرون للدلالة على عدم المعرفة، وللدلالة على أنه رآهم للمرة الأولى ولم يعرفهم من قبل. فالنكرة تدل على حالتين: إما الجهل وعدم المعرفة والمفاجأة، كحالة إبراهيم ولوط وموسى وسليمان ومنه يتولد مفهوم الاستنكار. لأن الإنسان عندما يرى شيئاً لم يألفه فقد يستنكره وهذا هو المعنى الإيجابي للمنكر، كأن يشاهد أموراً غير مألوفة فتدخل في مفهوم المنكر فيستنكرها. أو يشاهد أو يسمع أموراً لا تدخل في الذوق العام للمجتمع كقوله تعالى {.. وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} (لقمان ١٩).

أما المعنى السلبي للمنكر فهو إنكار الشيء وتجاهله عن سابق معرفة به كقوله تعالى {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} (النحل ٨٣) وقوله {.. وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ..} (الرعد ٣٦).

فأما قوله عن العذاب بأنه نكر ونكير فهو عذاب لم يسبق أن عرفه الإنسان وألفه كقوله تعالى {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا} (الكهف ٨٧) وقوله {.. فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} (الطلاق ٨) وقوله {.. يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ} (القمر ٦). وعندما أخذ الله قوم نوح بالطوفان وقوم هود بالريح وقوم صالح بالصيحة والرجفة وقوم لوط بحجارة من سجيل وفرعون بالغرق فقد أخذهم الله بعذاب لم يستعدوا له ولم يعرفوه مسبقا لكي يستعدوا له لذا قال {.. فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (الحج ٤٤) وقوله {وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (الملك ١٨) وقوله {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (سبأ ٤٥) أما قوم شعيب فقد حذرهم بأن العذاب سيأتيهم على غرار العذاب الذي جاء قبلهم لذا قال {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} (هود ٨٩) فعندما عذب الله قوم شعيب كان عذابهم على غرار قوم صالح حيث قال {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} (هود ٩٤، ٩٥) هنا كان عذاب قوم شعيب معروفاً لهم من قبل. أما القول بأن هناك ملكين الأول منكر والآخر نكير يأتيان إلى الميت في القبر فلم نجد له أي أساس في العقيدة الإسلامية.

من هنا جاء مفهوم المعروف والمنكر. فالمعروف هو ماعرفه الناس ثم تعارفوا عليه فأصبح مألوفاً للذوق والقبول الاجتماعي وهو بهذا له معنى إيجابي. والمنكر هو ما نكره الناس مبدئياً ثم استنكروه اجتماعياً أي أصبح مستهجناً غير مألوف للذوق الاجتماعي. ويعتبر هذا المفهوم من أهم أسس السلوك

الإسلامي العام. وهو مفهوم متطور حسب الزمان متغير حسب المكان ويغطي كل سلوكيات المسلم بالأمور التي لا تتعلق بالحدود (التشريع) والشعائر والقيم الإنسانية، ولهذا أمر الله رسوله به في قوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف ١٩٩). فقد طلب منه أن يأمر بالعرف السائد فيما لا يتناقض مع ما جاء في الرسالة من حدود وشعائر وقيم، ولتوجيهه للقيام بذلك اوحى له تعليمات في المسائل المتعلقة بالمعروف والمنكر جاءته على صيغة الخطاب بعبارة {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}. فجميع الآيات التي تبدأ بهذه العبارة كانت فيها إما تعليمات عامة لمجتمعه ومتناسبة مع ظروفه وشروطه الموضوعية حصراً، وإما تعليمات خاصة به كنبي في مجتمعه وفق تلك الشروط تحديداً، لهذا اعتبرنا هذه الآيات من آيات القصص وتحمل صفة التاريخية ولاتتميز بالطابع الأبدي، لأن الأعراف متغيرة زماناً ومكاناً، ولهذا لا يمكن أن نسبغ على هذه الآيات الطابع الأبدي، لكونها كانت توجيهات ظرفية للنبي مارس ما جاء فيها في وقته، ثم صارت بالنسبة لنا قصصاً محمدياً تستخلص منه العبرة فقط. فقد بين لنا التنزيل الحكيم أن مبدأ المعروف والمنكر يحمل الطابع الأبدي لأنه مبدأ إنساني مرتبط بالحياة الاجتماعية للناس في كل زمان ومكان، وهو بذلك خاضع للتغير، ثم قدم لنا النموذج التطبيقي لهذا المبدأ في التعليمات التي جاءت للنبي والمرتبطة بواقع مجتمعه تحديداً.

فعندما جاءه – مثلاً – التعليم الخاص باللباس الخارجي للمرأة المؤمنة طلب منها يومها أن يكون حسب الأعراف السائدة في ذلك المجتمع بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا} (الأحزاب ٥٩) فقد جاءت هنا الآية لبيان نوع اللباس الذي على المرأة الخروج به يومها في ذلك المجتمع المحدد زماناً ومكاناً، وفي ذلك تعليم بوضع عرف اجتماعي لاعلاقة له بالتشريع (الرسالة)، بدليل أن ما ورد في الآية من قوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} وماجاء بعدها كان موجهاً لزوجاته وبناته ونساء المؤمنين من أتباعه، فهذا الخطاب التعليمي موجه إلى نساء مجتمعه وهن من طبقة الحرائر، لتمييزهن عن الإماء الجواري التي كانت تباع وتشترى في سوق النخاسة، يأمرهن من باب التعليم بلبس لباس مخالف للإماء حتى لا يظن من يجهلهن أنهن إماء، فيتعرض لهن بالأذى، كالمعاكسة أو التجرؤ عليهن بكلام أو فعل قد يسيء لهن، أو حتى إبداء الرغبة في شرائهن كما كان التعامل سائداً يومها مع الإماء. لذا فهو تعليم متعلق بضبط المجتمع وتنظيمه وفق ظروف معينة وشروط موضوعية محددة، متعلقة بما كان موجوداً من تمايز طبقي في المجتمع من حرائر وإماء، ولهذا خاطبه بقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} ذلك لأن لباس المرأة لا علاقة له بالتشريع (الرسالة)، وبمعنى آخر لا علاقة له بالحلال والحرام، بل هو مظهر اجتماعي تحترم فيه تقاليد وأعراف كل مجتمع، أما الحلال

والحرام في زينة المرأة فقد تم بيانه في آية الزينة الظاهرة والزينة الخفية للمرأة في الآية ٣١ من سورة النور التي فيها أيضاً الفرائض والقيم وهي من الرسالة. فالأعراف السائدة في زمان ومكان محددين حصراً لابد وأن يمر عليها الزمن وتتغير حسب تغير المجتمعات ومستوياتها المعرفية، كما هو شأن لباس المرأة المسلمة والرجل المسلم الذي كان سائداً في المدينة المنورة في عهد الرسول وفي زمن الخلفاء الراشدين الذي لا يمكن جعله لباساً يقاس عليه لباس المسلمين في كل مكان وعبر كل العصور إلى يوم الدين.

هكذا يجب أن نفهم مصطلح المعروف في التنزيل الحكيم على أنه العرف، فقد جاء المعروف كمصطلح مطلق استعمل في مجالات عديدة بحيث يفهم ويطبق بشكل نسبي من المسلمين، وجاء نموذج تطبيقه من قبل النبي (ص) على شكل تعليمات جاءته لمساعدته على تسيير شؤون المجتمع حسب الأعراف والتقاليد.

لنورد الآيات التالية حول المعروف:

١– {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا..} (لقمان ١٥).

لقد أمر الله بطاعة الوالدين وعدم عقوقهما، أما عندما يصل الأمر إلى الشرك "انظر مبحث الفرقان" فعليه أن لا يطيعهما ولكن يجب أن تكون علاقته معهما حسب ما تقتضيه الأعراف السائدة في بر الوالدين. فالمسلم الإنكليزي يبر والديه حسب أعراف الإنكليز، والمسلم اليمني يبر والديه حسب أعراف اليمن وهكذا...

٢– {.. فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ..} (البقرة ١٧٨).

٣– {.. وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ..} (البقرة ٢٢٨).

٤– {.. فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ..} (البقرة ٢٣١).

٥– {.. فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ..} (البقرة ٢٣٢).

٦– {.. وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ..} (البقرة ٢٣٣).

٧– {.. وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ..} (البقرة ٢٣٦).

٨– {.. فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ..} (البقرة ٢٤٠).

٩– {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (البقرة ٢٤١).

١٠– {.. وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ..} (النساء ٦).

١١– {.. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ..} (النساء ١٩).

١٢- {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ..} (الطلاق ٢).

١٣- {.. وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} (الأحزاب ٣٢).

١٤- {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ..} (الطلاق ٦).

لقد أوضحت الآيات السابقة مفهوم المعروف بشكل صريح، والأعراف بين الناس هي التي تحدد العلاقات العملية، فعلاقة ولي أمر اليتامى باليتامى من حيث النفقة، وعلاقة الرجل بزوجه معاشاً أو طلاقاً، والأخذ والعطاء بين الناس ينبع من الأعراف، وعلاقة المسلم بزوجته في لندن من حيث المعاش والطعام والكساء حسب أعراف لندن التي تحدد العلاقة العرفية بين الرجل وزوجه. وعلاقة المسلم بزوجه في اليمن تتحدد بأعراف اليمن التي تحدد العلاقة المعروفة المقبولة بين الرجل وزوجه وهكذا... أما المحرمات فلاتدخل تحت الأعراف أي إذا كانت الأعراف في بلد ما تبيح لحم الخنزير، فعلى المسلم أن لا يدخل أكل لحم الخنزير ضمن أعراف الطعام عنده لأن تحريم لحم الخنزير من الحدود لا من الأعراف. وإذا وجد مسلم في بلد تبيح أكل لحم الخنزير في أعراف الطعام، فعليه أن يرفض ذلك بكل لباقة وكياسة وبدون تشنج. لذا فقد غطى الإسلام تحت مصطلح المعروف والمنكر كل الأمور التي لم يرد فيها نص صريح واضح أو الحركة بين الحدود، وجعل مفهوم المعروف والمنكر جزءاً لا يتجزأ من الدين الإسلامي ومن سلوكية المسلم.

وبما أن الأعراف وليدة العلاقات الاقتصادية وشروط البيئة، لذا فهي متغيرة حسب المكان والزمان. فأعراف أهل البادية والصحراء تختلف عن أعراف أهل الغابات والجبال العالية في الطعام والشراب واللباس وأسلوب الضيافة والأفراح والمآتم. وكذلك الوضع الاقتصادي والعلاقات الإنتاجية تؤثر على الأعراف، فأعراف الأغنياء في نفس البلد تختلف عن أعراف الفقراء. وكذلك ظهور سلعة جديدة في الإنتاج تؤثر على الأعراف لأنها ستدخل ضمن دائرة التبادل التجاري والاستعمال. وهكذا يجب علينا أن نعرف أن مفهوم "المعروف والمنكر" هو مفهوم حنيفي متطور غير ثابت، ويبدأ هذا المفهوم من المستوى الأسري كلبنة أولية في المجتمع ثم يرتقي بعد ذلك إلى مستويات متفاوتة التراتب من الأسرة إلى الحي فالمنطقة الإدارية للمنطقة التي يسكن بها الفرد في مجتمعه، ثم تتوسع وترتقي إلى أن تصل إلى المعارضة في السلطة، حيث تقوم مؤسسات المجتمع المدني بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع، ويتمثل دورها في دفع السلطة على اختلاف مستوياتها التدريجية إلى تشريع ما يتناسب مع متطلبات أفراد المجتمع والمصلحة العامة لهم، أي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا علاقة له بالسلطة التنفيذية إطلاقاً، فالسلطة تسمح وتمنع فقط أما مؤسسات المجتمع المدني فتأمر وتنهى فقط.

كما نؤكد هنا أيضاً أنه يجب على القارئ ألا يخلط بين مفهومي الأعراف والقيم الإنسانية، لأن بعض الناس مازالوا يخلطون بينهما. فالقيم هي المنظومة الأخلاقية التي جاءت في التنزيل الحكيم صراحة وأضيف إليها مفهوم الأعراف بالتبعية "انظر مبحث الفرقان". ولأن الأعراف هي ما تعارف عليه الناس والمنكر هو ما أنكروه، فممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له علاقة مباشرة وحصرية بممارسة الحلال بشكل يتناسب مع متطلبات المجتمع وتطورها وتقدم مستواها المعرفي وحياتها اليومية.

ومن هذا المنطلق فإن المفاهيم التي لها علاقة بالمظهر الخارجي للإنسان من إعفاء اللحية ولباس كل من الرجل والمرأة وعلاقة الزوج بزوجته والعلاقات الأسرية المعاشية كلها تدخل تحت بند الأعراف لا تحت بند التشريعات (الرسالة) أي لا تدخل تحت بند حدود الله فهي ليست من الرسالة بل هي من التعليمات. وهذا ما علينا أن نقتدي فيه بالنبي (ص) نحن المسلمين كما أمرنا الله بقوله {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..} (آل عمران ١٠٤) وقوله {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ..} (آل عمران ١١٠) وقوله {.. الْآَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ..} (التوبة ١١٢) لاحظ في الآية ١١٢ من سورة التوبة كيف فصل المعروف والمنكر عن الحدود، وهذا ما يجب أن نفهمه تماماً نحن المسلمين المؤمنين بأن التعليمات التي جاءت للنبي (ص) بصيغة {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} هي من القصص المحمدي وليس لها أي علاقة بالتشريع. لذا فهي تعامل معاملة القصص القرآني وتؤخذ منها العبرة فقط.

الفصل الثاني

أزمة الفقه الإسلامي

الفرع الأول: تاريخ الفقه الإسلامي إلى يومنا هذا

إن المذاهب الفقهية الخمسة الرئيسية "الحنفي، الشافعي، الحنبلي، المالكي، الجعفري" هي من أطر تفاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معينة عاشها هؤلاء الفقهاء بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذا فإن كل المذاهب الفقهية نشأت في ظل سلطة قمعية تحكم باسم الدين وتأخذ شرعيتها منه. وجاء الفقهاء وأطروه ونهجوه ووضعوا له أسساً تنسجم مع الشروط الموضوعية التاريخية التي عايشوها هم لا نحن. وقد كان فقههم مناسباً في حينه، وتكمن قوته في أنه أجاب على كل المسائل المطروحة في مجتمعهم ضمن سياقها التاريخي، وقد كان تفاعلهم مع مجتمعهم تفاعلاً إيجابياً ووطنياً في نفس الوقت، حتى إن الشافعي له مذهبان: القديم والجديد. فعندما سافر إلى مصر واستقر فيها كتب مذهبه الجديد لأنه غير المكان ضمن نفس المرحلة التاريخية. وبعد هذا التفاعل ضعفت الدولة الإسلامية ووهنت ولم يستمر هذا التفاعل الإيجابي والوطني. علماً أنه في ظل السياسة والفقه التاريخيين لم يتم النظر إلى الفرد وحريته باحترام، حتى أن الفرد غير موجود أصلاً. فبعد استيلاء العناصر غير العربية والشعوبية على السلطة في بغداد، الذي بدأ في عصر المعتصم واكتمل في عصر الواثق، ضعفت السلطة، ومنع الاجتهاد وقمع الفكر، وأصبح الفكر الإسلامي فقه السلطة أياً كانت، ومن عهد الواثق أصبح من المهمات الأساسية للفقيه قمع الفكر الحر النقدي وترضية عامة الناس بأوضاعهم المتردية وجعلهم يقبلون بالسلطة أياً كانت، حتى إنه جاء في "العقد الفريد" لابن عبد ربه مايلي "إذا كان الحاكم عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان ظالماً فعليه الوزر وعليك الصبر". وقد تم توظيف ما يسمى بالحديث النبوي لتطويع العامة الذي استغل سياسياً واجتماعياً.

لقد استمر هذا الفقه منذ ذلك الحين مروراً بالمماليك الذين لا يعرفون حتى اللغة العربية والدولة العثمانية حتى يومنا هذا. فماهو دور الفقهاء في هذه الحقبة التاريخية عندما كان يحكم المسلمين "قطز، وبيبرس، وأقطاي، وقلاوون" وسلاطين بني عثمان؟ لقد كان دورهم ترضية عامة الناس

وإبعادهم عن مشاكلهم الحقيقية، وحصر الإسلام في نواقض الوضوء ومفسدات الصلاة والطهارة والنجاسة ولباس المرأة والرجل ومناسك الحج. وقد انعكس الوضع السياسي والاقتصادي المشرذم عند الأمراء والمماليك المختلفين على تشرذم الفقهاء أنفسهم، فصار لكل أمير رعيته وفقهاؤه حتى أصبح في الجامع الأموي أربعة محاريب للصلاة من أجل أتباع الفقهاء الأربعة، وأصبح الالتزام الفقهي موازياً للالتزام والولاء السياسي. فكما أن الأمير لا يسامح الناس بالولاء لغيره، كذلك الفقيه أيضاً لا يقبل من أتباعه بسماع غيره، حتى أصبحت مقولة ''المريد بين شيخين كالمرأة بين رجلين'' هي السائدة. وقد استمر هذا الأمر مئات السنين، ومانحن المسلمين في عصرنا الحاضر، بما نحمله من فقه نظن أنه فقه إسلامي، إلا نتاج لهذه العملية التاريخية الطويلة.

وقد أخذ المعتزلة بادئ ذي بدء على عاتقهم مهمة تقديم طرح فلسفي معرفي للكون والحياة والإنسان وقاموا بدور إيجابي جداً، فقد استطاعوا من الناحية الفلسفية المعرفية سحق كل العقائد القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام وكانوا درع الإسلام الحصين من الناحية العقائدية، حيث أن الفقهاء جميعاً لم يستطيعوا مواجهتهم، حتى جاء أبو الحسن الأشعري وجابه المعتزلة بنفس سلاحهم، لا بسلاح الفقه، ثم أكمل هذه المهمة الفلاسفة المسلمون إلى أن جاء الغزالي واتهم الفلاسفة بالزندقة ومنع الفكر الحر النقدي. فكان الغزالي من أهم أركان تجميد الفكر الإسلامي وتشويه نظرية المعرفة لوقوعه في خرافات وأوهام التصوف.

بعد ضرب المعتزلة الضربة الساحقة كانت الساحة خالية من الناحية الفلسفية المعرفية فجاءت الصوفية لتملأ هذا الفراغ بمادة هيولية غثة، حولت الإسلام إلى دين خرافة وتمائم وتعاويذ وأوراد وأذكار، فأصبح المسلم بين نارين. الأولى: تكبيل الفقهاء وتشرذمهم وتحويل الإسلام إلى دين كنسي بحت. والثانية: خرافية المعرفة. لقد كانت مشاكل الإنسان المسلم عبارة عن مشاكل يومية يعيشها ويلمسها، فعوضاً عن أن تعرفه بأسبابها الحقيقية ''منهج البحث العلمي الموضوعي'' حولتها إلى قوى غير مرئية، فقدمت الصوفية إلى السلطة إنساناً مقهوراً ذليلاً إمعة جاهلاً قانعاً بكل شيء، وهذه الأطروحة ما زالت حتى يومنا هذا، حتى شاع الدعاء المشهور القديم الجديد ''اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا'' هذا الدعاء هو دعاء إنسان مفلس مستسلم قانع بأن أمور قيادته خرجت من بين يديه إلى الأبد. وهذه أطروحة شيطانية خادعة، فكلما حلت مصيبة بالمسلمين يقول لنا مشايخنا هذه ذنوبكم لأنكم ابتعدتم عن الله، كما لو كان المسلمون هم المذنبون الوحيدون في الأرض وأصبح الدعاء السائد ''اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه'' هذا الدعاء

لإنسان مستسلم غير صحيح، علماً بأن الدعاء الوارد عن النبي (ص) إن صح هو "لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر" "الجامع الصغير ج٢ ص ٢٠٣".

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عندما يتحدثون مع المسلمين بأحاديثهم الخرافية، ويسأل سائل عنده بقية من عقل: كيف حصل هذا؟ فيكون الجواب "إن الله على كل شيء قدير" ولقد أعطينا جواباً لهذه المعضلة في فصل جدل الإنسان.

لقد استبدلت الصوفية والفقه المتشرذم المتخلف، بالجامعات ومعاهد البحث العلمي الزوايا والتكايا المليئة بمضيعة الوقت والخزعبلات وحلقات الدرس المقتصرة على قراءة حاشية ابن عابدين والطهارة والنجاسة ومفسدات الوضوء. وعندما خرج العثمانيون من سوريا كان هناك مدرسة واحدة ومئات حلقات الذكر والنوبات والزوايا والتكايا. وليتني أرى من يذكر لي عالماً واحداً في الرياضيات أو في الفلك أو الفيزياء أو في بقية العلوم ظهر خلال أربعة قرون من حكم الدولة العثمانية. بالمقابل كان في كل بلد عشرات المشايخ من فقهاء ومتصوفة دورهم الأساسي تخدير الناس وإبعادهم عن مشاكلهم المباشرة وأعدائهم الحقيقيين. فقد كانوا أعمدة السلطة ودعائمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفاسدة، سواء عرفوا ذلك أم لم يعرفوا. ومازال ورثة هؤلاء الناس يعيشون بيننا حتى يومنا هذا تحت أسماء شتى يفقهون على المسلمين ما يسمى بالإسلام حسب زعمهم، ولم يعلموا أن وجودهم هو أحد المشاكل التي يعاني منها الإسلام، وأن وجودهم يحجب الفكر النقدي عن الناس. ومانحن في عصرنا الحاضر إلا أمة مهزومة ومأزومة ورثنا فكراً نظن أنه فكر إسلامي أصيل وماهو إلا تفاعل تاريخي بحت، ونعيش حياة مادية معاصرة ونعرف ماذا يوجد في العالم ونعيش شخصية مزدوجة مهزوزة نبحث عن ذاتنا في الفكر الفلسفي الموروث وفيما يسمى بالحجاب الشرعي، وهذه المشكلة غير قابلة للحل إلا إذا أعدنا النظر في الفكر الفلسفي السلفي الموروث كاملاً، وأجرينا تفاعلاً جديداً للكتاب والقرآن مع معطياتنا الحالية، وهذه هي السنة في تفاعل الكتاب من جديد وإعادة تأويل القرآن. وعلينا أن نكون على ثقة بأننا قادرون على أن نفقه لأنفسنا.

لذا فإن الطرح الذي ينادي بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على أساس أن الإسلام هو الموروث من كتب الفقه، وأن حدود الله هي تشريع عيني هو طرح في فراغ ووهم لا يمكن أن يكتب له النجاح، وهو من باب مضيعة الوقت والمال والأنفس. علماً بأن الدولة بدأت تنفصل عن الدين بمفهومه الموروث، إن لم تنفصل كلياً، حيث أن الحياة ومشاكلها لا ترحم أبداً ولا تساير أحداً. وأعطتنا الحياة المعاصرة انطباعاً بأن الإسلام لا يصلح لكل زمان ومكان، وهذا غير صحيح.

فالإسلام كما جاء في كتاب الله يصلح لكل زمان ومكان، بينما الفقه الإسلامي صناعة إنسانية بحتة، وهو غير صالح ومهترئ ولا يمكن تطبيقه إلا قهراً لأنه متجاوز.

الفرع الثاني: أسباب أزمة الفقه الإسلامي

من هنا يجب أن ننطلق في فهم أزمة الفقه الإسلامي الموروث والتفسير، الذي أصبح يشكل عبئاً علينا بعد أن أصبح غير متناسب مع معلوماتنا وظروفنا في القرن الواحد والعشرين حيث أن الأزمة تنطلق من خطأ في المنهج، لا من ضعف في اللغة العربية أو قلة في التقوى:

١– أما بالنسبة للتفسير فقد ظن المفسرون أن القرآن على غرار التوراة كلاهما فيه كونيات وقصص. ففسروا القرآن على ضوء التوراة غير آخذين بعين الاعتبار أن التوراة جاءت مرحلية أما القرآن فأبدي ويمتاز بخاصية التشابه، فأخضعوا المطلق للمقيد مع أن المفروض هو العكس، ثم قاموا بتثبيت هذا التفسير إلى يومنا هذا.

٢– وأما بالنسبة لأم الكتاب "الرسالة" فقد ظن الفقهاء أن شريعة محمد (ص) هي شريعة عينية على غرار شريعة موسى المليئة بالإصر والأغلال وليست شريعة حدودية حنيفية. وقد وقعوا في خطأ أن آيات أم الكتاب هي نص، ولا اجتهاد في النص. فوقفوا على الآية أي على الحد، لا عند الحد. علما بأنه إذا أراد فريقا كرة قدم أن يلعبا مباراة بكرة القدم فعليهما أن يلعبا ضمن حدود الملعب لاعند حدوده. مثال على ذلك آية الإرث، حيث وقفوا على الآية تماماً أي على الحدود ولم يتحركوا ضمن الحدود أبداً. ونحن لا نلومهم على ذلك، لأن مفهوم الحدود والتحليل في الرياضيات وضعه إسحاق نيوتن في القرن السابع عشر. وهكذا نفهم لماذا سميت رسالة محمد (ص) بأم الكتاب بينما سميت رسالة موسى وعيسى بالكتاب لأنه يمكن استنباط ملايين الكتب في التشريع من أم التشريع، ومعظم التشريعات المعاصرة لأهل الأرض تدخل ضمن أم الكتاب، وكل مجالس التشريع في العالم تقلد الحنيفية في التشريع ولم تخرج عنها.

٣– قولهم بالنسخ في الرسالة المحمدية أدى بهم إلى إلصاق تهمة النقص بالرسالة التي جاءت خاتمة وعالمية، وإلحاق تهمة النقص بالوحي الذي جاء به الرسول بين دفتي المصحف، حتى أنهم ألحقوا النقص بالله عز وجل – تعالى سبحانه عن ذلك–، لأن قولهم بالنسخ أدى ضرورة إلى القول بوجود تناقض في التنزيل الحكيم، وإلى احتياجه إلى الأحاديث المنسوبة للرسول لإزالة ما فيه من التناقض الناتج عن النسخ، وفي ذلك تقوّلٌ على الله وإنقاص من شأنه وشأن وحيه وجعل الرسول شريكاً له في الألوهية وهو برئ لأنه لا يمكنه مخالفة قول ربه، ولم يقم بأكثر من تبليغ رسالته. أما

النسخ فقد حصل بين الرسالات المتعاقبة التي جاء بها الرسل، وكانت رسالة محمد هي الخاتمة وقد نسخت ما قبلها من الرسالات لذا فهي خاتمة حنيفية ولاتناقض فيها ماعدا الشعائر حيث خضعت للاختلاف بين الملل.

٤- الخلط بين آيات الرسالة وآيات القصص المحمدي جعلهم يقعون في خطأ معرفي خطير، حيث أخذوا آيات القصص المحمدي التاريخية على أنها من الرسالة واستنبطوا منها أحكاماً مطلقة كآيات القتال والحرب، واستصدروا بناء عليها فتاوى التكفير والجهاد، مع جهلهم التام أن آيات القصص المحمدي هي آيات تاريخية كالقصص الوارد حول يوسف وموسى وعيسى، ولاتؤخذ منها إلا العبرة، لأن الشروط الموضوعية لوقوعها قد تغيرت ولا يمكن إسقاطها حرفياً على المجتمعات التي جاءت بعدها بما في ذلك عصرنا الحالي، لأن التاريخ يسير إلى الأمام وليس إلى الوراء كما يظنون.

٥- الفهم الخاطئ للسنة بنوعيها سنة الرسالة وسنة النبوة على أنها عين الحديث، وأوجبوا طاعته فيهما معاً طاعة متصلة فحنطوا الفقه الإسلامي في حقبة زمنية معينة. والصواب أن السنة التي تجب طاعة الرسول فيها طاعة متصلة إنما هي في اتباع منهجه الحنيفي في التعامل مع حدود الله، وتقييد الحلال وإطلاقه طبقاً للظروف الموضوعية التي عاشها النبي (ص) وأعراف وتقاليد مجتمعه، وبهذا كان الأسوة الحسنة لنا، وليس اتباع عين اجتهاداته كما يظن الفقهاء.

إن نبوة محمد (ص) ورسالته هما الخاتم، لأنه بعث لكل الناس في كل زمان وكل مكان. وكونهما الخاتم فهذا يعني بالضرورة أن الإنسانية ببعثته (ص) بدأت بمرحلة نضج أصبحت تتمكن معها من البدء في استيعاب قوانين الوجود، والبدء باستنباط هذه القوانين من القرآن أو من خارجه لوحدها، وبدأت أيضاً تصبح قادرة على التشريع لنفسها بمفردها ضمن حدود الله، وتضع حدوداً في أمور التشريع الأخرى. وبهذا أوحي للنبي (ص) ما لم يوح لغيره {.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..} (المائدة ٣) كبداية لمرحلة جدية في مسيرة الإنسانية، مرحلة لم يعد فيها التدخل الإلهي مباشراً، وعلى الإنسان أن يعتمد فيها على عقله وقدراته الفكرية لتحقيق خلافته على الأرض. لهذا كلما تقدم الإنسان في سلم الحضارة كلما زاد فهمه للحدود. وكلما بعد عن الحضارة زاد جهله بالحدود لقوله تعالى {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ..} (التوبة ٩٧) وكل الثورات التي ظهرت في العالم وتخلصت من شريعة موسى وعيسى وقعت في أحضان الإسلام الحنيفي بدرجات متفاوتة دون أن تدري. أما نحن

المسلمين من ملة محمد (ص) فمازلنا الأبعد كمجتمعات عن الإسلام لتمسكنا بالتطبيق العيني للتشريع كما ورد في الأحاديث المنسوبة للنبي.

٦– الظن بأنه على المجتمعات الإنسانية في هذه الحياة أن تطبق الشريعة الإسلامية كما جاءت في كتب الفقه قهرا، وأن تتكيف معها إجبارا، مع أن العكس هو الصحيح لأن التشريع الإسلامي الحنيفي هو الذي يتكيف مع تطورات الحياة والواقع الإنساني زماناً ومكاناً بحنيفيته.

الفرع الثالث: أزمة فقه المرأة

يعتبر بحث المرأة في الإسلام من أهم المواضيع حساسية، وهو من المواضيع التي بحثها عديد من مؤيدي الإسلام ومن أعدائه، ابتداء من عصر النهضة وحتى يومنا هذا. ولاأعتقد أنه تم إلى اليوم تقديم بحث أصيل حول المرأة في الإسلام انطلاقاً من الجدل بين الاستقامة والحنيفية والفطرة الإنسانية التي تعتبر حدود الله العمود الفقري لهذا المنطلق.

لقد انطلق مؤيدو الإسلام في بحثهم موضوع المرأة من منطلق فقهي بحت وهو أن أحكام المذاهب الفقهية الخمسة هي أحكام صحيحة ومنصفة للمرأة. بينما انطلق أعداء الإسلام من حلول لمشكلة المرأة من خارج الإسلام ويمكن أن تكون هذه الحلول إسلامية دون أن يعلموا ذلك، فوقعوا في الاغتراب حيث لا يمكن حل مشاكل المرأة العربية المعاصرة إلا من خلال فهم إسلامي أصيل للمرأة ورد في التنزيل الحكيم ضمن مفهوم السنة المعاصر الذي تم شرحه في فصل سابق.

إن الأخطاء الأساسية التي ارتكبت في الحقبة التاريخية السابقة عند تقييم وضع المرأة، والتي تعتبر أخطاء في صلب المنهج، هي التالية:

١– عدم التفريق بين الآيات التي وردت بحق المرأة في أم الكتاب، والتي يعتبر جزء منها حدوداً والجزء الآخر تعليمات تخضع لأعراف وتقاليد المجتمع ولاعلاقة لها بالتشريع، مثل آية لباس المرأة في الآية ٣١ من سورة النور. إننا لا نستطيع أن نلوم السلف على عدم فهمهم للحدود الفهم المعاصر الذي نتميز به عنهم، ذلك أن المفهوم الرياضي للحدود ظهر فقط منذ إسحاق نيوتن وبعد ذلك قفزت كل العلوم هذه القفزات الهائلة، حيث أعطاها التحليل الرياضي والحدود "النهايات" الآلية التي تم بموجبها تحليل ظواهر الطبيعة وتبين أن ظواهر الطبيعة تخضع لحدود "نهايات". وقد أكد التنزيل الحكيم أن فهم الحدود يحتاج إلى إنسان متحضر بعيد عن البداوة بقوله تعالى {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة ٩٧) لذا بعد فهم

نظرية الحدود ومطابقتها على أنها في المستقيم والحنيف معاً، ومطابقة لظواهر الطبيعة ولفطرة الإنسان، فإننا نستطيع أن نقيم وضع المرأة تقييماً معاصراً متحضراً انطلاقاً من الكتاب والسنة.

٢– الظن بأن ما حصل أثناء حياة النبي في حق المرأة هو بداية تحريرها، أي أن تحرير المرأة بدأ منذ بعثة محمد (ص) ولكن هذا التحرير انتهى بعد وفاته مباشرة. لأنه إذا لم تعمل المرأة في حياة النبي (ص) قاضية أو لم تستلم منصباً سياسياً فهذا يعني أن ذلك لم يكن مسموحاً وفق الأعراف والتقاليد البدائية للمجتمع آنذاك ولاعلاقة للأمر بالتشريع، علماً بأن وضع تحرير المرأة في الإسلام، كوضع الرق تماماً، تم وفق مراحل، لأنه في أمور كهذه لا يُسمح بقفزات فجائية "حرق مراحل" تؤدي إلى تدمير المجتمع، ولكنه وضع لها أسساً في الكتاب لكي يتم التدرج في حل هذه المسائل والقضايا مع سياق الزمن التاريخي ومع تغير أعراف وتقاليد المجتمعات وفق تغير مستوياتها المعرفية. وقد كان الرق أوضح مثال على ذلك، حيث كانت العلاقات الإنتاجية في ذلك الزمان تقوم على الرق باعتبار اليد المنتجة هي الرقيق وهي وسيلة الإنتاج.

لقد وضع الإسلام أسس التحرير وبدأ بداية موضوعية حسب ما تسمح به الظروف دون أن يدمر العلاقات الإنتاجية، وقد برهن القرن التاسع عشر على صدق هذه الأطروحة. فقد توفي النبي (ص) عام ٦٣٢م، وأصدر الرئيس الأمريكي لنكولن قراراً بإلغاء الرق في أمريكا عام ١٨٦٠ أي بعد ١٢٢٨ سنة من وفاة النبي (ص) ومع ذلك فقد أدى هذا القرار إلى حرب أهلية دمرت أمريكا وكادت أن تقسمها إلى عدة دول. وقد أظهر القرن العشرين بينات أقوى من ذلك، وهي أنه إذا أرادت سوريا الآن أن تحول جذرياً وفوراً قوى الإنتاج إلى الإنسان الآلي "الروبوت" وإلى الحاسوب الإلكتروني "كمبيوتر" فإن نتيجة هذا القرار هو التدمير الكامل للإنتاج والاقتصاد السوري وبالتالي تدمير المجتمع.

من هذا المنطلق يجب أن ننظر إلى وضع المرأة في الإسلام، فقد بدأت المرأة بأخذ حقوقها التي يمكن أخذها في عهد النبي (ص) مثل الإرث على أساس نصف الرجل لأنها غير منتجة، ولكن أعطاها الإسلام الحق السياسي من أول يوم للدعوة، فأول إنسان قتل في سبيل الإسلام هو امرأة (سمية) وقد حضرت النساء بيعتي العقبة الأولى والثانية، حيث أن هاتين البيعتين تعتبران بمثابة المؤتمر التأسيسي لقيام الدولة الإسلامية في يثرب.

٣– الخطأ المنهجي في فهم بعض الآيات التي وردت فيها لفظة النساء كالآية ١٤ من سورة آل عمران {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} والآية ٢٢٣ من سورة

البقرة {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} في هاتين الآيتين وردت لفظة النساء، فإذا كانت النساء هنا هي جمع امرأة وقعنا في طريق مسدود لا مخرج منه، هو أنه وصفهن في آية آل عمران بقوله "ذلك متاع الحياة الدنيا" وسنقوم بتوضيح هذا الخطأ المنهجي في الفصل الأول من الباب الرابع بعنوان "الشهوات الإنسانية".

لكن نقول هنا أنه انطلاقاً من هذه الآية أصبحت المرأة متاعاً "ماينتفع به من الأشياء" وقد عوملت فعلاً على مدى قرون على أنها شيء من الأشياء.

أما عبارة "فأتوا حرثكم أنى شئتم" من آية البقرة ٢٢٣ فناقضت الآية التي قبلها {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }.

هذا الفهم الخاطئ للآيتين أدى لاعتبار المرأة شيئاً من الأشياء، ومع شديد الأسف فإن الفقه الإسلامي الموروث يعتبرها كذلك وينسب ذلك إلى الله ورسوله. ولكن يمكن أن نبرر لهم ذلك بعدم فهمهم لنظرية الحدود أولا، ولأنه في سياق التطور التاريخي كان الرجل هو المسيطر في المجتمع، فتم تفصيل الإسلام متناسباً مع الرجال تماماً. فالمرأة فتنة الرجل وعليها أن تتحجب، ولم يقولوا إن الرجل فتنة المرأة فعليه أن يتحجب، علماً بأن التنزيل الحكيم لم يذكر أبداً أن المرأة فتنة الرجل، بينما ذكر الفتنة ومشتقاتها في التنزيل ٦٠ مرة ولم يذكر المرأة مع الفتنة ولا مرة لا بشكل مباشر ولا غير مباشر، وما ربط الفتنة بالمرأة إلا بهتان عظيم على التنزيل الحكيم الذي ورد فيه ذكر علاقة متكافئة بين الرجل والمرأة بتعبير راق جداً في قوله تعالى {.. هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ..} (البقرة ١٨٧) وأكثر من ذلك بما أن الرجل بحاجة إلى المرأة في الحياة الدنيا من أجل الخدمة البيتية والجماع فعليها طاعته تماماً واعتمدوا على حديث "لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها". كشف الخفاء ج٢ ص ٢٢٨ ولكن في الحياة الآخرة يوجد في الجنة "حور عين" للجماع والرجل ليس بحاجة لأن يخدمه أحد هناك {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} (الحاقة ٢٣) ففي هذه الحالة الرجل ليس بحاجة إلى المرأة فأرسلها إلى النار معتمداً على حديث "أريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع وأريت أكثر أهلها من النساء" البخاري ج٢ ص ٩٣. هذان الحديثان ينقضان كل ما أوحي إلى محمد (ص) في التنزيل الحكيم شكلاً ومضموناً. وقد شرحت في مفهوم الأزواج في الجنة مفهوم الحور العين، وقلت إن آيات الجنة والنار هي من الآيات المتشابهات.

ثم هناك حديث منسوب بهتاناً للنبي (ص) بقول "يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب ويقي ذلك مؤخرة الرجل" مسلم ج١ ص٣٦٥ هذا الحديث يناقض أيضاً كل ما أوحي إلى محمد (ص) من الله حيث فيه إهانة المرأة وتخريجها من المجتمع الإنساني الذي كرمه الله وجعله خليفة له في الأرض.

فكيف يمكن أن نقول إن الإسلام اعتبر المرأة من جهة متاعاً من متاع الدنيا ينتفع به الرجل، دون أن يكون لها كيان أو استقلالية شخصية أو وجود، ثم سمح لها من جهة أخرى بأن تناضل وتقاتل وتهاجر ولم يقل لها التزمي بيتك فوظيفتك هي إنجاب وتربية الأولاد والعناية بالبيت –وبنفس الوقت في الأمور الأقل صعوبة عند قيام الدولة والمناصب المسؤولة ومجالس التشريع تذكر واجباتها أماً ومربية أطفال – قد يقول قائل: إن هذا لم يحصل في عهد النبي (ص) الجواب: إن المجتمع الذي أقامه النبي (ص) هو المجتمع الأول للإسلام "الثمرة الأولى" وليس الوحيد وليس الأخير، حيث أن النبي (ص) تصرف ضمن حدود الله ووضع تعريفاً لبعض الأمور التي جاءت فيها حدود من الله، ووضع تعريفاً لأمور أخرى تتناسب مع مجتمعه الذي عاش فيه وتصرف من خلاله، لأن ظروف التطور التاريخي عند العرب آنذاك لم تكن تسمح أصلاً بقيام مجالس تشريعية، ولم تسمح بأن تتقلد المرأة منصب إمام أو قائد. وفي الأمور التي تجرأت فيها المرأة وخاضت معارك بنفسها كحالة خولة بنت الأزور وعائشة أم المؤمنين، لم يمنعها الإسلام ولم يلمها أحد على ذلك.

في هذه الحالة يجب علينا أن نصحح الخطأ المنهجي ونقول إن تحرير المرأة بدأ في الإسلام على عهد النبي (ص) ولكنه لم ينته كحال الرق تماماً، وتحريرها خاضع للتطور التاريخي للإنسانية ككل وللعرب كجزء منها. وبما أن الله سبحانه وتعالى وضع في أم الكتاب آيات حدودية للمرأة فقد وجب أن تغطي هذه الآيات كل مراحل التطور التاريخي حيث أنها آيات ثابتة "حدودية" وقد سمح بالاجتهاد بحنيفية ضمن هذه الحدودية على مر الأزمنة والعصور، ولمزيد تفاصيل حول فقه المرأة انطلاقاً من هذا المنظور وفق منهج قراءاتي معاصر يرجى الاطلاع على كتابنا "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي"[20]، لأن فيه تفصيلاً وشرحاً مستفيضاً حول هذا الموضوع.

20 – **فقه المرأة/ نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**، الدكتور محمد شحرور، الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٥.

الفرع الرابع: التعريف الصحيح للتشريع

أ– التعريف الصحيح للتشريع

هو تشريع مدني إنساني ضمن حدود الله، ويمكن في بعض الحالات أن يقف هذا التشريع على الحدود، وفي معظم الحالات ضمن الحدود. لذا فهو تشريع حنيفي "متطور" يتناسب مع رغبات الناس ودرجات تطورهم التاريخي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ويقر بأعراف الناس. وإن تجاوز حدود الله لا يجوز أن يخضع للتجربة من قبل الناس ليتأكدوا من صلاحيته، حيث أن نتيجة هذه التجربة ستكون الخيبة والفشل، لأن الله منَّ على الناس وأعطاهم الحدود التي يجب أن يعملوا ضمنها لمصلحتهم الخاصة وذكر أن تجاوز حدود الله فيه ظلم كبير {.. وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ..} (الطلاق ١) أما فيما يتعلق بالعقوبات فيجب على الإنسان أن يسعى جاهداً أن لا يقف على الحد إلا في الحالات البينة تماماً كما قال النبي – إن صح – "ادرؤوا الحدود بالشبهات" ويكون ذلك في الحالات الاستثنائية.

وقد أدرج الله سبحانه وتعالى القتل والفواحش ضمن الحدود وضمن الوصايا لأن الإنسان يجب أن يمتنع عن القتل وعن الفواحش من وازع أخلاقي ذاتي أولاً، ومن وازع قانوني سلطوي ثانياً.

وعلى هذا المبدأ فلنناقش مبادئ التشريع الإسلامي المدونة وهي الكتاب والسنة والقياس والإجماع. ولنحدد مفهومنا لها بناء على ما تقدم من منهجنا في هذا الكتاب.

١– الكتاب:

في أم الكتاب توجد آيات التشريع والشعائر والقيم الإنسانية "الوصايا وقيم إضافية أخرى" فعلينا أن نفرز آيات الحدود على حده لأنها أساس التشريع، وآيات الشعائر لأنها أساس التقوى الفردية، ثم آيات الوصايا لأنها أساس الأخلاق "التقوى الاجتماعية". وآيات الحدود هي آيات حدود التشريع وليست عين التشريع، حيث يجب الوقوف عندها لاعليها ويمكن الوقوف عليها في بعض الحالات. لذا فالقول بالنسبة للحدود بأنه لا مجال للاجتهاد فيما ورد فيه نص قول لا يصح، والصحيح الاجتهاد ضمن الحدود فيما ورد فيه نص وعدم الخروج عن هذه الحدود، والاجتهاد في وضع حدود فيما لم يرد فيه حدود وتقييد الحلال وإطلاقه، وذلك وفق ما يتناسب والأعراف وتقاليد المجتمع وشروطه الموضوعية.

٢– السنة[21]:

21 – لمزيد من التفاصيل يرجى الاطلاع على كتابنا: **السنة الرسولية والسنة النبوية: رؤية جديدة**، دار الساقي، بيروت، لبنان ٢٠١٢.

السنة نوعان: نوع تجب فيه الطاعة المتصلة للرسول، وهو المتمثل في اتباع المنهج الحنيفي في تطبيق الرسالة التي جاءت في أم الكتاب، بما فيها من القيم الإنسانية والشعائر ونظرية الحدود في

التشريع ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونوع تجب فيه الطاعة المنفصلة للرسول على من عاصره من أهل زمانه من أتباعه، وتمثلت طاعته في الأمور التي اجتهد فيها من مقام النبوة في تقييده للحلال أو إطلاقه، وفق ما جاءت به أعراف وتقاليد مجتمعه، واجتهاداته في الأمور السياسية والحربية.

٣- القياس:

إن قياس الشاهد على الغائب هو قياس باطل ومجحف. فلا يصح أن نقيس أي مجتمع معاصر على المجتمع الذي عاش فيه النبي (ص) وإلا فإننا نقع في الوهم. أما القياس الحقيقي فهو قياس الشاهد على الشاهد ضمن الحدود. أما الشاهد الأول فهو البينات المادية الموضوعية. وأما الشاهد الثاني فهو الناس الأحياء الذين سيقاس من أجلهم. مثال ذلك منع التدخين. فالشاهد الأول هو المعلومات الطبية والإحصائية حول التدخين، والشاهد الثاني هو الناس الذين سيطبق عليهم قانون منع التدخين. مع التنبيه على أن الطبيب له حق النهي عن التدخين لأسباب صحية أما السلطة فهي التي تمنع التدخين في الأماكن العامة، بينما لو تواضع أهل الأرض جميعاً على تحريم التدخين الذي هو حلال أو أي شيء آخر حلال فلايحق لهم ذلك أبداً لأن الله وحده هو صاحب الحق في التحريم. لأن الحرام شمولي وأبدي، فتحريم التدخين يعني أن الذي سيلد بعد عشرة آلاف سنة عليه أن لا يدخن، ولا يوجد أحد – فرداً كان أم جماعة – مؤهل لهذا القرار إلا الله فقط.

٤- الإجماع:

الإجماع في مفهومنا القراءاتي المعاصر هو إجماع أكثرية الناس على قبول التشريع المقترح بشأنهم، والتزامهم بتطبيقه. لذا فإن المجالس التشريعية المنتخبة والمنابر التشريعية الحرة وحرية التعبير عن الرأي هي جزء لا يتجزأ من النظام السياسي المنسجم مع الإسلام وذلك حتى يتحقق مفهوم الإجماع، وهذا هو المفهوم الحقيقي للديموقراطية التشريعية وحرية التعبير عن الرأي ضمن الحدود وأعراف المجتمع وتقليده، لذا فلايوجد في الإسلام ما يسمى النظام السياسي الإسلامي بل هذا الطرح مجرد وهم لأن الدين لاعلاقة له بالسلطة.

إن المفهوم الموروث للإجماع بأنه ما أجمع عليه السلف أو جمهور الفقهاء هو مفهوم وهمي ولايصلح تطبيقه على كل العصور. فقد أجمع هؤلاء الفقهاء على أمور تخص مجتمعاتهم ضمن ظروفهم وحل مشاكلهم الخاصة، وليس لنا علاقة بهم ولاتعنينا اجتهاداتهم لأنها ظرفية مرحلية. لذا فنحن نرى أن المذاهب الفقهية الموروثة إذا كان فيها ما يتناسب مع واقعنا الحالي أخذنا بها بكل ارتياح، أما إذا وجدناها لا تتناسب مع ظروفنا تركناها دون حرج بغض النظر عمن اجتهد فيها.

٥– التعريف بالجريمة حسب الزمان والمكان:

يجب على المشرع الإسلامي تعريف الجرائم التي تتطلب تطبيق حدود الله ‘‘الحد الأعلى‘‘ ووضع توصيف واضح لها. وهذا التعريف والتوصيف يتغيران من مكان لآخر ومن زمان لآخر، ويمكن في بعض الحالات إلغاؤهما والاكتفاء بالعقوبات الأخف ‘‘الحد الأدنى‘‘، كما يمكن في بعض الحالات الاستثنائية التأكيد عليه وتوسيع مجاله. وبهذا نكون قد اتبعنا سنة النبي (ص) في اجتهاده الحنيف ضمن حدود الله. ويجب قبل اعتماد هذا التعريف أخذ إجماع الأكثرية عليه. فمثلاً من الممكن أن تقع ألف حادثة سرقة ولكن قد تقطع يد واحدة، أما البقية فيأخذون عقوبات تخفيفية متفاوتة قد تصل إلى حد الإعفاء. وكذلك الأمر بالنسبة للقتل فيمكن أن تقع مائة حادثة قتل ويعدم شخص واحد بينما يسجن الباقون أو يعاقبون عقوبة أخف من القتل. وقد تلغى عقوبة الإعدام، ولكن دون أن يأخذ هذا الأمر طابع الأبدية.

ب– الشروط التي يجب أن تتوفر في التشريع المعاصر المنسجم مع التشريع الإسلامي

١– فهم اللسان العربي على أنه خال من المترادفات، وأن أي نص لغوي من التنزيل الحكيم أو من خارجه لا يفهم إلا على نحو يقتضيه العقل.

٢– استيعاب الأرضية العلمية للعصر الذي يعيش فيه المشرعون.

٣– استيعاب القوانين الاقتصادية والاجتماعية للعصر الذي يعيش فيه.

٤– اعتبار علماء الطبيعة بكل فروعها ‘‘هندسة – طب – فلك – فيزياء–كيمياء‘‘ هم الساعد الأيمن للمشرع.

٥– الاعتماد كلياً على توفر البينات المادية قبل إصدار أي حكم بقياس شاهد على شاهد. لذا فإن علماء الإحصاء بالذات الشركاء الذين لاغنى للمشرع عنهم.

٦– إذا تغير أحد الشواهد –وهنا هي الظروف الموضوعية– يعاد النظر بالأحكام تعديلاً أو إلغاءً.

٧– قاعدة ‘‘إن صح الحديث فهو مذهبي‘‘ ليست صحيحة دائماً، فصحة الحديث لا تعني أن الحكم الذي يتضمنه مطلق، لأن كل أحاديث اجتهاداته العينية من مقام النبوة هي مرحلية وظرفية ولا يمكن أن تكون أبدية، وطاعته فيها طاعة منفصلة من مقام الرسالة.

٨– عدم التقيد بأي مذهب فقهي تاريخي مهما كان نوعه.

٩– اعتبار الأعراف التي هي بنية فوقية لبنية تحتية هي العلاقات الاقتصادية والإنتاجية والبيئة هي موجه التشريع.

١٠– عدم النسيان مطلقاً أن أساس التشريع الإسلامي والحياة الإنسانية هو الحرية والإباحة.

١١– وأن الإسلام دين حنيف، فأي تشريع يعرقل مسيرة التقدم في المجتمع والعدالة النسبية علينا أن نحنف عنه "نميل عنه" دون الخروج عن حدود الله، فهي قابلة لاستيعاب كل التغيرات التي تعرفها الحياة الإنسانية على مر الزمن.

١٢– على الفقه الإسلامي أن ينسجم مع المجتمعات الإنسانية لا العكس، لذلك يجب على المشرعين المعاصرين تدقيق مبدأين فقهيين شائعين هما:

أ– باب سد الذرائع

لقد جرى تحت هذا الباب تحريم كثير من الحلال، أما على صعيد الإسقاطات السياسية لهذا الباب فينتج عنها إعلان حالة الطوارئ والأحكام العرفية.

فحالة الطوارئ والأحكام العرفية تطبق عندما تخاف الدولة من أمور قد تحدث لا حدثت فعلا وتحتاط لهذه الأمور سلفاً. هذا الباب يعتبر من أهم أبواب الفقه الإسلامي التي يجب تدقيقها وإعادة النظر فيها أو حتى إلغاؤها.

قد يقول البعض إن هناك طباً وقائياً، أفلا يمكن أن يكون هناك تشريع وقائي؟ الجواب: إن هذا القياس قياس خاطئ للأسباب التالية:

١– لم يظهر الطب الوقائي إلا بعد بحث علمي وتدقيق بأن عدم تعقيم الأدوات الجراحية يسبب تلوث الجرح، وأن لقاح الأطفال ضد الجدري والسعال الديكي والدفتريا هو مانع فعلاً لا فرضاً، وذلك بعد آلاف التجارب. أي أن الطب الوقائي مبني على بينات مادية موضوعية وصل إليها المشرع عن طريق الدليل العملي لا النظري.

٢– ومع ذلك فإن المشرع لم يضع ثواباً وعقاباً لمن لا يلقح أولاده، أي أن الطب الوقائي لم يساهم بحجز الحريات الشخصية إلا من باب معرفي فقط لا من باب أخلاقي ولا من باب جمالي ولا من باب سلطوي ولامن باب الحلال والحرام.

أما باب سد الذرائع من الناحية الفقهية فلا يمكن أن يستعمل إلا بعد تقديم الدلائل المادية البرهانية. فلايحق للمشرع أبداً أن يقول "إذا خشي كذا وكذا فعليكم بكذا وكذا" هذا ليس تشريعاً. فالمشرع يقول لقد حصل فعلاً كذا وكذا ويقدم الإحصائيات والنتائج المادية التي حصلت فعلاً، ويقدم الحل التشريعي.

لذا فعلم الإحصاء هو الشريك المباشر للقانون، حيث لا يمكن للتشريع بدونه أن يكون فعالاً، لأن أي فتوى فقهية أو قانونية فيها حجز لحرية الناس. والحرية هي أقدس مقدسات الإنسان، فلا يجوز العبث بها بسهولة وبدون الشعور بالمسؤولية. وعلينا أن نعلم أن التشدد يحسنه كل إنسان: الجاهل والعالم والفقيه وغير الفقيه. وهو لا يحتاج إلى فقه ولا إلى بينات. فلا يستعمل باب سد الذرائع إلا بعد تقديم البينات المادية المقنعة.

ب- باب درء المفاسد أهم من جلب المنافع

هذا الباب أيضاً من عيوب الفقه الإسلامي يجب تدقيقه، لأنه إذا طبق -وقد طبق فعلا مئات السنين- كان من نتائجه فقدان روح المغامرة عند الإنسان المسلم. وهنا يجب أن نفهم أن المفاسد والمنافع نسبية تماماً. فمثلا عندما يذهب الشاب العربي المسلم إلى أوروبا لطلب العلم، فإنه قد يقع في الزنا وشرب الخمر. فإذا طبقنا هذا الباب خوفاً من الوقوع في الزنا أو من شرب كأس خمرة فلا نسافر ولانتعلم.

إن على الفقهاء والقانونيين أن يتخلوا عن هذا الباب كلياً ولو مؤقتاً، ثم إذا أرادوا استعماله فيجب أن يستعمل أيضاً بعد تقديم البينات المادية الإحصائية.

من هنا نرى أن الفقهاء والقانونيين هم أكثر الناس احتياجاً للمعلومات المختلفة في الطب وبقية العلوم والمعلومات الإحصائية في كل مجالات الحياة، أي أنهم سيكونون أكثر الناس استعمالاً واستفادة من الحاسوب الإلكتروني مثلاً.

ج- شريعة من قبلنا شرع لنا، ما لم تكن مخالفة لشريعتنا التي جاءت بعدها، لأن شرائع من قبلنا مليئة بالإصر والأغلال، وانتقلت هذه الإصر والأغلال إلى الفقه الإسلامي التراثي بسبب تقليد الفقهاء لشرائع من قبلهم، لذا يجب أن تُلغى اجتهادات الفقهاء تماماً.

د- (كل قرض جر منفعة فهو ربا) يجب إعادة النظر في هذه القاعدة الشائعة في الفقه الإسلامي، لأن الحياة الإنسانية قائمة على المنافع المتبادلة. ويجب كذلك إعادة دراسة وتحليل مسألة الربا لأن ما يحدث الآن ماهو إلا عملية لف ودروان حول هذه القاعدة التي لا تحتمل أي صحة.

الفرع الخامس: فلسفة القضاء الإسلامي والعقوبات

أ- القضاء الإسلامي

بعد أن شرحنا نظرية الحدود والجدل المستمر بين النقيضين الاستقامة والحنيفية الذي يتولد منه ملايين الحالات من التشريع، نقول إن فلسفة التشريع الإسلامي تقوم على العلاقة الجدلية بين الثبات والتغير، وبالتالي تقوم على نفس علاقة الثبات والتغير في إصدار الحكم من قبل القاضي. فالقضاء الإسلامي يسمح بإصدار حكمين متغايرين لقضيتين متشابهتين. كما أن التشريع يسمح بتطبيق الأنصبة الإرثية حسب تغير الأحوال وذلك انطلاقاً من المبدأ الطبيعي التالي:

لا يمكن لحدثين إنسانيين أن يتطابقا تماماً، ولكن يمكن أن يتشابها وهناك حدود للتشابه بينهما. وكذلك في الطبيعة لا يمكن لحدثين أن يتماثلا تماماً. فهناك جدل بين التماثل والاختلاف إذا أخذ بعين الاعتبار في حالة إصدار حكم قضائي، صدر هذا الحكم أقرب إلى العدل. ولكن لا يمكن تحقيق هذا عملياً في القضاء إلا إذا كانت النصوص القانونية تحمل الطابع المستقيم والحنيف معاً، أي أن النص القانوني هو نص حدودي يجب الوقوف عنده لا عليه.

في هذه الحالة لدينا حالتان:

١- **الحالة الأولى:** أن يكون النص القانوني نصاً عينياً لا يحق للقاضي أن يحيد عنه قيد شعرة واحدة، ولايسعه إلا الوقوف عليه تماماً. في هذه الحالة لا يبقى عند القاضي أي مجال للحركة واتخاذ القرار طبقاً لكل حالة تخاصمية على حده، وعند ذلك يفقد القضاء هيبته ويصبح القاضي مجرد موظف عادي، بحيث يمكن لأي إنسان مهما بلغ من قلة الذكاء والبلاهة أن يصبح قاضياً بمجرد أنه قدم امتحاناً وحفظ النصوص عن ظهر قلب. وإذا كانت هذه الحالة عند العرب موجودة الآن فقد ورثناها من الفقه الخاطئ الذي يقول لا اجتهاد في مورد النص والذي استمر أكثر من ألف عام. وهذه الحالة يرفضها القضاء الإسلامي رفضاً باتاً.

٢- **الحالة الثانية:** أن يكون النص القانوني إسلامياً، أي حدودياً. بمعنى أن يبين الحدود العليا التي لا يمكن تجاوزها، أو الحدود الدنيا التي لا يمكن النزول عنها، أو الحدين الأدنى والأعلى المسموح له أن يتحرك بينهما. في هذه الحالة يمكن للقاضي أن يصدر مئات الأحكام المتغايرة لقضايا متشابهة.

مثال: إذا وضع القانون غرامة القتل الخطأ "الدية" مبلغ مئة ألف ليرة سورية وسجن سنة واحدة. فيجب أن ينص القانون على حدوديته، أي هل هذا حد أعلى أم حد أدنى؟ فإذا كان حداً أدنى فيحق للقاضي أن يفرض غرامات ابتداء من مئة ألف ليرة فما فوق، ولكن لا يجوز له أبداً أن يصدر حكماً بأقل من ذلك. هذا النوع من القانون يعطي للقاضي حرية الحركة لتحقيق العدالة في كل قضية على حده.

ولكن هذا النوع من القانون، وبالتالي القضاء، يتطلب من القاضي أن يكون شخصاً مميزاً، أي شخصاً معروفاً بنزاهته وميله إلى العدل، وبخبرته الواسعة في الحياة، ومشهود له بالفطنة والذكاء، بحيث لا يمكن لأي إنسان حفظ القانون أن يصبح قاضياً، بل يتطلب الأمر أكثر من ذلك بكثير. مثال على ذلك: هيئة محلفين لكل قضية على حده. وفي هذه الحالة يظهر الجدل بين المدعي العام والمحامي، فالمدعي العام يبرز أوجه القضية التي تتطلب العقوبة القصوى، والمحامي يبرز أوجه القضية التي تقتضي تنزيل العقوبة. هذا النوع من الجدل بين التشديد والتخفيف يساعد القاضي على الوصول إلى حكم أقرب إلى العدالة "العدالة النسبية" في القضية المعروضة عليه. لذا فإن وجود المدعي العام والمحامي هو من أسس بنية القضاء الإسلامي.

إن أساس القانون في الدولة العربية الإسلامية هو أنه قانون حدودي لا عيني وبالتالي فإن القضاء فيها مرن ومميز، إلا في بعض الحالات الاستثنائية التي يمكن أن يكون القانون عينياً كحالة حد الزنا "الفاحشة العلنية"، ولكن في هذه الحالة يجب على القانون شرح ظروف إقامة العقوبة، علماً بأن هذه الحالات الشاذة يجب أن تكون مهمة جداً كحد الزنا والخيانة الزوجية أو حالة الخيانة الوطنية بحيث يجب أن تعرف تعريفاً واضحاً.

وعلى القضاء الإسلامي أن يأخذ بعين الاعتبار الحديث النبوي "ادرؤوا الحدود بالشبهات" والحدود في العقوبات تعني العقوبة القصوى. هنا لاحظ قول النبي (ص) "ادرؤوا الحدود" ولم يقل "ادرؤوا العقوبات بالشبهات". فإذا كان هنا سارق وثبتت عليه السرقة ولكن هناك شبهة "شك" بأن هذه السرقة قد لا تنطبق عليها عقوبة قطع اليد، في هذه الحالة يمتنع القضاء عن إصدار حكم قطع اليد وينزل إلى الحكم الأدنى من ذلك.

ب ـ العقوبات

١ـ نوع العقوبات

لقد وردت عقوبات قطع اليد والإعدام والجلد على أنها عقوبات حدية في الجلد وحدودية في قطع اليد والإعدام، ونلاحظ أنه لم ترد عقوبة السجن في التنزيل الحكيم كعقوبة من الله، ولكنها وردت في سورة يوسف كعقوبة من الناس "عقوبة عزيز مصر ليوسف".

لم يضع الله سبحانه وتعالى عقوبة السجن في مجال العقوبات لأنه تركها للناس لتحددها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن السجن إهانة لكرامة الإنسان حيث أن الحرية هي أقدس ما يملكه. أما

قطع اليد والإعدام فهما الحد الأعلى للعقوبات على السرقة والقتل لذا فهي استثنائية أي خاصة جداً.

فإذا أجرينا مقارنة بين عقوبة الجلد وعقوبة السجن، وجدنا أن الجلد – في اعتقادنا – أرحم بكثير من السجن للأسباب التالية، على أساس أن الجلد هو عقوبة نتيجة حكم وليس وسيلة للتحقيق والاستنطاق:

١– لا يعطل الإنسان عن عمله.

٢– لا يؤثر على أهل المعاقب إذا كان عنده مسؤولية إعالة زوجة وأطفال.

٣– لا يتطلب أية نفقة من الدولة مثل بناء السجون وحراسة المساجين وإطعامهم وغير ذلك.

٤– لا يفسد الإنسان من الناحية الأخلاقية كما يفسده السجن.

٥– إن طبيعة الإنسان تفضل الجلد على السجن، فإذا أجرينا استفتاء بين كل المساجين في العالم بأن كل مائة جلدة تعادل سجن سنة فإني أعتقد أن أكثرية المسجونين تفضل الجلد على السجن.

لقد أصر الإسلام على علنية العقوبة، وقد يظن البعض أن هذا الإصرار هدفه تربوي بحت يردع بقية الناس عن ارتكاب الجريمة. هذا صحيح ولكنه يأتي في المرتبة الثانية في أهمية العلنية في العقوبة. أما المرتبة الأولى لعلنية العقوبة فهي أن علنية العقوبة في الإسلام هي أكبر وأهم ضمان للناس ضد تعسف الحاكم والأحكام.

فإذا كانت السلطة التنفيذية والسلطة القضائية في أي بلد تعلم أن أية عقوبة يجب أن يصدر بها حكم ويجب أن تنفذ علناً. فهذا يعني أن الناس ستسأل عن البينات التي قامت على المعاقب حتى نفذ فيه الحكم، وعلى السلطة أن تقدم هذه البينات. ولاتتجرأ أية سلطة مهما كانت ظالمة أن تنفذ العقوبات بشكل علني إلا إذا كانت البينات متوفرة. وهذا ما نطلق عليه ديموقراطية العقوبات في الإسلام حيث يكمن فيها أكبر صمام أمان ضد التعسف في الأحكام وفي العقوبات.

الباب الرابع

الشهوات الإنسانية في القرآن

تمهيد

يقوم النظام الاقتصادي في الإسلام على مبدأ "متاع الحياة الدنيا" أي ما ينتفع به من الأشياء في الحياة الدنيا طال هذا الانتفاع أو قصر، ويقوم على المتطلبات الإنسانية، الجانب البشري الغريزي والجانب الإنساني الشهواني، حيث أن هذين الجانبين تداخلا بعضهما ببعض بحيث صار من الصعب فرز كل واحد على حده. فالإنسان لا يأكل لمجرد إملاء المعدة "الجانب الغريزي" لكنه يأكل لإرضاء الشهوات أيضاً، فهناك صنوف الأطعمة وطريقة تحضيرها والمواد المركبة لكل طعام وكذلك استعمال النار للسلق والشي والقلي. والجماع الجنسي غريزة بشرية بالأصل، لكنها ترافقت مع شهوات إنسانية من لباس وزينة وعطور ومطهرات للفم وحفلات زفاف. فالغرائز رغبات غير واعية تتبع الجانب البشري الحيوي من الإنسان، وفي هذا الجانب يكون الإنسان كالحيوان تماماً.

أما الشهوات فهي رغبات واعية تخص الإنسان فقط.

قلنا إن الغرائز توجد لدى الحيوان أيضاً، لكن الحيوانات لا تشكل مجتمعات وإنما تشكل قطعاناً كالبقر والغنم وأسراباً كالطيور والنحل. أما المجتمع الإنساني فيقوم على علاقات واعية بين أفراده تخص الإنسان فقط. لذا فإن أساس الحياة الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية يقوم على الشهوات فلانقول إن هناك علاقات اقتصادية ودورة اقتصادية عند البهائم حيث الغرائز فيها تمارس دون علاقات واعية، والغرائز وحدها لا تكفي لصنع نظام اقتصادي. من هنا نقول في حالة ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة إن الإنسان يفقد إنسانيته، ولكن لا نقول إنه يفقد بشريته.

فما هي مقومات الحياة الاقتصادية عند الإنسان؟

لقد حدد القرآن مقومات قوانين الاقتصاد الإنساني بالبندين التاليين:

١- إن مادة الاقتصاد الإنساني هي "متاع الحياة الدنيا"، وهذا المتاع غير ناضج وخاضع للتبدل والتحول ولايخضع للثبات. وقد حدد القرآن الحياة الاقتصادية على أنها متاع في الآيات التالية:

- {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا..} (القصص ٦٠).
- {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ..} (غافر ٣٩).
- {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..} (الشورى ٣٦).
- {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (الكهف ٤٦).

وقد بين أن متاع الحياة الدنيا غير ناضج ولايحوي صفة الكمال وإنما يخضع للتطور وتنطبق عليه قوانين الجدل الداخلي في قوله تعالى {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (آل عمران ١٨٥) والغرور جاءت من الأصل ''غ ر ر'' وهو قلة الخبرة وعدم النضوج.

٢– إن ''متاع الحياة الدنيا'' بالنسبة للإنسان له مصدران أساسيان لا ثالث لهما هما:

أ– خيرات الطبيعة ''الأرض'' بما تحويه من غابات ونباتات ومصادر معدنية ومياه وأنعام.

ب– عمل الإنسان الواعي.

وقد ورد هذان المصدران في قوله تعالى {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (يس ٣٣–٣٥) وقوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (يس ٧١–٧٣).

نلاحظ في هذه الآيات كيف حدد أساس الحياة في موارد الطبيعة من نبات وحيوان ومياه في قوله {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ} وقوله {وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}، وفي عمل الإنسان في قوله {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ}، هنا ''ما'' اسم موصول بمعنى الذي، أي والذي عملته أيديهم. وبما أن عمل الإنسان الواعي الذي يقوم على علاقات واعية يخص الإنسان فقط، فيجب علينا تحديد الشهوات الإنسانية الرئيسية التي تلعب دوراً أساسياً في سلوكه الشخصي والاجتماعي والتي تلعب دوراً كدور الغرائز.

الفرع الأول: الشهوات الإنسانية المذكورة في القرآن

لنضع تعريفاً لكل من الغرائز والشهوات:

– **الغرائز:** هي رغبات غير واعية ذات منشأ فيزيولوجي بحت، أي أنها مغروزة في الطبيعة البشرية للإنسان مثل غريزة الطعام وغريزة الجنس وغريزة البقاء، وهذه تعتبر أهم الغرائز الموجودة في الكائنات الحية ومن جملتها البشر.

– **الشهوات:** هي رغبات واعية ذات منشأ معرفي واجتماعي وموجودة فقط في الإنسان، أي بعد الأنسنة لا قبلها، لذا فلها بداية تاريخية ''معرفية واجتماعية''.

لقد عرف القرآن الشهوات عل هذا الأساس أي أنها ذات منشأ معرفي واجتماعي ولها بداية تاريخية.

لنأخذ قوله تعالى {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} (الأعراف ٨٠، ٨١) هنا نلاحظ أنه وصف ظاهرة اللواط بأنها شهوة وعلق عليها بقوله {مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ} ولم يقل عن ظاهرة الجماع الطبيعي شهوة لأن هذه الظاهرة ليس لها أية بداية تاريخية واعية، بل هي وجود فيزيولوجي بحت، ثم قال {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}.

السؤال الآن: أسرفوا في ماذا؟ فالإسراف هو الإفراط في استعمال شيء ما كقوله تعالى {.. وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا..} (الأعراف٣١) أي لا تسرفوا في الطعام والشراب. فهنا قال لهم "مسرفون" هل أسرفوا في اللواط؟ فاللواط فاحشة وهو حرام قل أو كثر، ولكن جاء الإسراف هنا في الشهوات عندما قال "شهوة من دون النساء" أي أن الشهوات الإنسانية مقبولة كفطرة ولكن الإسراف فيها مرفوض، ولهذا وصف القرآن اللواط بأنه أحد أنواع الإسراف في الشهوات، كما وصف نعيم الجنة بأنه من الشهوات "أي رغبات يريدها الإنسان عن وعي" وذلك بقوله تعالى {.. وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ} (الأنبياء ١٠٢) وقوله {.. وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} (فصلت ٣١) وقوله {.. وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ..} (الزخرف ٧١) وقوله {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} (النحل ٥٧) وقوله {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ..} (سبأ ٥٤) {وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} (الطور ٢٢) وقوله {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} (الواقعة ٢٠–٢١). هنا نلاحظ كيف وضع الشهوات الإنسانية حيث يريدها الإنسان ويرغبها عن معرفة لاعن سلوك لا إرادي. فإذا سأل سائل كيف قال "ولحم طير مما يشتهون" أليس الطعام غريزة؟ أقول: نعم الطعام غريزة، ولكن اللحم المشوي والحساء والسلطة والأطعمة المصنعة كلها شهوات، لأن اللحم المشوي مارسه الإنسان بعد أن عرف النار واستفاد منها، فالحيوان يأكل اللحم طبيعياً تماماً والإنسان الآن يأكله بعد معالجة. فعملية إملاء المعدة غريزة، أما نوع الأكل وطريقة معالجته ووضع المعرفة الإنسانية فيه فيدخل في الشهوات، وكذلك الجنس غريزة، ولكن الزينة والحلاقة والعطور شهوات لأنها كلها تولدت عن معرفة وتمارس من قبل الإنسان فقط. وشرب الماء غريزة، ولكن شرب المياه الغازية وعصائر البرتقال والعنب يعتبر شهوة، والشرب من خلال أوعية للشرب من أقداح وكؤوس يدخل في الشهوات.

وبما أن الشهوات إنسانية بحتة فهي تتولد عن معرفة، وبالتالي تدخل فيها وسائل الإنتاج مثل النار مصدر الشواء وعملية الصيد الواعية، ومن ثم مع تقدم المعرفة تقدمت وسائل الإنتاج وتقدم تنوع الإنتاج كيفاً وكماً، وتشعبت الشهوات الإنسانية كماً وكيفاً وهي في حالة تطور دائم، لذا نظر الإسلام

إليها نظرة حنيفية "متطورة" أي لا ثوابت فيها، وصنف حب التطور والتجدد في الأشياء أول الشهوات وأعرقها في الإنسان. لقد حدد القرآن الشهوات الإنسانية الرئيسية والتي منها تتشعب كل الشهوات بالآية التالية {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (آل عمران ١٤) نوع الآية: قرآن متشابه وهي بحاجة إلى تأويل، والتأويل هو مطابقة الآية مع العقل والحقيقة أي صدق الخبر موضوعياً وعقلانيته.

– التأويل

أ– هنا قال "الناس" والناس هم الذكور والإناث من العاقل، وهي جمع إنسان لقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ..} (الحجرات ١٣).

ب– "حب الشهوات" والشهوات هي رغبات واعية إنسانية، ووضع "زين" للمجهول لأن المهم هنا هو الفعل نفسه "الخبر" وليس الفاعل، والزينة هنا لأمور يرغبها الناس ولا يعافونها كقوله تعالى {.. حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ..} (يونس٢٤) وقوله {.. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..} (النور ٣١) وقوله {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً..} (النحل ٨).

ج– لقد عدد في هذه الآية ست شهوات هي حسب الترتيب في الآية كالتالي:

١–النساء، ٢– البنين، ٣– القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ٤– الخيل المسومة، ٥– الأنعام، ٦– الحرث.

د– بعد أن عدد هذه الشهوات قال: "ذلك متاع الحياة الدنيا" و"ذلك" اسم إشارة للدلالة على الشهوات الست السابق ذكرها وقال عنها إنها متاع الحياة الدنيا. أما كلمة "متاع" فقد جاءت في التنزيل الحكيم للدلالة على أشياء ينتفع بها الإنسان ضمن فترة من الزمن ويرغب في اقتنائها، ومنها جاءت المتعة وهي اقتناء شيء أو القيام بعمل ينتفع منه الإنسان فيسبب له السرور ويرغب في حيازته أو القيام به عن وعي.

فالحيوانات لا يوجد عندها متاع ومتعة إلا طعامها الذي تتغذى به دون وعي لذا قال {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} (النازعات ٣١–٣٣) فالكلأ يعتبر متاعاً

للأنعام لكنه لا يعتبر متاعاً للحيوانات اللاحمة. أما الأمتعة فهي حالة خاصة من المتاع وهي متاع المسافر والمقاتل لذا قال {.. وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ..} (النساء ١٠٢).

لنأخذ الآن الآيات التالية:

١- {قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} (يوسف ١٧) {وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ..} (يوسف ٦٥) {قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ..} (يوسف ٧٩). هنا جاء المتاع بمعنى الحاجات التي يحتاجون إليها في مرتعهم وملعبهم وتمارينهم ومأكلهم، وعندما يكون المتاع معداً للبيع والمقايضة يصبح بضاعة.

٢- {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ..} (النور ٢٩)، هنا جاء المتاع أيضاً بمعنى الحاجات التي ينتفع بها ويرغب الإنسان بامتلاكها.

٣- {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} (الأحزاب ٢٨) {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ..} (الأحزاب ٥٣).

٤- {وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (البقرة ٢٤١).

٥- {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} (البقرة ٢٣٦).

هنا في الآيات الثلاث المتعلقة بالمطلقات ذكر أن على الرجال أن يمتعوهن، والمتاع هنا أن يعطيها أشياء تنتفع بها وترغب المرأة في اقتنائها كالمال والحلي والملابس وماشابه ذلك، وقد ربط ذلك بالمعروف أي حسب الأعراف المتبعة في كل بلد وفي كل زمن لذا قال "متاعاً بالمعروف" وهنا أخذ المعروف شكله النسبي البحت أي لا يوجد معروف مطلق.

٦- {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} (عبس ٣١-٣٢).

٧- {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} (النازعات ٣٠-٣٣)، فالكلأ يعتبر متاعاً للأنعام والمتاع من الأشياء التي ينتفع بها واللازمة لحياة الإنسان ومعاشه. لذا ذكر الغطاء النباتي الطبيعي للأرض على أنه متاع للإنسان وللأنعام.

٨- {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (الشورى ٣٦) هنا نلاحظ كيف ربط الأشياء بالمتاع.

٩– {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا..} (البقرة ١٢٦) لاحظ هنا عبارة "فأمتعه قليلا"، أي أن أشياء الحياة الدنيا من لباس وبيوت وسيارات وأنعام وأرض وزراعة وحلي هي للمؤمن والكافر على حد سواء، ومن الخطأ أن نقول إن المتاع هذا وقف للكفار في الحياة الدنيا وإنما هو للمؤمن والكافر على حد سواء أي للناس كلهم. وقولك "تمتع بعضنا ببعض" أي انتفع بعضنا ببعض لوجود المنافع المتبادلة.

أما قوله تعالى {.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (الحديد ٢٠، آل عمران ١٨٥)، فقد قلنا إن المتاع شيء ينتفع به ويولد السرور ضمن فترة زمنية، فهذه الأشياء التي نتمتع بها مثل الفواكه والأطعمة والسيارات والبيوت، هي متاع الحياة الدنيا الموصوف بالغرور أي بالنقصان وعدم النضوج، فكل ما نصنعه نحن يمكن تجاوزه إلى أحسن منه، هذا من باب صنع الإنسان، ومن باب خيرات الطبيعة فالتفاح بحاجة إلى رش وسماد ورعاية وأدوية حتى يأتي الإنتاج مرة واحدة في السنة وفي الموسم الواحد، أما متاع الآخرة فهو متاع ناضج غير ناقص، وذلك بعد تغير في صيرورة قوانين المادة فالزراعة لا تحتاج إلى عمل وإلى أدوية، بل كل ما سيوجد هناك لاعيب فيه ولا يمكن تجاوزه إلى أحسن منه.

نعود الآن إلى آية الشهوات الرئيسية الست للناس والتي وصفها بأنها {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} في آل عمران، حيث ذكر أن الشهوة الأولى من هذه الشهوات هي "النساء".

١– والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل النساء المقصودات في هذه الآية هن أزواج الرجال؟ فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا قال "زين للناس" والناس هم الذكور والإناث معاً ولم يقل زين للرجال؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قال في نهاية الآية "ذلك متاع الحياة الدنيا" فإذا كان المقصود بالنساء أزواج الرجال فهل هذا يعني أن المرأة حاجة كالطعام والشراب والبيت والسيارة والحذاء؟ ومن ناحية ثالثة إذا كان المقصود بالنساء أزواج الرجال فقد وردت في الشهوات مع الخيل المسومة ومع الأنعام التي هي الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والماعز والإبل.

هذا الفهم الخاطئ الشنيع هو الذي سمح للفقهاء المسلمين، والمسلمين بشكل عام، بأن يعاملوا المرأة على أنها شيء من الأشياء كالغنم والبقر.

٢– السؤال الثاني: هل البنون المذكورون في هذه الآية هم الذكور من الأولاد؟ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن مرة أخرى: هل الذكور من الأولاد هم أشياء "متاع"؟ وكيف عطفهم على الخيل والبقر والغنم؟

٣– السؤال الثالث: إن النساء هن من الناس والذكور من الناس أيضاً فكيف تشتهي النساء النساء والذكور؟ علماً بأن الغريزة الجنسية لا تدخل في الشهوات، وإنما هي من الغرائز المغروزة في بنية الإنسان الفيزيولوجية ويتشارك بها مع بقية البهائم.

٤– السؤال الرابع: هذه الآية هي من القرآن ومن الآيات المتشابهات وتحتوي على خبر موضوعي وتأويلها هو مطابقتها مع الحقيقة الموضوعية بحيث يكون الخبر صادقاً. فإذا كانت النساء هن الإناث والبنين هم الذكور من الأولاد فيصبح الخبر كاذباً، علماً بأن الناس هم الذكور والإناث مؤمنين وكافرين متقين وفاجرين، وهم كل الأمم والقوميات العربي والتركي والياباني والروسي والأمريكي والأفريقي.

لهذا عندما نأتي على لفظة النساء والبنين في آية من الآيات المتشابهات في التنزيل الحكيم يجب أن ننظر إلى سياقها ونفهم المعنى فهماً يقتضيه العقل والموضوع والمطابقة مع الحقيقة "صدق الخبر".

النساء: النون والسين والهمزة (ن س أ) أصل في اللسان العربي له معنيان. الأول، جمع امرأة بلغت سن النكاح. وقد استعمل التنزيل الحكيم كلمة "امرأة" بمعنى الزوجة في حديثه عن "امرأة العزيز" و "امرأة نوح" و "امرأة لوط". كما استعمل كلمة "نساء" بمعنى الزوجات في قوله تعالى {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ..} (الأحزاب ٣٢). والثاني، التأخير والتأجيل، كما في قوله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ..} (التوبة ٣٧). وكقول النبي (ص) – إن صح – "من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه" رواه مسلم. والبيع بالنسيئة معروف ومشهور، هو الذي يؤجل فيه سداد القيمة إلى أجل لاحق.

لكن المفسرين الأوائل حملوا كل الآيات التي جاءت فيها مفردة النساء على المعنى الأول وفسروها بأنها جمع امرأة، وكان منطلقهم في هذا التفسير بدائياً جداً، حيث قالوا إن الله خلق آدم ثم خلقت منه حواء، أي أن الأنثى ظهرت في الوجود متأخرة عن الذكر ولهذا سميت الإناث "نساء" أي تأخرن في الخلق، واستدلوا بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} (النساء ١).

هذا الحصر لمعنى النساء أدى إلى وجود تناقض في تفسير آيات التنزيل، إذ نجد المرأة مكرمة في مواضع، وغير مكرمة في مواضع أخرى بل اعتبرت مجرد متاع. وهذا ما قادنا إلى القول بوجوب فحص آيات التنزيل الواردة فيها مفردة النساء، لبيان أي المعنيين هو المقصود في الآيات للتكامل الموضوعي للتنزيل الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه. خاصة وأن ما

ثبت من حقائق حول بداية الوجود الحياتي للكائنات الحية أوضح أن الذكورة والأنوثة كانتا مختلطتين، أي لم تكن أزواجاً في بادئ الأمر، حيث كان هناك كائن وحيد الخلية لا يتكاثر بالتزاوج وإنما يتكاثر بالانقسام. ومع تطور الكائنات الحية ظهرت الذكورة والأنوثة، وهذا ما نلاحظه تماماً في البشر. فالحيوان المنوي عند الذكر يحتوي على الذكورة والأنوثة معاً، أما البويضة في المرأة فلا تحوي إلا على الأنوثة فقط، وهذا واضح في قوله تعالى {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} (القيامة ٣٧–٣٩) فالنطفة هنا هي الخلية ثم عرفها بالخلية المنوية فقال ''من مني يمنى'' أي الخلية المنوية بعد اللقاح تتحول إلى علقة تحدد الذكورة والأنوثة طبقاً لقوله تعالى {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} هنا يحدد القرآن أن الأصل هو الذكورة والأنوثة معاً، ثم تم انفصال الأنوثة على حده ومن هنا جاء المعنى الخاص لمفردة النساء على أنها المتأخرات وبهذا المعنى يصبح هذا المصطلح عاماً يمكن إطلاقه على كل شيء جاء متأخراً.

وكما أن مصطلح النساء يحتمل معنيين، فكذلك مصطلح الرجال لا يحتمل معنى واحداً ولايجب تقييده في معنى الذكور فقط كما فعل الفقهاء، لأن الرجل في اللغة ''يدلُّ على العُضو الذي هو رِجْلُ كلِّ ذي رِجْل. ويكون بعد ذاك كلماتٌ تشِذُّ عنه. فمعظم الباب الرِّجل: رِجْلُ الإنسانِ وغيره. والرَّجْل: الرَّجّالة. وإنما سُمُّوا رَجْلاً لأنهم يمشون على أرجُلِهم، والرُّجَّال والرُّجَالَى: الرِّجَال. والرَّجْلانُ: الراجِل، والجماعة رَجْلى'' معجم مقاييس اللغة. فكل من يمشي على رجليه يعتبر رجلاً بمافي ذلك الذكور والإناث، وهذا يستقيم مع قوله تعالى {مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ..} (الأحزاب ٤) فلو كان يقصد من هذه الآية الذكر فقط كما ذهب إلى ذلك الفقهاء فإن منطوق الآية يفصح لنا أن الذكر لا يوجد في جوفه قلبين في حين يبين مضمون الآية أن المرأة في جوفها قلبين، وهذا غير صحيح. وبالتالي فإن المعنى لمصطلح رجل هنا هو كل راجل يمشي على رجليه من ذكر وأنثى. وهذا يستقيم تماماً مع السياق العام للآية، ويستقيم كذلك مع سياق قوله تعالى {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ..} (الأعراف ٤٦). كما يستقيم أيضاً مع قوله تعالى {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} (الأحزاب ٢٣)، لأن الرجال هنا هم كل من آمن بالرسول وخرج مجاهداً معه في سبيل الله من ذكر وأنثى بدليل أن أول مجاهدة في الإسلام سقطت في ميدان الشرف هي (سمية)، وهذا ما يجعل المعنى العام لمصطلح رجال هو المناسب لسياق الآية، وليس على المعنى الذكوري، كما يظن الفقهاء، الذي اعتمدوه انطلاقاً من أن الذكر قديماً هو من كان كثير الترجل والترحال والسفر

والتجارة والخروج للغزوات، فحمل هذا المصطلح رغم عمومه على المعنى الخاص، وبذلك حصل التناقض في فهم التنزيل. وقد انبثق عن هذا الحصر المفاهيمي لهذين المصطلحين الكثير من الفتاوى المجحفة في حق المرأة، كما هو الشأن بالنسبة لقوامة الرجال "الذكور" على النساء "الإناث" في قوله تعالى {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ..} (النساء ٣٤) فصارت الأنثى بهذا الحصر المفاهيمي أقل قيمة من الذكر وتابعة له في كل شؤون حياتها وكأنها متاع له، رغم أن السياق ينفي المعنى الخاص من المصطلحين الذي اعتمده الفقهاء. فالرجال هنا لا تعني إطلاقا "الذكور" والنساء لا تعني إطلاقا "الإناث"، لأن سياق الآية يتحدث عن القدرة والكفاءة المعنوية والمادية التي تتحقق في الأنثى كما في الذكر، ولهذا جاء قوله {بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} ولم يقل "بما فضل الله بعضهم على بعضهن" ليبين لنا أن التفضيل أساسه القدرة المعنوية والمادية للشخص مهما كان جنسه ولاعلاقة للأمر بالأنوثة والذكورة، فالرجال في الآية هم كل من تؤهلهم قدراتهم المعنوية والمادية للقوامة من ذكور وإناث "الرجولة"، والنساء هم كل من قلت قدراتهم المعنوية والمادية للقوامة من ذكور وإناث.

وعليه فإن لكل من مصطلح الرجال والنساء معنيين الأول عام والثاني خاص، وسياق الآية هو الذي يرجح أحدهما ويستبعد الآخر ويحدد المعنى المراد. فمصطلح النساء في قوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ..} (النساء ١١) وقوله {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ..} (النساء ٣٢) وقوله {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ..} (الأحزاب٣٢) وقوله {.. إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ..} (الطلاق ١) وقوله {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} (آل عمران ٤٢) وقوله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ..} (البقرة ٢٢٢) وقوله {.. فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} (النساء ٣) المقصود به هنا الإناث أي المعنى الخاص للمصطلح. بينما في قوله تعالى {.. وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ..} (النور ٣١) وقوله {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ..} (آل عمران ١٤) فالمقصود به المتأخر من الأشياء، ويبين ذلك سياق الآيات. فقوله في سورة النور في زينة المرأة {أَوْ نِسَائِهِنَّ} فلا يقصد به الإناث كما ذهب إلى ذلك الفقهاء وحاولوا تخريجها تخريجات عدة، وإنما المقصود المتأخرين من الذكور بالنسبة للمرأة، لأنه ذكر هذا المصطلح بالجمع المؤنث أي الذكور

المتأخرين على المرأة وهم ابن الابن وماتلاه من الأحفاد وحفيد الأخ وحفيد الأخت... وهكذا دواليك، فهؤلاء من المحارم ويسمح للمرأة بإبداء زينتها أمامهم.

وهو نفس المعنى العام الذي جاء في الآية ١٤ من سورة آل عمران، حيث يحدد سياق الآية أن المعنى المقصود من مصطلح النساء هو كل ما تأخر من الشهوات لأنه تم ربطه بالبنين الذي سيتم توضيحه لاحقاً. واشتهاء النسيء المتأخر من الأشياء يعتبر الشهوة رقم ١ عند الناس، وهو ما نقول عنه في المصطلح الحديث "الموضة". فالإنسان يشتهي آخر موضة في اللباس وفي السيارات وفي الأثاث والستائر والبيوت، فهذه الشهوة موجودة عند أهل الأرض قاطبة، فالأشياء المنتجة عام ٢٠١٠ جاءت متأخرة عن الأشياء المنتجة عام ٢٠٠٩، وكل الأشياء المتجددة "التي جاءت متأخرة عما قبلها" نسئت عما قبلها فأجملها القرآن في مصطلح واحد هو النساء.

وبالنظر إلى هذه الشهوة نجدها كامنة وراء التقدم الصناعي في إنتاج الأشياء "المتاع" لولاها لانخفض إنتاج معامل الألبسة مثلا وكل شيء يخضع للتجديد. هنا أريد أن أوضح أن المرأة ليست متاع الرجل والرجل ليس متاع المرأة وإنما علاقة الرجل بالمرأة هي علاقة مودة ورحمة {.. وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً..} (الروم ٢١) {.. هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ..} (البقرة ١٨٧). علماً بأن مصطلح المتاع والفتنة ذكرت في عديد من آيات التنزيل الحكيم ولكنها لم تذكر ولا مرة واحدة مع المرأة.

– البنون: جاءت من الأصل "ب ن ن" وتعني اللزوم والإقامة، وعندما يتزوج الذكر فإنه يبني على الأنثى خيمة منفصلة عند العرب. أما لفظة الابن فقد جاءت من "ب ن و" وهو من التوليد وجمعها أبناء فنقول ابن فلان وابن المدينة وابن القرية. فالمعنى الحقيقي للبنين هو من اللزوم والإقامة وهذه هي صفة الأبنية والبنيان، وقد جاءت بهذا المعنى الحقيقي في قوله تعالى {أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} (الشعراء ١٣٣) هنا ربط البناء بتذليل الأنعام فلولا تذليل الأنعام لما استقر الإنسان وبنى له مسكناً، وقوله {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..} (الكهف ٤٦) فالبنون هنا الأبنية من اللزوم والإقامة وليس الذكور من الأولاد، والمال كل ما يمول به الإنسان من نقد ومواد تحويلية، فقوله "والبنون" يعني الأبنية التي هي المواد غير المنقولة. إن لمصطلح البنين أيضاً معنيين، الأول معنى عام هو اللزوم والإقامة والثاني معنى خاص هو الذكور من الأولاد. ويمكننا تحديد المعنى المراد من خلال سياق الآية التي يرد فيها هذا المصطلح، حيث نجد مصطلح البنين بمعنى الذكور من الأولاد في قوله تعالى {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} (الصافات ١٤٩) وقوله {أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} (الصافات ١٥٣) أي الأولاد من الإناث (البنات) على البنين (الذكور).

هنا نلاحظ أن كلاً من النساء والبنين في قوله تعالى {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ..} (آل عمران ١٤) جاء بالمعنى العام ليكون معناهما متوافقاً مع السياق العام للآية، لأنه ابتدأها بقوله "زين للناس" فالناس هم من الذكور ومن الإناث، وبالتالي يصبح معنى النساء هو المتأخر من الشهوات والبنين هي الأبنية المعمارية، فشهوات الإنسان أشياء منقولة وغير منقولة وهذه الأشياء متاع الحياة الدنيا وزينة الحياة الدنيا. لاحظ هنا كيف تمت وحدة الموضوع في الآية وكيف أصبح الخبر موضوعاً صادقاً. فإذا سأل سائل: لماذا هذا التعقيد؟ أقول: هذه الآيات من القرآن والقرآن كله متشابه "انظر فصل إعجاز القرآن".

– القناطير المقنطرة من الذهب والفضة: القناطير جمع قنطار، والقنطار جاء من المجموعة التي لها انحناء، فإذا جمعنا كمية من القمح أو التمر أو الشعير فإن تجمعها يأخذ شكل منحن، ومن هنا جاءت المقنطرة أي ذات الانحناء، كما نقول أيضاً القناطر الخيرية أو الجسور التي لها أقواس "قناطر". فيصبح معنى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة هي العدد الكبير من الحلي المصنعة من الذهب والفضة بأشكال هندسية فيها منحنيات. فإذا نظرنا إلى أنواع الحلي المصنعة في العالم وجدنا أنه لا يوجد قطعة من الحلي ليس فيها شكل منحن "قنطرة" كالخواتم والعقود والأقراط والأساور. هنا نستنتج نتيجة هامة بأن الإنسان يشتهي الذهب والفضة بعد تصنيعهما أي بعد وضع جهد وفن الإنسان فيهما لا في حالتهما الطبيعية وهما في باطن الأرض.

– الخيل المسومة: الخيل المدربة والمعلمة المرباة كقوله تعالى {مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ} (هود ٨٣) نرى إلى يومنا هذا أن الخيل المسومة هي من الشهوات التي لا يستطيع إشباعها أي إنسان.

– الأنعام: وتشمل مواشي الركوب ومواشي إنتاج اللحم واللبن اللذين يعتبران الغذاءين الرئيسين للإنسان.

– الحرث: من "ح ر ث" ولها في اللسان العربي أصلان: الأول الجمع والكسب، وبهذا المعنى سمي الرجل "حارثاً" لأنه يجمع المال ويكسبه. ومن هذا المعنى أيضاً جاء مفهوم المنافع والحوافز المادية للإنسان في الدنيا والآخرة لقوله تعالى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} (الشورى ٢٠) هنا جاء الحرث في الجمع والكسب على معنى العموم في الحوافز المادية بكل أنواعها بمافيها حوافز الثواب المادي في الآخرة. وقد جاء الحرث بمعنى الجمع والكسب على الخصوص بالمحصول الزراعي الذي يدخل عمل الإنسان فيه لا الغطاء النباتي للأرض ولا الأرض الزراعية لذا قال {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ *

أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} (الواقعة ٦٣–٦٤) فالحرث هنا ما يجنيه الإنسان من محصول من العمل في الزراعة.

ولكي يبين أن الأرض غير الحرث قال {.. إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ..} (البقرة ٧١) هنا لاحظ كيف فرق بين الأرض والحرث وربط فعل السقاية مع الحرث أي أن الحرث هو نتاج زراعي يحتاج إلى سقاية. وجاءت بهذا المعنى في قوله تعالى {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا..} (الأنعام ١٣٦) وقوله تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ..} (الأنبياء ٧٨). أما قوله تعالى {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (البقرة ٢٢٣) فيحتاج إلى تأويل.

لنأخذ الآية التي قبلها {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة ٢٢٢) في هذه الآية يأمرنا سبحانه باعتزال العلاقة الجنسية في زمن الحيض بقوله {فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} وبيَّن لنا العلاقة الجنسية مكاناً بقوله {فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ}، أما الآية {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} (البقرة ٢٢٣). هذه الآية ليس لها علاقة بالعلاقة الجنسية بقوله تعالى "أنى شئتم" لأن الآية التي قبلها حددت المكان والزمان في العلاقات الجنسية بشكل نهائي وكامل. ولنلاحظ كيف أتمها بقوله {وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (البقرة ٢٢٣)، فهنا النساء تعني الأشياء المحدثة المستجدة لذا وصفها بأنها "حرث لكم" واستعمل صيغة الجماعة للدلالة على الذكور والإناث معاً لأنه في اللسان العربي يمكن أن يوجه الخطاب إلى الذكور والإناث معاً بصيغة الذكورة كقوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} (المؤمنون ١) أي المؤمنون من الذكور والإناث وقوله عن مريم {.. وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} (التحريم ١٢) أي كانت من القانتين من ذكور وإناث.

هذه الأشياء المستجدة قال عنها إنها حرث للناس أي هي من الأشياء المادية التي يحب الناس أن يجمعوها ويكسبوها، وقد أباح سبحانه لنا استعمالها متى نشاء وكيف نشاء أي "أنى" زمانية مكانية. وبما أن هذا الحرث هو من متاع الدنيا قال {وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ} أي علينا أن نتقي الله في استعمال هذه الأشياء وألا ننسى حقوق الله فيها وألا ننسى الآخرة وهذا واضح في قوله تعالى {.. وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (المزمل ٢٠).

أما المعنى الآخر للحرث كأصل في اللسان فهو إهزال الشيء أي جعله هزيلاً.

وهكذا نرى أن لفظة النساء في التنزيل الحكيم جاءت بمعنى جمع نسيء لا جمع امرأة في الآيات التالية:

١– الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

٢– الآية ١٤ من سورة آل عمران.

٣– الآية ٣١ من سورة النور "بمعنى الأحفاد أي ما تلا المذكورين أعلاه من الذكور".

٤– الآية ٥٥ من سورة الأحزاب "بمعنى الأحفاد" أي ما تلا المذكورين أعلاه من الذكور.

الفرع الثاني: أسس النظام الاقتصادي في الإسلام

تعتبر الشهوات الإنسانية من الأشياء المتمكنة في سلوك الإنسان ومن العناصر الرئيسية الموجهة له في سلوكه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. فعلى أي نظام سياسي اقتصادي مبني على أسس إسلامية أن يأخذ بعين الاعتبار ما يلي:

١– إن الإنسان يشتهي كل جديد في الأشياء، وعلى أي تخطيط اقتصادي أن يأخذ هذا بعين الاعتبار بالنسبة لإنتاج السلع كماً وكيفاً وبالنسبة للعملية الإنتاجية نفسها، وإلا فإنه سيفقد أهم حافز من حوافز رغبة الناس في شراء السلع، وهكذا تعمل عملية الإنتاج وتبادل السلع بكل جد ونشاط، وإذا لم يحصل ذلك فإن عملية البيع والإنتاج ستتم بالإكراه بغض النظر عن طروحات وشعارات الدولة إسلامية أم غير إسلامية. علماً بأن الشهوات مرتبطة بشكل مباشر بالمستوى المعرفي للإنسان، فكلما زادت معرفته تشعبت شهواته.

٢– إن مبدأ الحوافز المادية في الجمع والكسب "الحرث" هو أساس كل نظام اقتصادي مبني على النهج الإسلامي، فبدون هذا المبدأ يفقد الإنسان اهتمامه بالعمل والإنتاج.

٣– إن ملكية الأبنية السكنية والأشياء ومستجداتها من أثاث ولباس ووسائل رفاهية ووسائل الاتصال الشخصية "السيارات مثلا" والحلي تدخل تحت بند الملكية الشخصية للإنسان ولا يحق لأحد أن يتدخل فيها.

٤– إن ملكية المواشي "وسائل إنتاج اللحم واللبن" تدخل تحت بند الملكية الخاصة لأنها كائنات حية تحتاج إلى حب ورعاية وعناية والشروط التاريخية الموضوعية تنظم شكل هذه الملكية وضوابطها.

٥– لقد فصل الإسلام بين الأرض كملكية، وبين المحصول الزراعي كنتاج عمل وجهد وتنظيم وإدارة. والشروط الموضوعية التاريخية هي التي تحدد شكل الربط بين المحصول الزراعي

والأرض. أي أن المحصول الزراعي يجب أن يكون ضمن الملكية الخاصة لأنه نتاج عمل وجهد والمزروعات كائنات حية تحتاج إلى رعاية خاصة. أما الربط التاريخي فيكون حسب الشروط الموضوعية بالشكل الذي يساعد على تطور الإنتاج وزيادته وفعالية استثمار الأرض. وإذا كان هذا الشكل الذي نختاره لا يحقق التطور والزيادة والفعالية فعلينا كمسلمين أن نحنف عنه "نميل عنه" بدون أي حرج، لأنه يجب علينا أن لا ننسى أثناء تخطيطنا الاقتصادي أننا أمة ذات ملة حنيفية. أما بالنسبة للأرض بعد إشادة المباني السكنية عليها فإن بيوت السكن تدخل تحت بند الشهوات المشروعة لا الأرض التي تبنى عليها المساكن.

٦– إن المواد الخام الطبيعية من غابات ونفط ومعادن ومراعي لا تدخل تحت بند الشهوات، وإنما تدخل تحت هذا البند بعد تصنيعها وتحويلها إلى سلع "متاع" والظروف الموضوعية التاريخية تحدد شكل ملكيتها.

٧– إن النظام الإسلامي يقوم على أساس عدم الإفراط والتفريط في البنود أعلاه، أي عدم السرف والترف، والسرف هو الإفراط في استهلاك الحاجات والطعام والشراب، والترف هو الاختصاص بالنعم على ناس دون غيرهم "طبقة المترفين" أي عدم تكافؤ الفرص.

٨– إن بند الشهوات هو أحد البنود الحنيفية في الإسلام، لذا يجب أن تكون نظرتنا إلى هذه الأمور والتشريعات الناظمة لها حنيفية أيضاً، أي عندما نرى أن أي تشريع من التشريعات المتعلقة بهذه البنود لا يتناسب مع الواقع أو يعرقل مسيرة النمو والتقدم والرفاهية، فما علينا إلا أن نحنف عنه "نميل عنه" وإلا ستنطبق علينا الآية {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ..} (البقرة ١٣٠) فنصبح من السفهاء أي "المجانين المتخلفين عقلياً" لأن الحنيفية هي أساس النهج التقدمي في العالم كله.

٩– فيما يتعلق بالنظام المصرفي والفوائد الذي يعتبر من أساسيات النظام الاقتصادي في أية دولة فقد شرحته في فصل الحدود.

١٠– إن علاقة النشاط الواعي للإنسان مع الأرض يجب أن تكون علاقة مسؤولة، فلايحق للإنسان أن يفسد الدورات الطبيعية للأرض من مناخ ورطوبة ومياه من جراء إقامته فيها لقوله تعالى {.. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (هود ٨٥ – الأعراف ٧٤) والأرض بمافيها من أنظمة حياتية معقدة هي مكان إقامة الإنسان ونشاطه الواعي ومصدر حياته، وقد أعطانا الله هذه الأرض أمانة بأيدينا لكي نعمرها ونستفيد منها {.. هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ} (هود ٦١). وقد خلق الله الأرض وأنظمتها بشكل جعلها قادرة على

أن ترمم نفسها وتحافظ على صحتها، والمشكلة هي الإنسان ذو النشاط الواعي غير المسؤول والذي من جراء نشاطه هذا قد يؤدي إلى إفساد الأرض "مرضها" فعلى كل البرامج الاقتصادية في التنمية والاستثمار أن تأخذ هذه الناحية بعين الاعتبار، لأن مرض الأرض من جراء عبث الإنسان فيها سيؤدي إلى دمار الإنسان نفسه، وتعتبر هذه الظاهرة اليوم من الكوارث الرئيسية في العالم كله من مشاكل تلوث بيئة وتصحر.

١١– إن أي طرح للعدالة النسبية لا يأخذ بعين الاعتبار البنود الواردة أعلاه فهو طرح طوباوي لا معنى له ومآله إلى الفشل لا محالة، حيث أن قوانين الوجود وفطرة الإنسان المنسجمة معها لا تكذب على أحد ولاتغش أحداً وبنفس الوقت لا تساير أحداً. لذا وجب علينا معرفتها وطرح شعارات العدالة النسبية من خلالها لا من خارجها، وإذا تم الطرح من خارجها فنكون قد وضعنا القانون الأخلاقي بشكل متصادم ومعاكس للقانون الموضوعي، فنقع في الوهم ومضيعة الوقت والمال والأنفس.

الفرع الثالث: أسس المفاهيم الجمالية في الشهوات الإنسانية

بما أن الشهوات الإنسانية نتجت عن معرفة الإنسان بالموجودات المحيطة به، وهي من نتاج نفخة الروح التي نتج عنها الفكر وارتباطه باللغة وقدرة الإنسان على التجريد بالمعرفة والتشريع، فقد تطور مفهوم الجمال مع المعرفة وظهرت المفاهيم الجمالية المعرفية خلال السياق التاريخي للتطور الإنساني. ورافق هذا التطور المعرفي تطور المعايير الجمالية والأخلاقية، فجاءت المعايير الأخلاقية في الوصايا.

وبحثنا الآن هو نشأة المعايير الجمالية وتطورها وترافقها مع المعرفة الإنسانية. وبما أن المعرفة الإنسانية هي خاصية تتبع جدل الإنسان كذلك المعايير الجمالية خاصية تتبع جدل الإنسان، فما هو تعريف الجمال؟

من الناحية الجدلية الجمال والقبح نقيضان يوجدان في النفس الإنسانية المدركة، ويظهر التعبير عنهما والجدل بينهما حسب درجة وعي الإنسان للعالم الموضوعي الذي يعيش فيه ويمارس نشاطه ضمنه، كظواهر متصل بعضها ببعض "الكلي" وكظواهر منفصل بعضها عن بعض "الجزئي" ضمن وحدة جدلية الانفصال والاتصال للموضوع، ينتج عن وعي الإنسان لها حركة مستمرة للجمال والقبح "الحنيفية" فكلما زاد وعي الإنسان لهذه الظواهر الموضوعية منفصلة ومتصلة تتغير مفاهيم الجمال والقبح عنده.

أما القيم الإنسانية فهي مفاهيم ذاتية، تنتمي إلى جدل الإنسان ولكنها منفصلة عن مفاهيم الجمال والقبح، حيث أنها تحمل الطابع الكوني الشمولي. وهي قيم ذاتية تؤثر في طريقة التعبير عن مفاهيم الجمال عند الناس، أي أن الأخلاق مرتبطة مع الجمال بعلاقة عضوية مؤثرة غير تناقضية. إن جميع الفنون الإنسانية قاطبة ظهرت من خلال المنفصل والمتصل والكلي والجزئي.

قبل أن نبدأ ببحث الجمال ومركباته بعد أن عرفناه علينا الإجابة على السؤال التالي:

هل خلق الله الكون والإنسان من أجل الجمال؟ أي هل هناك غاية جمالية في الطبيعة؟ فإذا كان كذلك فهذا يعني أن للجمال وجوداً مطلقاً يفقد معه الجمال مفهوم النسبية والتطور، وتصبح غاية المعرفة الإنسانية التعرف على جمال الطبيعة المطلق الموجود خارج الوعي، فبذلك تدخل علوم الفلك والفيزياء والكيمياء والطب تحت علم الجمال.

لقد أدرك الإنسان مفهوم الجمال المتطور دائماً من خلال إدراكه لقوانين الجدل المادي في الوجود (الثنائية التناقضية والزوجية والضدية) التي تحكم الأشياء وظواهرها. فعندما ينظر الإنسان إلى ظواهر الطبيعة ومركباتها ويرى أن كل عنصر يقوم بوظيفته ضمن قوانين ناظمة له، فإن هذا الإدراك يولد الشعور بالجمال في جدل الإنسان. فعندما ننظر إلى العيون ذات الألوان والأبعاد الطبيعية ثم ندرك أن هذه العيون فاقدة البصر فإنها تفقد جمالها في نظرنا، لأن العين في وعينا وجدت لتقوم بوظيفة الإبصار. فالوظيفة هي أساس الجمال وبعد ذلك يأتي البعد والموقع ونوع المادة واللون التي هي مركبات الجمال، فالجمال شعور يتولد لدى الإنسان الواعي، لذا فهو خاصية ذاتية (Subjective) تتولد في الشعور الإنساني من جراء إدراك العالم الموضوعي والاجتماعي عندما يقوم بوظيفته التي نعيها طبقاً لدائرة معارفنا، والقبح نقيض ذلك لذا فإن مفهومي الجمال والقبح غير مستقرين بل متطوران مع تطور العلوم الطبيعية والاجتماعية "وهذه هي الحنيفية في الجمال".

لنر الآن ما هي المكونات الموضوعية للجمال عند الإنسان، التي من خلال وعيها والحاجة إليها نمت مفاهيم الجمال عنده وتقلمت "تميز بعضها عن بعض". إن مادة الجمال والقبح أي الجانب الموضوعي فيهما هي: الأصوات، الحركة، الألوان، الخطوط، النص اللغوي "الكلمة، الشعر، النثر، الصياغة اللغوية". وكلها يظهر فيه جدل الانفصال والاتصال الكلي والجزئي الموجودين في آن واحد في الموضوع المراد التعبير عنه، فأول مادة من مواد الجمال والقبح هي الأصوات والحركات.

إن السبب في دمج الأصوات والحركات معاً هو أنهما قديمين قدم الإنسان على الأرض، وهما موضوعان مارس فيهما الإنسان مفاهيم الجمال لأنهما يدخلان في تركيب جسم الإنسان ذاته، أي

هما أول ماعرف الإنسان لأن له جهازاً صوتياً. وأول ما ميز العالم الخارجي الأصوات، فهي وسيلة التمييز حيث كان تقليد أصوات الطبيعة والحيوان عند الإنسان لا يحتاج إلى وسيلة خارجية بل احتاج إلى جهاز صوتي موجود عنده. وكذلك الحركات، فجسم الإنسان متحرك جيئة وذهاباً يحرك يديه ورأسه ورجليه بمرونة كبيرة، لذا كانت ولازالت الأصوات والحركات هي أكثر التعبيرات أصالة عن مفاهيم الجمال لقدمها، وكل الفنون التي تتعلق بالأصوات والحركات "الغناء والرقص والرياضة" هي من أكثر الفنون أصالة في تاريخ الإنسان. لذا لا يوجد شعب من شعوب الأرض، من أكثرها بدائية إلى أرقاها تحضراً، إلا عنده الغناء والرقص "الصوت والحركة".

هذه الأصوات وعاها الإنسان منفصلة ومتصلة. فوعيه المنفصل لها جاء بتقليد الأصوات الطبيعية كل على حدة وهذا ما جاء التعبير عنه في الغناء المنفرد، ووعاها بشكل متصل كمجموعة من الأصوات المختلفة النغم بعضها مع بعض في إيقاع أو بلا إيقاع، وهو ما جاء التعبير عنه أيضاً في الغناء الجماعي الذي كان يمثل التعبير عن موقف اجتماعي أو سياسي أو أخلاقي. "ظهر هذا الموقف عند العرب في الهجرة النبوية عند استقبال النبي (ص) في المدينة المنورة بغناء جماعي معبراً عن موقف فكري وسياسي".

أي أن الجمال الجزئي في الصوت والحركة "الغناء الفردي والرقص الفردي" جاء سابقا للغناء الجماعي والرقص الجماعي، حيث أن الجماعية تحتاج إلى وعي متقدم على الفردية وتحتاج إلى مفهوم وموقف مشترك بين الجماعة التي تؤدي الدور الغنائي والرقصي وبين الجماعة التي تشاهده، ومع زيادة الوعي والحاجة إلى مواقف مشتركة ومفاهيم مشتركة، أي زيادة درجة التقدم الاجتماعي عند الإنسان وزيادة التقدم العلمي بالموجودات "الأصوات، والحركات" نما وتشعب هذان الشكلان من الفنون، ففي جمال الأصوات حصل ما يلي:

ظهور الآلة الموسيقية التي بدأت بأشكال بدائية جداً كضرب عصا على الأرض وضرب عصا على عصا، أو ضرب كف على كف "التصفيق وهو أقدم تعبير موسيقي مازال موجوداً عند الإنسان"، أو ضرب الرجل على الأرض. ظهرت هذه الآلات مع نمو المعرفة الإنسانية بالإضافة إلى البذور الفطرية الجمالية في الإنسان، فظهر جمال الصوت في الآلات بأن أصبح هناك آلات ذات أصوات مختلفة، فهناك الآلات الوترية والنافخة والإيقاعية "الطبل وما شابه" بحيث أصبح لكل آلة صوت جمالي خاص بها، وظهر مع ظهور هذه الآلات مفاهيم النوتة الموسيقية للتعبير عن وحدة الموضوع بين الجزئي، كل آلة على حده، والكلي في الآلات المختلفة وهي تعمل بعضها مع بعضها الآخر للتعبير عن موضوع معقد. ولم تظهر النواحي الجمالية في الموضوع المعبر عنه إلا من

خلال عمل الآلات ككل متصل، علماً بأنه خلال العزف المتصل يظهر جمال المنفصل كل على حده ضمن مقاطع منفصلة لكل آلة "البيانو الكمان، العود" من هنا كانت الموسيقى والغناء من أكثر الفنون أصالة عند الإنسان لأنها أقدمها ظهوراً. أما الحركات فقد مارسها الإنسان البدائي بشكل حركات طبيعية تشبه الحركات التي كان يمارسها في العمل والصيد والجماع الجنسي لذا كانت حركات فردية بالأساس، ثم مع نمو الوعي بالعالم الموضوعي تطورت هذه الحركات وظهر منها نوعان من الفنون: النوع الأول الرقص، والنوع الثاني الرياضة. ففي البداية لم يجد الإنسان تمييزات واضحة بين الرقص كقيمة جمالية وبين الرياضة حيث أنهما كانا مندمجين بعضهما ببعض، ثم ظهر الانفصال بينهما "التقليم" من جراء تقدم المعرفة الإنسانية وبالتالي تقدم التقليم بين الأشياء ومن ضمنها الحركات.

فبتقدم الحركات إلى الرقص نتج نوعان من الرقص: الرقص الفردي والرقص الجماعي، وهذا واضح في الرقص العربي وفي رقص الباليه وفي دور الراقصة الرئيسية في الرقص الجماعي، وواضح في تناسق الحركات بين الفردي والجماعي أي بين الواحد والمجموعة.

أما في الرياضة فقد ظهر بشكل أكثر وضوحاً بين الرياضة الفردية والجماعية. فقد ظهرت الرياضة الفردية عند الشعوب قبل الرياضة الجماعية، لأن الرياضة الجماعية تحتاج إلى وعي لتتقدم على الرياضة الفردية، فالرياضة الفردية ظهرت في ألعاب القوة والسباحة والسباق، والرياضة الجماعية ظهرت في ألعاب الكرات المختلفة. وفي الرياضة الفردية يظهر جمال الجزئي في الأداء، وفي الرياضة الجماعية يظهر جمال الكلي في التناسق والإيقاع في إخراج الموضوع "كرة القدم يظهر الموضوع في تسجيل الهدف" والجزئي في اللاعبين ذوي الأداء المتميز "المهارات الفردية".

أما عندما ندمج الصوت والحركة معاً فيظهر تعقيد إخراج الموضوع في الصوت والحركة وهذا واضح في فن الباليه. وبما أن الرياضة تعتمد فقط على جمال الحركة وبلوغ الهدف فقد أمكن أداؤها دون أصوات موسيقية حتى يومنا هذا، علماً بأنه يمكن مواكبة صوت البيانو مع بعض الحركات الرياضية المحدودة.

لنأخذ الآن موضوع الألوان والخطوط حيث تعتبر من المواضيع التي اهتم بها الفن التشكيلي "الرسم والنحت وفن العمارة" لقد تم دمجها بعضها ببعض لأن لها بداية تاريخية واحدة وهي كما ورد في قوله تعالى:

– {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} (النحل ٨١).

– {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} (النحل ٨٠).

لقد عاش الإنسان قبل أنسنته عندما كان بشراً في الغابات، وعندما بدأ ظهور الوعي وبدأ عملية الأنسنة كان يعيش في الغابات ''جنة آدم'' لقوله تعالى {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} (طه ١١٨، ١١٩). ففي هذه المرحلة كانت الغابات تؤمن له المأوى ''والله جعل لكم مما خلق ظلالاً'' وتؤمن له مرحلة حياتية متصلة مع المرحلة البهيمية، ثم انتقل بعد ذلك إلى العراء وكانت المرحلة الثانية مرحلة العراء والسعي وراء الطعام وهي مرحلة الصيد وكان سكن الإنسان في هذه المرحلة هو الكهوف ''وجعل لكم من الجبال أكناناً'' فعندما سكن الإنسان الكهوف منتقلاً من مرحلة الغابات عاش في جماعات متفرقة وكان عارياً لذا ذكر بعدها ''وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر'' لأن الإنسان في بداية حياته في الغابات والكهوف كان يعيش في مناطق حارة ولم يصل بعد إلى المناطق الباردة. ففي البداية كانت للكهوف وظيفة عضوية فقط ضمن الحاجة الملحة آنذاك وهي الوقاية والاختباء من الأعداء ومن ظواهر الطبيعة والحيوانات المفترسة، وهكذا كان وعي الوظيفة العضوية للعمارة ''وعي الجزء'' سابقاً عن وعي الكل وهو انسجام الجزء مع المحيط الخارجي، أي انسجام الكهف مع المحيط الخارجي له، علماً بأن هذا الانسجام كان موجوداً ولكن لم يلحظه الإنسان لأنه لم يكن بحاجة إليه ولأنه لم يصل بعد مرحلة التجريد الجمالي حيث كان في مرحلة المجسم الوظيفي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ظهر الفن التشكيلي في مرحلة سكن الإنسان في الكهوف لسبب اساسي جداً هو التعبير، حيث كان الإنسان يتكلم وعنده جعبة معينة من الكلمات للتعبير، والمعروف أن أساس الكلام إلى يومنا هذا هو الصوت فكان الإنسان يصدر تعابير صوتية ''كلاماً'' ولكنه لا يعرف الأبجدية وهنا يكمن بيت القصيد، إذ أن الإنسان تكلم ووعى بعض الأجزاء المجسمة للعالم الخارجي ''أشجار، حيوانات'' وأصدر لها تعابير صوتية تدل عليها ولكنه كان عاجزاً عن التسجيل إذ لا يوجد عنده أبجدية، فرسم ما أراد أن يعبر عنه من مجسمات بخطوط بدائية بسيطة تنسجم مع وعيه ومع آلة الإنتاج لديه ''أداة الحفر أحجار منحوتة'' فكانت بداية الفن التشكيلي عند الإنسان هي بديل الأبجدية، لذا فإن الفن التشكيلي ''رسم ونحت'' يعتبر من أقدم الفنون أصالة عند الإنسان بعد الحركة والصوت، ولكنه قبل فن الكلمة ''الشعر والأدب''. ونلاحظ هذا حتى يومنا هذا، فالطفل

يرسم قطة أو كلباً بخطوط قبل أن يستطيع أن يكتب كلمة قطة أو كلب بحروف أبجدية. والأبجدية القديمة أقرب إلى المجسم ''الأبجدية الفؤادية'' منها إلى المجرد، مثال ذلك الأبجدية المصرية القديمة ''الهيروغلوفية'' واللغات التي ليس لها أبجدية مثل الصينية. وأثناء سكن الإنسان في الكهوف بدأ باستعمال السرابيل للوقاية من الحر وهي عبارة عن جلود الحيوانات التي وضعها الإنسان على جسده بدون مخيط، لذا قال ''سرابيل'' وذلك واضح في قوله تعالى {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ} (إبراهيم ٥٠) فالقطران لا يخاط ولا يفصل، والسرابيل هي مواد للوقاية ولكن بدون تفصيل وخياطة، إذ أن الإنسان في هذه المرحلة لم يعرف المخيط بعد، ففي الآية رقم ٨١ من سورة النحل تظهر وحدة الموضوع وهو مرحلة الإنسان القديم في الغابات والكهوف.

ثم انتقل الإنسان إلى مرحلة السكن في البيوت، والسكن من ''س ك ن'' ومنه السكينة أي الهدوء والراحة، وتلك هي الوظيفة الأساسية للبيت. هذه البيوت متنقلة أو ثابتة كان لها نفس الوظيفة وكانت تصنع من جلود الأنعام أولاً وانتقل اللباس من السرابيل الجلدية السابغة إلى أصواف وأوبار وأشعار الأنعام، ولكن هذا مثَّل مرحلة من حياة الناس وليس إلى أن تقوم الساعة لذا قال: {أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} (النحل ٨٠). وهنا نرى كيف لعبت الأنعام وتذليلها دوراً أساسياً في حياة الإنسان، إذ أنها كانت طعاماً له واتخذ من جلودها لباساً وسكناً ومن وبرها لباساً. وقد لعبت الدور الحاسم في الانتشار الواعي للإنسان عبر الأرض {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} (النحل ٧) حيث كان لها الدور الحاسم في استقرار الإنسان وفي تنقله، واستمرار هذه الوظيفة حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولازالت الأنعام تلعب اليوم الدور الحاسم في طعام الإنسان {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (النحل ٥).

من هذا العرض التاريخي نرى أن الخطوط والألوان أخذت تتطور باتجاهين:

- الخطوط:

١- الكتابة ٢- الفن التشكيلي ٣- الفن المعماري.

- الألوان:

١- الفن التشكيلي ٢- الفن المعماري.

والذي يجمع بين الخطوط والألوان معاً هو الفن التشكيلي فقط، إذ أنه يتشكل من خطوط وألوان ليعبر عن موضوع معين فهو فن تعبيري كالكتابة تماماً.

أما الخطوط والألوان مضافاً إليها المادة فتم التعبير عنها في النحت، وأما الخطوط والألوان والمادة مضافاً إليها الحركة فتم التعبير عنها في العمارة.

فيمكن أن نضع التصنيف التالي:

١– خط فقط = أبجدية + فن تشكيلي بدائي.

٢– خط + لون = فن تشكيلي.

٣– خط + لون + مادة ”رخام، حديد، برونز“ = نحت.

٤– خط + لون + مادة + حركة = عمارة.

أما السكن فقد مر بعدة مراحل. وهنا يجب أن نميز بين البيت والسكن، فالبيت هو مكان السكن، والسكن هو وظيفة هذا المكان. هذه المراحل هي:

١– مرحلة سكن الغابات: وهي المرحلة التي بدأ بها الانتقال من الحالة البهيمية ”البشر“ إلى الأنسنة، وكان فيها العمل يدوياً بحتاً يعتمد على ما تلتقطه يداه من ثمار الغابات وماتفترسه يداه من حيواناتها، وكان لاحماً نباتياً عارياً ”أي كان نشاطه مقتصراً على الصوت والحركة الجسدية“.

٢– مرحلة سكن الكهوف: وفيها بدأ باستعمال وسائل الإنتاج البدائية ”الأحجار“ أي كان نشاطه فقط مقتصراً على الحركة والأصوات والخطوط البدائية مع بداية الفن التشكيلي، وفيها بدأ باستعمال اللباس بدون مخيط، وكانت مرحلة صيد الأنعام وغيرها حيث كانت برية غير مذللة، ونعتقد أن الإنسان اكتشف استعمال النار في هذه المرحلة.

٣– مرحلة سكن البيوت الثابتة أو المتنقلة: في هذه المرحلة كان الإنسان قد ذلل الأنعام واستخدم اللباس المخيط، وفي هذه المرحلة ظهرت الكتابة والألوان، وظهرت العمارة كفن منفصل، وظهرت الزراعة في بعض المناطق كنتيجة ضرورية لتذليل الأنعام كما في قوله تعالى {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } (الزخرف ١٢، ١٣). هنا لاحظ وظيفة الأنعام:

١– الطعام ٢– المواصلات ٣– اللباس.

ولكنه تعالى في عبارة ”إذا استويتم“ استعمل ”إذا“، وهي شرط لما يستقبل من الزمن، أي أن الإنسان عرف الأنعام ولكن بين معرفته للأنعام وبين تذليله لها مضى وقت طويل لذا قال ”إذا استويتم“ ولو أن الإنسان استوى على الأنعام مباشرة حين معرفته لها لقال ”إذ استويتم“. ونلاحظ في ترتيب الآية أنه وضع الفلك قبل الأنعام، وهذا الترتيب من الناحية الزمنية يعني أن الإنسان ركب الماء قبل أن يذلل الأنعام، فبركوب الماء وتذليل الأنعام انتشر الإنسان في الأرض، وهذا الترتيب منطقي من الناحية الموضوعية، فربط قطعتين من الخشب بعضهما ببعض بوسائل بدائية أسهل على

الإنسان من تذليل حصان وحشي لأنه حتى يومنا هذا تستطيع أية مجموعة من الناس لا على التعيين وبدون خبرات مسبقة أن تربط قطع خشب ببعضها بوسائل بدائية "أدوات حجرية وألياف طبيعية" ولكن لا تستطيع أية مجموعة من الناس تذليل حصان وحشي ودون خبرة مسبقة وإني أرى هذا الترتيب منطقياً من الناحية العلمية، لذا نرى أن أول سفينة صنعها الإنسان هي في قوم نوح {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ..} (هود ٣٨) بوسائل إنتاج بدائية "أحجار" وألياف طبيعية لقوله تعالى {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} (القمر ١٣)، والدسر هي الألياف الطبيعية الطرية المأخوذة من لحاء الشجر وغيره. هذا في قوم نوح، أما قوم عاد الذين جاؤوا بعد قوم نوح من الناحية الزمنية فقد قال تعالى {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} (الشعراء ١٣٢، ١٣٣). لاحظ الربط بين الأنعام والأبنية التي كانت معلومة لديهم من زمن هود بدلالة قوله "أمدكم بماتعلمون" علماً بأنه لم يذكر الأنعام مطلقاً مع قوم نوح حين قال {وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ..} (نوح ١٢) ونفهم بدلالة عبارة "ويمددكم" أنه لم يكن في زمن نوح أموال وبنون ولكن هذه كانت من نبوة نوح. أي أن بداية الاستقرار وتذليل الأنعام والبناء كانت من عاد الأولى قوم هود.

فلنأخذ الآن العلاقة الجدلية في الجزء والكل "المنفصل والمتصل" من العناصر المذكورة أعلاه أي الخطوط والألوان والمادة والحركة.

– الخطوط: قلنا إن الخطوط هي بدايات الفنون التشكيلية، حيث بدأت الخطوط بداية وظيفية تعبيراً عن شيء مادي مجسم بطريقة بدائية. في هذه المرحلة لم يكن للمفاهيم الجمالية أي وجود منفصل في الفكر الإنساني وإنما كانت الحاجة هي الدافع لذلك، ففي هذه المرحلة كانت الوظيفة والجمال في حالة دمج كامل دون وجود أي تمييز بينهما وذلك لسببين هامين:

١– قصور المعرفة الإنسانية، حيث كانت مقتصرة على الإدراك الفؤادي أي على معرفة المجسمات من ظواهر الطبيعة والحيوانات والأشجار التي كان يحتاجها الإنسان ويخافها أحياناً، علماً بأنه في هذه المرحلة كانت الأصوات المتميزة موجودة لدى الإنسان، أي أنه قادر على إصدار أصوات متمايزة وعنده جعبة معينة من الكلمات، وكان التجريد في بدايته "أي وجود مفهوم الذنب والتوبة" وهو من أقدم المفاهيم المجردة عند الإنسان وسبق مفهوم القبح والجمال، وهذا المفهوم المجرد للذنب والتوبة مرتبط مع الخوف من الطبيعة والحاجة إليها. هنا حصل هذا التشويش في الفكر الإنساني من الخلط بين الله سبحانه وبين ظواهر الطبيعة، فظهرت الوثنية الطبيعية التي تعتبر أقدم مرحلة من مراحل الوثنية وهي وثنية قوم نوح.

٢– قصور وسائل الإنتاج والمواد المتوفرة، فالمفاهيم الجمالية بالإضافة إلى المعرفة تحتاج إلى وسيلة إنتاج مثل الإزميل والفرشاة وتحتاج إلى مواد مثل الطين والأصبغة.

لقد بدأ التمايز في الخطوط بين الوظيفة والجمال في مرحلة لاحقة، وذلك عندما بدأ الإنسان باستعمال الخطوط من الناحية الوظيفية فقط في اختراع الكتابة، ومن الناحية الجمالية في الرسم، علماً بأن هناك مرحلة انتقالية خلط فيها بين الكتابة والرسوم مثل الأبجدية الهيروغليفية، وهذا ما تؤكده الحضارات القديمة في مصر والصين والهند ومابين النهرين.

إذ بدأ الإنسان بالتمييز بين الكتابة والرسم في مرحلة متأخرة وليس ما قبل التاريخ، أي في مرحلة كان فيها مستقراً يعرف الزراعة والبناء "الأنعام والبنين". في هذه المرحلة الحضارية بدأ التمييز بين الكتابة والفن التشكيلي والنحت والعمارة. ففي الخطوط فقط "الأبجدية" ظهر الجمال منفصلاً في الحرف، وهذا ما نراه حتى يومنا هذا، إذ أن معظم أبجديات أهل الأرض مقطعة الحروف، وكانت الغاية الجمالية تظهر في كل حرف على حدة، ولم يظهر الكلي والجزئي إلا في أبجديات مثل الأبجدية العربية حيث يكون الحرف وحده وحدة جمالية فيها الحرف المتصل مع الحرف في الكلمة والجملة، وهذه الخاصية أتاحت للخط العربي أن يكون فناً قائماً في ذاته، أي لوكان الخط العربي منفصلاً فقط لماظهر الفن المتقدم في هذا الخط. حيث نرى في الآثار العربية إلى يومنا هذا لوحات الخط كظاهرة فنية قائمة في ذاتها وبارزة أكثر بكثير من مثيلاتها في الحضارات الأخرى لأنها حوت جمال المنفصل والمتصل الموجودين في بنية الخط العربي. وهذا أيضاً انعكس على الرسوم الهندسية في حفر الخشب والأحجار، حيث نرى أنها عبارة عن تداخل الخطوط بعضها ببعض لتعطي جمالاً في الشكل الهندسي المنفرد "مربع، دائرة، معين" وفي النسب بين أبعاد الشكل وجمال المتصل في ربط الأشكال الهندسية بعضها ببعض وماهي إلا تطوير لجمال الخطوط الأبجدية على الأشكال الهندسية المعروفة، نشهده في إبداع الفن العربي في الخط والأشكال الهندسية ونسبها وبروزه في الحضارة العربية عنه في بقية الحضارات. وهكذا نرى أن بداية الخطوط كانت وظيفية بحتة ثم أضيفت إليها النواحي الجمالية، فالوظيفة هي الأساس والجمال هو العرض الطارئ على الوظيفة والمتطور طبقاً للحاجة والوعي الوظيفي.

– الفن الثاني من الخطوط هو الفن التشكيلي "الرسم"

قلنا إن بداية الرسم كانت وظيفية بحتة وهي كظاهرة بديلة عن الكتابة وسابقة لها. ولكن بعد ظهور الكتابة انحسر دور الرسم كوظيفة وبقي كتعبير رمزي في البداية ثم كتعبير رمزي وجمالي فيما بعد.

فالتعبير الرمزي للرسم كان يتمثل في العقائد الوثنية، حين أخذ الإنسان يرسم تصورات عن الآلهة وعن الحياة وعن الموت وعن القحط والإخصاب، وهذا نراه واضحاً في الحضارة المصرية التي ملأت الرسوم مدافنها ومعابدها. ثم استعملت الرسوم للتعبير عن الشجاعة والانتصارات العسكرية في المعارك وهذا واضح في حضارات ما بين النهرين، حيث كانت الرسوم تعبيراً عن موضوع معين وعن وظيفة معينة ترمز لعقيدة أو سلوك، والمفهوم الجمالي كان ثانوياً في هذه المرحلة. فالجزئي في هذه الرسوم كان عناصر الموضوع نفسه كالجندي والسيف والقائد والسهم، والكلي كان الموضوع نفسه المعركة والنصر، والجزئي كان أيضاً عناصر الحياة بعد الموت، والكلي هو موضوع الحياة بعد الموت. أي أن الرسم تطور مع تطور العقائد الدينية والوثنية حتى بلغ قمته في العالم القديم في الحضارة الرومانية والحضارة الإغريقية، وهذا ما أثر تأثيراً بالغاً على الفن الكنسي عندما تبنت الدولة الرومانية الديانة المسيحية، حيث نرى أن أروع اللوحات الفنية هي المتعلقة بالعقيدة الدينية المسيحية وتعبر عنها، إلى أن جاء عهد النهضة واتجه الفن اتجاهاً جمالياً في الفنون التشكيلية التي تعبر عن الجمال في الطبيعة والإنسان والمواقف الإنسانية.

أما الخطوط والألوان معاً، فقد استعملت الألوان حين توفرها لأنها بحاجة إلى معرفة وإنتاج وكان استعمالها متوقفاً على توفرها ولكنها أعطت تميزاً واضحاً للأشكال المرسومة.

ـ الخطوط والمادة "النحت"

استعمل فن النحت انطلاقاً من وعي الإنسان للنسب البعدية وتقدم آلة الإنتاج كالإزميل والمطرقة. وقد وعي الإنسان النسب البعدية قبل تقدم وسائل الإنتاج وذلك بأنه باشر باستعمال النحت من الطين، إذ بدأ بفن المجسم من مواد أولية متوفرة في الطبيعة بكثرة وقابلة للطواعية باليد أو بأبسط أدوات الإنتاج، وهذا واضح في أن عصر النحت الطيني الفخاري سبق عصر النحت الحجري، ولاعجب أن أول الكتابات نقشت على الطين وهكذا يعتبر الطين أول ما استعمل من الأدوات القرطاسية، فالقرطاس بدأ بالطين ووصل إلى شريط الفيديو ولوحة الكومبيوتر في يومنا هذا، فالطين قرطاس وشريط الفيديو قرطاس أيضاً من حيث الوظيفة "القرطاس هو ما يسجل عليه". هنا

نرى أن بداية فن النحت كانت وظيفية بحتة لأن الضرورة الأولية لها هي حاجة الإنسان إلى القرطاس ليسجل عليه. من هذه النقطة بدأ النحت يتطور مع تطور وعي الإنسان للنسب البعدية وتطور أداة الإنتاج، بحيث بدأ الإنسان يتعامل مع مواد غير الطين مثل الحجر والرخام، علماً بأن العرب في شبه جزيرة العرب كانوا بدائيين جداً في فن النحت والخط والرسم حتى ظهور الإسلام. وقد وجه الإسلام الطاقات الفنية الهادفة طبقاً لمستوى التطور التاريخي الذي كان يعيشه العرب.

ومع تطور النسب البعدية وأدوات الإنتاج تطور النحت وابتعد عن مفهوم القرطاس ليعبر عن مفاهيم جديدة دينية واجتماعية وفي العقائد الوثنية القائمة على تعدد الآلهة، فأصبح لكل إلاه نحت خاص به. وفكرة النحت لآلهة المطر والحب والجمال وغيرها، التي قال عنها القرآن {.. أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ..} (الأعراف ٧١) كانت موجودة لأن مفهوم تعددية الآلهة كان موجوداً تاريخياً في قوم عاد إذ كانت وسيلة الإنتاج متوفرة بقوله تعالى {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ} (الشعراء ١٢٨). بينما كان قوم نوح يعبدون مظاهر الطبيعة. وقد نمت هذه الظاهرة في الحضارات المصرية ومابين النهرين والهند والصين ثم في الحضارة الإغريقية والرومانية لأن الجذور التاريخية لظهور النحت كانت عند الإنسان وظيفية أولاً، ولم تظهر النواحي الجمالية في النحت إلا بعد أن استوعب الإنسان النسب البعدية وتقدمت وسائل الإنتاج. فالجزئي في النحت يظهر في دقة نحت أجزاء الجسم مثل اليد والعين والفم وجمال الكلي في تكامل الأجزاء ضمن نسب مطابقة للنسب الطبيعية.

ـ فن العمارة

ظهر فن العمارة انطلاقاً من أشد الغرائز قوة في الإنسان وهي غريزة البقاء وسعي الإنسان غير الواعي للحفاظ على حياته، ثم انتقل هذا السعي إلى رغبة واعية، فسكن الإنسان أولاً الغابات في المناطق الحارة ثم انتقل إلى الكهوف، ونشأت في وعيه وظيفة أساسية للكهوف هي وظيفة السكن، وهو الهدوء والراحة والنوم بشكل مطمئن فيه على أغلى ماعنده وهو الحياة. لذا تدرج السكن في القرآن في الغابات ثم في الكهوف، فكانت الكهوف أول سكن له جدران طبيعية وسقف ومدخل وهذا ما نراه في الحياة الحيوانية إلى يومنا هذا، إذ أن كثيراً من الحيوانات تأوي إلى قمم الأشجار كالطيور والقرود ومنها ما يأوي إلى الكهوف ومنها ما يحفر أنفاقاً في الأرض. لذا فبداية السكن عند الإنسان كانت وظيفية إلى آخر الحدود ولم يكن للجمال أي دور فيها. وهذه هي الوظيفة الأولى

للسكن إلى يومنا هذا فنرى الإنسان الواعي قد قلد الحيوانات في الحفر في الأرض، فبنى الأنفاق للمرور والملاجئ ضد غارات الأعداء. والله سبحانه غرز حب البقاء في الإنسان وجعل الطبيعة مطواعة له للحفاظ على هذه الغريزة {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} (الجاثية ١٣).

إن غريزة حب البقاء التي أخرجت آدم من الغابة "الجنة" حين وسوس إليه الشيطان وأغراه بغريزة البقاء في قوله تعالى {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} (طه ١٢٠) فأغراه بصفتين مضادتين للموت هما الخلود وعدم الفناء، فلو كان آدم لا يعرف الموت والبلى لما استجاب لوسوسة الشيطان، أي أنه كان موجوداً في وسط فيه موت يرى الأشجار والحيوانات تموت والأشياء تبلى. وهل يمكن إغراء أحد بشيء لا يعرفه؟

لقد كان انتقال الإنسان من السكن في الكهوف ومن مرحلة الصيد، مربوطاً بتذليل الأنعام حيث أن تذليلها يمثل أكبر نقلة نوعية في تاريخ سكن الإنسان ونمط حياته، إلى مرحلة الزراعة واستعمال الأنعام في العمل وفي الطعام. لذا فإنه لا يمكن من الناحية التاريخية فصل الأنعام عن العمارة وهذا واضح في قوله تعالى {أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} (الشعراء ١٣٣). هنا نلاحظ كيف ربط الأنعام بالأبنية حيث أن "البنين" جاءت من "بنن" في اللسان العربي.

ـ **ملاحظة:** هذه الآية فيها وحدة الموضوع، فأي موضوع يوحد بين الأنعام والبنين إذا فهمنا أن البنين هم الذكور من الأولاد؟ والموضوع الذي يوحد بينهما هو أن البناء واستقرار الإنسان ارتبط بالأنعام. ثم لاحظ وحدة الموضوع في قوله تعالى {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (الكهف ٤٦)، هنا الأموال المتداولة والثابتة "الأبنية" هي زينة الحياة الدنيا وليس الأموال والذكور من الأولاد، فمع التأويل الذي لا يحوي وحدة الموضوع ولايطابق الحقيقة الموضوعية يصبح الخبر كاذباً. بعد تذليل الأنعام وظهور الزراعة ظهر مفهوم التمويل عند الإنسان، ومن هنا جاءت كلمة الأموال من التمويل حين وعدهم نوح في نبوته {وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ..} (نوح ١٢)، حيث ربط التمويل من المواد الغذائية بالأبنية، وبدأ البناء يأخذ ملامحه كعمارة وفن معماري بالإضافة إلى الوظيفة. فباستقرار الإنسان بدأت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية تتطور من أسرة إلى مجموعة من الأسر "العشيرة" ثم القبيلة ثم ظهور مفهوم السلطة والدولة، وهذا التطور في الظواهر الاجتماعية يتطلب نوعاً من الأبنية له وظائف تستجيب للمتطلبات الجديدة ويمكن تنفيذها بأدوات الإنتاج المتوفرة.

فأول أداة إنتاج متوفرة لدى الإنسان كانت العمل اليدوي للإنسان نفسه ولم يستغل العمل اليدوي للإنسان نفسه على مر التاريخ كما استغل في فن العمارة "لاحظ حجم العمل اليدوي المصروف في

الأهرامات ومعبد الكرنك ولم تظهر عبودية الإنسان في أشنع أشكالها كما ظهرت في العمارة والسكن والحماية من الأعداء بالنسبة لملوك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة. هنا يجب أن نفهم ظاهرة في غاية الأهمية، هي أن عرب قلب شبه جزيرة العرب كانوا بدواً رحلاً وكان مكان إقامتهم هو الصحراء وبيوتهم جلود الأنعام وأوبارها وليس الحجر المنحوت، إلا بعض بيوت الطين في مكة ويثرب، ولايوجد عندهم قصور للملوك أو رؤساء القبائل ولم يكن عندهم ملوك أصلاً حتى الكعبة كانت عبارة عن مكان صغير من الأحجار المرصوف بعضها فوق بعض.

وكان العرب وخاصة في الحجاز ونجد وعسير والإحساء "قلب شبه جزيرة العرب" على علم بالحضارات التي تحيط بهم ومافيها من أبنية ضخمة، وكانوا يعلمون تمام العلم أن هذه الأبنية شيدها أناس مستعبدون لأسيادهم وملوكهم. ونحن نعتقد بأن هذا هو السبب الجوهري الكامن وراء احتقار العرب في شبه الجزيرة العربية للعمل اليدوي، إذ أنه مرتبط في أذهانهم بالعبودية دون توهم أو مبالغة، وكان هذا فعلاً من الناحية التاريخية مبرر في ذاك الوقت، أما الآن فلايوجد أي مبرر لاحتقار العمل اليدوي.

هذه الظاهرة نشأت ليس بسبب عدم حب العرب للعمل أو الأنفة كما يرى البعض، ولكن بسبب أعمق من ذلك وهو ارتباط العمل اليدوي بفقدان الحرية في ذاك الوقت، وليس بالأمر العجيب أبداً أن تأتي الرسالة السماوية إلى هؤلاء الناس الذين لم يكبلوا بالعبودية ولم يعتادوا عليها وكانت الحرية تعني الكثير بالنسبة إليهم، وكذلك نفهم قوله تعالى {.. اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..} (الأنعام ١٢٤) هذا بالإضافة إلى أصالة لسانهم العربي الذي هو لسان الرسالة والنبوة. واعلم أن كل الثورات في العالم لا يقودها إلا الأحرار.

الآن يمكن أن نقول إن العمارة وظيفة أولاً، وتتألف من دمج العناصر التالية لإخراج الوظيفة، ثم جاء المفهوم الجمالي ثانياً.

الخط + اللون + المادة + الحركة = الوظيفة المعمارية والجمال المعماري.

فالخط ظهر بوعي الأشكال الهندسية "خط مستقيم، منحن" والتناسب بين الخطوط المستقيمة بعضها مع بعض والمنحنية بعضها مع بعض.

– **اللون:** ظهر بتقدم المعرفة الإنسانية بالألوان وصناعتها، لذا كانت العمارة القديمة ذات ألوان طبيعية بحتة ثم ظهرت الألوان الصناعية.

– **المادة:** بدأت بالطين وتطورت استعمالاتها من حجر وغرانيت ورخام ومعادن مختلفة ثم مواد مصنعة كالبيتون والمواد البلاستيكية.

– **الحركة:** ظهر تشعب الوظائف من الكهوف الذي هدفه المبيت فقط واللجوء إليه عند الخطر فقط، وقد رافق هذا التشعب التقدم المعرفي للطبيعة وقوانينها والتقدم في وسائل الإنتاج، الذي نتج عنه تشعب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وظهور التشريع والدولة، فكان هناك المعبد وساحة السباق والقتال وقصر الملك والمقابر "علماً بأن أول ظاهرة اجتماعية تعامل فيها الإنسان مع الأرض بوظيفة محددة هي ظاهرة دفن الموتى، لذا فإن أقدم الآثار للإنسان توجد في المقابر".

لقد كان وعي الجزء الوظيفي في العمارة سابقاً، وبالتالي كان الجمال مقتصراً على الوحدة المعمارية حيث وعى الإنسان جمال الجزء الوظيفي، فنرى المعبد والقصر وبيوت الناس والمقابر مبعثرة هنا وهناك دون وجود أي نسق بينها، فكل واحدة منها تقوم بوظيفتها على حدة ولم يأت ربط الوظائف المختلفة بعضها ببعض إلا في مرحلة متأخرة بعد نشوء الدولة وتقدمها.

فأول ما ظهر الربط عند الإنسان بشكل موضوعي عملي كان بين أماكن السكن حيث ظهر مفهوم الطريق. هذا المفهوم تطور حتى أصبح أحد العوامل المسيطرة على تنظيم المدن، فأول ما نبدأ بتنظيم أي مدينة نبدأ بشبكة الطرق وبمداخلها أي بربطها مع بقية المدن والمراكز الصناعية والزراعية. في هذه المرحلة ظهر فن العمارة الكلي المتناسق، الذي يربط الوظائف المختلفة بعضها ببعض، وما كان لهذه المرحلة أن تظهر دون ظهور الطرق ووسائل الاتصال كعناصر أساسية في حياة الإنسان.

فبالبداية كان الجمال في الوظيفة "الجزء" "الوحدة المعمارية" ثم أضيف إليه الكل. وفن العمارة الآن ما هو إلا علاقة جدلية بين الوظيفة في "الجزء" والتناسق مع المحيط الخارجي "الكل". وكما قلنا إن العقائد والأخلاق والعادات تؤثر على الفن المعماري، أي أن هناك علاقة جدلية خارجية "تأثيراً متبادلاً" بين العقائد والأخلاق والعادات وبين مفاهيم الجمال كلها من رقص وموسيقى ورسم ونحت وعمارة. هذه العلاقة كان لها تأثير كبير على كل الفنون بما فيها فن العمارة، ومنها فن العمارة العربي الإسلامي الذي تأثر بالعقيدة الإسلامية تأثراً بالغاً.

– **جمال الكلمة:** يعتبر جمال الكلمة "التعبير عن الموضوع بشكل لغوي" أرقى أنواع الفنون الإنسانية الذي لا يرقى إليه أي فن آخر فهو ملك الفنون كلها. قد يسأل سائل: لماذا؟ فأقول:

١– اللغة أداة الفكر والاتصال، ولا يمكن لأي إنسان أن يفكر أو يعبر عن نفسه إلا ضمن إطار لغوي. ونشوء اللغات وتطورها مرتبط مباشرة بنشوء الفكر وتطوره "أقصد هنا اللغة المنطوقة لا المخطوطة" لأن التعبير المادي عن اللغة هو الأصوات لا الخطوط، فالخطوط اصطلاحات لتسجيل

الأصوات وهي اختراع إنساني، أما اللغة فليست اختراعاً وليست إلهاماً، وإنما خضعت في نشأتها لقوانين صارمة جعلتها أداة التفكير والتعبير.

٢- بما أن اللغة أداة التفكير والاتصال فهي أوسع وأسهل أداة يمكن أن يتصل بها متكلم مع سامع، فالبث الإذاعي والتلفزيوني ومحاضرات الجامعات والمدارس والبيع والشراء لا تتم إلا عن طريق الكلام الإنساني وليس عن طريق الصور واللوحات والحركات، حتى إن الإنسان يفضل سماع برنامج دون صور عن مشاهدة برنامج فيه صور دون صوت. أي أن اللغة هي الوسيلة التي يتم بها أوسع أنواع الاتصال مع الناس.

٣- هذه اللغة التي بدأت من تقليد صوت الطبيعة والحيوانات، ثم قفزت إلى التجريد في التعبير عن المعاني المادية والمجردة، ووصلت إلى مرحلة الإبانة "لسان عربي مبين" صارت لديها قدرة التعبير واستيعاب أدق خصائص الأشياء المادية والمشخصة في العالم الموضوعي "اللغة العلمية" والوصول إلى أدق المعاني في التعبير عن الأحاسيس والمشاعر والعلاقات الإنسانية المجردة مثل الشجاعة والجبن والحب والكره والجمال والقبح والكرم والبخل والعدل والظلم والبر والإحسان والأنانية والاعتزاز والعبادة والأمر والنهي، فاستطاعت أن تستعمل في تعبيرها وأدواتها كل أنواع البيان من كناية واستعارة وتشبيه وسجع وإيقاع موسيقي. هذه اللغة المنطوقة لا يمكن أن تجاريها أو تنافسها ريشة فنان أو يد نحات أو نوتة موسيقية أو رقصة باليه، حتى الفنان التشكيلي أو النحات والموسيقي والراقص فإنهم يفكرون بألوانهم وتماثيلهم ونوتاتهم الموسيقية وحركاتهم الراقصة ضمن إطار لغوي أولاً.

لننظر إلى جمال اللغة، فكما قلنا إن اللغة أداة التفكير والاتصال لذا فهي تعبر عن المعلومات والشعور والأمر والنهي في بنية لغوية صوتية لإيصالها إلى الآخرين. فإذا فقد الكلام هذه الوظيفة يصبح مجرد أصوات لا معنى لها أي أصوات لها وجود تحسه الآذان دون أن يكون لها مدلول في الذهن لذا قلنا سابقاً إن البلاغة في القول والفصاحة في الكلام.

فالجمال في بداية نشأة الكلام الإنساني كان مندمجاً مع الوظيفة دون تفريق بينهما وما زالت الوظيفة موجودة حتى يومنا هذا، ثم تقدم الفكر الإنساني ليميز بين وظيفة اللغة وجمالها. فالإنسان القديم لم يميز في اللغة بين جمالها ووظيفتها، أي لم يستعمل الأوجه البيانية في وصف الجمال والحب وغيرهما، إذ أن هذه المفاهيم تحتاج إلى لغة متطورة، وقد توفر هذا في اللسان العربي عند نزول القرآن، إذ كان قد وصل في مراحل تطوره إلى مرحلة الإبانة "لسان عربي مبين" فصار

قادراً على التعبير عن أدق المعاني بغنى المفردات وكمال البنية الوظيفية والبنية الجمالية في الاستعارات والتشبيه والكنايات.

فعندما ننظر إلى جمال الكلمة يجب أن ننطلق إلى ما يلي:

– إلى الألفاظ والبنية النحوية، بربط الألفاظ بعضها ببعض بهدف خدمة المعاني المالكة سياستها، وعندما ينسى القائل أنه يقول ليبين تصبح هراء. فهنا يظهر جمال الجزء في اللغة وهو انتقاء اللفظة المناسبة بحيث لا توجد لفظة أخرى تحل محلها لتؤدي المعنى المطلوب بدقة، ومن ثم انتقاء الجملة أي ربط الألفاظ بعضها ببعض ''مسند ومسند إليه'' بصيغة مبني للمعلوم أو مبني للمجهول أو بجملة اسمية أو جملة خبرية ابتدائية أو غير ابتدائية.

كل هذه الانتقاءات هي انتقاءات وظيفية تؤدي بدقة المعنى المطلوب الذي يريد المتكلم أن ينقله للسامع، وهذه هي البلاغة لا أكثر من ذلك ولاأقل. أما جمال الكل فيظهر في استعمال الأدوات البيانية ''الاستعارة والتشبيه والكناية والسجع''. هذه الأدوات تظهر جمال الكل ولكن ليس على حساب المعنى ''البلاغة'' وإنما لخدمة المعنى، فباستعمال هذه الأدوات يصل المعنى إلى المستمع بشكل أسرع وأدق، لأن الأدوات البيانية هي من خيال المتكلم وهذا واضح في الشعر لخدمة المقصود من القصيدة من معنى يراد نقله من خلال صور تساعد المستمع على الفهم وتحرك مشاعره انطلاقاً من صدق الخبر وجمال التعبير عنه.

٤– لذا فالشعر والأدب أعلى أنواع الفنون الإنسانية قاطبة، لأنهما قادران على الوصول إلى أكبر عدد من الناس وبأسهل الطرق، عن طريق التعبير بواسطة آلية الفكر الإنساني ''اللغة'' ومايرافق هذا التعبير من خيال وصور مسكوبة بقالب لغوي متماسك. كما أنهما قادران على اختراق كل العوائق المادية ''لأنها لغة منطوقة وليس لوحة أو تمثالا'' للوصول إلى أحاسيس الناس وآلامهم الاجتماعية والاقتصادية. ومن هنا نرى أن الكلمة هي أخطر أعداء الحكومات الدكتاتورية، فهي تلاحق من قبلها مع المسرح أكثر من فنون الرسم والنحت والتصوير والرقص والموسيقى.

من ناحية ثانية يتميز الشعر والأدب عن الرسم والنحت والرقص، فضلاً عن كونه مرناً مرونة الكلمات والجمل، بأنه فن متحرك وليس ساكناً مادته الكلمات والبنية اللغوية، أما مادة الرسم فهي الألوان وتناسق الخطوط، ومادة النحت المعادن والحجارة، ومادة الرقص الحركات الجسمية، ومادة الموسيقى الأصوات غير اللغوية، وهذه كلها لا تحوي مرونة وحركية اللغة. أي أن لها عطالة أكبر من عطالة الكلمات في الوصول إلى الموضوع المعبر عنه وإلى عقل وأحاسيس المستمع.

وبما أن الموسيقى هي مجموعة النغمات الصوتية المختلفة المنسجمة بعضها مع بعض لإخراج موضوع متكامل "كتاب" فهي أقرب الفنون رقياً إلى الشعر والأدب أي تلي الشعر مباشرة في الرقي. والله سبحانه ترك مجالاً للموسيقى في المشاعر الإنسانية حين تعجز اللغة أن تعبر عنها.

فعمالقة الشعر مثل شكسبير وبوشكين وأبي الطيب المتنبي يليهم عمالقة الموسيقى دخلوا إلى حياة شعوبهم وشعوب العالم أكثر من النحاتين والرسامين والراقصين.

من هذا المنطلق نرى أن الأدب من نثر وشعر يليه الموسيقى ثم الحركة ثم اللون، هذه الفنون مجتمعة توجد في المسرح. ففي المسرح يوجد النص اللغوي والحركة "حركة الممثلين" والألوان "الديكور" واللوحات، ولكن أضعف نقطة فيه هي الموسيقى لأنها تلي الكلمة في رقيها. وبما أن المسرح يقوم على قوة الكلمة "النص" فلاداعي لقوة الموسيقى أو لوجود الموسيقى أصلاً. فالمسرح هو ملك الفنون قاطبة لأن الجزء الرئيسي منه هو قوة الكلمة مضافاً إليها الفنون الأخرى، فعندما يكون النص المسرحي قوياً في وظيفته "يعبر عن موضوع يهم الناس" وقوياً في بنيته "بنية الجمل والحوار" قوياً في ألفاظه قوياً في أدائه "قوة وبراعة الممثلين". في هذه الحالة يمكن تقديم مسرحية في حديقة عامة لاعلى خشبة المسرح وستلاقي القبول الهائل. ففي المسرح يظهر بشكل رائع جمال الكل في وحدة جدلية هي قوة الموضوع في النص أو القصيدة، وجمال الجزء في الجمل المنفصلة وفي أداء الممثلين. فعلى كل شعب متحضر أن يفخر بشعرائه وأدبائه وفنانيه فخراً لا يقل أبداً عن فخره بعلمائه "علماء الهندسة والطبيعة والفلك" لأن الفنانين وعلى رأسهم الشعراء والأدباء والموسيقيين هم صانعو الحضارة بمفهومها الروحي، أما العمال والمهندسون والفلاحون فهم صانعو الحضارة بمفهومها المادي، وما الزعماء السياسيون إلا منفذين ومعبرين عن رغبات هؤلاء الصانعين العمالقة.

ـ مفاهيم الجمال في الإسلام

هل منع الإسلام الشعر والأدب والموسيقى وسائر الفنون؟ وماهو موقفه منها؟

لقد كان الإسلام نقلة نوعية في تاريخ الإنسانية عامة وفي تاريخ العرب خاصة، إذ نقل الناس نوعياً من مستوى إلى مستوى آخر في العقيدة والنظرة إلى الكون والحياة الإنسانية وفي التشريع والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية وفي الأخلاق والفنون أيضاً.

لننظر الآن إلى موقف التنزيل الحكيم من الفنون:

١ـ الموقف من الشعر والأدب

قلنا إن الكتاب جاء لغة منطوقة "الذكر"، وقلنا إن الكلمة هي أرقى الفنون الإنسانية قاطبة، وقد جاءت صياغة التنزيل الحكيم صياغة كلامية أي على شكل أرقى الفنون، ولم يمنع التنزيل الحكيم الشعر والقصة وكل فنون الكلمة الأخرى ولم ينتقد الشعر والأدب، ولكنه انتقد ظاهرة عدم الالتزام في الشعر والأدب، فقال {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ } (الشعراء ٢٢٤ـ٢٢٦) من هذه الآيات نرى أن الكتاب استنكر ظاهرة عدم الالتزام من الشعراء، أي انتقد الشعر غير الملتزم الذي يؤدي بدوره إلى ظاهرة الارتزاق بالشعر "الشعراء المرتزقة".

٢ـ الموقف من النحت

لقد وقف الإسلام من النحت موقفاً دقيقاً، فقد سمحت العقيدة الإسلامية بالنحت ولم تمنعه مطلقاً، فاستنكار إبراهيم على قومه كان عبادة الأصنام لا صنعها وهذا واضح في قوله تعالى {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} (الصافات ٩٥)، وقوله {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} (إبراهيم ٣٥). إن الموقف العقائدي الإسلامي هو تجنب عبادة الأصنام بصورة خاصة وتجنب الوثنية بصورة عامة، فالوثنية دين، وعبادة الأصنام هي أحد مظاهر هذا الدين. والديانة الوثنية هي أن تعبد مظاهر الطبيعة من شمس وقمر وأنهار وبحار وشجر وبرق ورعد وأصنام وتماثيل. فإذا كان هناك أناس يعبدون الشمس، فهل نفجر الشمس ونزيلها لنمنعهم من عبادتها؟ وكذلك القمر والبرق والرعد، فهل نمنع ظاهرة البرق والرعد في الطبيعة لنمنع الناس من عبادتها؟! هذه هي الوثنية التي تعتبر ظاهرة عبادة الأصنام أحد مظاهرها.

لقد وضع الإسلام الحل الحاسم لهذه الظواهر بقوله تعالى {.. فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ..} (الحج ٣٠) قال الأوثان ولم يقل الأصنام لأن الأصنام أحد مظاهر الوثنية. ثم لنلاحظ قوله "الرِّجْسَ" والرجس هو الاختلاط في الأمور، لذا قال عن الخمر والميسر إنهما رجس من عمل الشيطان، لأن الإنسان يظن أن الخمر تسبب له مسرة وتنسيه همومه، وهذا وهم، ويظن أن الميسر يجلب له الغنى والمال، والرجس هو الاختلاط في الأمرين بين الخمر والميسر وبين المسرة والغنى.

لذلك أمر باجتناب الرجس من الأوثان وليس باجتناب الأوثان ذاتها، لأن الأوثان ذاتها لا يمكن اجتنابها وهذا واضح في الظواهر التالية:

١– لقد أزال المسلمون كل معالم الوثنية في المسجد الحرام وفي غيره لكيلا تختلط الأمور على الناس فالإسلام يحرم نحت التماثيل والرسم فقط في أماكن العبادة والمساجد لتفادي اختلاط الأمور على الناس أثناء العبادة، حتى إنه حرم أن يكون هناك قبور في المساجد حتى ولو كانت للصالحين والأولياء لتجنب الاختلاط "الرجس".

٢– عندما فتح العرب المسلمون بلاد الشام وفارس ومصر، كانت هذه البلاد مهداً لحضارات قديمة مليئة بالتماثيل، فهل هدموا المنشآت والتماثيل في البلاد المفتوحة مثل أبي الهول وأبي سنبل والكرنك وبلاد بابل والشام؟ علماً بأن الفتوحات تمت في السنين العشر الأولى بعد وفاة الرسول (ص) والعرب الفاتحون كانوا من الجيل النبوي أي أنهم عاصروا النبي (ص) من أصغر جندي إلى الخليفة.

هذه التماثيل لم تهدم لأنها كانت لا تعبد. ولو كان الأمر غير ذلك لدخل العرب المسلمون التاريخ كشعب همجي مهدم للحضارات، ولايعقل أن النبي (ص) قد حرم النحت، لأنه لو فعل ذلك لهدم العرب المسلمون كل التماثيل التي صادفوها أثناء الفتوحات ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

٣– لقد أغلق العرب المسلمون معابد النار في بلاد فارس، ولاأستبعد أنهم استعملوا القوة في ذلك لأن النار كانت تعبد في تلك هذه المعابد، ولكن هل منع العرب المسلمون الناس من استعمال النار لأمر آخر كالطبخ والتدفئة؟ لم يحصل ذلك لأنه كان واضحاً في أذهانهم أن الله منع "الرجس من الأوثان".

لذا فإن العقيدة الإسلامية لا تحرم النحت كفن وإنما حرمت وحذرت من الرجس "الاختلاط في الأمور" لكي لا يظن الناس أن المنحوت فيه ضرر ونفع وهذا باطل.

من هذه الأمور يتبين لنا أنه إذا كان هناك أحاديث منسوبة للنبي (ص) بشأن النحت، فهي أحاديث قيلت في حينها واستوجبتها الظروف التي عاشها النبي (ص) ولاتقتضي الشمول لأنها ليست من حدود الله.

٣– الموقف من الرسم

لم يكن فن الرسم والتصوير في الأصل متقدماً عند العرب في الجاهلية، واعتبر الإسلام أن الفنون من الفطرة الإنسانية، فالأساس في الأمور الإباحة وليس التحريم. وقد استند تحريم التصوير والرسم إلى بعض الأحاديث النبوية مثل ما روي عن سعيد بن الحسن أنه قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنه إذ أتى رجل قال: ياابن عباس إني إنسان أعيش من صنع يدي وإني أصنع هذه التصاوير فقال ابن عباس: سمعت رسول الله (ص) يقول "من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ"(رواه مسلم ج٣/ ص١٦٧٠). إن هذا الحديث لا يمكن للنبي (ص) أن يقوله لأنه مناقض تماماً للنص القرآني، فالروح في القرآن أوامر ومعلومات، وهي التي أعطت الإنسان الوعي للعالم الموضوعي والأوامر والنواهي، وبها أصبح البشر إنساناً حراً، والروح ليست سر الحياة لا من قريب ولا من بعيد، فكيف يقول النبي (ص) بأن ينفخ فيها الروح. وإن صح هذا الحديث وغيره في هذا الباب، فهي أحاديث تتعلق بالمرحلة التي عاشها النبي (ص) ولكنها ليست أحاديث تتعلق بالحدود.

أما التبرير الآخر للتحريم فهو أن المصور هو من أسماء الله الحسنى، أولم يعلموا أن الله سبحانه وتعالى قلم أسماءه لنعرفه بها لأنه قال {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} (العلق ٤)، والتعليم جاء من خلال العالم الموضوعي الذي يعيشه الإنسان، فالله يعلم والإنسان متعلم لأنه خليفته. والله يَرزُق والإنسان يَرزُق {وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} (الحجر ٢٠) ولكنه أحسن الرازقين. الله يخلق والإنسان يخلق ولكن الله هو أحسن الخالقين {فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون ١٤).

٤ــ الصوت

لقد جاء القرآن في بيانه بإيقاع ونغمة في تلاوة سهلة السماع على الأذن العربية تطرب لها النفس، وما الموسيقى إلا مجموعة من الأصوات ضمن إيقاع ونغمة معينة للتعبير عن موضوع معين. وعندما قدم النبي (ص) مهاجراً إلى المدينة استقبله الأنصار في يثرب بالأغاني والغناء الجماعي وضرب الدفوف لأن هذا الذي كان متوفراً عندهم. ومن هنا يتبين لنا أن الموقف الذي اتخذه الفقهاء من الفنون هو موقف تاريخي كان صالحاً لفترتهم وعصرهم وقد تغيرت الفترة والعصر وهذا مسوغ لتغير المفاهيم.

لذا فإن الموقف الذي يمنع الغناء يعتبر موقفاً غير إسلامي. والفنون والشهوات هي من الدين الإسلامي وهي بطبيعتها حنيفية غير مستقيمة أي خاضعة للتطور مع تطور المعارف ووسائل

الإنتاج الإنسانية.

والآن للنظر إلى جمال الكلمة في القرآن وجمال الكل والجزء:

من تعريفنا للجمال يجب أن نفهم أن جمال الكلمة والصيغة في القرآن هو جمال ظهر من خلال آداء الوظيفة، وصياغة القرآن لا تهدف إلى الجمال فقط، أي يجب علينا أن نفهم أن إعجاز القرآن ليس جمالياً فقط، بل إن التحدي بالإعجاز في القرآن تحد جمالي ووظيفي معاً. وعندما نفهم صياغة المتشابه التي حوت مطلق الحقيقة ونسبية الفهم نرى فيه قيمة الجمال لأن مفردات القرآن وصياغته أدت الوظيفة المطلوبة. إن جمال الجزء في القرآن هو في الألفاظ واشتقاقاتها، فإذا أخذنا كلمة من القرآن وبحثنا في كل معاجم مفردات اللسان العربي لنبدلها بكلمة أخرى أو باشتقاق آخر دون أن يتغير المعنى وجدنا أن ذلك مستحيل! وجمال الكل يظهر في الصياغة المتشابهة القابلة للتأويل حسب الأرضية المعرفية للقارئ، وللمرحلة التاريخية التي تجري القراءة فيها، وهذا الجمال يظهر في مفهوم أساسي هو مواقع النجوم، أي مواقع الفصل بين الآيات {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} (الواقعة ٧٥، ٧٦) أي أن القرآن جمع في صياغته التي حوت جمال الكل:

١– الصياغة الخبرية الصادقة للقوانين الموضوعية "اللغة العلمية".

٢– الصياغة الفنية لهذه القوانين بصيغ بيانية "اللغة الأدبية".

أي أن القرآن جمع النظم العلمي والنظم الأدبي معاً، علماً بأننا نراهما منفصلين في غير القرآن.

الخاتمة

بعد هذا العرض للقراءة المعاصرة للإسلام الذي اصطبر القارئ عليه مشكوراً ظهرت لنا جلياً الأمور التالية:

١– دقة المصطلح في التنزيل الحكيم فالمصطلحات الواردة فيه ترقى إلى أدق المستويات العلمية سابقاً وحالياً، ومستقبلاً أيضاً.

٢– البرهان على أن نبوة محمد (ص) صالحة لكل زمان ومكان بالتشابه، وأن رسالته صالحة لكل زمان ومكان بنظرية الحدود، وأنه – بالتالي – خاتم الأنبياء والرسل، وأن الإسلام هو دين الفطرة "الطبيعة" المنسجم مع قوانين الوجود، فالإله الذي أوحى الإسلام هو نفس الإله الذي خلق الطبيعة، ومن هنا كان هذا الانسجام الكبير بين الإسلام والطبيعة نظراً لوحدة الناموس بينهما.

وبالتالي ظهرت لنا جلياً الأمور التالية:

أ– إن رسالته رحمة للعالمين وخاتمة الرسالات، حيث نلمس هذه الرحمة الآن في كل أنحاء العالم، وليس في شبه جزيرة العرب وفي القرن السابع الميلادي فقط. أي ظهر لنا جلياً مصداقية قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء ١٠٧) وهي الخاتم لأنها تم بها ختم المحرمات، فلا محرمات بعد الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة. لذا بقي الدور الأساسي لمجالس التشريع في العالم أن تقوم بالتشريع في كل أمور الحياة ماعدا التحريم، لأن التحريم من حق الله وحده ولايحق لأحد غيره ذلك لا المجالس التشريعية ولاحتى الفقهاء.

ب– عالمية الرسالة، أي أن رسالته صالحة لكل أهل الأرض وتنسجم معهم ومع فطرتهم، حيث ظهر لنا جلياً الآن وفي القرن الواحد العشرين، مصداقية قوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..} (الأعراف ١٥٨).

ج– ظهر لنا جلياً مصداقية قوله تعالى {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} (الأحزاب ٤٠) وأن أي إنسان بعد محمد (ص) يدعي النبوة فقط أو النبوة والرسالة معاً ما هو إلا مشعوذ.

من خلال رحلة هذا الكتاب ظهر للقارئ جلياً أن أساسيات النظرة الشمولية إلى الوجود بأنواعه "الله، الكون، الإنسان" محتواة في نبوة محمد (ص) ورسالته، وأن العقيدة الإسلامية يجب أن تطرح

وتفهم فهماً فلسفياً ضمن منطوق القرن الواحد والعشرين. في ضوء هذا الفهم الفلسفي نجد أن هذا الكتاب حوى المواضيع التالية:

المنهج المقترح في معالجة الكتاب والقرآن معالجة علمية، الذي جاء في الباب الأول من هذا الكتاب، والذي بين بشكل جلي الفرق الأساسي بين الكتاب والقرآن والذكر والفرقان والسبع المثاني وأم الكتاب وتفصيل الكتاب واللوح المحفوظ والإمام المبين. وأن ما اعتبر من المترادفات خلال قرون عديدة ظهر أنه من المتغايرات. كما ظهر الفرق الجلي بين نبوة محمد (ص) ورسالته ونبوات ورسالات الرسل قبله. كما ظهر إعجاز القرآن وأنواع التحدي فيه، وفي ضوء هذه المفاهيم تم تحديد قواعد التأويل.

٣- إن أي طرح فلسفي لثلاثية "الله، الكون، الإنسان" يجب أن يستنتج منه الفروع التالية:

أ- نظرية الوجود الإلهي والكوني وهذا ما جاء في الفصل الأول في الباب الثاني، حيث تم تحديد الوجود الإلهي "الحق، والوجود الكوني الحق أيضا" وتم تبيان أن الله أحادي، والكون ثنائي، وتم تحديد قوانين الجدل في الكون، وهي الثنائية التناقضية، والثنائية الزوجية، والثنائية الضدية. وعلى ضوء الثنائية التناقضية تم تعريف قانون تسبيح الأشياء لله. ومن هذه الثنائية، التي يعتبر قانون تغير الصيرورة "التطور" هو العمود الفقري لها، تم استنتاج الصور "الساعة"، البعث، اليوم الآخر، الجنة، النار، وتم استنتاج أن الصور والساعة والبعث لم يحصلوا بعد، وبالتالي فإن الجنة والنار لم توجدا حتى الآن، وإنما ستقومان على أنقاض هذا الكون بعد التسارع في تغير صيرورته "الانفجار الثاني".

ب- نظرية المعرفة الإنسانية: وقد تم شرح هذه النظرية في الفصل الثاني من الباب الثاني، وتم تحديد مصطلح: الرحمن، الشيطان، إبليس، نشأة اللغة وارتباطها بالفكر. وتم تحديد مستويات الوعي الإنساني بالإدراك الفؤادي المشخص، والفكر والعقل، وتم تحديد النقيضين اللذين يعملان في الفكر الإنساني. وفي ضوء هذه النظرية تم تحديد قانون الكم والكيف، والقدر والمقدار، والدائم والباقي، والقلم، والعلق، وتم تأويل آيات آدم، أي ما يسمى بالحلقة المفقودة، التي انتقل بها البشر إلى إنسان. وفي هذا الفصل تم تعريف القضاء والقدر، والحرية، وعلم الله، وأسس العقل الرحماني، والعقل الشيطاني. كما تم البرهان على أن الأعمار والأرزاق والأعمال غير مكتوبة سلفاً على أحد، وأن مفهوم الجبرية مفهوم دخيل على العقيدة الإسلامية الأصيلة.

ج- نظرية التشريع "أم الكتاب" التي تم تحديدها بنظرية الحدود، والتي جاءت في الفصل الأول من الباب الثالث، حيث بينا أن الشرع الإسلامي هو شرع حدودي لا حدي، وأن الله أعطى للناس في

أم الكتاب حدود التشريع، لا عين التشريع، ومن هنا كانت الرسالة عالمية، وصالحة لكل زمان ومكان، وهي الرسالة الخاتم، علماً بأن التشريع الحدودي لم يعط إلى أحد قبل محمد (ص)، وبهذا تميزت رسالته عن الرسالات التي قبله.

د– نظرية الأخلاق: وقد جاءت في الفصل الثاني من الباب الثالث، تحت مصطلح الفرقان العام "الوصايا العشر" وهو الأخلاق المشتركة لكل أهل الأرض، وقد جاء لكل من موسى وعيسى ومحمد (ص)، مع وجود فرقان خاص جاء لمحمد (ص)

كما تم بحث المفاهيم التالية في هذا الباب، وهي الشعائر ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مع بيان لرؤيتنا حول أزمة الفقه الإسلامي. وفي نهاية هذا الباب تم اقتراح منهج جديد للتشريع الإسلامي يقوم على الحدود، مع تقديم تصورناعن فلسفة القضاء الإسلامي والعقوبات انطلاقاً من نظرية الحدود

هـ– نظرية الاقتصاد: تم استنتاج الأسس العامة للنشاط الاقتصادي المطروح في القرآن الذي يقوم على أساس الشهوات. وتبين أن أساس الاقتصاد هو التجديد في السلع، ووسائل الإنتاج والمردود المادي وذلك في الفصل الأول من الباب الرابع.

و– نظرية الجمال: تم تحديد مفاهيم الجمال، وتطور مواضيع الجمال خلال التاريخ. وتم بحث عناصر الجمال "الغناء، الرقص، الموسيقى، الأدب، الشعر، المسرح". وتم تحديد موقف الإسلام من الجمال، وذلك في الباب الرابع من الكتاب.

ز– التطور التاريخي أو خط سير التاريخ: ستتم دراسته وبحثه في كتب القصص القرآني بما فيه القصص المحمدي في كتب مستقلة.

وننتقل الآن إلى ذكر بعض النتائج التي يمكن استخلاصها مما تم عرضه في أبواب الكتاب وفصوله.

أولاً: تعريف الإسلام [22]

22 – لمزيد من التفاصيل في الموضوع الرجاء الاطلاع على كتابنا **الإسلام والإيمان: منظومة القيم**، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ١٩٩٦.

لقد تم شرح مركبات التنزيل الحكيم من النبوة والرسالة، وتم شرح قوانين الجدل المادي وجدل الإنسان في النبوة "القرآن" ووضع أسس التشريع والأخلاق في الرسالة "أم الكتاب".

فما علينا الآن إلا أن نعرف الدين الإسلامي ضمن المنظور المشروح في الأبواب السابقة، وبالتالي نشرح قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (آل عمران ١٩).

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران ٨٥).

جاءت كلمة "الدين" من الأصل "د ي ن" وهو جنس من الانقياد والذل. فالدين الطاعة ومنها جاءت المدينة والمدنية. وسميت المدينة مدينة لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر، ومن هذا الباب جاء الدَّيْنُ لأن فيه طاعة المدين للدائن مقابل أخذ وعطاء.

فمن باب الحكم جاء قوله تعالى {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} (الفاتحة ٤) أي يوم الحكم، وقوله تعالى {.. مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ..} (يوسف ٧٦) أي في طاعته وحكمه.

فكلمة الدين في التنزيل الحكيم تعني ما دان به الإنسان لله في خروجه من المملكة الحيوانية ومالزم به طاعته. حيث جاءت بمعنى "الدين" وهو الأثر المترتب عن نفخة الروح، ومن جراء هذا العطاء من الله للإنسان تطور الإنسان وأصبح متحضراً له مدنية، وهذه المدنية نشأت عن معرفة الإنسان التدريجية بقوانين الوجود، وبنفس الوقت تحتاج إلى تشريع وطاعة هذا التشريع لوجود علاقات اجتماعية اقتصادية واعية، لذا سمى الوحي "الروح" لأن الوحي يحتوي على قوانين الوجود في النبوة والقيم الإنسانية والشعائر والتشريع في الرسالة، وسمى الكتاب "روح" {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا..} (الشورى ٥٢). أما مفهوم الدين (Religion) على أنه الشعائر فقط من صلاة وصوم بالمعنى الأوروبي، فهذا فهم مرفوض لأنه يحصر الدين في الشعائر فقط والشعائر مختلفة من ملة دينية إلى أخرى، كما أن الدين ليس فقط شعائر بل هو قيم إنسانية مطلقة وتشريعات حدودية ضمن حدود الله "نظرية الحدود".

أما كلمة الإسلام فجاءت من "س ل م" وهو أصل صحيح معظم بابه من الصحة والعافية. فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى والله هو السلام لسلامته من العيب والنقائص أي سلامته من "تغير الصيرورة"، وبهذا المعنى جاء مصطلح الإسلام والدين الإسلامي أي الدين الخالص من النقائص والعيوب، وهو دين سهل الانقياد لا عنت فيه ولاتحجر ولاتزمت بحيث يصبح ممتنعاً على الناس. فالإسلام هو التسليم لله أي الانقياد له، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ..} (البقرة ١٢٨) وقوله {.. وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر ٦٦) وقوله {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (البقرة ١٣١) وهنا يجب ان ننبه إلى مسألة مهمة جداً هي أن الإسلام لا يعني أبدا الاستسلام لأن الله طلب منا أن نسلم له لا أن نستسلم بدون قيد أو

شرط، لذا قال في آية ١٢٨ من سورة البقرة {وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ..} ولم يقل مستسلمين لك. وعليه فعندما تأتي كلمة "إسلام" في التنزيل الحكيم وتكون مرتبطة بالله فهي تعني التسليم له وحده، أما عندما تأتي مرتبطة بالناس فهي تعني الاستسلام لمن ارتبطت به في سياق الآية كما في قوله تعالى {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (النمل ٣١) وقوله {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (النمل ٣٨).

لكن الفقهاء، انطلاقاً من قولهم بالترادف، اسقطوا معنى الاستسلام على كل الآيات الواردة في التنزيل الحكيم وعمموها عليها جميعاً، فصار الإسلام بالنسبة لهم بمعنى الاستسلام أينما ورد في المصحف حتى في علاقة العبد بربه، وهذا خطأ لأن الصواب في هذه العلاقة هو التسليم والسلام والسلامة وليس الاستسلام.

فكيف نفهم الآن قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ..} (آل عمران ١٩) وقوله {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ..} (آل عمران ٨٥)؟

إذا نظرنا إلى مركبات الدين الإسلامي رأيناه يحوي صفتين أساسيتين متناقضتين هما الاستقامة والحنيفية، وثلاث مركبات هي: الحق، والقيم، والشعائر والتشريع والأعراف. فلنر الآن أين الاستقامة والحنيفية في هذه المركبات الثلاث:

١– الحق: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (التوبة ٣٣).

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} (الفتح ٢٨).

لقد فهم المفسرون أن الرسل والانبياء جاؤوا بمجموعة أديان مختلفة ومتغايرة أهمها اليهودية والنصرانية والإسلام كآخر دين جاء به الرسول محمد (ص)، وهذا غير صحيح، وهو ما أوقعهم في اللبس ولم يمكنهم من استيعاب الفهم الصحيح للدين الذي هو الإسلام. فكل ماعرفته وتعرفه الإنسانية عبر مسيرتها التاريخية إنما هو المراحل التطورية للدين الإسلامي حتى ختم بالصورة التي جاء بها الرسول (ص)، ولهذا فإن الدين الإسلامي يشمل كل الملل الدينية على اختلافها وتغايرها، لأن الله واحد والكون واحد ولا يمكن أن يوحي بأديان مختلفة، والملل المختلفة إنما تمثل تفاعل البشر مع الوحي عبر مختلف المراحل التاريخية. فالدين الإسلامي بمركباته الثلاث يعتبر دين الحق الذي هو أحد مركباته وأقواها جميعاً "أظهرها" وهذا يعني أن دين الحق هو دين الوجود الموضوعي خارج الذات الإنسانية "الكون"، وأنه يحتوي على القوانين العامة الناظمة للوجود الموضوعي ولحركة

تطور التاريخ، وهذا ما جاء في القرآن ''النبوة''. لأن من يفهم قوانين الوجود يستطيع أن يتحكم بها ويجعلها تعمل لمصلحته. أما الجانب المستقيم من النبوة فهو النص الثابت، وأما الجانب الحنيف فهو الفهم الإنساني النسبي المتغير.

٢– الأخلاق ''القيم الإنسانية'': فالإسلام دين السلوك الإنساني الأخلاقي الذي جاء عموده الفقري في الوصايا العشر ''الفرقان'' وهو مستقيم في محتواه ومتغير في طرق التعبير عنه، وبما أن الأخلاق عبارة عن قيم إنسانية ذاتية فهي ضعيفة في ذاتها بحاجة إلى قوة تؤيدها وتدعمها.

٣ – الشعائر والتشريع والأعراف: أما الشعائر فهي من حدود الله الثابتة. وأما التشريع فجاء في نظرية الحدود الموجودة في التنزيل الحكيم، حيث وضع سبحانه حدود التشريع وليس عين التشريع، تاركاً للحنيفية حرية الحركة ضمن هذه الحدود حسب التطور المعرفي والتاريخي للمجتمع.

وأما الأعراف فهي حدود الناس. إذ هناك حدود لله ثابتة وحدود للناس متغيرة هي الأعراف. والإسلام يقر كل الحدود الإنسانية ويأمر بالالتزام بالأعراف، طبقاً لقوله تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف ١٩٩)، ما لم توجد فيها تجاوزات لحدود الله، فإن وجدت لم يسقط وجوب الالتزام بها وحسب، بل وجب تركها، لأنها لم تعد أعرافاً بل تحولت إلى تقاليد عمياء.

التقوى

جاءت التقوى من الأصل ''و ق ي'' وتدل في اللسان العربي على دفع شيء عن شيء بغيره، والوقاية ما يقي الشيء ويقي منه، واتق الله توقه أي اجعل بينك وبينه كالوقاية.

والسؤال الآن: كيف نجعل وقاية بيننا وبين الله، أي كيف نتقي سخطه وغضبه؟ التقوى في الإسلام أنواع، منها التقوى الفردية ''الشعائر''، والتقوى الاجتماعية ''القيم الإنسانية''، والتقوى التشريعية ''التشريع ضمن حدود الله''. ونلاحظ أن كل ما يتعلق بالتقوى جاء في أم الكتاب ''الرسالة'' إذ لا يوجد في القرآن ''النبوة'' أي تقوى، فالتقوى تكون في السلوك الإنساني لا في الوجود الموضوعي.

أ– التقوى الفردية: هي الالتزام بكل الشعائر ''الصلاة، الصيام، الحج'' ماعدا الزكاة والصدقات، حيث أنها عبادة وعلاقة اجتماعية ابتداء من الحد الأدنى فما فوق. وهذه التقوى لها علاقة بكل شخص على حدة، فصلاة الإنسان وصومه وحجه لنفسه، فإذ صلى الإنسان فصلاته له ولايؤثر في صلاته أو عدم صلاته على أحد وكذلك الصوم والحج.

ب– التقوى الاجتماعية ''القيم الإنسانية'': هي الالتزام بالوصايا ''القيم'' في علاقة المسلم مع غيره من الناس قاطبة بالإضافة إلى الزكاة والصدقات في علاقته مع مجتمعه.

ج– التقوى التشريعية: هي التزام المسلم بالتشريع ضمن حدود الله والتزامه بالأعراف السائدة ضمن حدود التشريع، وحقه في المطالبة بتغيير التشريعات والأعراف وتغييرها فعلاً إذا طال عليها الزمن وأصبحت معيقة للتطور الذي هو العمود الفقري للتوحيد، ولايصدر أي تشريع إلا من خلال موافقة أكثرية الناس عليه ''الإجماع''.

هذه الأمور كلها تنسجم مع الفطرة الإنسانية ومع قوانين الطبيعة.

ثانياً: فصل الدين عن الدولة

لنناقش الآن أطروحة فصل الدين عن الدولة، أو أطروحة الدولة العلمانية.

لقد ظهرت هذه الأطروحة ابتداء من عصر النهضة في أوروبا نظراً لتناقض مكتشفات العلم مع التفسير التوراتي للكون، ونظراً لجمود شريعة موسى حيث كان طرح التوراة والإنجيل مرحلياً، وكانت شريعة موسى وعيسى زمانية مكانية حدية، فكانت هذه المطالبة مبررة تنسجم مع فطرة الإنسان، وتم في نهاية الأمر فصل الدين عن الدولة وأصبحت الملتان المسيحية واليهودية تمارسان في المعابد فقط، وكان الابتعاد عنهما ينسجم مع فطرة الإنسان الحنيفية. هذا هو السبب الأساسي في فصل الدين عن الدولة.

أما بالنسبة للدين الإسلامي، بخاتميته التي جاءت في التنزيل الحكيم، فهو دين حنيفي منسجم مع الفطرة الإنسانية، ويعتمد على التشريع الإنساني ضمن حدود الله وعلى البينات المادية وإجماع أكثرية الناس على التشريع أي أنه يقوم على عدم الإكراه.

لنناقش الآن فصل الدين عن الدولة من خلال قراءة معاصرة له في التنزيل الحكيم:

١– إذا أردنا فصل دين الحق عن الدولة، فهذا يعني أن الدولة غير معنية بالبحث العلمي وتطوير مناهج التعليم والجامعات، وغير معنية بربط منجزات العلم مع الحياة، وأن الدولة لا تعنيها البينات المادية والإحصائية في رسم سياساتها المختلفة، وبالتالي فإن الدولة تقوم على المنجمين والمشعوذين والدجالين.

٢– إذا أردنا فصل منهج التشريع الإسلامي ''حدود الله'' عن الدولة، فهذا يعني أن هذه الدولة غير حنيفية في التشريع، والتشريع فيها حدي غير متطور، ولايهمها إجماع أكثرية الناس على التشريع

المطروح، ولاتأخذ بعين الاعتبار تأثير تطور المعارف على التشريع، وفي ذلك ظلم كبير يقع على الناس من جراء عدم تطوير التشريع زماناً ومكاناً.

٣- إذا أردنا فصل القيم الإنسانية "الوصايا في الفرقان" عن الدولة، فهذا يعني أن هذه الدولة غير معنية بشهادة الزور وقتل النفس وإشاعة الفاحشة ورعاية الأيتام والحنث باليمين والوفاء بالمواصفات في البيع والشراء والإنتاج.

٤- إذا أردنا فصل مفاهيم الجمال عن الدولة، التي تعتبر من الفطرة الإنسانية، فهذا يعني أن هذه الدولة غير معنية بالآداب والفنون من شعر ونثر ورسم ونحت وتصوير وغير معنية بالرياضة والنشاطات الرياضية.

فإذا تم فصل هذه البنود الأربعة عن الدولة ينتج لدينا سؤال هام هو: ماهي الدولة؟ الجواب في هذه الحالة: أنها لا شيء.

قد يقول البعض إن ما نعنيه بفصل الدين عن الدولة يكون في الشعائر فقط. أقول لهم: هل مارس النبي الإكراه في الشعائر من صلاة وصيام وحج؟ وهل كلف أحداً بمراقبة من يصلي أو لا يصلي، ومن يصوم أو لا يصوم، ومن حج أو لم يحج؟ لقد كفانا النبي (ص) مؤونة هذا الفصل حيث فصلها بنفسه، واستعمل أسلوب الترغيب والترهيب في الشعائر، أي الأسلوب التربوي البحت، ولم يستعمل أبداً الأسلوب السلطوي. لأن السلطة فيها إكراه بينما الدين لا إكراه فيه. أي لو كانت الشعائر من صلاة وصيام من مهام السلطة لوضعت عقوبة على تارك الصلاة والصوم، ولأكره الناس على أدائها، وهذا لا يوجد في الإسلام بتاتاً، حيث أن الشعائر هي صلة بين العبد وربه، وتنحصر مهمة الدولة في التسهيل على الناس لأداء الحد الأدنى من الشعائر، واحترام هذه الشعائر وعدم تشجيع الناس على تركها ولاعلى إكراههم على أدائها.

وهكذا نفهم قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ..} (آل عمران ١٩) {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران ٨٥).

وهكذا نجد أنه لا يوجد إنسان في الأرض إلا وله في الإسلام نصيب علم ذلك أم لم يعلم، لأن الإسلام ينسجم مع الفطرة الإنسانية "طبيعة الناس". قد يقول قائل إن معظم أهل الأرض في هذا المنظور ملتزمون بحدود الله ويعيشون حسب أعرافهم المتطورة، فهل يعني هذا أن معظم أهل الأرض سيدخلون الجنة؟ جاء الجواب في التنزيل الحكيم أن المسلمين منهم فقط سيدخلون الجنة، لذا أتبع قوله {.. الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ..} بقوله {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (التوبة ١١٢) أي أن البشرى للمسلمين من هؤلاء. لذا فقد ورد الموقف الإلهي من الناس

كافة في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة ٦٢)، حيث الذين آمنوا هنا هم أتباع الملة المحمدية.

ونلاحظ أن هذه الآية تنطبق على كل ملل أهل الأرض السماوية منها وغيرها، لأن الشرط الأساسي في الإسلام عند كل الملل الدينية هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. هنا نريد أن نصحح خطأً شائعاً يزعم أن الصابئين هم الصابئة أهل حران شمال شرق سوريا، والصحيح هو أن الصابئين جمع مفرده صابئ، وهو من صبأ عن الملل السماوية الثلاثة: الملة اليهودية، الملة النصرانية، والملة المحمدية، ولكنه يؤمن بالله واليوم الآخر. وهذا ما نعرفه عن قول العرب في مكة عندما كان يدخل أحد منهم في دين محمد (ص) "صبأ فلان" أي خرج عن ملة الآباء ودخل في ملة محمد (ص) وهنا الصابئون من صبأ عن ملل موسى وعيسى ومحمد ولكنه مؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً.

من هنا نرى لماذا استعمل سبحانه صيغة المبني للمجهول في قوله {فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} (آل عمران ٨٥) فمن البدهي المفروغ منه ألا يقبل الله ديناً غير الإسلام لقوله تعالى "إن الدين عند الله الإسلام" ولاحاجة للتكرار لولا أن هناك وجهاً آخر، هو أنه لن يقبل من قبل الناس أيضاً، لأن أي خروج عن الفطرة الإنسانية في النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتشريعي فيه خروج عن الإسلام يؤدي بالضرورة إلى استنكار الناس له، لذا فإن الميزان الذي يجب اعتباره هو أن الموقف الإسلامي هو أي موقف لا يوجد فيه خروج عن حدود الله وفيه العدالة النسبية "أي معتمد على البينات المادية" سيؤدي إلى إرضاء الناس وموافقة أكثرية الناس عليه حتى وإن كانوا من الملل الأخرى غير الملة المحمدية، فأي موقف يؤدي إلى احتجاج أكثرية الناس عليه هو موقف غير إسلامي حتى وإن كان في الملة المحمدية. هذا هو الميزان الدقيق في {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} (الروم ٣٠).

لأن الحنيفية هي العمود الفقري للإسلام في الرسالة الخاتمة التي جاء بها الرسول محمد (ص) وهي بالمفهوم الذي طرحناه تحمل مفهوم السماحة وعدم العنت والتحجر، وهي الملة التي جاءت بدءاً بإبراهيم ووصولاً إلى محمد (ص) مرتبطة بأعراف المجتمعات وتقاليدها. مثال ذلك أنه لا يمكننا تطبيق عقوبة الإخلال بالآداب العامة في باريس مثل عقوبة الإخلال بالآداب العامة في اليمن بسبب اختلاف الأعراف والتقاليد في كل منهما. فأم الكتاب أعطتنا المجال بتطبيق تشريعات مختلفة على حالة معينة باختلاف الزمان والمكان، وكل هذه التشريعات إسلامية صرفة، تتدرج على

اختلافها تحت نظرية الحدود التي وضعها الله في تنزيله الحكيم، ولها علاقة بتقييد الحلال وإطلاقه فقط، لأن المحرمات عينية وهي من الله مباشرة.

وعلى هذا الأساس فإن ممارسة الحنيفية تكون بواسطة الإجماع بمفهومه الإسلامي الصحيح، وهو إجماع أكثرية الناس على التشريع المقترح لحالة معينة في زمان ومكان معين كل حسب معطيات عصره وظروفه. لذا نحن لا نعترف بالإجماع المطلق الذي لا يعير أي اعتبار لبعدي الزمان والمكان، وهذا ما يسمى بالإجماع الوهمي الذي تم طرحه كأحد أركان الفقه الإسلامي بقولهم: ''أجمع جمهور الفقهاء'' حيث أن هذا الإجماع ليس أكثر من وهم فرض على الناس من قبل الفقهاء قديماً وحديثاً، أخذوا فيه بآراء الفقهاء في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة وجمعوها وقالوا هذا هو الإجماع الذي يجب أن يتبعه المسلمون في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وبذلك قتل الإسلام في مهده وتم طرحه في فراغ بفصله تماماً عن الحياة، ولايزالون يقاتلون من أجل فصله ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويظنون أن أعداء الإسلام هم الذين يريدون فصله عن الدولة، علماً بأن فصل الإسلام الحقيقي عن الدولة بالمنظور المطروح في هذا الكتاب مستحيل.

هنا أريد أن أنبه إلى ناحية في غاية الأهمية هي مبدأ الدفاع عن الحدود. فإذا تجاوز أحد من الناس حدود الله، فإن الله سبحانه يدافع عن حدوده لأنه هو الذي وضعها، فإذا تم تجاوز حدود الله من قبل أحد فسيقع ظلم كبير على الناس، في هذه الحالة يجب أن يتأكد الناس بأن الله سبحانه لن يترك حدوده مستباحة، وأنه سيتدخل ويكيد لمن يخترق حدوده. أما إذا استبيحت حدود الناس كأن يصدر تشريع إنساني يضع حدوداً لضرائب الدخل وفيه ظلم للناس وهو ليس من حدود الله، فعلى الناس أن تعلم أن من مهامها هي حصراً إزالة هذا الظلم والاحتجاج عليه، لا أن تضعه على عاتق الله وتنتظر تدخل الله. إن الإنسان الذي ينتظر تدخل الله في كل شاردة وواردة في الحدود التي لا تتعلق بحدود الله هو الإنسان المستكين الذي يخضع ويتلاءم مع الأنظمة الديكتاتورية في العالم. فالله يحرس حدوده، والناس تحرس حدودها فافهم هذا.

ثالثاً: إسلامية الدول العربية بالمنظور المعاصر

إذا سألني سائل: ماهي المواد التي يجب أن يتضمنها دستور أي دولة من شعوب الملة المحمدية ''بمايسمى حالياً بالدول العربية والإسلامية'' لكي تصبح إسلامية بالمفهوم المعاصر وليس إسلامية بالمفهوم التراثي؟ إنني أنوه هنا بخطأين شائعين جداً عند المسلمين من الملة المحمدية:

أ– المناداة بأن دستور الدولة القرآن، وهذا خطأ لأن القرآن لا يحتوي على أي تشريع.

ب– خطأ المناداة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، لأن الشريعة الإسلامية لاتحتوي على أحكام، بل على حدود، ولايوجد حكم حدي في الإسلام إلا في حالة الفاحشة العلنية. فحتى تصبح أي دولة عربية إسلامية بالمفهوم المعاصر يجب أن يحتوي دستورها على عقيدة التوحيد، وهذه العقيدة يعبر عنها بما يلي:

١– إن عقيدة الدولة الإسلامية، فيما يتعلق بالوجود، تقوم على اعتبار أن هذا الكون الذي نعيش فيه هو وجود مادي حقيقي مبني على الثنائية بالتناقضات والأزواج والأضداد وعلى تغير الصيرورة "التطور" في الأشياء وفي المجتمعات، وأن التناقضات الداخلية في المجتمعات تؤدي بالضرورة إلى تغير الشكل وظهور شكل جديد في المجتمع والعلاقات الاجتماعية وفي بنية الدولة. لذا فإن هذه الدولة هي دولة متطورة مبنية على العقل وعلى البينات المادية التي يقدمها العلم الموضوعي، وهذه الدولة لا يمكن أن تزول ولكن تتطور من شكل إلى آخر ما دام هذا الكون قائماً حتى قيام الساعة "نهاية التاريخ" وهلاك هذا الكون ليقوم على أنقاضه كون جديد خالٍ من المتناقضات، والإنسان يتدخل في تغير الصيرورة إسراعاً أو إبطاءً لكنه لا يستطيع أن يلغيها.

لذا فإن البحث العلمي وربط العلم بالحياة ودفع عجلة التطور إلى الأمام هو أحد المبررات الرئيسية لوجود هذه الدولة. في هذه المادة تكمن عقيدة توحيد الربوبية {.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ..} (القصص ٨٨) أو ما أطلقنا عليه قانون التسبيح، وأي طرح للعدالة خارج هذا القانون هو طرح طوباوي وهمي لأن العدالة لا يمكن أن تكون إلا نسبية مرحلية.

٢– إن التشريع في الدولة الإسلامية يجب ان يبنى على اعتبار أنه لا يوجد شيء اسمه الشريعة الإسلامية، ولكن يوجد شيء اسمه حدود الله "نظرية الحدود" التي وردت في أم الكتاب، أما التشريع التاريخي الذي وصلنا تحت اسم التشريع الإسلامي، فهو تشريع إنساني لا يعبر عن أكثر من تفاعل إنساني مع الوحي واجتهاد ضمن حدود الله، لذا فلايجوز أن يصدر أي تشريع في هذه الدولة فيه تجاوز لحدود الله وإلا فهو باطل. وصاحب الحق الوحيد في وضع حدود تشريعية دائمة "ثابتة" أي تشريع حدودي لا يتغير هو الله وحده. أما كل نص تشريعي حدودي أو حدي يضعه الإنسان فهو بحد ذاته متغير وقابل للإلغاء والحنف عنه، ويخضع للأعراف ودرجة التطور العلمي والتاريخي للمجتمع، أي للحالات التي تفرزها التناقضات الداخلية للمجتمع وحالات علاقة المجتمع مع غيره من المجتمعات. لذا يجب أن يضم أي تشريع يصدر في هذه الدولة بنداً يحدد مدة صلاحيته ووجوب إعادة النظر فيه.

٣– إن العلاقات الأخلاقية في المجتمع العربي الإسلامي مبنية على القيم الإنسانية (الفرقان العام "الوصايا")، والدولة ملتزمة بوضع منهاج تربوي للأجيال مبني على هذه القيم.

في هذين البندين تكمن عقيدة توحيد الألوهية.

٤– في الدولة الإسلامية هناك احترام تام للجد والعمل والكسب والتوفير وطموحات الأفراد والجماعات في كل مجالات الحياة، لذا فعلاقتها مع المواطنين لا تقوم على الحقد والحسد، وكذلك علاقة المواطنين بعضهم ببعض.

٥– تكفل الدولة الإسلامية للناس، من أتباع الملة المحمدية وغيرها من الملل، حرية اتباع الملة الدينية التي يختارونها دون إكراه أو إجبار، كما تكفل لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية كلٌّ حسب ملته. ولا يمكن أن يصدر أي تشريع يمنع الناس من ممارسة شعائرهم لأن الشعائر ليست موقفاً سياسياً أو تشريعياً. وعلى هذا الأساس فإن مصطلحات: الخليفة ورجال الدين والفقهاء والمفتي والإمام، بالنسبة للدولة الإسلامية بالمفهوم المعاصر، هي عبارة عن ألقاب تاريخية أفرزها التفاعل مع الإسلام في مراحل تاريخية مختلفة للمجتمعات العربية.

٦– بما أن التشريع الإسلامي تشريع حنيف ويحتاج إلى بينات مادية وإجماع أكثرية الناس على التشريع المقترح، لذا فإن الدولة العربية الإسلامية دولة ديموقراطية تقوم بنيتها الأساسية على التعددية الحزبية وحرية التعبير عن الرأي، حيث يمكن أن يطرح في هذه الدولة عدة اجتهادات لمشكلة معينة وكلها إسلامية ضمن حدود الله، والمواد المطروحة أعلاه هي ضمان الديموقراطية، وفيها تكمن الأسس المتينة للوحدة الوطنية بحيث أنها تنسجم مع قوانين الطبيعة وفطرة الناس.

رابعاً: أزمة العقل عند العرب

في ضوء شرحنا للعقل العلمي الذي جاء في النبوة والعقل الاتصالي الأخلاقي والتشريعي الذي جاء في الرسالة يتبين لنا بشكل جلي أزمة العقل عند العرب، هذه الأزمة القديمة الحديثة التي بدأت بشكل جلي بعد حسم المعركة بين المعتزلة والفقهاء لصالح الفقهاء، وضاع بعد هذه الهزيمة ضياعاً كاملاً الفرق بين النبوة والرسالة، وبين الكتاب والقرآن، أي تم الدمج بين العقل العلمي والعقل الاتصالي الذي تجلى فيما يلي:

١– لقد تم دمج القرآن والكتاب والذكر والفرقان معاً، وتم تحويل الدين الإسلامي إلى دين اتصالي فقط، أي أن التنزيل كله جاء من أجل تنظيم العلاقة الاتصالية بين العبد وربه، وبين الإنسان

والإنسان، وأن الإسلام دين العبادات والمعاملات فقط. أما الآيات الكونية والقصص جاءت ليتفكر المسلم بآلاء الله ونعمه وقدرته ليس إلا. وأصبح الإسلام ليس له علاقة بالفلسفة وبالعلوم العملية التي أسموها فيما بعد بالعلوم الدنيوية مثل أصل الإنسان، التطور، النشوء، الارتقاء، خلق الكون، نظرية الطفرة وقد تم الاعتماد على النقل اعتماداً أعمى بدون نظرة نقدية.

٢– بما أن سنة الحياة هي العقل العلمي الذي يحاول الإنسان من خلاله فهم الوجود "الله، الكون، الإنسان" وبما أن تخلف هذا العقل يؤدي إلى تدهور مستوى التقدم، وقد حصل هذا في عصور الانحطاط حيث لم يتقدم العرب قيد أنملة إلى الأمام، علماً بأن الفقه والعبادات والمواعظ لم تتوقف، والمساجد والزوايا وحلقات الذكر ومجالس الصلاة على النبي لم تتوقف بل زادت ونمت، ومع ذلك وصل العرب إلى غاية التدهور في التخلف والسذاجة في التفكير وفي تفسير أحداث الكون والتاريخ الإنساني حتى وصلنا إلى العقدة الكبرى وهي أن كل فشل أساسه العقل العلمي، يعزى إلى فشل العقل الاتصالي. وقد تجلت هذه العقدة في تفسير أحداث التاريخ. فكل هزيمة مني بها العرب سببها بعدهم عن ربهم وقلة التقوى، علماً بأن هزيمتهم تمت على أيدي كفرة غير مؤمنين. ومازال العقل الاتصالي حتى يومنا هذا هو المسيطر عند العرب في مجالات الأفراد والمجتمعات والدول.

ففي المجال الفردي مازلنا نرى حتى يومنا هذا المئات من الأغنياء العرب يتبرعون لبناء المساجد والمدارس الدينية، ولايخطر على بال الكثير منهم بناء مستوصف أو التبرع لجامعة أو لمعهد بحث علمي مثل معهد أبحاث السرطان وأمراض القلب، رغم أن تبرعاً من هذا النوع لا يقل أهمية وأجراً عند الله سبحانه عن التبرع لبناء المساجد.

وفي مجال الجماعات ما زالت المجتمعات العربية والإسلامية حتى يومنا هذا تنظر إلى العقل الاتصالي على أنه العقل الديني، وأن الإسلام جاء من أجل التقوى والموعظة والمودة والحب، ويغفلون جانب الحق والباطل في الدين الإسلامي الذي هو أهم جانب فيه وأقواه، وأن النبي (ص) قاد معركة بدر وأحد والأحزاب من أجل الحق والباطل، لا من أجل الحلال والحرام. أي أن هذه المعارك تم خوضها ليس من أجل اجتناب الخمر والميسر، بل من أجل سحق أوهام الجاهلية والباطل في عقول العرب علماً بأنه من الناحية الاتصالية كان يوجد عند العرب مكارم أخلاق في الجاهلية وقد ثبتها النبي ودعا إليها وتممها بدعوته في إكمال الدين.

وأما في مجال الدول فترى الأموال التي تنفق على صياغة العقل الاتصالي "المسموح والممنوع" عند المواطن أضعاف ما ينفق على صياغة العقل العلمي "الحقيقي والوهمي".

هنا أيضاً يجب أن ننتبه إلى ناحية في غاية الخطورة، هي أن العقل الاتصالي حتى ولو كانت طروحاته جذابة وجميلة ومحببة إلى النفس مثل تحقيق العدل وإلغاء الظلم، إلا أنها تبقى مجرد شعارات براقة ووهمية إذا لم تقترن بالعقل العلمي. أي علينا أن نتعلم باستمرار القوانين الموضوعية للوجود وللعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بحيث لا نقع في طرح طوباوي للعدالة يتعارض مع القوانين الموضوعية ولانجني منه إلا الفشل والخيبة. وإذا أردنا أن نصوغ هذه الأطروحة بشكل آخر فيجب ألا يوضع العقل الاتصالي بشكل معاكس للعقل العلمي. فقوانين الوجود لا تتغير من أجل نواظم الأخلاق والعدالة، ولا يمكن تطبيق أم الكتاب بشكل معاكس ومتعارض مع القرآن، لأن كل واحد منهما يتماشى مع الآخر ولايتعارض معه.

٣– إن عدم فهم نظرية الحدود في أم الكتاب لمئات من السنين، أي فهم حدود الله على أساس حدي لا حدودي، أوقع العقل العربي في مواقف حدية دائماً، أصبح معها هذا العقل لا يرى إلا الأبيض والأسود دون النظر إلى آلاف الاحتمالات من الألوان بين اللونين، وصار يعادي بشكل حدي ويصادق بشكل حدي، وابتعد كثيراً عن مفهوم الحل الوسط في كل الأمور، وعن مفهوم الديموقراطية وإجماع أكثرية الناس على التشريع المقترح والمدعم ببينات مادية إحصائية.

٤– لقد أثر هذا المفهوم في الوقوف على الحدود على أنها التشريع على منهج التعليم، فأصبح التعليم عبارة عن تلقين من المعلم وحفظ من الطالب أي امتحان للذاكرة فقط، وغاب الفكر النقدي غياباً شبه كامل لمئات من السنين. وفي هذا المجال أورد بيتين من الشعر لابن فارس ينتقد فيه ثقة الناس بمن يدعونهم الأعلام الثقاة ويدعو فيه إلى الفكر النقدي ويحذر من التقليد:

اسمع مقالة ناصح *** جمع النصيحة والمقه

إياك واحذر أن تكو *** ن من الثقات على ثقه

علماً بأن الفكر النقدي لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا من خلال نظام يقوم على حرية التعبير عن الرأي.

هكذا نرى أن أزمة الحرية كقيمة عليا أزمة مستعصية في العقل العربي قبل أن تكون في الأنظمة.

هنا يجب علينا وضع مفهوم للتخلف، لأنه كثر الحديث حول هذا المصطلح. فللتخلف برأينا نوعان:

١– تخلف نسبي عام للإنسانية جمعاء هو تخلف المعقولات عن المحسوسات وهو ما يسمى بالغيب الكلي، أي أن هناك كثيراً من قوانين الوجود وظواهره ما زالت مجهولة بالنسبة للجنس

الإنساني بشكل عام، وهذا التخلف لا يمكن إلغاؤه كلياً. لأن إلغاءه يعني أن الإنسان أصبح كامل المعرفة، ولكن الإنسانية تسير حتماً باتجاه مقارب لهذا الإلغاء دون الوصول إليه.

٢– تخلف نسبي خاص هو تخلف مجموعة من الناس عن مجموعة أخرى، وهذا التخلف عبارة عن تخلف المعقولات عن المحسوسات بالنسبة لمجموعة من الناس، بحيث أن هذه المحسوسات نفسها هي معقولات بالنسبة لمجموعة أخرى بسبب اختلاف المستوى المعرفي بين المجموعتين. وقد يظن البعض أن فتح معاهد البحث العلمي والجامعات في الدول المتخلفة هو الحل. أقول: هو جزء أساسي من الحل وليس الحل كله، حيث أن منهج التفكير العلمي المادي القائل إن التصديق سابق التصور بالنسبة للمعرفة الإنسانية، والذي يجب أن يكون من مسلمات كل فرد في المجتمع متعلم أم غير متعلم هو جزء أساسي آخر مع الجامعات ومعاهد البحث العلمي.

فالوطن العربي عبارة عن شعوب ما زالت متخلفة رغم كثرة الخريجين من الجامعات، والسبب أن الإنسان العربي المتعلم يعيش عقدة الانفصام بين ما تعلمه في الكتب والجامعات من علوم مختلفة وبين سلوكه اليومي في الحياة، حيث تختلف طرائق التفكير للحياة اليومية عن طرائق التفكير العلمي. وهذه المشكلة موجودة أيضاً عند الخريجين العرب من جامعات غير عربية.

مما سبق من شرحه في أزمة العقل عند العرب، هذا العقل الذي تشكل خلال قرون ابتداء من عصر التدوين، وهنا أقصد العقل الجمعي عند العرب، هذا العقل أصيب بالعجز عن إنتاج المعرفة بالرغم من عشرات الجامعات المنتشرة في الوطن العربي بالذات وألخصها بما يلي:

١ – المعرفة تحتاج إلى دقّة والعقل العربي عقل ترادفي، وبالتالي الدقة غير موجودة فيه، وإنما سحر اللفظ هو المهم لا دقة المعنى.

٢ – العقل العربي عقل قياسي، والعقل القياسي يحتاج إلى نسخة أصلية دائماً وبالتالي غير قادر على الإبداع، وهذه النسخة ثابتة عند هذا العقل.

٣ – العقل العربي عقل يبحث عن الحلال والحرام، المسموح والممنوع، ولايبحث عن الحقيقة، وهذا العقل يتناسب تماماً مع النظم الاستبدادية.

بينما العقل المبدع يبحث أولاً عن الحقيقة ويتناسب مع النظم الليبرالية.

هذا العقل تم تشكيله من قبل الفقهاء الذين رسخوا الترادف والقياس والحلال والحرام.

قد يقول قائل: ما قولك حول العلماء أمثال البيروني وابن زهر وابن الهيثم وابن سينا؟ أقول: هم أفراد عباقرة لم يساهموا في تشكيل العقل العربي، وليس لهم وجود في هذا العقل، وإنما نتشدق بأسمائهم فقط في الإعلام، علماً بأن المعلومات التي قدموها تجاوزها العالم منذ قرون.

خامساً: العروبة والإسلام

من خلال سياق هذا الكتاب تبين لي زيف الانفصام المصطنع بين مصطلحي العروبة والإسلام بالنسبة للعرب تحديداً، حيث أنني كعربي مسلم من أتباع الملة المحمدية، لم أشعر لحظة واحدة خلال حوالي ربع قرن بأن ما أكتبه يشكل انفصاماً بين العروبة والإسلام، بل العكس هو الصحيح، فقد بان لي هذا التلاحم الطبيعي بينهما، وبينت الأيام والأحداث زيف الانفصام المصطنع بينهما. كما أن عالمية الإسلام بينت أنه لا يوجد انفصام بين الإسلام وبين أي قومية أخرى غير العربية. فالمسلم السويدي عليه أن يبقى سويدياً بكل أعراف وطبائع أهل السويد، وعليه أن يتقيد فقط بحدود الله والوصايا. واعتقد أن القارئ استنتج لوحده من خلال قراءة هذا الكتاب بأن التطور والتقدم هما أساس العقيدة الإسلامية، وأن اليسر وراحة الناس، وتقديم الأدلة المادية، وإجماع الناس على التشريع، هما أساس السلوك والتشريع الإسلامي، ومن هنا سمي الإسلام "بالدين الحنيف" لأنه يمتاز بـ"الحنيفية السمحة" وأن الله رحم عباده ويسر عليهم أكثر من رحمة الوالدين لأولادهما وتيسيرهما عليهم.

قد يسأل سائل: إن الإسلام في شكله المعاصر المطروح في هذا الكتاب يختلف تماماً عن إسلام القرن السابع الميلادي. أقول: نعم، في المظهر وفي المحتوى أيضاً، وأضرب المثال التالي: إذا كتب عالم في نشأة الكون "الكوسمولوجيا" مقالة عن الانفجار الكوني وتطور المادة حتى أصبحت شفافة للضوء، أي حتى ظهر عنصر الهيدروجين، وهذه المقالة هي تأويل قوله تعالى {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} وقرأ هذه المقالة مؤمن من أتباع الرسول في القرن السابع ميلادي، فإنه لا يفقه شيئاً مما قرأ، ولايعلم أن هذه المقالة هي تأويل قوله تعالى {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} ولكن لو قرأها مؤمن متبع للملة المحمدية من أهل القرن الواحد والعشرين لديه المعارف العلمية لهذا القرن فإنه سيعلم أن هذه المقالة هي تأويل قوله تعالى {وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} لذا فإن الرابط المشترك بين الحالتين هو الوحي الموجود بين دفتي المصحف والمنزل من عند الله تعالى، أما فهمه فيختلف وفق السقف المعرفي لكل عصر ولكل مجتمع. والإسلام هو الدين العالمي الذي جاء رحمة للناس إلى يوم الدين، ويسع كل الملل الدينية بشرط الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. أما الفرق في فهمه بيننا وبين أسلافنا من أتباع الملة المحمدية هو أن المسلم من قبل، والآن، ومن بعد، يصلي كما صلى النبي (ص)، ويصوم كما صام، ويحج كما حج. لكن فهمهم للقرآن (النبوة) والرسالة بما جاء فيها من تشريعات يختلف عن فهمنا نحن، نظراً لتطور

مستوانا المعرفي عن مستواهم ولتغير شروط زماننا وظروف مجتمعاتنا والحياة كلية. لذا فقد كان من الطبيعي أن تفصل الشعائر عن السلطة وعن أي عمل سياسي أو اقتصادي.

مرة أخرى أتوقع أن يصدم القارئ بمحتويات هذا الكتاب، وماحواه من أفكار. لذا فإني أرجو من القارئ ألا يتسرع في الحكم علي، وعلى الكتاب وأطلب منه راجياً إعادة قراءة هذا الكتاب. كما أرجو من القارئ أن يعلم أن الدافع وراء هذا الكتاب الذي أعطيته زهرة شبابي، كان شدة ألمي مماوصل إليه العرب المسلمون من مهانة وذل وتخلف، حتى كادت تصبح كلمات ''العرب والمسلمين والتخلف'' من المترادفات. وكذلك خيبة الأمل من سذاجة الطروحات والسلوكيات التي يمارسها الكثيرون باسم الإسلام، وبشكل عام من سطحية الفكر العربي المعاصر الذي وصل إلى درجة العقم والجفاف. وعلى القارئ أن يضع نصب عينيه أنني بشر لا أدَّعي الكمال أبداً، ولكنني وضعت منهجاً علمياً في فهم التنزيل الحكيم، وأتمنى من القارئ أن يستوعبه ويطوره.

إننا الآن في القرن الحادي والعشرين الميلادي، ولاأعتقد أنه يوجد شيء عند العرب والمسلمين يشاركون به في مسيرة المعرفة الإنسانية، فكأنه كتب علينا ''حاشا الله'' أن نعيش عالة على العالم في السلع والأفكار. إنّ ما نعيشه الآن ليس قدرنا الإلهي ولكنه قضاؤنا الذي اخترناه بأنفسنا نتيجة جهلنا، وعدم وجود نظرية معرفية إنسانية لدينا.

إنني أرجو الله سبحانه أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن أكون من الذين استطاعوا أن يقدموا شيئاً إيجابياً لأمتهم وشعبهم. ولا أدَّعي الكمال في حياتي الشخصية، ولا أعيش حياة الناسكين. وأرجو أن أكون عند الله من الذين قال عنهم:

– {لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الزمر ٣٥).

– {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (آل عمران ٨).

– {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (هود ٨٨).

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

توصّل الدكتور شحرور في قراءته المعاصرة إلى أن التنزيل الحكيم يضمّ بين دفّتيه نبوة محمد (ص) كنبي، ورسالته كرسول. وآياته من هذه الزاوية تضمّ آيات النبوة التي تشرح نواميس الكون وقوانينه وقوانين التاريخ وأحداث الرسالات والنبوات (القصص) وتحتمل التصديق والتكذيب، وآيات الرسالة التي تشرح الأحكام والأوامر والنواهي وتحتمل الطاعة والمعصية.

نبذة عن المؤلف

د. محمد شحرور باحث ومفكّر سوري. حائز دكتوراه في الهندسة المدنية. بدأ بدراسة القرآن في العام 1970، ويعتبر اليوم مرجعاً أساسياً في العلوم القرآنية بعدما أوجد نهجاً جديداً وعلمياً لفهمها.

كتب أخرى للمؤلف

«نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي: أسس تشريع الأحوال الشخصية»، «دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم: المنهج والمصطلحات»، «أم الكتاب وتفصيلها: قراءة معاصرة للحاكمية الإنسانية، تهافت الفقهاء والمعصومين»، «تجفيف منابع الإرهاب»، «القصص القرآني: مدخل إلى القصص وقصّة آدم، الجزء ١»، «الكتاب والقرآن: رؤية جديدة»، «القصص القرآني: من نوح إلى يوسف، الجزء ٢»،»الإسلام والإنسان: من نتائج القراءة المعاصرة»، «الإسلام والإيمان: منظومة القيم»